مصر والشرق الأدنى القديم
(١٨)

المدن الكبرى
فى
مصر والشرق الأدنى القديم

الجزء الثانى
الشرق الأدنى القديم

الأستاذ الدكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦

تقديم

تحدثنا في «الجزء الأول» من هذا الكتاب (المدن الكبرى والمراكز الأثرية في مصر والشرق الأدنى القديم) - عن مصر.

ونتحدث في هذا «الجزء الثاني» من نفس الكتاب، عن المدن والمراكز الأثرية في «الشرق الأدنى القديم» - في بلاد العرب، وفي العراق القديم، وفي بلاد الشام (فلسطين - لبنان - سورية - شرق الأردن)، وفي السودان والمغرب القديم، ثم في إيران وآسيا الصغرى.

وسوف يرى القارئ - كما قلنا في الجزء الأول من هذه الدراسة - أن هناك من المدن التاريخيا القديمة ما تغيّر اسمه القديم، حتى نسيه الناس - أو يكادون - على أن هناك نوعاً آخر من المدن التاريخية، لم يحفظ له أهميته غير مكانته الدينية ومثالنا في ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف

وأما «مكة المكرمة»: حيث الحرم المكي الشريف، حيث الكعبة البيت الحرام، ومقام إبراهيم[1] وزمزم[2].

وفي مكة المكرمة، ولد سيد الأولين والأخرين - سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله، ﷺ وفيما نبيء، ومنها خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض - ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل، وإليها يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل الأجناس، وصدق الله العظيم، حيث يقول: «وأذن في الناس بالحج، يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق»[3].

والمدينة المنورة: مدينة الرسول - ﷺ - ودار الهجرة، التي نصرت الإسلام، وأعزت كلمة المسلمين، فاستحقت التكرين والتخليد، حتى يقوم الناس لرب

---

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٢) محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم ٢/ ١٢٧ - ١٣٣، يحيى حمزة كوشك: زمزم، طعام طعم، وشفاء سقم - جدة ١٩٨٣، وانظر: نيل الأوطار ٥/ ٨٦ - ٨٨، صحيح مسلم ٩/ ٦٣ - ٦٤، صحيح البخاري ٤/ ٢٢١، محمد بن علوى: في رحاب البيت الحرام - جدة ١٩٧٩.

(٣) سورة الحج: آية ٢٧.

العالمين، ثم شاءت إرادة الله - الكريم المنان، ذى الفضل العظيم - ولا راد لمشيئة - أن تعطى المدينة المنورة، مالم تعطه لغيرها من المدائن، وأن تخصها بميزة لا تتطاول إليها واحدة من مدائن الدنيا، حيث شرفت بأن تضم فى ثراها جثمان سيد الأولين والآخرين، جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ.

هذا إلى أن بالمدينة المنورة ثانى الحرمين الشريفين، فضلا عن أنها البلد الذى اختاره الله، ليكون أول عاصمة إسلامية فى التاريخ، تخرج منها جيوش النور، تحمل راية الإسلام، وهداية القرآن، إلى جميع أنحاء المعمورة.

ومسجد الرسول بالمدينة، أحد المساجد الثلاثة، التى لاتشد الرحال إلا إليها، (المسجد الحرام - المسجد النبوى الشريف - المسجد الأقصى)، هذا إلى أن الصلاة فى مسجد الرسول، خير ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام[1].

وفى مسجد سيدنا رسول الله - ﷺ وآله وسلم - بالمدينة المنورة «الروضة الشريفة» والتى هى روضة من رياض الجنة[2].

والقدس الشريف: هى المدينة الوحيدة فى العالم التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت - ومازال وستظل إن شاء الله أبداً - رمزاً للبشرية المتدينة، على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، فاليهود يقدسونها، لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية، ويقدسها المسيحيون لأنها موطن السيد المسيح، ومبعث هدايته، ولأ بها كنيسة القيامة التى يحجون إليها، لأن جثمان السيد المسيح الطاهر - فيما يعتقدون - قد

---

(١) أنظر صحيح البخارى ٢/ ٧٦، صحيح مسلم ٩/ ١٦٣ - ١٦٨، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٣/ ١١١ - ١٤١، تاريخ العرب القديم ٢/ ٢٥٢ - ٢٥٧.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٧٧، صحيح مسلم ٩/ ١٦١ - ١٦٣، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٣/ ١٣٨ - ١٤١، تاريخ العرب القديم ٢/ ٢٥٧ - ٢٦٢، الدكتور السيد المالكى: الذخائر المحمدية ص ٧٧ - ٨١، السمهودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٢/ ٤٢٦ - ٤٣٩، على الملا القارى: شرح الشفا ٢/ ١٦٣ - ١٦٥، القاضى عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٩١ - ٩٩.

دفن فى مكان هذه الكنيسة ثم رفع إلى السماء[1].

ويقدسها المسلمون لأنها أولى القبلتين، وبها ثالث الحرمين الشريفين[2]، ولأنها مسرى مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ- وصدق الله العظيم حيث يقول «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله»[3].

وعن أبى الدرداء، عن النبى - ﷺ- أنه قال «فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفى مسجدى بألف صلاة، وفى مسجد بيت المقدس بخمسمائه صلاة»[4].

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: البيت المقدس بنته الأنبياء، وسكنته الأنبياء، مافيه موضع شبر، إلا صلّى فيه نّبى أو قام فيه ملك»[5].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك كثيراً من عواصم الشرق القديم لايعرف عامة الناس عنها شيئاً، بل إن بعضاً من المثقفين لايكادون يعرفون عنها شيئاً ذا قيمة علمية، فماذا يذكر الناس عن: قرناو - شبوه - تمنع - صرواح، وكلها كانت عواصم لدول فى بلاد العرب (معين وحضر موت وقتبان وسبأ)، كانت يوما ما، ملء السمع والبصر.

وماذا يذكر الناس مثلا عن عواصم الآشوريين فى العراق القديم: أشور -

---

(١) لوقا ٢/ ٤١ - ٥٢، فيلب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ١/ ٣٨٧، عمر كمال توفيق: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية - ١٩٦٧، ص ٣٩ ثم قارن:
Sozomenus, bk, i, ch. 4 وكذا Eusebius, Bk, IX, ch. 5,2

(٢) صحيح مسلم ٥/ ٩ - ١١، صحيح البخارى ١/ ١١٠ - ١١١، ٦/ ٢٥، إرواء الغليل ١/ ٣٢٢، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١/ ٣٥٠ - ٣٥٤، سيرة ابن هشام ١/ ٤٠١، ابن كثير: السيرة ٢/ ٣٧٢ - ٣٧٣، التفسير ١/ ٢٨٦ - ٢٨٨.

(٣) سورة الإسراء: آية ١.

(٤) مجير الدين الحنبلى: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١/ ٢٩٩ الشيخ محمد محمود الفحام: المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٢.

(٥) مجير الدين الحنبلى: المرجع السابق، ص ٢١١.

كالح، «كار – توكلتي – تنورتا» – دور شاروكين – نينوى». وماذا يذكر الناس عن عواصم أسيا الصغرى، بل عن المغرب والسودان القديم. وبدهي أن هذا الأمر، إنما ينطبق على مدن ومواقع أثرية كثيرة، في مصر والشرق الأدنى القديم، لم نشأ أن نتبع فيها طريقة المعاجم التقليدية، وإنما اخترنا أن نسير فيها، طبقاً للتسلسل التاريخي لكل بلد على حدة -- قدر الإمكان – ومن ثم فقد قدمنا في كل جزء منها فهرست بالمدن والمواقع، حتى يستطيع القارئ الرجوع إلى مكان الموقع الذي يريده في الدراسة.

والله العلي الكريم، ذو الفضل العظيم، أسأل أن يكون في هذه الدراسة بعض النفع للقارئ المتخصص، فضلاً عن القارئ العادي.

«وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب»

الاسكندرية في ٢٥ رمضان ١٤١٩هـ

١٣ يناير ١٩٩٩

دكتور

محمد بيومي مهران

بِسْمِ للهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين

سيدنا ومولانا محمد وآله الطيبين الطاهرين

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد

الفصل الأول

فى شمال الجزيرة العربية

(١) مكة المكرمة

(١) موقع مكة الجغرافى وأهميته:

تقع مكة المكرمة فى منتصف الطريق السالك بين اليمن والشام، وعلى مبعدة ٨٠ كيلو من البحر الأحمر، فى واد غير فسيح من أودية جبال السراة تحيط به الجبال من كل جانب، وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ، يصله أحدها بطريق قريب من البحر الأحمر، عند مرفأ «الشعيبة» - مرفأ مكة فى عصر النبوة وما قبله، وبعده، حتى عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥ هـ/ ٦٤٤ - ٦٥٦م)، حيث بنى ميناء جدة - وأما المنفذ الثالث، فيصل المدينة المقدسة، بالطريق المؤدى إلى فلسطين[١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الأبحاث العلمية الحديثة، إنما قد أثبتت أن «الكعبة المشرفة» فى قلب مكة المكرمة، إنما هى «مركز الأرض» ففى الخامس عشر من شهر يناير من عام ١٩٧٧م، أعلن الأستاذ الدكتور حسين كمال، رئيس قسم الهندسة المدنية فى كلية الهندسة - جامعة عين شمس، فى حديث له نشر فى صحيفة «الأهرام» بأنه توصل إلى ما يشبه النظرية الجغرافية التى تؤكد أن «مكة المكرمة» فى مركز اليابس من الكرة الأرضية - أى «مركز الأرض».

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا، أنه من المعروف - تاريخياً ودينياً، قبل الإسلام، وفى الإسلام - أن «الحجر الأسود» هو علامة بدء طواف الطائفين حول الكعبة، وأن هؤلاء الطائفين إنما يبدأون طوافهم منه، جاعلين الحجر الأسود عن أيسارهم، ويسيرون هكذا فى سائر طوافهم حول الكعبة، حتى يختموا طوافهم

(١) أحمد إبراهيم الشريف: الحجاز قبيل ظهور الإسلام، ص ٢٧ (الجزيرة العربية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين - الجزء الأول - الرياض ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م).

بالحجر الأسود أيضاً، فى إطار مسيرتهم، وهو على أيسارهم - ما عدا الحمس -.

ومن ثم فإذا قارنا بين نظرية مركزية الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة للأرض، وبين عملية الطواف الذى يمشى فيه الطائفون صوب اليسار، وأضفنا إلى ذلك دورة الكرة الأرضية العامة من هذه الناحية، فنكون حينئذ قد أدركنا جزءاً كبيراً من سر الطواف صوب اليسار، خلافاً للتيامن، الذى عليه آداب الإسلام، فى الأعمال والأحوال ومختلف الشئون الإسلامية العامة.

ولعلنا الآن نفهم الحكمة الإلهية من اختيار مكة المكرمة، مقراً لبيت الله الحرام، ومنطلقاً للرسالة الخاتمة - رسالة سيد محمد ﷺ - وهكذا كانت مكة المكرمة، مكاناً مقدساً، شرف بمولد - وكذا مبعث - النبى الخاتم، سيدنا ومولانا وجدنا، محمد رسول الله - ﷺ - ومهبطاً للوحى، ونقطة انطلاق الدعوة الإسلامية إلى العالم أجمع[٢]، حيث بعثه ربه إلى الناس كافة، قال تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً»[٣].

وهكذا أصبحت مكة المكرمة - بموقعها المتوسط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب - محطة صالحة لطرق القوافل الطوال، وهكذا أصبحت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ولمن يعود بتجارة من الشام يحملها إلى شواطئ جنوب الجزيرة العربية.

والواقع أن موقع مكة الممتاز جغرافياً، إنما كان سبباً فى أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التى ترد من الجنوب تريد الشام، أو القادمة من الشام تريد اليمن، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادى، كتب للقرشيين

---

(٢) محمد بيومى مهران، الحضارة العربية القديمة، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٣٠٣، عبد القدوس الأنصارى، الكعبة، (الجزيرة العربية قبل الإسلام - الرياض، ١٩٨٤، ص ١٢٥)، النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) سورة سبأ آية ٢٨.

نجحا بعيد المدى فى احتكار التجارة فى بلاد العرب، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التى كانت تربط اليمن بالشام من ناحية، وبالعراق من ناحية أخرى[٤].

(٢) أسماء مكة المكرمة:

لاريب فى أن مكة المكرمة، إنما هى أهم مواضع الحضر فى الحجاز الشريف، ولاريب كذلك فى أنها إنما ترجع – فى نشأتها الأولى – إلى عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام (١٩٤٠ – ١٧٦٥ ق. م)، وولده إسماعيل عليه السلام (١٨٥٤ – ١٧١٧ ق. م)[٥]، وأن سكانها إنما كانوا من أبناء اسماعيل عليه السلام، إلى جانب قبائل عربية أخرى، لم يقدم لنا المؤرخون عنها معلومات دقيقة – أو حتى شبه دقيقة كالعماليق وجرهم وخزاعة[٦]، وأن الاسماعيليين – أو العدنانيين كما يسميهم المؤرخون المسلمون – كانوا يتكلمون اللغة العربية التى لم تصلنا بها نقوش مكتوبة، ربما بسبب عدم وجود خط متميز لهم قبل الإسلام – كخط المسند فى الجنوب – وربما لأن طبيعة السكان فى الحجاز لم تكن تميل إلى الكتابة[٧]، وإن وجدت كتابات لغير الإسماعيليين فى الحجاز، كالثموديين مثلاً.

---

(٤) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٥٤، وكذا:
S. A. Huzayyin, Arabia and The Near East, Cairo, 1942, p. 142 - 143 W. M. Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p. 3.
وفى الترجمة العربية (محمد فى مكة – تعريب شعبان بركات) ص ١٨ – ٢٠.

(٥) أنظر: (محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٢١ – ١٢٧، ١٩٥ (الرياض ١٩٨٠).

(٦) أنظر ابن قتيبة: المعارف ص ٣١٣، الأغانى ١٩/ ٩٤)، وانظر عن العماليق (محمد بيومى مهران: اسرائيل ٢/ ٥٦٣ – ٥٧١).

(٧) النويرى ٢/ ٢٧٨، كشف الظنون ١/ ٢٥ – ٢٦، أصل الخط العربى ص ٧، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية ١/ ٧٧، وكذا: E. Gibbon, the decline and fall of the Roman Empire, p. 220.

ويختلف المؤرخون فى اشتقاق كلمة «مكة»، فذهب فريق إلى أنها إنما سميت مكة كذلك، لأنها تمك الجبارين، أى تذهب نخوتهم، وذهب فريق ثان إلى أنها إنما تقع بين جبلين مرتفعين عليها، وهى فى هبطة بمنزلة المكوك، وذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة مشتقة من «أمتك» من قولهم: أمتك الفيصل ضرع أمه، إذا مصه مصاً شديداً، ولما كانت مكاناً مقدساً للعبادة فقد امتكت الناس، أى جذبتهم من جميع الأطراف[8]، إلى غير ذلك من التفسيرات المألوفة عند الاخباريين فى تفسير الأسماء التى لاعلم لهم بها.

غير أن إسم مكة لما كان سابقاً لتفسيرات الإخباريين هذه، ولما كان الجنوبيون قد سكنوا مكة مع الإسماعيليين، فإن هناك من يرجح أن الاسم إنما أخذ من لغة الجنوب، مستنداً إلى البيت الحرام، فمكة أو «مكرب» – فى رأى هذا الفريق من العلماء – كلمة يمنية مكونة من «مك» و «رب»، ومك بمعنى بيت، فتكون «مكرب» بمعنى «بيت الرب» أو «بيت الإله»، ومن هذه الكلمة أخذت مكة إسمها، – بكة بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب – ويرى «بروكلمان» أنها مأخوذة من كلمة «مقرب» العربية الجنوبية، ومعناها «الهيكل»[9].

هذا وقد أطلق القرآن الكريم على مكة عدة أسماء، منها «بكة» لقول الله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين»[10]، وهنا يحاول الإخباريون أن يفرقوا بين مكة وبكة، فالأولى هى القرية كلها، والثانية

---

(٨) ياقوت ١/ ١٨١ – ١٨٢، ابن هشام ١/ ١٢٥– ١٢٦، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٣٩١.

(٩) أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٩٧ – ٩٨، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ١/ ٣٣، وكذا:

Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24.

(١٠) سورة آل عمران: آية ٩٦، ويروى أن رجلاً سأل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، أهو أول بيت، قال لا، وقد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً، وأول من بناه إبراهيم عليه السلام (تفسير الكشاف ١/ ٤٤٦، تفسير الطبرى ٣/ ٦٩، ٧/ ١٩، ثم قارن ٧/ ٢٠، البداية والنهاية ٢/ ٢٩٩).

موضع الكعبة البيت الحرام، أو أن «بكة» هي موضع البيت الحرام ومكة ما سوى ذلك»[11].

كذلك أطلق القرآن على مكة «أم القرى» في قوله تعالى «ولتنذر أم القرى ومن حولها»[12]، ولعل هذه التسمية القرآنية إنما تدل على أن مكة إنما هي أعظم مدن الحجاز، ولأنها شرفت ببيت الله، أول بيت وضع للناس في الأرض، فيه الهدى، وفيه البركة، وفيه الخير الكثير، جعله الله مثابة للناس وأمنا، وهو كذلك للأحياء جميعاً، ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض جميعاً - ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل - وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل البقاع، ومن كل الأجناس[13]، وصدق الله العظيم حيث يقول «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»[14].

وهناك الاسم القرآني «البلد»، لقول الله تعالى: «لا أقسم بهذا البلد، وأنت حلٌ بهذا البلد»[15] وهناك «البلد الأمين» لقول الله تعالى: «والتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين»[16].

هذا وقد أورد أصحاب التواريخ والمعاجم اللغوية ومعاجم البلدان، أسماء كثيرة للبلد الحرام[17]. وقد نظم «القاضي أبو البقاء بن الضياء الحنفي» سبعة أبيات،

---

(11) الأزرقي ١/ ١٨٨، تفسير المنار ٤/ ٧، تفسير الطبري ٧/ ٢٣ - ٢٧، تفسير البيضاوي ١٧٢/١.

(12) سورة الأنعام: آية ٩٢، سورة الشورى: آية ٧.

(13) في ظلال القرآن ٧/ ١١٤٨، ٣١٤٢/٢٥.

(14) سورة الحج: آية ٢٧.

(15) سورة البلد: آية ١ - ٢

(16) سورة التين: آية ١ - ٣.

(17) انظر (معجم البلدان لياقوت الحموي ١/ ٤٧٥، ٥/ ١٨١ - ١٨٢، الفاسي: العقد الثمين١/ ٣٥-٣٦، سيرة ابن هشام ١/ ١٢٥ - ١٢٦، النويري: نهاية الأرب١/ ٣١٣ - ٣١٤، القاموس المحيط ١/ ٢٣٥، ٢٣٩، ٣/ ٩٧، ٣١٩، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١٨، صبح الأعشى ٤/ ٢٤٨، بلوغ الأرب١/ ٢٢٨، تاريخ الخميس ص ١٢٥، تفسير القرطبي ٢٠/ ٥٩ - ٦٠، تفسير البيضاوي ٣/ ٥٥٩، تفسير الفخر الرازي ٣١/ ١٨٠، تفسير الطبري ٧/ ١٩ - ٢٦، ٣٠/ ١٩٣ - ١٩٤).

جمع فيها أسماء مكة المكرمة نحو الثلاثين اسماً، نقلها «ابن ظهيرة» في كتابه «الجامع اللطيف»، وهي:

لمكة أسماء ثلاثون عددت	ومن بعد ذاك اثنان منها اسم بكة
صلاح وكوثى والحرام وقادس	وحاطمة البلد العريش بقرية
ومعطشه أم القرى رحم باسة	ونساسة رأس بفتح الهمزة
مقدسة والقادسة ناشة	ورأس وتاج أم كوثى كبيرة
سبوحة عرش أم رحمن عرشنا	كذا حرم البلد الأمين كبلدة
كذاك اسمها البلد الحرام لأمنها	وبالمسجد الأسنى الحرام تسمت
وما كثرة الأسماء إلا لفضلها	حباها به الرحمن من أجل كعبة[١٨]

(٣) نشأة مكة المكرمة:

لعل أقدم ذكر لمكة البلد الحرام في النصوص القديمة، إنما يرجع إلى القرن الثاني الميلادى، إذ يحدثنا الجغرافى اليونانى المتمصر - بطليموس - (١٢١ - ١٥١م) من بطلمية (المنشاة الحالية بمحافظة سوهاج)[١٩]، عن مدينة دعاها «مكربة» (ماكورابا Macoraba)، رأى العلماء أنها المدينة المقدسة - مكة المكرمة[٢٠].

هذا ويذهب «أوجست ميلر» وغيره، إلى أن المعبد الذى ذكره «ديودور الصقلى» (القرن الأول ق. م) فى أرض قبيلة عربية، دعاها (Bizomeni) إنما يعنى به «بيت مكة»، أمر غير مقبول، فهو يقع بعيداً عن مكة المكرمة فى «حسمى» فى مكان دعاه «ألويس موسل» باسم «عوافة»، حيث بنت قبيلة ثمود،

---

(١٨) الأزرقى: أخبار مكة ١/ ٢٨٣ (مكة المكرمة ١٩٨٣).

(١٩) انظر (محمد بيومى مهران: مصر ١/ ٨٧ - ٨٨).

(٢٠) انظر:

Ptolemy, VI, p. 7, 32.

وكذا. Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24.

فيما بين أخريات عام ١٦٦م، وبداية عام ١٦٩م، معبداً هناك[٢١]، وربما كان هذا المعبد هو الذى أشار إليه «ديودور» على أنه المعبد الذى يقدسه العرب[٢٢].

وليس هناك إلى سبيل من ريب، فى أن المدينة المقدسة، إنما ترجع إلى ما قبل عصر بطليموس (١٢١ - ١٥١م)، حيث كتب كتابه «الجغرافيا» والمعروف باسم «جغرافية بطليموس» حوالى عام ١٥٠م[٢٣].

ومن ثم فقد ذهب فريق من العلماء إلى أن مكة المكرمة، إنما هى سابقة لكتابة أسفار التوراة (العهد القديم)[٢٤]، فإنما هى «ميشا» المشار إليها فى سفر التكوين[٢٥]، وهى «ميشا» التى يرى الرحالة «برتون» أنها كانت بيتاً مقصوداً لعبادة أناس من الهند، ويقول الرحالة الشرقيون أنها كانت كذلك بيتاً مقصوداً للصابئين، الذين أقاموا فى جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون[٢٦].

على أنه من الغريب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن تأسيس المدينة المقدسة، إنما كان فى منتصف القرن الخامس الميلادى[٢٧]، ومن ثم فإنه

---

(٢١) أنظر عن معبد العوافة:

Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 15.

وكذا: J. B. philby, The Land of Middian, MEG, 9, 1955, p. 127 F.
Gerald De Gaury, op. cit., p. 12.

وكذا: BIOR, 15, 1958, p. 8 - 9.

(22) Gerald De Gaury, op. cit., p. 12.

وكذا: C. H. Oldgather, Diodorus Siculus, Bibliotheca Book, III, XXXI.

(٢٣) أنظر:

Ptolemy, Georgraphia, Edited by C. F. Nobble, 3 Vols 1843 - 1845.

(٢٤) أنظر عن تاريخ كتابة أسفار التوراة (محمد بيومى مهران: اسرائيل، الجزء الثالث، التوراة، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١٨ - ٩٦).

(٢٥) تكوين ١٠/ ٣٠.

(٢٦) عباس العقاد: مطلع النور، ص ١١٣.

(٢٧) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ١/٤٥، صبح الأعشى، ٤/ ٢٥٠.

يتأخر بتاريخها حوالى ثلاثة وعشرين قرناً، لسبب لا أدريه، وإن كان يخيل إلى أنه اعتبر تاريخ مكة لايبدأ إلا بقصى بن كلاب، الذى حدد له القرن الخامس الميلادى[٢٨]، وطبقاً لرواية الإخباريين التى ذهبت إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى أمرها «قصى بن كلاب» ذلك لأن جرهم وخزاعة - فيما يزعمون - لم يكونوا براغبين فى إقامة بيوت بجوار بيت الله الحرام[٢٩]، وكأنما يريد هؤلاء الإخباريون أن يقولوا لنا أن مكة ظلت على بداوتها، منذ أقام بها اسماعيل، عليه السلام، فى القرن التاسع عشر ق. م، وحتى أصبح أمرها بيد «قصى بن كلاب» فى القرن الخامس الميلادى، وتلك مبالغة - فيما أظن - غير مقبولة.

هذا وقد ذهبت آراء أخرى إلى أن تاريخ مكة، إنما يرجع إلى القرن الأول ق.م، إعتماداً على رواية «ديودور الصقلى» - الآنفة الذكر - ورغم أن ديودور لم يذكر تاريخ واسم المعبد، إلا أن أصحاب هذا الاتجاه إنما رأوا أن وصف ديودور للمعبد بأنه كان محجة للعرب جميعاً، لاينطبق إلا على الكعبة المشرفة[٣٠]، ولكن «ديودور» لم يحدد لنا بدء سكنى المدينة المقدسة، فضلاً عن تحديد تاريخ بناء المعبد نفسه، ومن ثم فربما اعتمد المؤرخون فى تحديدهم للقرن الأول ق. م، كبداية لسكنى مكة، على أنه العصر الذى عاش بعده ديودور الصقلى.

ويذهب «دوزى» إلى أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى أيام داود عليه السلام، حيث أقام بنو شمعون بن يعقوب - والذين يسميهم الإخباريون جرهم - الكعبة[٣١]، فى القرن العاشر ق.م[٣٢]، وتلك أكذوبة كبرى لأسباب منها (أولاً)

(٢٨) حسن إبراهيم: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢٩) تاريخ اليعقوبى، ١/ ١٩٧.

(٣٠) جواد على ٤/ ١٢، وكذا: R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, p. 13.

وكذا: E. Gibbon, op. cit., p. 50.

وكذا: Caussin de Perceval, op. cit., I, p. 174.

(31) R. Dozy, op. cit., p. 15.

(٣٢) انظر عن تاريخ داود، كتابنا اسرائيل، ص ٤١٧ - ٤١٨.

أن قبيلة شمعون الإسرائيلية لم تهاجر أبداً إلى مكة، وإنما كل ما جاء عنها - وطبقاً لرواية التوراة نفسها [٣٣]- أنها هاجرت على أيام حزقيا ملك يهوذا (٧١٥ - ٦٨٧ ق.م) إلى الجنوب الغربى من واحة معان، ثم تابعت سيرها حتى نهاية الجنوب الغربى لجبل سعير، حيث قضوا على بقايا ضعيفة، أو جيوب صغير للعماليق هناك[٣٤]، ومنها (ثانياً) أن قبيلة شمعون كانت من أضعف القبائل الإسرائيلية حتى عشية موت سليمان، عليه السلام، فى عام ٩٢٢ ق.م، وانقسام الدولة بعد ذلك مباشرة، إلى يهوذا وإسرائيل، ويكاد يجمع المؤرخون اليهود أنفسهم على أن قبيلة شمعون إنما كانت دائماً وأبداً تعيش على هامش القبائل الإسرائيلية، وأنها أبداً لم تحتل المكانة التى تجعلها تقوم بدور مستقل فى العصر التاريخى الإسرائيلى[٣٥]، فضلاً عن أن تقوم بهجوم ساحق على بلاد العرب وتستولى على مكة.

ومنها (ثالثاً) أن التوراة نفسها تكاد تتجاهل سبط شمعون، دون غيره من أسباط اسرائيل، ربما لضآلة شأنه، حتى أنها لاتكاد تتعرض لذكر هذا السبط، إلا عند دخول بنى إسرائيل أرض كنعان[٣٦]، وإلا بعد طلب من يهوذا[٣٧]، ثم مرة أخرى، عند رحيله من جنوب يهوذا إلى واحة معان، فى أخريات القرن الثامن وأوائل القرن السابع ق. م، كما أشرنا من قبل، مما دفع بعض الباحثين إلى أن يذهبوا بعيداً، فيرون أن سبط شمعون لم يكن له وجود فى عالم الحقيقة[٣٨].

ومنها (رابعاً) أن هذا الرأى إنما يؤمن بغير حدود بما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن الخليل عليه السلام، لم يذهب إلى الحجاز، وبالتالى لم يقم

---

(٣٣) أخبار أيام ثان ٤ ٤١ - ٤٣.

(٣٤) الويس موسل: شمال الحجاز، ص ٥ - ٩، وكذا:
D. S. Margoliouth, op. cit., p. 51.

(35) M. Noth, The History of Israel, p. 23.

(٣٦) يشوع ١٩: ١ - ٩.

(٣٧) قضاة ١: ٣.

(38) C. F. Burney, Israel's Settlement in Canaan, p. 37 - 58.

مع ولده اسماعيل ببناء الكعبة، وهو زعم لايعتمد إلا على التعصب ضد العرب، وعلى معارضة الحقائق التاريخية، فضلاً عما جاء في القرآن الكريم بشأن هذه الأحداث الثابتة[٣٩]، ومنها (خامساً) أنه يتأخر بتاريخ مكة المكرمة قرابة قرون تسعة.

وهناك رواية اخبارية يزعم أصحابها أن العماليق إنما كانوا يعيشون في مكة والمدينة وبقية مدن الحجاز، وأنهم قد عاثوا في الأرض فساداً، ومن ثم فقد أرسل إليهم موسى، عليه السلام، حيشاً قضى عليهم، وسكن اليهود المنطقة بدلاً عنهم[٤٠] ولاريب في أن هذا زعم كذوب من أساسه - الأمر الذى سوف نناقشه بالتفصيل عند الحديث عن المدينة المنورة - وعلى أي حال فإن موسى إنما كان يعيش في القرن الثالث عشر ق.م، وأنه خرج بالإسرائيليين من مصر حوالى عام ١٢١٤ ق.م، كما حددنا ذلك في كتابنا اسرائيل[٤١].

والرأى عندى أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ذلك أننا نعرف - تاريخياً ودينياً - أن الخليل عليه السلام، قد أتى بولده اسماعيل وزوجه هاجر من فلسطين، وأسكنهما هناك في هذه البقعة المباركة[٤٢]، طبقاً لصريح القرآن الكريم، حيث حيث يقول «ربنا إنى اسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة

---

(٣٩) انظر كتابنا اسرائيل، ص ١٨٣- ١٨٩، وكتابنا «دراسات في التاريخ القرآني»، الفصل الرابع، من الجزء الأول ص ١٨١ - ٢٣٥.

(٤٠) جواد على ٤/ ١٣، الأعلاق النفسية، ص ٦٠ وما بعدها.

(٤١) أنظر (محمد بيومى مهران) اسرائيل ٣٥١/١ - ٤٥٦، وأنظر طبعة ١٩٩٩ ص ٢٥٩ - ٤٤٢.

(٤٢) تاريخ الطبرى ١/ ٢٥١ - ٢٥٩، ابن الأثير ١/ ١٠٢ - ١٠٥، ابن كثير ١/ ١٥٤ - ١٥٤، المقدسى ٣/ ٦٠، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٦ - ٣٧، شفاء الغرام ٣/٢، تاريخ الخميس ص ١٠٦، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٥، تفسير روح المعانى ١٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧، تفسير الطبرى ١٣/ ٢٣٠ - ٢٣٣، تفسير الفخر الرازى ١٩/ ١٣٦، الأزرقى ١/ ٥٤ - ٥٦.

من الناس[٤٣] تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»[٤٤].

والتاريخ يحدثنا أن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قد فقد الأمل فى إيمان القوم فى العراق القديم - بعد المناظرة التى جرت بينه وبين ذلك الذى وصفه القرآن بأنه الذى آتاه الله الملك[٤٥] - فإن الله لايهدى القوم الظالمين.

وهكذا اتجه الخليل عليه السلام، من بلده «حاران» (حران) - وتقع على نهر بلخ، على مبعدة ٩٦ كيلا إلى الغرب من تل حلفا - إلى كنعان. ويقيم الخليل عليه السلام، ما شاء الله له أن يقيم فى أرض كنعان، ثم يرحل عنها - لأسباب كثيرة، لاريب أن أهمها الدعوة إلى الله تعالى[٤٦] - صوب أرض الكنانة الطيبة، ويرجح العلماء - أو يكادون - أن وصول أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، إلى مصر، إنما كان على أيام الأسرة الثانية عشرة المصرية (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق.م)[٤٧].

ثم يعود أبو الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - إلى فلسطين مرة أخرى، وقد تزوج فى مصر من السيدة هاجر[٤٨]، رضوان الله عليها، ويقيم فى فلسطين،

---

(٤٣) تذهب كتب التفسير إلى أن الله سبحانه وتعالى لو قال «أفئدة الناس» ولم يقل «أفئدة من الناس»، لازدحم عليهم الفرس والروم والناس كلهم، ولحجت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال «أفئدة من الناس» فاختص به المسلمون (انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٢، تفسير البيضاوى١/ ٥٣٣، تفسير القرطبى ٩/ ٣٧٣، التفسير الكبير للفخر الرازى ١٩/ ١٣٧، تفسير النسفى ٣/ ٢٦٤، تفسير روح المعانى ١٣/ ٢٣٨ - ٢٣٩، تفسير الطبرى ١٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٤٤) سورة إبراهيم: اية ٣٧، وانظر: تفسير روح المعانى ١٣/ ٢٣٦ - ٢٤١، مجمع البيان للطبرى ١٣/ ٢٢٤ - ٢٣٠، تفسير الطبرى ١٣/ ٢٢٩ - ٢٣٥، تفسير ابن كثير ٤/ ١٤١ - ١٤، تفسير الكشاف ٢/ ٣٨٠.

(٤٥) انظر (محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - بيروت ١٩٨٨، ص ١٤٧ - ١٥٦)

(٤٦) انظر عن هجرات إبراهيم عليه السلام (محمد بيومى مهران: اسرائيل ١/ ٨٢ - ١٣٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٢٧ - ١٥٩).

(٤٧) انظر (محمد بيومى مهران: مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٤٣٠ - ٤٣٦)

(٤٨) انظر عن السيدة هاجر (محمد بيومى مهران اسرائيل ١/ ١٧٥ - ١٨٤)، وانظر طبعة ١٩٩٩، ص ١٦٤ - ١٧١.

حيناً من الدهر - شهوراً وربما سنين عدداً - ثم يتجه إلى أرض الحجاز الشريف، بولده إسماعيل، وزوجه هاجر[٤٩].

هذا ويروى البخارى عن «سعيد بن جبير» (٤٥ - ٩٥هـ/ ٦٦٥ - ٧١٤م) عن «عبد الله بن عباس»[٥٠] (٣ ق. هـ/ ٦١٩ م - ٦٨هـ/ ٦٨٧م) قال: أول ما اتخذ النساء المِنْطَقَ من قبل، أم اسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها اسماعيل - وهى ترضعه - حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم اسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب، وتتركنا بهذا الوادى، الذى ليس فيه أنيس ولاشىء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لايتلفت إليها، فقالت له: أ الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لايضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية، حيث لايرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات[٥١]، ورفع يديه، فقال: «ربنا إنى أسكنت من

---

(٤٩) أنظر (محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٣٨ - ١٥٩)

(٥٠) أنظر عن ابن عباس (طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦٥ - ٣٧٢ ط بيروت حلية الأولياء ١/ ٣١٤ - ٣٢٩، طبقات الفقهاء للشيرازى ص ١٨ - ١٩، تذكرة الحفاظ للذهبى، ص ٤٠- ٤٢، نكت الهيمان للصفدى، ص ١٨٠ - ١٨٢، تهذيب التهذيب لابن حجر ٥/ ٢٧٦ - ٢٧٩، الأعلام للزركلى ٤/ ٢٢٨، الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٣٣٠ - ٣٣٤، الاستيعاب لابن عبد البر ٢/ ٣٥٠ - ٣٥٧، فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربى ١/ ٦٣ - ٦٩، وفيات الأعيان ٣/ ٦٢ - ٦٩، شذرات الذهب ١/ ٧٥ - ٧٦).

(٥١) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٥٤ - ١٥٧، قصص الأنبياء ١/ ٢٠٣، تفسير القرطبى ٣٥٩٧، ٣٥٩٨، صحيح البخارى ٤/ ١٧٢ - ١٧٧.

ذريتي بوادٍ غيرَ ذى زرعٍ عند بيتكَ المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات، لعلهم يشكرون»[٥٢].

وسرعان ما فرغ الطعام والماء، فعطشت هاجر، وعطش وليدها، وراح يتلبط، ونظرت إليه، وهو يتلوى من العطش، فأحست نياط قلبها يتمزق وكاد عقلها أن يطيش، وراحت تسعى بين الصفا والمروة، تتلهف على رؤية أحد ينقذ وليدها من الموت عطشاً، حتى إذا ما أتمت السعى سبع مرات، عادت إلى اسماعيل، فإذا الماء قد ظهر عند قدميه، فجعلت تخوضه فى فرح، وتغرف الماء فى سقائها، وأرضعت وليدها، وإذا بملك عند زمزم يقول لها: لاتخافى الضيعة، فإن هذا بيت الله الحرام، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لايضيع أهله»[٥٣].

وهكذا كتب الله الرؤوف الرحيم لإسماعيل وأمه النجاة، وكان السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله، وصدق عز من قال: «إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما، ومن تطوع خيراً، فإن الله شاكرا عليم»[٥٤]، ويروى ابن عباس - حبر الأمة، وترجمان القرآن - عن سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله (ﷺ) قوله: «فلذلك سعى الناس بينهما»[٥٥].

ولست أدرى: هل كان يدور بخلد جدتنا العظيمة، أم اسماعيل، عليهما

---

(٥٢) سورة إبراهيم: آية ٣٧، وانظر: تفسير روح المعانى ١٣/ ٢٣٦ - ٢٤١، تفسير السعدى ٤/ ٦٩ - ٧٣، تفسير الطبرى ١٣/ ٢٢٩ - ٢٣٥، الطبرسى ١٣/ ٢٢٤ - ٢٣٠، تفسير ابن كثير ٢/ ٨٣٧، تفسير الكشاف ٢/ ٣٨٠، فى ظلال القرآن ٤/ ٢١٠٩ - ٢١١٠، صفوة التفاسير ٢/ ١٠٠، زاد السير ٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨، تفسير النسفى ٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤، تفسير القرطبى، ص ٣٥٩٧ - ٣٦٠٣.

(٥٣) معجم ياقوت ٣/ ١٤٨ - ١٤٩، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٦، شفاء الغراء ٢/ ٣ - ٤، المقدسى ٣/ ٦٠ - ٦٢، الأزرقى ١/ ٥٤ - ٥٥، ٢/ ٣٩ - ٤٠، وانظر: القصة كاملة فى: صحيح البخارى ٤/ ١٧٢ - ١٧٩ (دار الحديث - القاهرة).

(٥٤) سورة البقرة: آية ١٥٨.

(٥٥) صحيح البخارى ٤/ ١٧٣.

السلام، أن ملايين المسلمين على مر السنين، سوف يسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط، تخليداً لذكرى ما كان فى ذلك السعى من خير وبركة[٥٦].

ويمر نفر من «جرهم» - أو من العماليق فى رواية أخرى - بوادٍ قريبٍ من مكة، ويعرفون بأمر «زمزم»، ثم لم يلبثوا إلا قليلاً، حتى يعرضوا على السيدة الجليلة - أم إسماعيل - أن يقيموا فى جوارها على أن يكون الماء ماءها، فأذنت لهم، وشب اسماعيل بينهم، وتعلم العربية منهم - فضلاً عن المصرية التى أخذها عن أمه - ثم تزوج بواحدة من بناتهم[٥٧]، وإن كانت التوراة إنما تذهب إلى أن هاجر قد أخذت لولدها اسماعيل زوجة من أهلها، من مصر[٥٨].

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن هناك من المؤرخين المسلمين من تنبه إلى الفارق بين لغة قريش - لغة القرآن الكريم - ولغة عرب الجنوب، أى بين لغة العدنانيين ولغة القحطانيين، فلو كان اسماعيل قد تعلم العربية من «جرهم» لكانت لغته موافقة للغتهم، أو لغة غيرهم ممن نزل مكة، فضلاً عن أن منزلة «يعرب» عند الله، ليست بأعلى من منزلة اسماعيل، عليه السلام، كما أن منزلة «قحطان» ليست بأعلى عند الله من منزلة إبراهيم، خليل الرحمن، وأبى الأنبياء، حتى يمنع اسماعيل فضيلة اللسان العربى، التى أعطيت ليعرب بن قحطان[٥٩]، ومن ثم فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن إسماعيل إنما كان أول من ألهم هذا اللسان العربى المبين[٦٠]، بل أن هناك من يذهب إلى أن قحطان

---

(٥٦) التفسير الكبير للفخر الرازى ١٩/ ١٣٦، تفسير القرطبى ٩/ ٣٦٩ - ٣٧٠، تفسير الطبرى ١٣/ ٢٣٠ - ٢٣٢، شفاء الغرام ٢/ ٣ -٦، ١٦، مروج الذهب ٢/ ٤٦ - ٤٧، ابن كثير: قصص الأنبياء ١/ ١٠٥، الأزرقى: أخبار مكة ٢/ ٤٠.

(٥٧) صحيح البخارى ٤/ ١٧٤، الكامل لابن الأثير ١/ ١٠٣ - ١٠٤، مروج الذهب ٢/ ٤٦ - ٤٧، تاريخ الطبرى ١/ ٢٥٨، تفسير الطبرى ١٣/ ٢٣٠، تفسير البيضاوى ١/ ٥٣٣، تفسير الألوسى ١٣/ ٢٣٧، تفسير القرطبى ٩/ ٢٧٤، الأزرقى ١/ ٥٧، ٢/ ٤٠، شفاء الغرام ٢/٤، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٧، ٣٣١، ٣٣٢، الإكليل ١/ ٩٨ - ١٠٢.

(٥٨) تكوين ٢١/ ٢١.

(٥٩) مروج الذهب ٢/ ٤٦.

(٦٠) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٨٦، تاريخ الخميس ص١١٠، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٢١، لسان العرب ٢/ ٧٥.

نفسه من ولد اسماعيل[٦١].

هذا وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه - أن قحطان من ولد اسماعيل - على ماروى عن سيدنا رسول الله - ﷺ - أنه قال كل العرب من ولد اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام[٦٢]، هذا فضلا عن أن سيدنا رسول الله - ﷺ- مر بناس من أسلم خزاعة - وهم من قحطان - وكانوا يتناضلون، فقال: إرموا بنى إسماعيل، فإن أباكم كان راميا[٦٣]، ومن ثم فإن «ابن خلدون» (٧٣٢ - ٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) إنما يذهب إلى أن جميع العرب إنما هم من ولد إسماعيل، لأن عدنان وقحطان، إنما يستوعبان العرب العدنانية والقحطانية[٦٤].

وفى إحدى زيارات الخليل لولده إسماعيل، وجده يصلح نبلا له، من وراء زمزم، فقال له: «يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة، وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه السلام، وهو يبنى: وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم[٦٥].

ثم قال إبراهيم لاسماعيل، عليهما السلام: إئتنى بحجر حسن، أضعه على

---

(٦١) الاكليل ١٣٠/١- ١٠٥، القلقشندى: نهاية الأرب ص ٣٩٦ - ٣٩٧، تاريخ ابن خلدون ٢٤١/٢ - ٢٤٢

(٦٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٥ (دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨).

(٦٣) الاكليل ١٠٣/١ - ١٠٥، وفى صحيح البخارى (١٧٩/٤): «مرن النبى ﷺ، على نفر من أسلم ينضلون، فقال رسول الله ﷺ: ارموا نبى اسماعيل، فان أباكم كان راميا، وأنا مع بنى فلان، قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: مالكم لاترمون؟ فقالوا: يارسول الله نرمى وأنت معهم، قال: ارموا، وأنا معكم كلكم».

(٦٤) تاريخ ابن خلدون ٢٤١/٢، نهاية الأرب للقلقشندى ص ٣٩٦ - ٣٩٧، الاكليل ١٠٣/١ - ١٠٥، قارن جواد على ٤٨١/١ - ٤٨٢.

(٦٥) صحيح البخارى ٤/ ١٧٥، وينظر ٤/ ١٧٧

الركن، فيكون للناس علما، وذهب إسماعيل يلتمس لأبيه حجرا،فأتاه به، ولكنه وجده قد ركب «الحجر الأسود» في مكانه، فقال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ فقال: أتاني به من لم يتكل على بنائك، أتاني به جبريل من السماء(٦٦).

ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن تقديس «الحجر الأسود»، ربما نجم من ارتباطه بشيء مقدس، فقد يكون رمزاً للعهد الذى أخذه إبراهيم على نفسه وولده، بجعل هذا البيت مثابة للناس وأمنا، أو يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده، بأن هذا قد انتقل من ملكهم إلى الله تعالى، ليكون للناس مصلى، ومسجدا للطائفين والعاكفين والركع السجود، ومن ثم فقد وضعه في الركن الأقرب إلى الباب، ليكون أول حدود هذا البيت المكرم، الذى يبتدأ منه الطائفون، ومن ثم فقد كان الحجر الأسود محترماً من إبراهيم، محترما من ولده، مقدسا عند المسلمين إلى اليوم، وإلى الغد، وإلى أن يغير الله هذه الأرض غير الأرض(٦٧).

هذا وليس صحيحا أن الحجر الأسود إنما قد اختار له إبراهيم اللون الأسود، لسهولة تعيينه، وتحديد مكانه، كما أنه ليس صحيحا مايزعمه بعض المستشرقين من أن الحجر الأسود انما هو من نوع «النيازك»، وأن تلؤلؤه دليل على أنه كان ذى لون غير السواد، وذلك لأن هذا اللون الأسود الذى نراه الآن إنما كان سببه خطايا الجاهلية وأرجاسها(٦٨).

روى الحافظ الدمياطي (أبو محمد شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي - ٦١٣ - ٧٠٥هـ/ ١٢١٧ - ١٣٠٦م) في «المتجر الرابح» عن ابن

---

(٦٦) تاريخ الطبرى ٢٥٠/١ - ٢٦٠، تفسير الطبرى ٦٦/٣-٧٠، الكامل لابن الأثير ١٠٦/١، ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٦/٢، ١٦٣-١٦٦، تفسير القرطبى ١٢٢/٢، تاريخ الخميس ص ١١٣، شفاء الغرام ٤/٢-٨.

(٦٧) على حسن الخربوطلي: الكعبة على مر العصور - القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩ - ٢٠، لطفى جمعة: ثورة الاسلام ص ٥٩، الهجرسى: كتاب الحج ص ٢٥، وانظر: العقد الثمين ٦٧/١-٦٨.

(٦٨) عبد القدوس الأنصاري: الكعبة ص ٢٣٦ (الجزيرة العربية قبل الاسلام - الرياض ١٩٨٤)، إدوار غالب: الموسوعة في علوم الطبيعة ٥٩٢/١.

عباس، رضى الله عنهما، قال قال رسول الله ﷺ: «الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، وإنما سودته خطايا المشركين، يبعث يوم القيامة مثل أحد، يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا» – رواه ابن خزيمة –.

ورواه الترمذى مختصرا قال: نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضا من اللبن، فسودته خطايا بنى آدم» – قال الترمذى حديث حسن صحيح»(٦٩).

ولعل سائلاً يتساءل: متى انتقل ابراهيم الخليل بولده وزوجه إلى مكان البيت الحرام فى مكة المكرمة؟ وبعبارة أخرى، متى بدأ تاريخ مكة المكرمة؟ ثم متى بنيت الكعبة المشرفة؟

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة هنا إلى أننا قد توصلنا فى دراسات سابقة إلى أن سيدنا ابراهيم – عليه الصلاة والسلام – انما عاش فى الفترة (١٩٤٠ – ١٧٦٥ق.م)(٧٠)، وأنه رزق بولده اسماعيل، وهو فى السادسة والثمانين من عمره(٧١)، ومن ثم فإن اسماعيل يكون قد ولد فى عام ١٨٥٤ق.م، ولما كان قد عاش ١٣٧ عاما – طبقا لرواية التوراة(٧٢) – فإنه يكون قد عاش فى الفترة (١٨٥٤ – ١٧١٧ق.م).

هذا وإذا ماكان صحيحا ماذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل قد شارك أباه ابراهيم، عليهما السلام، فى بناء الكعبة، وهو فى الثلاثين من عمره(٧٣)، تصديقا لقول الله تعالى «وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»(٧٤)، فإن بناء الكعبة إنما كان

---

(٦٩) الحافظ الدمياطى: المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح – تحقيق عبد الملك بن دهيش ص ٣٠٤ (مكة المكرمة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(٧٠) أنظر: محمد بيومى مهران اسرائيل ١/٧٢–٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/١٢١– ١٢٧ (الرياض ١٩٨١) – دراسة حول التأريخ للأنبياء ص ٨٩ – ١٧٨ (مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية – العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢م).

(٧١) تكوين ١٦/١٦.

(٧٢) تكوين ١٨/٣٥.

(٧٣) مروج الذهب ٣٦٧/١ (ط بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

(٧٤) سورة البقرة: آية ١٢٧.

حوالى عام ١٨٢٤ق.م، ونظرا لأن إسماعيل قد جئ به إلى مكان الحرم، وهو مايزال رضيعا، أى حوالى ١٨٥٤ ق.م، فان بدء سكنى مكة إنما كان حوالى عام ١٨٥٤ ق.م، وهذا يعنى أن مكة قد عمرت منذ حوالى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وهو تاريخ يجعلها واحدة من أقدم مدن بلاد العرب - الجنوبية والشمالية سواء بسواء-.

وهكذا يمكن القول: إن تاريخ الحجاز القديم، لن يكون مفهوما، إلا عن طريق دراسة تاريخ أبى الأنبياء، سيدنا ابراهيم وولده سيدنا إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وعلى أية حال، فإن سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، إنما هو أبو العرب(٧٥)، وهو بانى كعبتهم(٧٦)، وهو الذى دعا الله تعالى أن يجعل مكة أقدس بقاع الأرض(٧٧)، وهو أول من أذن فى الناس بالحج(٧٨)، وأول من دعا لهذه الأرض الطيبة من الحجاز الشريف بالأمن والسكينة، والخير والبركة(٧٩).

وهكذا كان الحجاز الشريف مهد خاتم الأنبياء والمرسلين - سيدنا ومولانا وجدنا محمد، ﷺ - ومهبط الوحى، ومنزل القرآن، تتجه إليه ملايين - بل بلايين - قلوب المسلمين ووجوههم، فى كل يوم خمس مرات(٨٠) وتؤمه كل سنة الملايين من الحجيج، إستجابة لدعوة إبراهيم، وأداءاً للفريضة الخامسة من فرائض الإسلام - الحج -(٨١).

وهكذا يبدو بوضوح أن أبا الأنبياء - إبراهيم عليه الصلاة والسلام - لم يرتبط بدين من الأديان، كما ارتبط بالإسلام، ولم يؤمن أصحاب دين بالخليل،

---

(٧٥) سورة الحج: آية ٧٨.
(٧٦) سورة البقرة: آية ١٢٧.
(٧٧) سورة آل عمران: آية ٦٩.
(٧٨) سورة الحج: آية ٢٧.
(٧٩) سورة البقرة: آية ١٢٦.
(٨٠) أوقات الصلاة الخمس.
(٨١) سورة البقرة: آية ١٤٤.

كما آمن به المسلمون، ولم يتباه جنس بانتسابهم إلى الخليل، كما تباهى العرب بعامة - وقريش بخاصة - ولم يتمسك أصحاب دين بدعوة الخليل، كما تمسك به المسلمون؛ رغم مزاعم اليهود والنصارى - أنهم ورثة الخليل، في الإيمان والتوحيد الصحيح[٨٢].

(٤) تحريم مكة المكرمة:

من المعروف - دينيا - أن مكة المكرمة، إنما قد حرمها الله - سبحانه وتعالى - بنص الكتاب والسنة.

(١) فمن الكتاب قول الله تعالى «إنما أمرت أن أعبد رب هذا البلدة الذى حرمها، وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين»[٨٣]، وقول الله تعالى «وقالو إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نمكن لهم حرما آمنا، يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا، ولكن أكثرهم لايعلمون»[٨٤]، وقول الله تعالى «أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمناً، ويتخطف الناس من حولهم، أفبالباطل يؤمنون، وبنعمة الله يكفرون»[٨٥]. وروى البخارى (١٧٧/٤) بسند عن أنس: أن رسول الله ﷺ، طلع له أحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن ابراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها» (أى المدينة).

وروى البخارى فى صحيه بسنده عن مجاهد أن رسول الله - ﷺ، قام يوم الفتح فقال: إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لم تحل لأحد قبلي، ولاتحل لأحد بعدى، ولم تحل لى إلا ساعة من الدهر، لاينفر صيدها، ولايعضد شوكها، ولايختلى خلالها، ولاتحل لقطتها،

---

(٨٢) محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١١٥/١ - ١١٦.

(٨٣) سورة النمل: آية ٩١.

(٨٤) سورة القصص· آية ٥٧.

(٨٥) سورة العنكبوت: آية ٦٧، ثم أنظر عن تفسير الآيات الثلاثة الأخيرة (تفسير ابن كثير: ٦٠٤/٣ - ٦٠٥، ٦٣٠، ٦٧١ - ٦٧٢، تفسير القرطبى ٤٩٦٢، ٥٠١٥، ٥٠٧٩ - ٥٠٨٠، تفسير النسفى ٣/ ٢٢٤، ٢٤٠-٢٤١، ٢٦٤، فى ظلال القرآن ٢٦٦٩/٥ - ٢٦٧٠، ٢٧٠٣ -٢٧٠٤، ٢٧٥٢، صفوة التفاسير ٤٢١/٢، ٤٤٠، ٤٦٨، تفسير البحر المحيط ١٢٦/٧).

(٨٦) صحيح البخارى ١٩٤/٥.

الا لمنشد، فقال العباس بن عبد المطلب، إلا الأذخر يارسول الله، فإنه لابد منه للقين والبيوت، فسكت ثم قال، إلا الأذخر فإنه حلال[٨٦].

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - إئذن لى أيها الأمير، أحدثك قولا قام به رسول الله - ﷺ - الغد يوم الفتح، سمعته أذناى، ووعاه قلبى وأبصرته عيناى، حين تكلم به، حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دما، ولايعضد بها شجرا، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله - ﷺ - فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب[٨٧].

وروى البخارى فى صحيحه (باب لايحل القتال بمكة)، وقال أبو شريح رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: ولايسفك بها دما، وعن ابن عباس، رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ - يوم فتح مكة - «لاهجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وانه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى، الا ساعة من نهار، فهوحرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لايعضد شوكه، ولاينفر صيده، ولايلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولايختلى خلاها، قال العباس: يارسول الله، إلا الأخر، فإنه لقينهم، ولبيوتهم، قال: إلا الأذخر»[٨٨].

وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - إئذن لى أيها الأمير أحدثك قولا قام به رسول الله - ﷺ - للغد من يوم الفتح، فسمعته أذناى، ووعاه قلبى، وأبصرته عيناى - حين تكلم به - إنه حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، فلايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دما، ولايعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ﷺ، ولم يأذن

---

(٨٧) صحيح البخارى ١٩٠/٥.

(٨٨) صحيح البخارى ١٨/٣ - ١٩.

لكم، وإنما أذن لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب. فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لايعيذ عاصيا ولا فارا بدم، ولا فارا بخربة خربة بلية»[٨٩].

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال قال النبي ﷺ، بمنى، أتدرون أي يوم هذا؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: فإن هذا يوم حرام، أفتدرون أي بلد هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: بلد حرام، أفتدرون أي شهر هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم؟ قال شهر حرام، قال: فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[٩٠].

وروى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ، يوم الفتح - فتح مكة - «الهجرة، جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا، وقال يوم الفتح - فتح مكة - «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لايعضد شوكة، ولاينفر صيده، ولايلتقط، إلا من عرفه، ولايختلى خلالها، فقال العباس: يارسول الله، إلا الأذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: إلا الأذخر»[٩١].

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي الزبير عن جابر قالك سمعت النبي ﷺ، يقول: لايحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح»[٩٢].

وعن أبي هريرة قال: لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ، مكة، قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وأنها لن تحل لأحد

---

(٨٩) صحيح البخاري ١٧/٣ - ١٨.

(٩٠) صحيح البخاري ٢١٦/٢ - ٢١٧.

(٩١) صحيح مسلم ١٢٣/٩ - ١٢٦

(٩٢) صحيح مسلم ١٣٠/٩.

بعدى،فلاينفر صيدها، ولايختلى شوكها، ولاتحل ساقطتها، إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يفدى، وإما أن يقتل، فقال العباس: إلا الأذخر يارسول الله، فإنا نجعله فى قبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر»(٩٣).

وفى زاد المعاد «فلما كان الغد من يوم الفتح، قام رسول الله ﷺ، فى الناس خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك فيها دما، أويعضد بها شجرة، فإن أحداً ترخص لقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما حلت لى ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب(٩٤).

وروى أبو داود فى سننه عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: لما فتح الله تعالى على رسول الله ﷺ، مكة، قام النبى ﷺ، فيهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ان الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنما أحلت لى ساعة من النهار، ثم هى حرام إلى يوم القيامة لايعض شجرها، ولاينفر صيدها، ولاتحل لقطتها، إلا لمنشد، فقال عباس أو قال: العباس: يارسول الله، إلا الأذخر، فإنه لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: إلا الأذخر»(٩٥).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى الزبير عن جابر قال، قال: رسول الله - ﷺ - «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى حرمت المدينة، مابين لابتيها(٩٦)، لايقطع عضاهها، ولايصاد صيدها»(٩٧).

---

(٩٣) صحيح مسلم ١٢٨/٩ - ١٢٩.

(٩٤) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد فى هدى خير العباد - تحقيق شعيب الأرنوط - الجزء الثالث ص ٤١١ - ٤١٢ (بيروت ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م) وأخرجه النسائى ٢٠٣/٥ - ٢٠٦، مسند الإمام أحمد ٣١/٤ - ٣٢، والترمذى.

(٩٥) سنن أبى داود ٤٦٥/١ (ط الحلبى - القاهرة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م).

(٩٦) اللابا (اللافا)، هى حرة فيها شيء مستطيل غير واسع، وهى على أية حال صخور بركانية، وأما لابتا المدينة فهما حرة وأقم والوبرة حيث تحصر المدينة بينهما.

(٩٧) صحيح مسلم ١٣٦/٩.

وفى «نيل الأوطار» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ - يوم فتح مكة - «إن هذا البلد حرام، لايعضد شوكة، ولايختلى خلاه، ولاينفر صيده، ولاتلتقط لقطته، إلا لمعرف، فقال العباس: إلا الأذخر، فإنه لابد منه، فإنه للقيون والبيوت، فقال، إلا الأذخر»[98].

وعن عطاء أن غلاما من قريش قتل حمامة من حمام مكة، فأمر ابن عباس أن يفدى عنه بشاة - رواه الشافعي وابن أبي شيبة والبيهقي[99].

وفي تهذيب الآثار بسنده عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل حرم مكة، فلم تحل لأحد كان قبلي، ولاتحل لأحد بعدى، وإنما أحلت لى ساعة من نهار، لايختلى خلالها، ولايعضد شجرها، ولاينفر صيدها، ولاتلتقط لقطتها، الا لمعرِّفٍ، قال العباس، إلا الأذخر، لصاغتنا وقبورنا، قال: إلا الأذخر»[100].

(٥) حدود الحرم:

من البدهى - وقد أصبحت مكة حرما بأمر الله تعالى - أن تحدد حدود هذا الحرم، وهى - على أية حال - معروفة، وقد نصبت فيها حجارة تعرف باسم «أنصاب الحرم»، فما وراؤه حل، وما دونه حرم، وأول من نصب هذه الحجارة (أنصاب الحرم) سيدنا إبراهيم عليه السلام، دله على مواضعها جبريل، عليه

---

(٩٨) محمد بن على الشوكانى: نيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار - الجزء الخامس ص ٢٤ (ط الكتب العلمية - بيروت).

(٩٩) نفس المرجع السابق ص ٢٥

(١٠٠) الامام الطبرى: تهذيب الآثار - مسند عبد الله بن عباس خرج أحاديثه محمود محمد شاكر - السفر الأول ص ٧، وأنظر شرح الحديث ٨/١ - ٥٤ (ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، وأنظر أحاديث ٣٠/٥ - ٣١.

وقوله: «لايعضد شوكه» أى لايقطع، وقوله و «ولايختلى خلاه»: الخلا: هو الرطب من النبات واختلاؤه قطعه واحتشاشه، وقوله «إلا الأذخر» الأذخر: نبات معروف عند أهل مكة طيب الريح، له أصل مندفن وقضبان دقاق - ينبت فى السهل والحزن، وأهل مكة يسقفون به البيوت بين الخشب ويسدون به الخلل بين اللبنات فى القبور (أنظر: نيل الأوطار ٢٤/٥- ٢٥، تهذيب الآثار- مسند عبد الله بن عباس ٨/١ - ٥٤)

السلام، ثم حوفظ عليها بعد ذلك، قبل الإسلام، وبعده، وإلى الآن، وإلى الغد إن شاء الله.

وتروى المراجع أن أنصاب الحرم، إنما قد جددت، بعد إبراهيم، فى عهد ولده إسماعيل عليهم السلام، ثم فى عهد «قصى بن كلاب» (فى القرن الخامس الميلادى).

وفى عصر النبوة، أمر سيدنا رسول الله - ﷺ - «تميم بن أسد الخزاعى» بتجديد أنصاب الحرم، يوم فتح مكة (٨ هـ= ٦٣٠ م)، ثم جددت فى عهد الفاروق عمر، رضى الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ/ ٦٣٤ - ٦٤٤م)، فبعث أربعة كانوا يتبدئون فى بواديها - فجددوا أنصاب الحرم، منهم مخرمة بن نوفل وأبو هود سعيد بن يربوع المخزومى، وحويطب بن عبد العزى، وأزهر بن عبد عوف الزهرى - وهم من قريش، فجددوها.

وفى العام السادس والعشرين للهجرة (٦٤٥/٦٤٦م) جدد ذو النورين «عثمان بن عفان» رضى الله عنه (٢٣ - ٣٥هـ/ ٦٦٤ - ٦٥٦م) أنصاب الحرم وذلك عندما بعث «عبد الرحمن بن عوف» رضى الله عنه، على الحج، وأمره أن يجدد أنصاب الحرم، فبعث عبد الرحمن نفرا من قريش - منهم حويطب بن العزى، وعبد الرحمن بن أزهر، وكان سعيد بن يربوع قد ذهب بصره فى آخر خلافة عمر، وذهب بصر محرمة بن نوفل فى خلافة عثمان، فكانوا يجددون أنصاب الحرم.

وفى العهد الأموى (٤١ - ١٣٢هـ/ ٦٦١ - ٧٥٠م) جددها عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٥ - ٧٠٥م).

وفى العصر العباسى (١٣٢ - ٦٥٦هـ/ ٧٥٠ - ١٢٥٨م) جددها الخليفة المهدى (١٥٨ - ١٦٩هـ/ ٧٧٥ - ٧٨٥م) فى عام ١٥٩هـ (٧٧٦م)، كما جددها «المقتدر بالله» (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)، وفى عام ٣٢٥ هـ (١٣٦م) أمر «الراضى بالله» العباسى بعمارة العلمين من جهة التنعيم، وفى عام ٦١٦م (١٢١٩م) أمر «المظفر» صاحب أربيل بعمارة العلمين من جهة عرفة،

كما جددها السلطان أحمد الأول العثماني في عام ١٠٢٣هـ (١٦١٤).

وأما آخر من جددها فهو الملك عبد العزيز آل سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣م) من جهة عرفة. هذا ومن الجدير بالإشارة، أن حدود الحرم الغربية والشرقية إنما تبعد عن الكعبة المشرفة ٢٠ كيلا، ومن الجنوب ١٣ كيلا، حيث الآكام التي تحف بوادي عرفة، ومن الشمال مسجد العمرة (مسجد السيدة عائشة على رأس وادي التنعيم، وعلى مبعدة ٨ كيلا من الكعبة المشرفة)، وهذا يعني أن حدود حرم مكة المكرمة، انما هو ٨٨٢ كيلا مربعا تقريبا[١٠١].

(٦) أمان مكة:

قال الله تعالى «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ومن كفر فأمتعه قليلا، ثم اضطره إلى عذاب النار، وبئس المصير»[١٠٢].

والآيات الكريمة إنما تؤكد أن الله تعالى، إنما أراد أن يكون هذا البيت مثابة يثوب إليها الناس جميعا، فلايروعهم أحد، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم، فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام[١٠٣].

ولقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله - وهذا مانختاره في تفسيره[١٠٤] - فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو

(١٠١) أنظر: الأزرقي: أخبار مكة ١٢٥/٢ - ١٣١، ٣٠٩/٢ محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين - السيرة النبوية الشريفة ٢٦٠/١ (بيروت ١٩٩٠م).

(١٠٢) سورة البقرة: آية ١٢٥ - ١٢٦، وأنظر: تفسير القرطبي ص ٤٩٦ - ٥٠٥، تفسير النسفي ٧٣/١ - ٧٥، صفوة التفاسير ٩٣/١ - ٩٤، تفسير السعدي ٦٥/١ - ٦٦، تفسير الطبري ٢٥/٣ - ٥٦، تفسير المنار ٣٧٨/١، تفسير ابن كثير ٢٥٠/١ - ٢٥١.

(١٠٣) في ظلال القرآن ١١٣/١.

(١٠٤) اختلف المفسرون في المراد بمقام إبراهيم، فقيل هو المقام المعروف، وقيل هو الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء الكعبة، وقيل هو الحرم كله، وروى ابن عباس وعطاء أنه مواقف الحج كلها، وقيل عرفة ومزدلفة والجمار، وعن عائشة رضى الله عنها: أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبي بكر، رضى الله عنه، ملتصقا بالبيت، ثم أخره عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، وقيل كان المقام عند البيت، فحوله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا (أنظر تفسير المنار ٣٧٩/١، تفسير ابن كثير ٢٥١/١ - ٢٥٤).

الأمر الطبيعي، الذى لايثير اعتراضا، وهو أول قبلة يتوجه إليها المسلمون - ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح - بما أنه بيت لقصاده وعباده من المؤمنين، بيت الله، لابيت أحد من الناس، وقد عهد الله - صاحب البيت - إلى عبدين من عباده صالحين، أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود،- أى للحجاج الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون - فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكا لهما، فيورث بالنسب عنهما، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما، لإعداده.

ثم مرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت وللبلد، ويدعو للمؤمنين من سكانه أن يرزقهم الله من الثمرات»[١٠٥].

وعن أبي العالية فى قوله تعالى «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا»، يقول: وأمنا من العدوان، وأن يجعل فيه السلام، وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لايسبون.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلايعرض له، كما وصفه الله - فى المائدة - «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس»، أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء[١٠٦].

ولقد أكد الله تعالى الأمن للبلد الحرام، فى سورتى القصص والعنكبوت[١٠٧] - كما أشرنا من قبل-.

(٧) مكة في عهد إسماعيل وولده:

عاش إسماعيل - عليه السلام - بجوار بيت الله الحرام، وتزوج من امرأة مصرية، على رواية التوارة[١٠٨]، ومن يمنيه على رواية الإخباريين[١٠٩] وقد أنجب

---

(١٠٥) فى ظلال القرآن ١١٣/١ - ١١٤.

(١٠٦) تفسير ابن كثير ٢٥١/١، وأنظر تفسير القرطبى ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(١٠٧) سورة القصص: آية ٥٧، سورة العنكبوت: آية ٦٧.

(١٠٨) تكوين ٢١:٢١.

(١٠٩) ابن كثير ٢/١- ١- ١٩٣، تاريخ الطبرى ٣١٤/١، ابن الأثير ٤/١-١-١٠٥، ١٢٥، الأزرقى ٨٦/١، مروج الذهب ٢٠/٢- ٢١، تاريخ ابن خلدون، المعارف ص ١٦

من زوجته المصرية أو اليمنية - لست أدرى على وجه التأكيد- أولاده الإثنى عشر، وهم - طبقا لرواية التوارة(١١٠) - «بنايوت وقيدار وأدبئيل ومبسام ومشماع ودومه ومسا وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمه» وقد نقلهم الأخباريون فى كتبهم بشيء قليل أو كثير من التحريف»(١١١).

وأيا ما كان الأمر، فإن إسماعيل قد ظل - بعد إبراهيم - يدعو الناس إلى عبادة الله فى مكة ومجاوراتها، حتى إذا ما انتقل إلى جوار ربه الكريم قام بنوه من بعده على السلطة الزمنية فى مكة، وعلى خدمة البيت الحرام غير أن «جرهم» - طبقا لرواية الاخباريين - سرعان ماتولت أمر البيت، وأبناء اسماعيل مع أخوالهم لايرون أن ينازوعهم الأمر، لخؤولتهم وقرابتهم وإعظاما للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال، إلى أن قدمت قبائل «الأزد» مهاجرة من اليمن، فى فترة لانستطيع تحديدها على وجه اليقين، ونازعت واحدة من هذه القبائل (خزاعة) جرهم أمر البيت، حتى استولت عليه وطردت جرهم من مكة، ولم يلبث أبناء اسماعيل أن انتشروا فى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وخاصة فى شمالها، وليست أسماء القبائل التى تنسب إلى إسماعيل، إلا أسماء أبنائه أو أحفادهم»(١١٢).

وتاريخ بنى إسماعيل من هذه الفترة، وحتى عهد قصى، غامض غموضا شديدا، ولايعرف حتى المؤرخون العرب كيف يملأون فراغ هذه القرون المتطاولة، ولاتبزغ شمسهم - مشبعة بالغيوم - فوق أفق التاريخ الحقيقى - إلا من عهد قصى فى منتصف القرن الخامس الميلادى، على أن هذا لايمنعنا أن نذكر - طبقا لروايات الاخباريين - أنهم هم الذين قاموا على الحكومة والبيت فى مكة،

---

(١١٠) تكوين ٢٥: ١٤ - ١٦.

(١١١) ابن الأثير ١٢٥/١، تاريخ الطبرى ٣١٤/١، ابن كثير ١٩٣/١، مروج الذهب ٢١/١- ٢٢، تاريخ ابن خلدون ٣٩/٢، الأخبار الطوال ص ٩، تاريخ الخميس ١١١، جمهرة أنساب العرب ص ٧، ٩- ١٥، شفاء الغرام ١٧/٢-١٨.

(١١٢) مروج الذهب ٢٢/٢- ٢٤، الأخبار الطوال ص ٩-١٠، صبح الأعشى ٣١٥/١، العقد الثمين ١٣١/١- ١٣٢، تاريخ الخميس ص ١٢٤ - ١٢٦، أحمد ابراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ص ١٠١، مبروك نافع: المرجع السابق ص ١٣٣، ابن هشام ١٢٥/١.

الخليل، عليهما السلام[116]، وإلى هذا يشير الحديث الشريف «إختار الله من ولد إسماعيل كنانة، واختار قريشا من كنانة، واختار بنى هاشم من قريش، واختارنى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار[117] وفى رواية مسلم فى صحيحه (٣٦/١٥): إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قصيًا إنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه، دون أن يخالجنا ريب فيما نقول، فالرجل قد خلدً ذكراه فى التاريخ بأعماله العظيمة فى مكة، رغم ريب المرتابين، والرجل قد أوجد من النظم فى تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام، ما بقى بعده مئات السنين، والرجل هو الذى جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بنى كنانة من ولد إسماعيل، عليه السلام، بعد أن أبعد عنه المغتصبين من خزاعة.

وقد قام قصى بعدة إصلاحات فى مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين في نواحى متعددة إلى وادى مكة، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التى بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه «دار الندوة»، حيث كان يدار فيها - تحت رياسته، كل أمر قريش - وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح- فما كان لرجل ولا لأمرأة أن يتزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك ببناتهم إذا بلغن الحلم، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكوراً كانوا أم إناثاً - وأما

---

(١١٦) تاريخ الطبرى ٢٥٤/٢ - ٢٧٥، ابن الأثير ١٨/٢ - ٣٣، ابن خلدون ٢٩٨/٢، تاريخ الاسلام للذهبى ١٧/١، الاشتقاق ٢٠/١ - ٣٢، الاكليل ١١٠/١ - ١١٦، أخبار الزمان للمسعودى ص ١٠٤، القلقشندى: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ص ٢٣ - ٢٥ (القاهرة ١٩٥٣)، المعارف ص ٢٩ - ٣٢، الزبيرى: كتاب نسب قريش، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣-١٤

(١١٧) ابن كثير. البداية والنهاية ٢٠٢/٢، وانظر: المواهب للقسطلانى ١٣/١.

الخليل، عليهما السلام[116]، وإلى هذا يشير الحديث الشريف «إختار الله من ولد إسماعيل كنانة، واختار قريشا من كنانة، واختار بنى هاشم من قريش، واختارنى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار[117] وفى رواية مسلم فى صحيحه (٣٦/١٥): إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قصيًا إنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه، دون أن يخالجنا ريب فيما نقول، فالرجل قد خلدَّ ذكراه فى التاريخ بأعماله العظيمة فى مكة، رغم ريب المرتابين، والرجل قد أوجد من النظم فى تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام، ما بقى بعده مئات السنين، والرجل هو الذى جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بنى كنانة من ولد إسماعيل، عليه السلام، بعد أن أبعد عنه المغتصبين من خزاعة.

وقد قام قصى بعدة إصلاحات فى مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين فى نواحى متعددة إلى وادى مكة، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التى بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه «دار الندوة»، حيث كان يدار فيها - تحت رياسته، كل أمر قريش - وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح- فما كان لرجل ولا لأمرأة أن يتزوج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده، وكان القوم يفعلون ذلك ببناتهم إذا بلغن الحلم، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش - ذكوراً كانوا أم إناثاً - وأما

---

(١١٦) تاريخ الطبرى ٢٥٤/٢ - ٢٧٥، ابن الأثير ١٨/٢ - ٣٣، ابن خلدون ٢٩٨/٢، تاريخ الاسلام للذهبى ١٧/١، الاشتقاق ٢٠/١ - ٣٢، الاكليل ١١٠/١ - ١١٦، أخبار الزمان للمسعودى ص ١٠٤، القلقشندى: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ص ٢٣ - ٢٥ (القاهرة ١٩٥٣)، المعارف ص ٢٩ - ٣٢، الزبيرى: كتاب نسب قريش، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٣-١٤.

(١١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٢/٢، وانظر المواهب للقسطلانى ١٣/١.

أعضاء دار الندوة هذه، فكانوا جميع ولد قصي، وبعضاً من غيرهم، على شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الأربعين من عمره، أو كان من ذوى القدرات الخاصة[١١٨]، وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة فى آن واحد، يديرها الملأ من القوم – الذين كانوا يشبهون إلى حد ما أعضاء مجلس الشيوخ الأثينى[١١٩] – ويتكونون من رؤساء العشائر وأصحاب الرأى والحكمة فيهم، للنظر فيما يعترض القوم من صعاب[١٢٠].

وكان قصي شديد العناية بالبيت الحرام، حتى ذهب البعض إلى أنه أعاد بناءه، ومن ثم فإن قصياً إنما هو أول من جدد بناء الكعبة من قريش ثم سقفها بخشب الدوم، وجريد النخل.

ويشير الأزرقى إلى استعانة قصى بأخيه لأمه «زراح بن ربيعة»، وهو ببلاد قومه «بنى عذرة» من قضاعة، وأن قصياً – وقد انتصر على أعدائه من خزاعة، وأصبح سيد المدينة المقدسة – إنما قال فى ذلك شعراً يتشكر فيه لأخيه «زراح بن ربيعة»:

أنا ابن العاصمين بنى لؤى ... بمكة مولدى وبها ربيت
ولى البطحاء قد علمت معد ... ومروتها رضيت بها رضيت
وفيها كانت الآباء قبلى ... فما شويت أخى ولا شويت
فلست لغالب إن لم تأثل ... بها أولاد قيدر والنبيت
زراح ناصرى وبه أسامى ... فلست أخاف ضيماً ما حييت[١٢٠]

---

(١١٨) عبد الحميد العبادى: المرجع السابق ص ٨ – ٩، الأغانى ٤/ ٣٨٤، الألوسى ١/ ٢٤٨، ابن هشام ١/ ١٣٤ – ١٣٦ (مكتبة الجمهورية بمصر)، ابن سعد ١/ ٣٩ – ٤٠، المقدسى ٤/ ١٢٧، الأزرقى ١/ ٢٠٧ – ٢٠٩، ياقوت ٥/ ١٨٦ – ١٨٧، تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٧ – ٢٥٩، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٠، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٥، أنساب العرب للبلاذرى ١/ ٥٢، نهاية الأرب للقلقشندى ص ٤٣٠٠، شفاء الغرام ٢/ ٨٦ – ٨٧، الاشتقاق ١/ ١٥٥، تاريخ مكة ص ٤٥، حياة محمد ص ١١١، أحمد إبراهيم: المرجع السابق، ص ١١٥،

P. K. Hitti, op. cit., p. 104.

(119) W. M. Watt, op. cit., p. 9.

(١٢٠) جواد على ٤/ ٤٧، وكذا: De Lacy O'Leary, op. cit , p. 183.

هذا وقد نص الشعر العربى الجاهلى على بناء «جرهم للبيت الحرام» ومن ذلك قول «زهير بن أبى سلمى المزنى» (ت. ٦٠٩م) فى معلقته:

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم[١٢١]

وقول الأعشى (ميمون بن قيس ت. ٦٢٩م):

فــإنى وثوبى راهب اللج والتى بناها قصى والمضاض بن جرهم[١٢٢]

ويقول الأستاذ الأنصارى: ولما كانت «الواو» فى اللغة العربية حرف عطف، لايقتضى الترتيب الزمنى فيما عطف بها، وعليه فتقديم «قريش» و «قصى» فى البيتين على «جرهم»، ليس معناه أن بناء قريش وقصى - الذى نرى أن المعنى به بناء قريش - هو سابق فى الزمن لبناء جرهم، فإن الأمر بالعكس من ذلك، كما هو معلوم ومعروف، بالبداهة من التاريخ[١٢٣].

وكان قصى أول من أظهر «الحجر الأسود» وجريد النخل، كما كان أول من أظهر الحجر الأسود بعد أن دفنته «إياد» فى جبال مكة، ثم أوكل أمره من بعده إلى جماعة من قريش، حتى أعاد القوم بناء الكعبة فى عام ٦٠٦م (١٥ ق. هـ)، فوضعوه فى ركن البيت بإزاء باب الكعبة فى آخر الركن الشرقى، ويحدثنا التاريخ أن القوم كادوا يقتتلون على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، لولا حكمة سيد الأولين والآخرين - محمد ﷺ - وذلك بأن وضع الحجر فى ثوب، ثم أمر بأن تأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم رفعوه جميعاً، فلما بلغوا موضعه، وضعه بيده الشريفة، ثم بنى عليه[١٢٤].

---

(١٢١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى، ص ١٤.

(١٢٢) ديوان الأعشى، ص ١٥.

(١٢٣) عبد القدوس الأنصارى: الكعبة (الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م).

(١٢٤) مروج الذهب ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٦، تاريخ الطبرى ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٠، ابن كثير ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٤، ابن الأثير ٢/ ٤٤ - ٤٥، ياقوت ٤/ ٤٣٦٦، ابن هشام ١/ ١٩٩ - ٢٠٠، الأزرقى ١/ ١٥٧ - ١٦٤، تاريخ الخميس، ص ١٢٦ - ١٣١، المقدسى ١/ ١٤٠، ابن سعد ١/ ٩٣ - ٩٥، تفسير القرطبى ٢/ ١٢٢ - ١٢٣، هيكل: حياة محمد، ص ١٤١ - ١٤٢.

ولعل من أهم أعمال قصى أنه جعل وظيفة «سدانة الكعبة» – وهى خدمة البيت الحرام – من أهم الوظائف فى عهده، والأمر كذلك بالنسبة إلى وظيفة «السقاية»، .بخاصة فى بلد شحت مياهه فى وقت كان يستقبل فيه أكثر مما يطيق من الحجيج، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار بيت الله الحرام، حتى ييسر لهم مهمة الحج، ويجعل الإقبال عليه كبيراً، ومن ثم يذهب الاخباريون إلى أن قصياً قد حفر بئراً سماها «العجول»، وكانت «الرفادة» – وهى خرج تدفعه قريش من أموالها إلى قصى ليصنع منه طعاماً للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة – من الوظائف الهامة التى ظهرت فى مكة على أيام قصى، وتروى المصادر العربية أن قصياً قال لقومه: «إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم»، ففعلوا فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام «منى»، فجرى الأمر على ذلك فى الجاهلية والإسلام، وأخيراً كان من أعمال قصى «اللواء» – وهو رياسة الجيش فى الحروب – ويسند لمن بيده اللواء، يسلمونه إليه عند قيام الحرب(١٢٥).

ويجمع المؤرخون على أن قصياً إنما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعاً حتى وفاته، كما ظل كذلك الرجل الوقور المطاع فى قومه، لايخالف، ولايرد عليه شئ أقره، ولعله فى جمعه لرياسة دار الندوة وعقده اللواء وجمعه الرفادة، يقابل فى اصطلاحاتنا الحديثة، رياسة السلطات التشريعية والحربية والمالية – إن جاز هذا التعبير(١٢٦).

ولعل هذا هو الذى دفع «الأب هنرى لامانس» إلى القول، بأن مكة إنما

---

(١٢٥) ابن الأثير ٢/ ٢١ – ٢٣، الطبرى ٢/ ٢٥٨ – ٢٦٠، ابن هشام ١/ ١٣٤ – ١٤٠، ياقوت ٥/ ١٨٧٦، ابن سعد ١/ ٤١، البلاذرى ١/ ٥١، ابن خلدون ٢/ ٢٣٥، اليعقوبى ١/ ٢٤٠ – ٢٤٢، الأزرقى ١/ ٦٢، ١٢٧.

(١٢٦) محمد مبروك نافع: المرجع السابق، ص ١٣٩.

كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية، وقد يكون لشخصية «قصي» الفذة تأثيره في ذلك، إلا أن تنظيمات قريش لم تكن في واقع الأمر، إلا تنظيماً قبلياً في جوهره، وإن بدا في ظاهره تنظيماً جمهورياً، لأن الزعيم لم يكن يحمل لقباً معيناً، فضلاً عن أن هناك من الأدلة ما يشير إلى أن العشيرة إنما كانت تتمتع بحرية كاملة، ولاتخضع لسلطان غيرها في كثير من الأحايين، بل إن كثيراً من الأفراد إنما كانوا يخرجون على رأى العشيرة نفسها، ومن النوع الأول عدم مشاركة بني زهرة لقريش في موقعة بدر، رغم موافقتها على القتال وخروجها إليه، بل إن بني عدى لم يخرجوا للقتال أصلاً، ومن النوع الثاني خروج أبي لهب على رأى بني هاشم، وانضمامه إلى بقية بطون قريش في مقاطعتها لبني هاشم، وبقاء العباس على علاقاته الودية ببطون قريش. رغم تضامنه مع بني هاشم، هذا إلى جانب أن العشيرة إنما كانت تخرج أحياناً على رأى مجلس القبيلة، ومثال ذلك اجتماع بني هاشم والمطلب على حماية المصطفى – ﷺ – ومواجهة قريش[127].

ويرى الدكتور طه حسين – يرحمه الله – أنه من العسير أن نحدد لمكة نظاماً من نظم الحكم التي يعرفها الناس، فلم يكن لها ملك، ولم تكن جمهورية ارستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة أيضاً، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها، وإنما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية، فهي منقسمة إلى أحياء وبطون وفصول، والتنافس بين هذه جميعاً قد يشتد حيناً ويلين حيناً آخر، ولكنه لايصل إلى الخصومات الدامية، كما هو الحال في البادية، وأمور الحكم، تجرى كما تجرى في البادية، وكل ما وصلت إليه قريش من التطور في شؤون

---

(١٢٧) أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ١١٢ – ١١٣، ابن هشام ١/ ٣٦٥، الطبرى ٢/ ٣٢٣ – ٣٢٨، ٤٢٩، ٤٣٨، ٤٤٣٣، ابن الأثير ٢/٨٧، ١٧، ١٢١، ابن كثير ٣/ ٨٤ – ٨٨، ٢٥٧، ٢٦٦، وكذا.
H. Lammens, La Republique Marchand de la Mecque.

الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يرجع إليه فيما يشكل من الأمر، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منها مجلس في المسجد الحرام، أو في دار الندوة[128].

ويذهب الدكتور الأنصاري إلى أن أقرب مسمى ينطبق على مكة المكرمة لعله المسمى الذي كان معروفاً منذ القدم، وهو «ممالك المدن»، وإن كانت قريش لم تأخذ مميزات هذه الممالك، إلا أن ما قام به «قصي» من تنظيمات تجعلنا نعتقد أن تأثير التنظيمات السياسية في بلاد الشام، إنما كان واضحاً فيها، ومن المعروف أن قصياً إنما قد عاد يافعاً من أطراف بلاد الشام، فلعله شاهد فيها تنظيمات المدن[129]، ووجد مكة مهيأة لذلك، ووجد في قريش عنصراً مساعداً على تفهم الأهداف التي يرمي إليها، وإن كان الأمر أصبح وراثياً، فيما وزعه بين أبنائه من سلطات وأعمال كلفوا بها.

وأما أقدم ذكر لقريش في النصوص العربية الجنوبية القديمة، فربما كان - كما أشرنا من قبل - يرجع إلى أيام الملك الحضرمي «العزيلط»، والذي حكم في القرن الأول قبل الميلاد على رأي، وفي القرن الثالث الميلادي على رأي آخر[130]، فهناك ما يشير إلى أن عشر نساء قرشيات رافقن الملك «العزيلط» إلى حصن «أنود»، فإذا كان النص يعني حقاً قريشاً، قريش صاحبة مكة، فإننا نكون وقفنا لأول مرة على إسم قريش في وثيقة مدونة من عصر هذا الملك[131].

---

(128) طه حسين: مرآة الإسلام، ص ٢٢.

(129) فؤاد حسين. المرجع السابق، ص ٢٧٤ - ٢٧٩، وكذا:

H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., p. 114.

وكذا: BASOR, 119, p. 14.

(130) جواد علي ٢/ ١٤٥، وكذا:

Le Museon. 1964, 3 - 4, p. 484.

(٩) بنو هاشم:

وأياً ما كان الأمر، فلقد أنجب قصى ثلاثة أبناء – عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى – ورغم أن عبد الدار كان أكبر أخوته، إلا أن عبد مناف كان أكثر شهرة، وأرفع شأناً، وأعظم مهابة، ومن ثم فقد رأى قصى أن يعوض عبد الدار عما فقده من مقومات الزعامة، فأسند إليه كثيراً من الوظائف ليقاوم شخصية أخيه القوية، وتمضى الأيام ويرث الأبناء الآباء، ويقوم النزاع بينهم، حتى ينتهى آخر الأمر، بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة (مفاتيح الكعبة) واللواء ورياسة دار الندوة لبنى عبد الدار[١٣٢].

ويتولى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه عبد مناف، ويروى المؤرخون أنه كان غياث قومه في عام المجاعة، فرحل إلى فلسطين حيث اشترى كميات من الدقيق وقدم بها إلى مكة، فبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس أو وارد عليه، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع إلى قصاعه بدلاً من اسمه الأصلى عمرو، ومما يروى عنه كذلك أنه أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها، فنسب إليه أنه أول من سنها[١٣٣].

هذا بالإضافة إلى أن الرجل العظيم قد عقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية، ومع أمير غسان، معاهدة حسن جوار ومودة، وحصل من الامبراطور الرومانى على

---

(١٣٢) ابن الأثير ٢١/٢، تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٥، ٢٥٩، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣٥-٣٣٦، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤١، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٨٤، ابن سعد ٤١/١ – ٤٢، المحبرور، ص ١٦٦، المعارف، ص ٦٠٤، أنساب الأشراف ١/ ٦٠، العقد الثمين ١/ ١٤٨، شفاء الغرام ٢/ ٧٥ – ٧٦، ٨٧، نسب قريش ص ١٤، ياقوت ٥/ ١٨٧، جمهرة أنساب العرب، ص ١٤، نهاية الأرب ١/ ٢٤٨، الأزرقى ١/ ١٠٩ – ١١٠.

(١٣٣) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥١ – ٢٥٢، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٦ – ٣٣٧، تاريخ الكعبة المعظمة، ص ٢٨٥ – ٢٨٦، ابن هشام ١/ ١٤٥ – ١٤٦، أنساب الأشراف ١/ ٥٨، الاشتقاق ١/ ١٣، المقدسى ٤/ ١٢٨ – ١٢٩، ابن سعد ١/ ٤٣ – ٤٤، ذيل الأمالى والنوادر ص ١٩٩ – ٢٠٠، حياة محمد ص ١١٢، العقاد. المرجع السابق، ص ١٢٠، الأزرقى ١/ ١١١. تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٢ – ٢٤٣، صبح الأعشى ١/ ٣٥٨، نهاية الأرب للقلقشندى ص ٣٩٥، العقد الثمين ١/ ١٤٨، بلوغ الأرب ٢/ ٢٨٤، شفاء الغرام ٢/ ٧٧، ٨٨

الإذن لقريش بأن تجوب الشام فى أمن وطمأنينة، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس، ومعاهدة تجارية مع الحميريين فى اليمن(١٣٤).

ويذهب الاخباريون إلى أن هاشماً وعبد شمس توأمان، وأن أحدهما ولد قبل الآخر وأصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه، فنحيت فسال الدم، فقيل يكون بينهما دم، ومن ثم فإنهم يرون أن أمية بن عبد شمس قد حسد هاشماً على رياسته وإطعامه، فتكلف أن يصنع مثله، ولكنه قد عجز، ومن ثم فقد شمت به ناس من قريش، وتنافر هو وهاشم، وانتهى الأمر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين، فكان ذلك أول خلاف بين بنى هاشم وبنى أمية(١٣٥).

وفى الواقع - كما يقول الأستاذ العقاد - فلقد كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء، وينعقد الإجماع - أو ما يشبه الإجماع - على أخبار الجاهلية التى تنم على هذه الخصال فى الأسرتين، وبقى الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه(١٣٦).

وهناك ما يشير إلى أن المنافرات بين البيتين - الهاشمي والأموى - قد إستمرت، وذلك أمر لا غرابة فيه، فالبيتان - فيما نظن - على طرفى نقيض، وربما خفى السبب الذى يرجع إليه هذا الفارق بين الأسرتين، فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول، وقد رمى الأمويون الأوائل بشبهات كثيرة عمود

---

(١٣٤) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٢ - ٢٤٣، تفسير الفخر الرازى ٣١/ ١٨٠، ثمار القلوب للثعالبى ص ١١٥ - ١١٦، ذيل الأمالى والنوادر، ص ١٩٩، حياة محمد ص ١١٥، وكذا:
L. Caetani, Annali dell'Islam, 1905, p. 109.

(١٣٥) ابن الأثير ٢/ ١٦ - ١٧، تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٢ - ٢٥٤، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٢، ابن سعد ١/ ٤٤، ٥٢، شفاء الغرام ٢١/ ٨٥، نسب قريش ص ١٤، بلوغ الأرب ٢/ ٢٨٣ - ٣٨٤، نهاية الأرب ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨، المقريزى: كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ص ٢، ٧، جواد على ٤/ ٧١ - ٧٢، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ١/ ١٠٣ - ١٠٤، فارن: تفسير المنار ١١/ ٩٧

(١٣٦) العقاد. مطلع النور، ص ١١٨.

النسب، وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرباهم فى صدر الإسلام، وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة «دكوان» الذى يقولون أنه من آبائهم، ويقول النسابون أنه عبد مستلحق على غير سنة العرب فى الجاهلية.

فلقد روى «الهيثم بن عدى» فى كتاب «المثالب» أن «دغفلا» النسابة دخل على معاوية بن أبى سفيان - وهو خليفة - فقال له معاوية: من رأيت من عَلّيه قريش؟ فقال: رأيت عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس قال: فصف أمية، قال: رأيته شيخاً قصيراً، نحيف الجسم، ضريراً يقوده عبده «ذكوان»، فقال: مه، ذاك ابنه أبو عمرو، فقال: هذا شئ قلتموه وأحدثتموه، أما الذى عرفت، فهو الذى أخبرتك(١٣٧).

وفى العقد الفريد، «قيل للإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه، وكرم الله وجهه فى الجنة - أخبرنا عنكم وعن بنى أمية، فقال: بنو أمية أغدر وأمكر وأفجر، ونحن أصبح وأفصح وأسمح».

وعلى أى حال، وأياً ما كان سر هذا الفارق البيّن، فلقد كان بنو هاشم - أسرة النبى ﷺ - أصحاب رئاسة، وكانت لهم أخلاق رئاسة، عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة، وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق فى حادثة مأثورة مذكورة، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التى يتبرع بها الشعراء، أو من الكلمات التى ترسل إرسالاً على الألسنة ولايراد بها معناها.

ويبلغ هذا التنافر بين الأسرتين شأواً بعيداً، فيما بين عبد المطلب وحرب بن أمية، إذ كان كلاهما نمطاً فى بابه، ويروى المؤرخون أن حرباً نافر عبد المطلب إلى نفيل جد عمر بن الخطاب - وإن رأى البعض أن المنافرة إنما كانت مع هاشم - وأن نفيلاً قد قضى فيها لعبد المطلب، وأنه خاطب حرباً قائلاً: «أتنافر

---

(١٣٧) انظر. العقاد: مطلع النور، ص ١١٨ - ١٢٠، ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلى، القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٢٢، الأغانى ١/ ١٢.

رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً، وأطول منك مذوداً»(١٣٨).

وأما في الإسلام، فقد كان بنو أمية حجر عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية وناصبوها العداء الشديد، إلا قليلاً منهم ممن هداهم الله للإسلام، وبعد هجرة الرسول - ﷺ - إلى المدينة المنورة، واشتباك المسلمين مع مشركي قريش، كان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قائد الجيش في غزوة بدر، وكان أبو سفيان قائد العير، وفي غزوتي أحد والأحزاب كان أبو سفيان قائداً للجيش، بل إن أبا سفيان، حتى بعد إسلامه يوم فتح مكة، فقد كان - وكذا ولده معاوية - من الطلقاء ومن المؤلفة قلوبهم، فضلاً عن أنه هو القائل بعد اضطراب المسلمين في غزوة حنين والأزلام في كنانته «لاتنتهي هزيمتهم دون البحر»، تعبيراً عما في نفسه من الضغن على الإسلام ورسول الإسلام(١٣٩).

هذا وقد تميز عهد عبد المطلب بأمور كثيرة هامة، لعل أهمها: إعادة حفر زمزم، وحملة الفيل على مكة، على أن أهم الأحداث من عهده دون منازع - ليس في تاريخ مكة فحسب، وإنما في تاريخ البشرية جمعاء - إنما كان مولد جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ - وبذا كتب للرجل العظيم أن يكون جد سيد الأولين والآخرين، جد المصطفى ﷺ.

وعلى أية حال، فإن كتب السيرة إنما تروى أن عبد المطلب، إنما قد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم حتى أنه

---

(١٣٨) العقاد: مطلع النور، ص ١١٨ - ١٢٠، وانظر: بلوغ الأرب ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨، أعلام النبوة للماوردى، ص ١٣٨ (القاهرة ١٩٣٥)، عبد الفتاح شحاته: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(١٣٩) عبد الفتاح شحاته: المرجع السابق، ص ٢٥٠، ابن الأثير ٢/ ١٢٣ - ١٢٤، ١٤٩، ١٧٨، ٢٦٣، ابن كثير ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠، ٤/ ١١، ٩٥، ٣٢٧، تاريخ الطبرى ٢/ ٤٤٢ - ٤٤٣، ٥٠١، ٥٦٦، ٣/ ٧٤، المعارف ص ٧٥، المحبر ص ٤٧٣، تفسير الطبرى ١٤/ ٣١٣ (دار المعارف ١٩٥٨) نهاية الأرب للقلقشندى ص ٧٩٨ (بغداد ١٩٥٨)، عبد المنعم ماجد. المرجع السابق، ص ١١٣، ١١٥ - ١١٧

كان يفرش له فراش حول الكعبة، فيجلس عليه، ويجتمع حوله رؤساء قريش، لايجرؤ أحد على أن يجلس على فراشه، إلا النبي ﷺ(١٤٠).

وروى ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال: كان لعبد المطلب مفرش في الحجر يجلس عليه، لايجلس عليه أحد غيره، وكان رؤساء قريش يجلسون حوله - دون المفرش - فجاء رسول الله ﷺ - وهو غلام لم يبلغ الحلم - فجلس، فجذبه رجل فبكى، فقال عبد المطلب: ما لابني يبكى؟ قالوا: أراد أن يجلس على الفرش فمنعوه، فقال عبد المطلب: دعوا ابني يجلس، فإنه يحس في نفسه الشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لايبلغه عربي - قبله ولابعده - فكانوا بعد ذلك لايردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب.

هذا وقد دلت شفافية عبد المطلب على ما للنبي ﷺ، من شأن عظيم، فأحبه حباً ما أحبه أحد مثله، وفي كل مناسبة كان يأخذ بيد ولده أبي طالب، ويضعها في يد حفيده محمد - ﷺ ويقول له: «يا أبا طالب سيكون لابني هذا شأناً، فاحفظه ولاتدع مكروهاً يصل إليه».

هذا وتروى كتب السيرة أيضاً أن عبد المطلب إنما كان مجاب الدعوة، وكان يقال له «الفياض» لجوده، و «مطعم طير السماء»، لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال، كما كان من حلماء قريش وحكمائها.

وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور، وكان يقول - كما في السيرة الحلبية - «لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل من أهل الشام لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك ففكر ثم قال: والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء باساءته.

هذا وقد رفض عبادة الأصنام - في آخر عمره على الأقل - ووحد الله سبحانه وتعالى، وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، وجاءت السنة بها، منها الوفاء

---

(١٤٠) السيرة الحلبية ١/ ١٧٨.

بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهى عن قتل المؤودة، وتحريم الخمر والزنا، وأن لايطوف بالبيت عريان(١٤١).

وكان عبد المطلب - أو شيبة الحمد، وهذا اسمه الأصلى(١٤٢) - قوى الشخصية، عريض الجاه، مسموع الكلمة، روى أن رجلاً من «تميم»(١٤٣) تقدم حرب بنى أمية، فقال له حرب: موعدك مكة، فبقى التميمى دهراً، ثم أراد دخول مكة، وأخذ يبحث عن مجير له، فقيل له: لايجيرك إلا عبد المطلب، فأتى ليلاً، ودخل دار «الزبير بن عبد المطلب بن هاشم» - أول من دعا إلى حلف الفضول(١٤٤) - وأخبره القصة، فقال له الزبير: تقدم إلى المسجد، فإنا لانتقدم من نجيره، فرآه حرب بن أمية، فلطمه، فغدا عليه الزبير بالسيف، فأخذ حرب يعدو، حتى دخل دار عبد المطلب - والد الزبير - وقال له: أجرنى من الزبير، فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها، فبقى تحتها ساعة، ثم قال له عبد المطلب: أخرج، فقال حرب: كيف أخرج، وسبعة من ولدك قد اجتمعوا بسيوفهم على الباب، فألقى عليه عبد المطلب رداءة، فعلم أبناؤه أنه أجاره، فتفرقوا.

وإلى هذه القصة أشار عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حين دخل على معاوية بن أبى سفيان بن حرب فى خلافته، وعنده وفود العرب، فذكر كلاماً عن حرب بن أمية، فقال له ابن عباس: «من أكفأ عليه عبد المطلب إناء، وأجاره بردائه، فسكت معاوية تماماً»(١٤٥).

وروى أن يهودياً - كان فى جوار عبد المطلب - أغلظ القول لحرب بن أمية فى سوق تهامة، فأعزى به من قتله، فلم يتركه عبد المطلب حتى أخذ منه مائة

---

(١٤١) انظر السير الحلبية ١/ ٦ - ٧.

(١٤٢) أنساب الأشراف ١/ ٦٤ - ٦٥، ابن كثير، السيرة النبوية ١/ ١٨٤ - ١٨٥، سيرة ابن هشام ١/ ١٣٧ - ١٣٨، السيرة الحلبية ١/ ١٠ - ١١.

(١٤٣) تميم: قبيلة عربية فى نجد، لها بطون كثيرة (كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ١/ ١٢٥ - ١٣٣).

(١٤٤) انظر: السيرة الحلبية ١/ ٢١١ - ٢١٥، ابن كثير السيرة النبوية ١/ ٢٥٧ - ٢٦١.

(١٤٥) انظر (محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١/ ٨٣

ناقة، دفعها لابن عم اليهودى، الذى كان فى جواره، ثم ترك منادمة حرب، ونادم عبد الله بن جدعان[146].

هذا وقد تنازع العلماء فى دين عبد المطلب، فذهب فريق إلى أنه كان على ملة إبراهيم – أى أنه لم يعبد الأصنام، على أن هناك وجهاً ثانياً للنظر، يذهب إلى أن الله أحياه – بعد حديث النبى – ﷺ – أنه من أصلاب الطاهرين وأرحام الطاهرات، دليل على أن آباء النبى – ﷺ – وأمهاته إلى آدم، ليس فيهم كافر، لأن الكافر لايوصف بأنه طاهر، روى ابن الجوزى[147] فى الوفاء عن ابن عباس، أن رسول الله – ﷺ – قال: «لم يلتق أبواى قط على سفاح، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذباً، ولاتتشعب شعبتان، إلا كنت فى خيرهما».

وعن أبى هريرة أنه ﷺ، قال: «ماولدنى بغى قط، منذ خرجت من صلب آدم، ولم تتنازعنى الأمم كابراً عن كابر، حتى خرجت من أفضل حييَّن من العرب، هاشم وزهرة»، وفى هذا دليل على طهارة آبائه وأمهاته من الكفر.

وأورد «ابن عساكر» من حديث عاصم عن شعيب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى «وتقلبك فى الساجدين»[148] قال: «من نبى إلى نبى، حتى أخرجت نبياً».

وروى البزار وابن أبى حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية: يعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى، حتى أخرجه نبياً»[149].

وفى تفسير القرطبى: وقال ابن عباس: أى فى أصلاب الأنبياء آدم ونوح

---

(١٤٦) انظر: أنساب الأشراف ١/ ٧٣ – ٧٤، السيرة الحلبية ١/ ٦، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١/ ٨٣.

(١٤٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى: الوفا بأحوال المصطفى – الجزء الأول – القاهرة ١٩٦٦.

(١٤٨) سورة الشعراء: آية ٢١٩

(١٤٩) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٣.

وإبراهيم حتى أخرجه نبياً[١٥٠].

هذا وقد حكم الإمام القرطبى أن من مات قبل البعثة - زمن الفترة - إنما يموت ناجياً، ولايعذب، ويدخل الجنة[١٥١]، لقول الله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً»[١٥٢].

وقد طبقت الأئمة الأشاعرة من أهل الأصول، والشافعية من الفقهاء، على أن من مات، ولم تبلغه الدعوة، يموت ناجياً، ويدخل الجنة، ونص على ذلك الإمام الشافعى رضى الله عنه (١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠ م) فى درته الفريدة «الأم»[١٥٣]، ومن ثم فإن عبد المطلب إنما كان مؤمناً، أو أنه لم يشرك بالله عز وجل.

وفى السيرة الحلبية، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال رسول الله - ﷺ - «يبعث جدى عبد المطلب فى زى الملوك، وأبهة الأشراف»[١٥٤].

على أن هناك وجهاً رابعاً للنظر إنما يذهب أصحابه إلى أن عبد المطلب إنما كان مشركاً، - هو وغيره من آل النبى ﷺ - إلا من صح إيمانه، وهذا أمر فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم من الفرق فى النص والاختيار[١٥٥].

---

(١٥٠) تفسير القرطبى، ص ٤٨٦٠.

(١٥١) تفسير القرطبى، ص ٣٨٤٧ - ٣٨٤٨.

(١٥٢) سورة الإسراء: آية ١٥، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧ - ٥٤، تفسير النسفى ٢/ ٣٠٩، فى ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٦، صفوة التفاسير ٣/ ١٥٤ تفسير القرطبى، ص ٣٨٤٧ - ٣٨٤٨.

(١٥٣) انظر: الإمام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى - الأم - (كتاب الشعب - القاهرة ١٩٦٩، ٧ أجزاء).

(١٥٤) على برهان الدين الحلبى: السيرة الحلبية (إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون) الجزء الأول، القاهرة ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م، ص ١٨٤.

(١٥٥) انظر عن الآراء المختلفة فى عقيدة عبد المطلب (محمد بيومى مهران: فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول، بيروت، ١٩٩٠، ص ٧٩ - ٨٦).

(١٠) مكانة مكة المكرمة:

أصبحت مكة منذ آل أمرها إلى قريش على أيام قصى مركزاً للحياة الدينية فى شبه الجزيرة العربية، تشد إليه الرحال، وتشخص إليه الأبصار وفيها أكثر من كل جهة سواها، كانت ترعى الأشهر الحرم، بسبب وجود الكعبة المشرفة هناك، لذلك كله، ولمركزها الممتاز فى تجارة العرب، كانت تعتبر وكأنها عاصمة شبه الجزيرة العربية.

وفى الواقع أنه رغم وجود «البيوت الحرام» فى بلاد العرب، كبيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت نجران وغيرها من البيوت الحرام(١٥٦)، فإن واحداً منها لم يجتمع له مثل ما اجتمع لبيت مكة، ذلك لأن مكة إنما كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام، ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو فى رحلاتها، فليست مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن، أو المناذرة فى الحيرة، أو الغساسنة فى الشام – وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان، كسلطان الروم أو الفرس أو الأحباش، وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطئ، أو بين بوادى الصحراء – وإنما كانت مكة بمثابة عبادة وتجارة، وليست فى حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولايبالى من عداه، وهى إن لم تكن كذلك من أقدم زمانها، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق، الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة(١٥٧).

وزاد من قيمة مكة، أن اليمن – بعد الاحتلال الحبشى فى عام ٥٢٥م –

---

(١٥٦) أنظر: ياقوت ١/ ٢٣٨ ، ٣/ ٤٢٧، ٤/ ٣٩٤ – ٣٩٥، ٥/ ٢٦٨ – ٢٦٩، بلوغ الأرب ١/ ٣٤٦ – ٣٤٧، ٢/ ٢٠٢، ٢٠٧ – ٢٠٩، ١١٢، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩٣، الأصنام ص ٣٨، الروض الأنف ١/ ٦٦، الأغانى ٣/ ١٧٢

(١٥٧) العقاد. مطلع النور، ص ١١٢ – ١١٣

لم تنجح في سد الفراغ الذى تركته البحرية الرومية، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية، ومن ثم فقد أصبح الطريق البرى - عبر تهامة والحجاز - هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة، وكان لابد - بعد زوال النشاط اليمنى - أن يوجد من يسد هذا الفراغ ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين، لنقل التجارة، وقد وجد هذا الوسيط ممثلاً في مكة[158]، التي حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادى بمكانة ممتازة بين عرب الشمال فضلاً عن طرفى الصراع الدولى (الفرس والروم) وقت ذاك، وساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنافسين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية، وبعد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى[159].

وهكذا كان موقع مكة الجغرافي سبباً في أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التي ترد من العربية الجنوبية تريد الشام، أو القادمة من الشام تريد اليمن، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادى نجح القرشيون في احتكار التجارة في بلاد العرب، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التي تربط اليمن بالشام من ناحية وبالعراق من ناحية أخرى[160].

وقد بلغت شهرة القرشيين في التجارة ومهارتهم فيها، إلى أن يذهب البعض إلى القول بأن «قريشاً» إنما سميت كذلك لاحترافها التجارة، لأن التقرش إنما هو التجارة والاكتساب[161]، وإلى أن تذكر رحلاتهم التجارية في القرآن الكريم،

---

(١٥٨) أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٥٤.

وكذا، S. A. Huzayyin, Arabia and the Far East, p. 142 - 3.

وكذا: E. Gibbon, op. cit., 5, p. 213.

(١٥٩) أنظر كتابنا «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، الجزء الأول.

(160) W.M.Watt, Muohammed at Mecca, Oxford, 1963, p. 3.

(١٦١) ابن هشام ١/ ٦٠، ياقوت ٤/ ٣٣٦، مجمع الأمثال ٢/ ٧٢، نهاية الأرب ص ٣٦٤ (بغداد ١٩٥٨)، فجر الإسلام ص ١٣ - ١٤، تاريخ مكة، ص ٥٩، البلاذرى ١/ ٥٩، راجع تفسيرات أخرى في: ياقوت ٤/ ٣٣٦ - ٣٣٧، تفسير روح المعانى ٣٠/ ٢٣٨ - ٢٣٩، تفسير الفخر الرازى ٣٢/ ١٠٦

حيث يقول سبحانه وتعالى: «لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»(١٦٢).

هذا وقد كانت قوافل مكة أشبه بالحملات تكون بآلاف الإبل، التى يقوم على حمايتها جيش خاص دعوة «الأحابيش»(١٦٣) لعلهم من العرب أو السودان، فكانت مكة أشبه ببنك كبير، فلم تكن القوافل ملكاً لشخص واحد وإنما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة، كهاشم وأمية ومخزوم ونوفل(١٦٤)، وقد أدى ذلك إلى تضخم أموال قريش، حتى بلغت قوافلهم التجارية فى عهد غزوة بدر(١٦٥) ألف بعير، مضافاً إليها خمسون ألف دينار منقولة بين أثقالهم، بل إن رجلاً واحداً - هو سعيد بن العاص (أبو أحيحة) - استطاع أن يسهم فى رأس مالها بثلاثين ألف دينار، كما بلغت قوافلهم فى بعض المرات ألفين وخمسمائة بعير، وهى نسبة لها قيمتها المادية. إذا قيست بالثروات فى عهدها، هذا وقد بلغ ثراء قريش إلى أنها قد استطاعت فى غزوة بدر أن تفتدى أسراها من المكيين

---

(١٦٢) سورة قريش، وانظر: تفسير القرطبى ٢٠/ ٢٠٠ - ٢٠٩ (دار الكتب المصرية)، تفسير الفخر الرازى ٣٢/ ١٠٣ - ١١٠، تفسير البيضاوى ٢/ ٥٧٧، تفسير الطبرى ٣٠/ ٣٠٥ - ٣٠٩ (طبعة الحلبى)، تفسير روح المعانى ٣٠/ ٢٣٨ - ٢٤١.

(١٦٣) انظر عن الأحابيش: تاج العروس ٤/ ١٣٠، ٩/ ٢٠٠، تاريخ الطبرى ٢/ ٥٠١، تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤١، تاريخ مكة ص ٥٢، نسب قريش ص ٣٨٩، ابن الأثير ٢/ ١٤٩، المعارف ص ٣٠٢ - ٣٠٣، العمدة ٢/ ١٩٤، اللسان ٦/ ٢٧٨، البلاذرى ١/ ٥٢، ٧٦، المحبر ص ٢٤٦، ٢٦٧ العبادى: المرجع السابق، ص ١٢ - ١٣، جواد على ٣/ ٣٠ - ٣٦.

(١٦٤) تاريخ الطبرى ٢/ ٤٢١ - ٤٢٢، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧، الطبقات الكبرى ١/ ٤٠، عبد المنعم ماجد ١/ ٧٩، وكذا:

Essad Bey, La Vie de Mahomot, p. 42.

(١٦٥) أنظر عن «غزوة بدر» (يوم الجمعة ١٧ رمضان ٢ هـ = ١٤ مارس ٦٢٤م): تاريخ الطبرى ٢/ ٤٢١ - ٤٧٩، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧ - ٢١، ابن الأثير ٢/ ١١٦ - ١٣٧، ابن كثير ٣/ ٢٥٦ - ٣٤٤، وفاء الوفا ١/ ١٩٦ - ١٩٧، ابن هشام ٢/ ٦٣ - ٤، المعارف ص ٧٥ - ٧٨، الأغانى ٤/ ١٧٦ - ٢٠٩، ياقوت ١/ ٣٥٧ - ٣٥٨، البكرى ١/ ٢٤١ - ٢٣٢ تفسير الطبرى ١٣/ ٤٠٩، ٤٤٣، ٥٧٨.

بأربعة آلاف درهم للرجل، إلى ألف درهم، إلا من عفا عنهم النبى - ﷺ - من المعدمين[١٦٦].

وعلى أي حال، فإن ظروف مكة السياسية والاقتصادية والجغرافية قد جعلت منها مدينة عربية لجميع العرب، فلم تكن كسروية أو قيصرية، ولاتبعية أو نجاشية، كما عساها أن تكون لو استقرت على مشارف الشام، أو عند تخوم الجنوب، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها، ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه[١٦٧].

وقد عملت قريش على توفير الأمن فى منطقة مكة، وهو أمر ضرورى فى بيئة تغلى بالغارات وطلب الثأر، حتى يكون البيت الحرام ملاذاً للناس وأمناً، وحتى يجد فيها من تضيق به الحياة، ويتعرض لطلب الثأر، الأمن والحماية، ولعل هذا هو السبب فى أن تحافظ قريش على الأشهر الحرم فى موسم الحج، حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم، هذا فضلاً عن حركة اصلاح أخرى قامت بها قريش، مؤداها ألا تقر بمكة ظلماً، سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس، فعقدت من قبائلها ومع القبائل الأخر المجاورة حلفا عرف «بحلف الفضول»، يروى المؤرخون أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف، فاجتمع فى دار «عبد الله بن جدعان» بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، وتعاهدوا على أن لايظلم بمكة غريب ولاقريب، ولا حر ولا عبد، وإلا كانوا معه يأخذون له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه فى جفنة وبعثوا به إلى البيت الحرام فغسلت به أركانه وشربوه، ومن عجب أن الأمويين وبنى عبد شمس قد أبوا على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف، وقد روى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان

---

(١٦٦) أحمد السباعى: تاريخ مكة، ص ٣٦ - ٣٧. وانظر: الواقدى: كتاب المغازى، ١٣٨/١ - ١٤٥ بيروت ١٩٨٤.

وكذا: P K.Hitti, op.cit.,p 104.

(١٦٧) العقاد. مطلع النور ص ١١٣.

حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت»(١٦٨).

ولم تكتف قريش بذلك، وإنما عملت على توفير الماء والطعام للحجيج فى منطقة يشح فيها الماء ويقل الطعام، ومن ثم فقد قامت بحفر الآبار فى منطقة مكة وأنشأت فيها أماكن للسقاية، ثم أوكلت سقاية الحاج إلى البطون القرية منها، وهكذا غدت سقاية الحاج – بجانب عمارة البيت وسدانته – عملاً يراه القوم فى قمة مفاخرهم وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد فى سبيل الله»(١٦٩).

وكان أمر ضيافة الحجيج عملاً لايقل عن سقايتهم، وقد أسندتها قريش إلى الأغنياء من رجالاتها، لأن قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية، يصعب معه حمل الزاد، ومن ثم فقد كانت الرفادة تكلف أصحابها الكثير من أموالهم، بجانب ما تقدمه قريش لهم، إلا أن هذا الأمر فى الوقت نفسه قد أفاد قريشاً كثيراً، إذ كانت المؤاكلة فى نظر العرب، إنما هى عقد حلف وجوار، فضلاً عن أن الضيافة فى ذاتها من أكبر ما يحمد الرجل عليه، وهكذا كانت قريش بعملها هذا، وكأنها تعقد حلفاً مع كل القبائل العربية، تحمى به تجارتها، وتسبغ على رجالاتها نوعاً من التقدير والاحترام عند العرب، لايتوفر لغيرهم(١٧٠).

---

(١٦٨) العقاد. المرجع السابق، ص ١١٣. ١١٩، ابن هشام ١/ ١٤٣ – ١٤٥ (مكتبة الجمهورية بمصر)، المحبر ص ١٦٧، المعارف ص ٢٩٤، ابن كثير ٢/ ٢٩١ – ٢٩٢، ابن الأثير ٢/ ٤١ – ٤٢، السيرة الحلبية ١/ ١٥٧، الروض الآنف ١/ ٩١، ثمار القلوب للثعالبى ص ١٤١، تاريخ اليعقوبى ٢/ ١٧ وما بعدها، عبد المنعم ماجد ١/ ٨٣، محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٣٥ (القاهرة ١٩٧١).

(١٦٩) سورة التوبة. آية ١٩، وانظر: تفسير الطبرى ١٤/ ١٦٨ – ١٧٣، تفسير المنار ١٠/ ٢١٥ – ٢٢٠، الكشاف ٢/ ١٨٠، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣ – ٣٧٤، تفسير القرطبى ٨/ ٩١ – ٩٢، فى ظلال القرآن ١٠/ ١٦١٤ – ١٦١٥، تيسير العلى القدير ٢/ ٢١٦ – ٢١٧

(١٧٠) ابن هشام ١/ ١٤٥، ابن سعد ١/ ٥٨.

وخطت قريش خطوة أخرى فى اجتذاب القبائل العربية، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة[١٧١]، فكان لكل قبيلة أوثانها تأتى فى الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها، وهكذا أخذ عدد الأصنام يزداد عند الكعبة بمرور الزمن، حتى جاء وقت زاد عددها على ثلاثمائة، كان منها الكبير ومنها الصغير، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات، وإن كان أكبرها جميعاً إنما هو «هبل» الذى جعله القوم على هيئة إنسان من عقيق أحمر[١٧٢].

ويبدو أن الأساس الذى قامت عليه مكانة الكعبة، أن البيت الحرام بجملته كان هو المقصود بالقداسة، غير منظور إلى الأوثان والأصنام التى اشتمل عليها، وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل، وتزدريه قبائل أخرى، فلا يغض ذلك من مكانة البيت عند المعظمين والمزدرين، واختلفت الشعائر والدعاوى التى يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت - كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره والمتكلفون بخدمته - فكانت قداسة البيت هى القداسة

---

(١٧١) تعرضت الكعبة قبيل الإسلام لعدة سيول فى أوقات مختلفة، أدت إلى تصدع جدرانها، مما اضطر القوم إلى هدمها وإعادة بنائها، ويكاد يجمع المؤرخون أن ذلك تم، والمصطفى (ﷺ) فى الخامسة والثلاثين من عمره الشريف، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان المولد النبوى فى ٢٠ أبريل. ٥٧١م - كما حدده محمود الفلكى - فإن إعادة بناء الكعبة إنما كان فى عام ٦٠٦م (انظر: الطبرى ٢/ ١٨٧ - ٢٩٠، ابن الأثير ٢/ ٤٢ - ٤٥، المسعودى ١/ ٢٧١ - ٢٧٣، ابن كثير ٢/ ٢٩٩، ٢٠٤، ياقوت ٤/ ٤٦٦، الأزرقى ١/ ٢٥٤ - ٢٥٥، العمرى ١/ ٦٤، المقدسى ٤/ ١٣٩ - ١٤٠، ابن هشام ١/ ١٩٢ - ١٩٩، التقويم العربى قبل الإسلام ص ٣٨، تفسير الطبرى ٢/ ١٢٢ - ١٢٣، تاريخ الخميس، ص ١٢٦ - ١٣٦، نهاية الأرب ١/ ٢٣٢، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٥ - ٢٧٦، وكذا:

A.Guillaume, op.cit ,p. 23

وكذا:

I.Sahid, In CHI, I. 1970, p. 31

(١٧٢) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٥٤ - ٢٥٥، الروض الأنف ٢/ ٢٧٦، الأزرقى ١/ ١٢٠ - ١٢١، لوبون حضارة العرب ص ١٢٤، تاريخ التمدن الإسلامى ١/ ٣٧، الأصنام ٢٧ - ٢٨، وكذا:

E.Gibbon, op.cit.,p. 225

التى لاخلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية، وجاز عندهم - من ثم - أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم، ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير[(١٧٣)].

وبقيت الكعبة المشرفة هكذا بأصنامها (٣٦٠ صنماً) حتى العام الثامن للهجرة، حيث أكرم الله تعالى رسوله والمؤمنين بفتح مكة فى رمضان ٨ هـ (ديسمبر ٦٣٠)، فقام المسلمون بتحطيم الأصنام، ويروى أن النبى (ﷺ)، رأى صورة إبراهيم، وهو يستقسم بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام، وفى صحيح البخارى عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، لما قدم مكة، أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، قال: فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم واسماعيل فى أيديهما الأزلام، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط»[(١٧٤)]، ثم حكم رسول الله ﷺ، برفع كل التماثيل والصور، وهو يقول «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»[(١٧٥)].

وفى ثانى يوم الفتح، خطب النبى ﷺ، خطبته المشهورة التى وضع فيها مآثر الجاهلية، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ثم قال: يا أهل قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أنى فاعلٌ بكم، قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخٍ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وهكذا اعتقهم رسول الله ﷺ، وكانوا له فيئاً، ومن ثم فقد سمى سكان مكة يوم الفتح «بالطلقاء»، ثم أعلن رسول الله ﷺ، إن مكة سوف تبقى

---

(١٧٣) العقاد: مطلع النور، ص ١١٥.

(١٧٤) ابن قيم الجوزية: زاد المعادى فى هدى خير العباد ٢/ ٢٩٦ (بيروت ١٩٨٥)، صحيح البخارى ٣/ ٣٧٥ - ٣٧٦، سنن أبى داود ١/ ٦٤٧، السهيلى: الروض الأنف ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٦، صحيح مسلم ٥/ ١٧٣، ارشاد السارى ٧/ ٢١٠، السيرة الحلبية ١/ ١٤٤، ٣/ ٨٧، الفاسى: العقد الثمين ١/ ١٥٧، ٢١٢، ابن الكلبى: الأصنام ص ٣١ - ٣٣، الأزرقى: أخبار مكة ١/ ١٦٨ - ١٦٩.

(١٧٥) سورة الإسراء. آية ٨١

حرما آمناً لايقاتل فيها، وأن تكون الكعبة هي بيت الله الحرام، يحج إليها العرب حتى المشركون منهم[176].

وفى العام التاسع للهجرة (٦٣٠ - ٦٣١م) - عام الوفود - بقى المصطفى ﷺ في المدينة يستقبل الوفود، حيث كان ما يزال في بلاد العرب من لم يؤمن بعد بالله ورسوله، وإن كانوا في الوقت نفسه، ما يزالون - كما كانوا في الجاهلية - يحجون إلى الكعبة في الأشهر الحرم، ومن ثم فليبق سيدنا رسول الله ﷺ، إذا بالمدينة، حتى يتم الله كلمته، وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته، وليخرج أبو بكر حاجاً بالناس[177].

على أن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، سرعان ما أمر الإمام على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه، أن يسرع إلى مكة قبل أن تصل إليها وفود الحجيج من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ليبلغهم بسورة نزل بها الوحى من السماء، والتى عرفت بسورة براءة، ويقوم سيدنا الإمام على بالمهمة خير قيام، ويبلغ رسالة النبى الأعظم ﷺ، إلى الناس في اجتماعهم العام هذا «يوم الحج الأكبر» في «منى» وقبل الوقوف في «عرفات»، وقد جاء في هذه الرسالة، قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله، إن شاء، إن الله عليم حكيم»[178].

---

(١٧٦) تاريخ الطبرى ٣/ ٧٦١، البلاذرى: فتوح البلدان ص ٤٢، النويرى: تهذيب الأسماء، واللغات ١/ ٢٩٨، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٤ - ٤٥، المسعودى مروج الذهب ٢/ ٢٩٠، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٢٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٠١

(١٧٧) ابن هشام: سير النبى ﷺ ٢/ ٩١٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٢٨٦ - ٢٩٢، ابن قتيبة: المعارف ص ٨٢، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥١ - ٥٨، فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٦٤ - ١٦٥، ارفنج· حياة محمد ص ٢٢٩، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٤٧٠ - ٤٧٦. الصديق أبو بكر، ص ٥٣.

(١٧٨) سورة التوبة: آية ٢٨، وانظر: تفسير الطبرى ١٤/ ١٩٠ - ١٩٨، تفسير البحر المحيط ٥/ ٢٧ - ٢٩، فى ظلال القرآن ٣/ ١٦١٨ - ١٦١٩، تفسير الجلالين ص ١٧٠، ١٧٣، تفسير القرطبى ص ٢٩٤٢ - ٢٩٤٨، تفسير المنار ١٠/ ٢٤٠ - ٢٤٧، تفسير النسفى ٢/ ١٢٢ -
=

ويعلن الإمام على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه فى الجنة، بأمر رسول الله ﷺ، «يا أيها الناس: إنه لايدخل الجنة كافر، ولايحج بعد اليوم مشرك، ولايطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد رسول الله ﷺ، عهد فهو إلى مدته»، وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك، ليرجع كل قوم إلى بلادهم، ومن يومئذ لم يحج بالبيت مشرك، ولم يطف بالبيت عريان»، وهكذا أعاد الإسلام إلى الكعبة وجهها الصحيح، كما كان على أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بيتاً لله وحده، لايعبد فيه أحد غيره»(١٧٩).

وهكذا ازدادت الكعبة المشرفة شرفاً وفضلاً فى الإسلام، فقد جعل الله تعالى الكعبة البيت الحرام قبلة المسلمين فى صلاتهم، وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فى غيره، كما أن الحج - ركن الإسلام الخامس - لايتم إلا بالطواف حول الكعبة المشرفة، فهذان ركنان من أركان الإسلام الخمسة - الصلاة والحج - لايتم الواحد منهما إلا بالإتجاه إلى الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة. ولايصح الثانى إلا فى مكة ومجاوراتها (عرفة - المزدلفة - منى)، وهكذا، ومنذ السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة (عام ٦٣١/٦٣٠م) أصبحت مكة المكرمة مدينة الإسلام المقدسة، يحج إلى كعبتها كل عام عدد من البشر يفوق - على وجه اليقين - أى عدد آخر من الحجاج إلى أى مكان آخر على ظهر الأرض، يقصدون إليها لأداء فريضة الحج والصلاة فى بيتها الحرام، والطواف حول كعبتها

= ١٢٣، صفوة التفاسير ١/ ٥٣٠، تفسير أبى السعود ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥، تفسير ابن كثير ٢/ ٥٤١ - ٥٤٢، صحيح البخارى ٦/ ٨١.

(١٧٩) ابن هشام: سيرة النبى ﷺ ٤/ ٢٠١ - ٢٠٥، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٢٩١، المسعودى: مروج الذهب ٢/ ٢٩٠، التنبيه والإشراف ص ١٨٦ - ١٨٧، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٣، تفسير الطبرى ١٤ / ٩٥ - ١١٢، تفسير البيضاوى ١/ ٣٨٣، محمد بن عبد الوهاب: مختصر زاد المعاد ٢ ٣٦٧ - ٣٦٨، الخربوطلى المرجع السابق، ص ٨٨٩، محمد حسين هيكل: حياة محمد ص ٤٧٦، الساعى: تاريخ مكة، ص ٥٤، فيلب حتى: المرجع السابق ص ١٦٢ - ١٦٤، محمد الشتونى المرجع السابق، ص ١٧.

هذا وقد وردت عدة أحاديث شريفة فى فضائل الكعبة المشرفة - فضلاً عن مكة نفسها - من ذلك ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما بسنده عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولايعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فيها، فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب»، وروى الترمذى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلى ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك»، وفى رواية للإمام أحمد والترمذى وابن ماجة وابن حبان عن ابن الحمراء أن رسول الله ﷺ قال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت، وروى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة سلاح».

وروى أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة فى مسجدى هذا (أى مسجد الرسول بالمدينة) خير من ألف صلاة، إلا فى المسجد الحرام، وفضل المسجد الحرام فضل مائة صلاة» وعن عطاء بن أبى رباح عن ابن الزبير قال، قال رسول الله ﷺ «فضل المسجد الحرام على مسجدى مائة صلاة»، وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام»، وروى النووى فى شرح صحيح مسم عن عبد الله بن الزبير قال قال ﷺ: «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى» وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هذا، والمسجد الحرام، ومسجد الأقصى»[(١٨٠)].

---

(١٨٠) انظر: صحيح مسلم ٩/ ١٢٣ - ١٦٩ (بيروت ١٩٨١)

(٢) المدينــة المنــورة

(١) موقع المدينة الجغرافى وأهميته:

تقع المدينة المنورة - يثرب - على مبعدة ٤٨٠ كيلا شمالى مكة المكرمة، فى واحة خصبة، غزيرة المياه، بين لابتين بركانيتين: الأولى: حرة واقم، وهى الحرة الشرقية ، وتسمى أيضاً حرة بنى قريظة، لأنهم كانوا بطرفها القبلى، وحرة زهرة، لمجاورتها لها، وتنقسم حرة واقم، باعتبار المنازل الواقعة فيها قديماً، إلى خمس مناطق متجاورة، منطقتان كانتا لليهود، وثلاث كانت للأوس من الأنصار، ففى زهرة منازل بنى النضير، وفى شمالها منازل بنى قريظة، وفى شمال هذه - أى منازل بنى قريظة، تقع منازل بنى ظفر من الأنصار، وبجانبهم نحو الشمال كذلك منازل بنى عبد الأشهل، مع بنى زعور بن جشم الأنصاريين، وفى منازل بنى عبد الأشهل كان حصنهم «واقم» وهو الذى سميت به الحرة، وبشمالهم منازل بنى حارثة إلى نهاية الحرة شمالا[١].

ويذهب الأستاذ الأنصارى: إلى أنه قد عثر فى «حرة واقم» هذه، على آثار مصنع قديم فيه أنواع القطع الفخارية المدهونة من كل لون، وبجانب هذا المصنع صهريج ماء مطلى بالرصاص بالداخل، وبشرقه غدير[٢].

هذا وفى حرة واقم هذه كانت وقعة الحرة المشهورة (يوم الأربعاء ٢٨ ذى الحجة ٦٣ هـ - ٢٨ سبتمبر ٦٨٢م)، حيث قتلت جيوش يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان (٦٠ - ٦٣ هـ/ ٦٨٠ - ٦٨٤م) خلقاً كثيراً، واستبيحت مدينة الرسول (ﷺ) ثلاثة أيام، وذهبت بعض المصادر إلى أن عدد القتلى بلغ ألف

---

(١) السمهودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٤/ ١١٨٨ (بيروت ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١)، عبد القدوس الأنصارى: آثار المدينة المنورة ص ٢١٠، (المطبعة السلفية، المدينة المنورة ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣م).

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢١١.

وسبعمائة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف، سوى النساء والصبيان، وقتل من حملة القرآن سبعمائة، ومن قريش ٩٧ قتلوا صبراً، وافتضت ألف عذراء، روى ابن الجوزى بسنده إلى المدائنى عن أبى قرة، قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زواج، وروى المدائنى بسنده عن أم الهيثم ابنة يزيد قالت: رأيت امرأة من قريش تطوف، فعرض لها أسود فعانقته فقبلته، فقلت: يا أمة الله، أتفعلين هذا بهذا الأسود، فقالت: هو ابنى: وقع على أبوه يوم الحرة، ومن المؤلم المحزى أن يكتب مسلم بن عقبة المرى - قائد جيش زياد فى الحرة-بما فعله بأهل المدينة، ثم يوقع كتابه «فلاتأس على القوم الفاسقين»[٣].

والثانية - حرة الوبرة: وكانت تقع بضاحية المدينة الغربية - وعلى مبعدة ٤ كيلا من المدينة - وكانت أقرب إلى المدينة من حرة واقم، وتمتاز بكثرة الهضاب والمستنقعات والمنخفضات والمرتفعات، وفى هذه الحرة المدرج الذى يقال أنه «ثنية الوداع»، وفى طرفها الشمالى الشرقى منازل بنى سلمة، ومن تحت طرفها الغربى بئر عروة وقصره ومزارعه، وبطرفها الشمالى مسجد القبلتين، وبطرفها الغربى أطم الصيحات وقلعة قباء.

هذا ومن المعروف أن حرة الوبرة هذه، وحرة واقم، أنهما اللابتات اللتان تحدان حرم المدينة، وأنهما تلتقيان فى ناحيتهما الجنوبية الغربيْة والجنوبية الشرقية، بالنسبة للمدينة[٤].

---

(٣) أنظر عن واقعة الحرة (تاريخ الطبرى ٥/ ٤٨٢ - ٤٩٥، ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ٤/ ١١١ - ١٢١، المسعودى مروج الدهب ٢/ ٩٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى ١/ ٢٨٦ - ٢٨٧، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢٥٠ - ٢٥١، منحمد بيومى مهران: فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين، الجزء الثامن، الإمام الحسين بن على، ص ١٨٣ - ١٨٩ (بيروت ١٩٩٠)، العقد الفريد ٤/ ٢٨٦، ٥ / ١٣٦ - ١٤٠، حسين محمد يوسف: الحسين بن على، ص ٣٧٨ - ٣٨٤ (القاهرة ١٩٧٣)، ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ١٩٨ - ٢١٩، ابن دقماق: الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ص ٦٩٠ - ٦١).

(٤) السمهودى الوفاء ٤/ ١١٨٨ - ١١٩٠، عبد القدوس الأنصارى. المرجع السابق، ص ٢١٢ - ٢١٣

هذا ويحد المدينة المنورة من الشمال «جبل أحد»، كما يقع «جبل عير» على حدها الجنوبي، وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق والغرب، منحدرة من الجنوب والشرق، محيطة بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتى تجتمع في شمالها الغربي، وتسير في انحدارها مياه الأمطار فتجعل من أرض المدينة جنات ذات زرع، زاهية بالخضرة، وبساتين تنبت أشجار النخيل والفاكهة، ولذلك فقد كانت حياة السكان في المدينة إنما تعتمد في المقام الأول على تملك الأرضين الزراعية واستثمارها.

وأما أودية المدينة فهي ستة: ١- وادى العقيق (في ضاحيتها الغربية) ٢- وادى رانوناء (في ضاحيتها الجنوبية الغربية) ٣- وادى بطحان (في ضاحيتها الجنوبية) ٤- وادى مذينيب (في ضاحيتها الجنوبية الشرقية) ٥- وادى مهزور (في ضاحيتها الشرقية) ٦- وادى قناة (في ضاحيتها الشمالية الشرقية).

هذا ويسيل واديا العقيق وقناة في خارج المدينة، أما الوديان الأربعة الأخرى (رانوناء - بطحان - مذينيب - مهزور) فتجتمع في وادى بطحان من جنوب المدينة، وتسير ممتزجة مع بعضها حتى تدخل المدينة من الأبواب الحديدية التي كانت معمولة لها قديماً تحت باب قباء بشرقيه.

هذا وتشق الأودية الأربعة المدينة ممتزجة، إلى الشمال، وذلك في المسيل المعروف باسم «أبو جيدة» حتى تخرج من باب «البرابيخ»، وتفيض في «صفاصف» إلى أن تبلغ سفح جبل «سلع» ثم تفضى إلى «زغابة» حيث تجتمع بسيلي العقيق روادى قناة[٥].

ولعل من الأهمية بمكان أن أهل المدينة (يثرب) إنما كان مدار شربهم في الجاهلية على الآبار وهي:

١- بئر أريس: نسبة إلى صاحبها، وتقع غربي مسجد قباء بحوالي ٣٨ م،

---

(٥) انظر وديان المدينة (عبد القدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م، ط ثالثة، ص ٢١٥ - ٢٣٧).

وعمقها ١٢ متراً وفى أسفلها فتحتان يجرى منها الماء إلى البئر، وثالثة تصلها بمجرى العين الزرقاء، وماؤها غزير، وهو عذب خفيف، وكثيراً ما جلس النبى (ﷺ) على قفّها، وقد عرفت باسم «بئر الخاتم» منذ وقع فيها خاتم النبى من يد عثمان بن عفان فى السنة السادسة من عهده والبئر الآن جافة.

٢- بئر رومة: وتقع فى عرصة العقيق الكبرى، قرب مجتمع الأسيال (زغابة) بشمال غربى المدينة، وقطرها ٤ م، وعمقها ١٢ م، وهى غزيرة الماء، وماؤها عذب صاف، خفيف للغاية، ولذا فقد رغّب النبى (ﷺ) أصحابها على شرائها، ووقفها على المسلمين، وقد فعل ذلك عثمان بن عفان فاشتراها من صاحبها اليهودى بعشرين ألف درهم ثم أوقفها على المسلمين.

٣- بئر غرس: وكان النبى (ﷺ) يشرب منها، بل وأوصى بغسله بمائها بعد وفاته، وكانت وقت ذاك لسعد بن خيثمة الأنصارى.

٤- بئر حاء: وتقع خارج سور المدينة، وكانت ملكاً لأبى طلحة الخزرجى، وقد أوقفها على أقاربه، وآل قسم منها إلى حسان بن ثابت، ثم اشتراها كلها معاوية بن أبى سفيان وبنى بها قصراً (قصر بنى جديلة لوقوعه فى منازلهم)، ليأوى إليه بنو أمية، إذا وقعت بهم النوائب، كما كان متوقعاً.

٥- بئر بضاعة: وتقع قريباً من سقيفة بنى ساعدة، وهما لبنى ساعدة.

٦- بئر السقيا: وتقع جنوبى مبنى السكة الحديدية، ويفصل بينهما طريق مكة، وهى عميقة محفورة فى الصخر، وقد شرب منها النبى (ﷺ) وتوضأ، وعلى أرضها - وتدعى الفلجان - عرض النبى (ﷺ) الجيش الذاهب إلى «بدر»، وكانت ملكاً لذكوان الزرقى، ثم اشتراها منه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

٧- بئر أبى أيوب. ولعله أبو أيوب النجارى الخزرجى الأنصارى، الذى تنسب إليه بئران أو ثلاثة، - وهو الذى شرف بنزول النبى ﷺ - بمنزله عند قدومه المدينة فى الهجرة عام ٦٢٢م (١هـ) - وتعرف حتى الآن ببئر أبى أيوب، وتقع شرقى البقيع، وكان ماؤها بين العذب والمالح.

٨- **بئر ذروان**: وتنسب إليها حادثة السحر المزعومة[٦]، وتقع في منازل بني زريق وهم أصحاب الشر، وتقع جنوبي المدينة.

٩- **بئر عروة بن الزبير**، وتقع في طرف حرة الوبرة الغربي بالنسبة إلى المدينة، عن يمين المسافر في الطريق إلى مكة، وماؤها أرق مياه المدينة وأعذبها وأخفها، ويقول ابن خلكان: ليس في المدينة بئر أعذب منها.

(٢) بين مكة ويثرب:

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك خلافاً بين الأوضاع الجغرافية والسكانية والاقتصادية بين كل من المدينتين المقدستين - مكة المكرمة والمدينة المنورة - فإذا كانت مكة المكرمة قد تمتعت بالنظام، وسادها جو من الهدوء والإستقرار، وكانت العوامل التي تربط بين الجماعة فيها، تؤدي وظيفتها على نحو مرض إلى حد كبير، وذلك بسبب وحدة السكان فيها، واجتماعهم على غاية واحدة هي: رعاية البيت الحرام، والقيام على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية، والتي كانت أهم موارد الرزق في البلد الحرام[٧].

إذا كان ذلك كذلك في مكة المكرمة، فإن «يثرب» (المدينة المنورة) لم تكن كذلك، فسكانها من عنصرين مختلفين (عرب ويهود)، وكذلك؛ لم تكن لهم غاية مشتركة يحرصون عليها، ويترابطون من أجلها، ومن ثم فقد سادها الإضطراب، وعمتها المنازعات.

وإذا كانت حياة الزراعة من طبيعتها، أن تربط الناس بالأرض، وتفرض عليهم الإستقرار، فإنها في مجتمع المدينة، وهو مجتمع قبلي، إنما تكون مثاراً للنزاع الدائم، حيث لاتوجد في هذا المجتمع قوة فوق قوة القبائل والعشائر، تستطيع أن تقر الحقوق، وتفرض السلم، وتعاقب من يخل به.

---

(٦) انظر عن قصة سحر النبي ﷺ (محمد بيومي مهران: السيرة النبوية الشريفة، الجزء الثالث، بيروت ١٩٩٠، ص ١٦٩ - ١٨٩)

(٧) عبد القدوس الأنصاري آثار المدينة المنورة - المدينة المنورة ١٩٧٣ ص ٢٤١ - ٢٥٦ إبراهيم رفعت مرآة الحرمين ١/ ٤٢٨ - ٤٣٠، على حافظ فصول من تاريخ المدينة، ص ١٦٩

ومن ثم، فما كان من شأنه أن يؤدى إلى الاستقرار، كان هو فى ذاته، عامل من عوامل النزاع والإضطراب، حيث كان كل فريق يتطلع إلى أن تكون أخصب البقاع فى يده، وكان السعى عن طريق القوة هو الطريق أو السبيل المألوف لتوسيع الأملاك، والحصول على أفضل البقاع الزراعية.

ولما كانت المدينة مكونة من عنصرين من السكان (عرب ويهود) فقد انقسمت إلى معسكرين متعاديين، يترقب الواحد منهما الفرصة لقهر الآخر والحصول على ما فى يده – أو خير ما فى يده –.

على أن كلا من هذين القسمين – العرب واليهود – إنما انقسم بدوره إلى وحدات متصارعة، ولم يربط بين هذه الوحدات فى المعسكر الواحد، إلا ما كان يربطها من تقاليد العصبية القبلية، والشعور بأن الفرد وحده، إنما هو عاجز عن حماية نفسه ضد الآخرين، ومن ثم فقد ساد المدينة جو من عدم الأمن، جعل الحياة فى يثرب – قبل الإسلام – أمراً عسيراً.

وهكذا اتجه ميل السكان فى يثرب – قبل الإسلام – رغبة فى الحفاظ على النفس والمال إلى إقامة الحصون والآطام، للإحتماء بها عند الحاجة، حتى امتلأت المدينة بالحصون، وحتى كان لليهود وحدهم – كما يقول السمهودى – تسعة وخمسون إطما، ولم يكن العرب أقل منهم رغبة فى بناء الآطام، حتى كان لبطن واحد منهم، تسعة عشر إطما[٨].

هذا وقد اختلفت يثرب عن مكة فى أنها إنما تتميز عنها بمزايا لم تعرفها مكة، من طيب الهواء، وجودة التربة، كما أنها لم تكن على طريق القوافل التى تحمل الطيوب بين اليمن والشام فحسب، وإنما كانت كذلك واحة حقيقية، ذات تربة صالحة لزراعة النخيل – وهو كثير فيها – ومن ثم فقد أصبحت واحدة من أمهات المراكز الزراعية فى بلاد العرب[٩].

---

(٨) السمهودى: وفاء الوفا ١/ ١٩٠ – ٢٢٠ (بيروت ١٩٧١)؛ أحمد إبراهيم الشريف. الحجاز قبل ظهور الإسلام، ص ٣٢ – ٣٣ (الجزيرة العربية فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين، الجزء الأول، الرياض، ١٩٨٩م).

(9) P. K. Hitty, History of Arabs, 1960, p. 104.

ولم تقتصر الخلافات بين مكة والمدينة (يثرب) على النواحي الجغرافية والسكانية والإقتصادية، وإنما امتدت كذلك إلى النواحي الدينية، ذلك أن مكة جميعها تسكنها قبيلة عربية واحدة - قريش - تدين بدين واحد - الوثنية - أما المدينة (يثرب) فكان فيها العرب وثنيين، واليهود يدينون باليهودية.

(٣) أسماء المدينة المنورة:

لم تكن المدينة المنورة تعرف بهذا الاسم - أى المدينة - قبل نصرتها للإسلام وهجرة سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله (ﷺ) إليها فى الثانى عشر من ربيع الأول - فى السنة الثالثة عشرة من المبعث (٢٤ سبتمبر عام ٦٢٢م)، وإنما كانت تسمى «يثرب»، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: «وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا»[١٠].

وقد ذكرت يثرب فى الكتابات المعينية، ربما بسبب وجود جالية معينية كانت تقيم هناك، خلفتها أخرى سبئية، بعد أن ورث السبئيون دولة معين فى اليمن، ومستعمراتها فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية، ولعل هذا هو السبب الذى دفع بالنسابين من بعد أن يروا فى سكان يثرب من العرب، أزدا من قحطان[١١].

هذا وقد كثرت أسماء المدينة فى العصر الإسلامى، حتى بلغت عشرة أسماء، على رأى، وأحد عشر اسماً، على رأى آخر، وتسعة وعشرين على رأى

---

(١٠) سورة الأحزاب: آية ١٣، وانظر. تفسير القرطبى ١٤/ ١٤٧ - ١٤ (دار الكتب)، تفسير الفخر الرازى ٢٥/ ١٩٩ - ٢٠٠، تفسير روح المعانى ٢١/ ١٥٨ - ١٦١، تفسير البيضاوى ٢/ ٢٤٠ - ٢٤١، تفسير الطبرى ٢١- ١٣٤ - ١٣٧، تفسير أبى السعود ٣/ ٢٠٥، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٥/ ١٨٧ - ١٨٨، تيسير العلى القدير ٣/ ٣٥٥ - ٣٥٦، تفسير الكشاف ٣/ ٢٥٤، فى ظلال القرآن ٢١/ ٢٨٣٨ - ٢٨٣٩.

(١١) جواد على ٤/ ١٢٨، وكذا:

Ency. of Eslam, III, p. 83. p. 118.

وكذا: H Winkler, Arabisch-Semitisch Orientalisch, in MVG, 1901, p 63.

ثالث، وأربعة وتسعين على رأى رابع، وإن كان أهمها جميعاً: المدينة ويثرب وطيبة وطابة والعاصمة والقاصمة والجدية والمحبوبة والمؤمنة والمباركة والمحفوظة والمختارة والجابرة والعذراء والغراء والبارة والمقدسة والناجية وذات الحرار ومدخل صدق وقرية الأنصار وسيدة البلدان والخيرة وأرض الهجرة ودار الهجرة ودار الأخيار ودار الإيمان ودار الأبرار ودار السنة وبيت الرسول ومدينة الرسول ومضجع الرسول وحرم رسول الله ﷺ[١٢].

ومن أسف أن تاريخ يثرب القديم مجهول، فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها، ولم تقم بها حفريات علمية يمكن أن تقدم لنا معلومات ذات قيمة عن تاريخ المدينة المقدسة القديم، وإن كانت هناك حفريات قد أجريت دون أن يقصد بها ذلك الهدف العلمي - كالتى حدثت فى الأعوام ١٣٣٣، ١٣٣٥، ١٣٥٢ هـ - فى أحد البساتين، إبان حفر أساس القسم الشمالى لمدرسة العلوم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء، وفى المناخية جنوب السبيل، إلا أنها قد كشفت عن بعض أشياء قد تشير إلى أن المدينة الحالية، إنما قامت على أنقاض مدينة أخرى - الأمر الذى أشار إليه السمهودى منذ القرن التاسع الهجرى - ومن ثم فإن معلوماتنا الحالية، إنما تعتمد فى الدرجة الأولى على روايات الاخباريين، وأكثرها من ذلك النوع الذى عرفناه من قبل[١٣].

(٤) سكان المدينة:

يروى الأخباريون أن سكان يثرب إنما كانوا من العماليق، ثم من اليهود، ثم العرب - من أوس وخزرج - وأن العماليق إنما كانوا أول من زرع الزرع واتخذ

---

(١٢) وفا الوفا ١/ ٧ - ١٩، خلاصة الوفا ص ٧ - ١٧، الدرر الثمينة فى تاريخ المدينة (ملحق بالجزء الثانى من شفاء الغرام)، ص ٣٢٣، المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٣٠ (ليدن ١٩٠٦)، الأعلاق ص ٥٩، ٨٧، البكرى ٤/ ١٢٠١ - ١٢٠٢، ياقوت ٥/ ٨٢ - ٨٣، ٤٣٠، عمدة الأخبار ص ٤١، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥٣٨.

(١٣) عبد القدوس الأنصارى: آثار المدينة المنورة، ص ١٩٢ - ١٩٤، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص ٢٩٠ - ٢٩١، محمد حسين هيكل فى منزل الوحى، ص ٥١٢ - ٥١٤

بها النخيل، وعمر بها الدور والآطام، واتخذ الضياع، وأنهم يرجعون فى نسبهم إلى عملاق ابن أرفخشد بن سام[١٤].

غير أن التاريخ لايحدثنا عن سكان المدينة إلا عن اليهود والعرب.

(١) اليهود:

يقدم لنا الاخباريون روايات ترجع بوجود اليهود فى يثرب إلى عصر موسى عليه السلام (الأمر الذى ناقشناه فى كتابنا «اسرائيل»)[١٥]، وقد ناقشنا هذه الروايات فى كتابنا «تاريخ العرب القديم»[١٦]، ورفضناها جميعاً، غير أن هناك حقيقة تاريخية تقول: إن اليهود كانوا يسكنون يثرب، حتى أجلاهم عنها سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ، بل عن الحجاز كله، بعد غزوات: بنى قينقاع[١٧]، وبنى النضير[١٨]، وبنى قريظة[١٩]، وخيبر[٢٠]، ثم عن بلاد العرب كلها، فلقد روى عن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع فيها إلا مسلماً» - رواه أحمد ومسلم والترمذى وصححه[٢١].

---

(١٤) وفاء الوفا ١/ ١٠٧، ١١، خلاصة الوفا، ص ١٥٤ - ١٥٦، ياقوت ٥/ ٨٤ (مادة مدينة).

(١٥) أنظر عن عصر موسى والآراء التى دارت حوله (محمد بيومى مهران: بنوإسرائيل ١/ ٣٢٤ - ٤١١ (طبعة ١٩٩٩).

(١٦) أنظر (محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ٢/ ٢٠٦ - ٢٢٤ (الطبعة السادسة عشرة ١٩٩٥).

(١٧) أنظر عن «غزوة بنى قينقاع» (محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٢/ ٢٦٧ - ٢٧٥ (بيروت ١٩٩٠).

(١٨) أنظر عن «غزوة بنى النضير» (محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٢/ ٢٧٧ - ٢٨٦ (بيروت ١٩٩٠).

(١٩) أنظر عن «غزوة بنى قريظة» (محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٢/ ٢٨٧ - ٣٠٢ (بيروت ١٩٩٠).

(٢٠) أنظر عن «غزوة خيبر» (محمد بيومى مهران السيرة النبوية الشريفة ٢/ ٣٠٣ - ٣٣٤ (بيروت ١٩٩٠).

(٢١) الشوكانى: نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار - شرح منتقى الأخبار، الجزء الثامن ص ٦٤، (بيروت - دار الكتب العلمية).

وعن عائشة قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ، أن قال: لايترك بجزيرة العرب دينان» – رواه أحمد[٢٢].

وعن ابن عمر: أن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وذكر يهود خيبر، إلى أن قال: أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحا – رواه البخاري[٢٣].

وعن أبي عبيدة بن الجراح قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب» – رواه أحمد[٢٤].

في الواقع أن الآراء متضاربة في هذا الأمر إلى درجة أننا لانستطيع التوفيق بينها، إذ تذهب بعض الآراء إلى أن ذلك إنما حدث في القرن الثالث عشر ق.م[٢٥]، بينما تذهب آراء أخرى إلى أنه إنما كان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد[٢٦]، والفرق بينهما جد شاسع، قد يصل إلى حوالي أربعة عشر قرناً، ومن هنا كانت الصعوبة في التوفيق بين هذه الآراء المختلفة أحياناً، والمتضاربة أحياناً أخرى.

وهناك رأي ثالث يذهب إلى أن اليهود انما قدموا إلى بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد، بعد سقوط السامرة – عاصمة إسرائيل – في أيدي الأشوريين عام ٧٢٢ق.م[٢٧]، وليس من شك في أن هذا الإتجاه قد تركز إلى حد كبير

(٢٢) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.

(٢٤) نفس المرجع السابق، ص ٦٤ – ٦٥، وانظر: محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ٢/ ٩٠٦، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٤١٤ – ٤١٦ (القاهرة ١٩٦٥)، سنن الدرامي ٢/ ٢٣٣، إحسان ثريا صيرما: سياسة الرسول ﷺ في غزواته مع اليهود (كتاب البحوث والدراسات، قطر ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ٢١٧).

(٢٥) وفاء الوفا ١/ ١٠٧، ١١١، الروض الأنف ٢/ ١٦، أبو الفداء ١/ ١٢٣، ياقوت ٥/ ٨٤، ابن خلدون ٢/ ٨٧ – ٨٨ (القسم الأول) ٢/ ٢٨٦ – ٢٨٧ (القسم الثاني)، الأغاني ٣/ ١١٦، ١٩/ ٩٤

(26) Jisephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3 - 4.

وكذا: O'Leary, op. cit., p. 173 وكذا: IC, III, p. 170

(٢٧) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ١٩٤٠–١٩٥٠.

A Guillaume, Islam, 1964, p. 11

بسقوط السامرة فى يوم ما من شهر ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م[٢٨]، وأن العاهل الأشورى «سرجون الثانى» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) قد هجر أكثر عناصر السكان أهمية، وربما النبلاء والأعياء، غير أن التهجير انما كان - طبقا لرواية التوارة[٢٩] - إلى «حلج وخابور ومدن مادى»، وحين تكررت العملية فى عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق.م، فإن العاهل الأشورى قد جاء بقوم من «بابل وكوت وحماة»، ومن سوسة وعيلام، فضلا عن قبائل ثمود (تامود) ومرسيمانو وجبايا، والعرب الذين يعيشون بعيدا فى الصحراء وأسكنهم فى السامرة، وذلك رغبة من العاهل الأشورى فى كسر التحالفات القديمة فى سورية وفلسطين، بإدخال أجانب إلى البلاد[٣٠]، وهكذا يبدو واضحا أنه ليست هناك أية اشارة فى التوارة، أو فى النصوص إلى تهجير يهود من السامرة إلى يثرب، وإلى غيرها من بلاد العرب، ومن ثم فإن المؤرخين يرفضون هذا الإتجاه.

وهناك فريق رابع يرى أن هجرة اليهود إلى يثرب إنما كانت بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل فى القرن السادس قبل الميلاد، على يد «نبوخذنصر» فى عام ٥٨٦ ق.م- وربما فى أغسطس ٥٨٧ ق.م - وإبعاد كثير من اليهود إلى بابل، وهو ماعرف فى التاريخ باسم «السبى البابلى»[٣١]، وعندما قتل اليهود

---

(28) A.T. Olmsted, in AJSL, 47, p. 262.
وكذا A.Leo Oppenheim, in ANET, p. 28.

وكذا J.Finegan, op.cit, p. 210.
وكذا A.G.Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The Annals, 1929, p. 5.

(٢٩) ملوك ثان ١٧ : ٦.

(٣٠) ملوك ثان ١٧ : ١ - ٢٦، عزرا ٤ : ٢، ٩، محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢/ ٥٠٩ - ٥١٢.
وكذا A.L. Oppenheim, in ANET, p. 260.
وكذا S A. Cook, in CAH, III, p. 385.
وكذا C.Roth, A Short History of The Jewish People, p. 28 - 9.

(٣١) تاريخ الطبرى ١/٥٣٩، أبو الفداء ١/١٢٣، الأغانى ١٩/ ٩٤، الروض الأنف ٢/١٦، اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٦.
وكذا A. Guillaume, op- cit, p. 11 وكذا E.Dozy, op- cit, p. 135.

«جداليا» نائب نبوخذنصر فی أورشليم[٣٢]، أدركوا مدى الكارثة التی حلت بهم، وخوفا من إنتقام العاهل البابلی، فقد كان الهروب إلی مصر هو سبيل النجاح الوحيد أمامهم، ونقرأ فی التوارة «فقام جميع الشعب من الصغير إلی الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلی مصر، لأنهم خافوا من الكلدانيين»[٣٣]، ومرة أخرى ليس فی هذه الأحداث إشارة إلی هروب يهود إلی يثرب، كما تذهب الروايات العربية[٣٤].

على أنه فی هذه الإضطرابات، لايمكننا القول أن مصر كانت هی سبيل النجاح الوحيد أمام اليهود - كما تقول التوراة - ومن ثم فربما فَرّ فريق من يهود إلى بلاد العرب، وإن كنا لانستطيع - بحال من الأحوال - أن نقول أنهم قد ذهبوا إلی يثرب بالذات، ولعل الذهاب إلی تيماء وإلی وادی القرى ومجاوراتهما، ربما كان أقرب إلی الصواب من الذهاب بعيدا إلی يثرب، ذلك لأن الطريق إلی الحجاز لم يكن مقفلا أمام يهود فی تلك الفترة، بخاصة وأن اليهود كانوا هاربين من فلسطين، يبحثون عن ملجأ يقيهم شر العذاب الذی يمكن أن يصبه عليهم العاهل البابلی، والحجاز أقرب المناطق إلی فلسطين، كما أن وجود بعض من يهود على طرق التجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها فيما بعد العصر الرومانی، قد يدعم الرأی القائل بوجود هجرة يهودية إلی بلاد العرب منذ تلك الفترة[٣٥].

البابليين غير أن حملات المتكررة بعد ذلك علی شمال بلاد العرب، فضلا عن استقرار «نبونيد» فی تيماء، ولمدة قد تقرب من سنوات عشر، كما أشرنا من قبل، قد يضعف هذا الإتجاه، ورغم أن هناك من يذهب إلی أن حملة نبونيد على بلاد العرب، قد ضمت بين رجالها بعضا من يهود، وأن هذا النفر من يهود، إنما أقاموا في شمال الحجاز - وحتى يثرب - إقامة دائمة استمرت حتى ظهور

(٣٢) ارمياء ٤١: ١ - ١٨، زكريا ٧ ٥.

(٣٣) ملوك ثان ٢٥: ٢٦.

(٣٤) وفاء الوفا ١١٢/١، تاريخ ابن خلدون ١٠٧/٢.

(٣٥) اسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود فی بلاد العرب ص ٦، وكذا A. Guillaume, op.cit. p. 11.

الإسلام، فإن العاهل البابلى لم يشر أبدا إلى عناصر يهودية فى جيوشه، أو أنه قد أسكن يهوداً فى تلك المناطق، كما أننا لانملك من الأدلة مايؤيد وجهة النظر هذه.(٣٦)

وهناك فريق خامس يذهب إلى أن وجود اليهود فى يثرب إنما يرجع إلى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد، وليس من شك فى أن الأدلة التاريخية إنما فى جانب هذا الإتجاه أكثر من غيره، ولعل من أهم هذه الأدلة أن الظروف السياسية التى كانت يهود تمر بها فى تلك الفترة - بعد أن نجح الرومان فى السيطرة على سورية ومصر فى القرن الأول ق.م، وعلى اليهودية ودولة الأنباط فى القرن الثانى بعد الميلاد - قد ساعدت هذه الظروف على هجرة أعداد من يهود إلى شبه الجزيرة العربية، التى كانت بعيدة عن السيطرة الرومانية، فضلا عن أن بلاد العرب إنما كانت مازال فى بداوة تشبه ماكان عليه اليهود إلى حد ما، هذا إلى أن اليهود أنفسهم إنما كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم من ولد إسماعيل، وبما أنهم - أى اليهود - من ولد اسحاق، فهو جميعا إذن من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام، وبالتالى فهم من ذوى رحمهم، ولهم بهم صلة قربى، هذا فضلا عن أن أمر هجرة اليهود إلى أعالى الحجاز ودخولهم إليه أمر سهل ميسور، فالأرض واحدة وهى متصلة، والطرق مفتوحة مطروقة، ولايوجد مانع يمنع اليهود، أو غير اليهود،من دخول الحجاز، ولاسيما أن اليهود كانوا خائفين، فارين من فتك الرومان،وأقرب مكان مأمون اليهم هو الحجاز(٣٧).

غير أن الهجرة الحقيقية إنما كانت بعد الثورة اليهودية ضد الرومان، ثم إخماد هذه الثورة بأشد العنف وأقسى أنواع التدمير على يد «تيتوس» فى عام

---

(٣٦) جواد على ٥١٣/٦.

وكذا F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, II, p. 74.

وكذا O'Leary, op.cit, p. 173.

(٣٧) فيليب حتى. المرجع السابق ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

وكذا Josephus, The Jewish War, II, 18 1, 3 - 4.

٧٠م، حيث دمرت المدينة المقدسة، وأحرق المعبد اليهودى الذى بناه هيرودس
إحراقا تاما، حتى أن القوم نسوا بعد حين من الدهر، إن كان المعبد قد بنى على التل الشرقى أو الغربى من أورشليم، وحتى أن محاولة بنائه- اعتمادا على وصف التوارة له – قد فشلت نهائيا، كما منع بقية السكان من مجرد الإقتراب من أورشليم، ومن ثم فقد هاجرت مجموعات من السكان إلى بلاد العرب، ووصلت إلى يثرب.

غير أن الثورة سرعان ماتجددت مرة أخرى على أيام هدريان، فيما بين عامى ١٣٢، ١٣٥م، وانتهت الثورة إلى القضاء تماما على اليهود، ككيان سياسى فى فلسطين، وتغير أسم المدينة المقدسة (القدس) إلى «ايليا كابتيولينا» وتحول المعبد اليهودى إلى معبد لإله الرومان «جوبيتر» ، ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء، وضاع اليهود فى غياهب التاريخ، وسرعان مافر – من أسعده الحظ فنجا – إلى مكان يحتمى به من غضبة الرومان القاسية، وكان من هؤلاء المحظوظين فريق من يهود وصل إلى يثرب.

وكان هؤلاء – إلى جانب من وصلوا بعد تدمير القدس على يد تيتوس – هم الذين كونوا الجالية اليهودية فى شمال الحجاز، وفى يثرب بصفة خاصة(٣٨)، وزاد عددهم بمرور الزمن، حتى إذا اظهر الإسلام كان معظم سكان وادى القرى إلى يثرب من اليهود، هذا وهناك فى الحجر، وفى مواضع أخرى من أرض الأنباط، كتابات نبطية، يرجع بعضها إلى القرن الأول الميلادى، وبعضها الآخر إلى القرن الرابع الميلادى، وردت بها أسماء عبرية تشير إلى أن أصحابها من يهود(٣٩).

وتؤيد المصادر العربية هذا الإتجاه، فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعا بالشام فوطؤوهم ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير وبنى قريظة وبنو هدل

---

(٣٨) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٢٧٥ – ٢٧٧.
وكذا Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3 - 4.
(٣٩) J.Herovity, Judaeo -Arabic Relations in Pre - Islamic, Times, IC.III, 1929, p. 170.

(بهدل) هاربين إلى من بالحجار من يهود، فلما فصلوا عنهم بأهليهم اتبعهم الروم فأعجزوهم، وهلك جند الروم في المفاوز والصحارى الخالية من الماء، وهذه الروايات مأخذوة عن يهود المدينة أنفسهم، ثم أخذت جموع اليهود في الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم، ثم قصد بنو النضير وقريظة منطقة يثرب، وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها(٤٠).

وهكذا سكنت جاليات يهودية منطقة يثرب، والطرق المودية إلى الشام وأن ترتكزت كتل اليهود الكبرى في يثرب بالذات، حيث كان فيها ثلاث قبائل، ربما بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين، وهى قينقاع(٤١) والنضير وقريظة، إلى جانب بطون وعشائر يهودية أخرى، ذهب الاخباريون إلى أنها بلغت أكثر من عشرين بطنا، منهم بنو عكرمة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو الشظية وبنو جشم، وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص (المصيص) وبنو ثعلبة(٤٢).

هذا وهناك من يرجع بنسب بنى النضير وبنى قريظة إلى طبقة الكهان – سلالة هارون عليه السلام – وأما بقية يهود بلاد العرب، فبعضهم يرجع إلى نفس طبقة الكهان، وبعضهم الآخر إنما ينتمي إلى نسل الأسباط العشرة المفقودة(٤٣).

غير أننا لانستطيع أن نوافق على هذا الاتجاه، ذلك لأن– الأسباط العشرة –

---

(٤٠) الأغانى ١٩/ ٩٥، ابن خلدون ٣٨٧/٢، وفاء الوفاء ١١٢/٢، اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٩، ١٠، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٠٧.

(٤١) يرى «أوليرى» أن بنى قينقاع إما عرب متهودون، أو من بنى أدوم (Op.cit, p. 173)، وأنظر عن موقفهم من الرسول ﷺ وعن علاقتهم مع غيرهم من يهود بنى قريظة وبنى النضير، وأشتراكهم فى يوم بعاث (ابن كثير ٣/٤ – ٤، المقدسى ١٩٥/٤، ابن خلدون ٢٣/٢، ابن هشام ٣٣٤/٢، المعارف ص ٩٤، تاريخ الطبرى ٢/ ٤٧٩ – ٤٨٣، اسرائيل. ولفنسون: المرجع السابق ص ١٢٧ – ١٣١).

(٤٢) وفاء الوفا ١١٢/١ – ١١٦، ابن هشام ٢٥٩/٢، الأغانى ١٩/ ٩٥، اسرائيل ولفنسون. المرجع السابق ص ١١٤، أحمد ابراهيم الشريف المرجع السابق ص ٢٩٤ – ٢٩٥، جواد على ٥٢٢/٦

(٤٣) Friedlander The Jews of Arabia and The Rechabites, in JQR, 1919 - 1911 p. 254

والذين كانت تتكون منهم دويلة اسرائيل التى قامت عقب انفصال الدولة عشية موت سليمان في عام ٩٢٢ق.م، إلى اسرائيل وعاصمتها السامرة، وبهوذا وعاصمتها أورشليم[٤٤] – إنما ضاعوا في غياهب التاريخ بعد الاحتلال الأشورى للسامرة فى عام ٧٢٢ ق.م،ثم قيام سرجون الثانى بتهجير أكثرهم إلى مناطق أخرى من الإمبراطورية، ثم أتى بقبائل أخرى من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب، لتحل محل الإسرائليين المسبيين، ثم أسكنهم فى السامرة ومجاوراتها، ومن هذا الخليط الجديد ظهر فى التاريخ ماسمى «بالسامريين»[٤٥].

وهكذا وضع سرجون الثانى نهاية لكيانهم كأمة، وأنهى وجرد الأسباط العشرة كدولة، ولم يقدر لهم العودة مرة أخرى إلى المنطقة التى أخذوها غيلة واغتصابا من أصحابها، ثم سرعان ما اندمجوا مع غيرهم من السكان الأصليين فى المناطق التى أجبروا على الإقامة فيها، وليست هناك أية إشارة على أن بلاد العرب كانت ضمن هذه المناطق، وإن ذكرت نصوص العاهل الأشورى أن من بين من أتى بهم إلى السامرة قبائل من بلاد العرب[٤٦] – كما أشرنا من قبل – فهل أتى سرجون بجزء من الأسباط العشرة فى مكان هؤلاء المهجرين من بلاد العرب؟ هذا ماسكتت عنه النصوص تماما، ومن ثم فإننا لانستطيع القول بأن بعضا من يهود بلاد العرب كانوا من الأسباط العشرة.

وعلى أى حال فإن فريقا من المؤرخين انما يذهب إلى أن يهود بلاد العرب، إنما هم عرب تهودوا، وإن لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية فى التوحيد، وأنهم لم يكونوا خاضعين لقانون التلمود كله، حتى أن بعضا من يهود دمشق وحلب فى القرن الثالث الميلادى أنكروا عليهم يهوديتهم، وأن

---

(٤٤) ملوك أول ١١: ٣٥ – ٣٦، ١٢: ٢ – ٢٥.

وكذا M. Noth, op.cit, p. 58.

وكذا C.Roth, op.cit, p. 23.

(٤٥) فيليب حتى المرجع السابق ص ٢١٤.

وكذا The Book of Jewish Knowledge, 1964,-p. 120.

(٤٦) A.L. Oppenheim, ANET, p 286

كانوا من ذلك شديدى التمسك بدينهم(٤٧).

هذا ويذهب فريق من المؤرخين إلى أن بنى النضير وبنى قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية، تهودوا وسموا باسم المكان الذى نزلوا فيه(٤٨)، وطبقا لرواية الاخباريين، فان «حبل بن جوال» من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان، قد تهوّد هو وقومه، وعاش مع بنى قريظة، حتى ظهور الإسلام، ثم هداه الله إلى الدين القويم فأسلم(٤٩).

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يهود بلاد العرب انما هم من يهود فلسطين، وأنهم قد تركوها فيما بين عامى ٧٠، ١٣٥م(٥٠)، كما أشرنا من قبل - ويذهبون إلى أن يهود بنى النضير وبنى قريظة من نسل هارون(٥١)، وأن بقية البطون اليهودية من أسباط بنى إسرائيل الأخرى(٥٢)، وأن يهود خيبر من «يهو ناداب بن ركاب»، وأنهم هاجروا إلى خيبر بعد خراب الهيكل الأول فى عام ٥٨٦ ق.م، ثم بقوا فيها حتى عهد الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ - ٢٣ هـ - ٦٣٤ - ٦٤٤م)، وأن كلمة «خيبر» كلمة عبرانية بمعنى الطائفة والجماعة، وبمعنى الحصن والمعسكر(٥٣)، وهو نفس الرأى الذى ذهب إليه

---

(٤٧) اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ١٣، ٧٣، حسن إبراهيم المرجع السابق ص ٧٣.
وكذا D.S. Margoliouth, op.cit, p. 60
وكذا H.Lammens, op.cit, p. 66, 81.
وكذا Graetz, History of The Jews, III, p. 51 - 75.

(٤٨) تاريخ اليعقوبى ٣٦/٢، ٣٩.

(٤٩) جواد على ٥٥/٦، وكذا الإصابة ٢٢٣/١ ومابعدها (رقم ١٠٧١).

(٥٠) O'Leary, op.cit, p. 173.

(٥١) وكذا D.S. Margolioutl , op.cit, p. 59 وكذا Graetz, op.cit, p. 56.

(٥٢) جواد على ٥٢٢/٦ - ٥٢٣، وكذا Freidlander, op.cit, p. 254.

(٥٣) ملوك ثان ١٠ : ١٥ - ٢٨، البكرى ٥٢١/١، تاج العروس ١٦٨/٣، زاد المعاد ١٣٣/٢، وكذا Graetz, op.cit, p. 56.
وكذا C.C. Torrery, The Jewish Foundations of Islam, p. 13
وكذا EI, 3, p. 869 وكذا J.Hastings, op.cit, p. 784.

من نسبوها إلى رجل يدعى «خيبر بن قانية بن مهلائيل»، رأى فيه البعض «شفطيا بن مهلائيل» من بني فارض[٥٤]، على أن هناك من يفسرها بمعنى مجموعة من المستوطنات، وإن رأى أن اللفظة عبرية[٥٥].

على أن الاستدلال ببحث لغوى على جنسية يهود بلاد العرب، طبقا لما تشير إليه الأسماء التى يحملها اليهود - قبائل وأفرادا - لايمكن أن يعتد به أو يعول عليه، فمن الحق أن بعض أسماء القبائل اليهودية عربية محضة، ولكنها لاتدل على أنها عربية الجنس، اذ يمكن أن تكون جموع اليهود التى هاجرت إلى بلاد العرب، قد اتخذت أسماء الأماكن التى نزلت بها أسماء لها، بل إن الواقع انما يدلنا على أن اليهود كانوا قد تركوا منذ أمد طويل الإنتساب إلى قبائلهم، وأصبحوا يعرفون بأسماء القرى والأقاليم التى جاءوا منها، فكان يقال فلان الأورشليمى أو فلان الحبرونى... هكذا ومن ثم فالطريقة المثلى - فيما يرى إسرائيل ولفنسون - إنما هى النظر فى الأخلاق والتقاليد، وإتجاه الأعمال والأفكار، وهنا فسوف نجد أن يهود بلاد العرب يهودا أكثر منهم عربا، هذا إلى جانب أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال فى شمال بلاد العرب، إنما أتى اليهود بها من فلسطين، حيث تكثر هناك الحصون المنيعة فى الجبال[٥٦].

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما وجه الخطاب إلى اليهود بتعبير «بنى إسرائيل»، ونعى عليهم مسلك اليهود الأقدمين مع موسى والأنبياء من بعده، وماكان منهم من تعجيز وإحراج وكفر وتكذيب وعدر، ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أمواله الناس بالباطل، وذلك فى صدد التنديد بموقفهم من النبى - ﷺ - وفى كثير من الآيات جعل اليهود المعاصرين والقدامى موضع خطاب وسياق وسلسلة واحدة، حيث يوجه

---

(٥٤) أبو الفدا ٨٩/١، وكذا R.Dozy, op.cit, p. 136

(٥٥) جواد على ٥٢٦/٦ كذا G.Weil, Mohammed der Prophet, p. 185

(٥٦) اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ١٥ - ١٦.

الخطاب إلى بنى إسرائيل أو إلى اليهود بصيغة المخاطب القريب، فيقص ماكان من الأقدمين وماكان من المعاصرين بأسلوب يرجح أن المقصود به تقرير الصلة النسبية بين هؤلاء وأولئك، وربط مابدا من أخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من أخلاق القدماء، كأن الجميع يصدرون عن جبلة واحدة وأخلاق متوارثة، وإذن: فتوجيه الخطاب في القران الكريم إلى يهود يثرب بـ «بنى إسرائيل» يسوغ الترجيح، بل الجزم بأن اليهود الذين كانوا فى الحجاز، بصفة عامة، هم نازحون وأنهم إسرائيليون، وأنهم ليسوا قبائل عربية تهودت، وإن كان هناك عرب تهودوا، فإنهم لم يكونوا جماعة محسوسة، وليست إلا أفراد[٥٧].

على أنه يجب ألا يفهم من هذا كله، أن كل يهود بلاد العرب من أصل يهودى، فهناك الكثير من العرب المتهودين، ولاسيما بالقبائل اليهودية المسماة بأسماء عربية أصيلة، لها صلة بالوثنية، مما يدل على أنها إنما كانت وثنية قبل أن تتهود، وهناك الكثير من البطون العربية التى تهودت[٥٨]، فقد تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب، وقوم من غسان، وقوم من جذام، وقوم من «بلى»[٥٩].

هذا فضلا عن أن هناك مايشير إلى أن المرأة المقلات فى الجاهلية كانت تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده، ومن ثم فقد تهود بعض منهم، فلما جاء الإسلام أراد الأنصار إكراه أبنائهم عليه، فنهاهم الله عن ذلك[٦٠]، حيث يقول سبحانه

---

(٥٧) عبد الفتاح شحاته: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام - الجزء الثانى، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٥٨) T.Noldeke, op.cit, p. 52

(٥٩) تاريخ اليعقوبى ١, ٢٥٧، حواد ٥٢٥/٦.

وكذا Graetz , op- cit, p. 408 وكذا Islamic Culture, II, 2p. 177

(٦٠) أديان العرب فى الجاهلية ص ٢٠١، اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٨٨، السنن الكبرى للبيهقى ١٨٦/٩، سنن أبى داود ٧٨/٣ - ٧٩.

وتعالى﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾[٦١]، كما أن اليهود قد عملوا على التبشير بدينهم بين العرب إلى حد ما.

(٢) العرب:

يروى الاخباريون أن القبائل العربية - من أوس وخزرج - قد هاجرت من اليمن إلى يثرب على أثر حادث سيل العرم، وهناك فى يثرب وجدت تلك القبائل أن الأموال والآطام والنخيل فى أيدى اليهود، فضلا عن العدد والقوة، فأقام الأوس والخزرج مع اليهود، وعقدوا معهم حلفا يأمن به بعضهم إلى بعض، ويمتنعون به ممن سواهم[٦٢].

وهكذا فإن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب - إنما كانت - طبقا لرواية الاخباريين - بسبب سيل العرم، الأمر الذى لايمكن تحديد زمنه بسهولة ذلك لأن سد مأرب إنما تهدم عدة مرات، خلال الفترة الطويلة التى مضت منذ تشييده فى منتصف القرن السابع ق.م - وربما الثامن ق.م[٦٣]- وبين آخر مرة أصلح فيها السد فى عام ٥٤٣م، على أيام أبرهة الحبشى طبقا لما جاء فى نصى (جلازر ٦١٨) و (CIH, 541)[٦٤]، إذ أن هناك عدة اشارات إلى تهدم السد واصلاحه،

(٦١) سورة البقرة: آية ٢٥٦، وأنظر: تفسير الطبرى ٤٠٧/٥ - ٤٢٤ (دار المعارف بمصر)، تفسير القرطبى ٢٧٩/٣ - ٢٨٢، تفسير روح المعانى ١٣/٣ - ١٥، تفسير مجمع البيان للطبرسى ٣٠٤/٣ - ٣٠٧، تفسير المنار ٣٥/٣ - ٤٠، تفسير أبى السعود ١٨٩/١ - ١٩٠، تفسير ابن كثير ٣١٠/١ - ٣١٢ (دار احياء التراث العربى)، تيسير العلى القدير ٢٢٠/١ - ٢٢٢، تفسير الكشاف ٣٨٧/١، فى ظلال القرآن ٢٩٣/٢ - ٢٩٦، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٣٢٩/١ - ٣٣١، تفسير النسفى ١٢٩/١.

(٦٢) ابن كثير ١٦٠/٢، الأغانى ١٩/ ٦٩، ياقوت ٣٥/٥ - ٣٨، تاريخ اليعقوبى ٢٠٣/١ - ٢٠٤، ابن هشام ١٧/١ - ١٩، الأعلاق النفسية ص ٦٢، جواد على ١٢٩/٤، على حافظ: فصول من تاريخ المدينة ص ١٤ - ١٥.

(٦٣) جواد على ٢٨١/٢، نزيه مؤيد العظم، المرجع السابق ص ٨٨

وكذا D.Nielsen, op.cit, p. 79 وكذا Die Araber, p. 27

(٦٤) F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 587.

وكذا A.Sprenger, op.cit, p. 31 - 126.

وكذا E Glasser. op.cit. p 390.

=

منها ماحدث على أيام «شمر يهرعش»[٦٥]، ومنها ماحدث على أيام «ثاران يهنعم» عندما تهدم السد عند موضع «حبابض» و«رحبتن»، وأن القوم قد كتب لهم نجحا كبيرا في إصلاحه[٦٦].

ولعل التهدم الذى حدث على أيام «شرحبيل يعفر» فى القرن الخامس الميلادى، إنما كان واحدا من أشد تهدمات السد خطورة، لأن آثاره تعدت الآثار الجانبية، إلى هروب سكان المنطقة إلى الهضاب والجبال، ثم هجرتهم من هذه المنطقة إلى أرضين أخرى، ربما لأنه كان بسبب كوارث طبيعية، كالزلازل والبراكين، وليس لمجرد سقوط أمطار غزيرة، ومع ذلك فقد نجح القوم بعد كل هذا فى تجديد بناء السد وترميمه، على مقربة من «رحب» وعند «عبرن»، فضلا عن حفر مسايل للمياه، وبناء القواعد والجدران، كما أشرنا من قبل، وقد تم ذلك فى عام ٤٤٩/ ٤٥٠م[٦٧]، وأخيرا ذلك التهدم الذى كان على أيام أبرهة الحبشى.

وهكذا يبدو بوضوح أن تحديد تاريخ معين لخراب سد مأرب، وهجرة القبائل العربية من اليمن إلى وسط بلاد العرب وشمالها، أمر لايمكن – على ضوء معلوماتنا الحالية – أن نقول فيه كلمة نظن أنها القول الفصل، أو حتى قريبا من هذا القول، وأن الأمر مايزال فى مرحلة الحدس والتخمين، حتى تقدم لنا الأرض الطيبة فى اليمن أو فى غيرها، ماينير أمامنا الطريق.

= وكذا LeMuseon, 1953, 66, p. 340.

وكذا A.F.L Beeston, Problems of Sabaean Chronology, BASOR, 16, 1954.

(٦٥) جواد على ٧/ ٢١٠.

(٦٦) A.Jamme, op,cit, p. 176.

وكذا Le Museon, 1964, 3-4, p. 491 - 498.

(٦٧) E.Glaser, in MVG, II, 1897, p. 372 - 372, 389 - 390

وكذا Le Meseon, 1964, 3-4, p.493 - 4.

وكذا H.St.J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947

وكذا A Sprenger, Dice Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875 p 13, 20, 28

وأما الروايات العربية، فإن بعضا منها إنما يشير إلى أن ذلك إنما قد حدث قبل الإسلام بأربعة قرون، بينما يشير البعض الآخر إلى أن تلك الهجرات إنما تمت في القرن الخامس الميلادى، وعلى أيام «حسان بن تبان أسعد»(٦٨)، على أن هناك فريقا ثالثا إنما يقترح أخريات القرن الرابع الميلادى، معتمدا في ذلك على نسب «سعد بن عبادة الخزرجي»، وجعله مقياسا للزمن الذى ربما تكون الهجرة قد تمت فيه، فنسب سعد - طبقا لرواية النسابين - إنما هو «سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبى خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر بن حارثة»، فمن سعد إلى الخزرج الأكبر أحد عشر جيلا، وإذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرين عاما، كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة (في عام ٦٢٢م)، وبين الخزرج الأكبر، حوالى مائتين وخمس وسبعين سنة، أى أن هجرة الأوس والخزرج، ربما كانت في أخريات القرن الرابع(٦٩)، هذا ويحدد «سديو» هذه الهجرة بعام ٣٠٠م، ثم الاستيلاء على المدينة في عام ٤٩٢ م(٧٠).

وأيا ما كان الأمر، فإن الأخباريين يذهبون إلى أن الأوس(٧١) والخزرج أخوان، فهما أبناء «حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن امرىء القيس البطريق، بن ثعلبة بن مازن بن الأزد»(٧٢)، الذى ينتهى نسبة إلى «يعرب بن قحطان»، ولكن القوم إنما كانوا

---

(٦٨) ياقوت ٣٥/٥؛ جرجى زيدان: العرب قبل الإسلام ص ١٥٥، وانظر . الفصل التاسع من كتابنا، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ٣٠٩ - ٣٥٢.

(٦٩) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ٣١٥.

(٧٠) لويس أميل سديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر ص ٥١

(٧١) هناك من يفسر كلمة الأوس بأنها اختصار لجملة «أوس مناة» وهو صنم جاهلى (جواد على ١٣٥/٤).

(٧٢) ابن الأثير ٦٥٥/١، وفاء الوفا، ١٢٤/١، اللسان ١٨/٤، تاج العروس ١٠٣/٤، العقد الفريد ١٦/٣، ١٥٩، ابن هشام ٣٤٧/٣، الاشتقاق ٤٣٥/٢، ٤٣٧، ياقوت ٢٠٣/٤، ٨٥/٥، المعارف ص ٤٩، المقدسى ١٢٠/٤- ١٢١، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٣، جمهرة أنساب العرب ص ٣٣٢، نهاية الأرب للقلشندى ص ٥٢ - ٥٣، ٩٣- ٩٤

ينتسبون إلى أمهم «قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة»، ولهذا كانوا يدعون «أبناء قيلة»، مما يدل على أن هذه المرأة إنما كانت تتمتع بشهرة عريضة، دفعتهم إلى الإنتساب إليها[73].

وعلى أي حال، فلقد أقام الأوس والخزرج في المدينة، وربما لم يكونوا في أول الأمر يملكون من القوة وكثرة العدد، بحيث يخشى اليهود بأسهم، هذا ويبدو أن اليهود قد عملوا على الإفادة من خبراتهم التي اكتسبوها منذ فترة طويلة، في مجال الزراعة والتجارة في مواطنهم القديمة في اليمن، ومن ثم سمحوا لهم بالإقامة في مجاوراتهم، إلا أن وجود الثروة والسلطان في أيدى اليهود جعل الأوس والخزرج يعيشون حياة قاسية، ومن ثم فقد كان الواحد منهم، إما أن يعمل في مزارع يهود، وإما أن يستغل خبرته السابقة في الزراعة، فيعمل في أرض لاتنتج الكثير من الغلات، لأنها في غالب الأحايين إنما كانت أرض موات تركها اليهود، وفي كلا الحالين فقد كان القوم غير ميسر عليهم في الرزق[74].

وما أن يمضى حين من الدهر، حتى استطاع أصحابنا من أوس وخزرج أن يكونوا أصحاب مال وعدد، حتى أن يهود بني قريظة والنضير أحسوا أنهم لو تركوهم على حالهم هذا، فقد يشكلون في وقت قريب خطرا، قد يهدد مصالح يهود في المدينة، وربما قد يهدد القوم أنفسهم، ومن ثم فقد «تنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى بينهم، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم خائفين أن تجليهم يهود، حتى نجم منهم مالك بن العجلان، من بني سالم بن عوف بن الخزرج، فكان سببا في أن يسود الحيان، الأوس والخزرج»[75].

---

(73) ابن حزم ٣٣٢/١، اللسان ٥٨٠/١١، نهاية الأرب للقلقشندى ص ٤٠٤، المعارف ص ٤٩، خلاصة الوفا ص ١٦٤، التنبيه والاشراف للمسعودى ص ١٧٤، ياقوت ٨٥/٥، وفاء الوفا ١٢٤/١، جواد على ١٣٣/٤.

(74) تاريخ ابن خلدون ٢٨٦/٢ – ٢٨٧، الأغانى ١٩/ ٦٩، خلاصة الوفا ص ١٦٥، وفاء الوفا ١٢٥/١، على حافظ: المرجع السابق ص ١٥.

(75) السمهودى، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١٢٥/١ – ١٢٦، الدرر الثمينة ص ٣٢٦ – ٣٢٧، الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ٦٣، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٢٤ – ٣٢٥.

ومن ثم فقد أصبح للحيين – الأوس والخزرج – كيان سياسى فى يثرب، يفوق ماكان لليهود فيها، ومن أسف أن القوم مالبثوا أن أصيبوا بلعنة الصراع القبلى، وتحولت المنافسات التى كانت بينهم وبين يهود، إلى مشاحنات بينهم وبين بعضهم البعض الآخر، أدت فى النهاية إلى قيام الحروب بين الحيين العربيين، لعبت فيها العوامل السياسية والتنافس على الزعامة فى يثرب دورا كبيرا، هذا فضلا عن العوامل الاقتصادية التى تتلخص فى رغبة كل من الفريقين فى الاستيلاء على ماعند يهود، ثم حدث أن احتل الأوس بقاعا أخصب وأغنى من تلك التى احتلها الخزرج، فى الوقت الذى كان الخزرج يتمتعون فيه بمركز الصدارة، لأن نصرة العرب، إنما جاءت على يد رجل خزرجى – هو مالك بن العجلان–.

وهكذا كان الخزرج ينفثون على الأوس مكانتهم الاقتصادية، بينما كان الآخرون ينفثون على الأولين، مكانتهم السياسية، حدث هذا فى وقت كانت فيه سياسة اليهود مع القبائل العربية إنما تقوم على الإيقاع بينها، وإثارة الأحقاد بين المتخاصمين منهم، كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان، ومن ثم فقد عملت يهود على إذكاء روح التحاسد والتباغض التى بدأت تظهر فى سماء العلاقات بين الحيين العربيين الشقيقين، حتى يشعلوا نارا، إن لم تقض على الأوس والخزرج معا، فعلى الأقل تشغل كل فريق بالاخر، وتنتهز يهود الفرصة إستعداد لجولة قادمة، أو على الأقل الحفاظ على أماهى عليه.

وحققت يهود نجحا بعيد المدى فيما تريد، ودقت طبول الحرب بين الفريقين، تناوب فيها الأوس والخزرج النصر والهزيمة، وكان من أهمها ماعرف بحرب سمير، وحرب كعب بن عمرو المازنى[٧٦] وحرب حاطب بن قيس[٧٧]، فضلا عن يوم السرارة[٧٨] ويوم فارع[٧٩]، ويوم الفجار الأول

(٧٦) ابن الأثير ٦٦٠/١ – ٦٦٢، وفاء الوفا ١٥٢/١، أيام العرب فى الجاهلية ص ٦٩ – ٧١.
(٧٧) ابن الأثير ٦٧١/١ – ٦٧٢.
(٧٨) ابن الأثير ٦٦٢/١ – ٦٦٥.
(٧٩) ابن الأثير ٦٦٨/١ – ٦٧١.

والثانى[٨٠]، وحرب الحصين بن الأسلت[٨١] ، ثم حرب بعاث، وكان أولها حرب سمير، وآخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات[٨٢]، أى عام (٦١٧م).

وأما يوم سمير، فقد كان - طبقا لرواية الاخباريين - كأغلب أيام العرب لسبب غير خطير، ذلك أن رجلا من بنى ذبيان يقال له «كعب الثعلبى» نزل ضيفا على مالك بن العجلان، ثم خرج إلى سوق بنى قينقاع، فرأى رجلا من «غطفان» معه فرس، وهو يقول «ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب» فقال كعب مالك بن العجلان، فسمعه «سمير» الأوسى فشتمه ثم قتله بعد مدة فى حديث طويل، وخاف الحيان أن تنشب الحرب، إلا أن الخزرج أبو إلا دية الصريح، ولج الأمر بينهم حتى أدى إلى المحاربة، فاجتمعوا واقتتلوا قتالا شديدا على مقربة من «قباء» ، فانتصر الأوس، وانتهى الأمر إلى أن يحتكموا إلى «المنذر بن حرام» الخزرجى، جد حسان بن ثابت، الذى حكم بأن تدفع الأوس دية الصريح، وانتهت الحرب، وإن افترق القوم وقد شبت البغضاء فى نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم[٨٣].

وأما «يوم بعاث» ، فقد كان آخر الحروب التى نشبت بين الأوس والخزرج، وقبل هجرة المصطفى - ﷺ - بخمس سنوات، وتروى المصادر العربية أن الحروب السابقة بين الأوس والخزرج، إنما كانت فى غالبيتها للخزرج، ومن ثم فقد رأى الأوس محالفة بنى قريظة، فأرسلت إليهم الخزرج «لئن فعلتم فأذنوا بحرب» ،

---

(٨٠) ابن الأثير ٦٧٦/١، ٦٧٨ - ٦٨٠.

(٨١) ابن الأثير ٦٦٥/١ - ٦٦٦.

(٨٢) وفاء الوفا ١٥٢/١، ١٥٥، ابن الأثير ٦٥٥/١ - ٦٨٤، الأغانى ١٩/٣ - ٤٢، اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٦٨.

(٨٣) ابن الأثير ٦٥٨/١ - ٦٦٢، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٣٣، المفضليات ص ١٣٥، البدء والتأريخ ١٣٠/٣، الاشتقاق ٢٦٦/١، الأعلاق النفسية ص ٦٤، وفاء الوفا ١٥٢/١، الأغانى ١٦١/٢ - ١٦٤، أيام العرب فى الجاهلية ص ٦٢ - ٦٨، جرجى زيدان: المرجع السابق ص ٣٦١ - ٣٦٢، قارن: تاريخ الجاهلية ١٢٣ - ١٢٤.

فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج «إنا لانحالفهم ولاندخل بينكم»، ومع ذلك فقد استمر كل فريق يستميل إليه يهود، فضلا عن قبائل عربية أخرى، ولعب اليهود أخطر الأدوار في إشعال نار الحرب بين الحيين العربيين، وبالتالي عودة السيادة لهم في يثرب من جديد.

وهكذا جدد بنو قريظة والنضير تحالفهم مع الأوس، ثم ضموا إليهم قبائل أخرى من اليهود واستعدوا للحرب، وخشي الخزرج أن تنزل بهم هزيمة، فراسلوا حلفاءهم من بني أشجع وبني جهينة، وراسل الأوس حلفاءهم من بني مزينة، وأخيرا نشبت الحرب بين الفريقين عند «بعاث» - حصن بني قريظة - وانهزم الأوس في اليوم الأول، غير أن «عمر بن النعمان» قائد الخزرج، سرعان ماقتل، وانتهز الأوس الفرصة، فمالوا على الخزرج ميلة رجل واحد، يقتلون رجالهم ويحرقون منازلهم ونخيلهم، بعد أن كانت يهود قد نهبت ما استطاعت من أموالهم، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة، إلا خشية الأوس من أن يستعيد اليهود مركزهم السابق في يثرب، فيضطروا لمواجهتهم منفردين بعد القضاء على الخزرج، وفعلا فلقد بدت نيات اليهود واضحة في تحطيم الخزرج وإذلالهم، بخاصة وأنهم أصحاب اليد الطولى في القضاء على نفوذ اليهود في المدينة، ومن ثم فقد فضلت الأوس الاكتفاء بالقضاء على روح التسلط في الخزرج، وصاح واحد منهم «يامعشر الأوس: أحسنوا ولاتهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب».

ويروى أن السيدة عائشة - رضي الله عنها - قدمت عن هذا اليوم «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ، وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا، قدمه الله لرسول الله ﷺ في دخولهم الإسلام» ذلك لأن يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب كلها وأوجد فيها ميلا إلى الإتحاد كما أضعف كذلك روح العداوة والحقد في نفوس البطون اليثربية، حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتا حارا على نار العداوة الكامنة في القلوب ليزيد في ضرامها،

ويسقط من أولادها [illegible] كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين [illegible]
حتى لاتسل السيوف من أغمادها؛ وجاء الإسلام واتفقت الكلمة، واجتمع الأوس والخزرج على نصرة الإسلام وأهله، وكفى الله المؤمنين شر القتال، وأصبح القوم بنعمة الله اخوانا(٨٤).

(٥) فضائل المدينة:

بدأت «يثرب» بالهجرة النبوية الشريفة (١هـ/ ٦٢٢م) عهداً جديدا، وباسم جديد، بدأت العصر الإسلامى، وباسم «المدينة المنورة»، أو مدينة الرسول ﷺ، وأصبحت عاصمة الإسلام، ومقر رسول الله ﷺ- حيا وميتا - ومقر الخلفاء الراشدين الثلاثة (أبى بكر وعمر وعثمان) من بعده.

هذا وقد رويت أحاديث كثيرة فى فضائل المدينة المنورة، روى البخارى فى صحيحه (باب حرم المدينة) بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: المدينة حرم من كذا إلى كذا، لايقطع شجرها، ولايحدث فيها حدث من أحدث حدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين(٨٥).

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: حرم مابين لابتى المدينة - على لسانى(٨٦).

---

(٨٤) المسهودى: خلاصة الوفا ص ١٧٧ - ١٧٨، البكرى ٢٥٩/١ - ٢٦٠، ياقوت ٤٥١/١، تاريخ ابن خلدون ٢٨٩/٢ - ٢٩٠، ابن الأثير ٦٨٠/١ - ٦٨٤، تارج العروش ٦٠٤/١، شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٢٧٨، ابن هشام ١٨٣/٢، صحيح البخارى ١٠٨/٥، اسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٦٢ - ٧٠، أحمد ابراهيم الشريف: المرجع السابق ص ٣٣٦، محمد أحمد جاد المولى وآخرون: أيام العرب فى الجاهلية ص ٧٣ - ٨٤، إبراهيم العياشى: المدينة بين الماضى والحاضر ص ٤١ - ٤٣، وكذا السمهودى: وفاء الوفا ٢١٨/١ - ٢٢٠ (بيروت ١٩٧١)، الأغانى ١٥٤/١٥ - ١٥٧، ١٦/١٦، ٩٤/١٩ - ٩٦، ١٠١، ١٠٦ (ط الساسى)، الروض الأنف ١٤/١ - ١٥، مجمع الأمثال للميدانى ٢٦٨/٢ - ٢٧٠، الاشتقاق ص ٢٦٦، الصحاح للجوهرى ١٤٨/١، لسان العرب ٢٥٦/١، ٧٩/٣ - ٨٠، الصحاح للجوهرى ١٤٨/١، لسان العرب ٢٥٦/١، ٧٩/٣ - ٨٠، صبح الأعشى ٣١٩/١، تاريخ أبو الفداء ١٠٧/١.

(٨٥) صحيح البخارى ٢٥/٣.

(٨٦) صحيح البخارى ٢٦/٣.

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن على رضى الله عنه قال: ماعندنا شيء إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة عن النبى ﷺ وآله: المدينة حرم مابين عائر إلى كذا من أحدث فيها حدثا، أو أوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل منه صرف ولاعدل(٨٧).

وروى البخارث فى صحيحه (باب فضل المدينة، وأنها تنفى الناس) عن يحيى بن سعيد قال: سمعت أبا الحباب سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب، وهى المدينة، تنفى الناس، كما ينفى خبث الحديد(٨٨).

وروى البخارث فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول: لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ماذعرتها، قال رسول الله ﷺ: مابين لابيتها حرام(٨٩).

وروى البخارى فى صحيحه (باب من رغب عن المدينة) بسنده عن عبد الله ابن الزبير عن سفيان بن أبى زهير رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تفتح اليمن فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق، فيأتى قوم يبسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»(٩٠).

وروى البخارى فى صحيحه (باب الإيمان يأرز إلى المدينة) بسنده عن حفص بن عاصم عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: أن الإيمان ليأرز إلى المدينة، كما تأرز الحية إلى جحرها (٩١).

وروى البخارى فى صحيحه (باب اثم من كاد أهل المدينة) بسنده عن عائشة قالت: سمعت سعدا رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: لايكيد أهل

(٨٧) صحيح البخارى ٢٦/٣.

(٨٨) صحيح البخارى ٢٦/٣.

(٨٩) صحيح البخارى ٢٦/٣- ٢٧.

(٩٠) صحيح البخارى ٢٧/٣.

(٩١) صحيح البخارى ٢٧/٣.

المدينة أحد، إلا انماع، كما ينماع الملح فى الماء[٩٢].

وروى البحارى فى صحيحه (باب لايدخل الدجال المدينة) بسنده عن أبى بكرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: لايدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب، على كل باب ملكان[٩٣].

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة، لايدخلها الطاعون ولا الدجال»[٩٤].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ليس من بلد، الا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب، إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق»[٩٥].

وروى البخارث فى صحيحه «باب المدينة تنفى الخبث» بسنده عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه: جاء أعرابي إلى النبى ﷺ، فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محموا، فقال أقلنى، فأبى ثلاث مرار، فقال: المدينة كالكير تنفى خبثها، وينصع طيبها»[٩٦].

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن عباد بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد بن عاصم، أن رسول الله ﷺ قال: إن ابراهيم حرم مكة، ودعا لأهلها وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت فى صاعها ومدها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة»[٩٧].

وعن رافع بن خديج قال: قال رسول الله ﷺ: ان إبراهيم حرم مكة، وإنى

---

(٩٢) صحيح البحارى ٢٧/٣.
(٩٣) صحيح البخارى ٢٨/٣.
(٩٤) صحيح البخارى ٢٨/٣.
(٩٥) صحيح البخارى ٢٨/٣.
(٩٦) صحيح البخارى ٢٩/٣
(٩٧) صحيح مسلم ١٣٤/٩ - ١٣٥.

أحرم مابين لابتيها – يعنى المدينة»(٩٨).

وعن جابر قال: قال النبى ﷺ : «إن ابراهيم حرم مكة، وإنى حرمت المدينة، مابين لابتيها، لايقطع عضاهها، ولايصاد صيدها»(٩٩).

وحدثنا ابن نمير، حدثنا أبى، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : إنى أحرم مابين لابتى المدينة، أن يقطع عضاهها، أو يقتل صيدها، وقال: «المدينة خير لهم، لو كانوا يعلمون، لايدعها أحد رغبة عنها، إلا أبدل الله فيها، من هو خير منه، ولايثبت أحد على لأوائها وجهدها، إلا كنت له شفعيا أوشهيدا يوم القيامة(١٠٠).

وعن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ثم ذكر مثل حديث ابن نمير، وزاد فى الحديث: ولايريد أحد أهل المدينة بسوء، إلا أذابه الله فى النار، ذوب الرصاص، أو ذوب الملح فى الماء»(١٠١).

وحدثنا حامد بن عمر، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عاصم قال: قلت لأنس بن مالك، أحرم رسول الله ﷺ المدينة؟ قال: نعم، مابين كذا إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثا قال: ثم قال لى هذه شديدة، من أحدث فيها حدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل الله منه صرفا ولاعدلا، قال: فقال ابن أنس: أو آوى محدثا»(١٠٢).

وروى مسلم فى صحيحه عن الأعمش عن إبراهيم إلتيمى عن أبيه قال: خطبنا على بن أبى طالب فقال: من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه، إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة، قال: صحيفة معلقة فى قراب سيفه، فقد كذب، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبى ﷺ : المدينة حرم مابين عير إلى ثور،

(٩٨) صحيح مسلم ١٣٦/٩.
(٩٩) صحيح مسلم ١٣٦،٩.
(١٠٠) صحيح مسلم ١٣٦/٩.
(١٠١) صحيح مسلم ١٣٧/٩ – ١٣٨.
(١٠٢) صحيح مسلم ١٤٠/٩ – ١٤١.

فمن أحدث فيها حدثا، أو آوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولاعدلا»(١٠٣).

وعن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: حرم رسول الله ﷺ، مابين لابتى المدينة، قال أبو هريرة: فلو وجدت الظباء مابين لابتيها ماذعرتها، وجعل اثنى عشر ميلا (حوالى ١٩ كيلا) حول المدينة حمى(١٠٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «إن ابراهيم حرم مكة فجعلها حرما، وإنى حرمت المدينة، حراما مابين مأزميها، أن لايهراق، فيها دم، ولايحمل فيها سلاح لقتال، ولاتخبط فيها شجرة، إلا لعلف، اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم بارك لنا فى صاعنا، اللهم بارك لنا فى مدنا، اللهم بارك لنا فى صاعنا، اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين، والذى نفسى بيده ما من المدينة شعب ولانقب، إلا عليه ملكان يحرسانها»(١٠٥).

وعن سهل بن حنيف قال: أهوى رسول الله ﷺ: بيده إلى المدينة فقال: انها حرم آمن»(١٠٦).

وحدثنا قتيبة.بن سعيد، حدثنا حاتم – يعنى ابن اسماعيل – عن عمر بن نبيه، أخبرنى دينار القراظ قال: سمعت سعد بن أبى وقاص يقول: قال رسول الله ﷺ: من أرد أهل المدينة بسوء، أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء(١٠٧).

---

(١٠٣) صحيح مسلم ١٤٢/٩ – ١٤٤.
(١٠٤) صحيح مسلم ١٤٥/٩.
(١٠٥) صحيح مسلم ١٤٧/٩ – ١٤٨.
(١٠٦) صحيح مسلم ١٥٠/٩.
(١٠٧) صحيح مسلم ١٥٧/٩

(٦) المسجد النبوى:

هذا وقد شرفت المدينة بمسجد سيدنا رسول الله ﷺ - ثانى الحرمين الشريفين،روى البخارى فى صحيحه (باب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة) بسنده عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى» (١٠٨).

وعن أبى عبد الله الأغر عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال. صلاة فى مسجدى هذا، خير من ألف صلاة. فيما سواة، إلا المسجد الحرام»(١٠٩).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال: صلاة فى مسجدى هذا، أفضل من الف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام (١١٠).

وعن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة، فيما سواه، إلا المسجد الحرام (١١١).

وعن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة، يبلغ به النبى ﷺ: لا تشد الرحال، إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى»(١١٢).

(٧) الروضة الشريفة:

هناك فى مسجد سيدنا رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة «الروضة الشريفة» روى البخارى فى صحيحه (باب فضل مابين القبر والمنبر) بسنده عن عبد الله بن أبى بكر، عن عباد بن تميم عن عبد الله بن زيد المازنى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال، مابين بيتى ومنبرى، روضة من رياض الجنة»(١١٣).

---

(١٠٨) صحيح البخارى ٧٦/٢

(١٠٩) صحيح البخارى ٧٦/٢..

(١١٠) صحيح مسلم ١٦٣/٩.

(١١١) صحيح مسلم ١٦٥/٩.

(١١٢) صحيح مسلم ١٦٧/٩ - ١٦٨.

(١١٣) صحيح البخارى ٧٧/٢.

وعن حفص بن عاصم عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة، ومنبرى على حوضى»(١١٤).

وعن حفص بن عاصم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: مابين بيتى ومنبرى، روضة من رياض الجنة، ومنبرى على حوضى» (١١٥).

وعن عباد بن تميم عن عبد الله بن ريد الأنصارى، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: مابين منبرى وبيتى روضة من رياض الجنة»(١١٦).

هذا وقد اختلف العلماء فى المراد بقوله ﷺ «مابين بيتى (١١٧)ومنبرى روضة من رياض الجنة» (١١٨)، وفى رواية أنه قال: «مابين هذه البيوت يعنى بيوته – إلى منبرى، روضة من رياض الجنة، والمنبر على ترعة من ترع الجنة»، وفى حديث آخر: «منبرى على ترعة من ترع الجنة» هل هو على الحقيقة أم المجاز؟

والرأى عند الامام مالك (٩٠- أو٩٧ – ١٧٩هـ/ ٧٠٨ – ٧٩٥م) أنه الأول – أى على الحقيقة – فقال: «إنها روضة من رياض الجنة تنقل إليها، وليست كسائر الأرض تذهب وتفنى»، ووافقه على ذلك جماعة من العلماء: وصححه «ابن الحاج»، وقال ابن أبى حمزة: ويحتمل أن تكون تلك البقعة نفسها الآن من الجنة، كما أن «الحجر الأسود» منها، وتعود روضة فيها، وقال الداودى:

---

(١١٤) صحيح البخارى ٧٢/٢.

(١١٥) صحيح مسلم ١٦٣/٩.

(١١٦) صحيح مسلم ١٦١/٩.

(١١٧) جاء فى الشفا: قال الطبرى: فيه معنيان، أحدهما أن المراد بالبيت بيت سكناه على الظاهر – مع أنه روى ما يبيّنه «بين حجرتى ومنبرى»، والثانى: أن البيت هنا هو القبر – وهو قول زيد بن أسلم فى هذا الحديث – كما روى «بين قبرى ومنبرى»، قال الطبرى: واذا كان قبره فى بيته، اتفقت معانى الروايات، ولم يكن بينها خلاف، لأن قبره فى حجرته – وهو بيته–، وقوله «منبرى على حوضى»، قيل يحتمل أنه منبره بعينيه الذى كان فى الدنيا، وهو أزهره، والثانى أن يكون له هناك منبر، والثالث: أن قصد منبره، والحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة، يورد الحوض، ويوجب الشرب منه قاله الباجى (القاضى عياض: الشفا ٩١/٢– ٩٢).

(١١٨) رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائى عن عبد الله بن زيد المازنى، ورواه الترمذى عن أبى هريرة، ومثل هذا اللفظ عن أبى هريرة وأبى سعيد – أى فى الموطأ – وفى نسخة صحيحه زاد – أبو سعيد الخدرى: «ومنبرى على حوضى» (الملا على القارئ شرح الشفا ١٤٦/٢).

كما جاء في الشفاء – أن تلك البقعة قد ينقلها الله تعالى، فتكون في الجنة بعينها(١١٩).

على ان هناك وجها آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن ذلك على المجاز – وليس على الحقيقة – قال الحافظ «ابن حجر العسقلاني» (٧٧٣ – ٨٥٢هـ) محصل ما أول به العلماء ذلك، أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة، في نزول الرحمة، وحصول السعادة، بما يحصل فيها من ملازمة حلق الذكر، لاسيما في عهده ﷺ، فيكون مجازاً، أو أن العبادة فيها تؤدى إلى الجنة، فيكون مجازاً أيضاً.

وقال «ابن عبد البر» (٣٦٣ – ٤٦٣هـ/ ٩٧٣ – ١٠٧٠م): لما كان ﷺ، يجلس في ذلك الموضع ويجلس الناس اليه للتعلم، شبهه بالروضة، لكريم مايجتنى منه، وأضافها إلى الجنة، كقوله ﷺ «الجنة تحت ظلال السيوف» – أي أنه عمل يدخل الجنة –.

هذا وقد ذهب «ابن حزم» (٦٧٤ – ٤٥٦هـ/٩٩٤ – ١٠٦٤م) أيضاً إلى أن الروضة انما هي من الجنة على سبيل المجاز، إذ لو كانت حقيقة، لكانت – كما وصف الله تعالى الجنة – «إن لك ألا تجوع فيها ولاتعرى»(١٢٠).

هذا وقد رجح الحافظ ابن حجر الرأى الأول في موضع من «فتح الباري»، وأن تلك البقعة نفسها، (الروضة الشريف، ومساحتها ٢٢/١٥م) إنما هي روضة حقيقية من رياض الجنة، كما أن الحجر الأسود من الجنة، فيكون الموضع المذكور – أي الروضة الشريفة – روضة من رياض الجنة الآن ويعود روضة في الجنة، كما كان، ويكون للعامل بالعمل فيه روضة من رياض الجنة، وذلك لعلو مكانته ﷺ، وليكون بينه وبين الأبوة الإبراهيمية في هذا شبه، وهو أنه لما خص الخليل – عليه الصلاة والسلام – بالحجر الأسود من الجنة، خص الحبيب المصطفى ﷺ بالروضة من الجنة.

هذا فضلاً عن أن المخبر بأن الروضة من الجنة، هو المخبر بأن الحجر والمقام

---

(١١٩) أنظر محمد بيومى مهران: في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين – الجزء الثاني – السيرة النبوية الشريفة – الجزء الثاني – ص ١٣٨ – ١٤١ – بيروت ١٩٩٠)

(١٢٠) سورة طه: آية ١١٨.

منها، هذا ولا ينافى كون الروضة من الجنة حقيقة، حصول الجوع والعرى فيها، لاتصافها بصفة دار الدنيا، كما أن الحجر الأسود ومقام ابراهيم من الجنة، لكنهما نزلا فى هذه الدار «الكعبة المشرفة» اتصافا بصفاتها، فلا يلزم من انتفاء الجوع والعرى عمن حل فى الجنة، انتفاؤهما فيما نقل منها، وإلا لنفى بذلك كون الحجر المقام من الجنة حقيقة، ولا قائل به.

هذا وقد اختلف العلماء أيضاً فى تحديد الروضة الشريفة، فذهب فريق إلى أنها ماسامت (أى ما قابلت ووازت) كلا من طرفى المنبر والحجرة، فتؤخذ مستوية فيدخل فيها محاذاة الحجرة من جهة الشمال، وان لم يسامت المنبر، ومجازاة طرف المنبر من جهة القبلة، وإن لم يسامت الحجرة لتقدمه من جهة القبلة، فتكون الروضة مربعة، وهى الأروقة الثلاثة :رواق المصلى الشريف، والرواقان بعده إلى صف اسطوانة الوفود، وهى التى خلفت أسطوانة الحرس، وذلك هو سقف مقدم المسجد فى زمنه ﷺ ويدخل فى حينئذ موقف الصف الأول مما يلى الحجرة، وجميع المصلى الشريف، وهذا هو الأولى بالإعتماد، وظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس، كما فى المنح، وقد رجحه العلامة «السمهودى» (٨٤٤ - ٩١١هـ/ ١٤٤٠ - ١٥٠٥م)[١٢١] فى الوفاء وخلاصته، وتبعه جمع ممن بعده من أئمتنا وغيرهم.

وخلاصة حد «الروضة الشريفة» الآن - كما جاء فى النزهة على هذا القول الراجح - الأساطين المرخمة بالرخام الأبيض والأحمر، المذهبة إلى حد النصف منها، ودليل هذا القول، قوله ﷺ «مابين بيتى ومنبرى، روضة من رياض الجنة».

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما هى: ماسامت الحجرة الشريفة، والقبر الشريف المنيف فقط، فتؤخذ غير مستوية، فتكون متسعة من جهة الحجرة، ضيقة من جهة المنبر، فتكون منحرفة الاطلاع،

---

(١٢١) أنظر عن ترجمة السمهودى - المصرى الحسنى، نزيل المدينة المنورة ، وعالمها ومفتيها، ومدرسها ومؤرخها (شذرات الذهب ٨/٥٠ - ٥١، السخاوى الضوء اللامع فى أخبار أهل القرن التاسع ٥/٢٤٥ ، مقدمة وفاء الوفا ١/٤-٥).

لتقدم المنبر الشريف في جهة القبلة، وتؤخر الحجرة الشريفة فى جهة الشام فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعاه، على قدر امتداد المنبر السوى الشريف، وهو خمسة أشبار - كما حرره السمهودى - ودليل هذا القول: التمسك بظاهر لفظ البينية الحقيقية من الحديث، وحينئذ يخرج عنها الصف الأول مما يلى الحجرة، فلا يكون من الروضة الشريفة.

وهنلك وجه ثالث للنظر يذهب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما تعم جميع المسجد الذى كان موجوداً على أيام النبى ﷺ، وهو الذى جزم به السمعانى وغيره، ونقله الريمى عن الخطيب بن جملة، واستدل له بقوله ﷺ «ما بين بيتى »، وهو مفرد مضاف يفيد العموم فى سائر بيوته ﷺ، ويفسر هذا - وإن لم يستدل به - رواية صحيحة للإمام «أحمد بن حنبل» (١٦٤هـ/٧٨٠م - ٢٤١هـ/٨٥٥م) فى «زوائد المسند» جاء فيها «ما بين هذه البيوت» - يعنى بيوته ﷺ - «إلى منبرى».

ويقول «الشنقيطى» : وأنا أميل إلى رأى الإمام مالك والزين المراغى فى تحديد الروضة الشريفة، لأدلة منها:

أولاً: ماذكره فى حمل الخصوص فى قوله «قبرى» على العموم فى قوله «بيتى».

وثانياً: ما رواه الإمام أحمد - رحمة الله - «ما بين هذه البيوت إلى منبرى، روضة من رياض الجنة».

وثالثاً: حديث: «وقوائم منبرى على ترعة من ترع الجنة»، الذى يفهم إن ما كان شمال المنبر الشريف من الأرض هو ترعة من ترع الجنة وإلى الشمال الغربى من ذلك فى نهاية المسجد حيث باب الرحمة كان يقع آخر بيت من بيوت رسول الله ﷺ.

وهناك وجه رابع للنظر يصحب أصحابه إلى أن الروضة الشريفة إنما تعم جميع المسجد النبوى الشريف ، فى زمنه ﷺ، وبعد زمنه.

هذا وقد يجمع بين الروايات السابقة بأن الروضة الشريفة إنما تطلق على أماكن متفاوتة في الفضل ، فأفضلها ما بين القبر والمنبر، ثم بقية المسجد فى زمنه ﷺ ، ثم مازيد عليه بعده، ثم ما كان خارجاً إلى المصلى.

وعلى أية حال، فلقد وضع العثمانيون علامات للروضة الشريفة،بجعل أساطينها بيضاء - كما هو المشاهد الآن، وفى عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م حصل تقشر فى رخام بعض أساطين الروضة الشريفة، فقامت المملكة العربية السعودية بترميمها برخام أبيض أيضاً وقد أظهر ذلك أناقتها.

وأما «القبة الخضراء» فهى أصلاً من بناء سلطان مصر «الملك الأشرف أبو النصر قايتباى» (١٤١٠ - ١٤٩٦م)، وفى عام ١٢٣٣هـ (١٨١٧م) أمر السلطان العثمانى «محمود خان الثانى» (١٧٨٤ - ١٨٣٩م) بترميمها - وفى رواية بهدمها من قواعدها، وبنائها على قواعد متينة ثم طلائها باللون الأخضر، الذى جعلها تسمى «بالقبة الخضراء» - بعد أن كانت خضراء - منذ بناها «قايتباى» بناء محكماً، وقد أخذ لها الجبس الأبيض من مصر - وقد تم ذلك فى عام ٨٩٢هـ (١٤٨٦/١٤٨٧م)، وكتب على طرازها من الناحية الغربية «أنشأ هذه القبة الشريفة العالية، المعترف بالتقصير الراجى عفو ربه القدير، قايتباى».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى «الحجرة الشريفة» وكانت تسمى قديماً «المقصورة»، قال صاحب مرآة الحرمين: وفى زاوية المسجد الجنوبية الشرقية جزء فصل من المسجد بسور من النحاس الأصفر، طول كل من ضلعيه - الجنوبى والشمالى - ١٦م، وكل من ضلعيه - الشرقى والغربى ١٥م، ويقال له «المقصورة الشريفة».

وبناء المقصورة الحالى من آثار الملك «الأشرف قايتباى» من سورها الخارجى المعروف« بالشباك» إلى قبته التى فوق الداخلية، إلى دائرها المخمس، إلى القبة الداخلية، المبنية بحجر أبيض وأسود، الكائنة فوق الحجرة النبوية، التى فيها القبور الثلاثة الشريفة: قبر سيد الأنام محمد ﷺ، وقبرا صاحبيه وخليفتيه: أبى بكر الصديق، وعمر الفاروق، رضى الله عنهما، ومن ثم فقد مضى على هذه البنايات المؤلف منها مايسمى «بالمقصورة» أو «الحجرة الشريفة» ماينيف على أربعة قرون.

هذا وفي شمال الدائر المخمس - في داخل الشباك - حجرة السيدة فاطمة عليها السلام، أو قبرها، وبحلفه محراب يقال له «محراب فاطمة»(١٢٢).

ولعلنا نختم هذا الحديث عن «المسجد النبوى الشريف» إلى أنه انما كان مصدراً لاهتمام كتاب العالم كله، ودكره المؤرخون والأدباء والمحدثون والرحالة والجغرافيون من جزيرة العرب، ومن أرض الكنانة، ومن العراق والشام والمغرب والأندلس، ومن إيران وتركيا والهند، ومن فرنسا وانجلترا وهولندا وألمانيا وإيطاليا.

ومن ثم فقد رأينا موسوعة «مصادر تاريخ الجزيرة العربية»، إنما تخصص له في جزئها الأول بحثا خاصا، كتبه الأستاذ «رشيد بوروبية» بعنوان، «مسجد المدينة في حدائق الكتب الثمينة»، وقدم لنا فيه قرابة تسعين كتاباً، جمعت بين كتب المحدثين وأصحاب السير، من حيث أننا نجد، بجانب مواليد الجزيرة العربية، مصريين وشاميين، وعراقيين وفرسا، وأتراكا وهنودا، ومغاربة وأندلسيين وانجليزيين وفرنسيين وألمانيين وإيطاليين وغيرهم.

---

(١٢٢) أنظر: الدكتور محمد علوى المالكى: الذخائر المحمدية ص ٧٧- ٨٢ السمهودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ٤٢٦/٢، على الملا القارى: شرح الشفا ١٦٣/٢ - ١٦٥، القاضى عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٩١/٢ - ٩٢، عبد الحميد قدسى: الذخائر القدسية، ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين ص ٢٤٠ - ٢٤٥، محمود الشرقاوى المدينة المنورة ١٩٦- ٢٠٣، غالى محمد الأمين الشنقيطى: كتاب الدار الثمين فى معالم دار الرسول الأمين، ﷺ - الدوحة ١٩٨٨ ص ٢٤ - ٢٧، لبيب البتنونى: الرحلة الحجازية ص ٢٤٨ - ٢٥٠، ابراهيم ابن على العياشى: المدينة بين الماضى والحاضر، محمد صبرى أبو علم باشا: الروضة الشريفة، الزين المراغى تحقيق النصرة فى معالم دار الهجرة، على حافظ: فصول من تاريخ المدينة، ابن النجار: أخبار المدينة، أحمد بن عبد الحميد العباسى عمدة الأخبار فى مدينة المختار، عبد القدوس الأنصارى آثار المدينة المنورة ص ٨١ - ١٧٦ - المدينة المنورة ١٩٧٣م.
ياقوت ٩/٤، تقويم البلدان ص ٩٥، جواد على ١٤٢/٤.

(٣) الطائف:

تقع الطائف على مبعدة حوالى ١٢٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من مكة، على جبل غزوان، أبرد مكان فى الحجاز، وتتميز على مكة المكرمة بأنها ذات جو طيب في الصيف، وبأنها كثيرة الشجر والثمر، وأكثرها ثمارها الزبيب والرمان والموز والأعناب[1] وتصل كمية المطر السنوية إلى ٢٠٠ ملليمتر، وتزيد أحياناً إلى ٤٥٠ ملليمتر، ويزيد من أهميتها انخفاض درجة الحرارة وبالتالى قلة البخر.

وتاريخ الطائف مايزال غامضاً، وإن عثر الباحثون على كتابات مدونةعلى الصخور المحيطة بالمدينة، وفى مواضع ليست بعيدة عنها، بعضها بالنبطية، وبعضها بالثمودية، وبعضها الثالث بعربية القرآن الكريم، كما عثر على كتابات تشبه اليونانية، وأخرى تشبه الخط الكوفى، وإن كانت جميعها لم تدرس حتى الآن[2].

ويذهب الاخباريون إلى أن اسمها القديم «وج» نسبة إلى «وج» أخو «أجأ» الذى سمى به أحد جبلى طئ، وهما من العماليق، وإنما سميت بالطائف بحائطها المطيف بها، وقد أقامه رجل دعوه «الدمون» حتى لايصل إليهم أحد من العرب، ثم حاولوا بعد ذلك إعطاء صفة مقدسة، ربما بتأثير من بنى ثقيف سكان الطائف، فزعموا بأنها من دعوات إبراهيم الخليل، وأنها أرض ذات شجر كانت حول الكعبة، ثم انتقلت من مكانها بدعوة إبراهيم، فطافت حول البيت، ثم استقرت فى مكانها، فسميت الطائف، وزعم آخرون أن جبريل قد اقتطفها من فلسطين، وسار بها إلى مكة فطاف بها حول البيت، ثم أنزلها حول الطائف[3]... إلى غير ذلك من أساطير لاتقدم نفعاً، ولاتفيد علماً.

هذا وهناك من يزعم أن أول من سكن الطائف إنما هم العماليق، ثم غلبهم

---

(١) ياقوت ٩/٤، تقويم البلدان ص ٩٥، جواد على ١٤٢/٤.

(٢) جواد على ١٤٣/٤، القزوينى: آثار البلاد ص ٩٨.

وكذا Osman R.Rostem, Rock Inscriptions in The Hijaz, P. 11.

(٣) ياقوت ٩/٤، ١٢، البكرى ٨٨٦/٣، تاج العروس ١٨٤/١، المقدسى ١٠٩/٢، تقويم البلدان ٤٩٩/٣ ومابعدها

عليها بنو عدوان من قيس بن عيلان، ثم بنو عامر بن صعصعة، ثم أخذتها منهم ثقيف[٤]، وزعم آخرون أن الذين سكنوا الطائف بعد العماليق إنما هم قوم ثمود قبل ارتحالهم إلى وادى القرى، ومن ثم فقد ربط أصحاب هذه الرواية نسب ثقيف بالثموديين الذين سبوهم إلى جد أعلى هو «قسى بن منبه»، الذى يجعله بعضهم من «إياد»، بينما يجعله البعض الآخر من «هوزان». وزعم فريق ثالث أنه كان بالطائف قوم من يهود، طردوا من اليمن ومن يثرب، فجاءوا إلى الطائف، وسكنوا فيها، ودفعوا الجزية لسادتها ومنهم ابتاع معاوية بن أبى سفيان أمواله بالطائف[٥].

ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الأعراب، من حيث ميلهم إلى الزراعة والاشتغال بها، وعنايتهم بغرس الأشجار المثمرة التى كانوا دائمى السعى إلى تحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة منها، كما كان لهم خبرة ومهارة بالأمور العسكرية، الأمر الذى ظهر واضحاً إبان محاصرة الرسول (ﷺ) لمدينتهم وتحصنهم بسورها، هذا إلى جانب ميل إلى الحرف اليدوية كالدباغة والنجارة والحدادة، وهى أمور مستهجنة فى نظر العربى[٦]، وقال الهمدانى عن الطائف[٧]: مدينة قديمة جاهلية، وهى بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروفة.

هذا وقد عاش أهل الطائف فى مستوى أرفع من عامة أهل الحجاز، بل حتى حظ فقراء الطائف كان أفضل من حظ غيرهم من فقراء الحجاز.

وقد ذهب المفسرون إلى أن كلمة القريتين التى جاءت فى سورة الزخرف فى

---

(٤) المعارف ص ٩١، تاج العروس ١١٠/٢، اللسان ٣٩٧/٢، الأغانى ٤/ ٧٤، أنساب الأشراف ص ٢٥، الاشتقاق ص ١٨٣، ياقوت ٩/٣ – ١١، ابن خلدون ٢٤/٢، نهاية الأرب للقلقشندى ص ١٩٨، ٢٠٠، وكذا EI, 4, p. 734، وكذا J.A.Montgomery, op.cit. p. 137

(٥) ابن سعد ٣١٢/١، أنساب الأشراف ٣٦٦/١، تاريخ الطبرى ٨٢/٣ – ٨٥، ابن الأثير ٢٦٦/٢ – ٢٦٨، ابن كثير ٣٤٥/٤ – ٣٥٢، ابن خلدون ٥٠/٢ – ٥١، السيرة الحلبية ١٣١/٣، وانظر: محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٣٢٣/٢ – ٤٢٧ (بيروت ١٩٩٠).

(٦) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٦٨.

(٧) الإكليل ٨/ ١٢٠.

قول الله تعالى: وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»[8] أن المراد: مكة والطائف[9].

وكان لثراة الطائف حصون يدافعون بها عن أنفسهم وأموالهم، كما كان لهم علم بالحرب، وقد جمعوا عندهم - بجانب الحصون والأسوار - معظم وسائل المقاومة المعروفة وقت ذاك، مثل أوتاد الحديد التى تحمى بالنار، لتلقى على الجنود المختفين بالدبابات، هذا إلى جانب أنهم قد تعلموا من أهل اليمن - ومن مدينة «جرش»[10] بالذات - صناعة العرادات والمنجنيق والدبابات[11].

هذا وكان أغنياء الطائف - شأنهم فى ذلك شأن أغنياء مكة وغيرهم من أغنياء العرب - إنما كانوا أصحاب ربا، ومن ثم فحين أسلموا، اشترط عليهم سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ: أن لايرابوا، ولايشربوا الخمر، ولايزنوا، وكتب لهم كتابا[12].

وكان لأهل الطائف تجارة مع اليمن، وإن كنا لانسمع عن قوافل كبيرة كقوافل أهل مكة، كانت تتاجر مع بلاد الشام أو العراق، وربما كانوا يساهمون مع تجار مكة فى تجارتهم مع هذه البلاد، خاصة، وأن أثرياء قريش كانوا يستثمرون أموالهم فى الطائف، وأنهم قد اشتروا بعض المياه (الآبار) وبنوا لهم منازل بالطائف للإقامة بها صيفاً، فضلاً عن إسهامهم مع كبار القوم فى ثقيف فى أعمال تجارية رابحة، وحاولوا - جاهدين - ربط الطائف بمكة[13].

(٨) سورة الزخرف: آية ٣١.

(٩) أنظر تفسير ابن كثير ١٩١/٤ - ١٩٢، تفسير النسفى ١١٧/٤، تفسير الطبرى ٣١٨٦/٢٥، تفسير الطبرسى ٤٦/٥، تفسير الزمخشرى ٣٥٠/٢، البلاذرى، أنساب الأشراف ٣٦٦/١.

(١٠) حرش وتقع على مبعدة ٣٠ كيلا جنوب «أبها»، وعلى مبعدة ٢٠ كيلا من «خميس مشيط» بالسعودية- وليست حرش الأردن-.

(١١) المنجنيق: آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف، وأما الدبابة: فآلة تتخذ لنقب الحصون يدخل فيها الجنود، ويضربون فى أصل حائط الحصن حتى ينقبوه، وكانت فى أبسط مظاهرها فى تلك العهود تتخذ من الخشب ليحتمى بها الجنود، وهم ينقبون الحصون (محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٢٤/٢).

(١٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٦٧، السيرة الحلبية ٢٤٠/٣ - ٢٤٤.

(١٣) البلاذرى فتوح البلدان ص ٦٨ ومابعدها.

على أن أهل الطائف من ناحية أخرى، إنما كانوا يحاولون أن يأخذوا مكانة قريش التجارية، وقد نجحوا إلى حد ما يوم استولى الفرس على اليمن، فكانت قوافل كسرى التجارية، ولطائم ملوك المناذرة في الحيرة، تذهب إلى اليمن وتعود منها، عن طريق الطائف، غير أن أثرياء قريش سرعان ما نجحوا في بسط سلطانهم على الطائف، عن طريق إقراض سادتها الأموال، وشراء الأرضين هناك، حتى جعلوا من الطائف - آخر الأمر - بمثابة التابع لقريش(١٤).

وأما أهم معبودات الطائف في الجاهلية فقد كانت «اللات»(١٥)، وهي من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، وقد انتقلت إلى الحجاز - فيما يبدو - من الأنباط، والقبائل العربية الشمالية، وتروى المصادر العربية أنها كانت صخرة مربعة، بنت عليها «ثقيف» في مدينة الطائف بيتاً تضاهي به الكعبة المشرفة، وكانت العرب تعظم بيت اللات، بل أن «ثقيفاً» إنما كانت تخص اللات، بما كانت تخص به قريش «العزى»، فكان الواحد منهم إذا قدم من سفر، توجه إلى بيت اللات، فتقرب إليه، وشكر اللات على عودته سالماً، ثم يذهب إلى بيته، هذا

(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦٨، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - الجزء الرابع - بيروت ١٩٧٠ ص ١٥٢ - ١٥٣.

ومن عجب أن تبرز الطائف على مكة في عصر الأمويين، فعندما أراد معاوية بن أبي سفيان التخلص من النفوذ القرشي، استبدل العصبية القرشية بالعصبية الثقفية، كما برزت ثقيف بروزاً شديداً في عهد بني مروان الأمويين وخاصة في عهد عبد الملك بن مروان وولده الوليد (أحمد إبراهيم الشريف: الحجاز قبيل ظهور الإسلام ص ٣١ - ٣٢).

(١٥) كانت «اللات» كبيرة آلهة الصفويين، وأهم الآلهة عندهم، وقد عرفها اللحيانيون كذلك، فكان من أسمائهم «تيم اللات»، كما تعبد لها الأنباط، وعدوها أم الآلهة، ومن ثم فقد ذهب «روبرتس سميث» إلى أنها كانت الآلهة الأم في البتراء، وأنها بمثابة «أرتميس» عند القرطاجيين، كما أطلق «ابيجانيوس» على معبدها في البتراء «معبد الأم العذراء» (أنظر: جواد علي ٢٣٢/٦، موسكاتي الحضارات القديمة ص ٣٥٨ - ٣٥٩، ورينيه ديسو: العرب في سورية قبل الإسلام ص ١١١، ١١٥.

وكذا W.Caskel, Lihyan Und Lihyansch, Kohn, 1954, p.1 46.

J.Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, p. 33.

A. Grohmann, Arabien, 1963, p. 82.

W.R. Smith, op. cit, p. 33 - 34.

فضلاً عن أن القوم إنما كانوا يعتقدون أنه لايجوز أن تقطع أشجار من حماها، ولايصاد عنده، ولايراق دم آدمي فيه(١٦).

وتذهب المصادر العربية إلى أن «عمراً بن لحى» هو الذى أدخل «اللات» على العرب، وطبقاً لرواية الاخباريين، فقد كان «اللات» رجلا من ثقيف، يلت له السوق للحج على صخرة اللات، فلما مات أشاع «عمرو بن لحى» أنه لم يمت، وإنما دخل في الصخرة، ثم أمر بعبادته، وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى «اللات»(١٧). على أن رواية أخرى إنما تذهب إلى أن «عمرا بن لحى» هو الذى كان يلُتُّ السوق، ويطعم الحاج، وذهبت روائة ثالثة إلى أن يهوديا كان هو الذى يلت السوق(١٨).

وأياً ما كان الأمر، فمن المعروف أن «عمرا بن لحى» هذا، إنما هو أول من اتبع هواه، ونشر عبادة الأصنام بين العرب، روى الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ/ ٧٨٠م - ٢٤١ هـ/ ٨٥٥م) بسنده عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا، ورأيت عمرا يجر قصبة، وهو أول من سيب السوائب».

ويقول الحافظ «ابن كثير»: والمقصود أن عمراً بن لحى - لعنه الله - كان

---

(١٦) ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ١٦، ١٩، ٢٧، ٤٣، ياقوت: معجم البلدان ٤/٥، ابن حبيب: المحبر ص ٣١٥، محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص ١٦٥ - ١٦٦، محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام - القاهرة ١٩٣٦ ص ١١٩، تفسير البحر المحيط ٦٠/٨، تفسير ابن كثير ٢٥٣/٤.

(١٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١٧١/٢، الأزرقى: أخبار مكة ١/ ١٢٥ - ١٢٦، الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢٨١/٢، معجم البلدان ٤/٥، الألوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٣٤٦/١ (القاهرة ١٩٢٤م).

Alfred Guillaume, Islame, (Penguin Books), 1964, p. 7-8.

(١٨) تفسير البيضاوى ٤٣٠/٢، تفسير الخازن ١٩٤/٤، تفسير روح المعانى ٤٧/٢٧، تاج العروس ٥٨٠/١، الأزرقى: أخبار مكة ١٢٥/١، اللسان ٣٨٨/٢، ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ١٦.

وفى صحيح البخارى (١٧٦/٦) عن ابن عباس رضى الله عنهما: اللات رجلا يلت سويق الحاج.

قد ابتدع لهم أشياء في الدين، غيّر بها دين الخليل - عليه الصلاة والسلام - فاتبعه العرب في ذلك، فضلو بذلك ضلالاً بعيداً[١٩].

هذا وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها «غبغب»، تحفظ فيها الهدايا والندور والأموال التي كانت تقدم للصنم، ولما أسلمت «ثقيف» بعث سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ، المغيرة بن شعبة - وهو من ثقيف - فهدمها وحرقها بالنار، ثم أخذ الأموال التي كانت في «الغبغب» وسلمها إلى أبي سفيان بن حرب، إمتثالاً لأمر المصطفى ﷺ[٢٠].

ولعل من الجدير بالإشارة أنه كان «للات» حمى، وحرم في جوار الطائف، يقصده حجيج مكة، وسواها، ويقدمون لها الذبائح، وقد حرم قطع الأشجار والصيد والقتل في مثل هذا المكان فإن الحيوان إنما قد استمد من تلك البقعة مناعة الحرم[٢١].

وتذهب المصادر العربية إلى أن قريشاً إنما كانت - قبل الإسلام - تطوف بالكعبة المشرفة، وتقول: «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق

---

(١٩) ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٨/٢ - ١٩٠، الفاسي: العقد الثمين ١٣٦/١ (القاهرة ١٩٥٩)، شفاء الغرام ٢١/٢، ٤٦- ٤٧ (القاهرة ١٩٥٦)، المسعودي. مروج الذهب ٢٩/٢ - ٣٠ (بيروت ١٩٧٣)، الديار بكري: تاريخ الخميس ص ١٢٤ (القاهرة ١٣٠٢هـ)، تاريخ اليعقوبي ٢٥٤/١ (بيروت ١٩٦٠)، ابن دريد: الاشتقاق ٤٧٤/٢ (القاهرة ١٩٥٨)، ابن هشام: سيرة النبي ﷺ ٨٤/١ - ٨٥، الأزرقي: أخبار مكة ٨٨/٢، ١١٨ (بيروت ١٩٦٩)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٩٨/٦ - ٤٠٠، صحيح البخاري ١٨٤/٤، ٥٤/٦ - ٥٥، محمد بيومي مهران: الحضارة العربية ص ٣٢٥ - ٣٢٧، ٣٥٧- ٣٦٣ (اسكندرية ١٩٨٨).

(٢٠) تاريخ الطبري ٩٩/٣، تاريخ ابن خلدون ٥١/٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٨٣/٢ - ٢٨٤، ابن هشام ٣٢٦/٢، بلوغ الأرب ٢٠٣/٢ - ٢٠٤، معجم البلدان ١٨٥/٤، ٥/٥، ابن الكلبي: كتاب الأصنام ص ١٧، ابن حبيب: المحبر ص ٣١٥، تفسير القطربي ص ٦٢٦٩، تفسير ابن كثير ٤٣٢/٧ (دار الشعب - القاهرة ١٩٧١).

وكذا J.Wellhausen, op.cit, p. 31.

(21) P.H.Hitti, A History of The Arabs, 1960, p. 99.

وكذا J.Wellhausen, op.c cit, p. 32.

العلا، وأن شفاعتهن لترتجى»، وكانوا يقولون: بنات الله، وهن يشفعن إليه[٢٢].

وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قول الله تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة[٢٣] الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذاً قسمة ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى»[٢٤].

وفي تفسير ابن عباس: وأخرج سعيد بن منصور والفاكهي عن مجاهد قال: كانت اللات رجلا في الجاهلية على صخرة بالطائف، وكان له غنم، فكان يأخذ من رسلها[٢٥]، ويأخذ من زبيب الطائف والأقط، فيجعل منه حيساً، ويطعم من يمر من الناس، فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللات[٢٦].

وكان يقرأ «اللات» مشدداً[٢٧]، وهذا التفسير ظاهر على قراءة تشديد «التاء»، وهي قراءة ابن عباس، وذكر «ابن الجزري» أنها قراءة «رويس»[٢٨].

---

(٢٢) ستينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة - ترجمة وزاد عليه السيد يعقوب بكر - القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٦٠، الألوسي: بلوغ الأرب ٢٠٣/٢.

(٢٣) روى البخاري في صحيحه (ومناة الثالثة الأخرى): حدثنا الحميدي حدثنا سفيان الزهري: سمعت عروة، قلت لعائشة رضي الله عنها، فقالت: «إنما كان من أهل بمناة الطاغية التي بالمشلل، لايطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى «إن الصفا والمروة من شعائر الله، فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون، قال سفيان: مناة بالمشلل من قديد» (صحيح البخاري ١٧٦/٦ - ١٧٧).

(٢٤) سورة النجم: آية ١٩ - ٢٣، وأنظر تفسير القرطبي ٩٩/١٧ - ١٠٣، تفسير البيضاوي ٤٣٠/٢، تفسير الكشاف ٣٠/٤ - ٣١، تفسير النسفي ١٩٦/٤ - ١٩٧، السيوطي: تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١٢٦/٦ - ١٢٧)، في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٠٧ - ٣٤١٠، تفسير الطبرسي ٤٤/٢٧ - ٥١، تفسير روح المعاني ٥٤/٢٧ - ٥٨، تفسير الطبري ٥٨/٢٧ - ٦٢، تفسير أبي السعود ١١٢/٥ - ١١٣، تفسير ابن كثير ٣٩٢/٤ - ٣٩٥ (بيروت ١٩٨٦).

(٢٥) رسلها: يعني لبنها (انظر: النهاية في غريب الحديث - مادة رسل).

(٢٦) عبد العزيز بن عبد الله الحميدي: تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة ٨٤٢/٢ - ٨٤٣ (جامعة أم القرى -بمكة المكرمة).

(٢٧) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١٢٦/٦.

(٢٨) النشر في القراءات العشر ٣٧٩/٢.

هذا وقد أمر رسول الله (ﷺ) أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة - وهو من ثقيف - بهدم (اللات)، فلما دخل المغيرة عليها بضربها بالمعول، وخرجت نساء ثقيف حاسرات يبكين عليها، ثم أخذ المغيرة مالها وحليها بعد أن كسرها.

والقصة - كما ترويها كتب السيرة - أن ثقيفاً إنما كان لها موقف غير كريم من سيدنا رسول الله (ﷺ) حين خرج إليهم في أخريات شوال من عام ١٠ من المبعث (٦٢٠م) على قدميه في صحراء موحشة قاسية، ليس معه أحد إلا مولاه زيد - في بعض الروايات - فردوه جميعاً رداً منكراً، وأغلظوا له الجواب - وتجاهلوا أنه ابن «عبد المطلب» سيد العرب - إن لم يؤمنوا أنه رسول الله ونبيّه -.

ثم شاركت «ثقيف» في غزوة حنين وأوطاس - ضد المسلمين - ولكنها سرعان ما رجعت إلى الطائف منهزمة، فدخلت حصونها، وغلقت أبوابها، بعد أن تزودت بكل ما تستطيع من مؤنة وسلاح، وأخذت أهبتها لحصار طويل الأمد - إن أراد النبي أن يحاصرهم - وكان رجال ثقيف ذوي خبرة بقتال الحصون، ومن ثم فقد أجمعوا أمرهم على الدفاع عن حصونهم بكل قوة - مهما طال الحصار -.

وطال أمد الحصار - والذي بدأ في شوال من عام ٨ هـ (فبراير ٦٣٠م) - إلى بضعة وعشرين ليلة، حاول المسلمون إبانها، إخراج ثقيف[٢٩] من حصونها فلم يفلحوا، فطلبوا منهم المبارزة فأبوا، فعيروهم بالجبن والفرار فلم يأبهوا بهم.

وهنا - وقد طال الحصار - رأى النبي - ﷺ - أن لافائدة من الحصار وأن ثقيف قد انكسرت شوكتها، واستشار أصحابه، فقال أحدهم: ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك»، وأمر الرسول (ﷺ) بالرحيل، وقيل له:

---

(٢٩) من أخبار ثقيف في الجاهلية أن قبيلة «خثعم» عزت بني ثقيف في الطائف، غير أن ثقيفا - بقيادة غيلان بن سلمة - انتصرت عليهم، ومن أيامهم كذلك «يوم وج»، وفيه هزمت ثقيف بني عامر بني ربيعة، بعون من حلفائهم «بنو نصر بن معاوية» (تاريخ ابن خلدون ٣٠٩/٢ - ٣١٠، الأغاني ٤٤/١٢ - ٤٥ (ط الساسي)، وانظر: البكري: معجم ما استعجم ٧٧/١ - ٧٦، عمر رضا كحالة. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ١٤٧/١ - ١٥١)

يارسول الله، أدع على ثقيف، فقال: اللهم اهد ثقيف، وآت بهم»[٣٠].

وهذا ماحدث، فلقد أتى وفد ثقيف[٣١] في عام الوفود - العام التاسع الهجرى - وأخذوا يحتنفون إلى رسول الله -ﷺ- وهو يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، وهدموا «اللات»، وأقاموا مسجد الطائف في مكانها. وهكذا انتهت أسطورة معبودتهم (اللات) التى كان يهدون لها الهدى، ويطوفون حولها ويسمونها «الربة»، ويضاهون بها الكعبة، بيت الله الحرام فى مكة، وكان سدنتها «آل أبى العاص بن أبى يسار بن مالك الثقفى»[٣٢].

هذا وتشير الأبحاث الحديثة إلى أن منطقة الطائف انما كانت تزخر بعدد كبير من السدود القديمة، أمكن حتى الآن معرفة خمسة عشر سدا، سجل منها تسعة سدود فقط (سد عين العقرب - سد ثلبة - سد السملقى - سد سيسد - سد العمير - سد صعب - سد عرضة - سد القصيبة - سد السلامة)[٣٣].

---

(٣٠) أنظر عن غزوة الطائف (زاد المعاد ٤٩٥/٣ - ٤٩٨، صحيح البخارى ١٩٨/٥ - ١٩٩، صحيح مسلم ١٢٣/١٢، تاريخ اليعقوبى ٦٢/٢ - ٦٣، تاريخ الطبرى ٨٢/٣ - ٨٥، ابن الأثير الكامل فى التاريخ ٢٦٦/٢ - ٢٦٨، الندوى: السيرة النبوى ص ٣٠٦ - ٣٠٧، محمد محمد أبو شهبة ٣٨٦/٢ - ٣٨٩، ابن كثير. السيرة النبوية ٦٥٢/٣ - ٦٦٤، أبو زهرة: حاتم النبيين ١٠٥٥/٣ - ١٠٥٧، الصادق عرجون ٤٠٢/٤- ٤١٦، سيرة ابن هشام ٣٥٧/٤ - ٣٦٢، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٢٣/٢ - ٤٢٧).

(٣١) أنظر عن ثقيف وفروعها (عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة - الجزء الأول - بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ص ١٤٧ - ١٥١).

(٣٢) أنظر عن وفد ثقيف للنبى ﷺ، واسلامهم (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢٨٣/٢ - ٢٨٤، زاد المعاد ٥٩٥/٣ - ٦٠٢، سيرة ابن هشام ٣٩٧/٤ - ٤٠١، أبو زهرة: خاتم النبيين ١١٠٤/٣ - ١١٠٩، ابن كثير: السيرة النبوية ٥٣/٤-٦٣، أبو شهبة ٤٢٩/٢ - ٤٣٥، الندوى. السيرة النبوية ص ٣٣٠، تاريخ الطبرى ٣/ ٩٦ - ١٠٠، محمد بيومى مهران. السيرة النبوية الشريفة ٤٩١/٢، صفى الدين المباركفورى: الرحيق المختوم ص ٥٠٣ - ٥٠٥ (مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م).

(٣٣) أنظر أيضا (سد درويش ، سد اللصب، سد سداد - سد أم المقرة - سد داما ، وهو الوحيد الدى يبعد حوال ى١٤٠ كيلا جنوب غرب الطائف فى وادى داما)، وأنظر عن هده السدود (مجيد خان، على مغنى سدود أثرية فى منطقة الطائف - مجلة أطلال - العدد السادس ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م ص ١٢٥ - ١٣٤.

وكذا Shirley Kay, Some Ancient Dams of The Hejaz, in PSAS 1978, 68- 73, Pis 1-15, p. 74- 80.

هذا، ورغم عدم تحديد فترات إنشاء هذه السدود، لعدم توفر الأدلة الأثرية، عدا بعض الكتابات الكوفية المبكرة، ومجملها غير مؤرخ، فإن المصادر العربية المبكرة إنما تؤكد على أن منطقتي الطائف وخيبر، إنما كانتا حافلتين بالنشاط الزراعي، وقد تنافست قبليتا قريش وثقيف في استغلال الأراضي الزراعية، الأمر الذي استمر حتى بعد البعثة المحمدية، وخاصة على أيام الأمويين.

وقد تميز بناء هذه السدود أحيانا بالتعقيد، وأحيانا بالبساطة، هذا فضلا عن أن ضخامة البناء إنما تدل على توفر العنصر البشري والمادي في المنطقة، وتتشابه هذه السدود في استقامة واجهاتها، مما يلي حجز المياه والسلالم المبنية على الواجهات الأخرى على طول ارتفاعها، بحيث تكون قاعدة السد أعرض بكثير من قمته، وقد استمرت هذه الطريقة في السدود التي عثر عليها على جانبي «طريق حج الكوفة - مكة» التي بنيت على طوله المحطات والمنازل المختلفة(٣٤).

وعلى أية حالة، فمن المعروف أن الطائف مدينة قديمة، كما أنها من أشهر مناطق الزراعة في الحجاز، وخاصة على جانبي «وادي وج»، وفي أكنافها من الكروم والنخيل والموز، وسائر الفواكه(٣٥).

---

(٣٤) سعد عبد العزيز الراشد: الآثار الإسلامية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ص ١٤٥ - ١٩٩ (الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين - الجزء الثاني - رياض ١٩٨٤)، وانظر: R.Raikes, Selected Studies on Hydrological Aspects of Taif Dams, (unpublished Study Conducted for The Ministry of Agriculture, Kingdom of Saudi Arabia , 1969).

(٣٥) في الواقع أن الطائف إنما هي أكثر مناطق الفواكه في بلاد العرب، فمثلا فإن العنب فيها أصناف متعددة، وأما زبيبها فيضرب به المثل، هذا ونظرا لكثرة أشجار الفاكهة في الطائف فقد اشتهرت بتربية النحل، وكان أصحاب النحل يؤدون من كل عشر قرب عسل قربة إلى رسول الله - ﷺ - فلما انتقل - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى، امتنعوا عن أدائه، فأمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أمير الطائف بأن يؤدي مربو النحل بالطائف ما كانوا يؤدونه إلى النبي - ﷺ - (محمد محمود محمدين: الزراعة والري في الحجاز في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين ص ٣٢٥، أبو يوسف كتاب الخراج ص ٤٠).

: ٤) تيماء:

تقع تيماء على مبعدة ١٠٤ كيلا إلى الشمال من العلا، وعلى مبعدة ٤٧٤ كيلا من المدينة المنورة، ١٣٧٤ كيلا من الرياض، على الطريق التجارى بين جنوب بلاد العرب وشمالها، وقد بدأت تيماء تظهر فى التاريخ على الأقل منذ أيام الملك الآشورى «تجلات بلاسر» (٧٤٥ – ٧٢٧ق.م) الذى تدلنا حولياته التى عثر عليها فى «كالح» (وهى نمرود الحالية، وتقع على مبعدة ٣٠ كيلا جنوبى نينوى، ٣٥ كيلا جنوب شرقى الموصل) – أنه أخذ منها الجزية، كما أخذها من زبيبى (زبيبة) ملكة دومة الجندل، ومن «شمسى»، فضلا عن الجالية السبئية في ديدان[١] هذا وقد جاء ذكر «تيماء» فى التوراة[٢] – كما فى أسفار أيوب[٣] وأشعياء[٤] وأرمياء[٥] وحبقوق[٦] وعوبديا[٧] وعاموس[٨].

وتيماء فى الروايات العربية، بلد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى، على طريق حاج الشام ودمشق، والأبلق الفرد حصن السموال بين عاديا اليهودى[٩] مشرف عليها من ناحية الغرب[١٠]، وهو مربع الشكل تقريبا، وفى وسطه بئر، وله دعامات من الخارج، ويشبه فى تصميمه وتنفيذه حصن كعب بن

---

(1) Van den Branden, Histoire de Thamoud, p. 7.
وكذا A.I.Olmstead, History of Assyria, p. 189.
وكذا ANET, p. 280 وكذا A.Musil, op,cit, p. 288.

(٢) أنظر تاريخ كتابة أسفار التوراة، كتابنا اسرائيل ١٨/٣ – ٩٦.

(٣) أيوب ٦ : ١٩.

(٤) أشعياء ١٤/٢١.

(٥)أرمياء ٤٩ : ٧.

(٦) حبقوق ٣:٣.

(٧) عوبديا ١ :٩.

(٨) عاموس ١ : ١٢ وانظر قاموس الكتاب المقدس ٢٩٦/١ ومابعدها.

(٩) هناك من يذهب إلى أن الرجل إنما كان عربيا غسانيا (المحبر ص ٣٤٩، الاشتقاق ٤٣٦/٢) وهذا يتمشى مع الفترة السياسية التى حكم فيها الفساسنة، وعاصرها السموآل فقد كان الغساسنة هم المسيطرون على الطريق التجارى من الشمال صوب الجنوب، ولايبعد أن يكون السموأل ممن لهم سلطة فى هذه الناحية مستمدة من صلته بالغساسنة (عبد الرحمن الأنصار: مجلة الدارة ٨٢/١).

(١٠) ياقوت ٦٧/١، البكرى ٣٢٠/١ – ٣٣٠، اللسان ٧٢/١٢، تقويم البلدان ص ٨٦، دائرة المعارف الإسلامية ١٣٠/٦.

الأخرى في المدينة المنورة[١١]، وإن كان هناك من ذهب إلى أن الحصن ربما كان من بقايا قصر نبونيد، أو من بقايا قصور رجاله، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان[١٢].

هذا وتشير كتابات الملك الأشورى «سنحريب» (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م) إلى أن أحد أبواب العاصمة الآشورية «نينوى» – وتقع الآن تحت تلى قوينجق والنبى يونس، على الضفة الشرقية لنهر الدجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر» (الخوصر)، على مبعدة ٤٠ كيلا من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى قبالة الموصل[١٣] – كان يسمى «باب الصحراء» حيث يمر منه «رجال سومو – ابل رجاء تيماء»[١٤].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اسم «تيماء»[١٥] إنما قد ورد فى الكتابات المسمارية التى ترجع إلى عهد آخر ملوك بابل «نبونيد» (٥٥٥ – ٥٣٩ ق.م) وأهم هذه الكتابات هى:

١ – حوليات نبونيد – كورش: وقد نشر هذا النص «بنجس» (T.G.pinches) لأول مرة فى عام ١٨٨٢م، ثم أعاد نشره «سدنى سمث» فى عام ١٩٢٤م، ويتحدث النص عن أعمال «نبونيد» طبقا لنظام الحوليات وقد أشار إلى إقامة «نبونيد» في «تيماء» منذ عام حكمه السابق، وذكر أسماء تيماء بصيغة «ت – ما ا» (Te - Ma - A)، «ت – ما» (Te - Ma)

٢ – قصيدة نبونيد: (Account of Nabonidus): وقد نشرها – لأول مرة – «سدنى سمث» فى عام ١٩٢٤، وهى عبارة عن نص مكتوب على لوح طينى

(١١) عبد الرحمن الأنصارى: لمحات عن بعض المدن القديمة فى شمال غربى الجزيرة العربية، مجلة الدارة ٨٢/١ (الرياض ١٩٧٥).

(١٢) جواد على ٥٢٩/٦

(١٣) أنظر عن العواصم الآشورية (محمد بيومى مهران، تاريخ العراق القديم ص ٣٢٦ – ٣٣٣ الإسكندرية ١٩٩٠)

(١٤) صبحى أنور رشيد، العلاقات بين وادى الرافدين وتيماء ص ٣٨٧ (الجزيرة العربية قبل الإسلام – الرياض ١٩٨٤).

(١٥) أنظر عن تيماء: حامد إبراهيم أبو درك: مقدمة عن آثار تيماء الرياض ١٩٨٦م

بالمتحف البريطاني، وقد أصابه تلف، غير أن دراسات «لاندزبرجر» (Landsberger) و«بارو» (Bauer) قد سدت النقص الموجود فيه، وقد تحدث النص - وكتبه خصوم الملك - عن حملة نبونيد، وقتله لأميرها، فضلا عن ذبح ماشيتها وماشية سكان مجاوراتها، ثم تجميله للمدينة وبنائه قصرا على غرار قصر بابل، وتحصينه تيماء وتسويرها، وجاء إسم تيماء فى هذا النص فى صيغة «ت - ما - آ».

هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الكتابات كاللوح الطينى الذى نشره «دوتى» فى عام ١٩٢٠م، ومؤرخ بالعام العاشر من حكم نبونيد، وجاء فيه أن المؤونة كانت تنقل بالجمال من معبد فى مدينة الوركاء - وتقع شرق الفرات، على مبعدة ٦٠ كيلا من مدينة السماوة، ١٢٨ كيلا شمال غرب أور - إلى الملك نبونيد فى أرض تيماء(١٦).

٣- كتابة بابلية على مسلتين من الحجر: عثر عليها الأثرى الانجليزى «رايس» (D.S.Rice) فى أثناء تقنيباته فى أطلال الجامع الكبير فى «حران» أو «حاران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعدة ٤٤٨ كيلا شمال شرق دمشق - فى عام ١٩٥٦م، وقد نشر الباحث الانجليزى (C.J.Gadd) النص المسمارى الأصلى، وترجمته مع دراسة مفصلة ظهرت عام ١٩٥٨م، وقد تحدث النص عن حملة نبونيد إلى تيماء، وإقامته هناك لمدة عشر سنوات تنقل فيها بين «دادنو» (ديدان = العلا) و«باداكو» (فدك) و«خيبرا» (خيبر) و «باديخو» (البديع) و «يتريبو» (يثرب = المدينة المنورة)، وقد اعتمد «جاد» فى تحديد موقع «بديع» (البديع) على «ياقوت الحموى»، وأنها بين فدك وخيبر، غير أن «حمد الجاسر» إنما يرى أن «يديع» تعرف الآن باسم «الحويط»، وأنها فى شرق حرة خيبر، وأن تيماء ورد فى الكتابة بصغيرة (ت - ما أ) (Te - ma - a).

ولاريب فى أن ذلك كله إنما يدل على إهتمام ملوك بلاد الرافدين بتيماء،

---

(١٦) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

بل أن الملك «نبونيد» إنما قد أقام له قصرا فى تيماء، عاش فيه حينا من الدهر، قارب سنوات عشر، حتى أصبحت تيماء أثناءها، وكأنها قد غدت خليفة لبابل[17].

وأما «تيماء» فى الكتابات الأرامية، فلقد جاء اسمها فى أقدم كتابة أرامية، ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، وذلك على الوجه الأمامى لمسلة تيماء المشهورة، وقد نشر هذا النص «كوك» (Cooke)، مع ترجمة له باللغة الإنجليزية، هذا فضلا عن ترجمة عربية لها، ق م بها الدكتور محمود الغول[18].

وهناك كتابة أرامية أخرى - ترجع إلى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد - وقد عثر عليها فى الكهف الرابع فى «قمران» - على مقربة من البحر الميت - وقد نقشت على قطعة من الرق، نشرها «ميليك» (J.T.Milik) فى عام ١٩٥٦، وقد تحدث هذا النص الأرامى عن إقامة «نبونيد» فى تيماء، ولكنه جعلها سبع سنوات - على عكس نص جامع حران الذى جعلها عشر سنوات - وربما قد تأثر هذا النص بنص سفر دانيال الذى جعل الملك «نبوخذنصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م) يقضى سبع سنوات مع حيوانات الصحراء، ونظرا للنزعة والصيغة اليهودية لهذا النص، فلقد رأينا كثيرا من العلماء الأجانب - من ألمان وفرنسيين واسرائليين وسوفيت - يهتمون به، خاصة «جفرياخو» و«بورروز» و«باردتكه» و «أموسين» و «ديبون - سومير» و «ماير».

وأخيرا، فلقد عثر فى مدينة «الحضر» على كتابة أرامية، تؤرخ بالعام الثالث قبل الميلاد، وتتحدث عن قيام قبيلة «بنوتيمو» وقبيلة «بنو بلعقب» ببناء معبد للآله «ترجول» فى مدينة الحضر.

---

(١٧) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ٢٨٨.

وكذا A.Musil, Northern Nejd, p. 224.

وكذا S.Smith, op.cit p. 53 - 88.

وكذا P.K.Hitti, op. cit, p. 39

C.J.Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, AS, 8, 1958, p. 8.

(١٨) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٩.

وأما الكتابات النبطية، فلقد عثر في الحجر (مدائن صالح) على كتابة نبطية تحمل اسم «تيماء»[١٩].

وأما عن علاقة تيماء بمصر، فلقد كانت تيماء، واحدة من مراكز الحضارة في شبه الجزيرة العربية، التي تعكس آثارها التأثير المصرى، حيث قامت بدور هام على طرق تجارية استراتيجية[٢٠]، وهى الطرق التجارية – والتى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذا الكتاب – بين مكة المكرمة وبلاد الشام، وبين مصر وجنوب الجزيرة العربية، وبين مصر وبابل، ومن المحتمل كثيراً أن هذا الطريق التجارى هو نفسه الذى يخترق المدينة فى الوقت الحاضر.

وفى عصر الملك «نبونيد» (٥٥٥– ٥٣٩ق.م) – وكان قد اتخذها مقرا له، كما أشرنا آنفا – كانت قد أصبحت نقطة ارتكاز للقوات العسكريةالقائمة على حماية الإمبراطورية البابلية الحديثة من أعدائها، هذا فضلا عن أن موقعها إنما كان عاملا مهما للإتصال الطبيعى بمصر.

هذا وقد دعت الحاجة إلى قيام تحالف عسكرى بين مصر وبابل ضد فارس، فى نفس الوقت الذى كانت بابل جد حريصة على استمرار قبضتها القوية على تيماء، تدعيما لقوتها فى المنطقة – وخاصة فى مواجهة مصر – هذا فضلا عن اتخاذ تيماء كنقطة ارتكاز عسكرى متقدمة للدفاع عن حدودها.

ولاريب فى أن اثار تيماء إنما تؤكد هذه الإتصالات، فضلا عن التأثير المصرى فى تيماء، وأول هذا التأثير قصيدة نبونيد (Account of Nabonid-us) – وقد أشرنا إليها من قبل – والجديد هنا أن القصيدة تسجل استقبال نبونيد لوفد الصلح الذى بعث به إليها ملك مصر «أحمس الثانى» (أمازيس ٥٧٠ – ٥٢٦ق.م) – من الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ – ٥٢٥ق.م)، وقد نجح هذا الوفد فى إعادة العلاقات الودية بين الدولتين،

(١٩) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٢٠) أنظر: (محمود عمر محمد سليم: التأثير المصرى فى آثار تيماء – رسالة المشرق – مركز الدراسات الشرقية –بكلية الآداب – جامعة القاهرة – العدد الأول يناير ١٩٩٣ ص ١١١ – ١٢٣).

بعد عدة قرون من الحروب[٢١].

هذا وقد أدت عودة العلاقات الودية بين مصر وبابل إلى كثرة تردد المصريين على تيماء - حيث يقيم العاهل البابلى نبونيد - الأمر الذى أدى بدوره إلى ظهور أسماء مصرية فى آثار تيماء، ومن ذلك ماورد على الوجه المكتوب بالأراميه على مسلة تيماء[٢٢]، حيث نقرأ عن قيام الكاهن «صلم شزب» (Salm- She-zeb) بن «بت - أوزيرى» (Pet - Osiri) بإدخال عبادة صنم جديد إلى تيماء هو «صلم هجم» فضلا عن تشييد معبد له، ويذهب «كوك» إلى أن والد الكاهن التيمى إنما يحمل إسما مشتقا من المعبود المصرى (أوزير)[٢٣] وهو الإسم «بت - أوزيرى» وهو اسم مصرى شائع فى مصر الفرعونية Pi- di - Wsir[٢٤]، وأما إسم الكاهن نفسه فهو إسم أشورى أو بابلى[٢٥].

وهناك من تيماء أيضا كتلة حجرية مكعبة عثر عليها بين بقايا «قصر الحمراء»[٢٦] - ويقع عند الطرف الشمالى الغربى لسلسلة المرتفعات الطبيعية بالمنطقة - عليها مشهدان على جانبين مختلفين يضمان ثور بين قرنية قرص الشمس، ويمثل المشهد الأول نقش عليه رأس ثور، يحمل بين قرنيه قرص

---

(٢١) نفس المرجع السابق ص ١١١ - ١١٣، صبحى أنور رشيد: دراسة تحليلية للتأثير البابلى فى آثار تيماء - سومر - العدد ٢٩ - بغداد ١٩٧٣ صص ١٠٧ - ١١٤.

(٢٢) مسلة تيماء أو حجر تيماء على الأصح: كشف فى عام ١٩٧٩م، وهو محفوظ الآن بمتحف اللوفر بباريس، وهو من الحجر الرملى (١١٠× ٤٣ × ١٢سم) ونهايته العلوية مقوسة، ويرجع إلى عصر نبونيد (محمود عمر: المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١).

(٢٣) أنظر عن أوزير (محمد بيومى مهران: الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الإسكندرية ١٩٨٩ ص ٣٤٩ - ٣٦٧).

(24) H.Ranke, Die Aegyptischen Personemamen, Band, I, Gleuckstadt, 1955, p. 123.

(٢٥) صبحى أنور رشيد: المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢٦) أنظر عن قصر الحمراء (جاث بودن، ميللر، وكريستوفرابدنز: دراسات تحليلية - برنامج حصر المعالم الأثرية فى موقع تيماء القديمة - التنقيبات الأولية فى تيماء ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م - الأطلال - الرياض ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ص ٨٩ - ٩١، حامد إبراهيم أو بودرك: المرجع السابق ص ٣٧ - ٥٢

الشمس، وقد وضعت رأسه على مذبح يتكون من ثلاث كتل حجرية، يعلوها كتلتان أخريان ثم يمثلان بالرأس، ويقف إلى يسار المشهد رجل يرفع يده اليمنى متعبدا، وفي الجانب الآخر من المشهد - حامل قربان أو مبخرة وفوق مائدة القربان نجمة عشرية يعلوها القمر، وإلى أقصى اليسار - أعلى الرجل - قرص شمس مجنح، له جناحان مستطيلان، ونقش ريش الجناحين بشيء من التجديد، بالإضافة إلى ريش الذيل، الذى شكل أنصاف دوائر، وحول المشهد اطار يحيط به زخارف دائرية.

وعلى الجانب الشرقى من المسلة، يوجد المشهد الثانى، هو يشبه المشهد الأول إلى حد ما، ويعلوه إطار عليه زخارف فى شكل زهرة اللوتس وفى النصف الأسفل من هذا النحت ثور يتجه إلى اليسار، حمل بين قرنيه قرص الشمس، وأمامه سيدة برداء طويل، تقوم بتقديم طعام للثور، وأعلى الثور قرص مجنح، أجنحته أكثر طولا، ويظهر ريشه أكثر تفصيلا، هذا وقد نقش الذيل بنفس الشكل الذى كان عليه فى الجانب السابق، وعلى جانبيه يتدلى ذراعان، وهناك، إلى أعلى قرص الشمس، وعلى الجانب الأيمن للمشاهد، توجد نجمة ثمانية.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أنه قد تكرر ظهور الشمس المجنة على مايسمى باللوح الحجرى المنقوش(٢٧)، وكذا على الواجهة الثانية لمسلة تيماء، والتى قسمت إلى قسمين، فصل بينهما خط مستقيم، حيث يضم المشهد العلوى قرصا مجنحا أسفله، رسم لشخص رأسه وجسده مغطيان تماما، ويمسك بصولجان، وإلى أسفل شخص يقف إلى يسار رأس ثور وضعت على مائدة قرابين أو مذبح.

ويخلص الدكتور محمود عمر إلى أن المشاهد السابقة إنما قد كررت أمورا،

---

(٢٧) اللوح الحجرى المنقوش: طوله ١٠٢ سم، وعرضه ٤٥ سم، وسمكه ١٦ سم، وقد نقشت عليها عشرة سطور بالأرامية البارزة، يعلوها مشهد لقرص الشمس المجنح، وبجانبه نجمة ثمانية وقمر كامل، وبين جناحى الشمس المجنح ساقان فى شكل شريطين مقوسين من أسفل، كأنهما خطافان، وريش الذيل صمم على شكل حزمة من الخطوط الرأسية (أنظر: حامد أبو درك المرجع السابق ص ٥٩، لوحة ٤٩).

منها (أولا) ظهور الثور ثلاث مرات، منهما مرتان فيهما قرنيه بين قرص الشمس، ومنها (ثانيا) أن الشمس المجنحة ظهرت في المشاهد الأربعة ومنها (ثالثا) تظهر النجوم والقمر في ثلاثة مشاهد، ومنها (رابعا) ظهرت في المشهد الأول زخارف في شكل قرص الشمس، ومنها (خامسا) ظهرت في المشهد الثاني زخارف في شكل زهرة اللوتس.وهذا التكرار تعبير عن تأثير مصري واضح، سواء في الفن أو في العقيد فالثور قد احتل مكانة بين الحيوانات المقدسة في مصر القديمة، فقدس نوع منه باسم «أبيس» لكونه ممثلا للخصوبة والقوة، ومن ثم فقد كان يرمز بالثور إلى قوة الملك وحكمه، وقد ظهر الملك «نعرمر» على أحد وجهي لوحته المشهورة (لوحة نعرمر) – وقد كشف عنها عام ١٨٩٧م في معبد حور في «نخن» (البصيلية – مركز ادفو – محافظة أسوان)، وموجود الآن بالمتحف المصري بالقاهرة – برقم ٣٠٥٥(٢٨) – في شكل ثور يدمر بقرنيه حصنا، وأسفله عدوه، هذا فضلا عن أن ظهور الشمس بين قرني الثور، إنما هو تعبير عن العلاقة بين الثور المقدس والإله رع، وصلته بالسماء، وهذا تمثيل مصري قديم(٢٩). هذا وقد رمز للمعبود «بوخيس» بالثور، حيث قدسه أهالي مدينة أرمنت – وتقع على مبعدة ١٥ كيلا جنوبي الأقصر، وقد أصبحت منذ أيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ – ١١٨٤ق.م) مقر لعبادة العجل المقدس بوخيس(٣٠) – وقد أدمج بوخيس مع معبود أرمنت الرئيسي «مونتو»(٣١)، وارتبط بوخيس ارتباطا وثيقا بعبادة رع، ومن ثم فقد رمز إليه بالثور، وبين قرنيه قرص الشمس. وتلك كلها مشاهد إنما تؤكد أصالة إنتماء مشاهد تيماء إلى العقائد المصرية القديمة(٣٢).

(٢٨) أنظر عن لوحة نعرمر (محمد بيومي مهران: مصر ٢٨٤/١ (لوحة ١٨)، مصر ٢٦/٢ – ٢٧).

(٢٩):

R.Maciver and A.Mace, El-Amrah and Abydos, 1899- 1919, p 1. 17, 91

(٣٠) أنظر عن «بوخيس» (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة ٤٠٢/٢ – ٣٠٣– الإسكندرية ١٩٨٩).

(٣١) أنظر عن «مونتو» (محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة – الجزء الثاني – الإسكندرية ١٩٨٩ ص ص ٣٨٧ – ٣٨٨).

(٣٢) محمود عمر: المرجع السابق ص ١١٢ – ١١٤.

هذا وقد عبد العجل «أبيس» لقوته الجسدية، فضلا عن قوة أخصابه، وكان مركز عبادته في «منف»[٣٣] العاصمة المصرية التليدة، وقد عثر على جبانة ضخمة مخصصة له في سقارة، حيث عثر على تماثيل من البرونز للعجل «أبيس»، أحدهما تمثله، وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه، وتتقدمه الحية المقدسة[٣٤].

وهناك في المتحف المصرى بالقاهرة تمثال (برقم JE, 38574) للبقرة المقدسة التي ترمز للالهة «حتحور»[٣٥]، وبين قرنيها قرص الشمس، تتقدمه الحية المقدسة، وفي المقدمة الملك تحوتمس الثالث[٣٦] (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) وهناك تمثال آخر للبقرة المقدسة الإلهة «حتحور»، وبين قرنيها قرص الشمس، تعلوه ريشتان، وفي المقدمة الملك «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ - ٥٢٥ق.م) تضفي عليه حمايتها[٣٧].

هذا فضلا عن أن ظهور النجوم والقمر مع الشمس في مشاهد تيماء، إنما هو أيضا تأثير مصرى، حيث يقرن الثور بالشمس، ومن ثم بالسماء ولهذا فلابد وأن تقرن به المظاهر المتصلة بها من شمس ونجوم[٣٨].

---

(٣٣) أنظر عن «منف» (محمود بيومى مهران: مصر - الجزء الثانى الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٧٨ - ٨٢.

(٣٤) محمود عمر: المرجع السابق ص ١١٥.

H.S. Sm h, A Visit to Ancient Egypt, Warminster, 1974, وكذا p. 15, 22 - 82.

(٣٥) أنظر عن «حتحور» (محمد بيومى: الحضارة المصرية القديمة الجزء الثانى ص ٤٠٤ - ٤٠٨).

(36) M.Salen and H Sourouzian, Official Catalogue THe Egypetian Museum Cairo, Mainz, 1987 - 1988, p. 138.

(37) M.Saleh and H.Souroulian, op.cit, p. 251.

(٣٨) ضياء أبو عازى: رع في الدولة القديمة - القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٢٢.

وقد استمر الفنان المصرى يشكل مشاهد فنية تضم الثور المقدس كاتجاه فنى يمثل جانبا من عقائد مصر القديمة، وقد ظهرت تأثيراته فى تيماء فى المشاهد الآنفة الذكر، بل لقد استمرت هذه المشاهد حتى أيام بطليموس الخامس (٢٠٥ - ١٨٠ق،م) طبقا للوحة (رقم٥٤٣١٣ JE)بالمتحف المصرى بالقاهرة، وقد نقش عليها بطليموس الخامس أمام ثور، فوق رأسه قرص الشمس،تعلوه ريشتان طويلتان تكسوان القرص، وهما رمز دمج أو امتزاج أمون رع.

ومن البدهى أن قرص الشمس المجنحة الذى ظهر فى تيمآء إنما هو جزء من العقيدة المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلا عن المعابد المصرية، هذا ونرى الشمس المجنحة تبرز أعلى اللوحة (رقم (JE 36335) بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وقد نقش عليها بطليموس الخامس أمام ثور، فوق رأسه قرص الشمس، تعلوه ريشتان طويلتان تكسوان القرص، وهما رمز دمج أو امتزاج أمون رع.

ومن البدهى أن قرص الشمس المجنحة الذى ظهر فى تيماء إنما هو جزء من العقيدة المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلا عن المعاقد المصرية، نراه يتقدم مداخل كثير من المقابر، فضلا عن المعابد المصرية، هذا ونرى الشمس المجنحة تبرز أعلى اللوحة (رقم JE 36335) بالمتحف المصرى، وتؤرخ بعصر الملك أحمس الأول (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م) وقد أظهر الفنان فيها قدرته فى أسيابه وانسجام وتناسق الشمس وأجنحتها كما كان فنان تيماء موفقا فى محاكاته الفن المصرى من هذه اللوحة.

ولعل من التأثيرات الواضحة أيضا فى فن تيماء أن القدم اليسرى إنما تبرز إلى الأمام فى مشاهد الأشخاص، هذا فضلا عن اختيار الفن التيمائى زهرة اللوتس فى تزينه لأحد مشاهده، أضف إلى ذلك أنه قد عثر فى تيماء على أربع كسرات صغيرة من أربع أوان فخارية نقش عليها علامة المدينة أو القرية «نوت» NW.T بالمصرية القديمة.

هذا وقد عثر الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر فى حفائره فى «تل بسطة» - شرقى مدينة الزقازيق - على ثلاثة أختام تحمل نفس العلامة، وتماثل تماما تلك التى عثر عليها فى تيماء.

وهناك تمثال نحت الجزء الأعلى منه، والذى يبدأ من أعلى حزام المنتصف حتى نهاية الإزار، طبقا للطابع المصرى، وكان إزار صاحب التمثال ملاصقا لجسده، وتبرز القدم اليسرى للتمثال كجزء من الشكل العام لهذا التمثال الذى نحت بأسلوب فني مصرى قديم، هذا فضلا عن مجموعة من الجعول من القاشاني الأخضر، وكل هذه الآثار إنما تؤكد أن أهل تيماء قد تأثروا بعبادة الشمس – وربما بعبادة رع بالتحديد – وأنهم كانوا على اتصال بمصر، الأمر الذى ظهر واضحا فى آثارهم – كما رأينا آنفا–.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك على مقربة من تيماء بقايا معبد عثر فيه على نقش، محفوظ الآن بمتحف اللوفر، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، نقرأ فيه بلغة أرامية، أن كاهنا قد أتى بصنم جديد (صلم هجم)، وبنى له معبدا وعين له كاهنا، كما صوره فى زى آشورى، مما دفع البعض إلى أن يذهب إلى أن قدوم هذا الإله إنما كان على أيام نبونيد[٣٩].

هذا وقد عثر (Euting) على آثار معبد قديم، وعلى كتابة ارامية، تعود إلى فترة كانت المدينة فيها تحت السيطرة الفارسية، وإن أشارت الكتابة إلى ازدهار المدينة وقت ذاك[٤٠]، هذا فضلا عن أن (جوسين وسافينياك) قد عثرا كذلك على «تل» هناك، فيه بقايا معبد ومجموعة من قبور القوم[٤١].

وفى عام ١٨٨٣م، عثر «هوبر» فى تيماء على مسلتها المشهورة، والتى كتبت على وجه واحد بالخط الأرامى، وعلى الجانب الأيسر نقش عليه رسمان، ربما كان الملك وكاهن، بتجه بعض الباحثين إلى أن الملك هنا إنما هو نبونيد، إعتمادا على المقارنة بين هذه المسلة ومسلة حران، وعلى أى حال، فمن المتفق عليه الآن أن هذه المسلة إنما ترجع إلى القرن الخامس ق.م[٤٢].

---

(39) J.A. Montgomery, op.cit, p. 67.

وكذا S.Smith, op-cit, p. 79 - 80

وكذا G.A. Cooke, op-cit, p. 195 - 6.

(٤٠) جواد على ٥٢٨/٦ ، وكذا EI, 4,p 622.

(٤١) جواد على ٤/ ٥٢٩.

A.J.Jaussen and R.Savignac, Mission Archeologique en Arabie, II, p 133, 163. (Paris, 1914).

(٤٢) عبد الرحمن الأنصارى، المرجع السابق ص ٨٢.

(٥) دومة الجندل:

وتسمى دومة الجندل الآن «بالجوف»، وكان يطلق عليها فى العصور الآشورية «أدوماتو»، وفى التوارة «دومة»، وفى جغرافية بطليموس "Adomatho" (Doumatha)[١] ، وأما فى المصادر العربية فهى «دومة الجندل» نسبة إلى دوم (أو دومان أو دما أو دوماء) بن اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام[٢]، وعلى أى حال فقد نسبت إلى الجندل لأن حصنها مبنى بالجندل وهو الصخر، وهى فى رأى «السكونى» حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلى طيء، كانت به بنو كنانة من كلب[٣]، ولعل من الأهمية بمكان الاشارة إلى أن هناك نصا مصريا يرجع إلى القرن الثامن عشر ق.م، جاء فيه ذكر منطقة «دوماتو» وأميرها «اقح»، وحاول البعض تقريب الإسم إلى إمارة أو مملكة أدوم فى شرق الأردن، غير أن الأكثر احتمالا تقريبها إلى «دومة» (الجندل) ذات الموقع التجارى المتميز، لاسيما وقد ذكرها الأشوريون باسم «أدوماتو»، وقد اتصلت بمصر فى فترة من تاريخها[٤].

ودومة أو دومة الجندل، واحة أدم الكبيرة، وتقع على مبعدة ٤٠٠ كيلو مترا إلى الشرق من البتراء عاصمة الأنباط[٥]، على حافة النفود الكبير ومن ثم فقد كانت ذات أهمية كبيرة فى التاريخ القديم، إذ كانت تعتبر بمثابة قلعة الجزيرة العربية الشمالية فى وجه المهاجمين من الشمال والشمال الشرقى وإذا ماسقطت دومة الجندل تساقطت بالتالى باقى المدن المجاورة[٦].

---

(1) W.F.Albright, JRAS, 1925, p. 293.
وكذا F.Hommel, op.cit, p. 581 , 594.

(٢) ياقوت ٤٨٦/٢ – ٤٨٧، البكرث ٢/ ٥٦٥، وتلك رواية اسرائيلية فى الواقع، حيث تذهب نصوص التوراة إلى أن سلالة إسماعيل إنما كانت تسكن فى المنطقة الواقعة إلى شمال البحر الأحمر، وتمتد من حدود مصر حتى دومة الجندل (تكوين ٢١:٢١، ألويس موسل: شمال الحجاز ص ٦٧).

(٣) ياقوت ٤٨٧/٢، قارن: البكرى ٥٦٤/٢ – ٥٦٥.

(٤) عبد العزيز صالح: شبه الجزيرة العربية فى المصادر المصرية القديمة ص ٣٠٣، وانظر:
B.Maislen, RTJE, 1946, p. 33.

(٥) ألويس موسل: شمال الحجاز ص ٨٢

(٦) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨٢.

ونقرأ فى حوليات العاهل الأشورى «تجلات بلاسر الثالث» التى عثر عليها فى «كالح» عن جزية من «زبيبى» ملكة بلاد العرب، التى يرى «ألويس موسل» أن مقرها إنما كان فى «دومة الجندل»[٧]، كما نقرأ كذلك فى نقوش الملك «اسرحدون» (٦٨٠ – ٦٦٩ق.م) أن أباه «سنحريب» (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م) قد أخضع أدوماتو (أدمو Adumu) حوالى عام ٦٨٨ ق.م، وأخذ أصنامها إلى عاصمته، والأمر كذلك بالنسبة إلى الأميرة «تاربى» (تبوؤة Tabua)، وكانت ملكة دومة الجندل «تلخونو» (تعلخوخو) قد امتد سلطانها حتى حدود بابل، ثم وقفت بجانب الثوار البابلين ضد «سنحريب» (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م)، ومن ثم فان العاهل البابلى ما ان انتهى من القضاء على الثورة، حتى اتجه إلى دومة الجندل وفرض الحصار عليها[٨]. وهناك مايشير إلى أن خلافا قد حدث بين الملكة وبين حزائيل – سيد قبيلة قيدار – الذى تولى قيادة الجيوش ضد سنحريب، مما أدى إلى استسلام وفرار حزائيل إلى البادية، فضلا عن أسر الأميرة تبؤة وأخذها إلى بابل، تمهيدا لإعدادها لتكون ملكة على قومها، تعمل بأمر آشور، وتنفذ سياسة ملوكها فيما يختص بالأعراب[٩]، غير أن آمال الآشوريين فى الملكة الجديدة قد خابت، فما أن يتم تعيينها ملكة على دومة الجندل حتى تفشل فى مهمتها، ولعل السبب فى ذلك إنما يرجع إلى العداء الدفين بين العرب والآشورين، والذى ما كان فى استطاعة تبؤة القضاء عليه[١٠].

---

(7) A.T.Olmstead, op.cit, p. 189.

وكذا A.Musil , Arabia Deserta, p. 477.

(8) D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, 518

وكذا P.K.Hitti, op.cit, p. 38 وكذا ANET, p. 290

وكذا A.Musil, op.cit, p. 48.

(9) British Museum Tablets, K, 3087, 3405

وكذا P.K.Hitti, op.cit, p. 38

(10) A.L. Oppenheum , in ANET, p. 291.

وكذا D.J.Wiseman, The Vassal - Treaties of Esarhaddon, Lodon, 1958, p. 4.

وعلى أى حال، فيبدو أن دومة الجندل كانت فى هذه الفترة مركزا دينيا هاما للقبائل العربية، كما أن هذه المنطقة قد عرفت فى هذه الفترة حكم الملكات اللآتى كن يجمعن بين السلطتين الدينية والزمنية، ولعل أشهرهن زبيبة (زبيى) وشمسى وتعلخونو وتبؤة(١١).

وفى العهد البابلى خضعت دومة الجندل للملك نبونيد، وكما أشرنا من قبل، فلقد جرد الملك البابلى فى العام الثالث من حكمه حملة على المدينة واحتلها(١٢).

هذا وتشير المراجع العربية إلى أن دومة الجندل إنما كانت مدينة محصنة بسور، في داخله حصن منيع، يقال له «مارد»، نسبة البعض - طبقا للروايات التقليدية - إلى سليمان عليه السلام، ونسبة آخرون إلى «أكيد بن عبد الملك السكونى»، وهو يهودى على رأى، وعربى من كندةعلى رأى آخر، وعلى أى حال، فان الحصن على مايدو قد بنى قبل القرن الثالث الميلادى، لأسباب منها صلة السكونيين بكندة، ومنها أن الحصن يشتمل فى بعض أجزائه على نقوش نبطية - والأنباط كما نعرف قد انتهت دولتهم فى عام ١٠٦م - ومع ذلك فالحصن ليس من عمل فرد واحد، ولا من فترة واحدة، وإنما من فترات متعاقبة، لعل آخرها منذ نصف قرن فقط(١٣).

وهناك في المصادر العربية مايشير إلى أن سكان دومة الجندل إنما كانوا أصحاب نخل وزرع، يسقون على النواضح، وزرعهم الشعير،وكان فى بلدهم سوق يبدأ فى أول يوم من شهر ربيع الأول، وينتهى فى النصف منه، هذا وقد

---

(١١) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨٢.
وكذا N.Abbot, Per- Islamic Arab Queens, in AJSL, 58, 1941
(12) CAH, 4, p. 194.
وكذا P.R.Dougherty, op.cit, p. 107
وكذا C.J. Gadd, op.cit. p. 35.
(١٣) عبد الرحمن الأنصارى : المرجع السابق ص ٨٤، ياقوت ٤٨٧/٢، جواد على ٢٣٦/٤ - ٢٣٧

سكن دومة قبل الاسلام قبائل كلب وجديلة وطيء، كما كان يتنازع السلطان فيها «الأكيدر» و «قناة الكلبي» الذى كان يتولى الأمر فيها، حين تكون الغلبة من نصيب الغساسنة، مما يدل على التنافس بين كندة وبنى غسان على الطريق التجارى[١٤]، «وكانت مبايعة العرب في دومة إلقاء الحجارة، وذلك أنه ربما اتفقوا في السلعة الرهط، فلا يجدون بدا من أن يشتركوا وهم كارهون، وربما اتفقوا فألقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عددا على أمر بينهم، فوكسوا صاحب السلعة إذا طابقوا عليه»[١٥].

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة إلى أنه في شعبان من عام ٦هـ (نوفمبر ٦٢٧م) أرسل سيدنا رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - إلى «بنى كلب»[١٦] في «دومة الجندل» (الجوف الحالية بالمملكة العربية السعودية) على رأس سبعمائة من الصحابة.

وطبقاً لرواية «أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى» (١٦٨ - ٢٣٠هـ/٧٨٤ - ٨٤٥م) والمعروف «بكاتب الواقدى»، فان سيدنا رسول الله - ﷺ - قال له: «أغز باسم الله، وفى سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً» وبعثه إلى «بنى كلب» بدومة الجندل، وقال له: «إن استجابوا لك، فتزوج ابنة ملكهم، فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم «الأصبغ بن عمرو» الكلبى - وكان نصرانيا - وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية، وتزوج عبد الرحمن بن عوف «تماضر بنت الإصبغ»، وقدم بها إلى المدينة المنورة[١٧].

---

(١٤) عبد الرحمن الأنصارى، المرجع السابق ص ٨٤، تاج العروس ٥١٨/٣، ٢٩٧/٨، المحبر ص ٢٦٣ - ٢٦٤، التاريخ الكبير لابن عساكر ٨٩/١، ومابعدها، نسب قريش ص ٢٧٦، جواد على ٢٢/٤ -٢٣٤، ٢٣٨، ٢٤٠.

(١٥) أبوجعفر محمد بن حبيب: كتاب المحبر - حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ - ص ٢٦٤.

(١٦) هم بنو كلب بن وبرة من قصاعة من القحطانية، كانوا ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام، وكانوا يعبدون «ودا» ثم دخلوا النصرانية فالإسلام (معجم قبائل العرب ٩٩١/٣ - ٩٩٢، صبح الأعشى ٣١٦/١، الاشتقاق ص ٤١٣، ٣١٤، الأغانى ١١١/١٧ - ١١٢، ١١٥، ١٢/١٩، ١٢٠/٢٠ - ١٢٣).

(١٧) طبقات ابن سعد ٦٤/٢، محمد بيومى مهران. السيرة النبوية الشريفة ٢٢٨/٢ - ٢٢٩.

وفى أثناء غزوة تبوك (رجب ٩هـ = سبتمبر - أكتوبر ٦٣٠هـ)(١٨)، تخلف «أكيدر بن عبد الملك» - وكان نصرانيا - صاحب دومة، عن سيدنا رسول الله - ﷺ - ومن ثم فقد ندب له النبى - ﷺ - خالد بن الوليد (١٩) - رضى الله عنه - (ت٢١هـ)، فى كتيبة من جنده، فى رجب عام ٩هـ .

وطبقاً لرواية ابن هشام فقد قال له رسول الله ﷺ: إنك ستجده يصيد البقر، فخرج خالد، حتى اذا كان من حصنه بمنظر العين - وفى ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له، ومعه امرأته، فبانت البقر تحك بقرونها القصر فقالت امرأته: هل رأيت مثل هذا قط، قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذا، قال: لا لا أحد، فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته - فيهم أخ له يقال له حسان - فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله - ﷺ، فأخذته، وقتلت أخاه، وانهزم فرسانه.

وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين، ومعه «أكيدر» قد نزع عنه قباؤه، وكان من ديباج مخصوص بالذهب، وعندما رأى النبى - ﷺ - أصحابه يلمسون القباء بأيديهم ويتعجبون، قال ﷺ: «أتعجبون من هذا فوالذى نفسى بيده، لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن منه».

ثم أطلق سراح صاحب دومة الجندل، بعد أن صالحه - فيما يرى ابن سعد على الفى بعير، وثمانمائة رأس من الماشية، وأربعمائه درع، وأربعمائة رمح، ثم كتب له رسول الله - ﷺ، كتاب أمان، وإن ذهبت آراء إلى أن رسول الله - ﷺ، قد عرض عليه السلام فأسلم، وأصبح أميرا على قومه

هذا وقد عاد «خالد بن الوليد» إلى «دومة الجندل» مرة أخرى فى عام

---

(١٨) أنظر الآراء المختلفة فى التأريخ لغزوة تبوك (محمد بيومى مهران: لاسيرة النبوية الشريفة ٢/٤٦١ - ٤٦٢).

(١٩) أنظر عن خالد بن الوليد (أسد الغابة الأثير ٢/١٠٩ - ١١٠، ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ١/٤١٣ - ٤١٥، ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١/٤٠٥ - ٤١٥، ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١/٤٠٥ - ٤١٠، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤/٢/١ - ٢، ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١/٣٢).

١٢هـ، على أثر نقض «الأكيدر» للمعاهدة التي بينه وبين سيدنا رسول الله -ﷺ-[٢٠].

ولعل أهم معبودات أهل دومة الجندل، انما كان المعبود «ود»[٢١]، ويذهب الاخباريون إلى أن «عمرا بن لحي» إنما هو الذى نشر عبادة «ود» هذا فى تهامة وفي وادى القرى وفي دومة الجندل، وأن سدنته انما كانوا من بنى الفرافصة بن الأحوص من كلب، وأن القوم قد استمروا يتعبدون له حتى كسره «خالد بن الوليد» - بأمر من المصطفى -ﷺ- عندما تغلب على «بنى عبد ود»، وعلى «بني عامر الأجدر»، وعلى «الأكيدر بن عبد الملك» صاحب دومة الجندل[٢٢]،

---

(٢٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١١٩/٢- ١٢٠ (ط دار التحرير - القاهرة ١٩٦٨)، الواقدى: كتاب المغازى ١٠٢٥/٣ - ١٠٣١، أبو زهرة: خاتم النبيين ١٠٨٥/٣- ١٠٨٦، ابن كثير: السيرة النبوية ٣٠/٤ - ٣٢، سيرة ابن هشام ٣٨٧/٤ - ٣٨٨، زاد المعاد ٥٣٨/٣- ٥٣٩، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢٨١/٢، أبو شهبة: السيرة النبوية ٤٠٨/٢ - ٤٠٩، تاريخ الطبرى ٥٦٤/٢، ١٠٨/٣-١٠٩، حمد الجاسر: فى شمال غرب الجزيرة ص ١٠٢ - ١٣٢ (الرياض ١٩٧٠م)، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ٤٧٧/٢ - ٤٧٨، محمد الطيب النجار، القول المبين فى سيرة سيد المرسلين - الرياض ١٩٨٢.

(٢١) أنظر عن «ود» (محمد بيومى مهران: الحضارة العربية القديمة ص ٣٨٥ - ٣٨٦ (الاسكندرية ١٩٨٨) ، الديانة العربية القديمة ص ٤٤ (الاسكندرية ١٩٧٩).

(٢٢) ابن حبيب: المحبر ص ٣١٦، ابن الكلبى: كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٥، معجم ياقوت الحموى ٣٦٧/٥.

(٦) الحجر (مدائن صالح):

تقع الحجر (مدائن صالح) على مبعدة ٢٤ كيلا إلى الشمال من مدينة العلا الحالية، وعلى مبعدة ٣٩٤ كيلا من المدينة المنورة، على الطريق التجارى العظيم الذى يربط جنوب بلاد العرب بسورية، وتتكون من عدة جبال رملية متناثرة، ومن ثم فقد سهل على سكانها أن ينحتوا فيها مقابر لهم، إنتشرت فى معظم هذه الجبال[1]، هذا وقد ورد إسم «الحجر» بصيغة «حجرا» فى نقشين على الأقل، من النقوش النبطية المحفورة على واجهات المقابر فى مدائن صالح، كما وردت بصيغة «الحجرو» قريباً من إسمها العربى «الحجر» فى مقبرة رقوش[2].

هذا وقد جاء ذكر المدينة فى جغرافية بطليموش[3]، كما ذكرها «إصطيفانوس البيزنطى»[4]، والحجر - فيما يرى البعض - هى «أجرا Egra» التى ذكرها «سترابو» فى حديثه عن حملة «إليوس جالليوس» على اليمن فى عام ٢٤ ق.م، وربما كان لها ميناء يعرف بـ«فرضة الحجر» ومن الممكن، بل من المحتمل أن تكون هذه الفرضة معروفة بنفس الإسم الذى عرفته به الحجر[5]- كما أن ميناء مدين كانت تعرف كذلك باسم مدين - وأن ميناء الحجر هذه ربما كانت هى بعينها الميناء التى تعرف اليوم باسم الوجه[6].

وتشير الكتابات التى وجدت فى مدائن صالح إلى أن المدينة ربما كان قد أنشأها المعينيون، كما تشير مقابرها التى جمعت فى نحتها عناصر فنية مختلفة -

---

(١) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨١.

(2) Jaussen and Savignac, op.cit, I, p. 157, 177, 201.

(3) Ptolemy, VI, 7, 29.

(4) Stephanus Byzantus, I, 260.

وكذا A.Grohmann, Arabien, p. 44.

(٥) يذهب بعض الباحثين إلى أن الحجر إنما هى مدائن صالح، بينما يذهب آخرون إلى أن مدائن صالح هى العلا، لا الحجر، وفرق آخرون بين موضع مدائن صالح والعلا (جواد على ٣/٥٥، وكذا A.Grohmann, op.cit, p. 4, 15, 39, 40

(٦) أنويس موسل: شمال الحجاز ص ١٠٦.

فرعونية وأغريقية وورمانية وعربية - إلى أنها تشبه إلى حد كبير ماهو موجود فى البتراء، ولعل هذا سببه أنهما ذات حضارة واحدة، وإن كانت مقابر مدائن صالح إنما تتميز بوجود شواهد عليها، مكتوبة بالخط الأرامى النبطى(٧)، كما أن هناك فى جبل أثلب معبداً يذكرنا بمعابد البتراء، فضلاً عن معبد آخر صغير يقع على مبعدة ١٥٠م إلى الجنوب من الجبل الآنف الذكر(٨)، وأخيراً فلعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك من يرى فى الموقع النبطى «إرم» الذى اكتشف على مبعدة ٤٠ كيلا إلى الشرق من العقبة، «إرم» المذكورة فى القرآن الكريم(٩).

ويشير «بلينى» فى التاريخ الطبيعى (٦: ١٥٦) أن عاصمة اللحيانيين هى «حجرا» (هجرا Hagra)، وأن مركزهم الرئيسى هو واحة ديدان على مبعدة ٢٤ كيلو مترا إلى الجنوب بن الحجر - وأن اللحيانيين انما كانوا يسكنون بكل تأكيد فى واحة الحجر، كما كانوا يسكنون كذلك فى ديدان، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن «هجرا» عاصمة اللحيانيين، هى بعينها الحجر(١٠)، وبنفس الاسم (الحجر) عرفت عند الانباط.

وأما المصادر العربية فتذهب إلى أن الحجر، انما هى ديار ثمود، ناحية الشام عند وادى القرى(١١)، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام، وقد ورد ذكرها

---

(٧) عبد الرحمن الأنصارى: المرجع السابق ص ٨١.

(٨) جواد على ٥٦/٣، وكذا .A.Musil, Arabia Petrae, p. 133 , 146

(٩) أنظر: سورة الفجر: آية ٨-٩، وانظر: تفسير البيضاوى ٥٥٧/٢، تفسير الطبرى ١٧٥/٣٠ - ١٨٠ (طبعة الحلبى ١٩٤٥)، التفسير الكبير للفخر الرازى ١٦٦/٣٠-١٦٩، تفسير القرطبى ٤٤/٢٠ - ٤٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠)، وانظر P.K.Hitti, op.cit, p. 73

(١٠) الويس موسل: شمال الحجاز ص ١٠٧.

(١١) تاريخ الطبرى ٢٢٦/١، البكرى ٤٢٦/٢، ياقوت ٢٢٠/٢، ٢٢١، ابن بطوطه ص ٢٥٩، المحبر ص ٣٨٤، المعارف ص ١٤، نهاية الأرب ص ١٩٩- ٢٠٠، اللسان ١٧٠/٤، الوس موسل: المرجع السابق ص ١٠٨ - ١٠٩، ابن الأثير ٨٩/١، تاريخ الخميس ص ٨٤، قصص الأنبياء ص ٥٨ - ٥٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٣٠/١، تفسير ابن، كثير ١٧١/٤ تفسير النسفى ٢٧٧/٢، تفسير روح المعانى ١٦٢/٨، ٧٦/٤، ٣٠/ ١٢٤، تفسير المنار ٥٠١/٨، ١٢٠/١٢، تفسير الطبرى ٥٢٤/١٢، ٥٢٨، ٤٩/١٤ - ٥٠، تفسير البيضاوى ٥٤٥/١، تفسير القرطبى ٤٦/١٠، ٤٨/٢٠، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوى) ٥٤٥/١.

فى القرآن الكريم[١٢]، وفى الحديث الشريف.

وعلى أى حال، فان المدينة قد أخذت تفقد مكانها بالتدريج، حتى إذا ماكان القرن العاشر الميلادى أصبحت خرائب لا يسكنها أحد، هذا وقد عثر فى هذه الخرائب - التى تقع بين جبل وقصر البنت وسكة حديد الحجاز القديمة - على آثار حصن قديم، وبقايا أبراج وأعمدة ومزولة شمسية، فضلا عن نقود ترجع إلى أيام الحارث الرابع النبطى (٩ ق.م - ٤٠م)[١٣].

هذا ومعرفتنا عن الإستقرار السكانى المبكر فى الحجر (مدائن صالح) محدودة وقليلة، ورغم وجود مجموعة من التواريخ على الآثار النبطية الثابتة فى المواقع، فيما بين عامى (١ ق.م، ٧٥م)، ومع ذلك فمن شبه المؤكد أن بداية الإستقرار إنما ترجع - على وجه اليقين - إلى تاريخ أسبق بكثير من أقدم تاريخ مكتوب، ومن ثم فليس هناك من سبيل إلى تحديد البداية الحقيقة للإستقرار، إلا عن طريق الحفائر الأثرية[١٤].

غير أن هناك مايشير إلى استقرار معينى فى الحجر، بدليل وجود نقوش معينية - ثلاثة على أحجار القلعة العثمانية، وثنتان على واجهة أحد الآبار المجاورة - وإن كان من المحتمل أن هذه النقوش المعينية قد أتت من مكان بعيد، خارج حدود المنطقة، على أن هناك دليلا يمكن الاطمئنان إليه إلى حد ما، وأعنى به مجموعة المخربشات اللحيانية المكتوبة على مدرجات جبل «أثلب» (Ithlib) على الواجهة الشرقية لموقع الحجر[١٥].

---

(١٢) سورة الحجر: آية ٨٠ - ٨٤، وانظر: تفسير القرطبى ١٠/ ٤٥ - ٤٦، تفسير روح المعانى ١٤/ ٧٥ - ٧٧.

(١٣) اللسان ٤/ ١٧٠.

(١٤) جواد على ٣/ ٥٦ وكذا A.Grohmann, op.cit, p. 66.
وكذا C.M.Doughty, op.cit, p. 113
وكذا A.J.Jaussin and R.Savignac, Mission Aracheologikue en Arabie, I,p. 316.

(١٥) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد عزال وحفرى كنج: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب فى المملكة العربية السعودية - الرياض ١٩٨٤ ص ١٧ - ١٨.

هذا ويذهب «ونيت» إلى وجود استقرار سكاني «معيني - لحياني» سبق الإزدهار النبطي في الموقع، على أن «جروهمان» إنما يميل إلى تأييد فكرة الأصل المعيني، ويذهب «كاسل» إلى وجود نقوش لحيانية مبكرة، وأحرى متأخرة، وان اختلف تأريخه لها عن «ونيت» هذا وذكر «بليني» أن الحجر(Hrgra) (مدائن صالح) كانت المدينة الملكية لما أسماهم (Lacattes) وطابقها «موسل» باللحيانين، ويؤيد «موسل» الرأى القائل بأن اللحيانين قد أقاموا فعلا في الحجر (مدائن صالح)، فضلا عن «العلا» (ديدان)، وأن الأنباط في تحركهم من الشمال للإستقرار في الحجر، كان اللحيانيون يحكمونهم منذ البداية(١٦).

هذا وربما يشير الظهور المفاجئ للمقابر الكثيفة والمؤرخة في الحجر من العام الأول قبل الميلاد، إلى أن الإستقرار السكاني قد بدأ من قبل في المنطقة، هذا فضلا عن أن «إلويس موسل» إنما يذهب إلى أن الحجر إنما كانت مركزاً عربيا للأنباط أثناء حملة «إليوس جالليوس» في عام ٢٥ أو ٢٤ ق.م، كما أن بعثة جامعة لندن عام ١٩٦٨م قد عثرت على فخار نبطي في الموقع يرجع إلى هذا التاريخ(١٧).

هذا وقد نحتت مقابر الحجر النبطية داخل الصخور الرملية الملساء، ذات اللون الأحمر والبني، في شكل حجرات ضخمة، نحتت في جوانبها فتحات الدفن العميقة لدفن الجثث ذاتها، كذلك توجد أيضاً فتحات غير عميقة لوضع الأشياء

---

(١٦) نفس المرجع السابق ص ١٨ - ١٩.

وانظر:

F.V.Winnett and W.L. Reed, Ancient Records From North Arabia Toronto 1970, p. 130

A.Grohman, Arabien, Munich, 1963, p. 44.

W.Caskel, Lihan und Lihyanicsh, p. 23- 31.

A.Musil, The Northern, Hejaz, New York, 1926, p. 306.

(١٧) نفس المرجع السابق ص ١٩ - ٢٠.

وانظر: P.J.Parr, G. L Harding and J.E.Dayton, Preliminary Survey, BIA, IO, 1971, p. 23.

الجنائزية التي ترافق المتوفى، يتقدم هذه الحجرات في الواجهة مدخل مستطيل نسبياً في بعض المقابر.

ومع أن هذا النوع من المقابر المنحوتة في الصخر شائع في منطقة الشرق الأدنى القديم – وقد رأيناه في العلا – غير أن الإبتكار الفني الذى يلفت الإنتباه في مقابر الحجر (مدائن صالح) وبعض المواقع الأثرية في المنطقة الشمالية الغربية (البدع) من المملكة العربية السعودية، إنما يكمن في الزخرفة المعمارية لواجهات هذه المقابر، فقد صممت واجهات المقابر النبطية في تناسق فني بديع، وأخذت تكويناتها الزخرفية المعمارية أشكالا هندسية دقيقة، أبرزها الفنان العربي النبطي في شكل تماثلي رائع.

ويبرز هذا الأسلوب الفني التماثلي في كل الوحدات الزخرفية – العمودية والأفقية – على واجهات المقابر النبطية بصفة عامة على النحو التالي: إذا بدأنا بالمدخل المستطيل الذى يؤدى إلى داخل المقبرة، نجده يحاط على كلا جانبية بواجهة عمودية مسطحة، نائئة من الحائط الأمامي في بروز طفيف (Pilasters) تقوم على قاعدة، ويعلوها تاج نبطي بارز بشكل واضح ثم يتكرر هذا التماثل، لهذه الواجهات العمودية المسطحة بنفس الوصف مرة ثانية على جانبي الواجهة.

ونأتي بعد ذلك إلى الجزء الأعلى الذى يتوج هذا الجزء العمودى من الواجهة، حيث نجد التماثل الأفقي يتمثل في تقسيمه أفقياً إلى أجزاء مستوية متوازية، تختلف مقاييسها بواسطة كرانيش أكثر بروزا – ويشبه الكرانيش التي استخدمت في العمارة المصرية في العصر البطلمي (٣٢٣ – ٣١ ق.م).

وفي نهاية الجزء الأعلى من الواجهة نجد أن هذا الكورنيش المصرى البارز قد توج في معظم الواجهات بزخرفة الشرافات (Grenellated) التي نظمت أيضاً في أسلوب فني متماثل، وربما يرجع هذا الأسلوب في أصله إلى الزخارف المعمارية الآشورية في بلاد النهرين، غير أنه في غياب إطار تاريخي يربط مملكة الأنباط بالأشوريين مباشرة، يذهب البعض إلى أن الصلات بالفن الأخميني (Achaemenid Art) في غرب إيران، ربما تكون أصلا لهذا الأسلوب المعمارى الفني.

ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن الفنان النبطى إنما قد أخذ عن الفن الإغريقى أجمل مافيه من عناصر معمارية، وهى فكر الإفريز الدورى، والواجهة المثلثة وتفاصيلها، وقد سادت هذه العناصر فى عمارة منطقة شرق البحر المتوسط طوال العصر الهلينستى، هذا فضلا عن وجود بعض التأثيرات المصرية، حيث طبق الفنان النبطى أبرز عنصر معمارى فى واجهة المبنى المصرى القديم، وهو الكورنيش الأعلى، فتوج به بعض مقابر الحجر (مدائن صالح).

بقيت الإشارة إلى أن هناك نصا يرجع إلى عام ٢٦٧م، وجد على جدار قصر البنت فى مدائن صالح، يؤكد أن الأنباط ظلوا يعيشون هناك إلى هذا التاريخ، يمارسون الدفن فى مقابرهم، ويكتبون بالخط النبطى الذى عرف فى كل مكان فى المنطقة، وبقى يستخدم حتى القرن الرابع الميلادى.

على أن «ونيت» لايميل إلى تأريخ النقوش الثمودية التى وجدت فى الحجر، إلى مابعد عام ٣٠٠م، كما أنه ليس هناك من دليل على أن الحجر وقعت مباشرة تحت الإحتلال الرومانى، مع أن هناك معبدا فى «روافة» أو عوافة - بناه الثموديون وأهدوه للإمبراطور «ماركوس أوريليوس» و «لوكيوس أوريليوس فيروس» (١٦١ - ١٨٠م) ويؤرخ فيما بين عامى ١٦٦، ١٦٩م، عليه نقوش نبطية ويونانية، هذا فضلا عن رسومات منقوشة وكتابات يونانية لأعضاء قافلة جمال رومانية بيزنطية، يبدو أنها مرت من الطريق فى هذا الأقليم(١٨).

(١٨) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: مواقع أثرية وصور من حضارة العرب فى المملكة العربية السعودى - الرياض ١٩٨٤ ص ٤١ - ٤٦

(٧) العلا (ديدان):

تقع العلا في وادي القرى، جنوب شرق حرة العويرض، بين سلسة من الجبال في الشرق والغرب، وعلى مبعدة ٣٧٠ كيلا من المدينة المنورة، ١٢٧٠ كيلا من الرياض، ٢٤ كيلا من الحجر.

ويقصد بالموقع الأثرى للعلا منطقة التلال الواطئة التى تعرف باسم «الخريبة»، وتقع إلى الشمال من مدينة العلا، حيث توجد البقايا السطحية للجدران، وتتناثر كسرات الأواني الفخارية في أماكنها الأصلية، وقد حدد «جوسين» و «سافينياك» بقايا جدران المعبد وأجزاء من أعمال نحتية، وهي بقايا أثرية يمكن التعرف عليها في هذا الجزء من الموقع لوجودها على السطح، هذا وتوجد سلسلة من المقابر المنحوتة في المنحدرات الصخرية الخلفية، يحمل كثير منها نقوشا ديدانية ولحيانية ومعينية وغيرها، وتمتد هذه الآثار على مدى كيلو متر بطول المنطقة، تطل على تلال الخريبة الواطئة نحو الجنوب في اتجاه العلا.

وتقع المقابر والنقوش المعينية في أقصى الجنوب، بينما مايقع منها بعيد إلى الشمال بالقرب من الخريبة مقابر ونقوش لحيانية، وتمثل النقوش اللحيانية الثقافة الأصلية للمنطقة، فهي بلغتها المحلية، وكتاباتها مميزة نوعا ما عن الكتابات الجنوبية، رغم أنها مشتقة منها، أما الثقافة المعينية فقد وردت إلى واحة العلا من العربية الجنوبية[١].

ومن أسف أن كثيرا جدا من النقوش الموجودة على المنحدرات الصخرية إنما انتزعت من أماكنها، واستخدمت في بناء المنازل في مدينة العلا نفسها.

وكانت مدينة العلا تسمى قديما «ددن» أو «ديدان» – كما جاء في التوراة[٢] وبعض النصوص الآشورية – وأما كلمة «ددان» فهو اسم المكان على

---

(١) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٧-٨.

انظر: A.Janssen and F.Savignac, Mission Archeologique en Arabic, Paris 1914, II, p. 57 - 63.

(٢) تكوين ١٠/٧، ٢٥/٣، إرمياء ٢٥/ ٢٣، ٤٩/ ٨.

رأى، وان كان هناك من حاول الربط بين هذا الأسم، وبين إسم الآله «دد» الذى كان معبوداً عند الساميين الشماليين(٣).

هذا وكانت مدينة العلا واحة مزدهرة قبل وأثناء القرن السادس قبل الميلاد، وإن كان تاريخها قبل ذلك يحيطه الغموض، ويذهب «ألويس موسل» إلى أن «ديدان» إنما كانت هدفا للسبئيين فى جنوب بلاد العرب فى العصور المبكرة، وإن ذهب «رنيت» إلى عدم وجود أدلة من النقوش توحى بالوجود السبئى فى ديدان، وإن أشار - بشئ من التردد - إلى وجود علاقة بين السبئيين والديدانيين تعتمد على الأصول المشتركة بينهما، هذا وقد لفت «بار» الإنتباه إلى حقيقة أن بعض الملتقطات السطحية من الفخار، والتى جمعت من «ديدان» إنما من نفس الأسلوب الذى جاء من المواقع الآدومية فى جنوب الأردن، وترجع إلى القرن السابع، بل وحتى بداية القرن السادس قبل الميلاد، ومن ثم فهو يفترض وجود علاقة بين الشعبين - الديدانى والآدومى - بناء على الأصول المشتركة بينهما فى شمال الجزيرة العربية(٤).

وتاريخ المدينة يبدأ بحكومة ملكية ديدانية وطنية، أعقبها حكم الملوك اللحيانيين، أثناء الفترة الفارسية أو الهلينستية، استمر حتى بداية القرن الثانى قبل الميلاد، ومع أن آراء الباحثين ليست إجماعية حول تفسير هذا التاريخ، فالنقوش والأدلة الأثرية التى جاءت من «ديدان» حتى الآن تدعم هذا الرأى، وعلى أية حال، فهناك مايشير إلى امتداد منطقة النفوذ اللحيانى إلى مابعد حدود ديدان، حتى أن «بلينى» قد وصف خليج العقبة بالخليج اللحيانى(٥).

---

(٣) عبد الرحمن الأنصارى - مجلة الدارة - العدد الأول - مارس ١٩٧٥ ص ٧٩.

(٤) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٨.

وكذا A.Musil, op.cit, p. 294.

F.V.Winnett and W.L.Reed, op.ciot, p. 113.

P.J.Parr, Archaeological Sources for The Early History of The North West Arabia, I, 1979, Part, I, p. 42.

(٥) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ٨-٩

وكذا A.Musil, The Northern Hejaz, New York, 1926, p. 305

هذا وقد عثر «جوسين وسافينياك» فى عام ١٩٠٩م على بقايا تماثيل الأشخاص نحتت جيدا من الحجر فى الخريبة (ديدان)، وأعمال نحتية أخرى كانت فى أماكنها ونشرت، وفى البداية ربط «جوسين» و «سافينياك» هذه التماثيل بمعبد لحيانى نشرا له رسما تخطيطيا، كما نسبا كذلك إلى نفس المعبد، ذلك الحوض الكبير الذى يقف الآن وسط أنقاض الخريبة ويعرف باسم «محلب الناقة» (قطره الداخلى ٣,٧٠م، وعمقه ١٢,٥م)، وقد نالت دراسة هذا المعبد اهتمام كثير من الباحثين[٦].

هذا وقد عثر أيضاً على أربع قواعد لتماثيل، ثلاثة منها كانت فى أماكنها الأصلية أو قريبة جدا منها، وقد أقيمت هذه القواعد لتحمل التماثيل التى وجدت مقلوبة على الأرض، وقد نفذت هذه الأعمال النحتية فى أساليب فنية مختلفة، نحت أحدها – بصفة خاصة – فى دقة واتقان، وتؤرخ هذه الأعمال الفنية – فيما يرى «بار» – فيما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد[٧].

هذا ويؤرخ فخار العلا (الخريبة) بالفترات الديدانية واللحيانية، وقد أشار «بار» إلى عدم وجود أوانى فخارية نبطية أو هلنستية متأخرة أو رومانية، الأمر الذى يشير – رغم استمرار العلا كمنطقة سكنية إلى فترة متأخرة – فإن العلا (ديدان) سرعان ماتدهورت أهميتها، مع ظهور «الحجر» (مدائن صالح) كموقع رئيسى.

هذا وقد تركز عدد كبير من النقوش والمقابر المعينية عند نهاية الطرف الجنوبى للمنحدر الصخرى، شرقى الخريبة، وحيث ينحنى التكوين الصخرى نحو الشرق، هذا وقد أثارت هذه النقوش والمقابر جدلا فى الرأى حول التطور التاريخى لمدينة العلا (ديدان)، فذهب فريق من الباحثين إلى أن الوجود المعينى القادم من الجنوب العربى يمثل سيطرة قام بها تجار من معين لمدينة العلا، على أن وجها آخر للنظر يذهب إلى أن الوجود المعينى فى ديدان، لم يكن إلا جزءا من شكل

---

(٦) أنظر:

P.J.Parr, G.L.Harding and J. E. Dayton, Preliminary Survey in N.W. Arabia, 1968, BIA, 8-9, 1970, p. 193- 242.

(٧) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج، المرجع السابق ص ١٠.

وكذا P.J.Parr, op.ciot, p. 42.

عام للعلاقات التجارية بين البلدين، حيث كانت هناك مستوطنات معينية أخرى، استقرت فى أماكن متعددة، ولم يكن لها سلطات سياسية قوية، وانما كانت تجمعا للتجار المقيمين تحت رياسة «كبير» (Kabir)، أو رئيس مسئول خارج الوطن العربى، مثل التجمع التجارى الذى قام فى الجزيرة اليونانية (ديلوس)، وكان يتبع «تمنع» عاصمة قتبان(٨).

وعلى أية حال، فمن اللافت للنظر في المقابر المعينية في العلا (ديدان) هو صور المخلوقات التي أخذت شكل الأسد، وهي منحوتة على واجهات المنحدرات الصخرية فوق المقابر المنحوتة فى الصخر أيضاً، والمقابر التى لم تعلها صور الأسود، ربما كانت هى معينية أيضاً، بحكم وجودها داخل هذه المجموعة من النقوش المعينية المتمركزة فى هذه المنطقة الخاصة. ويذهب العلماء إلى أن هذه النحوت الأسدية، ليست إلا تقليدا لأسد الماء الذى وجده «جوسين وسافينياك» فى الخريبة، والأسود المنحوتة فى الصخر كانت شائعة فى آسيا الصغرى وحوض الفرات الأعلى فى الألف الأولى قبل الميلاد، ويبدو أن الأسد الذى وجد فى الخريبة إنما كان مستورداً. أو نحت محلياً، ولكن بشكل أكثر دقة وفنية(٩).

ولعل من الجدير بالإشارة أن العلا (ديدان) إنما ظلت - إلى أن أخذت الحجر مكانها - مدينة تجارية، عملت بتجارة الطيوب التى أنتجها ممالك جنوب بلاد العرب، ونقلتها عبر الصحراء، بواسطة الجمال، إلى الشمال حيث يتزايد الطلب عليها، مما أعطى المدينة شخصية عالمية.

هذا وتشير الأدلة الأدبية المتاحة إلى أن القوة اللحيانية فى العلا (ديدان) قد أتت إلى نهايتها حوالى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، غير أن «ونيت» إنما يذهب إلى أن اللحيانيين إنما فقدوا سلطانهم منذ أيام «مسعود» - وقد سمى نفسه ملك لحيان، واستخدم الكتابة النبطية - ولكنه لايراه ملكا نبطيا وفى نفس الوقت يستبعد أن يستخدم ملك لحيانى كتابة أجنبية خاصة بالأنباط ثم يذهب

---

(٨) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ١٠ - ١٣.
وكذا Winnett and Reed, Ancient Records, 7, p. 117 - 118.
(٩) عبد الرحمن الأنصارى وأحمد غزال وجفرى كنج: المرجع السابق ص ١٣.

إلى أن مسعوداً لم يكن سوى مجرد مغامر، تأثر بالثقافة النبطية وأن أحداث مسعود قد أنهت المملكة اللحيانية فى القرن الثانى أو الأول قبل الميلاد، وأن الأنباط مدوا نفوذهم تدريجياً إلى الجنوب على حساب أحداث مسعود.

على أن «وارنر كاسل» إنما يذهب إلى أن مملكة لحيان بعد سقوطها على يدى مسعود، إنما استطاعت - بعد فترة نبطية فاصلة امتدت من العام التاسع قبل الميلاد، وحتى عام ٣٥م - أن تنهض من جديد، وتستأنف حياتها مرة أخرى، الأمر الذى تعارضه جمهرة العلماء(١٠).

---

(١٠) نفس المرجع السابق ص ٦٥ - ٦٦.

W.Caskel, op.cit, p. 40 - 43.

F.V.Winnett and W.L.Reed, op.cit, p. 130.

الفصل الثانى
فى جنوب الجزيرة العربية
(١) فى دولة معين

(١) قرناو :

كانت قرناو عاصمة دولة معين، وتقع على مرتفع حصين تحيط به الأسوار والأبراج، على مبعدة ٧ كيلا إلى الشرق من قرية «الحزم» – مركز الحكومة الحالى فى الجوف – وقد عرفت قرناو كذلك باسم «معين»، كما عرفها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان باسم (Karna - Karana - Carna)، وهى عند الأخباريين «معين» ، وهى واحدة من أبنية «التبابعة»، وأنها حصن بُنَى فى نفس الوقت مع «براقش»، وبعد «سلحين»، وهو حصن بنى، فيما يزعمون، فى ثمانين عاماً.

وأما أهم آثار «قرناو» فمعبد «رصاف» الذى يقع خارج أسوار المدينة، فضلاً عن آثار سكنى فى مواضع متفرقة من المدينة، التى يرى البعض أنا ظلت مأهولة بالسكان حتى القرن الثانى عشر الميلادى، ثم بدأت الظروف تتغير، فأخذ سكان المدينة يتناقصون شيئاً فشيئاً حتى تحولت آخر الأمر إلى خرائب.

(٢) براقش :

وهى المركز الدينى الهام فى دولة معين، وتسمى «يطيل» و «ياثل» ، وقد بقيت حتى أيام الهمدانى (٢٨٠ – ٣٣٤هـ) فوصف آثارها وخرائبها، وهى نفسها مدينة (Athlula - Athrula) آخر موضع وصلت إليه حملة القائد الرومانى «إليوس جالليوس» على اليمن عام ٢٤ ق.م، وأما سبب التحريف فى اسمها، فهو – فيما يرى البعض – صعوبة لغوية أو بالأحرى لفظية، ولعل إسم المدينة «ياثل» قد أصبح فى العربية الفصحى «وثلة»، فقد ذكرها «الفيروز أبادى» فى القاموس إسماً لقرية، وقال من ناحية أخرى «وذو وثلة قيل» يعنى أقيال اليمن.

وعلى أية حال، فمدينة «براقش» – عند الإخباريين – جد قديمة، كان يسكنها عند ظهور الإسلام «بنو الأوبر من بلحارث بن كعب، ومراد»، وأما سبب

تسميتها «براقش» فموضع خلاف عندهم، فهناك رواية تذهب إلى أنها سميت كذلك نسبة إلى «كلبة» عرفت ببراقش، على أن رواية أخرى إنما تنسبها إلى امرأة تدعى «براقش» زعموا أنها زوج لقمان بن عاد، على أن هناك رواية ثالثة تذهب إلى نسبتها إلى أميرة تدعى «براقش» أسند إليها والدها تصريف أمور الدولة أثناء غيابه في واحدة من غزواته، فما كان منها إلا أن أهتبلت الفرصة، فبنت مدينتي براقش ومعين، تخليداً لذكراها، غير أن ذلك إنما أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، وهكذا يحاول الإخباريون تفسير الأحداث ببساطة تدعو إلى العجب، غير أن الأمر الذى لاشك فيه أن المثل المشهور «على نفسها جنت براقش» إنما كان سبباً فى هذه التفسيرات المتضاربة.

(٣) نشق :

وهي مدينة البيضاء، وقد استولى السبئيون عليها أيام «يدع إل بين» فى عصر مكاربة سبأ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها هى نفسها المدينة التى ذكرها الكتاب القدامى الأغارقة والرومان باسم (Mesca - Mescus)، وهى عند «سترابو» (Aska) التى استولى عليها «إليوس جالليوس» عام ٢٤ ق.م.

(٤) نشان :

تقع مدينة «نشان» (نشن) فى مكان «الحربة السوداء» الحالية، وقد اكتشف هناك مايشير إلى أن المدينة إنما كانت مركزاً صناعياً هاماً.

(٥) لوق :

يذهب «جلازر» إلى أن «لوق» إنما هى مدينة (Labecia) التى ذكرها «بليني» (٣٢ – ٧٩ م) من بين الأماكن التى استولى عليها «إليوس جالليوس»، على أن «فون فيسمان» إنما يذهب إلى أنها «لبة» (Labbah) [(١)].

---

(١) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٣١ – ٢٣٣، الهمدانى : الإكليل ١٣٨/٨، ١٠٤ – ١٠٥، معجم ياقوت ٣٦٤/١، ٢٣٥/٣، ١٦٠/٥، القاموس المحيط ٢٧٢/٢، البكرى ٢٣٧/١ – ٢٣٨، وكذا : =

(٢) في دولة حضرموت

(١) شبوه :

لاريب في أن مدينة «شبوه» العاصمة، إنما هي أهم مدن حضرموت، وقد ذكرها الكتاب القدامي من الأغارقة والرومان تحت إسم (Sabota, Sabotha, Sabbatha)، وهي عند «مونتجمرى» (Sabtah)، وعند «هورجارث» (Sawa)، وقد ذكرها «الهمداني» من بين حصون حضرموت ومحافدها، وذهب «ياقوت» إلى أنها من حصون اليمن في جبل ريمة، وقال «ابن الحائك» : شبوه مدينة لحمير، وأحد جبلي الثلج بها، والثاني لأهل مأرب، هذا وقد خلط بعض المستشرقين بينها وبين «شبام» التي على مقربة من صنعاء.

هذا ويرجع السبق في اكتشاف آثار شبوه إلى «جون فلبي» والتي من أهمها المعابد والقصور؛ فضلاً عن بقايا السدود التي كانت مقامه على وادي شبوه لحصر مياه الأمطار، فضلاً عن الإفادة منها في إرواء المناطق الخصبة، ومايزال يشاهد في وادي «أنصاص»، وفي خرائب شبوه، بقايا سدود وقنوات للإفادة من المياه عند الحاجة إليها. على أن شبوه إنما كانت تشهر كذلك بأنها أرض اللبان والمر، وقد كانا يصدران من ميناء «قنا».

(٢) ميفعة :

وكانت عاصمة «حضرموت» قبل شبوه، وهي نفسها مدينة (Mapharitis) التي أشار إليها صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأرتيري»، وهي عند «بطليموس الجغرافي» (Maiph - Metropolis).

= - R. H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell, 1954, P. 237.
- H. Von Wissmann and M. Hofner, Beitrage Zur Historischen Geogrophie des Vorislamischen Sudarabien, Wiesbaden, 1953, P. 14 16, 32.
- Le Museon, 1964, 3 - 4, P. 435 وكذا Handlbuch, I, P. 70, 82 - 83.
- A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963.

وهناك الكثير من النصوص التى تتحدث عن تسوير «ميفعة» بالحجارة وبالصخر المقدد وبالخشب، فضلاً عن الأبراج التى أقيمت حول السور لصد الغزاة، ومنها نص يشير إلى أن «هبل بن شجب» قد بنى سور المدينة وأبوابها، كما أقام فيها بيوتاً ومعابد، وأن ولده «صدق يد» قد زاد فى أسوارها وأحكم بناءها، على أن الخراب سرعان ما حل بها فى القرن الرابع الميلادى، ثم حل مكانها موضع عرف باسم «عيزان» (Sessani Adrumetrorum).

(٣) قنا :

كانت مدينة «قنا» هى ميناء حضرموت الرئيسى، حيث كان يجمع اللبان والبخور، ثم يصدر منها براً وبحراً، وأما موقع قنا فهو إلى الشرق من حضرموت، وقد ذهب نفر من الباحثين إلى أنه فى مكان «حصن الغراب الحالى» ، وقد كان يعرف قديماً باسم «عرمويت».

هذا وقد عثر «جيمس ولستد» فى «حصن الغراب» عام ١٨٣٤م على نقش (CIH, 728) جاء فيه أن «صيد أبرد بن مشن» كان مسئولاً عن «بدش» و «قنا» ، وأن ذلك قد كتب على «عرموية» (عرماوية – حصن ماوية) ، فأما قنا فهو إسم الميناء المشهور، وأما الحصن الباقى أثره حتى اليوم فهو «حصن ماوية» ، وأما «بدش» (باداش) فمازال معروفاً حتى اليوم بشئ من التحريف، حيث يعيش قوم رعاة يعرفون باسم «مشايخ باداس» ، ومن ثم فإن «حصن غراب» إنما هو «عرمويت»، وهو حصن مدينة قنا.

(٤) مذب :

اشتهرت مدينة «مذب» أو «مذاب» بمبعدها المكرس لعبادة إله القمر «سين» ، وتقع بقاياه اليوم فى «الحريضة» ، وقد قامت ثلاث رحالات أو ربيات (كاتون طومسون، أ. جادرنر ، ف. شترك) فى عام ١٩٣٧م برحلة إلى حضرموت ، وهناك فى وادى عمد، مقابل الحريضة، كشفن عن معبد إله القمر «سين» ، كما كشفن عن بعض القبور والأوانى الفخارية والخزفية التى ترجع إلى القرن السابع،

وربما القرن الخامس قبل الميلاد، هذا فضلاً عن العثور على عدد من الكتابات التى تبيّن أن بعضها كتابات سبئية.

على أن البعثة الأثرية لم تتوصل إلى تاريخ محدد لبناء معبد إله القمر «سين»، وإن كانت بعض واجهات المعبد إنما تعود إلى الفترة بين أواسط القرن الخامس، وحتى القرن الرابع قبل الميلاد، فضلاً عن أن بعض أجزاء المعبد إنما ترجع إلى العهد السلوقى، وأخيراً فإن هناك من يذهب إلى أن «مذاب» ومعبدها إنما يعودان إلى الفترة فيما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد.

وهناك فى حضرموت عدة أماكن قديمة (حضرمية وسبئية) ينسبها القوم إلى عاد وثمود، فمثلاً هناك قرية «سنا» التى يزعم القوم أن بها قبر «هود» عليه السلام، وهناك فى «غبون» خرائب يظنها القوم من آثار عاد، بينما يرى الآثاريون أنها بقايا مدينة حميرية، وهناك على مقربة من «تريم» خرائب قديمة، لعلها فى أغلب الظن، من آثار معبد قديم، هذا فضلاً عن مواقع أثرية أخرى، مثل حصن «عر» و حدبة الغصن والمكنون وثوبة وغيرها من الأماكن التى أقيمت عليها الحصون والحاميات العسكرية [1].

---

(١) محمد بيومى مهران : المرجع السابق، ص ٢٤٢ – ٢٤٥ ، وكذا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 86, 91, 108.
- C. Forster, The Historical Geography of Arabia, II, P.186.
- G. Caton Thompson, The Tombs nad Moon Temple of Hureidha, Oxford, 1944, P. 15F.
- W. Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, II, P. 301.
- D. G. Hogarth, The Penetration of Arabia, London, 1922, P. 149, 151, 221.
- Le Museon, 1947, 1 - 2, P. 71, 1961, 1 - 2, P. 194.
- Pliny, 6, 28. 32, Ptolemy, 6, 7, 38 وكذا, J. B. Philby, Op. cit., P. 80F.
- J. A. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934, P. 42.

(٣) فى دولة قتبان

(١) تمنع :

لاريب فى أن «تمنع» (تمنا – تمنة) العاصمة إنما هى أهم مدن قتبان، وقد عرفها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان باسم (Thumna-Thomna-Tomna) ويذهب «أوليرى» إلى أن المدينة التى جاءت فى جغرافية بطليموس تحت اسم (Thouma) إنما هى «تمنة»، وقد وصف «بلينى» مدينة (Thomna) بأنها من أكبر المدن فى بلاد العرب الجنوبية، وأن بها ٦٥ معبداً، وأن المسافة بينها وبين مدينة «غزة» ٧٠٩٦ كيلا تقطها الإبل فى حوالى ٦٥ يوماً، وأن هذه المدينة ليست سوى «تمنة» عاصمة قتبان.

وتقع تمنه فى وادى بيجان فى منطقة تدل آثار الرى فيها، على أنها كانت خصبة كثيرة المياه والبساتين، وقد أثبتت أعمال الحفر التى قامت بها البعثة الأمريكية تحت رياسة «وندل فيلبس» أن موقع «تمنة» القديم إنما هو فى مكان خرائب كحلان (هجر كحلان الحالية)، وأن المدينة قد خربت بسبب حريق هائل، ربما أتى على المدينة كلها، وأن هذا الحريق ربما كان بأيدى السبئيين إبان الحروب التى أتسع أوارها بينهم وبين القتبانيين.

هذا وقد أثبتت الحفريات أيضاً أن «تمنة» قد جددت عدة مرات، وأن مقابرها كثيراً ما انتهكت حرماتها، سواء أكان ذلك فى الأيام الغابرة أو فى العصر الحديث، وأخيراً فقد كشفت الحفريات فى منطقة تمنع عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوفير مياه الرى لرقعة واسعة من البلاد.

(٢) حريب :

وقد ورد ذكر مدينة حريب عند الهمدانى، كما اشتهرت المدينة بالنقود التى

ضربت فيها، وحملت اسمها، كما أنها كانت عاصمة دولة قتبان فى أخريات أيامها [1].

(٤) فى دولة سبأ وحمير

(١) صرواح :

كانت صرواح عاصمة سبأ فى العصر الأول (عصر المكاربة ٨٠٠ - ٦٥٠ ق.م)، ومقر الإله «المرقاة»، وواحدة من أهم المدن السبئية لعدة قرون بعد ذلك، وتقع الآن فى موضع «الخريبة» و «صرواح الخريبة» فيما بين صنعاء ومأرب، وقد تردد ذكرها فى أشعار العرب، ويصفها الهمدانى بأنها لايقارن بها شئ من المحافد المختلفة، كما جمع الكثير من الشعر الجاهلى والإسلامى الذى ورد فيه اسمها، وفى هذا كله دلالة على أهمية تلك المدينة القديمة، وعلى تأثيرها فى نفوس القوم هناك، تأثيراً لم يستطع الزمن أن يمحوه بالرغم من أفول نجمها قبل الإسلام.

ويذهب الأخباريون إلى أن صرواح حصن باليمن، وأن الجن قد بنته للملكة «بلقيس» ملكة سبأ، بناء على أمر من سيدنا سليمان عليه السلام، ولاريب فى أن هذا نوع من الأساطير التى لعب الخيال فيها دوراً كبيراً، فضلاً عن جهل فاضح بالتاريخ، إلى جانب أثر الإسرائيليات فى إرجاع أى أثر لايعرفون صاحبه إلى سليمان وإلى جن سليمان.

---

(١) جواد على : المرجع السابق ٢/٢٢٢ - ٢٣١، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم، ص ٢٥٩ - ٢٦١، وكذا :

- De Lacy D. D. O'Leary, Arabia before Muhammad, London, 1927, P. 97.
- W. Phillips, Qataban and Sheba, P. 58, 64, 119, 166.
- Pliny, 2, P. 453, 6, P. 32, Ptolemy, VI, 7, 37.
- C. F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia nad Persid, P. IXXIV, 75, Pl. XI, 21.

هذا وتوجد المناطق الأثرية في صرواح في ثلاثة مناطق متقاربة، واحدة منها هي منطقة البناء (مكان السد القديم)، والثانية هي منطقة القصر - وهي قرية حديثة البناء استخدم القوم في تشييد بعض منازلها، أحجاراً من المعابيد القديمة، وأما الثالثة، فهي منطقة «الخربية» ذات الآثار الهامة.

على أن أهم آثار صرواح إنما هو المعبد الكبير - معبد الموقاة، إله القمر - والذي استدارت إحدى ناحيتيه، فجعلت منه بناء نصف بيضي الشكل، ولايمكن معرفة التصميم الأصلي للبناء الذي يبلغ ارتفاع جدرانه أكثر من عشرة أمتار، إلا بعد عمل الحفائر حوله وتنظيف داخله، لأنه قد استخدم خلال قرون طويلة كحصن في العصور الوسطى، وفتحوا فيه بعض المداخل، كما سدوا بعض أبوابه القديمة، واستخدموا كثيراً من الأحجار الكبيرة في تلك الترميمات.

هذا وقد زار أستاذنا الدكتور أحمد فخري - يرحمه الله - أنقاض معبد الموقاة، وصوّر عدداً كبيراً من النقوش التي ترجم بعضها الأستاذ «ريكمانز»، وعلى أية حال، فهناك إلى جانب معبد الموقاة، توجد عدة مبان أخرى، نقشت بعض أعمدتها بالكتابات، مثل دار بلقيس، ومعبد يفعان، الذي نال حظوة كبيرة لدى المكاربة [1].

(٢) مأرب:

كانت «مأرب» عاصمة سبأ في العصر الثاني (عصر ملوك سبأ ٦٥٠ - ١١٥ ق.م)، وهي نفس المدينة التي جاءت في الآداب اليونانية والرومانية تحت اسم «مريابا» (Mariaba). ويرى بعض الباحثين أن كلمة «مأرب» مأخوذة من «يارب»

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب - القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٢١، ٢٤٢، ٣٦٥، الإكليل ٤٥/٨، ٧٥، ٢٢/١٠، ٢٤، ٢٦، ٣٩، ١١٠، أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٥٩ - ١٦٢، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٨٥ - ٢٨٦، ياقوت ٤٠٢/٥، ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ص ٢١ - ٢٢.

- G. Ryckmans, The Publication of The Inscriptions, III, Cairo, 1951.

و «يرب» اللتين وردتا فى التوراة، أو أنها كلمة أرامية الأصل مركبة من كلمتين ماء» و «راب» أى الماء الكثير أو السيل الكبير. هذا وقد توهم «ياقوت الحموى» - وتابعه كثيرون - أن سبأ هى مأرب، على أن الصحيح غير ذلك، فسبأ إسم البلاد والأمة، ولم تكن مدينة أبداً، كما توهموا أنها اسم لقصر كان للأزد باليمن، أو أنها إسم لكل ملك كان يلى سبأ، كما أن «تبعا» إسم لكل من ولى اليمن والشحر وحضرموت.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الإهتمام بمأرب وآثارها إنما بدأ منذ القرن الماضى، ففى ١٢ يوليو ١٨٤٣م، تمكن الصيدلى الفرنسى «جوزيف توما أرنو» من السفر من صنعاء إلى مأرب، فزار خرائب صرواح، وفحص بقايا أسوار فى مأرب، فضلاً عن معبد المقاة الذى تقوم آثاره خارج مأرب ويطلق عليه القوم هناك اسم «محرم بلقيس»، كما نقل ٦٥ نقشاً سبئياً من هناك، وقد قام «فرزنل» القنصل الفرنسى فى جدّة بنشرها عام ١٨٤٥م.

وفيما بين عامى ١٨٨٧، ١٨٨٨م، قام «إدوارد جلازر» برحلته الثالثة إلى اليمن، زار فيها مأرب ورسم تخطيطاً لآثار القنوات والسدود القديمة هناك، كما قدم وصفاً لآثار المناطق التى زارها.

وفى عام ١٩٤٧م قام أستاذنا الدكتور أحمد فخرى برحلته إلى اليمن، حيث زار مناطق صرواح ومأرب وماحولهما، وقد جمع حوالى ١٢٠ نقشاً جديداً، كما أخذ مجموعة صور «فوتوغرافية» عن سد مأرب والمعابد المختلفة، وقد نشر نتائج رحلته هذه فى بضع مقالات، وفى كتاب صدر عام ١٩٥٢م فى ثلاثة أجزاء باللغة الإنجليزية، ثم قام برحلته الثانية عام ١٩٤٨م، والثالثة عام ١٩٥٩م، وفيهما زار مأرب ونقل نقوشاً جديدة، كما زار منطقة المساجد، حيث يوجد معبد كبير شيّده «يدع إيل ذريح» الذى شيد كذلك معبد فى صرواح، وآخر فى مأرب، ثم توالت الاكتشافات بعد ذلك، ومايزال العلماء يبحثون وينقبون عن آثار اليمن العظيمة.

هذا وتقع مأرب على مبعدة ١٠٠ كيلا إلى الشرق من العاصمة الحالية

«صنعاء»، وعلى ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتقوم بلدة مأرب الحالية فوق جزء مرتفع من كوم أثرى كبير، هو خرائب المدينة ذات الشهرة الذائعة الصيت فى التاريخ، وقد قدم لنا «أرنو» تخطيطاً للمدينة القديمة، وذكر أنها مستديرة، وبها ثمانية أبواب، غير أن وصف «أرنو» إنما يحتاج إلى تعديل، فالمدينة مستطيلة – وليست دائرية – وأركانها مستديرة، وربما لم يكن فى أسوارها إلا أربعة أبواب فقط، بوابة فى وسط كل سور.

على أن هناك من يرى أن مأرب – شأنها فى ذلك شأن صرواح – إنما كانت فى الأصل مدينة ذات بابين فقط، ويبدو أن هناك أماكن كثيرة مكسورة فى الجدران، اعتبرها «أرنو» أبواباً، وسماها بالأسماء التى كان يطلقها عليها الأهالى فى أيامه، أما الباب الرئيسى فى المدينة فكان فى السور الغربى، وهو الذى يسمى الآن باب المدينة، ومازالت بقاياه موجودة، وعلى كل من جانبيه آثار برج من الحجر، وفى السور البحرى باب آخر، وهو الذى يستخدمه أهالى مأرب عند الخروج لدفن موتاهم، فى الجبانة الواقعة فى الناحية البحرية من الخرائب، ولهذا أسموه باسمها، أى باب الجنة.

ومدينة مأرب – شأنها فى ذلك شأن أغلب المدن الكبرى فى اليمن القديم – مدينة مسورة بسور قوى حصين له أبراج، تمكن القوم من الدفاع عن مدينتهم، وأن السور – طبقاً لما جاء فى النقوش – قد بنى من حجر البلق، وهو حجر صلد قدّ من الصخر، فوقه صخور من جرانيت، ومن أسف أننا لانعرف حتى الآن من النقوش التى تم الكشف عنها فى مدينة مأرب، اسم الملك الذى أسسها وربما كانت بعض أجزاء السور الحالى من السور القديم الذى بناه مكاربة سبأ القدامى، ونعرف من نقوش كثيرة أن واحداً منهم (ابن سمه على ينوف) قد بنى حائطاً حول مأرب، كما نعرف من نقشى (جلازر ٤١٨، ٤١٩) أن «كرب إيل وتار» (من القرن السابع قبل الميلاد) قد أضاف بعض الأجزاء إلى سور مأرب، كما بنى بوابتين وبعض الأبراج

هذا ويذهب الأخباريون إلى أن مؤسس مأرب إنما هو «سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، ويرى الهمدانى فى الإكليل أنه كان بمأرب ثلاثة قصور

(سلحين والهجر والقشيب)، وأهم تلك القصور هو قصر «سلحين» الذى تردد ذكره كثيراً فى كتب الأدب العربى، على أنه قصر الملكة بلقيس، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدته القائمة وقالوا إنها تحمل العرش، وأن قواعدها تحت الأرض مثل ارتفاعها فوقها، وهى ٢٩ ذراعاً، وأما خارج بلاد العرب، فقد جاء اسم قصر سلحين فى ألقاب السيادة التى اتخذها ملوك أكسوم فى نقوشهم، ومنها لقب الملك «عيزانا» الذى اعتلى العرش حوالى عام ٣٢٥ م.

ورغم أن هناك من يذهب إلى أن قصر سلحين إنما كان فى الخرائب الواسعة فى غربى المدينة، فمن الصعب علينا - اعتماداً على أقوال الشعراء ومبالغات الكتاب العرب - تحديد هذا القصر الذى يسميه الكتاب العرب «قصر بلقيس»، وذلك لأن اليمنيين إنما اعتادوا أن يطلقوا اسم «بلقيس» على كثير من المعابد فى «صرواح»، كما اعتادوا كذلك أن يطلقوا اسم «بلقيس» على معبد يبعد عن خرائب مأرب، بل إن اسم بلقيس إنما كان يطلق أيضاً على آثار أخرى بعيدة عن منطقة أرض سبأ، مثل ماجاء فى «معجم ياقوت» من أن عرش بلقيس اسم لمكان على مسيرة يوم من «ذمار»، حيث تقوم فيه ستة أعمدة من الرخام، ومن المرجح أنه يشير هنا إلى أحد المعابد التى كانت فى مدينة ظفار، عاصمة الحميريين.

وهناك على مبعدة ٤ كيلا جنوب شرق مأرب، تقع خرائب معبد الإله الموقاة (المقة) رب أوام، والمعروف هناك بحرم أو محرم بلقيس، ويرى بعض الباحثين أن هذا المعبد - مثله فى ذلك مثل معبد الموقاة فى صرواح، ومعبد المساجد فى بلاد مراد (على مبعدة ١٧ كيلا من مأرب) - إنما قد تم بناؤه فى القرن الثامن قبل الميلاد.

وعلى أية حال، فطبقاً لأقدم نقوش الجدار للمعبد، فإن «يدع إيل ذريح» بن «سمه على»، ثانى مكاربة سبأ، هو الذى بنى سور هذا المعبد المسمى «معبد أوام»، وأنه قد كرسه لإله القمر الموقاة، هذا ويسجل نقش آخر فى الناحية الغربية من السور أن «إيل شريح» بن «سمه على ذريح» ملك سبأ (حكم حوالى عام ٧٥٠

ق.م) و «يثع أمر بين» بن «يكرب ملك وتار» (حكم حوالى عام ٥٢٠ ق.م)، قد أتما بناء المعبد، هذا وهناك نقوش أخرى من عصور أحدث لملوك قاموا بأعمال خاصة في ذلك المعبد.

على أن النقوش التي كشفت عنها البعثة الأمريكية في عام ١٩٥٢م، على مقربة من باب المعبد، إنما ترجع إلى عصور متأخرة، وبعضها يرجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد، أي أن معبد الإله الموقاة، رب أوام هذا، إنما ظل يؤدي وظيفته في عبادة الموقاة في مأرب قرابة ألف عام.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه، أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن بقايا المعابد التي عثر عليها في روديسيا وأوغندة في أفريقيا، إنما هي من المعابد المتأثرة بطراز معبد أوام (محرم بلقيس)، فإن بين هذه المعابد جميعاً شبهاً كبيراً في طراز البناء، وفي المساحة، وفي الأبعاد كذلك.

وهناك على مبعدة ١٤٠٠ متراً، إلى الشمال الغربي من محرم بلقيس، وفي المنطقة المعروفة باسم «العمايد»، نرى خمسة أعمدة قائمة، ارتفاع الواحد منها خمسة أمتار عن سطح الأرض، ومقاييس كل منها ٨٢ × ٦٣ سم، وقد أحاطت بها الخرائب من كل جانب، وطبقاً لما جاء في حجر مكتوب رآه «أرنو» في عام ١٨٤٣م، نعرف أن اسم معبد العمايد هو «باران» وأنه طبقاً لما جاء في نقش (جلازر ٤٧٩)، فإن المعبد قد شيد للإله «المقه» وإن كانت الأعمدة الباقية — وكذا ما حولها من نقوش — لاتساعدنا على معرفة اسم الملك الذي قام ببناء المعبد، أو حتى تحديد عصره بوجه عام، وليس أمامنا سوى الانتظار حتى تجرى حفريات جديدة، قد نعرف منها ماهو في ضمير الغيب الآن.

ولعل من الأهمية بمكان أن نتحدث الآن عن أهم آثار مأرب — من الناحية الاقتصادية — وأعني به « سد مأرب » المشهور [1].

---

(١) أحمد فخرى : المرجع السابق، ص ١٤٦ – ١٧٥ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٩٦ – ٣٠٠، جواد على ٤٣/٨ – ٤٤، ياقوت ١٨١/٣ ، ١٠٠/٤ – ١٩١ ، ٣٤/٥ – ٣٨ ، سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الإسلام – بيروت ١٩٧٥م ص ٣٨٢ – ٣٨٣، الإكليل ٤٥/٨ ، صفة جزيرة العرب ص ٣٢ ومابعدها. =

(٣) سد مأرب :

كان خصب أرض سبأ مضرب الأمثال عند العرب، وكان أهلها ينعمون بخيرات واديهم، وبما تدره التجارة التى كانوا يسيطرون عليها من أموال، وكان هناك على مقربة من مدينة مأرب فتحة لتنظيم تصريف المياه التى كانت تسيل فى القناة اليمنى - إحدى القناتين اللتين كانتا تخرجان من سد مأرب - ومازالت بقايا جدرانها المشيدة بالحجر، ترى حتى الآن فى الجهة الجنوبية من المدينة، وهى الباب الرئيسى فى السور الذى كان يواجه معبد أوام (محرم بلقيس)، وطبقاً لنقش على الجدار الشمالى لذلك الأثر، فإن المكرب «ذمار على وتار» (من القرن السابع قبل الميلاد) هو الذى بنى هذه الفتحة أمام هيكل الإله «عثتر». غير أن ولده «سمه على ينوف» هو الذى ينسب إليه أنه صاحب ومنفذ أكبر مشروع للرى عرفته بلاد العرب، وذلك على الرغم من أن أهل مأرب كانوا ذوى خبرة بشئون الرى، إلا أن سدودهم إنما كانت بدائية، حتى جاء «سمه على ينوف» وأحدث تطوراً خطيراً فى وسائل الرى، وذلك حين شيد «سد رحب» للسيطرة على مياه الأمطار، والإفادة من السيول، وهكذا بدأ المشروع العظيم، والذى عرف فى التاريخ باسم «سد مأرب»، ثم نما على مر الأيام، حتى اكتمل فى نهاية القرن الثالث الميلادى على أيام «شمر يهرعش»، فنظم وسائل الرى، وأضاف مساحات كثيرة إلى الأرض الصالحة للإنتاج، وهكذا يعتبر عهد «سمه على ينوف» من أهم العهود بالنسبة إلى سد مأرب، بل إن أقدم ما لدينا من وثائق عن سد مأرب إنما ترجع إلى عهد هذا المكرب، والتى ترجع إلى حوالى عام ٧٥٠ ق.م، وربما عام ٧٠٠ ق.م. على

= - A. Fakhry, An Archaeological Journey to Yemen, 3 Vols, Cairo, 1952.

- H. Von. Wissman and M. Hofner, Op. cit., P. 27 - 28.

- R. L. Bowen and W. F. Albright Archaeological Discoueries in South Arabia, Baltimore, 1958, P. 215 F.

- P. K. Hitti, Op. cit., P. 54 وكذا W. Phillips, Op. cit., P. 256F.

- Ency. of Islam, III, P. 282 وكذا Pliny, II, P. 467.

أن هناك مايشير إلى أن ملوك آخرين قد أضافوا أجزاء أخرى إلى السد، فضلاً عن تقوية أجزائه القديمة، ومن أهمهم «كرب إيل بين بن يثع أمر» و «ذمار على ذريح» و «يدع إيل وتار»، وقبل هؤلاء جميعاً «يثع أمر بين» الذى سار على سنة أبيه «سمه على ينوف» فى الاهتمام بتحسين وسائل الرى فى البلاد، فعمل على إدخال بعض التحسينات على «سد رحب»، وإنشاء فروع له، منها فتح ثغرة فى منطقة صخرية، حتى تصل المياه إلى أرض «يسرن»، هذا إلى جانب تعلية سد رحب وتقويته، هذا فضلاً عن إقامة «سد هباذ»، وهو أكبر من سد رحب، كما أقام سده الجبار المعروف باسم «سد حبابض» الذى مكن كثيراً من الأرضين من الإفادة بأكبر كمية من المياه التى كانت من قبل عبثاً، فلا تفيد زرعاً أو ضرعاً.

ولعل هذا كله هو الذى دفع بعض الباحثين إلى اعتبار «سمه بن ينوف» وولده «يثع أمر بين»، المؤسسين الأصليين لسد مأرب، والذى يعتبر أكمل عمل هندسي عرفته شبه الجزيرة العربية فى تاريخها القديم.

هذا وكان القوم يهدفون من وراء إقامة سد مأرب هذا إلى تحقيق أمرين، الواحد : السيطرة على مياه السيول المتدفقة، فلا تخرب مايعترضها، إذا ما جاءت فجأة، وبكثرة غير عادية، والآخر : تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد، وعدم صرف شئ منها، إلا بالمقدار اللازم، وبذلك يضمنون رى وادى مأرب، الذى يرتفع عن مستوى المياه السايلة بخمسة أمتار، فضلاً عن توفير كميات المياه اللازمة للرى، حتى يحين موعد مجئ سيول أخرى من المناطق الممطرة فى شرق اليمن، ذلك لأن منطقة مأرب إنما هى من المناطق الجافة قليلة الأمطار، ولايزرع أهلها اليوم - أى بعد تخريب السد - غير مساحات ضئيلة، على مقربة من مجرى المياه فى وادى ذنة، وتضيع أكثر مياه السيول هباء فى الوقت الحاضر، ولايمكن استخدامها فى زراعة أراضى الوادى المرتفعة.

وعلى أية حال، ففكرة السد تتلخص فى أن مياه السيول القادمة من شرق اليمن كانت تتجمع فى شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب، ومنخفضة من جهة الشرق، حيث تسير جميعها شرقاً فى

مجرى سيل واحد يطلق عليه اسم أكبرها (ذنة) وتدخل جميعها فى واد كبير فى جبل «بلق» فتنقسمه إلى قسمين - بلق الأيسر، وبلق الأيمن - بينهما فتحة تدعى «الضيقة»، اختيرت لتشييد السد، ومن ثم فقد بنوا جداراً قوياً يعترض الوادى وبوقف مياه السيول المتدفقة، وجعلوا فى الناحيتين فتحتين، إحداهما إلى أقصى اليمين، ثم استغلوا الجبل المرتفع فى هذا الغرض، فلم يبنوا إلا جداراً ضخماً واحداً ليكون صدغاً ثانياً للبوابة، وأما البوابة التى فى الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهى أكبر وأعظم، وتنقسم إلى قسمين، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران بمسافة غير قليلة، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر، نرى فى واجهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحى الوادى الفسيح.

ويطلق الأهالى على البوابة اليمنى «مربط الدم» وكانت تروى الناحية اليمنى التى مازلت بقايا كثيرة من قراها ظاهرة حتى اليوم، وكلها على يمين وادى زنة، ويبدو أن صخرة الجبل تكون إحدى جانبى هذه الفتحة، أما الناحية الأخرى فمشيدة من الحجر، وربما كانت فى صدغى تلك الفتحة المكان الذى كانوا يزلقون فيه كتل الأخشاب لتصريف الكيمات اللازمة من المياه، وتسير بعد ذلك فى قناة عادية، ويبدو أنه كان هناك بروزاً مثلثاً فى ذلك الجدار الحجرى، وقد كان ذلك البروز داخلاً فى جدار السد الكبير، وهو الجدار الذى تهدم وسبب ذلك الخراب.

وأما البوابة اليسرى فكان لها عينان، ووراءها قناة مبنية الجوانب، طولها أكثر من كيلومتر، تنتهى بحوض كبير تتفرع منه عدة قنوات، كما يبدو أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخرة الجبل، ثم جعلوا فى مكان مرتفع من الجدار أربع فتحات، وذلك لتصريف الكميات الزائدة من المياه، حتى لايرتفع منسوبا لمياه أمام السد إلى حد قد يؤثر على الفتحات أو يتعارض مع النظام المقرر لها، وتخرج تلك المياه الزائدة إلى الخارج وتنزل إلى باطن الوادى، ثم رأوا فى وقت ما أنه لا حاجة للعينين فسدوا واحدة منها، واكتفوا بالأخرى،

وكان يخرج من الحوض المبنى بالحجر فى آخر القناة الكبرى قنوات متعددة، تبلغ فتحات بعضها حوالى ثلاثة أمتار، وكلها مبنية بالحجر، وكانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزلق فى فتحتين فى جانبى كل بوابة.

هذا وتدل دراسة المبانى التى مازالت قائمة عند البوابتين على أنه قد استخدمت فى بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخور وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض، وتثبت وتتماسك وكأنها قطعة صلدة واحدة، وقد وجد أن بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان أسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس ليكون البناء قوياً، وليكون فى إمكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل، أما المادة التى استعملت لربط الأحجار ببعضها فهى من الجبس الممتاز، وقد تصلب هذا الجبس الذى طليت به واجهات السد كذلك، حتى صار كأصلب أنواع الأسمنت.

هذا وقد تعرض السد عدة مرات للتصدع إبان الفترة فيما بين بنائه فى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وبين آخر مرة أصلح فيها السد فى عام ٥٤٣م، أى خلال مايقرب من ١٢٠٠ سنة، وربما أكثر من ذلك، على رأى من يرون أن السد ظل يؤدى واجبه حتى عام ٥٧٥ م [(١)].

---

(١) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٧٠ – ١٨٧، محمد بيومى مهران : الحضارة العربية القديمة ص ٢٤٨ – ٢٦٤، دراسات تاريخية من القرآن الكريم – الجزء الأول ص ٣١١ – ٣٥٢، جواد على ٢٨٠/٢ – ٢٨٢، ٢١٠/٧ – ٢١١، ٤٨٣/٣ – ٤٩١،

- Le Museon, 1953, 66, P. 340 1964, 3 - 4, P. 490 - 94 J. B. Philby, Op. cit., P. 118 F.
- A. James, Sabaean Inscriptions from Mabram Bilqis, 1961, P. 176, 300, 390 F.
- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 38, 113 F.
- A. Grohmann , Op. cit., P. 23 - 28 وكذا BASOR, 137, 1955, P. 38.
- Ency. of Islam, III, P. 290 وكذا Handbuch, I, P. 93, 106.

(ق) رجمت: (نجران؟):

كانت رجمت (رجمة) مقر إمارة «مهأمر» التي انتحل أمراؤها لقب «ملك»، وربما جاءت أهميتها لوقوعها على طريق القوافل التي تصل معين والعربية الجنوبية من ناحية، ومصر من ناحية أخرى، ويذهب بعض الباحثين إلى أن «رجمت» تقع الآن في أرض نجران، أو في مجاوراتها من ناحية الشمال، وربما كانت واحدة من مدن الشمال، وأن نجران نفسها لم تكن في الأصل مدينة معينة، وإنما هي أرض تضم عدة مدن، ومنها رجمت التي تحول اسمها بمرور الزمن إلى «نجران»، وأن هناك الكثير من الأمثلة على ذلك في العربية الجنوبية.

هذا ويذهب «موردتمان» إلى أن رجمت ربما كانت «رعمة» في التوراة، وهو الابن الرابع لكوش، ثم يذهب بعد ذلك إلى أن المراد « بكوش» هنا، العربية الجنوبية، وأن من أولاد كوش : سبأ وديدان، وأن تجار رعمة قد ذكروا في سفر حزقيال، وبدهي أن «موردتمان» لم يفعل سوى أن ردد ماجاء في توراة يهود، من ادعاء كذوب، يسلب أغلب العرب ساميتهم، فالعربية الجنوبية وبابل وأشور وكنعان ويبوس ومصر وغيرها من الشعوب العربية، إنما هم جميعاً -في نظر توراة يهود - حاميون.

وعلى أية حال، فلقد جاء ذكر نجران في نقش النمارة (شرقي جبل الدروز في سورية)، والمؤرخ في ٧ ديسمبر عام ٣٢٨ م، ويمثل أقدم كتابة باللغة العربية، وبخط نبطي، وقد جاء فيه « وجا بزجى في حبج نجرن مدينت شمر» أي «وجاء بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمر» (شمر يهرعش).

وفي نجران حدثت قصة أصحاب الأخدود التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة البروج، وقد زارها «جون فلبي»، وعثر هناك على خرائب أثرية قديمة في بلدة «رجمت» ذهب إلى أنها هي آثار الأخدود الذى احتفره ذو نواس.

وعلى أية حال، فلقد أصبحت نجران على أيام الاحتلال الحبشي لليمن

مركزاً رئيسياً لنشر المسيحية واستمرت كذلك حتى ظهور الإسلام، وقد حدثتنا كتب السيرة النبوية الشريفة عن وفد نصارى نجران فى عام الوفود [١].

(٥) ظفار :

كانت ظفار عاصمة الحميريين، وقد دعيت فى التوراة «سفار»، وعند الأغارقة والرومان «سيفار» و «سفار» (Saphar) ، وهى مدينة داخلية، تقع على مبعدة ١٦٠ كيلا إلى الشمال الشرقى من «المخا»، وقد احتلت على أيام الحميريين مكانة مأرب، عاصمة سبأ، و «قرناو» عاصمة معين، ومازال آثارها ماثلة للعيان على قمة تل مستدير بجوار بلدة «يرم» الحديثة. وكان «نيبؤر» أول من أشار إلى آثار هذه البلدة القديمة عن طريق نقوش قديمة، عثر عليها عندما أمّ ليمن، لأول مرة، فى عام ١٧٦٣م، ثم كتب عنها فى عام ١٧٧٢م [٢].

(٦) صنعاء :

لانعرف على وجه اليقين من هو مؤسس مدينة صنعاء، ولا تاريخ تأسيسها، وإن كان اسمها قد بدأ يتردد فى النصوص منذ أيام «الشرح يحصب» و «شمر ذى ريدان»، كما يشير إلى ذلك نقشى (جام ٥٧٧) و (ريكمانز ٥٣٥)، وقد ذكرت تحت اسم «صنعو» (صنعاء).

هذا وتشير الكتابة (CIH 429) إلى أن قصر غندان (غمدان) - بجانب قصر

---

(١) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣٢٣ - ٣٣٤ ، ٣٤٩ - ٣٥٠، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٣٥٥/١ - ٣٦٦، تكوين ٦/١٠ - ٢٠، حزقيال ٢٢/٢٧ ، جواد على ٥٠٧/٢ - ٥٠٩، حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٦٥ - ١٦٦ ، قاموس الكتاب المقدس ٤٠٦/١ ، وكذا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 9 - 11.
- J. B. Philby, Arabian Highland, N. J., 1952, P. 237 F, 257.

(٢) تكوين ٣٠/١٠،

- Pliny, VI, P. 104 وكذا EI, II, P. 310, III, P. 292.
- Le Museon, 1964, 3 - 4, P. 429, 438 وكذا ZDMG, 31, 1877, P. 69.
- Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenbagen, 1773.

سلحين – إنما كانا قصرين للملوك، ولعل في هذا إشارة إلى أن «الشرح يحصب» إنما كان أقام في كلا القصرين (أى في صنعاء ومأرب)، كما يشير إلى أن الهمداني وابن الكلبي، ربما كانا على صواب فيما ذهبا إليه من أن «الشرح يحصب» هو الذى بنى قصر غمدان، وأن «شعر أوتر» هو الذى بنى سور صنعاء، وإن كانت هناك رواية إلى أنه من بناء سليمان، عليه السلام، وعلى أية حال، فكل هذا يدل على أن قصر غمدان من القصور السبئية القديمة، وأن صنعاء بدأت تتبوأ مكانها بين مدن اليمن منذ تلك الفترة، وأن مكانتها قد زادت على مر الأيام، حتى صارت عاصمة اليمن، ومقر الحكام حتى الآن.

وبدهي أن هذا لايتفق وروايات المؤرخين من أنها كانت تدعى «أزال»، وأن «وهرز» القائد الفارسي، هو الذى أطلق عليها إسم «صنعاء»، حين قال إبان دخولها (حوالى عام ٥٧٥م) «صنعة صنعة»، يريد أن الحبشة قد أحكمت صنعها، أو أن التسمية إنما كانت نسبة إلى بانيها «صنعاء بن أزال بن عبير بن عابر بن شالح» على رواية، و «غمدان بن سام بن نوح»، على رواية أخرى، فكانت تعرف تارة «بأزال»، وتارة «بصنعاء»، بل إن بعض الأخباريين لم يقف عند هذا الحد، فزعم أنها واحدة من مدن النار الأربع (أنطاكية والطوانة وقسطنطينية وصنعاء)، في مقابل مدن الجنة الأربع (مكة والمدينة وإيليا ودمشق).

هذا، وعلى أيام الاحتلال الحبشي لليمن (٥٢٥ – ٥٧٥م) بدأ أبرهة الحبشي في إنشاء الكنائس في أنحاء مختلفة من اليمن، لعل أهمها : مأرب ونجران وصنعاء، وفي صنعاء بالذات بنى كنيسته المشهورة «القُلَّيْس» بغية أن يصرف الحجيج من مكة إلى صنعاء، فيكسب من ذلك فوائد مادية وسياسية وأدبية، وبالتالى فقد كان ذلك سبباً في حملته المشهورة على مكة المكرمة في العام المعروف بعام الفيل.

ورغم مبالغة الأخباريين في وصف كنيسة القليس (وهي محرفة عن كلمة أكليسيا بمعنى كنيسة) وأنه كتب إلى النجاشي يقول له «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب»، فالذى لاشك أن القليس إنما كانت كنيسة كبيرة ضخمة، وأن العصر

نفسه كان عصر بناء الكنائس الضخمة، ومثال ذلك : كنيسة أيا صوفيا في القسطنطينية، وكنيسة المهد في بيت لحم.

وتذهب الروايات العربية إلى أن «القليس» إنما بنيت بجوار قصر غمدان، وبحجارة من قصر بلقيس، وأن أبرهة قد استعمل في بنائها السخرة، فضلاً عن القسوة الشديدة التي كانت تصل إلى حد قطع يد العامل، إن تهاون أو تكاسل في عمله، وهكذا استذل أبرهة أهل اليمن في بناء كنيسته هذه وجشمهم فيها أقسى أنواع السخرة، حتى أنهم كانوا ينقلون أدوات البناء، كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ.

وعندما تحررت اليمن من الحكم الحبشي على يد «سيف بن ذى يزن» (معديكرب بن أبى مرة) ظلت صنعاء عاصمة لليمن، ولكنها سرعان ماوقعت تحت نير الحكم الفارسي - بعد مقتل سيف بن ذى يزن - وإن كان الفرس في أغلب الأمر، إنما كان نفوذهم مقصوراً على العاصمة صنعاء ومجاوراتها، وظل الأمر كذلك حتى دخل الوالي الفارسي «باذان» في الإسلام، في عام ٦٢٨م (٦ هـ) ، فاعتنقت صنعاء، ثم بقية أرض اليمن، الإسلام، وبالتالى فقد قضى على اليهودية والنصرانية والوثنية، فضلاً عن الحكم الأجنبي - حبشياً كان أم فارسياً -[1].

---

(١) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣١٧ - ٣١٨، ٣٧٩ - ٣٨٢، ٣٨٨ - ٣٩٠، ياقوت ٤٢٦/٣ ، ٣٩٤/٤ - ٣٩٦، تاريخ الطبرى ١٣٠/٢ ، ٦٥٦ - ٦٥٧، الأزرقى ١٣٨/١ - ١٣٩، ابن الأثير ٤٤٢/١ ، ٢١٤٣/٢ - ٢١٥، البكرى ٨٤٣/٣، النويرى ١٨٢/١ - ١٨٣ ، وكذا :

- H. Von Wissmann and M. Hofner, Op. cit., P. 19.
- A. James, Op. cit., P. 390 وكذا P. K. Hitti, Op. cit, P. 57.
- H. Scott, in The High Yemen, London, 1947, P. 212.

الفصل الثالث

في شرق الجزيرة العربية

(أ) دلمون :

كانت دلمون عاصمة البحرين، وقد تحدثت عنها النصوص السومرية، كما في قصة الطوفان، وقد دعتها «أرض العبور، حيث تشرق الشمس، وهناك سكن آنو وأنليل وزيو سدرا بطل القصة، ودلمون في الأساطير السومرية هي مركز الخلق، وهي جنة الخلد، و «أرض دلمون مكان طاهر، أرض دلمون مكان مقدس».

هذا وقد اشتهرت دلمون بأنها مركز هام في التجارة الدولية وقت ذاك بين مراكز الحضارة السومرية (في جنوب العراق القديم) وبين بلاد نهر السند في باكستان الحالية، ومن ثم فعندما برزت نتائج التنقيبات عن «دلمون» في جزيرة البحرين، تأكدت مجدداً تلك الأهمية البارزة التي أولتها كتابات السومريين القدامى لهذه المنطقة.

هذا وقد اختلف العلماء حول موقع «دلمون» السومرية هذه، فذهب فريق إلى أنها في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس (أي الجزء الشرقي من ساحل الخليج العربي)، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أنها منطقة وادي السند، بينما يذهب وجه ثالث للنظر إلى أنها سهول العراق الكائنة إلى جنوب بابل، بل إن هناك وجهاً رابعاً للنظر يذهب إلى أنها في القسم الشرقي من شبه جزيرة العرب، في المنطقة فيما بين «مجان» و «بيت نسانو».

على أن جمهرة المؤرخين إنما يتفقون – أو يكادون – على أن موقع دلمون، إنما هو جزيرة البحرين الحالية، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها [1].

---

(1) محمد بيومي مهران : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة – الرياض ١٩٧٦ ص ٣٨٧ – ٣٩٠، جون الدر : الأحجار تتكلم ص ٣٠

- J. Finegan, Light from The ancient Past, Princeton, 1969, P. 32. =

(٢) جرها :

جرها – أو جرعاء كما يقول الهمداني – سوق لبني تميم في الإحساء، ومنذ حوالي قرن مضى رأى «شبرنجر» أن (Gerrha) إنما هي «الجرعاء»، وقد كانت قائمة على مقربة من ميناء العقير الحالي، وربما تقع – فيما ترى إليزابيث مونرو – تحت أنقاض مدينة من العصور الوسطى تسمى «تاج» (Thaj) هي الآن فيما وراء «جبيرة» (Jubair) – وربما الأصح الجبيل – وكانت تعرف قديماً باسم «عينان»، والتي كانت تقع على بحيرة أو خليج.

على أن دائرة المعارف البريطانية، إنما تتفق مع «جون فلبي»، على أن «جرها» هي العقير نفسها، وأن هذا الاسم الجديد (العقير) قد احتفظ في بنيته بالإسم القديم «جرها»، ذلك لأن هناك ثمة تقارب بين اسمي الجرعاء والعقير، والتي تسمى محلياً «عجيز»، وهي قريبة من منطقة «جرعة»، وأما الدكتور سليمان حزين، فالرأي عنده أن جرها هي «القطيف»، وإن كان هناك من يرى أن جرها إنما تقع على مبعدة ٢٤ كيلا شمال شرق العقير، وقد حدد «سترابو» الجرعاء على مبعدة ٩٦ كيلا داخل اليابسة، بينما رأى «بليني» أنها تقع على الساحل.

وجرها – على أية حال – ميناء تجاري يقع على طريقين من طرق القوافل، الأول : طريق مأرب – جرها (مأرب – نجران – الفاو – الأفلاج – اليمامة – الهفوف – جرها)، وأما الطريق الثاني فهو طريق : جرها – البتراء

= - P. B. Cornwall, on the Location of Dilmun, in BASOR, 103, 1946, P. 3 - 11.
- S. N. Kramer, Dilmun, The Land of The Living, BASOR, 96, 1944, P. 18 - 28.
- F. Hommel, Groundris, I, P. 250.
- S. N. Kramer, The Indus Civilization and Dilman, The Sumerian Paradise Land Expedition, Philadelphia, 1964, P. 45.

(جرها - الهفوف - مكان الرياض الحالي - بريدة - حائل - تيماء - البتراء)[1].

(٣) مجان :

اختلف العلماء فى تحديد موقع مجان هذه، فذهب فريق إلى أنها من الأقسام الشرقية من شبه الجزيرة العربية، وذهب فريق آخر إلى أنها جرها (جرعاء) على ساحل الاحساء، على أن فريقاً ثالثاً إنما يذهب إلى أنها تقع على مقربة من ساحل الخليج العربى فى موضع «مجيمنة» جنوب «يبرين»، وذهب فريق رابع إلى أنها على مقربة من الساحل عند مصب وادى شهبة، وهى البقعة التى نشأت فيها مملكة مجان القديمة.

وهناك بحوث أثرية وتاريخية، يرى البعض أنها تؤكد وجود دلائل واضحة على قيام عمران مدنى، وحضارة مزدهرة، فى تلك المنطقة، اعتمدت على نشاط تجارى فى البر والبحر، بين بلاد السند، وسواحل إيران الجنوبية، وبين بلاد العرب الجنوبية، وبلاد الرافدين.

---

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٨١، اليزابيث مونرو : الجزيرة العربية بين البخور والبترول ص ٣٥ - ٣٦، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ١٣٥، بيتر كورنول : البحث عن ماضى جزيرة العرب - القاهرة ١٩٥٣م ص ٣٨، أحمد صابون : دراسة تاريخية لمشكلة تحديد موقعي ماجان وملوخا، وانظر فيصل عبد الله : الخليج العربى ووادى الهندوس فى الأدبيات والحلويات المسمارية - ١٩٩٠ ص ١٢

- S. A. Huzayyin, Arabia and The Far East, Cairo, 1942, P. 142.
- A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabien, Berlin, 1875, P. 135.
- G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 250.
- E. Herzfeld, The Persian Empire, 1968, P. 63.
- E. F. Weidner, Das Reich Sargon Von A K Kad, AFO, 16, 1952, P. 52.
- K. Jartiz, Tilmud - Magan - Meluhba, JNES, 27, 1968, P. 209.

وكذا :

- L. Caetani, Studi della Historia Orientale, I, P. 64, 80, 243.

على أن هناك وجهاً خامساً للنظر يذهب إلى أن مجان إنما هي منطقة «عُمان» – أي الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، على أن هناك من يرى أنها الساحل الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، والذى يمتد شمالاً حتى جنوب بلاد الرافدين، ومن يرى أنها واقعة على شواطئ عمان، ومن يرى أنها تقع على جانبي خليج عمان، ومن يرى أنها شبه جزيرة «مسندم» التي تمتد إلى شبه جزيرة قطر.

هذا ويرى البعض أنها «مدين»، وكانت في الألف الخامسة قبل الميلاد، كثيفة الأشجار، وكان السومريون والأكديون فيما بعد يأخذون منها الأخشاب والذهب والنحاس.

وأخيراً فلقد حاول بعض المؤرخين أن يحدد موقعها بخط طول ٥٥ شرقاً، وخط عرض ٢٤ شمالاً، وبحوالي ٧٢٠ كيلا إلى الشمال الغربي من «مسقط»، وأن كلمة «مجان» إنما تتكون من الكلمة السومرية (Ma)، بمعنى ميناء أو أرض السفن، وذلك بسبب شهرة أهلها في ركوب السفن، فضلاً عن أن هناك نصاً يرجع إلى أيام «دونجي» (أحد ملوك أور حوالي عام ٢٤٥٠ ق.م.) يحدثنا عن صناع السفن من مجان، وأن النصوص المسمارية قد وصفتها بأنها «جبل النحاس»، كما أطلقت عليها النصوص السومرية «أرض الدولوريت»، ومن ثم فإن الإشارة إلى مجان على أنها «جبل النحاس» تدفعنا إلى أن ندخل في دائرتها منطقة الجبل الأخضر في عمان، حيث يوجد النحاس، وهكذا يبدو واضحاً أن لدينا من القرائن القوية التي تقربنا من وضع مجان كمرادف صحيح لعمان، لأن كل ماذكر آنفاً إنما هو موجود في عمان [1].

(١) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد – القاهرة ١٩٦٦م ص ١٣٣، محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢١٦ – ٢١٧

- R. A. Cheesman, In Unkonwn Arabia, London, 1925, P. 266.
- De Lacy O'Leary, Op - cit., P. 47 J. B. Philby, The Empty Quarter, 1933, P. 119 F.
- W. F. Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, P. 21.
- A. Musil, Northern Nejd, New York, 1928, P. 307.

الفصل الرابع

المدن الكبرى فى الممالك والإمارات العربية

فى العــراق والشــام

(١) تدمــــــر

١ - موقع تدمر الجغرافى وأهميته :

تقع مدينة «تدمر» - عاصمة مملكة تدمر - على مبعدة ١٠٠ كيلا جنوب شرق حمص، وعلى مبعدة ١٥٠ كيلا شمال شرق دمشق، فى منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات[١]، ومن ثم فقد كانت موقعاً هاماً على الطريق التجارى بين العراق والشام، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق، وما يتصل بها من أسواق فى إيران والهند والخليج والعربية الشرقية، وبين تلك التى على البحر المتوسط، وبخاصة فى الشام ومصر، فضلا عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال أفريقية والعربية الجنوبية والهند، وهكذا أصبحت «تدمر» ملتقى جميع القوافل، وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد، وعام ٢٧٣م، ومن ثم فقد وجد فى نقوشها عبارة «زعيم القافلة» و «زعيم السوق»، باعتبار أن المشار إليه من زعماء المواطنين[٢].

وكان هذا الموقع الجغرافى الهام، سببا فى مكانة تدمر التجارية، ويقول صاحب كتاب «أسواق العرب»: «وحمل أهل تدمر فى القديم إلى مصر، وجنوب أوربا، صادرات بلاد العرب والعراق والهند، وكانت النقاش التى يحملها التدمريون من بلاد الشرق أثمن ما يتغالى به الملوك القياصرة[٣].

ويقول الدكتور إسرائيل ولفنسون عن مملكة تدمر: قبلة التجار فى الهند والفرس والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوربا، وكانت روما - التى خضع لنيرها أغلب

(1) EB, 17, p. 161.

(٢) جواد على ٨١/٣، قارن : مروج الذهب ٢٤٤/٢ - ٢٤٥.
وانظر: P.K.Hitti, op.cit, p. 73
وكذا: G.A.Cooke, op- cit,p. 274 - 279.

(٣) سعيد الأفغانى: أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام - دمشق ١٣٧٩هـ ص ١٧.

العالم القديم – تهاب قبائل تدمر، وتتودد اليها، وتقدم اليها الهدايا، وتوفد اليها الوفود – قبل أن تحتلها – وقد عرفت تدمر كيف تستثمر – فى ظروف مناسبة – الدولتين – الفارسية والرومية – لمصلحتها التجارية(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة هنا إلى الطريق التى تقع إلى أقصى الشمال فى شبه الجزيزة العربية، وكانت هذه الطريق تشكل فى الواقع امتدادا صحراويا، لطريق تجارية تبدأ من «الرمادى» – وتقع على نهر الفرات شمال غربى بغداد – وتسير بمحاذاة النهر، حتى مدينة «مارى»(٥) (Mari)، ثم تمتد غربا إلى «تدمر»، ومن تدمر، تمتد غربا بميل طفيف إلى الشمال الغربى، إلى «حمص»، ومن هناك تتفرع إلى عدة فروع، تصل بين حمص من جهة، والموانى الفينقية ودمشق وفلسطين من الناحية الأخرى.

وفى الواقع، فان الطريق انما كان حلقة الوصل فيها هى مدينة تدمر، هذه الواحة الغنية بالنخيل التى تقبع فى وسط الصحراء.

واما بقية الطريق الواقعة إلى شرقى تدمر، أو غربيها، فكانت – رغم قصرها – فهى لاتزيد عن ٤٨٠ كيلا – معرضة لغارات القبائل البدوية المتنقلة بالمنطقة المحيطة بها، ومع ذلك، فلقد احتفظت هذه الطريق القديمة بأهميتها، كما احتفظت بالأهمية ذاتها للطرق الأخرى، التى شقت بعد ذلك، واتخذت من تدمرنقطة ارتكاز لها فى الوصل بين طرفى الصحراء عند حدود كل من وادى الرافدين وسورية،

---

(٤) أسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية – القاهرة ١٩٢٧ ص ١٢٧ – ١٢٨.

(٥) مارى: كلمة سومرية من جهة الاشتقاق، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و «مارتو» أى بلاد الغرب، وهى الآن «تل الحريرى»، جنوب مصب نهر الخابور، على مقربة من «دير الزور»، على مسافة ميل واحد غربى الفرات، قرب بلدة «أبو كمال» (البوكمال) – قرب الحدود العراقية السورية – ، وقد أصبحت مارى والبلاد المحيطة بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية، سكانا وحكومة وحضارة – وقد كشف «أندرية بارو» عام ١٩٣٣م حوالى ٢٠ ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسمارى فى قصر الملك «زمرى ليم» ومحفوظة الآن بمتحف اللوفر بباريس، وقد بدأ نشرها وظهر منها حتى الآن ١٦ جزءا (أنظر: محمد بيومى مهران: بلاد الشام ص ٥٠).
وكذا M.Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, p. 46.
W.F.Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period Leiden 1960, p. 102.

وأهمها «طريق دقلديانوس»[6] (Strata Diocletiana) التي شقت في عصر الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، بين دمشق في الجنوب الغربي، والرصافة «سرجيوبوليس = Sergiopolis» في الشمال الشرقي، على مقربة من الفرات - بعد تدمير تدمر عام ٢٧٣م-.

وأهمية هذا الطريق - إلى جانب صفته التجارية - فله صفة سياسية، فالمنطقة كانت تقطنها - كما أشرنا آنفا - قبائل بدوية متنقلة، تسبب كثيرا من القلق على الحدود السورية، أو حدود وادي الرافدين، ومن ثم فقد كان موقع تدمر كنقطة تأمين للطريق، وبالتالي فإن إقرار الأمور، إنما هو أمر وارد لكلا القوتين - الفارسية والرومية - في شرقي الصحراء أوفي غربيها.

وهكذا انتهى الأمر دائما بتأمين الطريق لهذا الهدف السياسي، وتبع ذلك ازدهار النشاط التجاري عليه، هذا وقد كشف عن بقايا عدد من الحصون التي أقامها الرومان في أماكن عديدة، على طول هذا الطريق[7].

٢- اسم المدينة وتطورها التاريخي:

اسم «تدمر» اسم «سامي»، يرجع ظهوره للمرة الأولى إلى أيام الملك الأشوري «تجلات بلاسر» الأول (١١١٦ - ١٠٩٠ق.م) في صورة «تدمر أمورو»[8]، وأما اسم «تدمر» فهو النطق الآرامي لكلمة «تتمر» العربية، ومعناها المدينة التي يكثر فيها

---

(٦) كان قد أنشيء في عهد الامبراطور «تراجان» (ترايانوس - Trajanus) (٩٨-١١٧م) طريق يصل فيما بين مدينتي العقبة وتدمر، ويمر بالبتراء، و«ربة عمان» وفيلالفيا (عمان)، و«بصرى»، ثم ينتهي عند «تدمر» (أنظر الجزء الأول من تاريخ العرب ص ٢٧٧).

(٧) لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

R.Dussaud. La Penetration des Arabes en syrie avenat L'Islam, Paris, 1955. p. 80 - 81.

G.Roux, Incient Iraq, 1966, p. 29.

(8) D.D Luckenbill, op,cit I, 287, 308

E.Dhorme, Palmyra dans Les Assyriens, R.B, 1924, p. 106. وكذا

EI, 3, p. 1020. وكذا EB, 17, p. 161 وكذا

التعمير بالنخيل[٩]. وإن كنا على غير يقين من اشتقاق كلمة «تدمر»، فربما كان لها صلة بكلمة «تدمرتا» (Tedmorta) الآرامية، ومعناها «يعجب من»[١٠].

وقد ورد اسم «تدمر» في المصادر اليهودية، فكاتب الحوليات العبراني يسجل في التوراة، أن سليمان قد بنى مدينة تدمر في البرية[١١]، والأمر كذلك بالنسبة للمؤرخ اليهودي «يوسف بن متى»[١٢]، وليس من شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن المدينة - كما أشرنا آنفا - إنما ذكرت في الوثائق الآشورية قبل أن يولد سليمان نفسه، وبفترة تسبق مادون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون[١٣].

ومن هنا فقد رأى العلماء أن الرواية التي تذهب إلى أن سليمان هو الذي بنى تدمر، إما أنها أرادت تعظيم شأن مملكة سليمان كعادة الروايات اليهودية - وكأن مكانة النبي الكريم لاتأتى إلا ببناء المدن واتساع مملكته، وليست برسالته السماوية - ومن ثم فقد نسبت إليه بناء هذه المدينة، التي تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل[١٤]، وإما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين «ثامار» التي أسسها الملك سليمان، وهي موضع جاء ذكره في سفر حزقيال[١٥]، ويقع إلى جنوب الشرقي من «يهوذا»، وإن كنا لاندرى موقعه الآن على وجه التحقيق[١٦]، وربما كانت الشهرة التي اكتسبتها «تدمر» على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم، ومن ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان، ليست هي «ثامار»، وإنما «تدمر» والتي

---

(٩) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥.

(١٠) فيليب متى: المرجع السابق ص ٤٢٣.

(١١) ملوك أول ٩: ١٨، أخبار أيام ثان ٨: ٤.

(12) F Hommel, ZDMG, XIIV, 547 وكذا EI, III, p. 1020.
وكذا E.Dhorme, op.cit, p. 106.

(١٣) أنظر عن تاريخ كتابة أسفار التوراة كتابنا «إسرائيل» ٣/ ٨١ - ٩٦، وأنظر طبعة ١٩٩٩م

(١٤) جواد على ٧٧/٣، فيليب متى: المرجع السابق ص ٤٢٣.
وكذا J.Hastings, op.cit, p. 889. وكذا EB,P. 4886

(١٥) حزقيال ٤٧: ١٩.

(١٦) جواد على ٧٧/٣، قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١.

كانت مدينة عامرة بسكانها، وذات شهرة فى مجاوراتها فيما بين عامى ٣٠٠ - ٢٠٠ق.م[١٧].

وأما الاسم اليونانى للمدينة فهو «باليرا» Palmyra وهى ترجمة لكلمة «ثامار» العبرية، وتعنى مدينة النخيل، وإن كان هناك من يرى أن كلمة (Palmyra) من كلمة (Palma) بمعنى النخل حتى الآن فى بعض اللغات الأوربية، وأن الاسكندر المقدونى هو الذى أطلق عليها اسم "Palmyra" بعد أن استولى عليها بسبب مايكتنفها من غابات النخيل، ومن ثم فقد عرفت عند اليونان واللاتين بهذا الأسم، وهو رأى مايزال بعد فى مرحلة التخمين ويحتاج إلى مايدعمه من أدلة وبراهين[١٨].

وهناك مايشير إلى وجود نفوذ سلوقى فى تدمر، وربما كانت من نصيب السلوقيين بعد وفاة الاسكندر الأكبر فى عام ٣٢٣ ق.م.، وتقسيم امبراطوريته بين قواده، وعلى أى حال، فهناك حصن سلوقى فى المدينة، وربما أقيم فى عام ٢٨٠ق.م، كواحد من سلسلة الحصون التى أقامها القوم فى المناطق الاستراتيجية التى خضعت لهم[١٩].

أما الروايات العربية فلاتفيد علما، ولاتصلح أن تكون دليلا، فهى روايات متأخرة دخلت إلى المسلمين من أهل الكتاب، فأخذوها بغير تحقيق ولاتدقيق[٢٠]، فضلا عن أن ضخامة آثار المدينة وعظمتها، ربما أدهشتهم ومن ثم فقد نسبوا بناءها إلى الجن بأمر من سليمان عليه السلام[٢١]، على أن «ياقوت الحموى» انما

---

(١٧) جواد على ٧٨/٣.
وكذا F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 344.
J.Hastings, op.cit, p. 889.

(١٨) عباس العقاد: الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٢٢، وكذا EI, III, p. 1020.

(١٩) جواد على ٨٥/٣.
وكذا Freya Sterk, Rome on The Euphrates, 1967, . 242.

(٢٠) جواد على ٨٧/٣.

(٢١) فيليب حتى المرجع السابق ص ٤٣٣، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ - ٢١٠، ياقوت ١٧/٢ - ١٩، البكرى ٣٠٦/٢ - ٣٠٧، صحيح الأخبار ٦/٢-٧، قارن : مروج الذهب ٢٤٤/٢ - ٢٤٥.

يستبعد نسبة تدمر إلى سليمان، معللا ذلك بأن أهلها إنما يزعمون أنها ترجع إلى ماقبل عهد سليمان، بفترة تقارب مابيننا وبينه، وأن الناس اذا مارأوا بناء عجيبا جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى الجن(٢٢).

ومع ذلك فهناك من يقدم لنا أبياتا من شعر «النابغة الذبياني»، يذهب فيه إلى أن المدينة من بناء جن سليمان، وفات أصحاب هذا الزعم أن النابغة لم يكن عالما من علماء التاريخ والآثار، حتى يكون شعره حجة في بناء مدينة يرجع ظهورها في التاريخ إلى أخريات القرن الثاني عشر، أو الحادي عشر قبل الميلاد، ثم من أدرانا أن هذا الشعر للنابغة الذبياني حقا، فإن من نسبوا شعرا إلى آدم وهابيل وقابيل، وإلى الجن وإبليس، أليسوا بقادرين على وضع شعر على لسان النابغة الذبياني(٢٣)، وأما قصة بناء المدينة بأمر من امرأة تدعى «تدمر بنت حسان بن أدينة»، فليست إلا من هذا النوع من الكتابات التي ملأ الاخباريون بها صفحات كتبهم(٢٤).

ولعل «بليني» (٢٣/٢٤ - ٧٩م) أول الكتاب الكلاسيكيين الذين أشاروا إلى تدمر، فوصفها بأنها مدينة شهيرة ذات موقع ممتاز، وأرض خصبة وأن بها عيونا وينابيع، وتحيط بحدائقها الرمال، وأنها تقع بين الإمبراطورية الرومانية والفارسية، ومن ثم فقد اضطر أهلها - ضمانا لاستقلالهم - أن يقفوا موقف الحياد بين هاتين القوتين المتصارعتين، ثم تابع «بليني» من جاء بعده من الكتاب، مما يدل على أن شهرة المدينة كانت في ازدياد(٢٥).

وأما أقدم كتابة عثر عليها في المدينة، فإنما ترجع إلى شهر نوفمبر من السنة التاسعة قبل الميلاد(٢٦)، وإن كان عثر في مدينة «دورا» - وتقع في مكانها

(٢٢) ياقوت ١٧/٢، قارن : الأخبار الطوال ص ٢٠.

(٢٣) جواد علي ٧٩/٣، صحيح الأخبار ٦/٢، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ - ٢١٠، المشرق، العدد ١١، عام ١٨٩٨م ص ٤٩٦، ياقوت ١٧/٢.

(٢٤) البكري ٣٠٧/١، ياقوت ١٧/٢.

(25) W.Wright, an Accoun of Palmyra and Zenihia With Travels and Adventures in Bashan and The Desert, p. 110

وكذا EB, p. 4886 وكذا Pliny, V, XXI, 88.

(٢٦) جواد علي ٨١/٣، حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥

وكذا G.A. Cooke, op- cit, p. 141

الصالحية الحالية – على الفرات الأوسط تجاه تدمر، على نقش يعتبر من أقدم النقوش التدمرية التى كشف عنها حتى الآن – ويرجع إلى عام ٣٣ ق.م[٢٧]، وفى هذا الوقت كانت تدمر مركزا تجاريا خطيرا بين دولتى الروم والفرس، ومع ذلك فإن أكثر مانعرفه عنها إنما يرجع إلى مابعد الميلاد، حيث لدينا نصوص ترجع إلى عام ٢٧١ م.[٢٨]

(٣) سكان تدمر:

لاريب أن أهل تدمر، إنما كانوا عربا – شأنهم فى ذلك شأن الأنباط فى البتراء – بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصلية فى كتاباتهم، كما أن أسماء الأصنام عندهم عربية، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء الأعلام، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء أنهم من القبائل العربية التى أخذت تستولى على المنطقة الخصبة فى شرق الأردن، عقب انهيار الدولة البابلية الحديثة، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية فى عام ٥٣٩ق.م، ثم أخذت تستعمل الآرامية – وهى لغة الكتابة والثقافة فى غرب الفرات وقت ذلك – لغة لها، ومع هذا فإن لغتهم هذه، ليست إلا لهجة من اللهجات الآرامية العربية، وأنها لاتختلف كثيرا عن لغة الأنباط، وعن الآرامية المصرية[٢٩].

ومع ذلك فان اللهجة الآرامية التدمرية لها مميزات بررت أن يختصها بعض الباحثين بدراسة لغوية منفصلة، ومن أشهر هذه الدراسات كتابات المستشرق الفرنسى «كانتنيو»[٣٠]، وقد طور التدمريون الكتابة الآرامية وعنهم انتقلت إلى

---

(27) CAX, IX, p. 559

(٢٨) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥.

(٢٩) محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٣٤٢ – ٣٤٣.
وكذا P.K.Hitti, op.cit, p. 76.
وكذا R.Ghirshman,Iran, 1945, p. 131 - 132 وكذا EB, 17 p. 161.
وكذا A.T.Olmstead, History of The Peresian Empire, Chicago, 1970, p. g0-51.

(٣٠) حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم ص ١١٥.
وكذا J.Cantineau, Grammaire du Plamyrenien Epigraphikue, Le Caire, 1935

السريان في «الرها» فظهر منها الخط السرياني القديم المعروف باسم «الخط السرنجيلي» الذى ظهر بعد الإنشقاق المذهبى بين سريان الرها فى عام ٤٨٩م، ثم ظهور لهجة غربية تسمى اليعقوبية، وشرقية تسمى النسطورية[٣١].

وأما الثقافة التدمرية، فكانت مزيجا من الثقافات العربية والآرامية واليونانية واللاتينية، ذلك لأن تدمر - كما كانت البتراء من قبل - قد نمت فى ظل حضارة الآراميين، واتخذت لغتهم، فضلا عن المبادىء الأساسية فى تفكيرهم الثقافى والدينى، هذا فى الوقت الذى أخذت فيه كذلك كثيرا عن دنيا اليونان والرومان[٣٢].

هذا، وقد قامت كذلك فى تدمر جالية يهودية، منذ وقت لانستطيع تحديده على وجه اليقين، فربما كان ذلك قبل سقوط القدس فى أيدى الرومان على أيام الامبراطور «فسباسيان» (٦٩ - ٩٧م)، ثم عمل هولاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا فى تهويد بعض السكان، وأن فريقا من هؤلاء اليهود، ربما رجعوا إلى القدس قبل تدميرها - المشار إليه آنفا - على يد «تيتوس» فى عام ٧٠م[٣٣].

(٤) تدمر والروم:

وعلى أى حال، فلقد بدأت تدمر تزداد قوة وشهرة منذ النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، بسبب الأهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتى الفرس والروم المتنافستين، ثم ساعد موقعها الجغرافى على إعدم تمكن أى من الفريقين المتنازعين من سهولة الاستيلاء عليها[٣٤]، وقد حاول «مارك أنطونيو» عام ٤١ ق.م، الإستيلاء على خزائن المدينة ففشل، وإن أصابها منه ضرر كبير[٣٥]، غير أن مدينة مهمة كتدمير، لها مال وثروة، وليس لها جيش قوى ضخم، ولامجال

---

(٣١) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١١٥ - ١٢١.

(٣٢) موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٣٣) جواد على ٨٤/٣، وكذا .UJE,8, 381

(٣٤) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٣.

(٣٥) W.Wright, op cit, p. 110 وكذا EB, 17, p. 162

لتكوين هذا الجيش فيها، لايمكن أن تبقى فى مأمن ومنجاة من مطامع الغزاة، ولو كانت فى بقعة منعزلة، أو فى بادية بعيدة(٣٦).

ومن هنا، فإن تدمر - على الأرجح - قد اعترفت بنوع من السيادة عليها للرومان، منذ أوائل العصور المسيحية، ودليلنا على ذلك المراسيم الإمبراطورية التى ترجع إلى عهد «تيبيريوس»(٣٧)، والتى تتعلق بالرسوم الجمركية، وقد عثر فى تدمر على قوائم ترجع إلى عام ١٧م، وتبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدميرية(٣٨)، هذا ويبدو أن تدمر قد أصبحت على أيام «فسباسيان» تحت الإشراف الرومانى، وأن كان هذا لايعنى الخضوع لروما، أو أن لإشراف على الشئون الدينية بالمدينة كان بأيدى الرومان، وإنما كان هناك إشراف رومى عام على المدينة، بدليل أن الروم قد سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بحاميتها Militia فى خارج تدمر(٣٩).

وقد بذل «تراجان» (٩٨-١١٧م) جهده لضم تدمر إلى المقاطعة العربية، التى أنشأها فى عام ١٠٦م، واتخذ من «بصرى» مقرا لها، وفى عام ١٣٠م، زار «هدريان» (١١٧ - ١٣٨م) تدمر وجعلها تابعة لروما، ثم منحها لقب «هدريانا بالميرا» (Hadriana Palmyra) و«هدريانوبوليس» (Hadrianopolis)، كما أصبحت المدن التابعة لتدمر، تابعة لروما(٤٠)، وفى الواقع لقد نالت تدمر عناية كبيرة من «هدريان»، حتى قيل أنه «الموسس الثانى» لها، فاهتم بحماية الطرق البرية التى توصلها إلى نهر الفرات، والتى كانت شريانا هاما للتجارة العالمية وقت ذاك، ثم كانت العلاقة الطيبة بين الفرس والروم فى عهده سببا فى رخاء تدمر، فوصلت الحاميات الرومية إلى شواطىء الفرات الغربية، وأقام التجار فى مدينة

---

(٣٦) جواد على ٨٤/٣.

(٣٧) بدأ السيد المسيح عليه السلام، وكان قد ناهز الثلاثين من عمره يبشر بدعوته فى يهوذا فى عهد هذا الإمبراطور، وكان قد ولد على أيام سلفه أول قياصرة روما «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤م)، ويرى بعض الباحثين أنه ولد فيما بين عامى ٦، ٢ق.م، بينما يرى آخرون أنه ولد فى عام ٤م ورفع إلى السماء عام ٢٧م وربما، فى ٢٣ مارس ٢٩م (أنظر: هـ.ج. ويلز موجز تاريخ العالم ص ١٧٢، ٤١٦، فيليب متى: المرجع السابق ص ص ٣١١ - ٣١٢، ٣٦٣).

(38) G.A. Cooke, op.cit, p. 313 - 332.

(٣٩) جواد على ٨٦/٣، وكذا J.Starcky, Palmyre, p. 27.

(٤٠) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٥، وهذا EB, 17p. 162

(Voologasia)، كما بنوا لهم معبدا هناك[41]، ولدينا كتابة ترجع إلى عام ١٣٧م، أصدرها مجلس شيوخ المدينة لتنظيم التجارة وتثبيت الضرائب، وكيفية جبايتها[42].

وفي أوائل القرن الثالث الميلادى منح «سبتميوس سيفيروس» (١٩٣ - ٢١١م) تدمر حقوق المستعمرة، واستمرت كذلك حتى على أيام «كراكلا» (٢١١ - ٢١٧م)، وهكذا اكتسبت تدمر حق الملكية والإعفاء من الخراج، فضلا عن الحرية التامة فى إدارة شئونها، وبدأ كبار القوم يضيفون إلى أسمائهم العربية أو الآرامية، أسماء رومية، بل وقد أضافت إحدى الأسر إسم «سبتميوس» أمام اسمها السامى، مما يدل على نوالها حق الرعاية في عهد «سيفيروس»، وربما كان ذلك بسبب الخدمات التى قدمتها فى الصراع ضد الفرس، الا أن ذلك لايعنى أن تدمر، إنما أصبحت مقاطعة رومية تماما، وانما كانت حكومة شبه مستقلة، تدير شئونها الإدارية بنفسها، ولكنها تخضع لإشراف روما عليها[43].

وانتهزت تدمر فرصة انشغال روما بغزوات الجرمان التى كانت تهدد دولتهم فى أوربا الغربية، وأخذت توسع رقعتها ، وإن ظلت وفية للروم، وهكذا أصبحت دولة تدمر تشمل عددا من المدن الصغيرة التابعة لها، مثل «دورا» و«الرصافة»[44]، وقد استخدمت «دورا» كمعقل لحماية تجارة تدمر الناشئة، وقد وجدت فيها بقايا أبنية ذات زخارف نافرة تمثل جنودا تدمريين، وأما «الرصافة» فقد لعيت فى كتابة أثرية

---

(٤١) جواد على ٨٧/٣.

وكذا M.Rostoutzeff, Caravan Cities, p. 144

وكذا F.Stark, op.cit, p. 253.

وكذا Mommsen, Provinces of The Roman Empire, 2, p. 236

(٤٢) جواد على ٨٧/٣، المشرق، الجزء ١٢، عام ١٨٩٨، ص ٥٣٨.

وكذا EB, 17 p. 162

وكذا W.Wright, op.cit, p. III

وكذا G.A.Cooke, op.cit, p. 322.

(٤٣) فيليب حتى: المرجع السبق ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

كذا G.A. Cooke, op.cit, p. 250 - 312.

وكذا CAH, XI, p. 139, XII, p. 18

(٤٤) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٢٤٩.

أشورية تعود إلى أخريات القرن التاسع قبل الميلاد باسم «رصابا Rasappa»، وهى نفس المدينة التى جاءت فى التوراة[٤٥] تحت اسم «رصف» بمعنى «الجمر المتوهج» وهدمها «سنحريب» (٧٠٥ – ٦٨١ق.م) فى أوائل القرن السابع ق.م، وقد عرفت فيما بعد باسم «سرجيوس بولس» نسبة إلى قديسها المحلى «سرجيوس» الذى استشهد فى عهد «دقلديانوس» (٢٨٤ – ٣٠٥م)[٤٦].

(٤٥) ملوك ثان: ١٩ : ١٢، أشعياء ٢٧ : ١٢.

(٤٦) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٣٦، وكذا .EB, 17, 162

(٢) الجابية - جلق

كانت العاصمة السياسية للغساسنة - في أول الأمر - مخيماً متنقلا، ثم استقرت بعد ذلك في «الجابية» في منطقة الجولان جنوب غربي دمشق، كما كانت في بعض الوقت في «جلق» في جنوب حوران[١] - والتي ربما كانت «الكسوة» الحالية، على مبعدة ١٦ كيلا جنوبي دمشق - وأما ديارهم، فكانت - طبقا لبعض الروايات العربية - في اليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها، وأن منهم من نزل الأردن من أرض الشام[٢]، وعلى أى حال فلقد امتدت دولتهم حتى شملت الجولان وحوران والبلقاء، وأحيانا فينيقيا، فضلا عن أعراب سورية وفلسطين[٣].

وعلى أى حال، فليس هناك من دليل على أن الغساسنة، قد ملكوا المدن الكبيرة في الشام كتدمر وبصرى ودمشق، إذ أن هذه كانت محصنة، تتمركز فيها الحامية البيزنطية، ولكنهم كانوا يعتمدون على الصحراء، إذا داهمهم الخطر، فكانت تغنيهم عن المدن المحصنة، ومن ثم فقد كانت معظم حروبهم تدور على أطراف البادية، وإليها التجأوا عندما خلعوا سلطان الإمبراطور وثاروا عليه في عهد «النعمان بن المنذر»، ولهذا فقد كان الروم يقيمون عمالا صغاراً بجانب ملوك غسان، حفاظا على التوازن السياسي، وإبقاء لسلطان الدولة في الأوقات العصيبة، طبقا لسياسة «فرق تسد»[٤].

---

(١) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٤٤٩، ياقوت ٩١/٢، ١٥٥، البكرى ٣٥/٢، ٣٩٠، عبد المنعم ماجد: المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٨٩، بلاشير: المرجع السابق ص ٥٩، دائرة المعارف الإسلامية، مادة جابية ومادة جلق، عبد اللطيف الطيباوى: المرجع السابق ص ١٢، محمد مبروك نافع: المرجع السابق ص ١١٦.

وكذا R.Dussaud, Topograhie Historique de La Syrie Antique et Medievale, p. 317 - 18, 332 - 3.

وكذا Leone Caetani, Anndai Dell'Islam; II, p. 928.

(٢) المسعودى : مروج الذهب ٨٥/٢.

(٣) عبد اللطيف الطيباوى: المرجع السابق ص ١٢.

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٢.

(٣) الحيـرة

كان العرب منذ قديم الزمان يهاجرون إلى تخوم شبه الجزيرة العربية الشرقية، حتى اذا ماوصلوا إلى وادى الفرات أقاموا فى ربوعه، وفى أوائل القرن الثالث الميلادى، وإبان الإضطرابات التى أعقبت سقوط الأسرة البارثية وقيام الأسرة الساسانية فى حوالى عام ٢٢٦م، تحت زعامة «أردشير بن بابك بن ساسان» وفدت طلائع عربية جديدة من قبائل تنوخ اليمنية، وسكنت فى المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات، وما أن يمضى حين من الدهر حتى تحولت الخيام إلى مدينة عرفت «بالحيرة»، تحولت بمرور الأيام إلى إمارة الحيرة - وراء نهر الفرات عند منعطفه نحو دجلة، واقترابه منه على مبعدة خمسين كيلو مترا - التى أصبحت بمثابة حصن للملك الفارسى حيال العرب الرحل[١].

على أن هناك من يرجع بتاريخ المدينة إلى أيام الملك البابلى «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م) - طبقا لرواية سبق لنا مناقشتها فى هذه الدراسة[٢] - بينما يرى أخرون أن مؤسس الحيرة إنما هو «الأردوان» ملك الأنباط[٣]، بينما يذهب فريق ثالث إلى أنها من بناء «تبع أب كرب»[٤]، وأخيرا هناك من يرى أنها مدينة بارثية[٥].

وليس هناك من شك فى أن «الحيرة» مدينة قديمة، وأن كنا لانعرف تاريخها على وجه التحقيق، ولعل أقدم ماوصلنا عنها إنما هى كتابة ترجع إلى عام ١٣٢م، ذكرت فيها المدينة تحت اسم «حيرتا»، فإذا كانت «حيرتا» هذه، إنما هى «الحيرة» حقا، فإن أقدم مانعرفه عنها إنما يرجع إلى عام ١٣٢م[٦]، ولعل مما تجدر ملاحظته

---

(١) آرثر كريستنس: المرجع السابق ص ٨٢.

(٢) أنظر: تاريخ الطبرى ٥٥٨/١ - ٥٦٠، ياقوت ٣٢٩/٢.

(٣) ياقوت ٣٢٩/٢.

(٤) ياقوت ٣٢٩/٢ - ٣٣٠، البكرى ٤٧٨/٣ - ٤٧٩.

(٥) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣١٨،
وكذا A.Musil, The Middle Euphartes, p. 102.

(٦) جواد على ١٥٧/٣، وكذا CIS, II, p. 156, III, p. 3073.

هنا أن الحفريات لم تقدم لنا شيئا يمكن الإعتماد عليه فيما يتصل بموقع المدينة وتاريخها، وأن كل ماوصلنا لايعدو نقوشا من الجبس مما تكسى به الجدران، فضلا عن مجموعة من الجرار وآثار صغيرة، بعضها يرجع إلى ماقبل الإسلام، ويرجع بعضها الآخر إلى العصر الإسلامي(٧).

وقد اختلف المؤرخون فى تفسير اسم «الحيرة» ومصدر اشتقاقه، فهناك رواية تذهب إلى أن «تبان أسعد أب كرب» كان قد خرج من اليمن يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة ليلا تحير، فأقام مكانه، ومن ثم فقد سمي ذلك الموضع «الحيرة»(٨)، وتذهب رواية أخرى إلى أن «تبعا الأكبر» قد ترك ضعاف جنوده فى ذلك الموقع، وقال لهم «حيروا به» أى أقيموا به(٩). هذا ويذهب العلماء المحدثون إلى أن كلمة «الحيرة» انما هى كلمة «أرامية» وأنها «حرتا» (حرتوا) السريانية الأصل، بمعنى «المخيم أو المعسكر»، وأنها تقابل «العسكر» عند المسلمين، و«حاصير» عند العبرانيين(١٠).

على أن هناك من يرى أن الحيرة الآرامية، والحير العربى، إنما هما من أصل سامي واحد، ذلك أن المخيم والمعسكر والحمى، إنما هى ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد(١١)، ويميل أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم إلى هذا الرأى، معتمدا فى ذلك على وصف «اليعقوبى» على خطط «سر من رأى» والحير الذى أقيم بها،

---

(٧) جواد على ١٦٠/٣. وكذا D.Talbot Rice, The Oxford Excavation at Hira, in ARS. Islamica I, Part I, p. 51.

(٨) ابن الأثير ٢٧٦/١ - ٢٧٧، تاريخ الطبرى ٥٦٦/١ - ٥٦٧، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٣٢، ياقوت ٣٢٩/٢ البكرى ٤٧٩/٢، جواد على ١٦٢/٣.

(٩) البكرى ٤٧٨/٢، ياقوت الحموى: معجم البلدان ٣٢٩/٢.

(١٠) ريجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٨٥.
وكذا A.Musil, Palmyrena, p. 289.
وكذا F.Altheim, Geschichte der Hunnen, I, 1959, p. 130.
G.Rothstien, Die Dynastie der Lakhmiden, iu ol Hira, Berlin, 1899, p. 12.
وكذا EI, II, p. 314.
وكذا ZDMG, 32, p. 753

(١١) يوسف رزق الله غنيمة: الحيرة المدينة والمملكة العربية ص ١١

وجعل حظيرة للوحش من الظباء والحمير الوحشي والأيابل والأرانب والأنعام(١٢).

وتقع الحيرة قريبا من مدينة بابل القديمة، وعلى مبعدة ٥ كيلا إلى الجنوب من الكوفة(١٣)، وفي نهاية طريق يحتاز شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فقد غدت بحكم موقعها الجغرافي هذا، مركزا هاما جدا للقوافل لم يسع الساسانيون إهماله، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلاسلة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم(١٤).

هذا وقد اشتهرت المدينة باسم «حيرة النعمان» عند المؤرخين العرب، و«الحيرة مدينة العرب» عند المؤرخين السريان،و «حيرته» في المجتمع الكنسي الذي عقد في عام ٤١٠ م، كما سميت كذلك باسم «حيرة النعمان التي في بلاد الفرس»(١٥) في تاريخ يوحنا الأفسوسي – من القرن السادس الميلادي – وأما «التلمود» فقد أطلق عليها إسم «حيرتا دى طيبة» أي «معسكر العرب وحيرة العرب»(١٦)، وقد أطنبت المؤلفات العربية في وصف هوائها النقي، وصفاء جوها، وعذوبة مائها، حتى قيل «يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة»، وقيل «إنها منزل برىء مرىء صحيح من الأدواء والأسقام» و«أن هواءها وترابها أصح من الكوفة»، ولعل كل هذه الأوصاف ربما كانت السبب في أن تقول العرب «لبيتة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربه»، بل أن حمزة الأصفهاني ليزعم أنه لم يمت بالحيرة بسبب هوائها النقي أحد من الملوك إلاقابوس بن المنذر(١٧).

(١٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣٢٠، كتاب البلدان ص ٢٦٣.

(13) P.K. Hitti, op.cit, p. 81.

(١٤) ريجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٥٨.

(١٥) جواد علي ١٥٦/٣.

كذا: ZDMG, 43, p. 388.

وكذا A.Musil, op.cit, p. 20

وكذا Johan of Ephesus, 10, 13, 352.

وكذا J.obermeyer, Die Landschaft Babylonien, p. 234.

وكذا F.Altheim and R.Stiehl, op-cit, p. 275, II, p. 225.

(١٦) جواد علي ١٥٦/٣ – ١٥٧.

(١٧) حمزة الأصفهاني: المرجع السابق ص ٧٥، البكري ٤٧٩/٢، الميداني ١٣٧/٢ – ١٣٩، جواد علي ١٥٨/٣.

هذا وقد وكان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربى يتحدثون بها فى حياتهم العادية، وأما فى الكتابة فقد كانوا يستعملون السريانية، ولعلهم فى هذا يشبهون الأنباط والتدمريين الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية، هذا وهناك من يذهب إلى أن دخول النصرانية إلى اليمن إنما كان بجهود رجال الكنيسة السورية فى الحيرة، فضلا عن انتقال الكتابة من الحيرة إلى الحجاز، وعلى أى حال، فقد أصبحت الحيرة فى القرن السادس الميلادى، وعلى أثر اتساع نفوذ سلالة اللخميين نقطة التقاء للتيارات الإيرانية والآرامية على حدود المحيط العربى الفاصلة، حتى لقد ظهرت المدينة بمظهر العاصمة الفكرية[١٩].

---

(١٨) أنظر: المزهر ٣٤٩/٢، صبح الأعشى ١٠/٣، مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩، الجهشياوى، كتاب الوزراء والكتاب ص ٢ ومابعدها، كتاب المصاحف للسجستانى ٤/١– ٥، الأعلاق النفسية لابن رسته ص ١٩٢، ٢١٧ (طبعة ليدن ١٨٩٢م) قارن: المعارف ص ٢٤٧ ومابعدها، ثم انظر:

F.Altheim and R.Stiehl, op,cit, I, p. 198.

P.K.Hitti, op.cit, p. 84.

(١٩) رجيس بلاشير: المرجع السابق ص ٦٢.

(٤) الحضـــر

الحضر: إمارة عربية، تقع فى وادى «الثرثار»[١]، على مبعدة ١١٥ جنوب غربى الموصل، وقد اشتهرت هذه الامارة العربية فى معظم كتب التاريخ، بأنها فرثية، وذلك لأن معظم قوتها، وصيتها الواسع، إنما عرف إبان حقبة التسلط الفرثى على العراق، أى على أيام «الفرس الفرثيين» (١٣٥ق.م - ٢٢٦م)[٢].

هذا وقد اختلف الباحثون فى أصل تسميتها، فذهب فريق إلى أنها من أصل أرامى، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب أصحابه إلى أنها من أصل عبرانى أرامى، وهناك وجه ثالث للنظر يذهب إلى أنها من أصل عربى، وأنها بمعنى «الحيرة» أى «المعسكر».

وأيا ماكان الأمر، فلقد عرفت «الحضر» فى الكتابات اليونانية باسم «أترا» (Atrai, Atra) وفى اللاتينية باسم «هترا» (Hatra)، بينما عرفت فى كتابات الحضر نفسها باسم «حطرا»[٣].

هذا وقد عثرت مديرية الآثار العراقية على نص (رقم ٧٩) جاء فيه إسم المدينة - ولأول مرة - باسم «حطرا»، على نحو ماينطق به فى الآرامية، كما وردت كذلك فى جملة «وبالخطوط العائدة إلى العرب»، وهى جملة ذات دلالة تشير إلى العرب، فضلا عن ورودهم فى هذه المنطقة، كما ذكرت فى النص أيضا «عربايا» (عربواو)، هذا وتسمية الاقليم باسم «عربايا» شأن كبير لأنه نسبة إلى العرب، وفى هذا الاقليم تقع مدينة الحضر[٤].

هذا وكانت الحضر من مدن الصحراء الشهيرة، ومن ثم فقد كانت، شأنها فى

---

(١) الثرثار: واد بين سنجار وتكريت، كان فى القديم منازل لبكر بن وائل ويمر بمدينة «الحضر» ثم يصب فى دجلة أسفل تكريت (تاريخ الطبرى ٥٠/٢).

(٢) مؤيد سعيد: العراق فى التاريخ ص. ٢٥٨.

(٣) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٠٩/٢.

وكذا، F.Althein and R. Rtihl, Die Araber in der Slten Welt, I , Berlin, 1964, p. 274 - 275, II, 1968, p. 225.

(٤) جواد على ٦١٠/٢ - ٦١١، وكذا: مجلة سومر: العدد ١٧ لعام ١٩٦١م ص ١٢، ١٥، ١٧، العدد ٢١ لعام ١٩٦٥ ص ٢٢.

ذلك شأن البتراء وتدمر، كما كانت قصتها - نموا واضطرادا، وتدهورا ودمارا - لاتختلف كثيرا عن قصص مدن الصحراء الأخريات، فلقد جهد سكانها كثيرا فى مقاومة السلطتين الرومية والفارسية، أمدا طويلا، ولكن الروم والفرس نجحوا آخر الأمر فى تدميرهذه المدن جميعا، الواحدة تلو الأخرى، وكان من نصيب الحضر أن يدمرها الفرس الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧م) فى عام ٢٤١م، بعد أن حاصرها «سابور» عاما كاملا، من نيسان ٢٤٠م إلى نيسان ٢٤١م.(٥)

هذا ويذهب «هرتسفلد» إلى أن القبائل العربية إنما هى التى أسست مدينة الحضر، إبان القرن الأول قبل الميلاد، حصنا منيعا، أقام سادتها فيه، مستغلين فرصة الخلاف الذى كان قائما بين الروم والفرس، بذكاء وحنكة، وقد حصلوا على أموال الفريقين المتنافسين، وذلك رغبة من كلا الفريقين فى أن يستغل موقع الحضر - الإقتصادى والسياسى والعسكرى - لمصلحته الخاصة.

وهكذا بدأت الحضر تنمو، وسرعان ما ازدادت المدينة توسعا وبهاء وعمرانا، حتى صارت مدينة كبيرة ذات شأن، سكنتها كذلك جاليات أجنبية، تولت الوساطة فى البيع والشراء، ونقل تجارة آسيا إلى تجار أوربا، وتجارة أوربا وحاصلاتها إلى تجار آسيا(٦).

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة إلى أنه قد عثر فى الحضر عام ١٩٤١م على كتابات أرامية، تؤكد وجهة النظر القائلة بأن من أسسوا المدينة إنما هم قبائل عربية، وذلك بسب ورود أسماء عربية - بجانب أسماء إيرانية وأرامية، بل أن نسبة الأسماء العربية هنا - فى الحضر - إنما تزيد كثيراً على نسبة الأسماء العربية فى الكتابات

---

(٥) مؤيد سعيد: العراق خلال عصور الاحتلال - كتاب العراق فى التاريخ ص ٢٥٨ (بغداد ١٩٨٣)، أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ ط السادسة - دمشق ص ٢١٩.

(6) E.Herzfeld, Hatra,in ZDM, 98, 1914, p. 663.

وكذا Die Araber, p. 275 - 276

وكذا U.Kalirstedt, Aratabanss, III , 67.

وكذا Th. Noldeke, Geschichte der Perser und Araber, 1878, p. 33

F.Altheim, Die Krise der Althen Welt, I, 1943, p. 132, 206

التدمرية، وقد كتبت بلغة أرامية، وكل ذلك إنما يدل على وجود جالية عربية فى الحضر[٧].

هذا وقد لقب رئيس معبد الحضر الكبير باسم «سادن العرب»، كما لقب ملوك الحضر أنفسهم بلقب «ملوك العرب»[٨].

بقيت الإشارة إلى أن اطلال مدينة الحضر، انما تتكون الآن من سور خارجي، وسور داخلى دائرى، به حوالى مائتى برج، وأربع بوابات، ويقع فى وسط المدينة حى المعابد، يحيط به سور كبير من الحجر المستطيل الشكل، ويضم فى داخله قرابة أحد عشر معبدا، لعل من أهمها معبد مبنى من الحجارة المتهدمة للاله «أشور بل»، وهو أحد المعابد التى شيدها كبير الكهنة «نصرومريا» الذى انحدرت منه الأسرة العربية، الحاكمة فى «الحضر» - على مبعدة ١١٥ كيلا جنوب غربى الموصل-.

هذا ويرجع تاريخ هذه الأبنية - والتى ماتزال اطلالها باقية، بما فى ذلك الأسوار والأبراج والقصور والمعابد - إلى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، وإلى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد.

وأما تاريخ تأسيس مدينة الحضر نفسها، فأغلب الظن- فيما يرجح الباحثون - أنها كانت قرية - وربما مدينة صغيرة - لسكنى عرب البادية فى الفترة فيما بين أخريات أيام الأشوريين[٩]، وحتى أخريات العصر الفرثى (١٣٥ ق.م - ٢٢٦م)[١٠].

---

(٧) جواد على ٢/٦١٠ وكذا F.Altheim and R. Stiehl, op.cit, p. 276.

(٨) محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ص ٤٩٨، فيليب حتى المرجع السابق ص ٨١.

(٩) أنظر نهاية الامبراطورية الآشورية، وسقوط آخر معاقلها فى عام ٦٠٩ ق.م، على يد «سوخذ نصر» البابلى (محمد بيومى مهران: العراق القديم ص ٤١٩ - ٤٣٢- الإسكندرية ١٩٩٠)
وكذا M.Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 273 - 274
وكذا C.J. Gadd, The Fall of Nineveh, London, 1923.

(١٠) أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ - دميشق ص ٢٩٧ - ٢٩٨، مجلة سومر، العدد ٢٦ لعام ١٩٨٠ ص ٢١٠ ومابعدها

(٥) الرهـــا

الرها: هى إديسا عند الروم – أورفا الحالية، إسم لمدينة وإمارة عربية، تقع على مبعدة ٣٢ كيلا شمالى حران (حاران)، فى جنوب شرق تركيا، قريبا من الحدود السورية، ومازال معارفنا عنها من ناحية صلتها بالعرب ضئيلة، وقد ازدهرت قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وقد ظهرت حينئذ عدة مدن فى تلك المنطقة، مثل «تبنى» و«نصيبين» و«سنجار» (سنجارا – Singara)[١].

هذا وقـد أدخل «بلينى» الأكـبـر (٢٣/٢٤ – ٧٩م) الرها – فـضـلا عن «كاليرهو» Callirhoe فى جملة المدن العربية، هذا وقد عرفت الرها فى السريانية باسم «أورهة» (Orrhae - Orhai)[٢].

وهى فى تاريخ بلينى الأكـبـر (Orroei)، من جـمـلة الأرضين الداخلة فى العـربيـة، ثم هى من المدن التى جـددها «سلوقس الأول» (ت ٢٨٠ ق.م)، وقـد عـرفت كـذلك باسم «أنطوخـيـة» نـسـبـة إلى «أنطيـوخس الرابع» (١٧٥–١٦٣ق.م)[٣].

هذا وقد قامت فى القرن قبل الميلاد فى هذه المقاطعة (مقاطعة Orroei - Os-rhoene) امارة أو مملكة صغيرة، اعتبر الكتاب اليونان والرومان ملوكها من العرب، كما عدوا سكانها من العرب أيضا

ويذهب «بروكوبيوس» – المؤرخ البيزنطى، المتوفى حوالى عام ٥٦٢م – إلى أن هذه المقاطعة، إنما دعيت (Osroes) نسبة إلى ملك يُدعى Oseroes، كان يحكم هذه الأرض فى الأيام الغابرة، وكان حليفا للفرس[٤].

---

(١) جواد على ٢/ ٦١٩، مجلة سومر: المجلد الثامن، ١/ ٣٨ لعام ١٩٥٢م.

(٢) المشرق – السنة ١٥ – ٣/ ٢٠١ وما بعدها (عام ١٩٥٢)، وكذا·
Ency., III, p. 993.

(٣) جواد على ٢/ ٦١٩، وكذا:
Pliny, V, XX, 85, VI, 25, 129, VI, IX, 25, II, p. 285, 355, 437.
وكذا: Ency, III, p. 993, Hill, p. XGIV.

(4) M. Rostovzeff, The Social and Economic History of The Hellenistic World, Oxford, 1941, II, p. 842.

وقد عثر في «حولية الرها» (Edessenc Chronicle) – والمؤرخة بحوالي عام ٥٤٠م – وكذا في حولية أخرى ترجع إلى عام ٧٧٥م، وعلى نقود ضربت في الرها – عثر على أسماء ملوك الرها مرتبة زمنيا، وتشير دراسة أسمائهم إلى أن من بينها أسماء «عربية نبطية» مثل «معنو» (معن) و«بكرو» (بكر)، و«عبدو» (عبد)، و«سهروا» أو «سحرو»، أي «سهر» أو «سحر» وغيرهم[٥].

هذا ويذهب العلماء إلى أن سكان الرها وحكامها، إنما كانوا عرباً، إعتماداً على عدة أمور، منها (أولاً) أن أسماء ملوك الرها – ولاسيما الملوك الأولين منهم – أسماء عربية، ومنها (ثانياً) نص «بليني» على أن كورة Osrboene إنما هي كورة عربية، ومنها (ثالثاً) أن الوضع السياسي العام في «ميزوبوتاميا» (Mesopotamia)في القرن الثاني قبل الميلاد، وفيما بعده، إنما يشير إلى أن القبائل العربية قد توغلت في هذه المنطقة[٦].

ولعل من الجدير بالإشارة أن الاخباريين إنما ينسبون بناء الرها إلى رجل دعوة: «الرهاء بن البلندى بن مالك بن دعر» أو إلى «الرهاء بن سبند بن مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم»[٧].

ويروى «ياقوت الحموى» – عن يحيى بن جرير النصراني – أن اسم الرها في الرومية «أذاسا» وقد بنيت المدينة في السنة السادسة من موت الإسكندر، بناها الملك «سلوقس»[٨]، وأن المسلمين قد انتزعوها من أيدى الروم في عام ٦٣٩م[٩].

وأما معبودات الرها، فهما: عزيزوس (Azizus = Azizos) و «مونيموس» (Monimos)، وهما معبودان عربيان، الأول اسمه «عزيز» والآخر «منعم»، وقد وردا في الكتابات اليونانية التي عثر عليها في «الكورة العربية» (Provinica Arabia) –

---

(5) Procopius, I, XVII, 24.

(٦) رينيه ديسو: العرب في سورية قبل الإسلام، ص ١١.

(٧) جواد علي ٢/ ٦٢٠، وكذا:

F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, p. 312.

(٨) ياقوت ٤/ ٣٤٠، البكر ١/ ٤٢٥، الاصطخرى: كتاب المسالك والممالك، ص ٧٦ (ط ليدن ١٩٢٧)، ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص ١٥٤ (بيروت ١٩٦٣).

(٩) معجم البلدان ٤/ ٣٤٠.

وإن إضافهما بعض الكتاب إلى السريان الوثنيين، وعلى أية حال، فهناك كذلك المعبودات «بعل» و «نبو»[١٠].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أهمية الرها فى الأدب السريانى، ذلك أن اللغة السريانية نفسها، إنما هى لهجة أرامية، نشأت فى إقليم الرها، وقد بدأت لغة الرها الأرامية هذه تسمى «السريانية» بعد انتشار المسيحية - تمييزاً لها عن الأراميات الوثنية أو اليهودية - لاسيما أن لفظ «أرامى» كان قد اتخذ فى أذهان العامة من القوم فى هذا الإقليم مدلولاً يشبه لفظ «جاهلى» عند المسلمين - أى أنه ما يزال لايؤمن، وإنما يعبد الأصنام -[١١].

هذا ومن المعروف أن مملكة أو إمارة الرها (١٣٢ ق.م - ٢١٦م)، إنما قامت فى عام ١٣٢ قبل الميلاد، على يد الملك «أريو» (١٧٣٢ - ١٢٧ ق.م) - بمعنى الأسد - ثم جاء من بعده فى الفترة (١٢٧ - ٦٩ ق. م) ستة ملوك هم (عبدو بن مزعور - إيرادشت - بكرو الثانى - أبجر الأول - معنو، ثم أبجر الأول - مرة ثانية) وحكم فى الفترة (٦٨ ق.م - ٢١٦ م) ١٧ ملكاً.

(10) Ency., III, p. 996.

(١١) جواد على ٢/ ٦٢١، وكذا:

Hill, op. cit., p. XGV

Mordtmann, Mythologische Miscellen, in ZDMG, 32, 1978, p. 664.

٦- إمارة حمص

يشبه تاريخ «حمص» (Emesa = Homesa = Hemesa) – من بعض الوجوه – تاريخ مدينة تدمر، فقد حكمتها أسرة عربية، كما ازدهر تاريخها في الحقبة التي ازدهرت فيها حكومات المدن الأخرى، التي ظهرت على أثر الضعف الذي حل بالسلوقيين.

وتقع حمص في السهل الخصب الذي يرويه نهر العاصي (الأورنت = Or-notes)، وعلى مبعدة ميل منه، هذا وقد عرفت حمص عند اليونان والرومان باسم "Emesa"، وفي أيام «بومبي» (١٠٦ – ٤٨ ق. م) كانت مدينة «الرستن» (Arethusa) – وتقع على نهر الميماس (العاصي حاليا) في مجاورات حمص – كانت مقر أسرة عربية حاكمة[١]، وفي هذه المدينة ولد القيصر «الأجابالوس» (Elagabalus) (٢١٨ – ٢٢٢م).

هذا وقد بلغت حمص أوج ازدهارها على أيام «سبتميوس سيفيروس» (١٩٣ – ٢١١م) وفي أيام «الأجابالوس» (٢١٨ – ٢٢٢م) و «سيفيروس الإسكندر» (٢٢٢ – ٢٣٥م)[٢]، كما كانت أسقفية على أيام البيزنطيين[٣].

هذا ويذهب العلماء إلى أن ملوك حمص إنما ينتمون إلى أصول عربية، وذلك اعتماداً على أن الأسماء إنما تحمل طابعاً عربياً خالصاً، وهي أسماء إنما ترد في نصوص صفوية، وفي نصوص عربية أخرى، مما يدل على عروبة ملوك حمص[٤].

---

(١) جواد على ٢/ ٦٢٢، ياقوت: معجم البلدان ٤/ ٢٤٩، وكذا:

Ency., II, p. 309.

(٢) اعتمدنا في التاريخ للأباطرة على (ادوارد جيبون. اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد على أبو ريدة، القاهرة ١٩٦٩، الجزء الأول، ص ٦٦٧ – ٦٧٤).

(٣) جواد على ٢/ ٦٢٢.

(٤) رينيه ديسو: العرب في سوريا قبل الإسلام، ص ١١، وكذا

R. Dussaud, Les Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1907, p. 10.

وكذا:

F. Althcim and R. Stiehl, op. cit., III, 1968, p. 126.

٨- مديـــــن

كان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم «مدين»، وهى قرية من أرض معان من أطرف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط، وكانت أرض مدين تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء، ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المدينيين إنما تقع إلى الشرق من العبـرانيين، والظاهر أنهم توغلوا فى المناطق الجنوبية لفلسطين، وسرعان ما اتخذوا لهم هناك مواطن جديدة، عاشوا فيها أمدا طويلا، حيث يرد ذكرهم فى الأخبار المتأخرة.

هذا وقد ذكر بطليموس الجغرافى موضعا يقال له «موديا» (modiana) على ساحل البحر الأحمر يرى العلماء أنه موضع «مدين»، وهو يتفق وحدود أرض مدين فى الكتب العربية، ويذهب المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» (٣٧ -٩٨ أو ١٠٠م) أن موسى عليه السلام، قد فر إلى المدينة (modiana) المواجهة للبحر الأحمر، وهذا كله إنما يشير إلى أن مدينة «مدين» إنما كانت معروفة بصفة عامة فى أوائل التاريخ المسيحى.

هذا ويذكر «يوسبيوس» (٢٦٤ - ٣٤٩م) مدينة «مديم» (madiam) ويقول إنها سميت باسم أحد أولاد ابراهيم عليه السلام، من زوجته قطورة ، وهى تقع وراء المقاطعة العربية (Arabia) فى الجنوب،فى بادية العرب الرحل (Sardcems) إلى الشرق من البحر الأحمر، وهكذا فإن «يوسبيوس» - وكذا «سلن جيروم» (٣٤٥ - ٤٢٠م) - إنما يضعان مدينة «مدين» فيما وراء حدود المقاطعة العربية التى كانت حدودها الثابتة من ناحية الجنوب تطابق تماماً الحدود الشمالية لبلاد العرب السعيدة، عند السفح الجنوبى لجبل الشراة.

ويذهب «ألويس موسل» إلى أن أرض مدين يجب أن تكون إلى الشرق والجنوب الشرقى من موقع مدينة العقبة الحالية، المعروفة قديما باسم «إيلات»، فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجارى، وكانت تحرس هذه الطرق حاميات من أهل الجنوب من بلاد العرب، وكان المركز الرئيسى لهذه الحاميات فى العلا (ديدان) وفى معان (معون)[1].

---

(١) محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢٩٧/١ -٣٠١ (بيروت ١٩٨٨)، ألويس موسل: شمال الحجاز ترجمة عبد المحسن الحسينى - الاسكندرية ١٩٥٢ ص ٦٩ - ٨٤،
ptolemy, Geography, II, 7,27وكذا Josephus, Archaeologia, II, 257
Encyclopadia of Islam III, p.104 .
A. musil, the Noithern of Hegas, n.y,1926, P.287.

الباب الثاني

العـــراق القديـــم

الفصل الأول
المدن والمراكز الأثرية فيما قبل العصر التاريخى

تقديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العراق القديم (ميزوبوتاميا[1]) إنما قد مرَّ - شأنه فى ذلك شأن غيره من بلاد الشرق الأدنى القديم - بالعصور الحجرية المختلفة، فهناك العصر: الحجرى القديم، وأشهر مواقعه: بردة بالكه: على مبعدة $\frac{1}{2}$ ٢ كيلا شمال شرق جمجمال، فضلاً عن «كهف هزارمرد» على مقربة من السليمانية، و «كهف شايندر» جنوب غرب بحيرة أرومية.

وهناك العصر الحجرى الوسيط، وأهم مواقعه: «كهف شايندر» (طB)، وقرية «زاوى سمن» على مبعدة ٤ كيلا من كهف شايندر، وهناك «كريم شاهر» على مقربة من «كركوك (أرابخا القديمة) و «ملفعات» فيما بين الموصل وأربيل، ثم موقع «جرد شاى».

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قرية «زاوى سمن» رغم أنها تمثل استقراراً، بل إنها إنما تعد من أقدم مناطق الإستقرار فى العراق القديم، وتؤرخ بحوالى الألف التاسعة قبل الميلاد، ويشير إنتاجها الحضارى إلى الإتجاه نحو الزراعة والإستقرار، وهى أهم سمات العصر الحجرى الأوسط، ومن ثم فهى تمثل هذا

(١) ميزوبوتاميا: (mesopotamia) لفظ إغريقى ترجمه المؤرخون العرب بمعنى «بلاد ما بين النهرين» أو «بين النهرين»، ورغم دقة الترجمة، فإنها قاصرة غير شاملة، ذلك لأن حضارة العراق القديم لم تكن مقصورة على ما بين النهرين، وإنما امتدت إلى ما حول النهرين أيضاً، بل إن طائفة من أقدم المواقع الأثرية كالعبيد، وأريدو، وأور، ومارى، قامت غرب الفرات، وليس فيما بينه وبين دجلة، كما قامت إشنونا وتل أسمر ونوزى شرق الدجلة، وقد فطن الأغارقة أنفسهم إلى قصور لفظ «ميزوبوتاميا» فأضاف إليه بعض «بارابوتاميا» (Parapotamia)، أى ما وراء النهرين وما حولهما، وهنا يحسن القول «بلاد النهرين»، هذا إلى أن تعبير «بلاد الرافدين» أو «حضارة الرافدين» لايؤدى المعنى كاملاً ذلك لأن روافد النهر إنما تختلف عن تعبير النهر ذاته، كما هو معروف (عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - مصر والعراق - القاهرة، ص ٣٧١).

العصر. وأما بقية مواقع هذا العصر فقد تميز بالمناجل الحادة المصنوعة من الظران، مما يرجح استخدامها في زراعة برية، هذا ويؤرخ موقع «ملفعات» بنهاية الألف السادسة قبل الميلاد، وقد كشف فيها عن بقايا حيطان حجرية غير منتظمة الشكل لمساكن بيضاوية[1].

وأما العصر الحجرى الحديث وأهم مواقعه:

أولاً: فى شمال العراق:

(١) تل الصوان: ويقع على الضفة الشرقية للدجلة، قريباً من سامراء، وعلى مبعدة ١١٠ كيلا شمالى بغداد، وقد كشفت الحفريات فى أسفل مبانى الطبقة (أ) عن جبانة ضخمة تضم أكثر من ١٣٠ قبراً، حفرت أسفل أرضيات الحجرات فوق الأرض البكر مباشرة، وزودت جميعها تقريباً بالكثير من الآنية المرمرية المتعددة الأشكال والأحجام من الجرار والأكواب والأطباق، فضلاً عن مجموعة كبيرة من التماثيل الصغيرة الجيدة الصنع، والتى فى معظمها لآلهة الأمومة التى تمثل هنا غالباً واقفة.

هذا وقد تميز موقع تل الصوان بالعثور على بعض القطع النحاسية الصغيرة، وإن لم تكن إنتاجاً محلياً، كما تشير مبانى تل الصوان إلى تقدم ملحوظ فى تشييد المبانى، فقد شيدت من قطع الآجر الكبيرة المستطيلة الشكل وطليت الجدران من الداخل باللبن، ودفن القوم موتاهم أسفل أرضيات المنازل، كما عملوا على

---

(1) J. mellaart, Earliest Civilizations of the East, London, 1974 P. 19 - 21.

J. mellaart, in CAH, I, Part, I, Cambridge, 1970, P. 254 - 256.

R. S. Solecki, in Sumer, 8, 1952, P. 127 - 130, 137, 9, 1953, P. 230 - 231, 13, 1957, P. 59 - 60, 14, 1958, P. 106 - 107.

وانظر: محمد بيومى مهران: مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء العاشر، تاريخ العراق القديم، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ٥ – ٨.

تحصين الموقع، وذلك بحفرة ذات أضلاع ثلاثيـة، شيد بداخلها حائـط ضخـم مـزود بركـائز، وهي مثـال فـريد للتحـصين في بلاد النهـرين في هذا التاريـخ المبكر[1].

(٢) تل حسونة: يقع تل حسـونة على مبعدة ٣٥ كيلا جنوبى الموصل، ٨ كيـلا شرقى قرية الشـورة، وهو موقع صـغيـر (٢٠٠ × ١٥٠ متـراً) ويرتفع عن السـهل المجاور بنحو سبعة أمتار، ويعد أقدم المواقع الحضـارية فى صـميم السـهل الميزوبوتامى، ويعبر عن انتقـال مركز الثقل الحضارى من المنطقة الشرقية، وقد كشف في تل حسونة عن ١٧ طبقة أثرية، أقدمها تلك التى تعلو الأرض البكر مباشرة، وتمثل حضـارة حسونة، وأما أحدثها فهو الطبقة (XV) من عصر حضارة العبيد، وعلى أية حال فتل حسونة إنما يمثل قرية مستقرة فى العصر الحجرى الحديث، وإن لم يعثر فيها على أى معدن، ولكنهم توصلوا إلى الزراعة، وخاصة القمح، كما استأنسوا بعض الحيوانات كالأغنام والماعز والخنازير، وبنو مسـاكنهم من الطمى، وتمثل الطبقة الرابعة معالم واضحة للأقسام التى يتكون منها المنزل، والذى يتكون غالباً من بعض الحجرات التى كانت تتجمع حول أو إلى جانب فناء مكشوف يقع فيه غالباً فرن وجرار لتخزين الطعام وصوامع الغلال.

وقد دفن القـوم موتاهم أسـفل أرضيـات المنازل، وقد عـثر بين موقدين من المرحلة الأولى فى الطبقـة (Ia) على هيكل عظمى لإنسـان، وبجواره جرة كبيرة، ربما احتوت طعامه أو شرابه، كما وجد قرب رأسه فأسان من الظران، الأمر الذى قد يشير إلى اعتقاد المقوم فى حياة أخرى[2].

---

(١) محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٦ - ١٩، وانظ

Sumer, 21, 1965, P. 18 - 21, 24, 1968, p. 58, 26, 1970, Pigs, 39 - 42, 27, 1971, P. 5, 28, 29, 1973, P. 6 - 9.

(٢) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ١٤ - ٢٠، طه باقر: مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ١/ ٦٠ (بغداد ١٩٥٥).

S. Lioyd and F. Safar, Tell-Hassuna, JNES, 4, 1945, P. 272 - 286.

(٣) تل حلف: ويقع فى مرتفع يطل على نهر الخابور، قرب قرية رأس العين، على مقربة من الحدود السورية التركية، وعلى مبعدة ١٤٠ كيلا شمال غربى نينوى، ويتميز بتوصله إلى استخدام النحاس، حوالى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد، وتشغل حضارة حلف الفترة من أخريات الألف السادسة، وحتى أخريات الألف الخامسة قبل الميلاد، وقد انتشرت هذه الحضارة فى الشمال خاصة، وفى مساحات واسعة تمتد من الزاب الأعلى وسفوح جبال زاجروس شرقاً، إلى ما وراء الفرات غرباً، وإلى الحدود التركية وسفوح جبال طوروس شمال، وامتدت جنوبا، وجنوب شرق إلى سامراء، وإلى تل الصوان وإقليم مندلى. وتتميز حضارة حلف باستخدام النحاس، ومظاهر حضارية جديدة فى العمارة والفخار والنحت على الحجر، وكانوا يدفنون موتاهم فى أرضية المساكن، حيث يرقد الميت على جنبه الأيمن، وفى وضع مقرفص، بينما تتجه رأسه نحو الغرب، كما احتوت مقابرهم على بعض أمتعة المتوفى الشخصية، كالآنية الحجرية والأوانى الفخارية والأكواب وحبات العقود المرمرية وغيرها[١].

(٤) جرمو: تقع جرمو على مبعدة ٣٥ كيلا شرقى كركوك، على حافة وادٍ عميق فى سهل جمجمال فى لواء كركوك (فوق وادى طوق جاى، أحد روافد دجلة)، أى خارج السهل الميزوبوتامى شرقاً، وتبلغ مساحة قرية جرمو، ما بين ثلاثة وأربعة أفدنة، وقد كشف فيها عن ١٦ طبقة أثرية متتالية، يؤرخ أقدمها بحوالى عام ٦٧٥٠ ق. م، وإن ذهب «كول» إلى أنها ترجع إلى ما بين ٧٠٠٠، ٦٠٠٠ ق. م، وتضم ما بين ٢٠، ٢٥ منزلاً، ويقدر سكانها بحوالى ١٥٠ فرداً، وإن قدرها «طه باقر» بحوالى ٥٠٠ بيتاً، تضم حوالى ٣٠٠ فرداً.

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٢٠ - ٢٣، وكذا:

J. Mellaart, op.cit., P. 276 - 278.

وكذا:

Sumer, 22, 1966, P. 56, 25, 1969, P. 134, 27, 1971, P. 20 - 31, 29, 1973, P. 10 - 14

وكذا:

A. parrot, Sumer, London, 1960, P. 43F.

وقد ذهب البعض إلى أن «جرمو» إنما تمثل أقدم قرية زراعية فى العراق القديم، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن «تل حسونة» تمثل أول موقع زراعى، وأن «جرمو» لاتعدو أن تكون مجرد قرية متخلفة، ترجع إلى أخريات العصور الحجرية أو ما بعدها، وعلى أية حال، فلقد كشفت الحفريات عن معرفتها للزراعة والاستقرار، واستئناس الماعز والكلاب، وربما الأغنام والخنازير، وقد بنى القوم مساكنهم من كتل طينية أقيمت فى بعض الأحايين على أسس من حجر، وكان المنزل يتكون من عدد من الحجرات الصغيرة، عثر فيها على مواقد، احتوى كثير منها على بعض الأوانى، وعلى أنواع من الرحى البسيطة قوامها حجران بسيطان، وأطباق فخارية استعملت لفرك الحبوب، وأحياناً للعجن، فضلاً عن المحاريث البسيطة، والمناجل المكونة من أسنان الصوّان، والأدوات الصوانية، كما عرف القوم الغزل والحياكة، كما تشير إلى ذلك أقراص المغازل الفخارية.

وقد شاع فى جرمو استخدام الأسلحة القزمية، التى صنع بعضها من حجر الأوبسيديون (الزجاج البركانى)، كما تزيّن القوم بالأساور والأقراص المثقوبة والخواتم، كما نسب إليهم صناعة تماثيل طينية بدائية لحيوانات ورجال ونساء جالسات ذوات أرداف غلاظ، فضلاً عن تماثيل صغيرة لآلهة الأمومة، كما كشفت الحفريات على ما يشبه عضو الذكر، مما دفع إلى الظن بقيام لون من عبادة الجنس والرمز للخصوبة، فضلاً عن وجود لون من ألوان التفكير الدينى نشأ بقيام عبادة الشمس التى قدست على هيئة معبودة[١].

(٥) سامراء: تقع سامراء على الضفة اليسرى لنهر الدجلة، وعلى مبعدة ١٠٠ كيلا شمالى بغداد، وقد عثر بها على الفخار المزين بالأشكال الحيوانية

---

(١) محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ١١ - ١٤، رشيد الناضورى: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ١/ ١٣١ - ١٣٢، وكذا:

P. Mortensen, in Sumer, 18, 1962, P. 74 - 76.

وكذا: J. Mellaart, op. cit., P. 257 - 259.

وكذا: S. Cole, The Neolthic Revolution, London, 1961, P. 48

والخطوط المتموجة، وقد أطلق عليه «فخار سامراء»، والذى كان يظن أنه يمثل عصراً حضارياً مستقلاً، غير أنه الآن إنما يعتبر ضمن عصر حضارة حسونة.

بقيت الإشارة إلى أنه قد بنى الخليفة العباسى «المعتصم» (٢١٨ - ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ ٨٤٢م) عاصمته «سامرا» فى نفس الموقع فى عام ٢٢١هـ، ثم انتقل إليها من بغداد، بجيشه وكبار رجال دولته، ثم ظل الخلفاء العباسيون يقيمون فى سامرا، حتى نهاية عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) ثم عادوا بعد ذلك إلى بغداد، وحتى نهاية الدولة العباسية فى عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م[١].

ثانياً: فى جنوب العراق:

(١) أريدو: تقع «أريدو» (أبو شهرين الحالية) فى أقصى جنوب السهل الميزوبوتامى، وعلى مبعدة ٢٥ كيلا جنوب غرب مدينة أور، وعلى مبعدة ٢٤٠ كيلا شمال الخليج العربى، وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن أريدو إنما هى أول المدن الخمس قبل الطوفان، وأول مقر للملكية، كما أن هناك من يرجح أنها كانت ميناء على إحدى البحيرات الواسعة، وكان لها اتصال بالخليج العربى عن طريق عدد من البحيرات، ومن ثم فقد احترف أهلها الصيد، وقدموه كقربان للمعبد، كما أن كثيراً من مساكنها إنما كانت أكواخاً من بوص، كما كان بعضها من آجر، وأما المبانى الدينية فكانت بقايا - كما فى أول الطبقات - أربعة حيطان من آجر، شيدت فوق كثيب من رمل، لعله أول تعبير عن المنصة المرتفعة التى يعلوها المعبد (الزاقورة)، والتى سوف تصبح مظهر العبادة فى العراق القديم منذ أيام العبيد وما بعدها.

وأما فخارها فينتمى إلى عصور أربع حضارات (أريدو - الحاج محمد -

---

(١) صالح أحمد العلى: العراق فى التاريخ ص ٣٨٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٢/ ٣٨٠ - ٣٨٢ (القاهرة ١٩٦٤)، محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ١٨، وكذا:
S. Lioyd and F. Safar, op. cit., P. 262 - 266 278 - 286.

العبيد – الوركاء)، وأن أشكاله السائدة إنما هى الأكواب والسلاطين، وأحياناً الأطباق الكبيرة، وقد تعددت ألوانها وزينت بتصميمات هندسية تكثر فيها الخطوط المستقيمة والمتعرجة والمثلثات والنقط، بينما يندر وجود الأشكال الطبيعية الحية(١).

(٢) الوركاء: (أوروك)، وتقع فى منطقة صحراوية شرقى الفرات، فى منتصف المسافة بين بغداد والبصرة تقريباً، وعلى مقربة من المدينة العربية «السماوة» (٦٠ كيلا) ومبعدة ١٢٨ كيلا شمال غربى أور، واسمها فى الأكادية «أوروك»، وفى التوراة التى نسبت بناءها إلى «نمرود» دعيت «أرك»، وقد نسبت إليها حضارة انتشرت فى عدة مواقع أثرية فى جنوب العراق مثل أريدو ولجش وتل العقير (٨٠ كيلا جنوبى بغداد، كما انتشرت فى مراحلها المبكرة فى شمال العراق فى ثبة جاورا، ونينوى، وتل جراى رش بمنطقة سنجار، وهى على أية حال، الحضارة التالية لحضارة العبيد فى العراق القديم، وتعتبر ملحمة جلجاميش الوركاء الموطن الأصلى لجلجاميش، وهو أحد ملوك أسرة الوركاء الأولى.

هذا ويعدّ الفخار أهم إنتاج الوركاء المبكر، وهو من أنواع مختلفة شكلاً ولوناً، كما تميزت هذه المرحلة المبكرة بإنتاج عدد أوفر من الأدوات النحاسية فى جنوب العراق، على أن القسم الشمالى من حضارة الوركاء إنما قد تفوق بدرجة كبيرة فى إنتاج المصنوعات المعدنية التى لم تقتصر على النحاس، وإنما تضمنت أيضاً الذهب والأحجار الكريمة وشبه الكريمة وغيرها، والتى استخدمت فى أدوات الزينة، كما يرجع إلى تلك المرحلة أقدم ما عثر عليه من طبقات طينية لأختام الطبع فى الجنوب، وإن لم تعبر عن أى مدلول كتابى.

وفى المرحلة الثانية من حضارة الوركاء بدأ التوصل إلى بداية التعبير الكتابى،

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٢٨ – ٢٩، وكذا:
S. N. Kramer, The Delyge , in ANET, 1966, p. 43.
وكذا: M.Mallowan, CAH, I, Part, I, Cambridge, 1971, P. 331 - 341.
A. Parrot, op. cit., p. 52. وكذا: A. Jowad, in Sumer, 30, 1974, p. 31 - 33.

الذى انفرد بتقديمه جنوب العراق، مما أدى بالتالى إلى بداية العصر التاريخى، كما شهدت هذه المرحلة تطورات هامة فى مجال العمارة الدينية، التى تميزت بالمعابد الضخمة، التى أقيمت فوق مساطب صناعية من عدة طبقات هى أصل «الزاقورات».

هذا وقد بدأ المجتمع الزراعى منذ أواخر عصر الوركاء (أو منذ بواكير العصر الكتابى الجديد) يصبغ بصبغة مدنية، فنشأت البلدان أو المدن الصغيرة، التى تطورت عن القرى الكبيرة، وامتازت عما يحيط بها من أرضين زراعية، وقرى عادية، باتساع عمرانها اتساعاً نسبياً، وبأهمية معبدها، وقصور حكامها، وكفاية صناعها وفنانيها، وباتساع مجالات الإنتاج وفرص التشجيع فيها، وإن ظل ذلك كله فى حدود نسبية[1].

(٣) جمدة نصر: وتقع على مقربة من «كيش»، بين بابل وبغداد، حيث عثر على نماذج لحضارة جمدة نصر فى الوركاء والعقير وتل أسمر وأور وشورباك وتل العبيد وتوبلياس، وتتميز بتطور فن البناء والنحت والكتابة، فضلاً عن أن الشطر الثانى منها إنما هو أقرب إلى العصر التاريخى منه إلى عهد ما قبل الأسرات، كما أن العمارة الدينية إنما تتمثل فى «المعبد الأبيض» الذى أقيم للمعبود «آن» (آنو) إله السماء، فوق تل صناعى يرتفع نحو ١٢ متراً عن مُستوى السهل الممتد حوله.

هذا ويتميز فخار جمدة نصر بأنه مصنوع على عجلة الفخار، وهو جيد الإحراق والصقل، ومن أحجام مختلفة، كما قدم عصر جمدة نصر كثيراً من نماذج النحت على الحجر، مثل «الإناء النذرى» و «صلاية الأسود»، وهى من حجر الجرانيت الأسود، كما تميزت حضارة جمدة نصر بازدياد مجالات الصلات

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق،ص ٣٨ – ٤٣، وكذا:

S. Lioyd, in Sumer, 4, 1948, P. 44 - 49.

وكذا:

A. M. Mallowan, وكذا: B. Abu - AL-Soof, in Sumer, 29, 1973. op. cit., p. 355 - 361.

الخارجية، والتى امتدت حتى مصر وبلاد السند، والتى بدأت مع مصر منذ عصر التأسيس وأثنائه، وقد أشار كثير من الباحثين إلى هذه الصلات، اعتماداً على مجموعة الأوانى الفخارية ذات الصنابير المائلة، وكذا ذات الآذان المثلثة فى المستجدة والبدارى - بمحافظة أسيوط - هذا فضلاً عن الأختام الإسطوانية الأربعة التى عثر عليها فى «جرزة» بمحافظة الجيزة، وفى نجع الدير بمحافظة سوهاج، والتى تنتمى إلى حضارة الوركاء وجمدة نصر فى العراق القديم[1].

(٤) سيبار: وهى أبوحبة الحالية، على مقربة من الفرات، وعلى مبعدة ٣٢ كيلا جنوب غربى بغداد، وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن «سيبار» كانت واحدة من المدن الخمس فيما قبل الطوفان، هذا وكانت «سيبار» فى أكد، مع «لارسا» فى سومر، المركزين الأساسيين لعبادة إله الشمس (وهو «أتو» فى السومرية، وشمش فى الأكدية) وزوجه «إيا» منذ أقدم العصور، وهناك من يرجح - بسبب صورة إله الشمس التى تعلو المسلة التى نقشت عليها شريعة حمورابى - أن هذه النسخة إنما هى نسخة مدينة سيبار (سبر)، وهو المكان المفضل عند حمورابى، والتى ربما كان يقيم بها[2].

(٥) **الحاج محمد**: وتقع على ضفاف الفرات، على مبعدة ١٨ كيلا جنوب غرب الوركاء، وتتميز حضارة الحاج محمد بأدواتها الفخارية العميقة ذات الجوانب المقوسة، وقد زينت بخطوط مائلة ومتعرجة ومربعة وتمثل تطوراً لفخار حضارة أريدو، وقد لوّن بنفس ألوانه، وإن تأثر بفخار حلف أكثر من فخار أريدو، كما يبدو واضحاً فى أوانى «رأس العمياء»[3].

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٩، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٧٩ - ٣٨٢، وكذا: H. Frankfort, in CAH, Part, 2, p. 81 - 88, 101.
وكذا: I. E. S. Edwards, CAH, I, Part, 2, p. 42 - 42. وكذا:
H. Kantor, in JNES, Xi, p. 239 F.

(٢) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ١٠٠ - ١٠١، ٢٣٩، وكذا:
S. N. Kramer, The Sumerians, 1970, p. 328 - 331.

(3) M. Mallowan, op. cit., p. 341 - 342, 366 - 36/.

(٦) **العبيد:** وتقع على مبعدة بضعة كيلو مترات إلى الغرب من الناصرة، ٦ كيلا من أور، وتتميز حضارة العبيد بانتشارها في جنوب العراق وشماله، وهي أول حضارة تنتشر في الشمال والجنوب - رغم كونها جنوبية الأصل - وقد ظهر إنتاجها في كثير من المجالات، مثل صناعة الأواني الفخارية الملونة والمزينة.

هذا وقد كشف في شمال الجزيرة شرق العربية عن أكثر من ثلاثين موقعاً ينتمي إلى حضارة العبيد، مما جعل البعض يفترض وجود علاقة بين سكان شرق شبه الجزيرة العربية وسكان جنوب العراق، وأن مجموعات بشرية قد هاجرت من شرق بلاد العرب إلى السهل الفيضي القريب منهم، هذا إلى أن الفترة التي بدأت تتكون فيها المدن في العراق، قد توافقت زمنياً مع اختفاء حضارة العبيد في الجزيرة العربية، مما يحمل على الظن بأن هجرة كبيرة نزحت إلى العراق في نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، وهذا يتفق مع ما افترضه العلماء من أن تدفق السكان على سهول العراق إنما كان حاسماً في قيام المراكز المدنية هناك[1].

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣٨، وكذا:

A. H. Masry, Prehistory in Northeastern Aralia, Miami, 1974, p. 1 - 20.

M. Mallowan, op. cit., p. 335 - وكذا: A. Parrot, op. cit., p. 54 وكذا 337, 352, 398.

الفصل الثانى
المدن والمراكز الأثرية منذ العصر السومرى وحتى قيام الدولة البابلية الأولى
أولاً: العصر السومرى

تقديم :

لعل من الجدير بالإشارة إلى أن المدينة السومرية إنما كانت تتكون من مدينة (وهى «أور – Ur» فى السومرية، و «ألو – Alu» فى الأكدية) ومجاوراتها من الأرضين التى قام سكان المدينة بزراعتها، وأحياناً كانت حكومة المدينة تضم أكثر من مدينة، فضلاً عن عدد من القرى التى كانت تتبع المدينة الرئيسية، مثل حكومة مدينة لجش، التى كانت تضم أرض «جرسو» و «لجش» و «نينا».

هذا وكانت المدينة السومرية تتكون من قسمين، الأول: وهو المدينة الخاصة التى أطلق عليها فى الأكدية (لبى ألى Libli Ali) أو «قابلتى ألى» Qabalti Ali)، وهى مصطلحات تدل على القسم القديم للمدينة فحسب، وتتمثل فى هذا الجزء الأقسام المسورة التى تحتوى على المعابد والقصر ومكاتب الموظفين وبيوت المواطنين، وأما القسم الثانى فهو «الضاحية» وتقرأ فى السومرية «أور– بار – را» (Ur - Bar - Ra) بمعنى «خارج المدينة» أى «الضاحية» التى تتجمع فيها البيوت والمزارع وحظائر الماشية.

هذا وتقع المدينة الرئيسية فى وسط حكومة المدينة، ويتوسطها معبد إله المدينة الرئيسى، والذى كان يمثل نواة الحياة السياسية والاجتماعية، كما كان صاحب الأرضين فى المدينة، وبجواره معابد المعبودات الأخرى، ذات الصلة بمعبود المدينة، وكانت لها أملاكها الخاصة، الأمر الذى يشير إلى أن معظم أراضى حكومات المدن إنما كانت فى مطلع العصر التاريخى ملكاً للإله، أسوة بما كان عليه الحال

في عصور ما قبل التاريخ، وخاصة في مرحلة ما قبيل الكتابة[1]، وأما أهم مدن العصر السومري فهي:

(١) لجش: وهي الحبة الحالية، على مبعدة ٢٠ كيلا شمال شرق «تللو»، وقامت فيها أول أسرة حاكمة في الفترة (٢٥٢٠ - ٢٣٧١ ق.م)، ولم ترد هذه الأسرة في قائمة الملوك السومرية، غير أن الحفريات الحديثة قد كشفت عما خلفه ملوكها من تسجيلات كتابية عن تاريخها في عصر الأسرات السومرية المبكرة، هذا وقد بدأت «لجش» تاريخها مع فجر الحضارة السومرية، وظلت طوال تاريخها مدينة سومرية، حتى انتهت في فترة لاتبعد كثيراً عن قيام الأسرة البابلية الأولى (حوالى عام ١٨٩٤ قبل الميلاد)، وقد ظلت منذ ذلك التاريخ مهجورة يخيم عليها النسيان، حتى شغلها «البارثيون» في القرن الثاني الميلادي.

وكان «أورنانشه» (Urnanshe) أول ملك ارتقى عرش لجش، وإن أشارت النقوش إلى إثنين سبقاه إلى العرش، غير أنهما لم يتجاوزا مرتبة الحكام المحليين، وعلى أية حال، فلقد كان «اكورجال» وولده «إياناتوم» من أعظم ملوك لجش، بعد «أورنانشه».

وأما أسرة لجش الثانية (٢٢٣٠ - ٢١١٣ ق.م) فقد عاصرت أخريات أيام الجوتيين، وقد حقق حكامها الوطنيون كياناً مستقلاً لمدينتهم، غير أن استعمالهم لقب «إيشاج»، بدلاً من لقب «ملك»، مما يوحي بلون من ألوان التبعية، وبأن لجش لم تمارس استقلالاً فعلياً، حتى عهد «جوديا» - وربما مارست لونا من ألوان الإستقلال الذاتي النسبي، وعلى أية حال، فإن أسرة لجش الثانية هذه لم ترد في قائمة الملوك السومرية، أسوة بأسرة لجش الأولى، وإن كان «جوديا» - أشهر ملوكها - إنما تزين تماثيله بعض المتاحف العالمية، كالمتحف العراقي والمتحف

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٩٤ - ١٠٣، وكذا:

H. Frankfort, Before Philasophy, 1954, p. 201 - 204.

وكذا: T Jacobson, JNES, II, 1943, p. 165 - 169, 172, Sumer. 25, 1969, p. 104 - 106.

البريطاني ومتحف اللوفر، فضلاً عن إقامته لمعبد لجش الرئيسي، وتزويده باحتياجاته[١].

(٢) أوما: وهي «تل جوخة» الحالية، وتقع على مبعدة ٣٠ كيلا شمال غرب لجش، وطبقاً للوحة العقبان، فلقد قام «إياناتوم» ملك لجش بحملة على مدينة «أوما» على أيام ملكها «أوش» فأوقع بها هزيمة منكرة، وذلك بسبب الخلاف على الحدود بينهما، غير أن «أوما» في عهد ملكها «لوجال زاجيزي» نجحت في القيام بهجوم خاطف على لجش، فاضرمت النار فيها، ونهبت ثرواتها، واستولت على معابدها وحطمت أصنامها، ثم سرعان ما أسس «لوجال زاجيزي» دولة كبيرة، وإن كان عمرها قصيراً، لم يتجاوز ربع القرن، طبقاً لقائمة الملوك السومرية، وإن كان هناك من جعلها ٢٩ عاماً (٢٤٠٠ – ٢٣٧١ ق.م)، ومن جعلها ٢٤ عاماً (٢٣٤٠ – ٢٣١٦ ق.م)، وأياً كان الصحيح من هذه الأرقام، فإن «لوجال زاجيزي» قد نقل عاصمته من «أوما» إلى «الوركاء» واعتبر نفسه ملكاً على سومر (لوجال كالاما)[٢].

(٣) نيبور: تقع نيبور – وهي نفر الحالية – على مبعدة ١٦٠ كيلا جنوبي بغداد، وفي منتصف المسافة تقريباً بين «كيش» و «شوروباك»، وتعتبر نيبور من أهم المراكز الثقافية السومرية في العراق القديم، ورغم أنها لم تكن أبداً مقراً لأية سلطة سياسية، فقد كانت أكبر مدينة مقدسة عند القوم، وربما أكبر مركز ديني في بابل، كما أن إنليل» معبود المدينة إنما كان رئيس مجمع الآلهة البابلي، هذا وقد أمدتنا الحفريات التي أجراها عدد من المعاهد الأمريكية منذ عام ١٨٨٩م، بالآف

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٠٣ – ١٠٦، ١٦٣ – ١٦٧، وكذا:
J. Bottero, The وكذا: C. J. Gadd, CAH, I, Part, 2, p. 457 - 460
S. N. Kramer, op. cit., P. 303 - وكذا: Near East, 1967, p. 120 - 124
Roux. Ancient Iraq, (Penguin Boots), 1980, p. 125 وكذا 310

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٠٦ – ١٠٨، ١١٢ – ١١٤، وكذا:
S. N. Kramer, op. cit., p. 310 وكذا: G. Roux, op. cit., p. 137 - 139
- 313, 323 - 324

اللوحات المكتوبة والجذاذات التي صنفت في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد، والتي تدل بوضوح على مدى انتشار الثقافة السومرية، كما تغطي مراحل تاريخ المدينة حتى العصر الفرتي .

هذا وقد كشفت حفريات جامعة بنسلفانيا الأمريكية في نيبور عن واحدة أخرى من روايات قصة الطوفان دونت على كسرة من الفخار غير المحترق، ذهب «هيلبرخت» أنها لم تدون إلا بعد عام ٢١٠٠ قبل الميلاد[١].

(٤) كيش: وتمثلها الآن مجموعة من التلال، على مبعدة ١٦ كيلا شرقي بابل، وعلى مقربة من «أكد» عاصمة سرجون الأول، وأشهرها تل الأحيمر، وتل أنجارها، وتقدم لنا «كيش» صورة عن التنظيم السياسي المبكر لحكومة المدينة السومرية، والذي يشهد مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني، فهو يشهد بتواجد «التفكير الديموقراطي» في بداية العصر التاريخي، وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتي كانت تضم جميع الرجال الأحرار في المدينة، وربما اشترك النساء فيها أيضاً، وكان من حقها إصدار القرارات الهامة – خاصة قرارات الحرب – وأن تمنح السلطة العليا في البلاد (الملكية) لواحد من أعضائها.

هذا وتشير قصة الصراع بين لجش وأوما، على أيام أسرة لجش الأولى (٢٥٢٠ – ٢٣٧١ ق.م) على موارد المياه ومنطقة الحدود، على أن «كيش» إنما

---

(١) ليو أوبنهايم: بلاد ما بين النهرين ص ٥٠٠ – ٥٠١، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٥٩، ٨٠، وكذا: T. Jacolsen, AS, II, p. 58 - 59 وكذا:

A. Poebel, in PBS, V, 1914

S. N. Kramer, The Deluge, ANET, 1966, p. وكذا: KFTS, p. 277 وكذا:
42 - 44

وكذا:

J. P. Peters, Nippur, in Excavations on the Euphrates, 2 Vols, 1897.

كانت تمارس سلطانا واضحاً على «سومر» في عهد مليكها «مسليم» الذى دانت له لجش وغيرها من المدن في جنوب العراق[1].

ثانياً: في العهد الأكدى
(٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م)

(١) أكد: هى المدينة التى أسسها «سرجون الأكدى» (٢٣٧٠ - ٢٣١٥ ق.م) لتكون عاصمة لدولته، وإن لم ينتقل إليها، إلا بعد أن فرض نفوذه على البلاد، في أعقاب انتصاره على «لوجال زاحيزى» ملك الوركاء (على مبعدة ٦٠ كيلا من مدينة السماوة، ١٢٨ كيلا شمال غربى مدينة أور)، ثم القضاء على مقاومة المدن السومرية المناوئة.

وكانت تسمى في الأكدية «أكد» أو «أكادو» (Akkadu)، وفي السومرية «أجاد» أو «أجادة» (Agade)، وهو الإسم القديم للمدينة، وقد جاء اسم «أكد» في سفر التكوين (١٠/ ١٠). وتقع «أكد» على مقربة من «كيش» في جنوب العراق، في مكان غير محدد بعينه على وجه اليقين حتى الآن، وإن رأى «أندريه بارو» أنها ربما كانت قرية «الدير»، وتقع على مقربة من ناحية اليوسفية، وعلى مبعدة ١٨ كيلا غربى بغداد، فيما يرى آخرون، وقد ظلت «أكد» عاصمة للدولة التى عرفت باسم (الدولة الأكدية ٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م) حتى قضى عليها الجوتيون، ثم حكموا البلاد في أعقابها.

هذا وتعرف منطقة (Mat Akkadi)، والممتدة حول مدينة «أكد» باسم عاصمتها، ومنطقة أكد هى الجزء الشمالى من أرض بابل، وسومر هى الجزء الجنوبى، وفي العصر الكلدانى (العصر البابلى الأخير) أطلق إسم «أكد» على بلاد أكد وسومر معاً.

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٩، ١٠٥، وكذا: Jacobsen, JNES, II, 1943, p. 165 - 166, 172 وكذا: C. J. Gadd, op. cit., p. 118 وكذا: T. Jacobsen, Sumer, 25, 1969, p. 103 - 104.

وعلى أية حال، فإن تجمع العناصر السامية إنما كان فى جنوب العراق، وذلك لمجاورة هذه المنطقة لمنطقة الفرات الأوسط التى وفدت إليها الهجرات السامية منذ مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، ومن ثم فقد أطلق على هذه المنطقة – وتضم بابل وكيش وأكد – «أرض أكد»، بينما أطلق على القسم الجنوبى – ويمتد من نيبور شمالاً، وحتى أريدو جنوباً – «أرض سومر».

واللغة الأكدية إسم جامع أطلقه البابليون على لغتهم البابلية، وعلى لغة إخوانهم الآشوريين كذلك، كما أن العلماء المحدثين إنما يطلقون إسم «اللغة الأكدية» على اللهجات البابلية والآشورية المختلفة، فإذا أرادوا التمييز قالوا: البابلية القديمة والآشورية الوسطى، واللغة الأكدية القديمة هى لغة دولة أكد الأولى (٢٣٧٠ – ٢٢٣٠ ق.م) خاصة(١).

ثالثاً: فى عهد أسرة أور الثالثة
(٢١١٣ – ٢٠٠٦ ق.م)

(١) أور: كشف عنها «تايلور» (J. E. Taylor) – القنصل البريطانى فى البصرة – عام ١٨٥٤م، والذى كان يعمل لحساب المتحف البريطانى فى لندن، وذلك فى مكان «تل المقير» – وتقع على مبعدة ١٩٠ كيلا إلى الشمال من مدينة «البصرة» الحالية، ١٦ كيلا شرقى نهر الفرات حالياً فى منتصف المسافة تقريباً بين بغداد والخليج العربى، وتدل الحفريات على أن «أور» إنما كانت فى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، مدينة عظيمة يسكنها كثير من الأغنياء الذين ابتنوا لأنفسهم منازل من الآجر المحروق.

هذا وقد أوضحت الحفائر البريطانية أيضاً فى «أور» فيما بين عام ١٩٢٢،

---

(١) محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٨٧، ٩٢١، ١٢٤، سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، ص ٢٥١، فاضل عبد الواحد: السومريون والأكديون، ص ٧٤، وكذا:
E. Weidner, in AFO, 16, 1952, P. 1 - 24.
وكذا: S. N. Kramer, in ANET, 1969, p. 43.
وانظر: أندريه بارو: المرجع السابق، ص ٣٣١.

١٩٣٤م، فضلاً عن الوثائق المسمارية التى اكتشفت فى مواقع أخرى، على أن أور، إنما كانت تعيش فى أوفر درجات الرخاء فى الفترة ٢٠٠٦ - ١٩٥٠ ق.م)، عندما دمرها العيلاميون.

وهناك ما يشير إلى أن «أور - نامو»، مؤسس أسرة أور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ ق.م) إنما كان شديد الاهتمام بعاصمته «أور» ذات الهيئة البيضاوية، فأعيد تسوير هذه المدينة التى كانت تطل على الفرات بميناء ذى أرصفة واسعة، وقد حماها الماء من ثلاث جهات، وبلغت مساحتها نيفاً ونصف ميل طولا، وربع ميل عرضاً، والتى امتدت حولها ضواحيها، وشغلت معها مساحة قدرها نحو أربعة أميال طولاً، وميل ونصف الميل عرضاً، وقد أطل سور المدينة من داخله على مساحة متسعة (مساحتها ٤٠٠ × ٢٠٠ ياردة) قامت فيها معابد الآلهة الكبرى «نانا» (ننار) وزوجه «نينجال» وحاشيتهما، هذا ونظراً لأهمية سور المدينة فقد سمى «أور - نامو» العام الذى أقام فيه السور باسم «العام الذى بنى فيه سور أور».

هذا وقد أهتم بأور الملك «شولجى» (٢٠٩٥ - ٢٠٤٨ ق.م) وقد وصفها بأنها «المدينة التى على شاطئ البحر»، ويمثل «إيبى - سين» (٢٠٢٩ - ٢٠٠٦ ق.م) آخر الأسرات السومرية فى التاريخ، وإن ظلت «أور» محتفظة بأهميتها إلى القرن السابع قبل الميلاد، ولكن تراكم الرمل فى مصب الفرات قضى نهائياً على المدينة، وإن ظلت مسكونة حتى العصر الفارسى.

هذا وكانت «أور» مركز عبادة إله القمر «سين» وزوجة «نينجال» (ننجل) وولدهما «نسكو»، وزوجة «سدرننا»، ثم انتقلت عبادة هذا المعبودات إلى «حران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى الغرب من تل حلفا - ثم انتشرت عبادة إله القمر من أور إلى كل أرجاء بابل، ومن حران إلى سورية وفينيقيا.

بقيت الإشارة إلى أى مدينة «أور» التى ذكرت التوراة أن إبراهيم عليه السلام

قد قدم منها، هناك من يرى أن «أور» هذه ليست في بابل، ولاتقع على الخليج العربي، وإنما هي من إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات(١).

رابعاً: إيسين ولارسا

(١) إيسين: وتعد كبرى عواصم الآموريين، وهي الآن «إيشان بحريات»، جنوب عفك الحالية، على مبعدة ٣٠ كيلا جنوب «نيبور» (نفر)، وقد اصطنع ملوك أسرة إيسين (٢٠١٧ - ١٧٩٤ ق.م) لقب «ملوك سومر وأكد»، كما اصطنعوا الصفات الإلهية، وقاموا بأعمال عمرانية في أنحاء البلاد، كما رمموا كثيراً مما خرب على أثر سقوط أسرة أور الثالثة في عام ٢٠٠٦ ق.م، هذا فضلاً عن تأثرهم كثيراً بالثقافة السومرية - رغم أنهم من أصل أموري سامي - ومن ثم فقد استخدموا اللغة السومرية في تدوين مكاتباتهم الرسمية، وعلى أية حال، فلقد حكم في هذه الأسرة ١٥ ملكاً، كان أولهم «إيشي أرا» (٢٠١٧ ١٩٨٥ ق.م)، وآخرهم «دمق إيليشو» (١٨١٦ - ١٧٩٤ ق.م)، وإن كان من أشهرهم «لبت عشتار» (١٩٣٤ - ١٩٢٤ ق.م) صاحب التشريعات المشهورة، وترجع إلى عام (١٩٢٤ ق.م)، ولم يبق منها سوى ٣٨ مادة، باللغة السومرية، حفظت لنا في

---

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٦١ - ٧٢، تاريخ العراق القديم، ص ١٦٩ - ١٩٠، موسكاتي: المرجع السابق، ص ٢٥٥، تكوين ١١/ ٢٨، ٣١، ٧/١٥، وكذا:

W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 42 - 44.

وكذا: W. F. Albright, The Biblical Period, from Abraham to Ezra, 1963, p. 4.

وكذا: E. Dhorme, Langues ccritures semitiques, Paris, 1930, p. 54 - 60, 83 - 86.

وكذا:

L. Woolley, Excavations at un, 1963, p. 11 F, ur of the chaldees, 1929.

وكذا: J. Finegan, Light trom the Ancient Past, I, 1969, p. 70 - 74.

سبعة ألواح، عثر على ستة منها فى نيبور، ومحفوظة الآن بمتحف الجامعة فى لندن، والسابعة فى متحف اللوفر، ومصدرها غير معروف(١).

(٢) لارسا: وهى تل سنكرة الحالية، على مبعدة ٣٠ كيلا شمال غرب الناصرية، ٤٨ كيلا شمال شرق الديوانية، وقد قامت فيها أسرة لارسا (٢٠٢٥ - ١٧٦٣ ق.م)، حكم فيها ١٤ ملكاً، كان أولهم «نابلانوم» (٢٠٢٥ - ٢٠٠٥ ق.م)، وآخرهم «ريم سن» (١٨٢٢ - ١٧٦٣ ق.م)، الذى قضى عليه «حمورابى» ملك بابل فى عام ١٧٦٣ ق.م، وبذا انتهت أسرة لارسا إلى الأبد(٢).

خامساً: مملكة أشنونا

(١) أشنونا: ومكانها الآن «تل أسمر» الحالية، وتقع بين نهر دجلة وجبال زاجروس، وعلى مبعدة ١٦ كيلا شرق نهر ديالى، وتقع أراضيها الآن ضمن محافظتى بغداد وديالى، وقد كان يتبع مملكة أشنونا هذه عدة مدن، يمثلها الآن: تل حرمل وخفاجى وتل الصنباعى وشجالى، وكان تل حرمل - ويقع على مبعدة ٩ كيلا شرقى بغداد - يمثل ضاحية من ضواحى أشنونا تسمى «شادوبم»، ومركزاً إدارياً لمملكة أشنونا بعد استقلالهما فى أخريات أسرة أور الثالثة، وقد عثر فيها على مجموعة من الألواح تتضمن نصوصاً تمثل نواحى المعرفة، فضلاً عن قانون لانعرف مشرعه، و نسبه «طه باقر» و «جوتزة» إلى ملك دعواه «بلالاما»، ثم عدل الأخير عن رأيه هذا، واكتفى بنسبة التشريع إلى مدينة أشنونا، بقيت منه ٦١ مادة، عالجت أهم جوانب الحياة فى عصرها.

---

(١) محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم، ص ١٩٣ - ٢٠٢، وكذا:
S. N. Kramer, ANET, 1966, p. 159 - 161
G. Raux, op. cit., p. 171-174 وكذا: CAH, I, Part, 2, 1971, p. 1000 وكذا:

(٢) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٤، ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين ص ٤٢ - ٤٤، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٥٤، وكذا:
C. J. Gadd, op. cit., p. 636 - 637

هذا وقد كان لأشنونا - حتى سقوطها فى أيدى حمورابى البابلى عام ١٧٦١ ق.م - دور كبير فى عصرها، ربما بسبب ثراؤها الذى كان نتيجة امتلاكها أرضين خصبة، تغذيها شبكة من القنوات وفروع الأنهار، فضلاً عن موقعها الجغرافى المتوسط، الأمر الذى كان له كبير الأثر فى تجارتها[١].

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٥ - ٢١٠، رضا جواد الهاشمى، حضارة العراق ٢/ ٧٥ - ٧٦، وكذا:

Taha Baqir, Tell - Harmal, Sumer, II, 1946, p. 23 - 30, IV, 1948, p. 137 - 138, 153 - 173.

وكذا:

A. Gaetze, in ANET, 1966, p. 161 - 163, Sumer, 4, 1948, p. 63 - 102.

وكذا: G. Roux, op. cit., p. 173 - 175

وكذا:

A. Pohl, Orientalia, 8, 1949, p. 124 - 128

الفصل الثالث

المدن والمراكز الأثرية منذ قيام الدولة البابلية وحتى قيام الدولة الآشورية

(١) بابل: كبرى عواصم العراق القديم

بابل: مدينة قديمة تقع على نهر الفرات، على مبعدة ٩٠ كيلا جنوبي بغداد، ويقع على أطلالها حاليا: تل بابل والقصر وعمران بن على والمركس، فضلا عن عدة قرى أخرى مثل: عنابة وكويرش وجمجمة واندسار، هذا ورغم أن التنقيبات فى بابل لم تتقدم بسبب إرتفاع مستوى المياه الجوفية إلى أكثر من طبقة العصر البابلى القديم، غير أنه يجوز أن تفترض أن المدينة كانت قبل وصول الأموريين – أو الساميين الغربيين – إليها، مجرد بلدة عادية، عرفها السومريون باسم «كدنجيرا»، فأحالها الآموريون إلى حاضرة كبيرة، وأحسنوا استغلال موقعها التجارى والزراعى فى أضيق منطقة خصبة، يتقارب فيها نهرا دجلة والفرات.

ثم أطلق الآموريون عليها إسم «بابل»، وهو أسم ليس هناك مايمكن تأكيده عن معناه، وإن كان الشائع هو ترجمته بمعنى «باب إيلو» أى «باب الإله»، ويذهب أصحاب هذه الترجمة إلى أنها قريبة مما تدل عليه التسمية السومرية «كدنجيرا» التى أستمرت تستخدم إلى جانبها، مع مترادفات أخرى مستحدثة[١].

وأما معنى إسم بابل فى التوارة، فيقدمه لنا سفر التكوين فى قصة – أوقل أسطورة طريفة – تقولك إن الله – تعالى عن ذلك علواً كبيرا – قد رأى سلالة الناجين من الطوفان يبنون برجا بغية الوصول إليه – سبحانه وتعالى – فى علياء سمائه، وكانوا يحسبون السماء أشبه بلوح زجاجي، يعلو على الأرض بضع مئات من الأمتار، فخشى شرهم، واحتاط لنفسه، فهبط الأرض، وبلبل ألسنتهم، فتفرقوا

---

(١) محمد بيومى مهران: بلاد الشام ص ٦٦ – ٧٦، عبد العزيز صالح، المرجع السابق ص ٤٥٨، قاموس الكتاب المقدس ١/١٥٢.

وكذا - M.F.Unger, Unger's Bilble Dictionary, Chicago, 1970, p. 115 - 118.

شذر مذر، ومن ثم فقد كفوا عن بينان المدينة، لذلك دعى أسمها «بابل» لأن الرب هناك بلبل ألسنتهم، ومن هناك بددهم الرب على وحه الأرض كلها[1].

وعلى أية حال، فإن «برج بابل» هذا، ربما كان هو «زاقورة بابل»، وقد شاهده الكتاب الأغارقة، بعد أن خرب، وطبقا لرواية «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ق.م) فقد كان يتكون من ثماني طبقات[2] يمكن الوصول إليها عن طريق درج خارجي، ويذهب «ديودور الصقلي» (٨٠ - ٣٠ ق.م)و«سترابو» (٦٣ - ٢١ق.م) إلى أن برج بابل إنما كان على شكل هرم مربع القاعدة، وهو على أية حال، إنما يشكل جزءاً من معبد «مردوك» - معبود بابل - ويدعى في النصوص المسمارية «اى - تمين - إن - كى» (E-Temen-an-ti) بمعنى «البيت الذى أساسه السماء والأرض»، ويتكون من صحن كبير في داخله، وعلى مقربة من النهر «زاقورة» (Ziqquratu) (برج) بابل، والتى يبلغ ارتفاعها ٩٠ مترا ومساحة قاعدتها (٩١×٩١مترا مربعا)، وقد هدم برج بابل فى عام ٤٧٩ ق.م، على يد اللمك الفارسى «أكزركسيس الأول» (٤٨٤ - ٤٦٥ ق.م)[3].

هذا ورغم أن هناك من يرجح أن بابل قد أنشأها الأكديون، غير أن ذلك أمراً لم يثبت بعد، وعلى أية حال، فلقد ذكرت منذ العصر الأكدى، غير أن دورها السياسى لم يبرز إلا فى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، بعد أن اختارها الأموريون الساميون عاصمة لهم (أسرة بابل الأولى)، وإن كتاب العهد القديم (التوارة) والمؤرخون الإغريق لم يتطرقوا إلى ذكرها، إلا منذ عهد «نبوخذ نصر الثانى»

---

(١) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢٩٠/٣، تكوين ١/١١-٩
وكذا. M.Gray, Near Eastern Mythology, London, 1969, p. 104 - 105

(٢) يفترض أن الزاقورة من سبع طبقات، وليس ثمان، تعلوها غرفة الإله، وكان يتم ارتقاء الزاقورة عن طريق ثلاثة سلالم متعامدة، ثنتان منها تلاصق الضلع الجنوبية للزاقورة، والثالث عمودى عليها (مؤيد سعيد: حضارة العراق ١٨٠/٣، موسكاتى: المرجع السابق: ص ٢٦٠ - ٢٦١).

(٣) هنرى عبودى: معجم الحضارات السامية -بيروت ١٩٨٨ ص ١٩٢ - ١٩٣، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ١٧٩، محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٦.

(٦٠٥-٥٦٢ق.م)، وكانت وقت ذالك فى أوج عظمتها، وإلى هذا الملك الكلدانى تنسب «حدائق بابل المعلقة» لزوجه الميدية «إميثيس»- والتى دعتها المصادر الكلاسيكية «أموهين» - فى الزواية الشمالية الشرقية من القلعة الجنوبية - فيما يرى العلماء الألمان - فضلا عن قصره الكبير، والمكون من ١٧٢ غرفة وزاقورة من اللبن - كما سنشير فيما بعد -.

وتشير النصوص القديمة إلى أنه كان فى بابل ٥٣ معبداً رئيسياً، ٣٦٠ محرابا ثانويا، أشهرها دونما أى ريب، إنما كان «معبد مردوك»، كما كان للمدينة ثمانية أبواب رئيسية، أحدها باب «عشتار» إلهة الخصب، ويقع فى الجهة الشمالية، يليه رواق طوله ٣٠ متراً، يفضى إلى صالة الاحتفالات ومعبد مردوك» (مردوخ)(١).

وليس هناك من ريب فى أن اختيار الآموريين مدينة «بابل» عاصمة لدولتهم، إنما كان اختياراً موفقا، لأسباب كثيرة، منها أنها تقع وسط العراق بصفة عامة، فضلا عن وقوعها وسط المناطق التى يتركز فيها العمران والسكان، هذا إلى جانب منعتها الطبيعية، ومنها طريقة الرى الفعالة للأرضين الصالحة للزراعة فى بابل ومجاوراتها، ومنها أنها تقع على الفرات، وهو نهر صالح للملاحة، الأمر الذى عاد بفائدة كبيرة على التجارة والملاحة فى آن واحد.

وقد أدى ذلك كله إلى ازدهار المدينة فى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، خاصة على أيام أسرة بابل الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ق.م) التى شهدت فيها البلاد نهضة تاريخية شاملة، بسبب توحيد البلاد، ومركزية الحكومة، وعنايتها بنشر الأمن والعدل.

وقد أثبتت الحفريات أنه كانت توجد منذ ذلك العهد قواعد لتخطيط مدينة

---

(١) أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٣٤، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٧٩، محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ٢١٥ - ٢١٦.
وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 115 - 116.

بابل، وقد اتبعت هذه القواعد حتى نهاية عصر الإمبراطورية البابلية الحديثة، ولعل أهم مايميز هذا التخطيط أن الطرق الكبيرة كانت موازية جميعها للطريق المقدس، وتتقاطع متعامدة مع الطرق الأخرى، فى حين أن بيوت المدن السومرية القديمة إنما كانت مجمعة دونما أى نظام، كما لم يكن للطرق إتجاه ثابت(١).

وكان معبد «مردوك» (Marduk) فى بابل - ويدعى «إسجئل» (E.Sag-il) بمعين البيت العالى الرأسى - مركزاً تشعب منه علوم الدين والسحر، وفى الواقع فلقد ارتبط «مردوك» ببابل، حتى أن النبى العبرانى «إرميا» (٦٢٦ - ٥٨٠ق.م) إنما يقول عند سقوط بابل فى أيدى الفرس فى عام ٥٣٩ق.م، «قولوا: أخذت بابل، خزى بابل (لقب مردوك بمعنى السيد أو البعل)، إنسحق مردوخ، مما يشير إلى أن مردوك إنما قد شارك بابل مصيرها التعس.

وتصف لنا مقدمة قانون حمورابى كيف أصبح مردوك صاحب المكانة العليا فى امبراطورية بيل، وذلك حين قرر «آنو» و«إنليل» السيادة لمردوك على الناس، ثم جعلا لمدينة بابل السيادة فى العالم، وأقاما لمردوك فيها ملكا دائما، له أسس راسخة رسخوخ السماء والأرض، وقد أسبغا عليه من الصفات ماجعل الآلهة الأخرى، مجرد جوانب من شخصه، فمثلا أصبح «نرجل هو مردوك إله الحرب، و«إنليل» هو مردوك إله السيادة والفصل فى الأمور، و«نبو» هو مردوك إله الحظ، و«سين» هو مردوك منير الليل، و«شمش» هو مردوك إله العدل، و«أدد» هر مردوك إله المطر، وهكذا - كما تركزت فى عشتار الإلهات جميعا - استوعب مردوك فى ذاته الآلهة جميعا.

وأما زوجة مردوك فهى «زربانتيم» أو «صربانتيم» (Sarpanitum) بمعنى «الفضية، أو«اللامعة كالفضة»، فقد ارتبطت مكانتها أيضا بمدينة بابل، كما ظلا

---

(١) محمد عبد القادر: الساميون فى العصور القديمة ص ٩٦ - ١٠٧، يوسف سعيد: العراق فى التاريخ ص ١٠١ - ١٠٢، محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٢١٧ - ٢١٨.

مبجلين على أيام الآشوريين والكلدانيين والفرس والسلوقيين[1].

هذا وقد اهتم «حمورابي» (١٧٢٨ - ١٦٨٦ق.م) بإعادة تخطيط عاصمته بابل، على نحو لم يسبق له مثيل، حتى أطفأت أمام بهائها وفخامتها كل العواصم الأخرى فى غربى أسيا، وأصبحت فى كل منطقة الشرق الأدنى القديم حديث الأمم والشعوب، وموضع إعجابهم، بل تسربت عظمتها إلى الأساطير.

وظلت بابل العاصمة - بعد الأسرة البابلية الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ق.م) - على أيام الكاشيين (أسرة بابل الثالثة ١٥٩٥ - ١١٥٧ق.م)، وعلى أيام أسرة بابل الرابعة (أسرة إيسين الثانية ١١٥٦ - ١٠٢٥ق.م).

وقد وقعت بابل فى أيدى الحيثيين على أيام ملكهم «مورسيليس الأول» (١٦٢٠ - ١٥٩٠ق.م)، ثم حاولوا التوسع جنوبا، ولكن وقفت فى سبيل ذلك دولة البحر الناشئة وكسرت شوكتهم، ثم سرعان ماعاد «مورسيليس» إلى عاصمته «بوغازكوى» ، وقد حمل معه تمثالى الإله مردوك وزوجته اللذين تركهما عند مدينة «عانة» على الفرات، وترك بابل فريسة سهلة للكاشيين الذين سرعان ما احتلوها فى عام ١٥٩٥ق.م.

وفى عام ١١٦٠ قبل الميلاد، إحتل العيلاميون - بقيادة ملكهم شترك نخنته - بابل ولمدة سنوات ، ثم طردهم زعيم وطنى من مدينة إيسين، يدعى «مردوك - كابت - أهيشو» (١١٥٦ - ١١٣٨ق.م) وحكم لمدة ثلاث سنوات (١١٥٩ - ١١٥٧ق.م)، ثم جاءت بعد ذلك عدة أسر بابلية (١٠٢٤ - ٥٣٩ق.م) لاشك

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٢٣٥ - ٢٣٨، موسكاتى: المرجع السابق: ص ٢٦٠-٢٦٣ إرميا ١/٥٠ - ٤٦.

وكذا S.Lioyd, Foundation in The Dust, (Penguin Boots, 1955, p. 214 - 215)

وكذا A.Heidel, The Balylonian Genesis, Chicago, 1915, p. 60.

وكذا E.Dhorme, op.cit. p. 139 - 156. 168 - 170.

فى أن أشهرها الأسرة الكلدانية (٦٢٦ – ٥٣٩ق.م)(١).

وفى عهد أشهر ملوك الأسرة الكلدانية «نبوخذ نصر الثانى» (٦٠٥–٥٦٢ق.م) نشطت حركة العمران فى بابل، كما لم تنشط من قبل، وبلغ محيط عمرانها ١٨ كيلا، وروى المؤرخون الأغارقة أن أسوارها كانت دائرية، وقد أحاطت بها أربعة خطوط دفاعية ضخمة.

ولعل من أهم مبانى «نبوخذ نصر» فى بابل قصره الجنوبى (قلعة نبوخذ نصر)، وهو قصر كبير تكاد مساحته تبلغ ٥٢ ألف متر مربع، وقد توسط الجدار الشمالى للمدينة، وبنى داخل حصن كبير، على عادة القصور الملكية هناك، ومدخله من الشرق من الساحلة الكبيرة المكشوفة، الواقعة بين القصر وشارع الموكب، وفى القصر أكثر من ١٧٢ غرفة، فضلا عن عدة بيوت سكنية للحاشية وخدم القصر، ويطل جناح الملكة غربا على نهر الفرات، ويعزله عن النهر بناء كبير، يبلغ طوله حوالى ٢٥٠م وسمك جدارنه ٢٥ مترا، وفى وسطه ساحة مستطيلة تحتوى على بقايا غرف كثيرة، ويعتقد – أنه إن كانت هناك حقا حدائق معلقة فى بابل – فلابد أن تكون فى هذا البناء، مما يتيح إنشاء حديقة مدرجة على النهر.

وأما قصة حدائق بابل المعلقة هذه، فتذهب المصادر الكلاسيكية إلى أن الملك البابلى «نبوخذ نصر» الثانى (٦٠٥ – ٥٦٢ق.م) قد تزوج من ابنة الملك الميدى «كى أخسار» (كياكسارس) والتى دعوها «أموهين» (أريتان أو أميتان) ومن عجب أن يذهب المؤرخون اليونان والرومان إلى أن «نبوخذنصر» قد شيد لزوجه

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٢٢١–٢٨٨–٢٨٩، ٣١٣–٣١٤، ليو أوبنهايم: المرجع السابق ص ٤٤٨ – ٤٤٩.

وكذ G.Roux, op- cit, p. 225 - 226 وكذا O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 23 - 24

وكذا J.J.Finterlstein, in RA,LXIII, 1969, p. 64.

المدية «الحدائق المعلقة في بابل» كي تذكرها بيئتها الجبلية بل إن أمر الحدائق المعلقة هذه إنما قد ذكرتها المراجع القديمة والحديثة، رغم عدم وجود أي دليل تأريخي عليها، حتى آن الآثاريين الألمان ظنوا في بداية هذا القرن العشرين أنهم اكتشفوا تلك الحدائق، عند عثورهم على بئر عميقة في منطقة من القصر الجنوبي غطيت بغرف ثلاثية، ظنوا أنها حوت جهازاً يسحب الماء إلى هذه الحدائق المعلقة، ثم أظهرت حفريات هيئة الآثار العراقية أن هذه المنطقة بالذات عبارة عن حجرات خزن تحت الأرض ذات عقادات قوية، هذا وقد روت المصادر الكلاسيكة أن الملك «نبوخذنصر» قد زوّد قصره بيرندات (بالكونات) زرع فيها شتى الأشجار التي جلبها من أقطار شتى، وربما كانت هذه «البالكونات» التي وضعت بها الأشجار هي التي أسماها الكتاب الكلاسكيون «الحدائق المعلقة»[1].

وأيا ما كان الأمر، فلقد ظلت بابل مزدهرة على أيام الدولة الكلدانية، وإن تعرضت مكانتها السياسية لهزة عندما تركها «نبونيد» (٥٥٦-٥٣٩ق.م) واتخذ من «تيماء»، ولمدة عشر سنوات، عاصمة له، حتى غدت وكأنها خليفة لبابل[2].

غير أن الخطر الأكبر إنما تعرضت له بابل إنما كان عندما قاد «كيروش» ملك فارس (٥٥٨ - ٥٣٠ق.م) معركة في «أوبيس» على الدجلة، على مقربة من المدائن، وأحرق أهل «أكد» بالنار، وبهذه الطريقة الهمجية من العرب البغيض، أفقد «كيروش الثاني» خصومة شجاعتهم، وفي ١١ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، نجح كيروش في الاستيلاء على «سيبار» ، وفي ١٢ أو ١٣ أكتوبر عام ٥٣٩ق.م، دخل «جوبرياس» بابل، ومعه قوات كيروش، دون معركة، وفي ٢٩

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٤٣٨ - ٤٣٩، ٤٥٠ - ٤٥١، سعيد الأحمد - العراق في التاريخ ص ١٦٥ -١٦٩، مؤيد سعيد: حضارة العراق ١٧٨/٣ ، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٥٥٥-٥٥٦.

(2) G.Roux, op.cit, p. 35
C.J.Gadd, op,cit وكذا A.Musil, Nothern Nejd, N.Y, 1928, p. 225 وكذا p. 35
R.P.Douglerty, Nobonidus and Belshazzar, New Haven, 1932, وكذا p. 106.

أكتوبر، بدأ الكتاب يؤرخون باسم العاهل الفاسي «كيروش ملك العالم»، وفي نفس اليوم دخل بابل نفسها، وسرعان ماخضعت له بلاد النهرين، ثم اعترفت سورية وفلسطين بالغازي الجديد[1].

١- كوث: وقد ذكرت في التوارة، حيث يروى سفر الملوك الثاني وعزرا، أن «سرجون الثاني» ٧٢٢٠ - ٧٠٥ق.م) قد أتي بقوم من بابل وكوث وسفروايم، وتقع كوث: في مكان تل إبراهيم، على مبعدة ٢٤ كيلا شمال شرق بابل، وقد عثر على اسمها على أثر من عهد «نبوخذنصر» الثاني، كما أتي من مدرسة الملك «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٧ق.م) على ألواح كتب بها تاريخ الخليقة حسب التقاليد البابلية كما ذكرت أيضا مع بابل وبورسيبا - وهي برس نمرود، على مبعدة ١٦ كيلا جنوبي بابل - ومعبودها نرجل[2].

٢- سفر وايم: وهما بلدتان على ضفتي الفرات، وعلى مبعدة ٢٥ كيلا جنوب غرب بغداد، هذا ويذهب «رسام» أنها أبو حبة ا لحالية، بينما يذهب آخرون إلى أنهما «شومورية» شرقي بحيرة حمص، وكانتا مركزا هاما لعبادة «شمش» وعشتار وأنونيت[3].

٢- الدولة الكاشية (أسرة بابل الثالثة):

١- دوركوريجالز: ينسب تأسيس مدينة «دوركوريجالز» إلى الملك الكاشي «كوريجالزو الثاني» (١٣٤٥- ١٣٢٤ق.م)، وتقع في مكان «عقرقوف» الحالية، على مبعدة ٣٢ كيلا غربي بغداد، ومن المعروف أن الكاشيين إنما بدأوا حكمهم من بابل، ولكنهم في منتصف عهدهم، أسسوا مدينة «دوركوريجالزو» (بمعنى مدينة أو حصن كوريجالزو).

وقد أقام «كوريجالزو» في عاصمته الجديدة قصراً يشبه قصر «زمري ليم»

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع لاسابق ص ٤٦٤ - ٤٦٨، مؤيد سعيد: المرجع السابق ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

G.Roux, op.cit, p. 357 - وكذا A.L.Oppenhein, ANET,p. 315- 316 وكذا 358

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٧٩٥/٢، ملوك ثان ٢٤/١٧، ٣٠.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٤٦٩/١، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٩٤٩/٢.

حاكم «ماري» (تل الحريري) ورغم أن مابقي من هذا القصر قد لايكفي لإعطاء صورة كاملة عنه، ولكنه يشير إلى أنه كان يتكون من عدة أجنحة متلاصقة، لكل منها مساحة كبيرة في الوسط، وقد تتجاوز مساحة القصر بضعة مئات من الأمتار في كل ضلع من أضلاعها، ومن أهم ماعثر عليه في القصر هو الجزء المتبقي في الزواية الشمالية حيث الممرات المسقوفة الطويلة التي تحيط بالساحة، والتي يحمل سقفها ركائز مربعة، كما تشير بقايا الغرف إلى وجود قاعات طويلة وعريضة، يبلغ طول المتبقي منها ٤٠ مترا، مما يشير إلى أنها كانت قاعات استقبال، وربما كانت إحدى قاعات العرش، أما في الزواية الشرقية من البناء فقد عثر على ثلاث ممرات طويلة متوازية، تخترق أرضها قنوات مياه، وعلى جانبي الممر «كوى» مرتفعة عن الأرض ذات سقوف معقودة، كما كانت الممرات معقوفة السقف أيضا، وربما كان ذلك لخزن الرقم الطينية في جو رطب يناسب الغرض.

وأما زاقورة عقرقوف (دوركوريجالزو) فكانت تتكون من خمس طبقات من اللبن، تغطيها من الخارج طبقة من الآجر، ومساحتها (٦٧,٦×٦٩م)وتبدأ سلالمها الجانبية مع نهاية الضلع الجانبي، ثم تدور بزاوية قائمة حول جسم الزاقورة لترتقي إلى السلم الجانبي، وهناك سلم في الوسط يتلقى بالسلم الجانبي في مركز الضلع، وقد شيدت أمام سلم الزاقورة الوسطى مصطبة من اللبن مساحتها (٣٥ × ٣٥م) تحيط بها مساحات عديدة لمعبد لم يكتمل اكتشافه كله بعد، وهذه المساحات متصلة ببعضها وتحيط بكل مساحة مجموعة من الغرف المستطيلة.

هذا وقد استمرت «دوركوريجالزو» عاصمة للكاشيين، حتى سقطت – هي وبابل وأوبس – في يد العاهل العيلامي «شترك نختنه» في عام ١١٦٠ ق.م[1].

---

(١) مؤيد سعيد : المرجع السابق ص ١٥٤–١٥٦–١٦٥.

وكذا N.Kramer, ANET, p. 57-59 وكذا G.Roux, op.city, p. 229 - 230.
T.BAQIR, Excavationa at Aqar Quf, Iraq, 1944, and Iraq, 8, 1946,p. 73 - 92.

وأنظر: محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم ص ٣٠٥ – ٣٠٧ (١٩٩٠).

الفصل الرابع
الدولة الأشورية (٢١٠٠- ٦٠٩ ق.م)

تقديم: لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن كلمة «أشور» إنما تعنى فى الواقع، الإقليم الذى سكنه هؤلاء القوم، والمعروف باسم آشور، كما تعنى المدينة التى تحمل هذا الإسم، والمعبود الذى كان يعبد هناك، وربما كانت هذه التسمية – أى أشور – نسبة إلى أول عواصم القوم، وهى مدينة «أشور»، ومن ثم فقد أطلق إسم أشور على الإله القومى للأشوريين، وظلت هذه التسمية حتى القرون الأخيرة من الألف الأولى قبل الميلاد، أى حتى بعد زوال كيان الأشوريين السياسى.

وأما معنى كلمة «أشور» فغامض، فقد يكون من معانى الصغية «أشر» (الرحمن)، وربما كان اللفظ سومرى الأصل، وعلى أية حال، فقد وردت كلمة «آشور» فى المصادر الأرامية والعربية تحت إسم «أثور»، وأما فى المصادر المسمارية فقد عرفت بلاد الآشوريين باسم «مات أشور» أى بلاد الآشوريين، كما وردت كلمة «آشور» فى هذه المصادر من القرن الثالث عشر قبل الميلاد تحت إسم «أش شر»، كما وردت فى صورة «آ – شو – ار» وأما فى المصادر المصرية، فلقد ذكرت، لأو مرة باسم «أسور» على أيام «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق،م)، كما ذكر اسم «آشور» فى التوارة على أنه من أبناء «سام بن نوح»، كما ذكره الجغرافى «بطليموس»، فى كتابه «جغرافية بطليموس» فى عام ١٥٠م.

وأما أصل الآشوريون فهم من شعبة سامية هاجرت من شبه الجزيرة العربية – الموطن الأصلى للساميين – وتشير لغة الآشوريين إلى أصولها السامية، وقد تحدث القوم بلهجة من لهجات اللغة الأكدية، واستخدموا الخط المسمارى، وقد تميزت العواصم الاشورية بعدم الثبات، ومن ثم فهناك ستة عواصم آشورية هى: أشور وكالح و«كار – توكلتى – ننورتا» و«دورشاروكين» و نيتوى وحران (حاران)(١).

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٣٢٣ – ٣٢٦، اندرية بارو: المرجع السابق ص ١٧–١٨، عبد العزيز صالح، المرجع ص ٤٩٨ – ٤٩٩، طه باقر: المرجع السابق ص ١٦٣ – ١٦٧، عامر سليمان: العراق في التاريخ ص ١١٩ – ١٢٠.

M.F.Unger, op.cit, p. وكذا, G.Roux, op- cit, p. 177 - 167, 182وكذا
100-101

J.Laessoe, People of Ancient Assyrıd, London, 1963, p. 37. وكذا

(١) أشور: كانت مدينة أشور هى أولى عواصم الآشوريين، وقد أقيمت فوق ربوة صخرية، تحف بها مياه نهر دجلة التى أصبحت حماية طبيعية لها، ربما منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، وتعرف خرائبها اليوم باسم «القلعة» أو «قلعة شرقاط»، وتقع على مبعدة ٩٦ كيلا جنوبى مدينة الموصل الحالية، وقد استمرت مدينة أشور مركزا سياسيا للبلاد على مدى فترة طويلة من التاريخ العراقى القديم.

هذا وقد عثر فى خرائبها على أسس لمعابد بعض المعبودات، مثل أشور وأنو وأدد، وكان «أشور» هو الإله القومى للآشوريين، وكبير معبوداتهم حتى نهاية - إمبراطوريتهم، وفى النسخة الآشورية من قصيدة الخلق، التى عثر عليها فى مدينة أشور، نجده يحل محل المعبود البابلى «مردوك» ، لأن القوم أرادوا أن يكون معبودهم - وليس معبود البابليين - هو خالق الكون، وهكذا كان الدين عونا للسياسة، وصدى لمطامح الملوك والشعوب والمدن.

وهكذا كان معبد أشور فى مدينة أشور - ويدعى إشرا (E.Shar - Ra) يقيم فيه مع زوجه «ننليل» ملكة إشرا - أشهر معابد المدينة، وقد بنى على أيام الملك «شمسشى أدادا» الأول (١٨١٣ - ١٧٨١ق.م)، ويعتبر من النماذج الأساسية فى تفسير عمارة المعابد الأشورية، ودليلا لطرز المعابد الأشورية فى العصر الأحدث، وقد جمع بين الطرز المعروفة فى جنوب العراق، والتى بنيت على هيئة بيوت ذات فناء فى الوسط، ومنها مبعد «شوسن» فى تل أسمر، وبين الطرز التى عرفت فى فجر الأسرات ذات الغرف المقدسة الطويلة، هذا وكان للمعبود أشور معبد آخر خارج المدينة يسمى «أكيتو» (Akitu).

وهذا وقد عثر فى أشور كذلك على تماثيل لبعض الملوك، فضلا عن عدد من المسلات، وقد وجد على أحدهم إسم «سموررامات» (سميراميس) زوج الملك «شمشى أداد» الخامس (٨٢٣ - ٨١١ ق.م) والتى أصبحت وصية على العرش سنوات خمس، بل إن هناك من الآثار التى وجدت فى أشور - وترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد - من ذلك النوع السومرى، هذا وقد عثرت البعثة الألمانية فى حفرياتها فى مدينة أشور فى الفترة (١٩٠٣ - ١٩١٤م) على لوحات تشريعية نسخت على الطين (Clay Tablets)، وليس على لوحة حجرية (Steld)، وإن ردها

البعض إلى ماقبل عهده بزمن طويل، وربما إلى أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، وربما إلى مابين عامى ١٤٥٠ - ١٢٥٠ ق.م، ومن ثم فهى تعود إلى العهد الأشورى الوسيط[1].

(٢) كالح: كانت مدينة «كالح» (Kalah)(كالحو - كالخو) ، والمعروف حاليا باسم «نمرود» (Numrud) ، هى العاصمة الآشورية الثانية، وتقع على الضفة اليسرى لنهر دجلة، عند ملتقاه بنهر الزاب الأعلى، وعلى مبعدة ٣٠ كيلا جنوبى «نينوى»، وعلى مبعدة ٣٥ كيلا جنوب شرقى الموصل.

هذا وقد أسس «كالح» الملك «شلمنصر الأول» (١٢٧٤ - ١٢٤٥ق.م)، وسكنها البابليون الذين قام بتهجيرهم «توكلتى نينورتا» الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م)، وإن كانت التوراة قد نسبت تأسيسها إلى من دعته «نمرود»، هذا وقد شيد فيها الملك «أشور ناصربال» الثانى (٨٨٣- ٨٥٩ ق.م) قصراً، ثم اتخذها عاصمة لملكه.

هذا وقد قام بالحفر فيها «سير أوستن ليارد» (Sir A.H.Layard) فى الفترة (١٨٤٥ - ١٨٥١م) وكذا «مالوان» (M.Mailouan) فى عام ١٩٤٩م، وكشفت الحفريات عن معبد للإله «نينورتا» يتكىء على زاقورة مربعة (طول ضلعها ٥١م، وارتفاعها ٤٥م)، كما عثر على مسلة نقش عليها إسم «أشور ناصربال الثانى»، هذه فضلا عن قصر يعده الآثاريون أول القصور الكبيرة لمملكة أشور الجديدة، وبه كثير من النقوش التى تصف لنا عمال «أشور ناصربال الثانى»، وتصف البناء وظروف تشييده، وحفر قناة لرى المنطقة..

وهناك قصر «أدادنيرارى الثالث» (٨١٠ - ٧٨٣ق.م) - إلى الجنوب من قصر «أشور ناصربال الثانى»- وقد سكنه أيضا «تجلات بلاسر» الثالث (٨٤٥ - ٧٢٧ق.م)، وإلى الجنوب منه قصر «إسرحدون» ٦٨٠ - ٦٦٩ق.م)، وغير ذلك من المبانى السكنية والدينية، هذا وقد دمرت المدينة على أيدى الميديين فى عام ٦١٢ قبل الميلاد.

---

(١) محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٣٢٦ - ٣٢٧، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٣٣، هنرى عبودى: المرجع السابق ص ٩٠ - ٩١.

وكذا: M.Funger, op.cit, p. وكذا J.Laessoe, op.cit, p. 18, 37F, 42, 79F 101 - 103

هذا وقد كشفت «أوستن ليارد» فى عام ١٨٤٦م فى قصر «شلمنصر الثالث» (٨٥٨ – ٨٢٤ق.م) فى مدينة «كالح» عن «المسلة السوداء» (Black Obelisk) ، والمحفوظة الآن فى المتحف البريطانى، وتتحدث عن انتصارات الملك، وقد تمثل على وجهها الثانى من أعلى حاملى الجزية الإسرائيليين وموظفيهم فى ملابس مشغولة، ذات أكمام قصيرة، وعمامة تشبه غطاء الرأس.

هذا وتسجل حوليات «أشورناصربال الثانى» الكثير من المعابد التى أنشأها فى عاصمته «كالح» فهناك معابد للأرباب : إنليل ونينورتا وأداد، وشالا (Shala) وجولا (Guld) وسين ونابو وعشتار وسبتى (Sibitti) و«أشتار – كتمورى» (Ashtar - Kitmuri)وغير ذلك من المعابد التى كرست للمعبودات الكبار.

وعلى أية حالة، فإن الآثار المكتشفة فى «كالح» (نمرود) إنما تعد من أروع الآثار الآشورية، وتعكس المدى الذى وصله الفن والعمارة فى القرن التاسع قبل الميلاد، وقد كشف – بجانب القصور والمعابد والأسوار والبوابات– عن مئات من ألواح الجدران التى كانت تغلف جدران قاعات القصور الداخلية وهى منحوتة نحتاً بارزاً دقيقا بمناظر مختلفة من الحياة اليومية والملكية والمعارك العسكرية، وقد لون بعضها بألوان زاهية ظلت تحتفظ بها إلى يوم الناس هذا.

هذا وقد زينت مداخل القصور والقاعات الرئيسية بتماثيل ضخمة لحيوانات مركبة، عرفت «بالثيران المجنحة»تعبر عن قوة الآشوريين وصلابة قوادهم وحكمتهم، فضلا عن إشعار الزائر، ولأول وهلة، بقوة الدولة وملكها، كما كشف فى «نمرود» عن أعداد كبيرة من النصوص المسمارية، وعلى مجموعة من القطع العاجية، أبرزها تلك التى تمثل قناعا لرأس فتاة، عرفت عند الباحثين باسم «مونليزه النمرود» أو «فتاة البئر»، حيث عثر عليها فى أحد آبار المدينة(١).

---

(١) تكوين ١٠/١١–١٢، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٤٣، ليو أوبنهايم: بلاد أشور ص ٣٨١، هنرى عبودى المرجع السابقص ٧٠٤ – ٧٠٧، محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٣٢٧ – ٣٢٨.

J.Finegan, op.cit, p. 264 - وكذا J.Laessoe, op.cit,p.99,103- 106 وكذا 265

M.E.L.Mallowan, Twenty- - Five Years of Mesopotmain Discovery, London 1956, p. 50 - 64.

=

(٣) كار- توكلتي - ننورتا: أسس هذه المدينة الملك «توكلتي ننورتا» الأول (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق.م)، واتخذها عاصمة لدولته، وأضفى عليها اسمه «كار - توكلتي - ننورتا»، وإن كان هناك من يذهب إلى أن مؤسسها هو «أشور - نادين - إيلي» (١٢٠٧ - ١٢٠٤ ق.م) وإن نسبت إلى أبيه، وعلى أية حال فهي تقع على مبعدة ٣ كيلا من مدينة أشور، على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وهي «تكل أكير» الحالية.

هذا وقد شيد بها «أشور - نادين - إيلي» قصراً في عاصمته بقيت منه أطلال طفيفة، يفهم منها أنهم زخرفوا بعض جدرانه بقطع من القاشاني المزخرف، فضلا عن لوحات مرسومة، اقتبسوا عناصرها من عالم الحيوان والنبات ومن الخطوط الهندسية، وقد نجحوا في تحقيق التناسب والحيوية فيها إلى حد معقول، وصوروا فيها الملك يقاتل بعربته الحربية، منفرداً حينا، ومشتركا في الحرب إلى جوار جنوده، حينا آخر[١].

(٤) دورشاروكين: كانت «دورشاروكين» (Dur - Sharrukin) هي العاصمة الآشورية الرابعة، وقد أسسها «سرجون الثاني» (٧٢٢-٧٠٥ق.م) في عام ٧١٧ق.م، وأتم بناءها في سنوات سبع (٧١٣ - ٧٠٦ق.م)، وتقع أطلالها الآن أو على مقربة من «خورسباد» (Khorsabad) الحالية (وكلمة «خورسباد» محرفة من «خسروا أباد») جنوب الزاب الأعلى، وعلى مبعدة ١٦ كيلا شمال شرق الموصل، ٢٤ كيلا شمال شرق نينوى.

هذا وقد بنيت هذه المدينة على هيئة مربع طول ضلعه ١٧٦٠ مترا، وكان يؤدى إلى المدينة طريق مبلط عرضه ١٢ مترا، ويحيط بالمدينة سور وأبراج، يزيد عددها عن ١٥٠ برجا، وكان للمدينة سبعة أبواب محصنة، ويحيط سورها

- وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 161 - 162.
M.E.L.Mallown, Nimrud and its Remains, 2 Vols, London, 1966.

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٣٢٨، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٥٠١ - ٥٠٢، جورج رو: العراق القديم ص ٦١٤
وكذا W.Bachmann, MDOG, 53, p. 41 - 57.
وكذا W.Andrde, Das Wiedererstandene - Assur, p. 121 - 125.

الداخلى، بمعقل كائن فى قسمها الشمالى، اشتمل على القصر الملكى ومعبد الإله «بنو» وبيوت فخمة خصصت لكبار الموظفين مثل «سن - آح - آصر» (Sin- ah - usur) وهو الوزير، شقيق الملك، هذا وقد زينت أبواب المدينة بثيران مجنحة لها رؤوس بشرية، تعتبر عند الآشوريين بمثابة الملاك الحارس الذى يقى المدينة من الشرور والمخاطر، كما كانت شوارع المدينة مستقيمة ومتعامدة.

ولم يبق من المدينة الآن غير أطلال قصر «سرجون الثانى» وبعض الأقسام المجاورة له، وتدل الآثار التى عثر عليها بقصر سرجون هذا، على مدى ماوصل إليه فن البناء والنحت وسبك المعادن وصناعة الزجاج، كما عثر بالقصر على عدد كبير من التماثيل البارزة والثيران المجنحة، ونماذج من الزخارف المنقوشة تمثل ثيراناً وأسوداً، كما عثر فى المخازن على أدوات وآلات من الحديد تبلغ زنتها ٢٠٠ طنا.

هذا وقد تم إكتشاف المدينة فى عام ١٨٤٣م، وقد ظن - فى بادىء الأمر - أنها أنقاض «نينوى» ولكن تبين بعد ذلك أنها «دور - شاروكين» (حصن سرجون) وأجريت الحفائر تحت إشراف القنصل الفرنسى «بوتا» الذى أرسل اكتشافاته إلى فرنسا عام ١٨٤٧م، حيث شكلت الجناح الأشورى فى متحف اللوفر بباريس، ثم قام «فيكتور بلاس» و«توماس» بإتمام التنقيبات فى الفترة (١٨٥٢ - ١٨٥٥م)، ثم جدد المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو الحفريات فى الفترة (١٩٢٨ - ١٩٣٥م)، وكشفت الحفريات عن قصر سرجون الضخم، والذى يحتوى على أكثر من مائتى غرفة، وثلاثين فناء، فضلا عن أجنحة خاصة، وستة معابد، وزاقورة من سبع طبقات، وقد دهنت بألوان مختلفة، وتتصل ببعضها بسلم حلزونى، وأكبر الظن أن سرجون قد استخدم الآلاف من أسرى الحرب والمئات من الفنانين والحرفيين الذين أسهموا فى بناء المدينة.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن «سرجون الثانى» لم يستقر فى عاصمة واحدة، فقد اتخذ فى أول أيام حكمه مدينة أشور عاصمة له، ثم انتقل منها إلى «كالح» (نمرود)، وفى منتصف أيام حكمه اتخذ «نينوى» عاصمة له، وأخيرا وفى السنة التاسعة من الحكم، حوالى عام ٧١٣ق.م، (وربما فى عام ٧١٧ ق.م) بدأ فى بناء عاصمته الجديدة «دو - شاروكين» (مدينة أو حصن سرجون)، وقد استمر بناء المدينة سبع سنين (٧١٣ - ٧٠٦ق.م)، (وربما عشر سنين)، ولكنه لم

يتمتع بها طويلا فلقد مات في العام التالي (٧٠٥ق.م) وقد ترك بعض أجزائها غير كاملة.

هذا ولم يكتف خلفاؤه بهجرها والإنتقال إلى «نينوى»، وإنما شوهوا كثيرا من منحوتاتها، ونقلوا بعضها إلى قصورهم فطمست معالمها، وإن كان هناك من يذهب إلى أنها ظلت مقراً للحاكم (ربما حاكم المنطقة) قرابة قرن من الزمان، وعلى أية حال، فلقد ظل اسمها في ذاكرة الأجيال المتأخرة، فلقد عرف العرب اسم «سرجون» وشوه الساسانيون اسم المدينة وأطلقوا عليها اسم «خسرو - أباد» أو مدينة خسرو»، ومن هنا جاء اسمها الحالي محرفا إلى «خرسباد أوخورسباد»[1].

(٥) نينوى: كانت «نينوى (Nineveh) العاصمة الآشورية الخامسة، وتقع الآن تحت تلي «قوينجق» و«النبي يونس»[2]،على الضفة الشرقية لنهر دجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر» (الخوصر)، على مبعدة ٤٠ كيلا من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى، قبالة الموصل، وكان العبرانيون يعممون إسم «نينوى» ليشمل كل المنطقة حول التقاء الزاب الأعلى بالدجلة.

هذا وقد اتخذ «سنحريب» (٧٠٥ - ٦٨١ق.م) «نينوى» عاصمة له، وإن لم تعمر طويلا حيث سقطت في أيدى الميديين في عام ٦١٢ق.م)، وبعد ذلك تم نهبها في صورة كاملة، وإن كان هناك من يرى أن المدينة قد سقطت في أغسطس من عام ٦١٣ ق.م، بعد معركة دموية بدأت في يونية ٦١٣ق.م.

وهناك مايشير إلى أن «سنحريب» قد أهتم بها كثيرا، ومن ثم فقد عمل على توصيل المياه العذبة إليها، وهكذا قام بتنفيذ مشروع رى ماتزال آثاره باقية حتى يوم الناس هذا، فلقد أتى بالمياه العذبة إلى نينوى من مكان قريب من نهر «الكومل» - على مبعدة ٨٠ كيلا من نينوى - أو «الجومل» (Gomel) من مجرى جبلي في

---

(١) طه باقر: المرجع السابق ص ١٩١ - ١٩٢، محمد بيومي مهران المرجع السابق ص ٣٢٩ - ٣٣٠، ٤٠٠، أندريه بارو: المرجع السابق ص ٣٤٠، ليو أبونهايم: المرجع السابق ص ٤٨٦، هنرى عبودى، المرجع السابق ص ٤٠١ - ٤٠٢.
وكذا G.Roux, op.cit, p. 291 - 292.

(٢) من المعروف - دينيا وتاريخيا - أن سيدنا يونس عليه السلام، إنما أرسل إلى أهل نيوى ، أنظر: سيرة ابن هشام ٢٢٦/٢ ، وانظر القصة بالتفصيل: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الرابع - في العراق - بيروت ١٩٨٨ ص ١٧٥ - ١٩٢.

«بافيان»، وذلك عن طريق قناة شيدت بحجر الكلس، ونظر لمرورها فى مناطق فيها الوديان وفيها المرتفعات، فقد شيدت لها قناطر على بعض الوديان، بلغ طول إحداهما ٣٠٠ ياردة، وعرضها ٢٤ ياردة، وقد نحت عند صدر القناة – عند القرية المعروفة الآن باسم «خنس» – على وجه صخرة شاهقة صورة كبيرة للمعبودات، وقد سجل عليها موجزا بأخبار تشييد المشروع، وقد كشف المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو فى عام ١٩٣٣م عن المشروع.

هذ وقد ظلت «نينوى» مجهولة حتى كشفت عنها الحفريات التى بدأت منذ عام ١٨٤٧م، حيث عثر فى هذا العام على أطلال معبد سنحريب، والذى كان يحتوى على أكثر من ألفى نقش، وحوالى ثمانين غرفة، من بينها مكتبة الملك الأشورى «أشوربانيبال» (٦٦٨ – ٦٢٦ق.م) والتى احتوت الآف اللوحات المسمارية، ثم عادت التنقيبات مرة أخرى فى عام ١٨٥٢م، حيث عثر على قصر الملك «أشوربانيال»، والذى زينه بنقوش تمثل المعارك التى دارت بينه وبين العرب، والتى يبدو منها أن عرب الشمال إنما كانوا رجالا متوسطى الطول، يرتدون ملابس صيفية، بينما تركوا رؤوسهم عارية، وشعورهم تتدلى على أكتافهم، كما كانوا ملتحين بلحى مدببة قصيرة، وتصورهم المناظر وهم يركبون الجمال، وعلى الجمل الواحد منها رجلان، الواحد لقيادة البعير، والآخر لضرب القوس.

هذا وقد كشف أيضا فى نينوى عن عدة معابد، وعلى رأس من البرونز، ربما تمثل الملك سرجون الأكدى، كما عثر فى «تل النبى يونس»، على قصر يرجع إلى أيام الملك «إسرحدون» (٦٨٠ – ٦٦٩ق.م)[١].

(٦) حران: كانت «حران» (حاران Harran) هى العاصمة السادسة والأخيرة للآشورين، وتقع على نهر «بلخ»، على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات، وإلى

---

(١) محمد بيومى مهرانك تاريخ العراق القديم ص ٣٣٠ – ٣٣١، ٣٧٦، ٤٠١، ٤٢٦، طه باقر: المرجع السابق ص ١٩٣، عامر سليمان: العراق فى التاريخ ص ١٥٥ – ١٥٧، ليو أوبنهايم: المرجع السابق ص ٥٠١، تكوين ١٠/٨–١٢، يونان ١/٢، ٣/٢–٧
A.H.Layard, Nin eh and its Remdins, London, 1849
J.Laessoe, op.cit, p. 114 - 115 وكذا, G.Roux, op.cit, p. 343 - 344 وكذا, M.F. Unger , op.cit وكذا,B.Meissner, in Oslamica, II, 1926, p. 392 وكذا, p. 795- 796

الغرب من «تل حلفا» وعلى مبعدة ٤٤٨ كيلا شمال شرق دمشق.

وقد أصبحت «حران» عاصمة للآشوريين بعد سقوط «نينوى» في عام ٦١٢ ق.م، على أيدى البابليين والميديين، ومن ثم فقد اضطر الملك الأشورى «أشور أوباط» الثانى (٦١١ - ٦٠٩ ق.م) أن يتخذ من «حران» عاصمة له، غير أن «نبوخذنصر» الثانى (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م) نجح فى أن يستولى عليها، وأن يقضى على الجيش الآشورى فى عام ٦٠٩ ق.م (وربما فى عام ٦٠٨ ق.م). وأن يقضى بالتالى على الدولة الآشورية نهائيا.

هذا وقد تردد اسم «حران» فى التوراة باعتبارها موطنا لأقرباء إبراهيم الخليل وولده، وقد تزوج منها إسحاق ويعقوب، عليهم السلام، وأن يوسف الصديق عليه السلام قد ولد هناك، كما كانت أحد مراكز عادة إله القمر، الذى عبد فى «أور» تحت اسم «ننار» (Nannar) بمعنى «المنير» ورمز إليه أحيانا بالهلال، ثم انتقل منها إلى «حران»، تحت إسم «تارح»، ثم انتقلت عباده إله القمر من حران إلى سورية وفينيقيا[1].

---

(١) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٦٢/١، ٧١، ٩٨١/٢، تاريخ العراق القديم ص ٣٣١ - ٤٣٩، تكوين ٢٤/١-٦٦، ٢٩/١- ٣٥، ٣٠/ ١-٢٦.

M.Noth, The History of Isrdel, London, 1965, p. 273 وكذا,

G.Roux, op.cit, p. 347. وكذا, M.F.Unger, op.cit, p. 455. وكذا,

L.Woolley, Aberaham, Recent Discoveries and Hebrew origins, London, 1965, p. 27 117

L.Woolley,The Beginings of Civilization, N.Y, 1956, p. 492 - 514.

الفصل الخامس

المدن والمراكز الأثرية منذ العصر الإخمينى وحتى الفتح الاسلامى

١- الإخمينيون (٥٣٩ - ٣٣١ ق.م)

بابل :دخل «كيروس الثانى» ٥٥٨٠ - ٥٣٠ ق.م) مدينة بابل فى ٢٩ أكتوبر من عام ٥٣٩ ق.م، وسرعان ما خضعت له بلاد النهرين، وبدأ الكتاب يؤرخون باسم العاهل الفارسى «كيروش ملك العالم» وعين «جوبرياس» الخائن جاكما (ستراب - Satrap) من قبل الفرس، وهنا انتهت سياده العناصر السامية فى العراق القديم، وبدأت سيادة العناصر «الهندو - أوربية»، ولمدة تقرب من اثنى عشر قرنا (٥٣٩ ق.م - ٦٣٧م)، بدأت بالفرس الإخمينيين (٥٣٩ - ٣٣١ ق.م) ثم الإغريق - بما فى ذلك عصر الاسكندر الأكبر والسلوقيين (٣٣١ - ١٣٥ ق.م) ثم الفرس الفريثيون أو البارثيون (١٣٥ ق.م - ٢٢٦م)، ثم الفرس الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧م).

هذا وقد ظلت «بابل» إبان عهد الإخمنيين عاصمة للعراق القديم، غير أنها لم تكن عاصمة سياسية، وإنما إدارية، منذ ولى «جوبرياس» واليا عليها من قبل الفرس، وربما كانت كذلك على أيام الإسكندر الأكبر منذ انتصاره على «دار الثالث» - آخر ملوك الإخمنيين - عام ٣٣١ ق.م، عند «كولميلة» - وهى تل كومل على مبعدة ٣٥ كيلا شرقى الموصل، وعلى مقربة من نهر الزاب الأعلى - والتى عرفت بمعركة «أربيلو»، وحتى وفاته فى بابل فى ١٣ يونيه عام ٣٢٣ ق.م

٢- السلوقيون (٣١٢ - ١٣٥ ق،م)

سلوقية: ورث «سلوقس الأول» (نيكاتور ٣١٢ - ٣٠٥ ق.م) - أحد قواد الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) المناطق الشرقية من الأرضين التى غزاها الإسكندر،ثم أعلن نفسه فى عام ٣١٢ ق.م (وربما فى ٣١١ ق.م) ملكا فى «بابل» مؤسسا أسرة جديدة ظلت تحكم العراق حتى عام ١٣٥ـ ق.م، غير أنه لم يجعل من بابل عاصمة له، وإنما أسس عاصمة جديدة على نهر دجلة هى «سلوقية» (تل عمر)، على مبعدة ٩٠ كيلا شمالى بابل، فى مقابل «طيسفون»

(Ctesiphon)، وربما في موقع «أوبا» (Upa) أثناء العصر البابلي، وقد احتفظت «سلوقية» بطابعها الهلينستي حتى زوالها، رغم أن معظم سكانها إنما كانوا من البابليين، الذين أدخلوا إليها تقاليدهم وعاداتهم.

هذا وقد بدأ سلوقس في بناء عاصمته «سلوقية» في عام ٣٠٧ ق.م، ثم أصبحت العاصمة السلوقية الرسمية على أيام «أنطيوخس» الأول (٢٨١ - ٢٦١ ق.م) في عام ٢٧٤ ق.م، حيث أصدر أوامره إلى السكان بالإنتقال إليها، ويقدر بعض الباحثين عددهم بحوالي ٦٠٠ ألف شخص، من بينهم عدد كبير من سكان بابل ممن هجروا إليها، وفي نفس الوقت صدرت التعليمات بإعادة بناء «الإيزاكلا» لتكون فقرا وحيدا ومركزاً دينيا للبابليين.

هذا وقد تم تخطيط «سلوقية» على النمط الإغريقي، فشقت شوارع مستقيمة، تتقاطع بزوايا قائمة، ثم سرعان ما أصبحت سلوقية من أوسع وأغنى مدن العراق القديم، كما أصبحت مقراً لجالية أجنبية - شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الإغريقية في الشرق القديم • ومن ثم كما أنشأوا «الأجورا» (وهي سوق المدينة، حيث تجرى عمليات البيع والشراء، وتعقد الإجتماعات العامة، وتسمى عند الرومان «الفوروم» (Forum) وعند اليونان (Agora) (وربما تشبه الساحة أو «الرحبة» أو «البطحاء» عند العرب ، خاصة في تونس) . هذا وقد كشفت الحفريات في سلوقية عن مبان مكشوفة، تحيط بهما ممرات من جنوبها الأربعة، وربما قد أحيطت هذه البيانات بأعمدة، كما عثر أيضاً على شارع ذى أعمدة، فضلا عن مبنى لحفظ سجلات معبد «أبولو» يتكون من وحدتين، كل واحدة منهما تحتوى على سبع غرف، يها أعمدة في الوسط، وأبواب على الأضلاع القصيرة، وأما القصر فكان يتكون من عدد من المباني المتشابهة، تتألف الواحدة منها من غرف تحيط بساحة مكشوفة، وكذا قاعات (megaron) مفتوحة من الجانب الجنوبي، يمكن الوصول إليها عن طريق سقيفة تحتوى على عمودين في مدخلها، وهكذا يعكس قصر سلوقية - وكذا قصر نفر - إندماج فكرتين معمارتين - إغريقية وبابلية - فالقاعدة (megaron) إغريقية، والساحة المكشوفة بابلية.

وعلى أية حال، فإن «سلوقس نيكاتور» سرعان ما يؤسس مدينة أخرى تحمل نعس الإسم (سلوقية) فى عام ٣٠٠ ق.م، على نهر العاصى، وعلى مبعدة ٢٤ كيلا من ساحل البحر المتوسط، دعاها «أنطاكية» نسبة إلى أبيه « أنطيوخس»، وجعلها مقر إقامته المفضل ثم سرعان ما أصبحت عاصمة الدولة السلوقية، ومن ثم فقد أصبحت الدولة السلوقية سورية أكثر منها عراقية، وبالتالى فقد انتقل المركز السياسى والحضارى والاقتصادى لغربى آسيا من ضفاف الفرات إلى ساحل البحر المتوسط[1].

٣- البارثيون أو الفريثيون (١٣٥ ق.م - ٢٢٦م)

١- بابل: خلف البارثيون أو الفريثيون السلوقيين فى حكم العراق القديم، وأكبر الظن أن مركزهم كان فى بابل، وقد اهتموا بالسيطرة على الطرق المؤدية إلى شمال العراق والحواضر الآشورية القديمة، فأقاموا حينا من الدهر فى أشور، حيث أقاموا فيها قصراً كبيراً، قلده الملوك الساسانيون فى بناء قصرهم فى المدائن فيمابعد.

هذا وقد تدهورت بابل كثيراً عل أيام البارثيين، حتى أن الامبراطور الرومانى «تراجان» (٩٨ - ١١٧م) عندما احتل بابل فى عام ١١٥م، وجدها خالية من سكانها الذين هربوا منها، الأمر الذى تكرر على أيام الامبراطور الرومانى «سبتميوس سيفيروس» (١٩٣ - ٢١١م) عندما دخلها بجيوشه، ورغم أن الفريثيين ظلوا فترة يسيطرون على المنطقة - بما فيها مدينة بابل - غير أن الضعف سرعان ما أصابها بسبب الحروب المستمرة مع الرومان، مما أدى إلى قيام الثورات الداخلية، وبالتالى سقوط دولتهم على أيدى الساسانيين فى عام ٢٢٦م، وفى نفس الوقت قامت دويلة عربية هى الحضر، والتى كانت عاصمتها مدينة

(١) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢/ ١١٣٧ (الإسكندرية ١٩٧٨)، المغرب القديم ص ١٩٣ (الإسكندرية ١٩٩٠)، واثق الصالحى: حضارة العراق ٣/ ١٨٧ - ١٩٦.

C. Hopkins, Topography and History of Seleucia on the Tigris, 1973.

C. Hopkins, Abird's eye vieww of Opis and Seleucid, Antiquity, XIII, 1939, p. 440 - 448.

L. Waterman, Preliminary Report on The Excavations at tell uman, 1933.

الحضر، وقد أسهم الساسانيون في القضاء على بابل وتدميرها نهائيا، قبل أن ينتهي القرن الخامس الميلادي[1].

٤- الساسانيون (٢٢٦ - ٦٣٧م)

(١) المدائن: وتقع على بعد ٢٥٠ كيلا جنوب شرق بغداد، وقد عرفت عند الرومان باسم «طيسفون» (Ctesiphon)، وفي نقش (شرف الدين ٤٢)- وربما يرجع إلى عهد سابور الأول (٢٤١ - ٢٧٢م)، وأثناء حصار «أذنيه» ملك تدمر، (حوالي عام ٢٦٥م) للمدينة - دعيت «قط واصف»، وظلت عاصمة الدولة الساسانية طوال عهدها (٢٢٦ - ٦٣٧م)، منذ أن استولى عليها الملك «أردشير بابل»، وقتل آخر ملوك الفريثين «أرطبان الخامس» في عام ٢٢٦م، هذا وقد اتبع في تخطيط «طيسفون» نفس التخطيط شبه الدائري، الذي كان سائداً وقت ذالك، وكانت من قبل قرية عسكرية صغيرة، في مقابل سلوقية على الدجلة، وتشير آثار الفترة اللاحقة أن المدينة كانت دائرية الشكل تقريبا، وأن هناك علاقة واضحة بين التخطيط الدائري لمدينة «طيسفون» وبين المعسكر الحربي الآشوري، والذي يظهر على المنحوتات الآشورية على شكل دائري ولعل هذا إنما يفسر لنا التخطيط الدائري لمدينة «طيسفون» التي أقامها الفريثيون في الأصل بمثابة معسكر لجنودهم، وكان لهذا النوع من التخطيط عدة فوائد منها سهولة الدفاع عن مدينتهم المدورة، ولأنها بالتالي إنما تحتوي على أسوار أقل من أسوار الشكل المستطيل بحوالي ١١٪ وتلك فائدة اقتصادية دونما ريب.

ولعل الهدف من توسيع «طيسفون» وجعلها مدينة هامة، ثم إحدى عواصم الفرثيين، إنما يرجع إلى أمرين، الواحد دفاعي، وذلك لتكون في مواجهة سلوقية، المدينة الهامة والمحصنة التي أعلنت الثورة لسنوات سبع، ثم استسلمت تلقائيا، والآخر منافسة سلوقية في تجارتها النهرية بل إن الفرثيين لم يكتفوا بذلك، وإنما قام «ولجش الأول» (٥١ - ٨٠م) بتأسيس «ولجاشية» على مقربة من سلوقية لتنافسها في أهميتها، وإن كان موقع «ولجاشية» لم يحدد حتى الآن على وجه اليقين هذا وقد شكلت «طيسفون» (المدائن) أهم مدن العراق في العصر الساساني (٢٢٦ - ٦٣٧م) ولعل من أهم مبانيها إنما كان « إيوان كسرى» (طاق

---

(١) مويد سعيد: العراق في التاريخ، ص ٢٥٤ - ٢٥٩.

كسرى - أو القصر الأبيض)، وقد نسب بناؤه إلى «كسرى أنو شروان» (٥٣١ - ٥٧٩م)، أو «كســــرى أبرويز» (٥٩٠ - ٦٢٨م)، وذلك لاحتــوائه على عناصرمعمارية مختلفة تشبه تلك التي سادت إبان القرن السادس الميلادى فى العمارة البيزنطية، وإن ذهب فريق من العلماء إلى أن بناءه من عصر «أردشير»، أو عصر «سابور الأول» (٢٤١ - ٢٧٢م) استناداً على بعض من إشارات تاريخية من مصادر مكتوبة، وأن «كسرى أنوشرواى» إنما قد جدده وأضاف إليه.

وأيا ما كان الأمر فإن «إيوان كسرى» هذا، إنما يواجه الشرق، وأن ارتفاعه ٣٥ متراً، وعرض فتحته ٢٥ مترا، وامتداده الطولى ٥٠ مترا، وقد بنيت أسسه من الآجر والجص، ورصفت بشكل عمودى - على طراز بعض جدران أبنيه آشور، وأراده أصحابه قويا متينا، ومن ثم فقد زيد فى سمك الجدران، حتى تتحمل القبو، الذى كان يرتفع حوالى المتر، وقد يصل إلى أربعة، ولم تزين جدرانه بكوات أوحنيات - كما فى غيره من القصور - إعتقاداً من المعماريين أن الشكل البسيط هو الأصلح إنشائياً، كما وضعوا بعضا من خشب فى داخل الواجهة لزيادة قوة الجدران، كما احتوى جداره الخلفى على دعامات خشبية، ومن المعروف أن استعمال الخشب فى تقوية الجدران، إنما كان من التقاليد المعمارية فى العراق، الأمر الذى شاع فى العمائر العربية الإسلامية.

هذا وكان لجدار الإيوان الخلفى مدخل يقع على المحور الطولى، ويفضى إلى مجموعة من الغرف الصغيرة المتصلة ببعضها عبر فتحات الأبواب، ثم منها إلى قاعة واسعة مغلقة بعرض الإيوان، يبدو - كما تشير الدلائل الأثرية - أنها سقفت بقبو، وهناك إلى جانبى الإيوان، غرفة على كل جانب أصغر من القاعة المغلقة الخلفية، يفصلها عن الإيوان دهليز ضيق، وقد أثبتت الحفريات أن القصر أو الإيوان إنما كان يتكون من وحدتين معمارتين، تتكون كل منهما من ثلاثة غرف واسعة تمتد على محور واحد، وتكون الوسطى فى كل منهما أوسع، وقد شكلت القاعة الوسطى فى الوحدة الأمامية الإيوان المفتوح نحو الشرق، الأمر الذى يشير إلى مبدأ التقسيم الثلاثى للمبانى فى عمارة العراق القديم، وكان للغرف الصغيرة بين الوحدتين - وقد بنيت على محور مغاير - أهمية خاصة، ذلك لأنها تفصل بينهما، كما أنها إنما تكون حلقة الوصل بين القاعات الكبيرة.

هذا وتشير بعض المصادر إلى أن بعضا من جدران الإيوان الداخلية إنما كانت مغلفة بألواح من المرمر الملون، والمنقولة من كنيسة فى أنطاكية، وأن بعضا آخر إنما قد احتوى على مشاهد حربية عملت بالفسيفساء تمثل حصار كسرى لتلك المدينة، وأكبر الظن أن أسرى أنطاكية قد أجبروا على عملها، وتتكون قطع الفسيفساء - كما تشير الحفريات - من أحجار ملونة ومذهبه كانت تشكل وحدات فنية زخرفية معينة، اتصفت بها جدران الإيوان، وطبقاً لما جاء فى بعض المصادر، فقد عملت الأرضيات من ألواح مرمرية سميكة، ثم غطيت بسجاد، نقشت عليها مناظر أشجار وحدائق وقنوات مياه، ويروى أن كسرى عندما كان يستقبل زائرية إنما كان يجلس على وسادة ذهبية، وضعت فوق عرشه عن نهاية الإيوان، وأنه كان يرتدى ملابس مزخرفة ذات نسيج ذهبى، وكان يضع فوق رأسه تاجا عظيما من الذهب والفضة، وقد طعم باللؤلؤ والأحجار الكريمة، وأن وزن هذا التاج إنما كان يقدر بأكثر من ٩٠ كيلو جرام، ومن ثم فقد كان يعلق فى السقف بسلاسل طويلة من ذهب.

هذا وقد ظلت طيسفون (المدائن) - كا أشرنا آنفا - أهم مدن العراق طوال العهد الساسانى، وحتى الاستيلاء عليها عام ١٦هـ بيد المسلمين بعد حصاد دام شهرين، وقد تعرضت أثناء العصر الساسانى لعدة غزوات، وكما حدث فى عام ١١٦م على أيدى «تراجان» (٩٨ - ١١٧م)، وفى عام ١٩٧م على أيام «سبتميوس سفيروس» (١٩٣ - ٢١١م)، وفى عام ٦٢٨م، على أيام «هرقل» (٦١٠ - ٦٤١) - وأما الإسم «المدائن» فكان يعنى مدينتى «طيسفون» و «سلوقية» الواقعتين على ضفتى نهر الدجلة المتقابلتين.

بقيت الإشارة إلى مدينتين أخريين ترجعان إلى العهد الساسانس، وهما:

١- كوخة: تشير المصادر العربية إلى مدينة سميت «وه - أردشير» (Weh-Ardashir) والتى أسسها الملك «أردشير» (٢٢٦ - ٢٤٠م) وأطلق عليها اسم «كوخة» (Coche) أو «سلوقية» الجديدة، ويذهب الإمام الطبرى (٢٤٤-٣١٠هـ) إلى أن الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص إنما قد بقى فيها بعد انتصاره فى «القادسية» (١٥هـ) وقبل عبوره نهر الدجلة، وأن اسمها كان «بهرسير»، وقد أثبتت الحفريات أنها شيدت فوق مقبرة ترجع إلى العصر الفرثى،

وأن سورها وبعض جدرانها وأسلوب تخطيطها إنما يرجع إلى عصر «أردشير الأول»، وأنها كانت مدورة الشكل، وشوارعها غير منتظمة، وبها ساحات تطل عليها مجموعة من الحوانيت والمخازن، مما يشير إلى أهميتها التجارية، كما أن بها «إيوانا» مما يشير إلى العمارة العراقية التى تمثلت فى الحضر.

٢- مدينة كسرى أنطاكية: هناك مايشير إلى أن كسرى أنوشروان» (٥٣١-٥٧٩م) عندما استولى على أنطاكية فى عام ٥٤٠م، بنى مدينة جديدة على مقربة من «طيسفون» لسكنى أسراه، وقد أسماه «مدينة كسرى أنطاكية»، وقد شيدت على طراز مدينة أنطاكية، وطبقا لرواية الإمام الطبرى، (٢٢٤ - ٣١٠هـ/ ٨٣٩ - ٩٢٣م) فلقد شيدت بيوت السكان طبقا للتخطيط السورى، وكان بالمدينة ساحة لسباق الخيل، ومرافق عامة لاتوجد فى المدن الشرقية عادة، وقد أطلق عليها الكتاب العرب اسم «الرومية»، ومازال آثارها باقية، على مقربة من «طيفسون»، وتسمى «بستان كسرى»، وتقع على مبعدة حوالى ٢٠ كيلا، جنوب شرق إيوان كسرى، وقد كشفت الحفريات عن سورها الضخم، ذى الأبراج المستطيلة، هذا وتجدر الإشارة إلى أن مدينة «أنطاكية» نفسها، إنما قد اشتملت على أبراج مربعة ومن ثم فإن تحصينات المدينة إنما قد اتبعت التخطيط الرومانى المتأخر، وربما البيزنطى. ويستدل من الحفريات فى «بستان كسرى» على أن للمدينة سورا، ربما كان مستطيلا، أو مربعا، طبقا للتخطيط الرومانى كذلك.

وهناك أيضا «أسبانير» أو «أسفابور»، وطبقا لماجاء فى المصادر العربية، فلقد كان بها «إيوان»، فضلا عن أنها إحدى المدائن السبع، التى سميت بها «المدائن»[1].

---

(١) فرج بصمه جى: نبذة تاريخيه عن طيفسون - بغداد ١٩٦٤، وائق الصالحى: حضارة العراق ٢٤٥/٣-٢٥١، ٣٤٩ - ٣٥٩، صالح أحمد العلى، المدائن فى المصادر العربية، سومر ١٩٦٧ ص ٤٧ - ٦٥، طارق مظلوم: المدائن سومر ١٩٧١/٢٧ ص ١٢٩ - ١٤٢.

وكذا J.Fiey. Topography of Al-Mada' in Sumer, 23, p. 3 - 38.

وكذا Antonio Invernzzi, Ten Years Research in THe Al-Mada'in Area, Seleucia and Ctesiphon, Sumer, 32, 1967, p 167 - 175.

الفصل السادس
العواصم الإسلامية

١- البصرة:

هى أول مدينة إسلامية أسست فى العراق، أسسها القائد العربى «عتبة بن غزوان» فى عام ١٦ هـ/٦٣٧م[١]، على أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه وأرضاه (١٣- ٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م)، وذلك لأن المقام لم يطب للعرب فى المدائن، قاعدة الفرس، لعدم تعودهم على حياة المدن الكبيرة، كما أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أراد أن لايحول بينه وبين المسلمين بحر، إذ أراد أن يمدهم بالجند، ومن ثم فقد شرع العرب فى بناء البصرة، ثم الكوفة.

وكانت البصرة- وتقع على مبعدة ٢٢ كيلا من «الأبله على الخليج العربى» - فى بادىء أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة فأنشىء بها أولا المسجد، ثم دار الإماره بجواره، وحولها خطط، لكل قبيلة منها حطة ومسجد ومقبرة، وقد بنيت فى البداية بالقصب ثم الطين، ثم بالآجر والحجارة.

وكانت مقاتلة البصرة فى أوائل سنى تأسيسها أقل عددا من مقاتلة الكوفة، ومواردها قليلة، وقد أنشئت فى بقعة بعيدة عن الأنهار، فكان الماء فيها قليلا مجًا، وبمرور الأيام تم علاج هذه الأمور، فحفرت لها ترع تصلها بشط العرب وبالبطيحة، وتزود أهلها بالماء العذب، وبأسباب المواصلات، ثم إن قيام مقاتلتها بفتح أقاليم شرقى وجنوبى شرق الهضبة الإيرانية جلب لها موارد كبيرة فى جباية

---

(١) اختلف المؤرخون فى تحديد تمصير البصرة، فمن يجعله فى عام ١٤هـ (ابن الأثير ٣١٩/٢، البلاذرى: فتوح البلدان ص ٣١٤، المسعودى: مروج الذهب٣١٩/٢)، ومن يجعله عام ١٥ هـ(المقدسى· أحسن التقاء م ص ١١٧) ومن يجعله عام ١٦هـ(المسعودى: مروج الذهب ٣٢٠/٢، تاريخ بن خلدون ١٠٣/٢)، ولعل سبب هذا الإختلاف إنما يرجع إلى نزول «عتبة بن غزوان» بها عام ١٤هـ، وإقامة المسلمين فى ثكنات من القصب، ثم بناء المدينة من اللبن والأحجار بعد ذلك، هذا ويذهب «جرجى زيدان» (التمدن الإسلامى ١٦١/١) إلى أن البصرة كانت خمسة أقسام، نزل فى كل منها قبيلة من العرب الفاتحين (أحمد الشامى: الخلفاء الراشدون ص ١٧٤).

هذه الأقاليم، هذا فضلا عن أن قرب البصرة من البحر، إلى جانب صلتها الوثيقة بخرسان والسند، إنما قد ساعد كثيرا على ازدهار تجارتها.

وهكذا لم يمض على تأسيس البصرة عقدان من الزمان، حتى أصبحت واحدة من أهم المراكز التجارية في العالم الإسلامي، وخاصة في التجارة بين الهند والصين، ومن ثم فقد حلت محل «الأبله» على الخليج العربي، ثم سرعان ما أصبحت مقصد القوافل، ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن معظم سكان البصرة، إنما كانوا من ربيعة ومضر، ثم سرعان ماوفدت إليها جاليات من الهند والسند والصين، كما تردد عليها كثير من العرب للتجارة، الأمر الذى أدى إلى ظهور حياة أدبية جديدة فيها، فضلا عن تأثر الحركة الإسلامية بالفلسفة اليونانية القديمة(١).

٢ - الكوفة:

أدرك الصحابى الجليل «سعد بن أبى وقاص» رضى الله عنه، أن المدائن - العاصمة الفارسية - لم تكن ملائمة لاتخاذها - بعد أن فتحها فى عام ١٦هـ، بعد حصار دام شهرين - مقراً له، ومقاما لجيوش الإسلام وذلك لأن بالمدائن عدداً كبيراً من أنصار الفرس ومؤيديهم، ولأن أهلها قد تعودوا حياة الترف، هذا فضلا عن انفصالها عن الصحراء بأرضين قد غطيت بالمزارع وأشجار النخيل والترع، هذا إلى أن مناخها رطب، كما أنها فى منطقة موبوءة بالملاريا

ومن ثم فقد كتب سعد إلى الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» رضى الله عنه بكل هذا، وسرعان ماجاءه الرد بالبحث عن مكان آخر له ولجيشه، على أن يكون على طرف الريف، وعلى ألا يفصله عن بلاد العرب حاجز مائى، وعلى أن يكون مناخه جافا، ملائما لرعى الإبل.

وهكذا بعث سعد الصحابيين الجليلين «سلمان الفارسى» و «حذيفة بن اليمان» رضى الله عنهما - بأمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - يرتادان له موضعا تتوافر فيه الشروط التى أشار إليها الخليفة، وقد وقع اختيارهما على مكان

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٥١٧/١، صالح أحمد العلى: العراق فى التاريخ ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

غربى الفرات، ويقع على مبعدة ٤٠ كيلا جنوبى بغداد، ٥ كيلا شمال الحيرة.

وأقر الخليفة هذا الإختيار، ونزال «سعد بن أبى وقاص» بجنده فى مكان الكوفة، فى المحرم عام ١٧ هـ - يناير ٦٣٨م، بعدأن خلف فى المدائن بعض المسلمين الذين رغبوا فى البقاء بها، وكان معظمهم من «عبس» وعسكر المسلمون من جنود العرب - وعددهم أربعون ألفا - فى الخيام أولا، ثم بنوا بيوتا من القصب، وسرعان ما أتت عليها النار، فأمر الخليفة الراشد أن تبنى الدور باللبن، فاختط «أبو الهياج بن مالك الأسدى» شوارعها وأزقتها، ثم اختار القوم موقعا وسطا لبناء الجامع، وخصص له رقعة واسعة تكفى لاجتماع خمسين ألفا، وأحاطوه بسياج من القصب، وأقاموا فى طرفه الجنوبى الغربى المتجه نحو الكعبة المشرفة، ظلة مقامة على أعمدة من خشب، وقد سقفت بالقصب، لتقى المصلين حر الصيف، وبلل الأمطار، ثم أبدلوا القصب بالطين.

وأقام القوم - بجوار الجامع من ناحية الظلة - بيتا للوالى، وآخر لحفظ السجلات والحسابات، وقد سموا الأول «دار الإمارة» ، والثانى «الديوان» ، وقد شيدت هذه المبانى بالطين و"لقصب، وظلت كذلك حتى عهد «معاوية بن أبى سفيان» (٤٠ - ٦٠هـ/٦٦٠- ٦٨٠م) فأعاد واليه «زياد» بناءها بالطابوق، وجعل سوارى المسجد من الحجارة.

هذا وقد أحيطت هذه المبانى (الجامع ودار الإمارة والديوان) من كافة أطرافها بساحة واسعة عرضها ٥٠ مترا، تخرج منها عدة سكك، عرض كل منها ٥٠ ذراعا (حوالى ٣٥ مترا)، وتتشعب من كل سكة طرق فرعية، عرض كل منها حوالى ١٧ مترا.

ومن المعروف أن المسلمين إنما كانوا يبدأون فى بناء المدن بالمسجد، إتباعا لسنة سيدنا ومولانا محمد رسول الله (ﷺ)، عندما بدأ ببناء المسجد النبوى الشريف، عندما هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فى عام ٦٢٢م، ذلك لأن المسجد، إنما كان المقر الرسمى للدولة، فيه تقام الصلوات، التى تربط المسلم بالله، رب العالمين وتنقى الإنسان من أدران الأرض، ودسائس الحياة الدنيا، ومنه تصدر القوانين، وفيه تناقش الأمور، ومنه تذاع البلاغات، وفيه يفصل فى الخصومات، وفيه تقام حلقات الدرس حيث يتعلم المسلمون أمور دينهم.

وعلى أية حال، فلقد كان الجامع ودار الإمارة وبيت الديوان، هى الأبنية

العامة الوحيدة فى المدينة، وهى أبنية بسيطة فى عمارتها، متوسطة فى موقعها، تربطها السكك بكل أرجاء المدينة وأطرافها، ومن ثم فقد أصبحت هذه المنطقة قلب المدينة، وأكبر مركز حيوى بها.

وسرعان ما ازدادت أهمية الكوفة حتى أصبحت من أعظم مراكز العلم والسياسة والحرب فى البلاد الإسلامية، وغدت الكوفة، قصبة العراق الأعلى، فكان والى الكوفة يعين من قبله الولاء على الباب وأذربيجان وهمدان والرى وأصبهان والموصل وقرقيسيا، وكان أكثر من نزل الكوفة من عرب اليمن.

ولما ولى سيدنا الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم الله وجهه فى الجنة - الخلافة (٣٥- ٤٠هـ/ ٦٥٦ - ٦٦١م)، إتخذ الكوفة حاضرة لخلافته، لأن بها شيعته وأنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها، ووقوعها فى مكان متوسط، سهل الإتصال بأجزاء الدولة الإسلامية، هذا إلى أن الإمام على إنما كان يستعد لحرب معاوية بن أبى سفيان، بعد أن امتنع عن البيعة، بل وحشد جنده لحرب الإمام[1] عليه السلام.

وكانت الكوفة أيضا حاضرة الخلافة على أيام خامس الراشدين، «الإمام الحسن بن على بن أبى طالب» (١٧ رمضان ٤٠ هـ-ربيع الأول ٤١هـ)، والدليل على أن الإمام الحسن بن على، هو خامس الراشدين، فلقد روى الأئمة: أحمد بن حنبل وأبو يعلى وابن حبان، من طريق سفينة مولى سيدنا رسول الله (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا»، وإنما كملت الثلاثون سنة بخلافة الإمام الحسن بن على، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت سيدنا رسول الله (ﷺ)، فإنه توفى فى ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة[2].

---

(١) حسن إبراهيم: المرجع السابق ٥١٧/١ - ٥١٩، صالح أحمد العلى: العراق فى التاريخ ص ٣٣٠ - ٣٣٣، محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة ١٩/٢ - ٢٠ (بيروت ١٩٩٠م).

(٢) أنظر: محمد بيومى مهران: فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين - الجزء السابع - الإمام الحسن بن على - بيروت ١٩٩٠ ص ٤٣ - ٦٦.

٣- واسط:

في أواسط العصر الأموى (٤١- ١٣٢هـ/ ٦٦١- ٧٥٠م) شهد العراق تأسيس ثالث مدنه الإسلامية - بعد الكوفة والبصرة - وذلك حين طلب «الحجاج بن يوسف الثقفي» (٦٦٠ - ٧١٤م) - والى العراق، في عهد «عبد الملك بن مروان» (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥- ٧٠٥م) من الخليفة، السماح له بتأسيس مدينة جديدة تتوسط العراق، على الضفة الغربية للدجلة.

وهكذا بدأ بناء المدينة الجديدة، وأمر الحجاج أن تتوسط دار الإمارة المكان المختار، وأن يكون المسجد الجامع ملاصقا لها، وأن يكون بينهما وبين خطط الناس خلاء، وأن يكون المسجد مربعا (طول ضلعه ٢٠٠ ذراعا)، وكذلك دار الإمارة (طول ضلعها ٤٠٠ ذراعا)، والتي يجب أن تكون هي القلب الذى تتقاطع عندها الشوارع الرئيسية الأربعة ، وأما خطط الناس فكانت مهنية من جهة - أى أن يكون أهل كل مهنة في مكان - وقبلية من جهة أخرى، وهكذا كان لأهل الشام والبصرة والكوفة مكان خاص لكل منهم، وقسمت المدينة أربعة أرباع، ثم سورت بخندق وسورين، على رأى، وسورين وخندق، على رأى آخر، وكانت أبواب السورين تغلق ليلا، ولايسمح لغير أهل واسط بالمبيت فيها.

وعلى أية حال، فلقد احتفظت «واسط» بمركزها الإدارى في العهد الأموى، ثم أخذت في التوسع في العصر العباسي، ومن ثم فقد امتد البناء خارج السور في الجهة الغربية حتى الجانب الشرقي منه، مما أدى إلى بناء جسر يربط بين الجانبين، وازدهرت الحياة الاقتصادية والعلمية في واسط، حتى دخلتها جيوش «هولاكو» (١٢١٧- ١٢٦٥م) في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، ثم جيوش «تيمورلنك» (١٣٣٦-١٤٠٥م) بعد ذلك بقرن ونصف، فعاثت كل منهما فساداً وقتلا وحرقا وهدما وتخريبا في المدينة، ثم كان تغيير نهر الدجلة لمجراه بمثابة الفصل الأخير في حياة «واسط»[1].

٤- بغداد:

عندما استولى أبو العباس السفاح (١٣٢- ١٣٦هـ/٧٥٠- ٧٥٤م) على الكوفة، شيد في طرفها الغربي مدينة سماها «الهاشمية»، وانتقل إليها مع حاشيته

---

(١) صالح أحمد العلي: المرجع السابق ص ٣٣٦ - ٣٣٨.

وأنصاره، ثم سرعان ماقرر الإبتعاد عن الكوفة، فنقل مقامه إلى مدينة شيدها قرب «ابن هبيرة» – على مبدعة ٤٨ كيلا شمال شرقى الكوفة، وسماها أيضا «الهاشمية»، غير أن القوم ظلوا يطلقون عليها الإسم القيم (مدينة ابن هبيرة)، فلم يرضه ذلك، وربما كانت هناك أسباب أخرى زادت من استيائه من عاصمته الجديدة، ومن ثم فقد انتقل إلى «الأنبار» وشيد على مقربة منها مدينة سماها كذلك – وللمرة الثالثة – «الهاشمية»،فأقام فيها، حتى توفى فى عام ١٣٦هـ، كما أقام بها كذلك خليفته «أبو جعفر المنصور» (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤ – ٧٧٥م) فى أول ولايته للخلافة.

غير أن المنصور سرعان ما أدرك أن الهاشمية (نسبة إلى هاشم بن عبد مناف جد النبى (ﷺ) وكذا بنى العباس) أو «هاشمية الأنبار» لاتصلح مقرا للخلافة، ومن ثم فقد أخذ يبحث عن مكان آخر، يقع وسط أرضين خصبة، يرويها ماء دجلة، والجداول التى تأخذ مياهها من الفرات، وفى مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته، وتتوافر فيه سبل المعيشة، وفى مكان وسط العراق، حيث العواصم القديمة الكبرى – مثل «أكد» عاصمة سرجون الأكدى، و«بابل» العاصمة العتيدة للآموريين والكلدانيين، بل والإخمينيين، فضلا عن الإسكندر المقدونى، و«سلوقية» عاصمة السلوقيين، و«طيفسون» عاصمة الفريثيين والساسانيين – ، وفى أطراف هذه المنطقة كانت الحيرة عاصمة المناذرة، والكوفة المركز الرئيسى الأول للعرب المسلمين–.

وهكذا بعث المنصور روادا يختارون له مكانا لحاضرته الجديدة، فدلوه على مكان يقع على مقربة من «بارما» جنوبى الموصل، فخرج إليها فى جمع من رجالات بلاطه وبات فيه، ولما أصبح سأل رجاله عنه، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه، فقال: ولكن لا مرفق فيه للرعية، ودلهم على مكان تجلب إليها المون من البر والبحر، كان قد مر به، فعاد إليه وأقام فيه يوما وليلة، وكان الوقت صيفا، فأعجبه هواؤه، ووجد فيه مايفى بغرضه، ثم حببه إليه أهل النواحى المجاورة، وهكذا اختار المنصور موقع عاصمته الجديدة فى رقعة مرتفعة من الأرض على الجانب الغربى لنهر دجلة، عند مصب نهر الرفيل فيه.

وهكذا اختار المنصور موقع «بغداد» فى منطقة بها بضع قرى، ودير للنصارى،

وجسر على دجلة وسوق تقام فى بعض أيام الأسبوع، فالأرضين التى حول المنطقة المختارة سهلة فسيحة، فيها مزارع تسقيها ترع تخرج من مياه نهر «الرفيل» الواسع الذى يأخذ ماءه من الفرات، ومن نهر «دجيل» الذى يأخذ ماءه من دجله، هذا إلى أن الأرضيين المزروعة كانت واسعة تنتج محاصيل زراعية بمقادير كبيرة، هذا فضلا عن أرضين منبسطة تقابلها فى شرق دجلة، تروى مزارعها عدة أنها وترع أكبرها «بوق».

وبدأ المنصور فى بناء عاصمته الجديدة فى عام ١٤٥هـ، وتم بناؤها فى عام ١٤٧هـ، وأطلق عليها إسم «مدينة السلام»، غير أن الناس إنما كانوا يسمونها فى الغالب «مدينة المنصور» - نسبة للخليفة المنصور الذى شيدها - كما أطلقوا عليها، وعلى ماشملته من مبان، عند توسعها «بغداد»، وهو الإسم الذى كان يطلق على المنطقة منذ أيام البابليين، و«بغداد» - فيما يرى البعض - مكونة من كلمتين، «باغ» وهى بالفارسية بمعنى «بستان»، و«داد» وهو إسم لرجل كان يملك هناك بستانا، على أن هناك من يرى أن «بغ» إسم صنم، و«داد» وهو إسم لرجل كان يملك هناك بستانا، وهناك من يرى أن «بغ» إسم صنم، و«داد» بمعنى أعطى أو منح، روى أن كسرى أقطع هذه الناحية عبدا من المشرق مس عبدة الأصنام، فقال العبد: بغ دادى، أى أن الصنم أعطانى، وروى الإمام النسائى أن رجلا قدم على «عبد العزيز بن أبى رواد» ، فقال له: من أين أتيت؟ فقال: من بغداد، فقال : لاتقل بغداد، فإن «بغ» صنم، و«داد» أعطى، ولكن قل: «مدينة السلام».

وأيا ماكان الأمر، فإن المنصور جعل مدينته مدورة، وأحاطها بخندق وسورين، بينهما فسحة واسعة، وكان السور الداخلى أعرض سمكا، وأعلى ارتفاعا، وأحكم بناء، وعليه شرفات كالأبراج، كما جعل للمدينة أبوبا أربعة (باب الشام وباب الكوفة وباب البصرة وباب خرسان)، وفوق كل باب قبة، وحصن كل مدخل بباب ضخم من حديد يمكن إقفاله، ورسم فى داخلها سككا مستقيمة تمتد إلى رحبة واسعة فى وسط المدينة المدورة.

هذا وقد شيد الخليفة فى وسط الرحبة قصرا كبيرا مربع الشكل (طول كل ضلع منه ٢٤٠ مترا)، وبنى فى طرف القصر «إيوانا» ضخما، تعلوه قبة سامقة

الإرتفاع، خضراء اللون، ترى من مسافات بعيدة، وجعل سقفه من الساج، وزخرفه بماء الذهب، ومن فقد سمي «قصر الذهب» - حيث كان مقام الخليفة ومقر عمله - ثم بنى شرق القصر جامعاواسعا مربع الشكل (طول كل ضلع فيه ١٢٠ مترا).

وظللت بغداد عاصمة الخلافة العباسية، حتى عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣- ٨٤٢م)، فبنى عاصمته «سامراء» (سر من رأى) - على مبعدة حوالى ١٠٠ كيلا شمالى بغداد، على الضفة اليسرى للدجلة - وذلك فى عام ٢٢١هـ، ثم انتقل إليها مع جيشه وكبار رجال دولته، غير أن بغداد لم تتأثر كثيرا بانتقالهم، وإنما ظلت عامرة مزدهرة، وظل الخلفاء العباسيون يقيمون فى «سامراء» قرابة السبعين عاما، حتى نهاية عهد «المعتضد» (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)، ثم عادوا بعدها إلى بغداد، فبقوا بها حتى نهاية الدولة العباسية فى عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م على أيدى المغول، بقيادة «هولاكو».

وسرعان ماسارع الخراب إلى «سامراء»، ولم يبق فيها إلا قبر مولانا الإمام على الهادى (الإمام العاشر)، والسرداب الذى اختفى فيه محمد المنتظر - الإمام الثانى عشر عند الإمامية الإثنى عشرية - هذا فضلا عن قبور الخلفاء العباسيين: الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهدى والمعتمد.

هذا وقد ذكر لنا «ياقوت الحموى» سبعة عشر قصرا، بناها «المعتصم» و«المتوكل» (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٧- ٨٦١م) فى «سامراء»، وقد أصبحت هذه القصور نموذجا للقصور التى بنيت فيما بعد فى البلاد الواقعة فى بخارى شرقا، وقرطبة غربا[١].

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٣٠/٩ - ٢٤١، الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ٢١/١-٨٢. ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٢ - ١١٧، اليعقوبى: كتاب البلدان ص ٢٣٩ - ٢٥٤، صالح أحمد العلى: المرجع السابق ص ٣٧٣ - ٣٨٦، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ٣٦٠/٢ - ٣٨٢. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٥٥٧/٥ - ٥٦٠، ٥٧٣ - ٥٧٥، ابن كثير: البداية والنهاية ٩٦/١٠ - ١٠٣، محمد الخضرى: تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية ص ٧٧ - ٧٩، عبد العزيز سالم: العصر العباسى الأول ص ٦٣ -٦٥.

وكذا LeStrange, (Guy), Baghdad During The Abbasid Caliphate, Oxford, 1924, p. 9-18.

الباب الثالث

بلاد الشام

الفصل الأول
فلسطين

القدس الشريف:

تقع القدس علي خط عرض ٣١° ٤٦َ ٤٥ً شمال خط الاستواء، وعلى خط طول ٣٥° ١٣َ ٢٥ شرق جرينتش، وعلى مبعدة ٢٤ كيلا إلى الغرب من البحر الميت، و٥٣ كيلا إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط، وثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقى من «بيت لحم»[١]، وهى هضبة غير متسوية تماماً، يتروح ارتفاعها بين ٢١٣٠، ٢٤٦٩ قدماً، وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠° صيفاً، وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء، كما أن التفاوت فى الحرارة كبير بين الليل والنهار، ومطرها شتوى متوسط، ورطوبتها متوسطة أيضا، ويندر بها الثلج وليس بها أنهار، وإنما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت في غزارة الماء وصلاحيته للشرب وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة عند هطول الأمطار، وكانت المدينة إلى عهد ليس ببعيد تعتمد أساساً على تجميع مياه الأمطار فى صهاريج وآبار أعدت لهذا الغرض[٢].

وأعلى مرتفعات المدينة يوجد فى حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ومن ثم فقد اعتبرت منذ القدم موقعاً استراتيجياً قوياً جداً، واشتهرت بأنها لاتظهر عند الزحف عليها من بعيد، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها، وهم مايزالون على مسافة طويلة[٣].

وهذا وقد اشتهرت المدينة بعدة جبال، أولها: جبل الزيتون (جبل الطور) ويقع إلى الشرق من القدس، مواجهاً لأسوار الحرم الشريف (المسجد الأقصى)، ويفصله عنه واد عميق سريع الانحدار،هو وادى «قدرون» ويسميه التلمود «جبل المسح» أى جبل التتويج، لأن القوم إنما كانوا يستخدمون زيتونة المقدس فى تتويج

---

(1) M.F.Unger, op.cit., p. 576.

(٢) حسن ظاظا، القدس، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ١١.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١١ - ١٢. وانظر محمد بيومى مهران: إسرائيل ٨١٢/٢ - ٨٦٦ (الاسكندرية ١٩٧٨) وأنظر طبعة ١٩٩٠ ص ٧٣١ - ٧٧٠.

ملوكهم من بنى إسرائيل، وعليه كانت تحرق بقرة حمراء قرباناً ليهوه رب إسرائيل، ثم يستخدمون رمادها فى تطهير الهيكل، وإعادة تكريسه إذا دنس، وهى عادة وثنية كانت منتشرة فى هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية.

وأما ثانى الجبال فهو «جبل بطن الهوا»، وهو امتداد جبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس عنها «وادى سلوان» الذى يتصل فى هذه النقطة نفسها بوادى قدرون، ويسميه اليهود «الجبل الفاضح» (هارها مشحيت)، ويزعمون أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنبيات وأنه المقصود فى رواية التوارة فى سفر الملوك الأول (١٩ : ١-٨)، وأما ثالث الجبال، فهو «جبل صهيون» والذى سماه داود بعد أن احتل المدينة «جبل داود» ويقع فى الجنوب الغربى للقدس القديمة، وهناك «جبل موريا» أو «جبل بيت المقدس»، ويقوم عليه مسجد الصخرة والمسجد الأقصى.

ثم هناك «جبل أكرا» حيث توجد كنيسة القيامة، ثم جبل رأس المشارف (سكوبوس»، والذى يسميه التلمود «جبل المراقبين» ويقع شمال شرقى المدينة وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقى إلى الشمال، ويفصل بينهما منخفض يسمى «عقبة العمران» ثم هناك «جبل رأس أبو عمار» ويقع إلى الغرب من قرية «بتير» وهناك «جبل السناسين»، ويقع إلى الجنوب الغربى من «وادى فوكين» ثم «جبل النبى صموئيل» ويقع شمال غربى المدينة، على بعد قريب من غربى قرية «بيت حنينا»، وشمال قرية «بيت أكسا»

هذا، ويبدو أن هناك جبلا كان فى قديم الزمان، يقوم بين جبل سكوبولس وبين هضبة الحرم الشريف (جبل موريا)، ذكره «يوسف بن متى» فى كتابه «حرب اليهود الجزء الأول - الباب الخامس»، وسماه «بيزيتا» (أى بيت الزيتون أو «منبت الزيتون»)، ولما تولى أجريبا الأول، (٤١ - ٤٤م) من أسرة هيرودس الكبير فردم مابين الجبلين - جبل موريا، وجبل بيزيتا - ومد أسوار المدينة إلى ماوراء هذا الجبل الأخير، بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة»[٤].

(٤) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٢ - ١٥؛ عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٣ - ١٥

هذا وتحاط القدس بعدة تلال، لعل أهمها «تل الفول» ويقع على مبعدة ستة كيلو مترات إلى الشمال من القدس، حيث كانت مدينة جبعة القديمة، والتى كشف «وليم أولبرايت» فيها عن بقايا قلعة شاؤل، فيما بين ١٩٢٢، ١٩٣٣م، والتى لم يبق منها فى الواقع إلا جزء صغير، يتكون من برج فى أحد الأركان وجزء من الاستحكام المسقوف المجاور له[٥]، ثم هناك تل الكابوس على مبعدة ثمانية كيلو مترات إلى الشمال الشرقى من المدينة المقدسة، وتل النصبة على مبعدة اثنين من الكيلو مترات جنوبى «البيرة» فى قضاء القدس، وهناك كانت تقع مدينة المصفاة الكنعانية - حيث نودى بشاؤل ملكا على إسرائيل[٦]ثم هناك «تل القرين» ويقع شمال شرق المدينة بين «وداى الصوينت» شمالا، وفارة جنوباً، وتل صرعة (تل صروع بالعبرية)، ويقع غربى جبال القدس، حيث توجد قرية تسمى باسمه، وإلى الشرق من قرية «دير رافات»، وإلى غرب «عرطوف» وأخيراً فهناك «تل شلتا» (تل شيلات) ويقع فى جبال القدس غربى قرية «بلعين» وعلى مقربة من قرية «شلتا»[٧].

وأما الوديان المحيطة بمدينة القدس، فأهمها وادى قدرون: وهو اسم جدول الماء الذى يجرى فى قاعه عندما يسقط المطر، وقد اشتهر باسم «يهو شافط»، وطوله نحو كيلو مترين، ويفصل السور الشرقى للقدس عن جبل الزيتون ويعتقد كثير من الطوائف اليهودية والمسيحية أن الحشر يوم القيامة إنما سوف يكون فى هذا الوادى، اعتماداً على روايتين فى التوراة، تقول الأولى: «احمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادى يهو شافط، لأنى هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية»[٨].

---

(5) W.F.Albright, The Archaeology of Palastine, (penguin Books), 1949, p. 120 - 121.

(٦) صموئيل أول ١٠:١١ - ١١:٢٧.

(٧) عبد الحميد زايد، المرجع السابق ص ١٥.

(٨) يوئيل ٣:٢، ١٣؛ حسن ظاظا، المرجع السابق ص ١٥ - ١٦

وهناك وادى سلوان: ويمتد على طول جنوب القدس، حتى الطرف الجنوبى الشرقى من جبل صهيون، وقد أطلق عليه العرب إسم «حقل الدماء»، وكان يسمى قبل مجئ العبرانيين «وادى هنّم» نسبة إلى قبيلة «هنّم» (بتشديد النون) وقد جاءت كلمة الوادى فى بعض اللغات السامية القديمة تحت اسم «جى» فكان يقال «جيهنم» - أى هذا الوادى - وكانت قبيلة «هنّم» تقدم الضحايا البشرية لإلهها «مولك» بذبحها وإلقائها فى النار، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنّم» على مكان العذاب فى الآخرة، للشبه القائم بينها.

ثم هناك وادى الجبانة أو «التيروبيون»، ويفصل جبال صهيون عن غرب القدس، حيث ينتهى وادى سلوان، وكان يسمى فى الجزء الجنوبى الغربى من القدس «وادى الزبالة» أو «وادى الدمن» أو «وادى القمامات»، وهناك كذلك وادى الأرواح (رفائيم، أو العفاريت)، ويدور حول غرب جبل صهيون، وأقصى الجنوب، هذا إلى جانب مجموعة أخرى من الوديان، مثل وادى زيتا ووادى التعامرة ووادى النار ووادى مكلك والوادى الكبير[٩].

(٢) مكانة القدس الدينية:

تحتل القدس مكانة دينية فريدة بين مدن العالم، القديم منها والحديث، فهى المدينة الوحيدة فى العالم أجمع، التى يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - على قدسيتها، ومن ثم فقد كانت ومازال - وستظل أبداً إن شاء الله - رمزاً للبشرية المتدينة على اختلاف مللها ونحلها ومذاهبها، وهكذا رأينا اليهود يقدسونها، لأن لهم فيها ذكريات دينية وسياسية، ففيها كان هيكلهم المشهور، كما أنها كانت عاصمة لدولتهم حيناً من الدهر.

ويقدسها المسيحيون لأنها موطن المسيح ومبعث هدايته، ومن ثم فقد اتخذوا عادة الحج إليها كما يفعل اليهود، وربما الأرجح لأن المسيح، عليه السلام - طبقاً لرواية إنجيل لوقا - قد حج إليها فى صباه مع أبويه (مريم العذراء ويوسف خطيبها)، ولما كان فى الثانية عشرة من عمره، بقى فيها حيناً من الدهر يتعلم ... ويعظ[١٠] ثم زاد الحجيج من المسيحيين إلى القدس، بعد أن بنت

(٩) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٥-١٧؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٥- ١٧.
(١٠) لوقا، ٢: ٤١- ٥٢.

«هيلانة» أم الإمبراطور الرومانى قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧م)- الذى لم يعترف بالمسيحية كديانة فحسب، بل إنه هو نفسه قد اعتنق المسيحية فى عام ٣١٢م، على رأى جماعة من المؤرخين، وإن رأت جماعة أخرى أنه بقى وثنياً طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض - بنت فى عام ٣٢٦م كنيسة القيامة، فسعى إليها الحجيج من كل حدب وصوب، لأنهم يعتقدون أن جثمانه الطاهر دفن فى مكان هذه الكنيسة، ثم رفع إلى السماء[١١].

ويقدسها المسلمون[١٢] لأن الله تعالى شاءت إرادته أن يخصصها بالعديد من الأنبياء إبتداء من أبيهم إبراهيم، وحتى عيسى ابن مريم، عليهم السلام - ولأن فيها أولى القبلتين[١٣]، وثالث الحرمين الشريفين[١٤]، ولأن بها مسرى جدنا النبى الأعظم مولانا وسيدنا رسول الله - ﷺ - وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله﴾[١٥].

---

(١١) عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٩، فيليب حتى، المرجع السابق، ص ٣٨٧، ثم قارن. Sozomenus, BK, I.Ch. 4; Eusebius, BK, IK, IX, Ch. 9, 2

(١٢) انظر التفصيلات: محمد بيومى مهران، القدس حتى عصر داود، مؤتمر قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية عن «القدس - التاريخ والحضارة» فى الفترة (٢-٥نوفمبر ١٩٩٦م).

(١٣) انظر: سورة البقرة: آية: ١٤٢ - ١٤٤ك وكذا: تفسير الطبرى ١٢٩/٣ - ١٨٤ تفسير ابن كثير ٣٧٢/١ - ٣٨٠؛تفسير القرطبى، ص ٥٣١ - ٥٥٠ تفسير المنار ٧/٢، ١٢-١٣ صحيح البخارى ٢٥/٦ - ٢٧، (دار الشعب ١٣٧٨هـ)؛ صحيح مسلم ١٦٠/٢ - ١٦٢، (دار الشعب القاهرة ١٩٧٠)؛ مسند الإمام أحمد ٢٤٦/٥ - ٢٤٧، (القاهرة ، طبعة الحلبى) ؛ الهيثمى، مجمع الزوائد ١٢/٢؛ السيوطى، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٤٣/١، ١٤٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية ٣٧٢/٢ - ٣٧٧؛ ابن هشام، سيرة النبى ﷺ، ٥٥٠، طبعة الحلبى، القاهرة، ١٩٥٥.

(١٤) أنظر: صحيح مسلم، ٤١/٢، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧٢، الزركشى، كتاب إعلام الساجد، ص ٢٨٧؛ عبد اللطيف مشتهرى، المسجد الأقصى، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٣ - ٣٧.

(١٥) سورة الإسراء، آية. ١؛ وانظر: تفسير ابن كثير ١٣١/٥ - ١٢٧؛ تفسير القرطبى، ص ٣٨١٩ - ٣٨٢٨؛ عبد الله محمود شحاتة، تفسير سورة الإسراء، ص ٢١ - ٤٧، (القاهرة ١٩٧٥)؛ ابن هشام، سيرة النبى ﷺ، ٣٩٦/١ - ٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية ٩٣/١ - ١٠٨؛ صحيح البخارى ٦٩/٥، ١٠٤/٦؛ صحيح مسلم ٣٧٧/١ - ٤٠٢؛ فتح البارى بشرح صحيح =

ويروى أبو الدرداء – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ – قال: «فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة، وفى مسجدى بألف صلاة، وفى مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة[١٦]، وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا[١٧].

وعن ابن عباس – رضى الله عنه – قال:«البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء مافيه موضع شبر، إلا قد صلى فيه نبى، أو قام ملك[١٨].

(٣) أسماء مدينة القدس:

عرفت مدينة القدس الشريف بأسماء كثيرة، غير أن الاشتقاق الأصلى لاسم المدينة غير مؤكدة على وجه التحقيق، وإن كان من الواضح أنه من أصل سامى، وأقدم النقوش التى ورد فيها اسم المدينة المقدسة، هو نقش مصرى يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد[١٩]،على رأى، حيث ذكرت تحت اسم «أورساليموم» Ursalimum[٢٠]، وإلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (١٧٨٦ – ١٦٥٠ق.م)[٢١] فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» Aushamum ، على رأى آخر[٢٢].

=البخارى ١٥٩/٧ – ١٧٢؛ محمد الغزالى، فقه السيرة، ص ١٣٤ – ١٤٧، (القاهرة ١٩٦٥)؛ محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، ٤٢١/١ – ٤٤٥؛ عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة ، ص ١١٠ – ١٢٤ وانظر عن «الإسراء» (محمد بيومى مهران: السيرة النبوية الشريفة – الجزء الأول ص ٢٥٣ – ٢٤٨، بيروت ١٩٩٠).

(١٦) أبو اليمن مجير الدين الحنبلى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول، ص ٢٢٩؛ محمد محمود الفحام، المسلمون واسترداد بيت المقدس، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢٢.

(١٧) صحيح البخارى ٧٦/٢ – ٧٧، (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ)، تفسير القرطبى، ص ٣٨٢٧ – ٣٨٢٨، (القاهرة ١٩٧٠).

(١٨) مجير الدين الحنبلى، المرجع السابق، ص ٢١١.

(١٩) هناك من يرى أن النقش إنما يرجع إلى أيام سنوسرت الثالث (١٩٧٨ – ١٨٤٠ق.م) أو بعده بقليل وربما قبله بقليل.

(20) M.F.Unger, op.cit., p. 576.

(٢١) أنظر: محمد بيومى مهران: «حركات التحرير فى مصر القديمة» ، ص ١٠٤ ، ١١٦.

(٢٢) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية، ص ٢٣٥، وكذا:

J.A.Wilson, ANET, 1966, p. 329; W.Ward, Egypt and The East Mediterranean, in The Second Millennium B.C. Orientalia, Vol. 30, Rome, 1961, p. 32.

ونقرأ في رسائل العمارنة من عهد الملكين «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ق.م) وولده إخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ق.م) في رسالة من «عبد خيبا» أمير القدس - وكانت تدعى، على مايدو، أوروسالم - من قبل فرعون، يقول فيها «لأبي ولأمي وضعاني في هذا المكان، بل يد الملك القوية وضعتني في بيت آبائي»[٢٣]. وبقيت المدينة كذلك تحت الحكم المصري، وإن استقل بها «اليبوسيون» بعد فترة الضعف التي انتابت الإمبراطورية المصرية، وسموها «يبوس»[٢٤]، حتى جاء داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ق.م)، وأخذها منهم، وأطلق عليها اسم «مدينة داود»[٢٥]، وربما لأن اسمها القديم، إنما كان غريباً على آذان العبريين، وربما لأن فيه تخليداً للاهوت أجنبي. وربما - وهو الأرجح- لأن داود إنما أراد أن يخلد اسمه بإطلاقه على المدينة القديمة، أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة كذلك اسم «يوروشالايم» أو «أوروشالم»، بإضافة لاحقةعبرية، كي تصبح عبرية النطق.

وأيا ماكان الأمر، وسواء أكان داود قد أطلق عليه المدينة اسماً عبرياً أو أنه أراد أن يخلد اسمه، فهو في ذلك إنما كان مقلداً لغيره من الحكام الذين كانوا - ومايزالون - يطلقون أسماء جديدة على أماكن قديمة، كما أن الإسم الجديد الذي أطلقه داود على المدينة (مدينة داود) لم يحل محل الإسم القديم، ويفسر بعض العلماء ذلك على أنها حالة من حالات كثيرة في التاريخ القديم والحديث أخفقت فيها الأسماء الجديدة التي فرضتها السلطات الحاكمة في القضاء على الأسماء القديمة التي لها جذور عميقة في الوعي الشعبي[٢٦].

وعلى أي حال، فلقد دعيت المدينة في النقوش الآشورية باسم «أورساليموم» Ursalumum، وفي النقوش اليونانية الرومانية تحت اسم «هيروسوليما» Hiero-solyma[٢٧]، هذا وقد أطلق على المدينة أسماء أخرى كثيرة - شأنها في ذلك

(23) S.A.B.Mercer, op.cit., II, L. 286 - 289; W.F.Albright, ANET, p. 487 - 489.

(٢٤) قضاة ١٩ : ١٠ - ١١.

(٢٥) صموئيل ثان ٥: ٩

(26) S.Yeivin, JNES, 7,1947, p. 40.

(27) M.F. Unger, op.cit.p. 576.

شأن غيرها من المدن الهامة فى تاريخ العالم - ومن الأسماء التى أطلقتها التوارة اسم «أريئيل» (إشعياء ٢٩ :١) ومدينة العدل (إشعياء ١ :٢٦) والمدينة (مزمور ٧٢ : ١٦) ومدينة الله (مزمور ١٨ :١) ومدينة الحق (زكريا ٨ :٢) ومدينة القدس (إشعياء ٨ :٢ ؛ نحميا ١١ :١) وجبل القدس (إشعياء ٢٧ :١) والمدينة المقدسة (متى ٤ :٥)، وأما أسماؤها العربية فهى بيت المقدس والقدس الشريف، أما الاسم الغالب فهو «القدس»، والذى يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها.

هذا ولم يذكر المؤرخ اليونانى «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ق.م) فى تاريخه إسم «أورشليم» ولكنه ذكر مدينة كبيرة فى الجزء الفلسطينى من الشام، وسماها «قديتس» مرتين فى الجزء الثانى والثالث من تاريخه، ويقول المستشرق اليهودى الفرنسى «سالمون مولك» فى كتابه «فلسطين» أن هذا الاسم على الأرجح هو «القدس»، محرفاً فى اليونانية عن النطق الآرامى «قديشتا»[٢٨].

وأما معنى أورشليم فقد اختلف فيه، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «أُرر» بمعنى موضع أو مدينة، ومن «شالم» وهو إله وثنى لسكان فلسطين الأصليين، هو إله السلام، فالمدينة إذن كانت مكرسة لإله السلام، حتى وصل العبرانيون، وهناك من يقول أن كلمة «أور» معناها «الميراث»، فتكون أورشليم، بمعنى «ميراث السلام»، أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أى السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يرأه» وهى بمعنى الخوف باللغة العبرية، فقرر الله أن يسميها بالإسمين جميعا (يرأه - شلم) أى (أورشليم) بمعنى الخوف والسلام، وبنوا على هذه التخريجات الفلولكلورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضا أن (يرو) يمكن أن تكون فى اللغات السامية بمعنى «إله» ويكون اسم المدينة بكل بساطة «إله السلام»[٢٩].

وأيا ماكان الأمر، فما أن يأتى الرومان وتحدث مذبحة هادريان (١١٧ - ١٣٨م) الرهيبة فى عام ١٣٥م، حتى تكن ختاماً نهائياً لليهود فى فلسطين سياسياً وسكانياً، ثم يغير الرومان إسم المدينة إلى «إيليا كابيتولينا».

---

(٢٨) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٨، قاموس الكتاب المقدس، ١٣٩/١.

(٢٩) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٩.

أو «إيليا» فقط، وأصبح لفظ أورشليم لفظاً تاريخياً، يطلق فقط على المدينة التى كانت فى هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بنى إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولايسكنها اليهود حت القرن السابع الميلادى.

وفى العام الخامس عشر من هجرة المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة نفسه، وأن يمنحهم الآمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه (١٣ - ٢٢هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤م) ذلك، ويأتى إلى القدس فى عام ١٥هـ/٦٣٦م فيدخل المدينة ا لتى يسلمها له البطريك اليونانى «صفر نيوس» ويمنح أهلها النصارى الآمان فى دينهم وأموالهم وأعراضهم، لايضار أحد منهم بسبب دينه، ولايكره على شىء فى أمره، ولايسكن بإيليا معهم أحد من اليهود[٣٠]، وبينما كان الخليفة الراشد فى كنيسة القيامة مع البطريق أدركته الصلاة، فطلب إليه أن يصلى بها فرفض حتى لايتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كيستهم وخالفوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكيسة القيامة، وإنما صلى فى مكان قريب، عند الصخرة المقدسة، وخط المسجد الذى عرف باسمه[٣١].

---

(٣٠) هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفاروق عمر بن الخطاب رفض الموافقة على استمرار القرار الرومانى القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه شىء يسمح بهذا، ولكنه تعهد لنصارى القدس بألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن فى حارتهم (حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٠).

(٣١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ٣/٦٠٧ - ٦١٣، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨)؛ الواقدى، فتوح البلدان، ٢٦٢، ٢٤٤، ٣٥٧، ٣٦٧؛ محمد الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية ٣/٥-٧، (القاهرة ١٣٧٠هـ)؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ١/١٨٨، (القاهرة ١٩٦٧)؛ محمد حسين هيكل، الفاروق عمر ١/٢٤٦ - ٢٦٣، (القاهرة ١٩٦٢)ك؛ على محمد على، ملف وثائق القضية الفلسطينية، ١/٤- ١٢، (القاهرة ١٩٧٠)؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٠؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ١٧٣ - ١٧٥

الفصل الثانى

المسجد الأقصى

المسجد الأقصى أو بيت المقدس، موطن العديد من الأنبياء والمرسلين، ابتداءً من أبيهم إبراهيم وحتى عيسى ابن مريم عليهم السلام، وثانى مسجد وضع فى الأرض بعد الكعبة البيت الحرام[1] وأولى القبلتين[2]، وثالث الحرمين الشريفين[3]، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله﴾[4]، وليس هناك من شك فى أن هذا الإسراء أو هذه الرحلة المباركة من المسجد الحرام فى مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى فى القدس الشريف إنما هى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيِّين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة المباركة إعلان وراثة النبى الخاتم محمد ﷺ لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، ولهذا فقد جمعوا له هناك كلهم فأمهم فى محلتهم ودارهم، فدل هذا على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن ثم فقد كانت رحلة الإسراء ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معانى أكبر من المعانى القريبة التى تتكشف عنها للنظرة الأولى[5].

---

(١) صحيح البخارى ٤/ ١٧٧، صحيح مسلم١/ ٣٧٠، ٢/ ١٥٣ – ١٥٤، مسند الإمام أحمد ٥/ ١٥٠، ١٦٧، تفسير القرطبى ص ١٣٧٩، تفسير المنار ٤/ ٦-٧.

(٢) انظر: سورة البقرة: آية ١٤٢ – ١٤٤، صحيح البخارى ٦/ ٢٥ – ٢٧، صحيح مسلم ٢/ ١٦٠ – ١٦٢، مسند الإمام ٥/ ٢٤٦ – ٢٤٧، مجمع الزوائد للهيثمى ٢/ ١٣.

(٣) انظر: صحيح مسلم ١/ ٥٤١ (القاهرة ١٩٨١)، الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٢٨٧.

(٤) سورة الإسراء: آية ١ وانظر: تفسير القرطبى ص ٣٨١٩ – ٣٨٢٨، تفسير ابن كثير ٣/ ٥ – ٤١، فتح البارى ٧/ ١٥٩ – ١٧٣، صحيح البخارى ٥/ ٦٦ – ٦٩.

(٥) فى ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٥.

ولعل سائلاً يتساءل: من هذا الذى نال شرف بناء المسجد الأقصى؟

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنسائى (واللفظ له) بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمى عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن سليمان بن داود عليهما السلام، لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلالا ثلاثة، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله ملكاً لاينبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لايأتيه أحد لاينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه»[1].

وروى البخارى ومسلم عن أبى ذر قال: قلت يارسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول، قال المسجد الحرام، قلت ثم أى، قال المسجد الأقصى، قلت كم كان بينهما، قال أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعده فصله، فإن الفضل فيه»[2]، وفى رواية عن أبى ذر أيضاً قال: قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول، قال المسجد ثم قلت أى، قال المسجد الأقصى، قلت كم بينها، قال أربعون سنة، ثم حينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد»[3]. وفى رواية البخارى: ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله هذا وقد أثار هذان الحديثان الشريفان جدلاً بين العلماء، على أساس أن إبراهيم عليه السلام وهو بانى البيت الحرام، وأن سليمان عليه السلام هو بانى المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام[4]، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوى بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بنائهما، فيحتمل أن يكون واضع المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بنياه بعد

(١) سنن النسائى ٢/ ٤٣، سنن ابن ماجه ١/ ٤٥١، انظر: جامع الأصول جـ٩ حديث ٦٣٠٧، صحيح الجامع الصغير: حديث ٢٠٨٦، البداية والنهاية ٢/ ٢٦، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨

(٢) صحيح البخارى ٤/ ١٧٧، صحيح مسلم ٣/٥.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٥٣ - ١٥٤ (القاهرة ١٩٨١/٢/٥)، وانظر طبعة بيروت ٢/٥ مسند الإمام أحمد ٥/ ١٥٠، ١٦٧، تفسير الطبرى ٧/ ٢٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٣، تفسير القرطبى ص ١٣٧٩، تفسير المنار ٤/ ٦ - ٧.

(٤) الواقع أن الفترة بين وفاة إبراهيم وولادة سليمان عليهما السلام، لاتصل أبداً إلى ألف عام، فإبراهيم عاش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م) وسليمان عاش فى الفترة (٩٧٣ - ٩٢٢ ق.م).

ذلك[١]، ولعل قريباً من هذا ما ذهب إليه ابن الجوزى والقرطبى بأنه ليس المراد أن إبراهيم عليه السلام هو الذى أسس بناء الكعبة المشرفة[٢]، ولا أن سليمان عليه السلام بنى بناء بيت المقدس، وإنما هما جدداً ما كان قد أسسه غيرهما[٣]، كما ذهب برهان الدين الزركشى إلى أن سليمان عليه السلام، إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لاتأسيسه[٤] على أن الأستاذ رشيد رضا يذهب إلى أن هذا التفسير ضعيف لأنه سماه بيتاً، ولو جعل المكان مسجداً ولم يبن فيه لما سمى بيتاً، بل مسجد أو قبلة، ثم إن ذلك مبنى على القول بأن إبراهيم هو الذى بنى أول مسجد للعبادة فى أرض بيت المقدس، وذلك معقول، وإن لم يكن عندنا نص صريح[٥].

هذا ويذهب ابن قيم الجوزية إلى أن الذى أسس بيت المقدس إنما هو يعقوب عليه السلام، وأن سليمان كان مجدداً له، وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضاً، حيث يقول: وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى[٦]، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله، وهذا متجه ويشهد له ما

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ١٥٣ (هامش / ٢).

(٢) الرأى عندى أن الكعبة المشرفة ترجع فى بنائها إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، دون غيرهما من العالمين ويرى ابن كثير وغيره من العلماء أنه لم يجئ فى خبر صحيح عن المعصوم ﷺ أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك فى هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولاظاهر، لأن المراد مكانه المقدر فى علم الله المقرر فى قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمن إبراهيم (ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٦٣، ٢/ ٢٩٨، تفسير المنار ١/ ٤٦٦ - ٤٦٧، الكشاف ١/ ٤٤٦، تفسير الطبرى ٣/ ٧٠، محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية فى القرآن الكريم ١/ ١٨٣ - ١٨٥.

(٣) فتح البارى ٦/ ٤٠٨، تفسير القرطبى ٤/ ١٣٨.

(٤) الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٣٠.

(٥) تفسير المنار ٤/ ٧ (القاهرة ١٩٧٣).

(٦) يذهب أهل الكتاب، كما جاء فى العهد القديم، إلى أن داود عليه السلام، كان أول من فكر فى بناء المسجد الأقصى، بل وقد اشترى مكانه من رجل يبوسى يدعى «أرنان» (أرونا أو أرونة)) كان قد اتخذه جرناً أو بيدر، وكان قد عرض على داود أن يأخذ المكان بلا مقابل، فرفض داود واشتراه منه، بخمسين شاقلاً من الفضة، وتذهب الرواية إلى أن داود قد منع من بناء البيت، لأن ذلك سيكون من نصيب ولده سليمان، ولكنها قد سجلت معاونة داود الفعالة لولده سليمان فى إقامة البيت، وذلك بتجهيز المواد اللازمة للبناء، فضلاً عن كميات الذهب والفضة والنحاس

=/=

ذكرناه من الحديث (يعني حديث أبي ذر المشهور) فعلى هذا يكون بناء يعقوب، وهو إسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء[1] كما ذهب إلى نفس الرأى الزركشي في إعلام الساجد[2]، والحميري في الروض المعطار[3]، وأخيراً فلقد ربط البعض بناء المسجد الأقصى، كما ربطوا بناء المسجد الحرام من قبل، بالملائكة، وربطه آخرون بآدم عليه السلام، بل إن فريقاً رابعاً ربطه بسام بن نوح عليه السلام[4]، وجاء في تفسير القرطبي أن آدم هو الذي بنى المسجد الأقصى، بعد بنائه للبيت العتيق بأربعين عاماً، وأن يعقوب قد أقام قواعده وجدده فقط، بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق[5].

ويذهب الدكتور عويد المطرفي إلى أن أقرب الروايات إلى المعقول أن الذى بنى المسجد الأقصى تأسيساً، إنما هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، بعد فراغه من بناء الكعبة المشرفة، ورجوعه إلى مستقره بالشام[6]، كما استظهر ذلك أبو حيان في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾[7]، من أن إبراهيم عليه السلام، كما وضع الكعبة، وضع بيت المقدس[8].

وفي الواقع فإن كثيراً من المفسرين والمؤرخين إنما يذهبون إلى أن سليمان عليه السلام هو الذى بنى بيت المقدس، ففى تفسير أبي السعود أن سليمان لما أتم

=/=. والجديد وغيرها (صموئيل ثان ٢٤/ ١٦ – ٢٥، أخبار أيام ثان ٢٢/ ١ – ١٩، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨٤٣ – ٨٤٤، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٠١ – ١١٢) ثم قارن: تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٦٣، ٢/ ٢٩٨.

(٢) الزركشي: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥، ص ٥٥٦.

(٤) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل النجف ١٣٨٨هـ، الجزء الأول، ص ٨، فتح البارى ٦/ ٤٠٩، الزركشي: المرجع السابق، اص ٣٠.

(٥) تفسير القرطبي ٤/ ١٣٨، فتح البارى ٦/ ٤٠٨ – ٤٠٩.

(٦) عويد المطرفي: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٧) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٨) تفسير البحر المحيط ٣/ ٦.

بناء بيت المقدس تجهز للحج، وهناك فى مكة كان يذبح كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاه[1]، ويقول الحافظ السهيلى: وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكمله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه إيلياء، وتفسيره العربية: بيت الله[2]، ذكره البكرى، وفى الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بنى أيضاً فى زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام[3]، ويقول الطبرى فى التاريخ: وأصاب بنى إسرائيل فى زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله ويسألونه كشف ذلك البلاء عهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً، وكان ذلك فيما قيل، لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه، وتوفى قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان باستتمامه، وقتل القائد الذى قتل أخاه (يعنى يوآب الذى قتل أبشالوم) فلما دفنه سليمان نفذ لأمره فى القائد وقتله واستتم بناء المسجد، ثم يتحدث الإمام الطبرى بعد ذلك عن التعداد الذى قام به داود فى بنى إسرائيل، والبلايا التى حاقت بالقوم بسببه، من قبل، وأن داود استغفر ربه وطلب العفو عن بنى اسرائيل، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم يغمدونها، يرتقون فى سلم من ذهب على الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان ينبغى أن يبنى فيه مسجد، فأراد داود أن يأخذ فى بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس، وأنك قد صبغت يديك فى الدماء، فلست ببانية، ولكن ابن لك أملكه بعدك أسميه سليمان أسلمه من الدماء، فلما ملك سليمان بناه وشرفه[4]: ويتفق ابن الأثير فى روايته مع الطبرى تماماً[5].

---

(١) تفسير أبى السعود ٦/ ٢٧٨، وانظر تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٣.

(٢) قارن: (محمد بيومى مهران: إسرائيل، الجزء الثانى، ص ١١٥٥ - ١١٥٨، الإسكندرية ١٩٧٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٤، هامش /١.

(٤) تاريخ الطبرى ١/ ٤٨٤ - ٤٨٥، ثم قارن: صموئيل ثان ٧/ ١ - ١٧، ٢٤ / ١٦ - ٢٤.

(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٧ - ١٢٨.

ويقول المسعودى: وابتدأ سليمان بنيان بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، الذى بارك الله عز وجل حوله[1]، ويقول اليعقوبى: وابتدأ سليمان فى بيت المقدس وقال: إن الله أمر أبى داود أن يبنى بيتاً، وإن داود شغل بالحروب، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنى البيت باسمى، فأرسل سليمان فى حمل خشب الصنوبر وخشب السرو، ثم بنى بيت المقدس بالحجارة، فأحكمه ولبسه الخشب من الداخل، وجعل الخشب منقوشاً، وجعل له هيكلاً مذهباً، وفيه آلة الذهب ثم أصعد تابوت السكينة فجعله فى الهيكل، وكان فى التابوت اللوحان اللذان وضعهما موسى[2]، ويقول ابن خلدون: ولأربع سنين من ملكه (أى سليمان) شرع فى بناء بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك، وقد تم بناء الهيكل فى سبع سنين[3].

هذا وقد أشرنا من قبل إلى الحديث الشريف الذى يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ: «إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالا ثلاثاً، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لايأتيه أحد لاينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه»[4]، وعن رافع بن عمير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابن لى بيتاً فى الأرض، فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به فأوحى الله إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتى، قال يارب هكذا قضيت من ملك استأثر، ثم أخذ فى بناء المسجد فلما تم السور فسقط ثلاثاً فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال يا داود إنك لاتصلح أن تبنى لى بيتاً قال ولم يارب، قال لما جرى على يديك من الدماء، قال يارب أو ما كان ذلك فى هواك ومحبتك، قال بلى ولكنهم عبادى وأنا أرحمهم، فشق ذلك عليه فأوحى الله إليه لاتحزن فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان، فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه، ولما تم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بنى إسرائيل، فأوحى

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١/ ٧٠، وانظر ١/ ٦٩.

(٢) تاريخ اليعقوبى، ١/ ٥٨.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١١ - ١١٣، ثم قارن ملوك أول ٦/ ١ - ٩/ ٢٥.

(٤) سنن النسائى ٢/ ٤٣، سنن ابن ماجه ١/ ٤٥١، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨.

الله إليه قد رأى سرورك ببنيان بيتى، فسلنى أعطك، قال أسألك ثلاث: خصال، حكماً يصادف حكمك، وملكاً لاينبغى لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لايريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، قال رسول الله ﷺ: أما الثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة»[1].

وانطلاقاً من كل هذا، فإننى أميل، حدساً عن غير يقين، إلى أن إبراهيم عليه السلام، هو الذى وضع الأسس للمسجد الأقصى، على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، وليس أول بيت، وهى العقبة التى احتج بها صاحب تفسير المنار، وعلى أساس ما جاء فى الأحاديث الشريفة من أن سليمان هو الذى بنى المقدس، وعلى أساس ما ذهب إليه جمع كبير من المؤرخين من أن سليمان قد بنى المسجد الأقصى بعهد أبيه إليه بذلك، وعلى أساس أن إبراهيم عليه السلام، طبقاً لرواية العهد القديم[2]، إنما قد زار القدس، وأنه قد أقام المحاريب لله فى فلسطين، وخاصة فى شكيم وبيت إيل وبلوطات ممرا، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الأنبياء قد فعل الشئ نفسه فى القدس، هذا فضلاً عن أنه إذا ما كان صحيحاً ما ذهبنا إليه فى هذه الدراسة وغيرها من أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش فى الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م) وأنه قد بنى الكعبة البيت الحرام حوالى عام ١٨٢٤ قبل الميلاد[3]، ومن ثم فإن بناءه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاماً، أى حوالى عام ١٧٨٤ قبل الميلاد، يكون أمراً مقبولاً، وأن ذلك قد تم قبل أن يولد حفيده يعقوب عليه السلام بأربع سنوات ذلك لأنه طبقاً لما جاء فى هذه الدراسة، وكما أشار العهد القديم[4]، فإن الخليل عليه السلام قد رزق بولده إسحاق عليه السلام، وقد أكمل المائة من عمره (بعد أن رزق بإسماعيل وهو فى السادسة والثمانين من عمره) وقد عاش إسحاق ١٨٠ عاماً، ومن ثم فهو كان يعيش فى الفترة (١٨٤٠ - ١٦٦٠ ق.م)، وأن يعقوب كان يعيش فى الفترة (١٧٨٠ - ١٦٣٣ ق.م)

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(٢) تكوين ١٢/ ٦ - ٩، ١٤/ ١٩ - ٢٠.

(٣) انظر عن بناء الكعبة المشرفة (محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٨٣ - ١٩٧) الحضارة العربية القديمة ص ٤٨٥ - ٥١٢.

(٤) تكوين ١٧/ ١٧، ٢٥/ ٢٦، ٣٥/ ٢٨، ٤٧/ ٩، ٢٨.

على أساس أنه ولد لأبيه إسحاق، وهو في الستين من عمره، وأنه عاش ١٤٧ سنة، وأن بني إسرائيل قد دخلوا مصر حوالى عام ١٦٥٠ قبل الميلاد، حين كان يعقوب في الثلاثين بعد المائة من عمره[١]، وأما سليمان فهو الذى بدأ بناء المسجد الأقصى، الذى وضع إبراهيم أسسه، فى عام حكمه الرابع، حوالى عام ٩٥٧ قبل الميلاد[٢].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا بإيجاز إلى رواية العهد القديم عن بناء المسجد الأقصى، والذى تدعوه بيت الرب، حيث تذهب إلى أن مكان البيت إنما كان على جبل المريا فى بيدر أرونه اليبوسى، فاشتراه منه داود ومعه بقر للقرابين بخمسين شاقلاً من الفضة[٣]، هذا وتشير الرواية بوضوح إلى أن داود عليه السلام إنما كان أول من فكر فى إقامة بيت للرب، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولاً حسناً من رب إسرائيل، الذى كان يدخر هذا العمل لولده سليمان[٤]، ومع ذلك فإن داود عليه السلام، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه، أراد أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان فى إقامة بيت الرب، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، وكان قومه فى عصره ما يزالون فى بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وسنرى أن الاعتماد على الفينيقيين كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب، ونقرأ فى التوراة أن داود قد «أمر بجميع الأجانب الذين فى أرض إسرائيل فاتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، وهيأ داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلاوزن، وخشب أرز لم يحدد له عدد»،

---

(١) انظر: محمد بيومى مهران: إسرائيل ١/ ٨٠ - ٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) انظر: محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢/ ٨٤٠ - ٨٦٠.

(٣) من عجب أن بعض الروايات العربية التى تنسب إلى أبى بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلى، وليس يبوسيا كنعانياً، وأن داود أراد أن يغتصبه منه، فنهاه ربه عن ذلك، ومن ثم فقد اشتراه بتسعة قناطير من الذهب (السمهودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٣٤٣ ط القاهرة ١٣٢٠ هـ) والثمن جد مغالاً فيه، بل إن رواية التوراة جعلت ثمنه هو والبقر، خمسين شاقلاً من الفضة صموئيل ثان ٢٤/ ٢٤).

(٤) صموئيل ثان ٧/ ١ - ١٧، ٢٤/ ٢٦ - ٢٤، ملوك جول ٢/ ٢ ؛ وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٨، تاريخ اليعقوبى ١/ ٥٨، تاريخ ابن خلدون ١/ ١١١، ابن الأثير ١/ ١٢٧ - ١٢٨.

هذا فضلاً عن كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب[1].

وهكذا، وفي ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالى عام ٩٥٧ ق.م) وضع الحجر الأساسى لبناء بيت المقدس الذى استمر العمل فيه قائماً على قدم وساق سبعة أعوام، ثم واصل مهرة الصناعة والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك ليشيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان ونساؤه[2].

هذا ولم يقدم لنا موقع المعبد أى دليل الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، ومن هنا فإن أية محاولة فى هذه المجال لاتزيد عن كونها مجرد اجتهاد[3]، غير أن المعلومات التى يوفرها سفر حزقيال (٤٠ - ٤٤) للمعبد الجديد، ربما تجعل فى الإمكان استعادة تخطيطه، كما يمكن قول شئ عن شكله الخارجى وتنظيمه الداخلى[4]، ومن ناحية أخرى فإن المعلومات التى جاءت فى سفر الملوك الأولى (١/٦ - ٣٨) إنما تشير بوضوح إلى التأثير المصرى والعراقى، رغم الإشادة المستمرة بالمساعدة الفينيقية وبضخامة الإنفاق[5].

ونقرأ فى التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حفلاً كبيراً بمناسبة الانتهاء من بناء المسجد الأقصى، دعا إليه شيوخ إسرائيل وكل رؤوس الأسباط «لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود، وأن الجميع، وعلى رأسهم سليمان، قد اجتمعوا أمام التابوت «يذبحون من الغنم والبقر ما لايحصى ولايعد من الكثرة، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت، فى قدس الأقداس، وهنا ملأ الغمام بيت الرب، حتى أن الكهنة، ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية، ويعلن سليمان أن الرب إنما يسكن فى الضباب[6]، ونقرأ فى سفر الملوك

---

(١) أخبار أيام أول ٢٢/ ٢ - ١٦، أخبار أيام ثان ٢/ ١٧ - ١٨.

(٢) ملوك أول ٦/ ١ - ٢، ٣٧ - ٣٨، ٧/ ٢، وانظر: تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٢ - ١١٣.

(3) J. L. Myres, Reconstructing Solomon's Temple and other Buldings and works of Art, PEQ, 80, 1948, p. 14 F.
وكذا: P. L., Garlier, Reconstructing Solomon's Temple, BA, 14, 1951, P. 2 F.

(4) O. Eissfeldt, op. cit., p. 598.

(٥) اندريه إيمار وجانين أو بوايه: المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٦) ملوك أول ٨/ ١ - ١٣.

الأول (٨ / ٢٢ - ٥٣) دعوات سليمان الحارة إلى الله تعالى، ثم ينهض من أمام المذبح، ويداه مبسوطتان إلى السماء، ليعلن أمام خراف بين إسرائيل الضالة «ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر، فليكن قلبكم كاملاً لدى الرب إلهنا، إذ تسيرونه في فرائضه، وتحفظون وصاياه»[1]، ثم يشكر الرب على أنعمه التي أسبغها عليه وعلى بيت أبيه من قبل، سائلاً إياه سبحانه وتعالى أن يجيب دعوات بنى إسرائيل حين يدعونه فى هذا البيت، وأن يغفر لهم خطاياهم[2]، ثم تنتهى الاحتفالات بتقديم الذبائح لرب إسرائيل، والتى بلغت عدداً كبيراً جداً، وصل إلى «اثنين وعشرين ألفاً من البقر، ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألف، فدشن الملك وجميع بنى إسرائيل بيت الرب»[3].

وعلى أية حال، فإن المسجد الذى بناه سليمان إنما قد دمر تماماً أثناء غزو «نبوخذ نصر» للقدس عام ٥٨٧ ق.م ونهب الغزاة القدس وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا القصر الملكى والمسجد، وهكذا ضاع كل أثر للمسجد، ومعه البقية الباقية من التابوت الذى كفت الروايات عن ذكره بعد نقله لمعبد سليمان[4]، ولم يستطع القوم إعادة البناء إلا عام ٥١٥ ق.م.، على أيام الملك الفارسى «دارا الأول»[5]، ثم دمر المعبد الثانى هذا عام ٧٠ م على يد القائد الرومانى تيتوس، وأضرمت النيران فى المدينة، وهدم المعبد وضارعت آثاره تماماً، حتى أن الناس قد

---

(١) ملوك أول ٨/ ٦٠ - ٦١.

(٢) ملوك أول ٨/ ٢٥ - ٣٤.

(٣) ملوك أول ٨ / ٦٢ - ٦٥، وانظر: تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٣.

(٤) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢/ ٩٩٧ - ١٠٠٤، وكذا:

K. M. Kenyon, Archaeologyin the Haly Land, p. 291.

وكذا: M. Noth, the History of Israel, London, 1965, p. 287.

(٥) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢/ ١٠٣٦ - ١٠٤٩، وكذا: عزرا ٣/ ٧، ٦/ ١٥، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١٠١٤، وكذا:

C. Roth, AShort History of the Jewish People, London, 1969, p. 54 - 55 وكذا: S. A. Cook, op. cit., p. 409 وكذا: M. Noth, op. cit., p. 314.

نسوا فيما بعد، إذا كان هذا المعبدعلى التل الشرقى أو الغربى من المدينة المقدسة[1].

وفى عام ١٣٥ م استولى الروم على القدس، ثم أمر الإمبراطور «هدريان» (١١٧ - ١٣٨م) بتدمير المدينة تماماً وبنى فوقها مدينة جديدة باسم «إيلياكابيتولينا» (Aelia Capitolina) وأبدل المعبد القديم بمعبد آخر كرس للإله الوثنى «جوبتر كابيتولينس» (Jupiter Capitolinus) ثم قام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود فى فلسطين، كدولة وكقومية، وانتهت بذلك علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً ودينياً[2].

---

(١) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢/ ١١٥٠ - ١١٥٥، وكذا:

C. Roth, op. cit., p. 103 - 107

وكذا: W. Keller, the Bible as History, 1967, p. 388.

(٢) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٢/ ١١٥٥ - ١١٥٨، وكذا:

H. Strathmann, P JB, 23, 1927. p. 92 F

وكذا:

A. Schulten, ZDPV, 56, 1933, p. 180 F

وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 453 - 454.

(٢) السامرة:

كان «عمرى» ملك إسرائيل (٨٧٦ - ٨٦٩ ق.م) يحكم من «ترزه» (ترصه)، ولكنه في عام حكمه السادس اشترى تلا في قلب الهضبة السامرية ممن يدعى «شامر» بوزنتين من فضة، وأقام عليه عاصمته الجديدة وسماها «السامرة» - وهي سبسطية الحالية على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب شكيم - نسبة إلى «شامر» صاحب التل، وإن كان هناك من يرى أن الإسم بمعنى «مركز المراقبة» أو «جبل المراقبة أو الحراسة».

هذا وقد قامت عدة هيئات علمية بحفريات في السامرة، أثبتت أن موقع المدينة إنما قد كشف عن خبرة من اختاره بالاعتبارات الاستراتيجية، فالسامرة تقع على تل منعزل يقرب ارتفاعه من ٣٠٠ قدم، ويرتفع تدريجياً من واد متسع حصب، وتحيط به شبه دائرة من الجبال العالية، كما أن هناك ينبوعاً محلياً يجعل المكان مثالياً في حالة الدفاع.

هذا فضلا عن أن السامرة إنما كانت تقع على الطريق الرئيسى من الشمال إلى الجنوب، وفي حماية من أى هجوم يقع عليها من ناحية يهوذا - الدويلة اليهودية الأخرى المعادية لها - وعلى اتصال بسهل فينيقيا، في وقت كان فيه عمرى راغباً في إقامة علاقات مع مدن فينيقيا، حتى أنه زوج ولده «أخاب» من «إيزابيل» ابنة أمير صور، كما كانت أيضاً على اتصال بالجزء الغربي من دويلته، حيث تقع أغنى أراضيها، هذا إلى جانب أن السامر إنما كانت - شأنها في ذلك شأن أورشليم عاصمة يهوذا - تتحكم في الطريق الرئيسى، من الشمال إلى الجنوب، على امتداد خط تقسيم المياه، وأخيراً فهناك ممرات صالحة بدرجة مقبولة تؤدى إلى الأردن من ناحية الشرق، وأخرى تؤدى إلى الساحل والبحر المتوسط من ناحية الغرب.

هذا وقد تم تخطيط السامرة على أن تكون الحى الملكى - وهي سنة جديدة في تخطيط المدن الفلسطينية، وجد لها مثيل دون شك في تخطيط أورشليم على أيام سليمان عليه السلام، غير أن الدليل الأول والمؤكد على ذلك إنما جاء إلينا من السامرة - ويبدو أن الحى الملكى في مدينة عمرى هذه، إنما كان منطقة يمكن الدفاع عنها بسهولة، ذلك لأنها إنما قد أحيطت في المرحلة الثانية على

الأقل بسور قوى، كما أن تخطيط الحى لايجعل منه مركزاً لتجمعات مدنية، بقدر ما يجعل منه منطقة ملكية مقصورة على الملك وحاشيته.

وعلى أية حال، فلقد ظلت السامرة عاصمة لدولة إسرائيل، حتى سقطت فى أيدى الآشوريين فى أخريات عام ٧٢٢ق.م، ونقرأ فى حوليات العاهل الاشورى «سرجون الثانى» (٧٢٢ - ٧٠٥ق.م) قوله «فى بداية حكمى، وفى السنة الأولى حاصرت السامرة واستوليت عليها، ونفيت من أهلها ٢٧,٢٩٠ مواطنا، واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكى، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان بها، فأحللت بها مواطنين جددا من بلاد كنت قد استوليت عليها، وعينت حاكما عليها، وفرضت عليها الجزية والضرائب، كما يفعل الآشوريون. وهكذا سقطت السامرة فى أوائل السنة الأولى من عهد «سرجون الثانى»، وأن ذلك ربما قد حدث بعد فترة ما من ديسمبر عام ٧٢٢ق.م، بل إن هناك من يذهب إلى أنها سقطت فى عام ٧١٥ق.م، ومن يذهب إلى أنها سقطت فى عام ٧١١ ق.م.

وأيا ماكان الأمر، فإن الآشوريين قد أعادوا تنظيم مملكة السامرة، على أساس أنها إقليم أشورى، يخضع لإمرة حاكم آشورى، وعززوا الحاميات العسكرية الآشورية بجنود مستوطنين، أتوابهم من بلاد بعيدة، حدث لها ماحدث لفلسطين من غزو آشورى، غير أن هؤلاء المستوطنين الجدد سرعان ماتزاوجوا مع السكان الأصليين، وهجروا عاداتهم وتقاليدهم إلى حد ما، ثم سرعان ماظهر جنس جديد، عرف فى التاريخ اليهودى باسم «السامريين» نسبة إلى السامرة هذه، وهو جنس قريب الشبه بجيرانه «اليهوذيين». دما وثقافة، وإن إختلفوا عنهم فى ميولهم السياسية.

وهكذا بدأت السامرة تفقد أهميتها شيئا فشيئا، غير أن «هيرودوس» (٣٧ -٤ق.م) حاكم اليهودية من قبل الرومان، إنما بدأ يهتم بالسامرة، بل وجعلها مقره المحبب، ومن ثم فقد زينها بالأبنية وأعاد تسميتها باسم «سباسطية» (Sebaste) أى «مدينة أغسطس» تكريما لأوغسطس قيصر (٢٧ ق.م - ١٤م)، ذلك لأن كلمة ««سيباستوس» (Sebastos) اليونانية، تعنى «أوغسطس» (Aguustus) فى اللاتينية [1].

---

(١) محمد بيومى مهران. إسرائيل ٢/٩٠٠ - ٩٠٣، ٩٤٥ - ٩٤٨، ١١٤٤، ملوك أول ١٦/٢٣-٢٤، ملوك ثان ١٧/٢٤.

=

(٣) أريحا:

أريحا، ومعناها مدينة القمر - أو مكان الروائح العطرية - وهى مدينة هامة تقع على مبعدة ٨ كيلا غربى نهر الأردن، ٢٧ كيلا شمال شرقى القدس، أما أريحا التى جاء ذكرها فى التوارة (يشوع ٢-٤) فموضعها «تل السلطان»، على مبعدة كيلو ونصف من أريحا الحديثة، والتى تدعى «الريحا»، وتلول أبو العليق على مبعدة كيلو ونصف غربى أريحا الحديثة.

وقد أثبتت الحفريات الحديثة التى أجريت فى تل السلطان أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم، فلقد عثر فى أريحا (جريكو- Jericho) على آثار للحضارة النطوفية - نسبة إلى وادى النطوف شمال غربى القدس - بصورة متصلة تؤكد صفة الإنتقال الفعلى نحو مرحلة الإستقرار وإنتاج الطعام، ويمكن استخدام اصطلاح «ماقبل النيوليتيه» (Proto- Neolithic) بالنسبة لتلك المرحلة السابقة للعصر الحجرى الحديث.

ولعل من أهم آثار تلك الفترة فى أريحا مبنى محاط بحيطان حجرية اختلف العلماء فى تفسيره، وأغلب الظن أنه يمثل معبداً يقع بجوار نبع أريحا (جريكو)، ومن ثم فقد حاول البعض الربط بين هذا المعبد النطوفى وبين موضوع تقديس الماء، هذا ونظراً لوجود آثار حريق فى ذلك المعبد، فقد استخدمت بعض الآثار

= وكذا W.F. Albright, BASOR, 150, 1958, p. 21- 25.

وكذا J.Finegan op, cit, p. 185, 210, 285

K.M.Kenyon, Archdeology in The Holy Lond, London, 1970, p. 260-263.

وكذا G.E. Wright , Samaria, BA, 27, 1959, وكذا ANET, 1966, p. 284 p. 65- 67.

A G.Lie, The Inscriptions of Sergon, II, Part, I, The Annalas, 1929, p. 5

G.A.Reisner, C.S.Fisher and D.G. Lyon, Havard Excavations at Samaria, 1908- 1910 , 2 Vols, 1924

وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 470- 474 وكذا M.Noth, op.cit, p. 230

وكذا Strab, XVI, 2, 27 وكذا Pliny, V, 14.

المتفحمة المتخلفة عن الحريق فى التأريخ عن طريق الكربون المشع، وقد نتج عنها التقويم الزمنى (٧٨٠٠ ± ٢١٠ق.م) وإن كان العلماء لايعتمدون هذا التأريخ بصفة نهائية.

هذا وقد كشف فى أريحا عن فخار مزين برسوم، ربما يمكن تأريخه بأواسط الألف الخامسة قبل الميلاد، وهو على أية حال يعتبر أقدم فخار فى فلسطين، وطبقا لرواية التوراة، فلقد كانت أريحا أول المدن الكنعانية التى اتجهت صوبها أنظار يهود - بقيادة يوشع بن نون - وأول مدينة وقعت تحت أيديهم[1].

هذا وكان أول من قام بالحفر فى أريحا: «إرنست سيللين» و «كارل فتزنجر» فى الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩م) ثم «جون جارستانج» فى الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦م) ثم «مس كاثلين كنيون» منذ عام ١٩٥٢م[2].

(٤) أشدود:

أشدود إحدى مدن الفلسطينين (برست - بلستى) الخمس، والتى سمح الفرعون «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) لهم بالإقامة فيها بعد هزيمتهم - مع شعوب البحر - هزيمة منكرة فى معركتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، وتقع أشدود - وهى أسدود الحالية - على مبعدة ٢٥ كيلا شمال شرق غزة، وفى منتصف المسافة تقريبا بين غزة ويافا.

وأما بقية المدن الخمس فهى «عقرون»، على مبعدة ١٨ كيلا جنوب يافا

---

(١) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا - بيروت ١٩٦٨ ص ١١٧ - ١١٩، ١٤٠ - ١٤١، قاموس الكتاب المقدس ٥٩/١.

وكذا K.M.Kenyon, op.cit, p. 31-41.

K.M.Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45 - 63, 1955, p. 108-177, 1956, p. 67- 82.

(2) E.Sellin and C.Watzinger, Jericho, 1931.

J. and J B.E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K.M.Kenyon, Archdeology in The Holy Land, London, 1970, p. 13 - 43.

K.M.Kenyon in PEQ, 1952- 82, p. 62 - 82, 1953, p. 18 - 95, 1954, p. 45- 63, 1955, p. 108 - 117, 1956, p. 67 - 82.

وأما «جت» فأغلب الظن أنها «تل عراق المنشية» ، الحالي، على مبعدة ١٠ كيلا غرب بيت جبرين، و«عسقلان» (أشقلون)، على مبعدة ١٠ كيلا شمال غزة، وأخيرا مدينة «غزة» المشهورة، والتي كانت تمثل التخم الجنوبي لكنعان[١].

(٥) أفيق:

تقع أفيق الآن في مكان «تل المخيمر» الحديثة، قرب رأس العين عند منبع نهر العوجة، وعلى مبعدة ١٥ كيلا شرقي حيفا، وقد عرفت فيما بعد «أنتيباتريس» ، وفيها كانت أولى المعارك الكبرى بين الفلسطينيين والإسرائيليين، والتي انتصر فيها الفلسطينيون ودمروا معبد شيلوه، وأخذوا تابوت العهد، وكانت هزيمة بني إسرائيل مروعة، حتى أن النبي إرميا يقول – بعد أربعة قرون من حدوث المعركة – «إن معبد شيلوه الذي كان مقر التابوت قد دمر، وأنه حتى عصره (٦٢٦ – ٥٨٠ق.م) كان يمكن رؤية خرائب المعبد»[٢].

(٦) أدام المدينة:

وتقع الآن في مكان «تل الدامية»، على مبعد ١/٢ كيلا جنوبي اتصال نهر يبوق بالأردن، وطبقا لرواية التوراة في يشوع (١٦/٣) عبر يشوع الأردن ببني إسرائيل «حيث قامت المياه المنحدرة من فوق، وقامت ندا واحدا، بعيدا جداً عن أدام المدينة» ، وإن كان هناك من يذهب إلى وجود جرف من الحجر الجيري، يكّون عند الزلزال شقاً في النهر يسده تماما لفترة من الوقت ، الأمر الذي يمنع تدفق الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، وقد حدث ذلك في عام ١٩٣٧م[٣].

(٧) ترصة:

تقع ترصة (ترزة) في مكان «تل الفارعة» الحالية، على مبعدة ١١ كيلا

---

(١) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢، ٥٧٨، ٥٩٣ – ٥٩٤.

(٢) ارميا ١٢/٧– ١٤، ٦/٢٦، ٩.

وكذا: W.F.Albright, Archaeology and THe Religion of Israel, Baltimore, 1963, p. 103, F, 202.

(3) J.Garstang, Joshud, Judges, The Foundations of Bilile History, 1931, p. 136F.

وكذا J.Finegan, op.cit, p. 155

شمال شرق شكيم، وكان «يربعام الأول» (٩٢٢ – ٩٠١ق.م) قد اتخذها عاصمة له، بدلاً من «فنوئيل» (تلول الذهب) – بعد انفصال إسرائيل عن يهوذا في أعقاب موت سليمان عليه السلام – ثم ظلت «ترصة» عاصمة لإسرائيل، حتى السنة السادسة من حكم «عمرى» (حوالى عام٧٨٠ق.م)[1].

(٨) تعنك:

تعنك (تاعاناخ– تاعاناقا) مدينة هامة، تقع على مبعدة ٨ كيلا، جنوب شرق مجدو، على الطرق الجنوبى من سهل يزرعيل.

(٩) بئر سبع:

مدينة تقع فى صحراء النقب جنوبى فلسطين، وينسب تأسيسها إلى الكنعانيين، وطبقا لرواية التوارة فهى تكون الحد الجنوبى لمملكة إسرائيل، حيث كانت تمتد فى أقصى اتساع لها «من دان إلى بئر سبع»، كما جاء فى أسفار القضاة (١/٢٠) وصموئيل أول (٢٠/٣)، وأخبار أيام أول (٢/٢١).

(١٠) بيت إيل:

اسم عبرى معناه «بيت الله»، ومكانها الآن «برج بيتين» على مقربة من بيتين الحالية، على مبعدة ١٦ كيلا شمالى أورشليم القدس، وطبقا لرواية التوارة، فقد كان اسمها «لوز»، ثم سماها يعقوب «بيت إيل»، وقد بقى فيها تابوت العهد حينا من الدهر، وبعد إنقسام المملكة أقام فيها «يربعام الأول» أحد «العجلين الذهبيين»، والثانى فى دان»، والأرجح أن هذا السبب هو الذى حمل النبى هو شع على أن يسميها «بيت أون» أى بيت الأصنام (تكوين ١٩/٢٨، هوشع ٥/١٠، ٨).

(١١) بيت شان:

وتقع الآن فى «تل الحصن» فى مجاورات «بيسان»، على مبعدة ٨ كيلا

---

(١) محمد بيومي مهران: اسرائيل ٧٥٥/٢، ٨٩٣.

M.F.Unger, وكذا H.Kee and L.Toomlis, BA, 1957, p. 82 - 105 وكذا op.cit, p. 843, 1102.

غربي نهر الأردن، وقد عثر فيها على كثير من الآثار المصرية، وخاصة من عهد الدولة الحديثة، (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) كما كانت على أيام سليمان عليه السلام إحدى المدن التي أقام فيها حظائر الخيل، شأنها في ذلك شأن مجدو وحاصور وتعنك وأورشليم[1].

(١٢) بيت لحم:

وتقع على مبعدة ٨ كيلا جنوبي القدس،، وكانت مدفن راحيل أم يوسف عليه السلام، وهي مسقط رأس داود عليه السلام، ومدفن آل يؤاب، وفيها ولد المسيح عليه السلام، لأن أمه مريم العذراء، والمولودة في الناصرة، إنما كانت هناك للإكتتاب، فحان وقت ولادتها هناك، وقد بنت الإمبراطورة «هيلانة» حوالي عام ٣٣٠ م كنيسة هناك، فوق المغارة التي يظن أن المسيح قد ولد فيها - وهي أقدم كنيسة في العالم - كما ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين، من أمثال المؤرخ أويسبيوس، والقديس جيروم (٣٤٥ - ٤٢٠م). غير أن القصة - كما جاءت في إنجيل لوقا (٢/٧)- إنما تشير صراحة إلى أنه ولد في «المذود»، كما أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أنه ولد عند جذع نخلة (مريم: آية ٢٣)، ومن ثم فالصحيح أنه عليه السلام ولد عند جذع نخلة، ربما عند بيت لحم، وليس في مغارة[2]. قال تعالى: «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت: ياليتني مت قبل هذا، وكنت نسيا منسيا»[3].

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ٢٠٣/١، وكذا: J.W.Crowfoot, in PEQ, 1940, p. 143 - 147

W.F.Albright, The Archaeology of Palestime, London, 1949, p. 124.

(٢) محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الثالث - في بلاد الشام - بيروت ١٩٨٨ ص ٢٨٥ - ٣٠٦ تكوين ١٩/٣٥، صموئيل أول ١٢/١٧، متى ١/٢-١٢، لوقا ٤/٢-٣٥، قاموس الكتاب المقدس ٢٠٥/١ - ٢٠٦، صموئيل ثان ٣٢/٢ وكذا: M.F.Unger, op.cit, p. 140 - 141

(٣) سورة مريم: آية ٢٣، وانظر: تفسير ابن كثير ١٨٧/٣ - ١٨٩، تفسير القرطبي ص ٤١٢٨-٤١٣٧، في ظلال القرآن ٢٣٠٤/٤ - ٢٣٠٨، صفوة التفاسير ٤/٢-٢، تفسير الطبري ٧٦/١٦-٧٧، التفسير الكبير ٢١/ ٢٠٧ - ٢٠٨، تفسير النسفي ٣١/٣-٣٥.

(١٣) جبع:

تقع جبع على مبعدة ٣ كيلا شرقى الرامة، وقد أصبحت منذ عهد «بعشا» (٩٠٠-٨٧٧) حداً ثابتا بين دولتى إسرائيل (إسرائيل ويهوذا)، ومن ثم نرى على أيام «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) ملك يهوذا، أن جبع ماتزال مدينة الحدود الشمالية، حيث نقرأ فى التوارة عن حدود يهوذا أنها «من جبع إلى بئر سبع» (ملوك ثان ٢٣/٨)[١].

(١٤) جبعون:

تعرف جبعون الآن باسم «الجيب»، وتقع على مبعدة ١٢ كيلا شمال غرب القدس، وقد بدأت فيها جامعة بنسلفانيا والمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية، حفريات منذ عام ١٩٥٦م، وهناك فى الجنوب الشرقى من قرية الجيب نبع ماء يتصل بخزان صناعى، سمى فى التوراة «بركة جبعون»، وطبقا لرواية التوارة، فلقد حدثت فى برية جبعون قصة وقوف الشمس عن المغيب، والقمر على وادى أيلون من أجل يشوع[٢].

(١٥) جازر:

وهى تل الجزر الحالية، على مبعدة ٢٨ كيلا شمال غرب القدس، ٨ كيلا شرقى عقرون، ٢٦ كيلا جنوب شرق حيفا، ونقرأ فى التوراة أن فرعون قد أخذ جازر وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان ومن ثم فقد أصبحت الأميرة المصرية السيدة الأولى فى مملكة سليمان، أو الزوجة الرئيسية، كما كانوا يسمونها، على أن المؤرخين إنما يتشككون كثيرا فى قصة التوارة هذه، وذلك لأننا لانلتقى بما يؤكدها من الجانب المصرى، وأما الشك من الناحية التاريخية، فإنه - حتى وإن حصر فى حدود ضيقة نسبيا - إلا أنه يكفى للتشكيك فى أى الفراعين هو المقصود هنا، هذا وقد قام جدل طويل حول الفرعون الذى صاهر سليمان، عليه

---

(١) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٨٩٧/٢ - ٨٩٨، وكذا M.Noth, op.cit, p. 235 - 236.

(٢) يشوع ١٠/١٢-١٤، صموئيل ثان ١٣/٢، وكذا J.Finegan, op.cit, p. 160. J.B.Pritchard, BA, 19, 1956, p. - 75, UMB, 21, 1957, p. 3 - 26, 1958, p. 12 - 24.

السلام، وأعطاه مدينة جازر، مهراً لابنته، فمن قائل إنه «بسوسينس الثانى»، ومن قائل إنه شيشنق الأول، هذا إلى أن اسم «تحبنيس» لايستطاع مطابقته على نظير له بالهيروغليفية، وجازر، على أية حال، هى القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية فى الشرق الأدنى القديم(١).

(١٦) حبرون:

تقع حبرون على مبعدة ٣٠ كيلا جنوب غرب القدس، ١٩ كيلا جنوب غرب بيت لحم، وحبرون هى الآن «مدينة الخليل»، وفيها قبر إبراهيم الخليل والسيدة سارة وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وقد أقيمت كنيسة فى عصر «جستينان» (٥٢٧ - ٥٦٥م)، وفى ذلك المكان يقوم اليوم مسجد كبير، هو «الحرم الإبراهيمى» وحبرون تعتبر من أقدم مدن العالم التى ماتزال آهلة بالسكان(٢).

(١٧) حاصور:

تقع حاصور - وهى تل القدح الحالية - على مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب بحيرة الحولة، وقد كشفت الحفائر فيها عن بقايا لمبانى سليمان عليه السلام، لم تشر إليها التوراة، فضلا عن حظائر الخيل، وهى على أية حال، مدينة كنعانية هامة(٣).

(١٨) دان:

تقع دان - وهى تل القاضى الحالية - على مبعدة ٤ كيلا غرب بانياس، عند سفح جبل حرمون، حيث منابع الأردن، وهى تكون الحد الشمالى لإسرائيل، كما تكون «بئر سبع» الحد الجنوبى، وذلك طبقا لرواية التوارة عن أقصى ماوصلت إليه مملكة إسرائيل على أيام داود وسليمان، عليهما السلام(٤).

---

(١) كذا M.F.Unger, op.cit, p. 401, 601 وكذا A.Gardiner, Egypt of THe Pharaohs, p. 329
وكذا O.Eissfrlat, op.cit, p. 595 وكذا C.Roth, op.cit, p. 21

(٢) قاموس الكتاب المقدس ٢٨٦/١ - ٢٨٧، وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 465- 466

(٣) ملوك أول ١٥/٩، وكذا O.Eissfeldt, op.cit, p. 595.

(٤) قضاة ١/٢٠، صموئيل أول ٢٠/٣، قاموس الكتاب المقدس ٣٥٦/١ - ٣٥٧، وكذا محمد بيومى مهران: اسرائيل ٧١٨/٢، ٨٠٨، وكذا M.F.Unger, op.cit, p. 236.

(١٩) الناصرة:

إسم عبرى، ربما بمعنى القضيب أو الحارسة أو المحروسة أو المحبوسة، وقد ذكرت في أناجيل: متى (٢٣/٢) ولوقا (٢٦/١) وهي مدينة في الجليل (مرقس ٩/١) - أي في الجزء الشمالي من فلسطين - وهي تقوم على جبل مرتفع يمكن أن نرى منه جبل الشيخ والكرمل وطابور ومرج ابن عامر.

وتقع على مبعدة حوالى ٢٣ كيلا غربي بحيرة طبرية، وحوالى ٣١ كيلا شرقي عكا، وحوالى ١٣٦ كيلا شمالي القدس.

وفي الناصرة ولد يوسف ومريم (لوقا ٣٩/٢) وفيها ظهر الملاك لمريم يبشرها بأنها ستكون أم المسيح (لوقا ٢٦/١-٣٣)، وعاش أكثر عمره فيها، ومن ثم فقد لقب «يسوع الناصرى» (متى ١١/٢١، مرقس ٢٤/١).

هذا وقد سمى أتباع المسيح عليه السلام «بالنصارى»، وهو إسم أطلقه عليهم اليهود، نسبة إلى «الناصرة» - بلد المسيح عليه السلام - وربما كان للكلمة صلة «بالناصريين»، وهي فرقة يهودية قديمة متنصرة.

وبهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم[١]، ومن فقد أصبحت «النصرانية» علما على ديانة المسيح عند المسلمين[٢]، وهنا حاول بعض علماء اللغة تفسير الكلمة على أنها نسبة للناصرة التي ينتسب إليها السيد المسيح عليه السلام[٣]، بينما ذهب آخرون إلى أنها نسبة إلى قرية يقال لها «نصران»، وهكذا قيل نصرانى، وجمعه نصارى[٤].

---

(١) أنظر: سورة البقرة: آية ١١٣،٦٢، ١٢٠، ١٣٥، ١٤٠، المائدة: آية ١٤، ١٨، ٥١، ٦٩، ٨٣، التوبة: آية ٣٠، الحج: آية ١٧، وأنظر: تفسير الطبرى ١٤٣/٢- ١٤٥، ١٥٠/١٠-١٥٤، ٣٩٥-٤٠٣، ٤٩٨ - ٥٠٦، تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢- ٥٣٠، ٦١٣-٦٢٣، تفسير الكشاف ٦٠٢/١. ٦٣١- ٦٣٢، ٦٣٧-٦٣٨، تفسير القطربى ص ٢١١٧-٢١١٨، ٢٢١٣، ٢٢٤٣-٢٢٤٤، ٢٢٥٢ -٢٢٥٥،، تفسير روح المعانى ٢٠٠/٦ - ٢٠٦، ٢/٧-٥ تفسير المنار ٢٥٢/٦-٢٦٤، ٣٥٠- ٣٥٤، ٣٩٤- ٣٩٦، تفسير أبى السعود ٣٥/٢-٣٦، ٤٦ - ٤٧.

(٢) جواد على ٥٨٣/٦.

(٣) اللسان ٦٨/٦، جواد على ٥٨٣/٦.

(4) J.Hastings, Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, p. 192.

وهناك من يرى أنهم سموا« نصارى» ،و وأحدهم « نصران» لنصرة بعضهم البعض، وتناصرهم فيما بينهم، بينما يذهب آخرون إلى أن السبب فى التسمية أنهم نزلوا أرضا يقال لها «ناصرة» ، ويسمى أصحابها الناصريون بينما يسمى عيسى الناصرى (أنظر تفسير الطبرى ١٤٣/٢ - ١٤٥ ، تفسير القرطبى ص ٣٦٩ ، تفسير النسفى ٥٢/١).

(٢٠) يابيش جلعاد:

تقع على جبال جلعاد، على مبعدة ١٦ كيلا جنوب شرق «بيت شان» (بيسان» ، ويظن أنها «تل أبوخرز» شمال وادى يبش (أنظر: قضاة ٨/٢١ ، صموئيل أول ١١ ، عدد ١٤).

(٢١) يافا:

إسم كنعانى معناه «جمال» وتقع على شاطىء البحر المتوسط ، على مبعدة ٥٦ كيلا شمال غرب القدس، وهى من أقدم مدن العالم، وقد تعرضت للإحتلال علي مر العصور،وأحتلها المصريون والفلسطينيون من شعوب البحر، والآشوريون والأغارقة والمكابيون والرومان وغيرهم.

(٢٢) شعليم - أوسعليتم:

مدينة فلسطينة سكنها الأموريون، وربما هى الآن «سلبيط» على مبعدة ٥ كيلا شمال غربى عجلون، وقد جاء عنها فى التوراة «وحصر الآموريون بنى دان فى الجبل لانه لم يدعوهم ينزلون إلى الوادى، فعزم الأموريون على السكن فى جبل حارس فى أيلون، وفى شعلبيم، وقويت يد بيت يوسف فكانوا تحت الجزية وكان تخم الأموريين من عقبة عقربيم من سالع فصاعدا» (أنظر: قضاة ٣٤/١-٣٦ ، قاموس الكاب المقدس ٥١١/١).

(٢٣) لخيش:

لخيش: أو لاخيش أو لاكيش: وكان يظن أنها «تل الحصى» (تل الحسى) على مبعدة ٢٥ كيلا إلى الشمال الشرقى من غزة ١٦ كيلا إلى الجنوب الغربى من مدينة جبرين، ويرجح الآن أنها «تل الدوير» على مبعدة ٨ كيلا غرب بيت جبرين (أنظر: W.M.F.Petrie, Tell el - Hesy (Lachish), London, 1891. وكذا M.F.Albright, in ZAW, 6, 1929, p. 3.

الفصل الثانى

لبنـــان

المدن الفينيقية

تقديـــم:

تمد فينيقيا واحدة من أصغر دويلات العالم القديم، وهى تشغل من الناحية الجغرافية شريطا ساحليا ضيقا كان يمتد من جبل الاقرع (كاسيوس) شمالا، إلى جبل الكرمل جنوبا، ومن أرواد (وتسمى خرائبها اليوم طرطوس شمال عمريت) إلى عكا (عكو بمعنى الرمال الحارة) ولايزيد طوله على ٣٢٠ كيلا، كما لايزيد عرضه على ٥٦ كيلا، وهو غنى بالخلجان، وبه عدد من الثغور، وترتفع إلى جانبه من ناحية الشرق جبال شامخة تغطيها الغابات من أشجار الأرز والصنوبر والسرو، وتفصل الخلجان الرؤوس البارزة فى البحر عن بعضها البعض.

وتظهر بالقرب من الشاطىء بعض الجزر التى كان لها كذلك شأن فى تاريخ هذه البقعة، ذلك لأنها كانت عامرة بالقرى والمدائن، شأنها فى ذلك شأن الساحل نفسه، بل إن أهميتها تفوق الساحل فى أحايين كثيرة[1].

وعلى أية حالة، فلقد كان الفينيقيون محصورين فى شريط من الأرض على شىء كثير من الضيق، ذلك لأن جبال لبنان لاتبعد عن البحر أكثر من ٥٠ كيلا، بل يقترب الجبل من البحر فى بعض المواضع فيصير على بعد مابين ١٩، ٢٤ كيلا، وفى بعض المواضع يلاصق الجبل البحر.

هذا فضلا عن أن هذا الشريط الضيق من الأرض مقسم طولا إلى عدة أقسام منفصلة بعضها عن بعض بامتدادات جبلية ناتئة من جبل لبنان، وواصلة إلى ساحل البحر، وهذا الامتداد الفاصل حاجز حقيقى تنشأ عنه أقاليم مختلفة، ثم أكثر هذه الامتدادات الناتئة عند الجبل تنتهى عند البحر بانحدار عمودى لايدع مكانا لطريق يوصل بين جانبيها، وهكذا كان الحال قديما، أو كان ماوجد على أكثر تقدير، طريق ضيق منحوت فى جنب النتوء.

---

(١) نجيب ميخائيل: مصر والشرق الادنى القديم – الجزء الثالث – سورية – الإسكندرية ١٩٦٦، ص ٤٨.

ولعل من خير الأمثلة على ذلك، رأس الكلب، وهو رأس يقع شمال بيروت (وهى بثرونا فى رسائل العمارنة، بمعنى الأبار)، ويوجد قرب قمته آثار طريق ضيق، وفى أسفله الطريق الذى سلكه الفاتحون المصريون والاشوريون والروم، وكل منهم قد ترك على الطريق نقوشا تخلد ذكراه. وكان البحر أسهل طريق للمواصلات بين كل بلد وآخر، وهذا الإنقسام انما كان أحد الاسباب التى جعلت فينيقيا لاتصلح أن تكون دولة حقيقية، فصارت عبارة عن دويلات صغيرة، يسود بعضها البعض الآخر، طبقا للزمان والظروف السياسية والاقتصادية.

هذا وتعتبر فينيقيا بمثابة ممر ضيق بين أفريقيا واسيا، لأن صحراء سورية الكبرى الواقعة وراء جبال لبنان إقليم لايمكن اجتيازه عمليا، وعكس ذلك من ناحية فلسطين فى الجنوب، إذ تتصل فينيقيا بشبه جزيرة سيناء ثم إلى داخل مصر نفسها، أما فى الشمال فالإتصال ممكن بأعالى وادى دجلة والفرات.

ومن هذا الوضع ندرك كيف كانت فينيقيا غير قادرة على أن تبقى منعزلة محايدة إزاء المنافسات التى تجاذبت العالم القديم، وكان عليها أن تصطلى بها، أو أن تنحاز إلى فريق منها، وكان ضمها ضرورة من الضرورات التى تحرص على تأمينها كل إمبراطورية كبيرة، لعظم الموارد التى تنتج من تجارتها، ولمنفعة الأسطول الذى يجده الفاتح بها.

وكان انحيازها إلى فريق من الفريقين المتحاربين ذا فائدة حربية أيضا، فهى لمن ملكها باب مفتوح على أفريقية وعلى أسيا على السواء، وهى ثغر يحتمى من وراءه به، ويتخذه فى نفس الوقت قاعدة لما يقدر من الغزو والتوسع(٢).

وهكذا تأثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود بالبيئة التى عاشوا بها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تاريخهم وحياتهم الإجتماعية والإقتصادية والسياسية، ذلك لأن الوطن الفينيقى الممتد على سواحل الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب، والصحراء من الشرق، أصبح بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة الأسيويون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادى النيل، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادى تتعقب الغزاة، وهم فى طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر.

(٢) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية - ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة، ومراجعة د. طه حسين - القاهرة - ص ٢٨ - ٢٩، ٣٤.

وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار، تحاصرهم وتدك قلاعهم، وتحملهم أسرى إلى مصر يسخرهم فرعون في الأعمال التي يريد، وقد سجلت الآثار المصرية والوثائق المصرية هذه الصلة الوثيقة بين فينيقيا ومصر، وما كادت الشعوب السامية النازلة في وادي الدجلة والفرات تفيق وتتطلع إلى السيادة على الشرق الأدنى حتى اتجهت صوب فلسطين، وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه القنطرة الساحلية، وتفعل بها مثل مافعله المصريون من قبل.

وهكذا أصبح الوطن الكنعاني الفينيقي في مهب التيارات العالمية، بين قوى عالمية كبرى، قامت في وادي النيل، وفي وادي الدجلة والفرات، وفي آسيا الصغرى، وترتب على هذا الوضع نتائج بعيدة الاثر، إذ لم يستطع الكنعانيون أن يقيموا دولة موحدة، تصمد هذه التيارات وتضع حدا لهذا النفوذ الاجنبي[٣].

وهكذا حددت خصائص المنطقة الجغرافية مصيرها التاريخي، فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات في هذا القطاع الضيق من الأرض إنما كان يعني أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحا لسلسلة من الهجرات والغزوات، دون أية فرصة دائمة لإنشاء نظم سياسية قوية، فقد كانت فينيقيا أرض تجارب للمطامع والمنافسات التجارية والحربية للدول الكبرى والتي كانت تقع بينها، وكانت الشعوب المهاجرة تتدفق عليها مرة بعد أخرى، لأنها كانت منطقة جذابة في حد ذاتها لخصبها، ويمكن دخولها من كل جانب، وكانت مفتوحة أمام مصر وأرض الرافدين وآسيا الصغرى والبحر المتوسط، فضلا عن الصحراء التي جاء منها البدو الساميون[٤].

وانطلاقا من كل هذا، وتخريجا عليه، لم يستطع الفينيقيون، بل لم يستطع السوريون جميعا، أن يشكلوا وحدة سياسية واحدة، كمصر، وانما وحدات صغيرة تعيش في مدن محصنة ذات أسوار عالية، وأبراج كبيرة، يلجأ اليها السكان وقت الخطر، ويحتمون بأسوارها، ويتخذونها وقت السلم أسواقا لتجارتهم.

على أن قيام هذه المدن المحصنة، وإن كان أحسن وسيلة التجأ اليها الفينيقيون

---

(٣) حسن محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم - القاهرة ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٤) سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة - ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٦٨ ص ١٢٢.

لصد غارات الدول المجاورة أو غارات البدو المجاورين، الا أن تقسيم البلاد إلى مدن صغرى يحارب بعضها البعض الآخر، ولايسود بينها أى نوع من الاستقرار، جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة، وخاصة الكبرى منها.

هذا ونظراً لأن الفينيقين لايميلون بطبيعتهم إلى النواحى السياسية، بقدر اهتمامهم بالشئون الاقتصادية، فإنهم إنما كانوا يفضلون الامان، والاستقرار السياسى، حتى يتمكنوا من تسويق تجارتهم والنجاح فى المجالات التجارية بصفة عامة(٥).

وقد أدت هذه الأوضاع مجتمعة إلى ظهور مايسمى بدويلات المدن حيث كان لكل مدينة حكومتها الخاصة بها، وعلى رأسها حاكم بالوراثة، قد ينتقل الملك منه إلى أسرة أخرى، أو تنتزع الإمارة وتسلب، نتيجة ثورة من عناصر تصبح لها الغلبة، ولم يكن سلطان الأمير أو الحاكم أو الملك استبداديا مطلقا، ذلك لأن التجارة تتطلب المغامرة وألوانا من النشاط لايتفق وهذا اللون من الحكم.

وكانت تقوم، إلى جانب الحاكم، هيئة من المشرعين، كما كانت تعقد أحيانا مؤتمرات من المدن الكبرى للتداول فى الشئون العامة المشتركة، وكانت طرابلس مقر الإجتماع العام للمدن الثلاث الرئيسية. وكان للدين نصيبه فى الإدارة، فهو يحدد سلطة الحاكم، وللكهنة نفوذ يلى نفوذ الحاكم، أما الموارد المالية فتعتمد على التجارة، وإن كنا لاندى على وجه التحقيق، أكان بيت المال يعتمد على المكوس أو على الاحتكار أو على الأمرين معا(٦)

وهكذا انتظم الفينيقيون فى جماعات صغيرة يرأس كل منها ملك، ويستقرون حول مدن محصنة تحيط بها مناطق زراعية تابعة لها، وكانت هذه المدن هى العواصم التى يلجأ إليها أهل المناطق الزراعية، ويحتمون داخل أسوارها وقت الخطر.

على أن النزاع كثيرا ماكان يحدث بين هذه المدن، وكانت أكثرها تفوقا

---

(٥) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق – بيروت ١٩٥٨ ص ٨٨، محمد بيومى مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم – القاهرة ١٩٨٥ ص ١٨٣، حسن محمود: المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٦) نجيب مخيائيل: المرجع السابق ص ٥٠ – ٥١.

تلك التى كانت وسائلها الدفاعية أكثر فاعلية، هذا إلى أن بعضا من تلك المدن انما كان يشغل موقعين، الواحد: على الساحل، والاخر: يمثل جزرا صغيرة فى مواجهته يلجأ إليها القوم عند اشتداد الخطر، وقد أدى هذا الوضع إلى أن يهيأ لكل مدينة مرفأين، أحدهما شمالى، والآخر جنوبى، فتلجأ السفن لهذا المرفأ وذاك بحسب الفصول واتجاه الريح، ومثال ذلك صيدا وصور، فكانت المسافة بينهما ملاحة يوم واحد(٧).

وبدهى أن المدن المنيعة كانت أقدر من غيرها على البقاء والإزدهار، كما أن هذه المدن الفينيقية المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة لم تترك الأمر هكذا، وإنما حاولت جاهدة إيجاد نوع من الترابط يؤلف بينها، ويجمع كلمتها، وبخاصة فى وقت الأخطار الخارجية، ومن ثم فقد عمدت إلى إنشاء تحالف قوى بين عدة مدن، بزعامة أوفرها قوة، تحالف كان دائما يمليه الخطر المشترك، وأحيانا المصالح المشتركة.

وكانت مدينة «أوجاريت» فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، و«جبيل» فى القرن الرابع عشر، و«صور» بعد هذا القرن الأخير، ثم «طرابلس» فى القرن الخامس قبل الميلاد، تتزعم هذه الاحلاف(٨).

ولعل من أخطر هذه المحالفات، ذلك الحلف المشهور الذى قضى عليه فرعون العظيم تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م) فى «مجدو» حوالى عام ١٤٦٨ق.م، وقد تجمع هذا الحلف، الذى كان يتزعمه أمير قادش(٩)، عند مدينة «مجدو» (وهى تل المتسلم الحالية غربى بحيرة طبرية، وعلى مبعدة ٣٢ كيلا جنوب شرقى حيفا) حيث جمع هذا الامير حوله «ثلاثمائة وثلاثين أميرا،

---

(٧) كونتنو: المرجع السابق ص ٢٩، محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٥٩.

(٨) فيليب حتى: المرجع السابق ص ٩٢.

(٩) قادش: وتقع مكان تل نبى مند، على الشاطىء الايسر لنهر العاصى عند اتصاله بنهر الموقادية، وعلى مبعدة ٧ كيلا جنوبى بحيرة حمص، وإن رأى البعض أنها «قادش» التى تقع شمال فلسطين، على مبعدة ٧ كيلا شمال بحيرة الحولة. انظر:

J.H.Breasted, The Battle of Kadesh p. 13 وكذا

A H.Gardiner, Onom, I,P. 137 - 141.

كل منهم معه جيشه الخاص»، لكي يوقفوا تقدم فرعون عند «مجدو»، وبدهي أن عدد الأمراء (٣٣٠ أميرا) إنما يشير بوضوح إلى أن سورية وفلسطين وفينيقيا، إنما كانت مجزأة بصورة غريبة، فهؤلاء الأمراء لم يكونوا في الواقع إلا زعماء لدويلات صغيرة جدا، كما كانوا على درجة من الاستقلال، تحول دون تكوين جيش موحد، بحال من الاحوال.

هذا ويبدو واضحا من رسائل العمارنة، من عصر الملك أمنحتب الثالث (١٤٠٥- ١٣٦٧ق.م) وأمنحتب الرابع (إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ق.م) أن القوم لم يفقدوا العمل المشترك بينهم فحسب، وإنما حاول الملوك الفينيقيون جميعا الحصول على الفوائد من سيدهم المصرى، بعضهم على حساب بعض، وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم بصفة شخصية[11]، ولعل السبب فى ذلك طغيان إحدى المدن، أو حتى إحدى الوحدات، على جاراتها التى تتزعمهن، الأمر الذى كان يؤدى أحيانا إلى خروجها عليها، والإنضمام إلى أعدائها، كما حدث حين ثارت صيدا وباليتروس وعكا ضد صور، وأعلنت خضوعها لأشور، بل ووجهت جميعا ضدها أسطولا يستهدف تدميرها فباء بالهزيمة.

وانطلاقا من كل هذا نستطيع أن نقرر أن نوعاً من الإتحاد قام بين الولايات الفينيقية أحيانا، تزعمته صور، وفينيقيا فى أوج مجدها، وأما حين دانت بالسيادة لأشور وفارس إنحلت عرى الرابطة التى ألفت بين الولايات[12].

وأما أهم المدن الفينيقية من الناحيتين السياسية والدينية فكانت مدن: جبيل: وكانت مركزا مقدسا للعبادة، ثم «صيدا» وقد لقبت «بالمدينة الأم فى كنعان»، ثم «صور»، وكان لها إلى جانب ازدهارها التجارى دور عظيم فى تأسيس العقائد

---

(١٠) أنظر عن معركة مجدو، والمراجع الخاصة بها (محمد بيومى مهران: مصر - الكتاب الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠٣ - ٢١٥ وأنظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومى مهران: إخناتون: عصره ودعوته - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥ وكذا.

J.A.Kundtzom, Die El-Amarn Tafeln, 2 Vols., Leizzig, 1908, 1915.

S.A.B.Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, Tornto, 1939.

(١١) فيلب حتى: المرجع السابق ص ٩٢.

(١٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٥٠.

فى الدين الفينيقى، ثم «أوجاريت»، وكانت مع انضمامها فى بعض الأوقات إلى «بيروت» تعيش بسبب بعدها عيشة أكثر استقلال من مدن فينيقيا الوسطى(١٣).

وكانت تتوسط هذه الثغور والمدن الكبيرة، قرى أقل شأنا، تنتشر بينها، ولها شهرتها الخاصة فى بعض نواحى الصناعة والفنون.

وقد تحكمت الطبيعة فى تحديد مواقع هذه المدن، إذ كان العامل فى اختيارها وقوعها على نهر، أو على مقربة من جبل يسهل معه الدفاع عنها، وكانت بعض هذه المدن تقام على البر، وعلى جزر متناثرة قريبة من الساحل، ويتعاون البر والجزيرة فى حماية المدينة والدفاع عنها، ولنشر الآن إلى بعض هذه المدن:

(١) أوجاريت:

كان موقع أوجاريت آهلا بالسكان قبل ابتداء التاريخ بزمن طويل، ودليل ذلك أن الاستاذ «شيفر» كشف على مبعدة ٧ كيلا شمالى أوجاريت على الشاطىء الأيمن لنهر العرب عن آثار عمران من العصر الحجرى القديم، مع أدوات شيليه، أو أدوات من العصر الشيلى الأول(١٤).

ويشير تاريخ الأبحاث الاثرية إلى أنه فى أبريل من عام ١٩٢٨م، وعلى مقربة من ميناء البيضاء (الميناء الأبيض) على مبعدة ١٦ كيلا إلى الشمال من ميناء اللاذقية، كان أحد الفلاحين يحرث حقله فاصطدم حد المحراث بشىء صلب فى باطن الأرض، فنظر الرجل فرأى جزءا من قبر خرب، وأخطرت الآثار فى بيروت، وعلم أن مخلفات أثرية مختلفة كشفت من قبل، وبدأت الحفائر فى بداية عام ١٩٢٩م، واكتشف الباحثون أن تلا يبعد نحو نصف ميل عن الشاطىء ويقوم بين فرعى نهر الفد اللذين يلتقيان بعد ذلك ويصبان فى البحر، أن هذا التل يغطى بقايا مدينة قديمة، واسمه العربى «رأس الشمرة» (ربما لكثرةماينمو عليه من نبات الشمر = الشمار).

ثم لم يلبث علماء الاثار أن اكتشفوا أن هذا التل إنما يغطى خرائب «أوجاريت»، وهى مدينة قديمة ذكرتها وثائق مصر وأرض الرفدين والحيثيين،

(١٣) ج. كونتنو: المرجع السابق، ص ٣٣.

(١٤) ج. كونتنو: المرجع السابق، ص ٤٤.

وباستمرار الحفائر كشفت قبور وأوان فخارية وتماثيل صغيرة وحلى وعظام حيوانية، ثم ألواح عليها نقوش مسمارية، وكانت التوفيق عظيما إلى حد دعا إلى تنظيم بعثة للحفر عاما بعد عام تحت إدارة الأثرى الفرنسى «شيفر»، وقد توقف العمل عام ١٩٣٩ م لإندلاع الحرب العالمية الثانية، ولكنه استؤنف مرة أخرى عام ١٩٥٠م.

هذا وقد كشف فى رأس الشمرة عن نصوص مكتوبة بلغات عدة: الأكدية والمصرية والحيثية والحورية ثم لغات أخرى كانت مجهولة حتى ذلك الوقت، ومن ثم نشأت مشكلة حل رموز هذه اللغة، وقد تم ذلك فى خلال عام واحد، وعلى يد ثلاثة علماء عملوا مستقلين هم: «هانز باور» الألمانى، و«ادوارد دورم» و«شارل فيرولو» الفرنسيين، وقد شغل ثالثهم بنشر النصوص وترجمتها وشرحها منذ عام ١٩٢٩م.

وقد كشفت فى رأس الشمرة عدة مئات من الالواح والكسر، أحدثت ثورة فى معلوماتنا عن الأدب الكنعانى، والمجموعة الأساسية فيها هى مجموعة الملاحم وشعر الاساطير، وإن وصلت إلينا للأسف فى حالة بعيدة عن الكمال، ولهذا كانت فى ترجمتها عدة فجوات، هذا إلى أن ترتيب الألواح ليس أكيدا فى كثير من الأحيان، وكذا ترتيب الأحداث فى دورات الملاحم.

وفى عام ١٩٥٣ م كشفت وثائق ملوك أوجاريت، وهى تشمل على رسائلهم إلى ملوك الحيثيين وغيرهم من الدول، ولابد أن هذه الوثائق كتبت كلها قبل تخريب المدينة حوالى عام ١٣٥٠ق.م (وإن كان الرأى السائد أن المدينة خربت حوالى عام ١٢٠٠ق.م، على يد شعوب البحر الذين جاءوا من سواحل الأناضول وجزر بحر ايجه، وأغارو على الشرق الأدنى القديم)[١٥] وترجع هذه الوثائق إلى مابين عامى ١٥٠٠، ١٤٠٠ ق.م، على وجه التقريب[١٦]

وعلى أية حال، ففى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد حدث زلزال فى المنطقة أعقبه طغيان البحر، فخربت أوجاريت، ولكنها مع ذلك نهضت من

---

(١٥) انظر عن «شعوب البحر وغزوهم لمصر وإمبراطوريتها فى غربى آسيا (محمد بيومى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩ (رسالة دكتوراه).

(١٦) سبتينوموسكاتى. المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨، ٢٧٢.

جديد، ثم مالبثت أن وقعت سريعا فى قبضة الحيثيين فى عهد أحد ملوكها ويدعى «نقمان»، وأصبح هذا تابعا لملك الحيثيين «شوبيلوليوما» (١٣٧٥ - ١٣٣٥ ق.م)، وعند قيام رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ق.م)، ثانى ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، بمحاولة إسترداد الإمبراطورية المصرية فى غرب آسيا، وحدثت بينه وبين ملك الحيثيين «مواتيلا» وحلفائه من ملوك وأمراء سورية وفينيقيا معركة «قادش» انضمت أوجاريت لهؤلاء الأحلاف، راغبة أو كارهة، بحكم تبعيتها للحيثيين[١٧].

وانتهت معركة قادش (جوالى عام ١٢٨٥ق.م) بنصر شبه مؤزر للفرعون، وإن اضطر الفرعون حوالى عام ١٢٨٢ ق.م إلى أن يخرج مرة أخرى إلى غربى آسيا، للقضاء على الثورات التى قامت فيها بتحريض من الحيثيين ، وأن يلتقى مرة ثانية بالحيثيين فى «تونب»، حيث أوقع بهم هزيمة ثانية، فضلا عن تلقين ملوكها درسا قاسيا أجبرهم على احترام مصر، وعدم التدخل فى أمر ولايتها الأسيوية[١٨].

وفى حوالى عام ١٢٦٩ ق.م، أبرمت معاهدة تحالف بين مصر وحاتى[١٩]،

---

(١٧) انظر عن معركة قادش (محمد بيومى مهران: مصر: الكتاب الثالث، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٣٥٢ - ٣٥٦، وكذا:

A. H. Gardiner, The Kadsh Inscriptions of Ramsess, II, Oxford, 1960, p. 5 - 10.

H. goedick, JEA, 52, 1966, p. 72 - 80.

A. Burn, JEA, 7, 1921, p. 194 - 196.

A. Gotze, LDZ, 32, 1929, p. 832 - 840.

J. Kuentz, BIFAO, 55, 1928, p. 14 F.

(١٨) انظر (محمد بيومى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٩٠ - ٩٥، وكذا:

K. A. Kitchen, JEA, 50, 1964, p. 68 - 70.

G. Gaballa, JEA, 55, 1969, p. 82 - 88.

(١٩) انظر عن معاهدة التحالف بين مصر وحاتى (محمد بيومى مهران: مصر، الكتاب الثالث، ص ٣٥٦ - ٣٦٠، وكذا:

S. Langdon and A. H. Gardiner, JEA, 6, 1920, p. 179 - 205.

M. B Rowton, JCS, 13, 1959, p. 1 F.

وظل سكان أوجاريت كما كانوا من قبل، وزادت عليهم عناصر جديدة (من أهل مكينى ببلاد اليونان ومن قبرص) لعبت دورا كبيرا فيما بعد، وانتعشت أوجاريت للمرة الأخيرة حيث أنها خربت حوالى عام ١٧٧٤ق.م، أثناء غزو شعوب البحر لمصر وامبراطوريتها الأسيوية، بعد أن أسقطت دولة الحيثيين، ولكن رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ق.م) ثانى ملوك الأسرة العشرين، كتب لها نجحا بعيد المدى فى هزيمة شعوب البحر فى موقعتين، الواحدة برية، والأخرى بحرية، ومن ثم فقد نجح فى القضاء على الأخطار التى هددت مملكته الاسيوسية، فضلا عن مصر نفسها[٢٠].

وأخيرا فيمكن القول بأن أوجاريت بحكم موقعها، إنما كانت أكثر تأثر بقبرص والحيثيين، فضلا عن الحوريين، أكثر من تأثرها بمصر[٢١].

(٢) أرواد (أرادوس):

قامت أرواد فى شمال فينيقيا على إحدى الجزر، وتقابلها على الشاطىء أرواد الداخلية، وقد وصف «إسترابو» هذه الجزيرة التى قامت عليها أرواد بأنها كانت (فى العصر اليونانى الرومانى) مغطاة بالمبانى بارتفاعات شاهقة ذات طوابق متعددة.

وكانت تسمى أرواد فى العصر الهلينستى «أنتارادس» (Antaradus)وقد أطلق عليها الصليبيون (Tortosa) وهى اليوم «طرطوس» شمالى عمريت، حيث لاتزال تشاهد بعض الاثار الفينيقية الهامة، وهى معبد وعدة قبور.

هذا وكان أهل أرواد يتجمعون فى جزيرتهم الصخرية- كما يفعل الأمريكان الآن فى جزيرة منهاتن فى نيويورك - فى ناطحات سحاب مصغرة، وقد ظهرت براعتهم فى ضمان التزود بالمياه لأجل جزيرتهم، وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل فى صهاريج، وتضاف إليها مياه ينبوع تحت البحر، يحصلون

---

(٢٠) انظر عن غزوات شعوب البحر (محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦، ص ٢٥٧ - ٢٦٤، مصر ٣/ ص ٣٧٣ - ٣٨٥، وكذا:

H. Nelson, JNES, 2, 1943, p. 45 F.

W. F. Edgerton and J. A. Wilson, Historical Records of Ramsses, III, Chicago, 1936, p. 35 - 55.

عليها بوضع قمع ضخم مقلوب على الينبوع، بحيث يتصل القمع بأنبوب جلدى، وربما كان هذا أقدم ماسجله التاريخ من وجود نبع مياه عذب تحت البحر(٢٢).

هذا وعلى الرغم من صغر مساحة أرواد، فقد سجل التاريخ أنها كانت تسيطر على كثير من المدن المجاورة، مثل «سيميرا» «و«مارثوس»، على أننا لانعرف الكثير عن تفاصيل تخطيطها، وربما كانت جباناتها، وكذا ضواحيها، تمتد إلى الأرض الرئيسية، وقد اشتهر أهل أرواد بأنهم ملاحون مهرة، وكانت لهم فرق كبيرة فى الأسطول الفينيقى، وقد رسم على ظهر عملتهم الأولى «سفينة» وهى شعار المدينة(٢٣).

هذا وقد تعرضت أرواد، شأنها فى ذلك شأن غيرها من المدن الفينيقية الرئيسية، لكثير من أطماع الشعوب المجاوره، وانتهى أمرها بأن دمرها أقوام البحر، كما تشير إلى ذلك مظاهر التخريب التى ترجع إلى القرن الثانى عشر، وان عادت مرة أخرى إلى الحياة، حيث قاست الكثير من غزوات الآشوريين المتكررة.

(٣) جبيل:

تقع جبيل على مبعدة ٤٠ كيلا إلى الشمال من مدينة بيروت، العاصمة اللبنانية الحالية، ويرجع تخطيطها إلى عصر البرونز، وتقع المدينة على صفع جبل، ومنها طريق يتصل بالمينا، وأهل جبيل يعتبرون مدينتهم أقدم مدن العالم قاطبة، وقد بناها الإله «إيل»، فيما تزعم أساطيرهم، هذا وقد كشفت الحفائر فى جبيل عن آثار ترجع إلى عصر Chalcolithic وربما كانت هناك مخلفات ترجع إلى عصور أقدم، كما أن جبيل ربما كانت كذلك من المراكز الهامة والقديمة لعبادة الإلهة «عشتار»(٢٤).

وعلى أى حال، فلقد ظلت هذه المدينة إلى آخر أيامها القصبة الدينية

---

(٢١) محمد أبو المحاسن عصفور: المدن الفينيقية، بيروت ١٩٨١، اص ٢٧.

(٢٢) فيلب حتى: المرجع السابق، وكذا:

Strabo, XVI, 2, 13.

(٢٣) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٤٧.

(٢٤) نفس المرجع السابق، ص ٢٤٧.

لفينيقيا، وكان البردى من أهم سلعها التجارية، ومن ثم فقد اشتق اليونان، فيما يرى «ول ديورانت» من اسمها اسم الكتاب فى لغتهم ببلوس (Biblo)، ومن هذه الكلمة نفسها اشتقت كلمة (Bible) اسما للكتاب المقدس (التوارة والإنجيل)(٢٥).

وكان إسم المدينة عند المصريين القدامى يكتب حتى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م) «كبن»، ولعله تحريف للإسم الفينيقى «جبل»، ثم أصبح بعد ذلك يكتب «كبين» (Kepen) بالباء الثقيلة، ثم أطلق اليونان عليها اسم «بيبلوس»، ثم أصبحت فى العربية «جبيل».

هذا وقد أقام المصريون علاقات مع جبيل منذ عصور ماقبل التاريخ، وتشير دراسة الخشب الموجود فى مقابر الأسرة الأولى إلى أنه وارد من سورية ولبنان، وأنهم عملوا على إحضار خشب الأرز من هنا، كما يشير إلى ذلك «حجر بالرمو»، منذ عهد «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل فى فصل العلاقات الخارجية.

وعلى أية حال، فهناك مايشير إلى أن «جبيل» إنما كانت آهلة بالسكان منذ أقدم العصور، وكانت بحكم موقعها ذات مركز تجارى هام، فنشأت بينها وبين جاراتها علاقات وثيقة، ويذهب كثير من الباحثين إلى أن جبيل إنما قد خضعت للنفوذ المصرى فى أغلب عهودها.

(٤) صيدا:

كانت صيدا شقيقة صور، بل لعل صيدا إنما كانت فى فترة ما ملكة المدائن الفينيقية وتقع صيدا على مبعدة ٤٥ كيلا إلى الجنوب من بيروت، ٤٠ كيلا شمالى صور (أى فى مكان وسط تقريبا بين بيروت وصور) فى سهل ساحلى شديد الخصوبة، وافر المياه، ولكنه ضيق ينحصر بين السفوح الغربية لجبال لبنان الجنوبية وبين البحر، يصل اتساعه إلى مايقرب من ميلين(٢٦).

---

(٢٥) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١، ص ٣١٣ - ٣١٤.

(٢٦) انظر:

F. C. Eislen, a Study in Oriental history, New York, 1907, p. 1.
Dictionnaire de la Bible, Pub. Vigouroux, T. V, Paris, 1928, p. 1704.

هذا وقد أنشئت المدينة، فى بادىء أمرها، على رأس جبلى، إختاره القوم، فى أكبر الظن، بسبب المرفأ الممتاز الذى يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها ببعض الآخر بأرصفة صناعية، وكان هذا المرفأ يقع إلى جهة الشمال، وكان هناك، من ناحية الجنوب، مرفأ آخر يسمى «المرفأ المصرى» وهو أكبر من الشمالى، وإن كان أقل منه أمنا، كما كان هناك، من ناحية البر، سور لحماية المدينة، وأما قلعة صيدا الحالية، وتسمى «قلعة البحر»، فترجع إلى أيام الحروب الصليبية، وتقع على أكبر الجزر التى قامت عليها المدينة[27].

هذا ويذهب «الأب هنرى لامانس» إلى أن مدينة صيدا القديمة انما كانت جزيرة[28]، وهو أمر، فيما يرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم، نستبعده اليوم، ذلك لأن كل الآثار القديمة التى تم العثور عليها إنما كشف عنها فى البر[29].

وتقوم المدينة الحديثة فى نفس مكان صيدا القديمة على وجه التقريب، أى على قلعة البر الذى أقيمت عليه قلعة البر الصليبية، مع ملاحظة أن المدينة الحديثة امتدت فى فترة لاحقة للإسترداد الاسلامى نحو الشمالى الشرقى بحذاء الساحل، وأصبحت لاتتعمق كثيرا فى الداخل[30].

هذا وقد اشتق إسم «صيدا» من الصيد، أى صيد السمك، وإليها ينتسب الإله الفينيقى الوثنى «صيدون»، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها كانت محلة صغيرة لصائدى الأسماك، على النحو الذى كانت عليه قرية «راقودة» (راكوتيس) التى أقيمت عليها مدينة الإسكندرية، وقد أشار «هومير» إلى أن السمك فى صيدون أوفر من الرمال، كذلك فسر «جستان» فى القرن الأول إسم صيدا بكثرة السمك فيها، على أساس أن الفينيقين كانوا يسمون السمك

---

(٢٧) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١، وكذا:
Poidebard et Lauffray, Sidon, Amenagements Antiques du Port de Saida, Beyrouth, 1951, p. 84.

(٢٨) هنرى لامانس: السواحل اللبنانية، مجلة الشرق، السنة السابعة، العدد ٢٠، ص ٩٤٨.

(٢٩) السيد عبد العزيز سالم: دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الإسلامى، بيروت ١٩٧٠، ص ١٠.

(٣٠) نفس المرجع السابق، ص ١٠، وكذا:
D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 28.
Schwarz, Encyclopaedia of Islam, p. 422.

«صيدون»، كما أشار الإدريسى إلى عين فى صيدا كان ينشأ فيها فى الربيع سمكيات على طول الإصبع، منها ذكور واناث، وأن لها أيد وأرجل صغار، وعلى أية حال، فمازالت صيدا حتى اليوم تشتهر بأسماكها ومازال القوم يعتبرون صيد الأسماك من أهم حرفهم، بل إن ميناءها الحالى، ما يزال فى نظر البعض، لايعدو أن يكون مرسى لزوارق السفن(٣١).

هذا وقد عرفت صيدا فى الآشورية باسم «صيدونا»، وفى اللاتينية «صيدون» أو «صيدونيا» وفى رسائل تل العمارنة المصرية «صيدونو»، وفى العبرية «صيدون» أو حتى «زيدون»، وعند الصليبيين «ساجيتا»(٣٢).

وأما فى العربية فقد عرفت باسم «صيدا»، وكذا باسم «أربل»، يقول ياقوت الحموى فى معجمه «أربل إسم لمدينة صيداء التى بالساحل من أرض الشام، ولعلها سميت «أربل» عند العرب من الربا أى كثرة الشجر، وقد أشار ابن فضل الله العمرى إلى أن كورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار(٣٣).

هذا وتنسب التوراه مدينة «صيدا» إلى صيدون الابن الأكبر لكعنان بن حام بن نوح، ومن ثم فهى تربط بين تأسيس صيدا وبين الكنعانيين الذين عرفوا باسم الصيدونيين(٣٤)، وهكذا تنسب التوارة «الكنعانيين - الفينيقيين»، كما أشرنا من قبل، إلى الحاميين، وليس إلى الساميين، مع أنهم يتكلمون لغة سامية، بل هم أنفسهم ساميون، والأمر كذلك بالنسبة إلى المصريين الذين جعلهم التوراة

---

(٣١) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٧ - ١٨، منير الخورى: صيدا عبر حقب التاريخ، بيروت ١٩٦٦، ص ٢٤، الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ص ١٥، وكذا:
F. C. Eislen, op. cit., p. 11.

(٣٢) أنيس فريحه: أسماء المدن والقرى اللبنانية، بيروت ١٩٥٦، ص ٢٠٣، منير الخورى: المرجع السابق، ص ٢٤، وكذا:
F. C. Eislen, op. cit., p. 10.

(٣٣) معجم ياقوت ١/ ١٤٠، القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ٤/١١١، عبد العزيز سالم: المرجع السبق، ص ١٦.

(٣٤) تكوين ١٠/ ١٥، أخبار أيام أول ١/ ١٣، يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام ١/ ١١، وكذا:
Schulim Ochser, The Jewish Encyclopaedia, N. Y., 1903, Article, Sidon.

حاميين، تقول التوراة[٣٥] في سفر التكوين «بنوحام: كوش ومصرايم وفوط وكنعان»،[٣٦] والمصريون ساميون، ما في ذلك من ريب، وكذا الكنعانيون الفينيقيون.

وهكذا تعمد العبرانيون في توراتهم، إقصاء الكنعانيين - الفينيقيين عن الإنتساب إلى سام بن نوح، لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ماابينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية، وقد أرجع الإصحاح العاشر من سفر التكوين نسب الفينيقيين والسبئيين إلى «حام» جد الكوشيين، ذى البشرة السوداء، مع أنهم «أى الفينيقيين والسبئيين» من الساميين، وقد يكون ذلك بسبب وجود جليات فينيقية وسبئية في أفريقية، فعد كتبة التوراة هولاء من الحاميين[٣٧].

ومن عجب أن يأخذ مؤرخو العرب وجغرافيوهم بالتفسير التوراتى لنسب الفينيقيين، ومن ثم فقد أجمعوا على نسبة الصيدونيين إلى «صيدون بن صدقاء بن كنعان بن حام بن نوح»[٣٨].

هذا ويذهب «ايوستاثيوس» إلى أن صيدون القديمة من بناء «بيلوس»، وأنها سميت باسم ابنته «صيد»، ولكن الكتاب الإغريق أجروا تعديلا على هذه الأسطورة، فابدلوا «صيد» بـ «صيدوس بن ايجيبتوس» الذى بنى صيدون وسماهم باسم «صيدوس»، ويذهب «فردريك كارل ايسلين» إلى أن هذا التفسير الأخير إنما يشبه إلى حد ماتفسير التوراة، وأنه يربط المدينة واسمها باسم «صيدون»، ويعترض وهو على حق في هذا، على الأخذ بهذا التفسير الخيالى[٣٩].

---

(٣٥) انظر: عن التوراة، ومدى الشك الذى يحيط بوثاقة نصها وصحته (محمد بيومى مهران: اسرائيل، الكتاب الثالث، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ١، ٣٧٩).

(٣٦) تكوين ١٠/ ١٥.

(٣٧) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٨، الجزء الأول، ص ٣٢٤، وكذا: R. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1935, p. XV.

(٣٨) انظر: معجم ياقوت ٣/ ٤٣٧، القلقشندى: المرجع السابق، ١١١/٤، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء دمشق والجزيرة، دمشق ١٩٥٦، ص ١٨.

(39) F. C. Eislen, op. cit., p. 9.

ومن ثم فـان «إيسلين» إنما يرجح أن صيـدون القـديمة سـميت باسم إله يحمل هذا الإسم، ومنه اشتقت التسمية الصليبية «ساجيتا» أو «ساجيت» ، وإن كان يميل إلى ربط إسم «ساجيتا» باللفظة اللاتينية Sagitta بمعنى السهم بدليل أن السهم كان شعار مدينة صيداً فى العهد الصليبى، وكانت العملات التى سكت فى صيدا فى ذلك العهد تحمل هذا الشعار[٤٠].

ويذهب الأستاذ أنيس فريحة إلى أن يكون «صيد» هو الجذر الذى استقت منه صيدون، وصيدا، كان الها ساميا قديما يمثل الصيد، ويعلل تسمية أهل صيدا للمزار الواقع فى الجنوب الشرقى منها، وإلى أن يسميه الأهالى «مزار النبى صيدون» ، بأنه مكان هيكل فينيقى قديم للإله السامى «صيد إله الصيد[٤١]».

ويعتقد أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم أن إسم «صيدا» مشتق من الجذر السامى صيد، ويقصد به صيد السمك، وهو الحرفة الرئيسية لسكان هذه المدينة منذ نشأتها، ولا نستبعد تمجيد الأهالى لهذه الحرفة فأطلقوا على مدينتهم إسمها، بحيث أصبح إسم صيدون يعنى مدينة صيد الأسماك، ولعل هذا التمجيد كانت له علاقة بالفكر الدينى القديم عند سكان صيدون، أو لعله كان يرتبط بالطوطمية التى كان من مظاهرها أن يتسمى بها الأفراد تعبير عن تفاؤلهم بها، كما كان يفعل العربى فى العصر الجاهلى عندما كانوا يتفاءلون بالطير كالحمامة مثلا، ومن المعروف أن كثيراً من الأسماء السامية القديمة للمواضع أو للقبائل كانت ذات صلات وثيقة بأسماء الالهة، وليس ضرورياً أن تكون حرفة الصيد التى كان يمارسها القوم كانت مقصورة على صيد السمك، فمن المعروف أن أهل صيدا احترفوا أيضاً صيد نوع من القواقع أو الأصداف كانوا يستخرجون منها الأصباغ الإرجوانية المشهورة، وكانت هذه الحرفة من أسباب ازدهار التجارة الفينيقية[٤٢].

---

(٤٠) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٨ - ١٩ ، وكذا:
F. C Eislen, op. cit., p. 14.

(٤١) أنيس فريحة: المرجع السابق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٩

(٤٢) عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ١٩ ، تاريخ العرب فى العصر الجاهلى، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٤٠٨ ، وانظر: محمد غلاب: الساحل الفينيقى وظهيره فى الجغرافيا والتاريخ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٣٥٩ .

(٥) صـــور :

تقع «صور» (أى الصخرة) على مبعدة ٤٠ كيلا جنوب صيدا، وتعتبر أعظم المدن الفينيقية جميعا، دونما ريب، وطبقا لرواية «هيرودوت» (عن كهنة ملقارت)، فلقد أنشئت صور قبل قدوم هيرودوت إليها، حوالى ٤٥٠ق.م، بألفين وثلاثمائة سنة، ومن ثم تكون قد ظهرت إلى الوجود، حوالى عام ٢٧٥٠ ق.م[٤٣].

هذا وقد بنيت، فى الأصل، على جزيرة تبعد عدة أميال من البر، وقد كانت، فيما يرى استرابو[٤٤]، «مبنية بنفس الشكل الذى بنيت به أرادوس»، هذا وقد كانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل، بناه الإسكندر المقدونى (٣٥٦ – ٣٢٣ق.م) أثناء حصاره لها عام ٣٣٢ ق.م، والذى دام سبعة أشهر من البر والبحر[٤٥].

هذا وقد بدأت المدينة تاريخها، فى بادىء الأمر، كحصن، إلا أن ميناءها الآمن، وسلامتها من الغزو، سرعان ماجعلاها حاضرة البلاد الفينيقية كلها، ومأوى لخليط من التجار والعبيد قدموا إليها من جميع بلاد البحر المتوسط[٤٦]، وهكذا ما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد، حتى كانت صور مدينة غنية فى عهد ملكها «حيرام» ـ٩٨٠ – ٩٣٦ ق.م) الذى عاصر الملك النبى سيدنا سليمان عليه السلام (٩٦٠ – ٩٢٢ ق.م)[٤٧]، وفى أيام زكريا (حوالى عام ٥٢٠

---

(٤٣) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٥٥٩، (بيروت ١٩٦٧)، وكذا:

Herodotus, II, 44.

(44) Strabo, XVI, 2, 23.

(٤٥) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٢٥٤، وكذا:

Arrian, II, 18 - 24.

Diodorus, XVII, 41 - 46.

(٤٦) ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(٤٧) يتفق المؤرخون على أن سليمان عليه السلام قد حكم فى القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنهم يختلفون فى تحديد هذه الفترة من هذا القرن العاشر، فهناك من يراها فى الفترة (٩٧٤ – ٩٣٧ ق.م) (فضلو حورانى: المرجع السابق، ص ٣٤)، ومن يراها فى الفترة ٩٧٣ – ٩٣٦ ق (حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، ص ٨٤)، ومن يراها فى الفترة ٩٦٣ – ٩٢٣ ق.م (فيلب حتى. المرجع السابق، ص ٢٠٥) ومن يراها فى الفترة ٩٦١ – ٩٢٣ ق.م (موسكاتى: المرجع =/=

ق.م)(٤٨) كانت الفضة التى تجمعت فيها كأنها التراب، وكان الذهب كأنه «وحل الطرقات»(٤٩)، ويقول عنها «استرابو» أن بيوتها من طبقات كثيرة، بل إنها أكثر طبقات من بيوت روما»(٥٠)، غير أن هذا الرخاء إنما كان قائما فى ذلك العصر، وفى جميع العصور، على التجارة والغنى، وليس على الأراضى والفتح(٥١).

وعلى أية حال، فلقد ظلت صور، نتيجة ثرائها، فضلا عن بسالة أهلها، مستقلة حتى أيام الإسكندر الأكبر والذى رأى فى استقلالها تحديا لعظمته وعبقريته الحربية، ومن ثم فقد أخضعها، كما أشرنا آنفا، عام ٣٣٢ ق.م، ثم قضى عليها نهائيا إزدهار مدينة الإسكندرية العظيمة(٥٢).

وأخيرا، فلعل من الجدير بالإشارة أن الحفائر التى أجريت تحت سطح البحر، فضلا عن الخرائط الجوية، قد أثبتت أن حاجز الماء الذى كان يحمى مدينة صور، إنما يقع اليوم تحت سطح البحر بنحو ٥٠ قدما، وكان طوله ٧٥٠ مترا، وعرضة ثمانية أمتار، وكانت تشرف عليه أسوار المدينة العالية وأبراجها الشامخة، وقد بنيت هذه الحصون فى عهد ملك صور «حيرام» (٩٨٠-٩٢٦ ق.م)، وبذلك أصبحت صور من أعظم موانى حوض البحر الأبيض الشرقى(٥٣).

السابق، ص ١٤٣، وكذا:

E. W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, p. 172.

(٣٨) لاريب فى أن زكريا هذا، إنما هو غير زكريا الذى جاء فى القرآن الكريم، والد النبى يحيى عليهما السلام، واللذين عاصر السيد المسيح عليه السلام (أنظر عن زكريا القرآن: سورة آل عمران: آية ٣٣ - ٥٩، مريم: آية ٢ - ١٥)، وأما زكريا المذكور هنا فهو صاحب سفر زكريا، وهو السفر قبل الأخير فى العهد القديم، وقد عاش فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس ق. م على الأرجح (محمد بيومى مهران: النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل، ص ٥٩).

(٤٩) ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(50) Strabo, XV, 2, 23.

(٥١) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ٩١.

(٥٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٤، ول ديورانت: المرجع السابق، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٥٣) فليب حتى المرجع السابق، ص ٩١، حسن أحمد محمود وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم، ص ٣٩٠، وكذا:

A. Poidebard, un Grand port disparu: Tyr, Paris, 1939, p. 25 - 26.

(٦) بيروت:

بيروت: عاصمة لبنان الحالية، وإحدى مدن البحر المتوسط الهامة، وهى مدينة قديمة كانت مركزاً هاماً للتجارة الفينيقية، وقد جاء ذكرها فى رسائل العمارنة (من القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، عدة مرات.

وقد وصفها «ربعدى» - أمير جبيل - بأنها، هى وصور، أعداء الفرعون، رغم أن ربعدى كان قد ذهب إلى بيروت لمساعدة أميرها «خامونيرى» (امونيرى - Ammuniru)، ولفقد حلف معه.

هذا وقد ازدهرت بيروت على أيام السلوقيين والرومان والبيزنطيين، وقد فتحها العرب فى عام ٦٣٥م، على أيام الخليفة الراشد «عمر بن الخطاب» (١٣ - ٢٣ هـ/ ٦٣٤ - ٦٤٤م) - رضوان الله عليه - ثم احتلها الصليبيون فى ١١١٠م، وأصبحت جزءاً من مملكة «بيت المقدس» اللاتينية، حتى عام ١٢٩١[1].

(٧) سميريا:

سميريا مدينة فينيقية، جاء ذكرها عدة مرات فى «رسائل العمارنة»، ففى أول رسائل «ربعدى» - أمير جبيل - إلى إخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) نراه وقد وجد نفسه فى مشكلة بسبب هجوم شعب «ساجاز» (Sagaz) لمدينة «سيميريا» وبما أن مدينته «جبيل» كانت على مقربة من «سيميريا»، فإنه قد أصبح فى خطر. وفى رسالة من إخناتون - داعية التوحيد - نعرف أن «سيميريا» استولى «عزيرو» - أمير أمور - عليها، ومن ثم فإن الفرعون إنما يصرّ على أن يعيد «عزيرو» المدينة.

وفى رسالة ثالثة من «ربعدى» نراه يوجه اتهاماً إلى «خايثب» (هائيب) - والذى ربما كان أخو عزيرو - فيقول: «أما بالنسبة لخائيب، فلقد جعل والده

---

(١) محمد بيومى مهران: إخناتون، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٥٩ - ٢٦٢، وكذا:
S. A. B. Mercer, The Tell - El-Amarna Tablets, I, Toronto, 1939, No. 136 - 137.

المدن أكثر عداوة لمدينة «جبيل»: انظر: لقد وضع هائيب (Haibi) يده على «سيميريا»[1].

(1) S. A. B. Mercer, op. cit., I, 1939, Nos, 132, 159 - 160.
وانظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومى مهران: إخناتون، ص ٢٣٣ - ٢٤٥)

الفصل الثالث

سوريـــة

الإمارات الأرامية

(١) فى شمال سورية:

توغل الأراميون فى شمال سورية، مكونين عدداً من الولايات الصغيرة والتى منها:

١- جرجوم: وعاصمتها «مرقاش»، وهى مرعش الحالية.

٢- سمأل: فى كليكيا، وعاصمتها «سنجرلى».

٣- خاتينا: وعاصمتها «كوتالوا».

٤- ياخان: وعاصمتها «أرباد».

٥- يمخد: وعاصمتها «حلب» (حلبو).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الولايات إنما قد تعرضت للضغط الأشورى عدة مرات، حدث ذلك على أيام «أشور ناصر بال الثانى» (٨٨٤ - ٨٥٨ ق.م) الذى قام بحملة مظفرة على «خاتينا» وأجبر ملكها على الخضوع ودفع الجزية[١]، ولكن سرعان ما انتهزت خاتينا - بالاتفاق مع قرقميش وجرجوم وسمأل وبيت أدينى - فرصة وفاته، وانتقال العرش الأشورى إلى «شلمنصر الثالث»، فقامت بالثورة ضد آشور، إلا أن العاهل الأشورى الجديد تمكن فى عام ٨٥٨ ق.م من القضاء على الثورة واجبار العصاة على دفع الجزية[٢] ثم كتب له آخر الأمر - وفى عام ٨٣٢ ق.م - نجحا بعيد المدى فى القضاء نهائياً على الثورة، وتوليه أحد الموالين له عرش «خاتينا»، وسرعان ما إختفت خاتينا من النقوش وضعفت الولاية جداً، واقتصرت على العمق لانطاكية، وأصبحت تسمى «أونقى»[٣].

---

(1) E. G. Kraeling, op. cit., p. 66.

(2) Ibid., p. 68 - 71.

(3) Ibid., p. 71 - 72.

وفى القرن الثامن قبل الميلاد، عاودت أشور الهجوم، ففى عام ٧٤٠ ق.م وبعد حصار دام سنوات ثلاث، وقعت في يد «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م) مدينة «أرفدة»، وتدل النقوش المكتشفة فى «سوجين» - وتقع على مبعدة ٢٥ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقى من حلب - على أنها كانت مركز المعارضة ضد آشور[١].

وكانت دويلة «سمأل» آخر الولايات الأمورية التى ظلت تكافح من أجل استقلالها حتى القرن الثامن ق. م، حين نجح «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ - ٧٢٢ ق. م) فى القضاء على استقلالها وضمها إلى إمبراطوريته الواسعة ثم أقام «إسرحدون» (٦٨١ - ٦٦٩ ق.م) شاهداً كبيراً عند مدخل المدينة مجد فيها حكمه، وعلى أى حال، فإن ما وجد فى «سمأل» من بقايا أثرية لهلاك بالنار، وانقطاع كل ذكر لها فى مصادرنا، يدلان، فيما يبدو، على أنها لقيت نهاية فاجعة قبل مرور زمن طويل[٢].

(٢) فى وسط وجنوب سورية:

١ - حران (حاران):

هى عاصمة دويلة أرام النهرين، والتى تسمى فى التوراة[٣] «فدان أرام» أو نهرين فى السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام، وكان مركزها مدينة «حران» التى أصبحت من مراكز الحضارة الآرامية[٤]، وفى هذا الإقليم تقع كذلك مدينتا «نصيبين» و «الرها» اللتين اشتهرتا كمركزين للثقافة والآداب السريانية[٥].

وتعتبر دويلة أرام النهرين أقدم الإمارات الأرامية فى سورية وشرق الأردن، وأما اصطلاح «أرام النهرين» فقد ظهر - فيما يرى كريلنج - فى القرن الثالث عشر

---

(١) موسكاتى: المرجع السابق، ص ١٧٨. وكذا:

H. Schmokel, op. cit., p. 262.

(٢) موسكاتى: المرجع السابق، ص ١٧٩، وكذا

A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 68.

(٣) تكوين ٢٤ : ١٦.

(٤) فليب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٤٣

ق. م، غير أن رواية التوراة[1]، إنما ترجع به إلى عصر الآباء الأول - عصر إبراهيم وناحور وإسحاق ويعقوب - هذا فضلاً عن أن الإصطلاح إنما استعمل فى رسائل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد[2]، وأما النهران فكان المراد بهما من قبل الدجلة والفرات، ولكن الراجح الآن - كما أشرنا من قبل - أنهما الفرات ورافده الخابور - حيث تقع منطقة حاران التى استقر الأراميون فيها فى عصر الآباء الأوائل، ومن هنا بدأت القوة الأرامية فى الإنتشار، وقد دعا العبرانيون هذه المنطقة «أرام التى فى عبر النهر» واستمرت هذه الدولية حتى القرن التاسع قبل الميلاد[3].

وكان الأراميون فى فدان أرام قد اتخذوا من «حاران» - وتقع على نهر بلخ على مبعدة ٦٩ كيلا من اتصاله بنهر الفرات، إلى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعدة ٤٤٨ كيلا إلى الشمال الشرقى من دمشق - وكانت المدينة مركزاً تجارياً على طريق القوافل التى تصل نينوى وآشور وبابل بدمشق وصور والمدن المصرية وقد اتخذت القمر إلهاً لها تحت إسم «تارح»[4]، ثم اتخذها الآشوريون مركزاً لهم بعد سقوط نينوى فى عام ٦١٢ ق. م، تحت أيدى البابلين والميديين ولكن «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م) إستطاع الإستيلاء عليها فى عام ٦٠٩ ق.م، والقضاء على بقية الجيش الآشورى، قبل وصول نجدات ملك مصر «نخاو» الثانى (٦١٠ - ٥٩٥ ق. م) لإنقاذه[5].

٢- دمشـــق:

تقع دمشق - على مبعدة ١٠٤ كيلا شرقى البحر المتوسط، ٢١٢ كيلا

---

(١) تكوين ٢٤: ١٠، ٢٨: ٢، ٥، ٢٩: ٤ - ٥.

(2) Samuel A. B. mercer, The Tell-Amarna Tablets, Toronto, 1939, Vol. 2, p. 898.

(3) E. G. Kraeling, op. cit., p. 21.

(٤) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٨١. وكذا
M. F. Unger, op. cit., p. 455.

(5) M. F. Unger, op. cit., p. 455.

وكذا.
A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, o. 357 - 358.

شمال شرق القدس – في وسط غوطه يسقيها نهر «بردى»، وهي مركز هام لطرق التجارة، وهي من أقدم مدن الشام، وقد ذكرت على أيام سيدنا إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠ – ١٧٦٥ ق.م)[١]، وكانت على أيام داود عليه السلام (١٠٠٠ – ٩٦٠ ق. م)[٢] موطناً وعاصمة للأراميين.

هذا وقد تأسست «دويلة أرام دمشق» في أخريات القرن الحادى عشر قبل الميلاد، على رأى[٣]، وأخريات القرن العاشر على رأى آخر[٤]، فكانت معاصرة على وجه التقريب لتأسيس مملكة العبرانيين – طبقاً للرأى الأول، وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به – ثم سرعان ما تطورت حتى غدت دولة كبرى – بالنسبة إلى جيرانها – تمتد إلى الفرات من جهة، وإلى اليرموك من جهة أخرى، وكانت متاخمة لأرض الأشوريين في الشمال، ولأرض العبرانيين في الجنوب، وكانت سورية الداخلية شرقى جبل لبنان، وسورية الشمالية وباشان، تحت سلطانها في حوالى عام ١٠٠٠ ق.م، وظل ملوكها يسيطرون على اثنتى عشرة أمة صغيرة من حولهم أفلحوا في مقاومة ما كان يبذله الأشوريون من جهود لإخضاع سورية لحكمهم[٥].

وأما علاقة أرام دمشق بالعبرانيين، فكل دارس للتوراة على معرفة بها وهى – على أى حال – قد بدأت أيام «شاؤل» (١٠٢٠ – ١٠٠٠ ق. م)، وإن كان «داود» (١٠٠٠ – ٩٦٠ ق. م) هو الذى استطاع الإستيلاء على المدينة

---

(١) انظر عن عصر إبراهيم عليه السلام (محمد بيومى مهران: إسرائيل، ط ثالثة، حـ١، ١٩٩٩، ص ٧٥ – ٨٤).

(٢) انظر عن عصر داود عليه السلام (محمد بيومى مهران: إسرائيل حـ٢ – ط ثالثة، ١٩٩٩، ص ٦٤٣.

(٣) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٤) مراد كامل: المرجع السابق، ص ٤.

(٥) نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٣٢ – ٣٣، فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١٨١، مراد كامل، المرجع السابق، ص ٤، أدى شير: تاريخ كلد وأثور، بيروت ١٩١٢ – الجزء الأول، ص ٦٦، وكذا:

R. H. Pfeiffer, Introduction to the Old Testament, N. Y., 1941, p. 687 JNES, 7, p. 70.

العريقة[1]، هذا وقد روت التوراة بالتفصيل قصة الصراع بين الأراميين والإسرائيليين على أيام «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق. م)، الأمر الذى وصل إلى أن يحاصر الأراميون «السامرة» عاصمة إسرائيل نفسها، وإن إستطاع آخاب أن يصون آخر الأمر حدود اسرائيل الشمالية، وأن يشترك فى حلف ضد الأشوريين يقوده عدوه القديم ملك دمشق، وأن يشارك معه فى حرب ضد آشور فى موقعة قرقار فى عام ٨٥٣ ق.م[2]، الأمر الذى سوف نناقشه بالتفصيل فى مكانه من هذه الدراسة.

على أن الصلات بين الأراميين والإسرائيليين لم تكن كلها حربية، وإنما كانت هناك صلات تجارية، وعلى أى حال، فلقد بقيت دويلة (أرام دمشق) تقاوم جبروت الأشوريين - على الرغم من أن طول منافستها مع جيرانها من الأراميين والعدو العبرانيين قد أرهقها كثيراً - إلى أن استطاع (تجلات بلاسر الثالث) (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م)، أن يستولى عليها فى عام ٧٣٢ ق.م، وأن يقتل ملكها (رصين) وأن يجعلها ولاية آشورية، ذلك أن العاهل الأشورى كان - وقت طلب أحاز ملك يهوذا للنجدة لإنقاذه من قوات دمشق والسامرة - فى شمال سورية، وربما كان مع جيشه فى مكان ما فى مجاورات دمشق، ومن ثم فلم يكن فى حاجة إلى توسلات (أحاز) اليهودى ليقوم بحملاته ضد سورية وفلسطين، وهكذا استطاع العاهل الأشورى أن يجتاح فى عدة حملات إلى الغرب دمشق، بعد حصار دام عامين، وبسقوط دمشق حان الوقت للأشوريين أن يضموا سورية بأكملها، وانتهت قوة الأراميين السياسية وأصبحت السيادة على الدويلات الأرامية لاشور[3].

---

(١) صموئيل ثان ٨: ٥ - ٦، أخبار أيام أول ١٨: ٥ - ٦، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٣٧٥، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) ملوك أول ٢٠: ١ - ٤٢، ٢٢: ٢ - ٣٨، وكذا:

A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 35.

A. Lods, op. cit., p. 378.

E. G. Kraeling, op. cit., p. 73. 75.

(٣) ملوك ثان ١٦: ٥ - ١٠، بولس عياد المرجع السابق، ص ١٤، وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 259 F.

=/=

وعلى أية حال، فلقد خضعت دمشق للبابليين بعد ذلك فى عام ٦١٢ ق. م، والفرس فى عام ٥٣٩ ق.م، واليونان فى عام ٣٣٣ ق. م، والأنباط فى عام ٨٥ ق.م، والرومان فى عام ٦٦ ق.م، والساسانيون عام ٦١٤م، وفتحها العرب عام ٦٣٥ م، غير أن أطول فترة خضعت فيها دمشق، إنما كان ذلك للمصريين على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م).

هذا وقد أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الأموية (٤١ - ٣٢ هـ/ ٦٦١ - ٧٥٠م)، وكان أهم أعمالهم فيها بناء مسجدها الكبير (المسجد الأموى)، وكان أول من اختطه الصحابي الجليل «أبو عبيدة بن الجراح»، حين فتح دمشق (١٣ هـ/ ٦٣٥م) ثم بناه «الوليد بن عبد الملك» (٨٦ - ٩٦ هـ/ ٧٠٥ - ٧١٥م) فى الفترة (٨٨ - ٩٦ هـ) - فى مكان كنيسة - وقد تأنق فى بنائه، حتى قيل إنه أنفق على عمارته خراج دولته لمدة سبع سنين[1].

(٣) صوبة:

صوبة: عاصمة مملكة أرام صوبة القوية، وتقع عاصمتها (صوبة) فى مكان «صوبة» فى مكان بلده «عنجر» فى البقاع جنوبى «زحلة»[2]، وإن كنا للأسف - لانعرف شيئاً حتى الآن عن ملوكها الأوائل، فيما قبل عهد «حدد عزر» وأما مدى اتساعها فقد وصل فى عهد ازدهارها إلى حدود حماة فى الشمال الغربى[3].

وقد وصلت «صوبة» إلى ذروة قوتها فى عهد «شاؤل» ملك اسرائيل، والذى كانت العداوة بين الدويلات الأرامية وإسرائيل فى أيامه على أشدها، ومع ذلك فإن التوراة لم توضح لنا علاقة شاؤل بالدويلات الأرامية، مما دفع «كريلنج» إلى

=/= وكذا.

E. G. Kraeling, op. cit., p. 118 - 119.

(١) المسعودى: مروج الذهب ٢/ ١٥٢، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ١/ ٥٢٥- ٥٢٧ هنرى عبودى: معجم الحضارات السامية، ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

(٢) أحمد فخرى: المرجع السابق، ص ١٠٣.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٤٣.

القول بأن علاقة صوبة بالعبرانيين فى عهد شاؤل كانت مبهمة[1]، كما ذهب «ديبون - سومير» بأن ملوك الأراميين لهذه المنطقة لم يذكروا لأنهم كانوا توابع لصوبة[2].

وعلى أى حال، فلقد استمرت صوبة فى عنفوان قوتها حتى السنوات الأولى من أيام داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)، الذى نجح فى أن يضمها إليه مؤقتاً، إذ استمر الصراع بين الأراميين والعبرانيين على أيام داود - كما كان على أيام سلفه شاؤل - وهكذا قامت حروب بين داود و «حدد عزر» ملك صوبة، ساهمت فيها - إلى جانب حدد عزر - معظم الولايات التابعة لصوبة، كما اشترك فيها أراميو مابين النهرين.

هذا وكانت العلاقات بين العمونيين وداود عندما بدأت تسوء إلى الدرجة التى تهدد بدق طبول الحرب بينهما، طلبوا معونة جيرانهم الأراميين فى أرام بيت رحوب، وأرام صوبة ومعكة وطوب، وأتى هؤلاء بحشد كامل من الرجال لمساعدة «ربة» عاصمة عمون، ضد الهجوم الإسرائيلى الذى أمر به داود تحت قيادة يوآب، ونجح يوآب فى هزيمة هؤلاء الأراميين، ويعلم «هدد عزر» ملك صوبة بذلك، ويشترك فى حرب مع الإسرائيليين - بقيادة داود - ولكنه ينهزم فيها، ثم سرعان ما بدأت صوبة فى الإضمحلال وأخذت دمشق مكانها بالتدريج، حتى صارت أعظم الإمارات الأرامية[3].

---

(١) بولس عياد: المرجع السابق، ص ١٠، وكذا:

E. G. Kraeling, op. cit., p. 40.

(2) A. Dupont-Sommer, op. cit., p. 26.

(٣) ، صموئيل ثان: ١٠: ٦ - ١٤، وكذا:

M. Noth, op. cit., p. 194 - 195.

(٤) قادش:

هناك أكثر من قادش في بلاد الشام - وقد تحدثنا عن ذلك من قبل - ونعني هنا قادش: التي تقع في مكان «تل نبي مند» على الشاطىء الأيسر لنهر الأورنت (العاصي) داخل الزاوية التي تكونت ناحية الغرب من اتصاله بنهر الموقادية، على مبعدة بضعة كيلو مترات، جنوبي النهاية الجنوبية لبحيرة حمص.

وفي قادش هذه حدثت واحدة من أهم المعارك الحربية في التاريخ القديم، وأعني بها معركة قادش بين ملك الحيثيين «مواتيلا» والفرعون رعمسيس الثاني، حوالي عام ١٢٨٥ ق.م، وقد كتب فيها النصر للفرعون بعد أن تعرض لكمين كاد أن يقضي عليه وعلى جيوشه، ولكنه استطاع بفضل مهارته النادرة أن يحول الهزيمة إلى نصر، وإن كانت النتائج السياسية للمعركة لم تكن في مستوى النصر العسكري[(٥)].

(٥) قرقميش:

مدينة هامة في شمال سورية تقع غربي الفرات عند فرضة في النهر، شمال مكان التقائه بساجور، وعلى مبعدة ١٠٠ كيلا شمال شرق حلب، وقد كتبت في قائمة تحوتمس الثالث «كاركمشا»، ثم حدث تغيير في الهجاء، فتغيرت إلى «قرقميشا» في سيرة «أمون ام حاب»، وفي عهد أمنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ق.م).

ولعل أول من وصل إلى قرقميش إنما كان تحوتمس الأول (١٥٢٨- ١٥١٠ق.م)، حيث مرق بجيشه من مصر عبر الشام في سرعة غريبة، ودون مقاومة كبيرة، حتى بلغ أرض «نهرين»، وحيث أقيمت لوحة تذكارية عند إنحناءة الفرات، عند قرقميش.

---

(١) محمد بيومي مهران: مصر ٣٥٢/٣ - ٣٥٦ (الاسكندرية ١٩٨٨).

وكذا A.Burn, JEA, 7, 1921, p. 194 - 195.

J.H.Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1930, p. 13 - 15.

H.Goedicte, JEA, 52, 1966, p. 72 - 97.

غير أن حفيده العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) إنما عبر الفرات، ودخل فى أرض الميتان وأقام لوحة نصره على الجانب الشرقى للفرات، وذلك فى حملته الثامنة (حوالى عام ١٤٥٧ ق.م)، ونقرأ فى لوحة نبته (نباتا) أن جلالته قد أمر بضع السفن فى «جبيل»، وأن تنقل برا إلى قرقميش على عربات تجرها ثيران، وهكذا فلئن كان الطريق من جبيل يمر عبر قطنه وتونب وقرقميش، فإن معنى هذا أن قوات الفرعون قد قطعت ٤٠٠ كيلا، كما أن استخدام عربات تجرها الثيران من دوات الأربع عجلات، ظاهرة غير متوقعة تماما، ولعلها أقدم المرات التى استخدمت فيها السفن الحربية فى التاريخ القديم، لعبور جيش كبير على نهر واسع كالفرات.

وقد خضعت قرقميش لآشور على أيام «ناصربال» (٨٨٥ - ٨٦٠ق.م) ثم استولى عليها الأكديون على أيام «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ق.م)[١].

---

(١) وكذا

J.H.Breastec, ARE, II, 1906, p. 34 - 35.
A.Gardiner, Onom., I, 1947, p. 132,
J.A.Wilson, ANET, 1966, p. 234, The Culture of Aneicnt Egypt, 1964, p. 180 - 181.
R.O. Faultner, JEA, 32, 1946, p 39F.

(٨) مــارى:

لاريب فى أن مدينة «مارى»[١] ذات الموقع الهام فى حوض الفرات الأوسط، أهم مركز لتجمع العناصر السامية العربية فى وادى الفرات، ولم تفقد هذه الأهمية الا بعد سقوط مملكة مارى فى أواسط القرن الثامن عشرقبل الميلاد، رقد سادتها دائماً هذه العناصر السامية الغربية وأن خضعت فى كثير من الاحيان لنفوذ حكام السهل الميزوبوتامى المجاور.

هذا وقد قامت مملكة مارى فى حوالى عام ١٨٢٠ ق.م، ولم تستمر أكثر من متين عاماً، حيث انتهت على يد حمورابى البابلى حوالى عام ١٧٦٠ ق.م، وحكم فى هذه الفترة أربعة من ملوك مارى هم: (١) ياجيد ليم (١٨٢٠ - ١٨١٠ ق.م) - (٢) ياخذون ليم (١٨١٠ - ١٨٩٦ق.م) - (٣) سومو يامام (١٧٩٦ - ١٧٩٢ق.م) (٤) ياسماخ أدد الأشورى (١٧٩٢ - ١٧٨٢ق.م)، ثم الملك «زمرى ليم» (١٧٨٢ - ١٧٦٠ ق.م)[٢].

(١) مارى: كلمة سومرية من جهة الاشتقاق، شبيهة باسم البلاد «أمورو» و«مارتو» أى بلاد الغرب، وهى الآن «تل الحريرى» جنوب مصب نهر الخابور، بالقرب من «دير الروز» على مبعدة ميل واحد غربى الفرات، قرب بلدة «أبو كمال» (البوكمال) قرب الحدود العراقية السورية، وقد أصبحت مارى والبلاد المحيطة بها خلال القرن العشرين قبل الميلاد أمورية فى سكانها وحضارتها وحكوماتها (أنظر: قاموس الكتاب المقدس ١١٩/١)، وكذا

M.Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970,p. 46.

W.F.Leemans, Foreign Trade in The Old Babylonian Period, Leiden, 1960, p. 102.

هذا وقد اكتشف «أندريه بارو» فى عام ١٩٣٣ م حوالى عشرين ألف لوحة فخارية مكتوبة بالخط المسمارى فى قصر الملك «زمرى ليم» آخر ملوك مارى، وهى محفوظة الآن بمتحف اللوفر فى باريس، وتنقسم إلى قسمين، الأول: نصوص اقتصادية وإدارية، والثانى رسائل متبادلة بين ملوك مارى وأتباعهم وحلفائهم وقد نشرت هذه الوثائق تحت عنوان Archives Royales de Mari وقد ظهر منها حتى الآن ١٦ جزءا، وقد شارك فى هذا العمل العلمى الضخم كثير من الأساتذة المتخصصين.

(2) W.W..Hallo and W.K. Simpson, THe Ancient Near East, USA 1971, p. 99.

L.Oppenheim, The Archives of The Palace of Mari, JNES, 11, 1925, p. 130.

على أن هناك من يذهب إلى أن «زمرى ليم» انما قد حكم عامين آخرين تحت السيادة البابلية التى عمل على التخلص منها، الامر الذى دعا «حمورابى»[٣] إلى تدمير «مارى» تدميرا نهائيا، ونهب معبد عشتار والقصر الملكى، واضرام النيران فى المدينة التى لم تقم لها بعد ذلك قائمة[٤].

هذا وكانت مملكة «زمرى ليم-» تتكون أساسا من وادى الفرات الأوسط، فيما بين مصب نهر بلخ شمالا، و«توتول» (خيت الحالية) جنوبا. وقد عمل «زمرى ليم» على ضم معظم أملاك «شمسى أدد» الأشورى فى الغرب، والتى امتدت حتى الثنية الكبرى للفرات غربا، وشملت الجزء الأكبر من «ميزوبوتاميا العليا». وحوض الخابور وبلغ حتى ثنية الفرات، وربما امتد نفوذه إلى إقليم «ايداماراز» الذى يتاخم أعالى الفرات، كما تشير إلى ذلك نصوص مارى[٥].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن نجاح «زمرى ليم» فى توسيع ملكه ومجال نفوذه، حتى غدت مملكة مارى فى عهده من القوى الكبرى فى الشرق الأدنى القديم، إنما يرجع إلى أنه كان رجل حرب[٦]، كثير التنقل والحركة، وغالبا ماكان فى معسكر جنده خارج عاصمته مارى[٧]. فضلا عن حشده لأعداد ضخمة من العناصر السامية الغربية وخاصة الخانيين الذين اعتمد عليهم «زمرى

J.R. Kupper, Les Nomades en Mesopotamie au Temps Les Rois de Mari, 1957, p. 33.

(٣) اختلف ا لعلماء فى تأريخ عصر حمورابى، ومن ثم فقد قدموا لنا التواريخ التالية: (١٨٤٨ - ١٨٠٦ق.م)، (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م)، (١٧٩١ - ١٧٤٩ق.م)، (١٧٤٢ - ١٦٨٦ق.م)، (١٦٨٦ق.م)، (١٧٣٠-١٦٨٥ق م)، (١٧٢٤-١٦٨٢ق.م) (أنظر: محمد عبد القادر : الساميون فى العصور القديمة ص ٢٥١).

(4) J.R. Kupper, in BA, 41, p. 153 - 154.

(5) J.R.Kupper, Archives Royal de Mari, Vil.VI, Paris, 954, No 76.

وكذا J.R. Kupper, Northern Mesopotami and Syria, in CAH, II, Part, I, 1973, p. 9.

(6) Ibid, p. 9.

(٧) محمد عبد اللطيف: سجلات مارى.

ليم» بصفة أساسية في تكوين قواته المقاتلة، وقد أسفرت هذه الجهود عن مكانة متميزة لمملكة مارى فى عهد «زمرى ليم» كقوى ضاربة كبرى فى الشرق الأدنى القديم، حتى قضى عليها «حمواربى» فى عام ١٧٦٠ قبل الميلاد[١].

بقيت الاشارة إلى أن الاكتشافات التى قام بها الفرنسيون فى مارى فى الفترة (١٩٣٣ - ١٩٣٩) والفترة (١٩٥١ - ١٩٥٥) أظهرت أنه كان بهذه المنطقة حضارة تنقسم إلى عصرين، الواحد: سابق لعصر سرجون الأول الاكدى، وهو يمثل حضارة سومرية، والاخر: أمورى فى الألف الثانى قبل الميلاد.

(٩) مجدو:

مجدو: تل المتسلم الحالية، وتقع إلى الغرب قليلا من بحيرة طبرية، وعلى مبعدة ٣٢ كيلا، جنوبى شرق حيفا، فى المنطقة الجنوبية من سلسلة الجبال التى تنتهى بجبل الكرمل فى الشمال.

وقد حدثت فى مجدو أولى معارك جبار الحروب الفرعون تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م) ضد أمراء الشام فى عام ١٤٦٨ق.م، وكتب له فيها نجحا بعيد المدى، وانتصاراً ساحقا، هذا وفى «مجدو» أحد الثكنات العسكرية الخاصة لفصائل العجلات الحربية، التى أقامها سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م) وطبقاً لما جاء فى سفر الملوك الأول (١٩/٩، ١٠/١٦) فقد كشف فى «مجدو» إسطبلات للخيول، وحظائر للعربات، مع بعضها، وكانت تلك التى فى «مجدو» تسع ١٥ عربة، ٤٥٠ حصاناً[٢].

---

(١) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٧٣ - ٧٤. محمد بيومى مهران: بنو إسرائيل ٢/ ٦٨١ - ٦٨٢ (الطبعة الرابعة عام ١٩٩٩م).

(2) W.F.Albright, From Stone Age to Christianity, p. 227, Y.Yadin, New Light on Solomon's Megido, BA, 23, 1960, p. 62 F, C.Watzinger, Denk Maler Palastine, I. 1933, p 67G, Fieg, 80 - 81.

الفصل الرابع
شرق الأردن
المملكة الأردنية الهاشمية
(١) الادميون

١- البتراء:

كانت البتراء - عاصمة مملكة أدوم - تعرف باسم «سالع»، ثم تغيرا اسمها إلى «البتراء»، وهى واحدة من أشهر مدن العالم القديم، وقد أصبحت عاصمة للانباط - بعد أدوم - وتقع إلى الشرق من وادى عربة فى منتصف المسافة تقريبا بين رأس خليج العقبة والبحر الميت، أو على مبعدة ٨٠ كيلا إلى الجنوب من البحر الميت[١]، والبتراء - على أى حال - كلمة يونانية تعنى «الصخر»[٢] ولعلها ترجمة للكلمة العبرية «سلع» التى جاءت فى التوارة[٣]، كما تعنى كذلك «الشق فى الصخر» وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين، يعرف اليوم بإسم «السيق»، ولعله لفظ نبطى متوارث، حرفه الناس عن «الشق» فى السبئية القديمة[٤]، وأيما ما كان الامر فلقد عرف العرب هذه التسمية كذلك، وقد ذكر «ياقوت الحموى» (١١٧٨-١٢٢٨م) بأن سلع حصن بوادى موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس[٥].

وأما الإسم العربى للبتراء فهو «الرقيم» وربما كان هو إسم ثان للبتراء، كان الإغريق يعرفونها به، وهو Arke فحرفه العرب إلى الرقيم، وربما أرادوا بالرقيم «خزانة فرعون» بالذات، وأما اسمها الحديث فوادى موسى[٦].

ونقرأ فى التوراة أن «أمصيا» (٨٠٠ - ٧٨٣ق.م) قد خلف أباه «يهواش»

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ٤٤٥/١ - ٤٤٦، جواد على ٥١/٣

(2) Pliny, 2,p. 447.

(٣) اشعياء ١٦: ١٠، ٤٢: ١١.

(٤) لانكستر هاردنغ: آثار الاردن، ترجمة سليمان موسى، عمان ١٩٦٥ ص ١١٧.

(٥) ياقوت: معجم البلدان ٢:٦/٣ (بيروت ١١٥٥).

(٦) جرجى زيدان: المرجع السابق ص ٧٣، ياقوت ٣٤٦/٥.

(٨٣٧- ١٠٠ ق.م) على عرش يهوذا، وأنه حاول أن يسترد أدوم وسلع وقد نجح في الاستيلاء على الأخيرة، ومن ثم فقد أطلق عليها إسم «يقتئيل» بمعنى «الخاضع لله»[٧].

وعلى أي حال، فلقد استمرت البتراء مدينة هامة حتى سقطت في أيدي الرومان في عام ١٠٥ م أو (١٠٦م)، وسرعان ما أخذت أهميتها تتضاءل شيئا فشيئا، حتي أصبحت في ذمة التاريخ[٨]، إلى أن كشف عنها «بوخاردت» (١٨٦٣ - ١٩٣٨م) في عام ١٨١٢[٩].

٢- بصرة:

ومكانها الآن «بصيرة» الحديثة، على مبعدة ٣٢ كيلا إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت.

٣- تيمان:

على مقربة من البتراء. وتيمان: إسم عبري، بمعنى اليميني أو الجنوبي، وتذهب التوراة إلى أنه إسم بكر «إليفاز بن عيسو»، والإقليم الذي تسكنه، شمالي أدوم، ويدعى أبناء الشرق، أو «تيمن»، وقد اشتهر أهله بالحكمة » (تكوين ١١/٣٦، ١٥، ٣٤، إرميا ٧/٤٩، حزقيال ١٣/٢٥).

٤- عصيون جابر:

كان يظن من قبل، أن «عصيون جابر» انما تقع عند «عين الغديان» في قعر وادي العربة، ثم اكتشفها «نلسون جلوك» في موقع تل الخليفة، على مبعدة ٥٠٠ قدم من ساحل البحر على الطرف الشمالي لخليج العقبة بالقرب من ميناء «إيلات»[١٠].

---

(٧) ملوك ثان ١٤ :١-٧.

وكذا F.Altheim and Rstiehl, op.cit., p. 283.

وكذا A.B.W. Kennedy, Petra, Its History and Monuments, London, 1925, p. 78.

A.Lods, Israel, From its Beginnings to the middle of the eighth century, London, 1962, p. 385 - 386.

(٨) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٣٤٢ - ٣٢٤، مكابيون أول ٥: ٢٦ - ٢٨.

(9) J.L. Burckhardt, Travels in Syria and The Holy Land, London, 1822, p. 418 - 434.

(١٠) قاموس الكتاب المقدس ١٧١/١، جواد علي ٦٣٧/١، موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٨٠. وكذا J Finegan , op cit . p 181.

هذا وقد عرفت بلاد أدوم في اليونانية باسم «أدوميا» وأما «برية أدوم» فهي الواقعة جنوب البحر الميت، وقد انتهت حياة الادوميين في القرن الثاني قبل الميلاد، وذلك حين استولى «يوحنا المكابي» (١٣٥ - ١٠٤ ق.م) على حبرون وغيرها من المدن التي كان الآدميون قد استولوا عليها، ثم أجبروهم بعد ذلك على الختان واعتناق اليهودية، في عام ١٢٦ ق.م رغبة منه في ازالة الفوارق الدينية بينهم وبين اليهود، وحبا في نشر اليهودية بينهم[١١].

(٢) المؤابيـــون

١- ديبون:

في عام ١٩٥٠/ ١٩٥١، قامت «المدرسة الامريكية للأبحاث الشرقية في أورشليم» بحفائر في «ديبون» - عاصمة مؤاب - أتت بنتائج كثيرة، وكشفت عن عدد من المباني والفخار الذى يرجع إلى عصر البرونز المبكر، وحتى العصر العربي المبكر، ولكنها في الغالب لم تكشف شيئا يتصل بعصر البرونز المتأخر، وعلى أى حال فلقد كشف عن عدد من اللوحات الصغيرة التي يمكن أن تؤرخ - مثلها في ذلك مثل الحجر المؤابي - بالقرن التاسع قبل الميلاد[١٢].

هذا وقد كشفت آثار كثيرة في «مملكة مؤاب»، لعل أشهرها ماكان في مدن: ربة مؤاب، وكرك ومادبا ومعين وأم رصاص.

(٣) العمونيـــون

١- ربة عمون (عمان):

كانت «ربة عمون» - أو «ربة» - عاصمة مملكة العمونيين، قد سميت في العصر الاغريقي «فيلادلفيا»، نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلادلفيوس» (٢٨٤ - ٢٤٦ق.م)، وهي في موقع تشغله حاليا عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية «عمان»، حيث يوجد في اسمها جزء من إسم العمونيين[١٣].

Nelson Glusck, The Other Side of The Jordan, New Haven, 1945, p. 50 - 133.

(١١) إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ١٠٥.

(12) M.Noth, op cit., p. 157 - 158.

هذا وقد استطاع العمونيون أن يكونوا دولة مستقرة منظمة منذ فترة مبكرة، ومن ثم فقد كانوا يحكمون بملك قبل أن تبرز فكرة الملكية في اسرائيل(١٤)، هذا ويدل التحالف الذى أقاموه مع جيرانهم الشماليين في عام ٨٥٣ ق.م، - حيث اشترك ملك عمون في حلف يضم اثنى عشر ملكا على رأسهم بنحدد ملك دمشق، ضد شملنصر الثالث(١٥)، - يدل هذا التحالف على أنهم كانوا أقوياء.

---

(١٣) صموئيل ثان ١٠ - ١٢

(14) S.A. Cook, op.cit. p. 363

وكذا M.Noth, op.cit., p. 245 - 6.

وكذا J.A.Montgomery, op.cit., p. 27.

٤- مملكتا الأموريين فى شرق الأردن

(١) مملكة سيحون

١- حشبون:

وتعرف «حشبون» الآن باسم «حسبان»، وهى مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون ويبوق، وتقع حشبون على مبعدة ١٣ كيلا شمال «مادبا» وهى عاصمة «مملكة سيحون»، والتى تقع بجانب نهر الأردن، وتمتد حدودها من أرنون (وادى مؤاب) إلى «يبوق»[١] (وادى الزرقاء)، ومن الأردن إلى الصحراء[٢]، وكانت «حشبون»[٣] عاصمة لها.

٢- باشان:

كانت المملكة الثانية «هى مملكة عوج - ملك باشان[٤]، وتمتد من «يبوق»، وحتى جبل حرمون (جبل الشيخ)[٥]، وقد هزم العبرانيون هذين الملكين (سيحون وعوج) واحتلوا أرضهما[٦]، وذلك عندما كان بنو إسرائيل يتجولون هنا وهناك فى شرق الأردن، دون أن يستطيعوا العبور إلى غربه، محتكين بكل القبائل

---

(١) يبوق: هو نهر الزراقاء الذى ينبع إلى الغرب من عمان، ثم يسيل شرقا ثم شمالا، مارا بمدينة «الزرقاء» التى حملت اسمه، ثم يصب فى الاردن عند نقطة تقع على مبعدة ٧٠ كيلا إلى الشمال من الحبر الميت (قاموس الكتاب المقدس ١٠٥١/٢).

(٢) قضاة ٢٢/١١.

(٣) حشبون: وتعرف الآن باسم «حسبان»، وهى مدينة خربة قائمة على تل منعزل بين أرنون ويبوق، وتقع على مبعدة ١٣ كيلا شمال «مادبا» (قاموس الكتاب المقدس ٣٠٧/١ - ٣٠٨).

٤) باشان: منطقة فى شرق الأردن بين جبلى حرمون وجلعاد، وسميت باشان نسبة إلى جبل هناك، وتشمل حوران والجولان واللجاة، ويحدها شمالا أراضى دمشق، وشرقاً بادية سورية، وجنوبا أرض جلعاد، وغربا غور الأردن، ويخترق جانبيها الشرقى جبل الدروز، وهو جبل باشان القديم (قاموس الكتاب المقدس ١٥٩/١)..M.Unger, op.cit., p. 127.

(٥) تثنية ٤/٣، ٩ وأنظر: M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 45 - 46.

(٦) قضاة ١٩/١١ - ٢٣، قاموس الكتاب المقدس ١١٩/١، محمد بيومى مهران: اسرائيل ٤٩١/١ - ٤٩٢. وانظر طبعة ١٩٩٩ م.

الساكنة هناك، والرافضة أبدا استقبالهم، وأخيرا نجحوا في تحدى «سيحون» في «ياهص»[٧]، كما نجحوا كذلك فى تحدى «عوج» ملك باشان فى «أذرعى»[٨]، وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الأردن في مقابل «أريحا»[٩].

---

(٧) باهص: وتقع على مبعدة كيلو ونصف جنوبى زرقاء معين، ١٩ كيلا شرقى البحر الميت، وقيل انها قرية «أم المواليد» أو «خربة اسكندر» (قاموس الكتاب المقدس ١٠٤٩/٢).

(٨) اذرعى: وتسمى الان «درعة» وتقع فى وادى زيدة، على مسعدة ٤٧ كيلا شرقى الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية، وعلى الحدود بين سورية والاردن (قاموس الكتاب المقدس ٤٢/١).

(٩) عدد ٢١/٢١ - ٣٥، تثنية ٢٦/٢ - ١١/٣.

الباب الرابع

السودان والمغرب القديم

الفصل الأول

السودان (النوبة العليا)

تقديم :

لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن السودان - أو بلاد النوبة - إنما عرفت بعدة أسماء ربما لأن بلاد النوبة لم تكن محددة تماماً، فتاريخها عبارة عن سجل وا سع لتحركات الجيوش، ومن ثم فلم تصل النوبة إلى أن تستقل بنفسها،ومع أن سكانها الحاليين لهم جنسية مميزة. فهم يرتبطون ارتباطاً وثيقاً عن طريق الدم والأسلوب الواحد فى الحياة، غير أن الوطن النوبى مقسم بين الشمال والجنوب، فالنوبة السفلى تمتد فيما بين الجندل الأول، وبلدة ادندان، وهى جزء من مصر، وأما النوبة العليا، فتمتد فيما بين أدندان ودنقلة، وهى جزء من السودان.

هذا فضلاً عن أن النوبيين أنفسهم إنما يختلفون فى لغتهم - حتى يوم الناس هذا - ومن ثم فان الحدود اللغوية لاتتفق مع الحدود الجغرافية للنوبة العليا والسفلى، فبينما يتحدث سكان المنطقة فيما بين أسوان والسبوع حتى اليوم، باللهجة المعروفة باسم «كنوز»، يتحدث سكان المنطقة فيما بين كورسكو، وحتى الجندل الثالث «المحسى»، وفى نفس الوقت يتحدث سكان الجنوب «دنقلى» وان كانت هذه اللهجة ليست إلا شكلا آخر للكنوز، وربما أمكن القول أن الدناقلة والكنوز انما تكون لغتهما مجموعة متشابهة، بينما تكون لغة السكوت والمحس والفديجة مجموعة ثانية متشابهة.

وعلى أية حال، فاللغة النوبية - وهى تنتمى إلى نوع خاص من اللسان الأفريقى - لاتكتب، ومن ثم فهى تعتمد على اللغة العربية فى الكتابة، فالعربية إذن لغة الكتابة فى جميع أنحاء النوبة[1].

---

(١) ووالتر امرى:مصر وبلاد النوبة ص ١٠ - ١١، وكذا- J.A. Hamilton, The Angola-Egyptian Sudan, London, 1965.

هذا وتصف «مرى» [٢] اللغة النوبية بأنها لاتتفق فى مفردتها اتفاقاً كثيراً، مع أية لغة أخرى، بل أن كثيراً جدا من أصول الكلمات النوبية ليس له نظير فى جميع اللغات التى قورنت بها، وأما اللغات التى تشابه اللغة النوبية فى مفرداتها، فأكثرها، دونما ريب، لغات حامية، هذا فضلا عن أن الصبغة الحامية هى الغالبة على اللغة النوبية، سواء من ناحية المفردات أو النحو والصرف، غير أن هناك اختلافا كبيرا بينها وبين اللغات الحامية فى «النظام الصوتى» (phonetic System)، وان كان له نظير فى اللغات النيلية فى جنوب السودان كلغة البارى.

وهكذا يذهب العلماء على أن اللغة النوبية إنما تشتمل على عناصر حامية، وأخرى غير حامية، ولعل مصدر هذا العنصر الغريب انما هو بعض الشعوب الجنوبية، ومن ثم يذهب البعض إلى أن اللغة النوبية إنما هى لغة حامية، بها مؤثرات أجنبية، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب إلى أنها لغة نيلية جنوبية مثل «لغة البارى»، ثم تعرضت لمؤثرات حامية على مدى العصور.

هذا وقد تأثرت اللغة النوبية كذلك بلغات أخرى، كالمصرية القديمة والحبشية والعربية، ومن ثم فقد دخلتها مفردات من الحبشة عن طريق مروى، وقبل ذلك وبعده، مفردات اللغة المصرية القديمة، كما استعارت اللغة النوبية كلمات عربية بما يقرب من ثلث مفرداتها[٣].

وأما أهم الأسماء التي أطلقت على بلاد النوبة (السودان):

١- تا - سيتى ٢- تا - نحسيو ٣- خنت - حن - نفر ٤- كوش

٥- النوبة ٦- الأثيوبيون ٧- دود يكاشينوس ٨- بلاد السودان

---

(2) G.W.Murry, English - Nubian Dictionary, London, 1923, p.X.p. 168.

(٣) محمد عوض محمد: السودان الشمالى - سكانه وقبائله - القاهرة ١٩٥١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧، ووالتر امرى: المرجع السابق ص ١١.

(٤) أنظر عن أسماء النوبة القديمة (محمد بيومى مهران. تاريخ السودان القديم ص ١١١ - ١٢٤).

٩- أرض الزنغ(٤).

وأما أهم سكان النوبة القدامى:

١- المجاى - أو المدجايو ٢- واوات ٤- ستاو ٥- إرثت ٦- يام(٥).

وأما سكان النوبة الحاليين:

١- الكنوز ٢- العليقات ٣- الفديجة ٤- الكشاف ٥- السكوت ٦- المحسى ٧- الدناقلة(٦).

ولنتحدث الآن عن المدن الكبرى فى السودان - أو النوبة العليا، ولنبدأ بالعاصمة «نباتا (نبته)»:

(١) نباتا:

قامت مدينة «نباتا» - أو نبته - على أنقاض مدينة أو مستعمرة مصرية تنسب فى بدايتها إلى عهد «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، على مقربة من الصخرة الضخمة المعروفة باسم «جبل البرقل» (Gebel Barkal) أو «الجبل المقدس» (Holy Mountain) - أو كما يسمى فى المصرية القديمة «جو - وعب» أو «دو - واعب» - حيث اعتبرته النصوص المصرية القديمة جبلا طاهراً، وعرشا مقدسا لأمون طيبة، والصخرة، على أية حال، ليست شديدة الإرتفاع، ولكنها تلفت النظر بتفردها فى وسط السهل، على مبعدة ميل من نهر النيل(٧).

وتقع «نباتا» (Napata) عند خط عرض ٢٥َ ١٨ْ، وخط طول ٤٦َ ٣١ْ، على

(٥) أنظر عن أسماء النوبة القديمة (محمد بيومى مهران: تاريخ السودان القديم ص ١٢٥ - ١٢٦).

(٦) أنظر عن سكان النوبة الحاليين (محمد بيومى مهران: تاريخ السودان القديم ص ١٣٦ - ١٤٢).

(7) A.J.Arkell, op.cit,p. 112.

وكذا A.H.Gardiner, op.cit, p. 335.

R.O.Faulkner, A Concise Distionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972, p. 57 , 320.

وكذا B.G.Trigger, op.cit, p. 140.

(8) R.Engelbuch, Index of Egyptain Sudanese Sites from The Cairo Museum, Cairo, 1931, p. 27.

الضفة الشرقية للنيل[٨]، وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال من الجندل الرابع، عند سفح جبل برقل (بركل)، جنوبى «كريمة» (Kareima)، وعلى مبعدة ١٠٣٥ كيلا جنوبى وادى حلفا، وفى مقابل مدينة «مروى» الحديثة عبر النيل تقريباً (وهى ليست مروى القديمة التى تشغل قرية البجراوية - على مبعدة ٢٣٠ كيلا شمالى الخرطوم - جزءا منها)، وعلى الضفة الأخرى للنيل تقع أهرام «نورى» (٣٥ كيلا شمالى الجندل الثالث) ومجموعة أهرام جبل البرقل.

وكان اختيار «نباتا» (نبته) كعاصمة للدولة (مملكة نباتا) اختيارا موفقا، يقوم على أساس جغرافى سليم، فهناك يتسع السهل الزراعى نسبيا، ويسهل الإتصال بقية أنحاء السودان القديم، فمدينة نبته تتصل بالجنوب عن طريق النيل،فضلا عن الطريق البرى الذى يبدأ عند «أبودوم»، ويخترق صحراء «بيوضة» حتى يصل إلى «شندى» - على مبعدة ٢١٣ كيلا شمالى الخرطوم - ويربطها بالشمال نهر النيل والطريق البرى المحاذى له، هذا فضلا عن وجود صناعة الحديد قريبا منها، كما أنها فى منطقة متشبعة بالحضارة المصرية، وبعيدة عن مكان الغزو، بحيث تستطيع أن تتطور دون أن تتعرض للغزو، وكانت على أيام «توت عنخ أمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) بمثابة الحد الجنوبى لإمارة «نائب الملك فى كوش»، هذا ونلتقى فى عهد الرعامسة بمخلفات فى هذه المنطقة وإشارات كثيرة فى النصوص المصرية، التى تختفى تماما فى عهد الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين.

ومع ذلك فلنا أن نؤكد أن الثقافة المصرية ظلت قائمة هناك فى حالة ركود، مصحوبة بالعاطفة المتأججة نحو «آمون رع»، رب طيبة، حيث اعتنق القوم هناك فى نباتا ديانته منذ زمن طويل، حتى غدت مركزاً لعبادة آمون فى السودان، الذى قدس هناك بصفته «سيد القطرين»، «القائم على جبل نبته المقدس»، وبنى له معبد ضخم فى حضن جبل البرقل، زين على الطريقة المصرية، حتى أن المناظر التى كانت تزين الجدران هناك، لاتختلف فى شئ عن تلك التى تزين جدران معابد أمون فى مصر نفسها[٩].

(9) D.Dunham and M.F.L. Macadam, Names and Relationships of The Royal Family of Napata, J.EA, 35, 1949, p. 139 - 149.

=

ولعل أول ذكر لمدينة «نباتا» فى التاريخ المصرى - كمدينة محصنة تقع فى أقصى الجنوب - إنما كان على أيام «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م)، وسرعان ما ازدانت بالمعابد والقصور، ولكنها لم تبلغ ذروة مجدها إلا فى القرن الثامن قبل الميلاد، عند أصبحت عاصمة لمملكة كوش، التى استقل بها أبناؤها عن مصر، وظلت كذلك حتى نقلت العاصمة منها إلى «مروى» - على مبعدة ٢١٣ كيلا شمالى الخرطوم - وذلك فى عام ٥٩١ قبل الميلاد، وأصبحت نبتة عاصمة دينية فحسب، وظل الملوك يدفنون فى مقابر «نورى» حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد[١٠].

وهكذا قامت دولة فى نباتا عرفت عند المؤرخ المصرى «مانيتو» (٣٢٣ - ٢٤٥ ق.م) باسم «الأسرة الخامسة والعشرين»، وقد سجل لها أسماء ثلاثة من الملوك هم: سبكون (شبكو) و «سبكوس» (شبتكو) و «تراكوس» (طهرقا)[١١]. هذا ولم يدون «مانيتو» إسم أول وأشهر ملك من هذه الأسرة (بعنخى)، هذا فضلا عن اختياره للملك «سبكون» كمؤسس للأسرة، إنما يعتمد على أسس قوية، ذلك لأنه أول ملوك الأسرة، والذى حكم دولة تمتد من وراء الجندل الرابع وحتى شمال الدلتا[١٢]، وعلى أية حال، فإن الآثار إنما تقدم لنا ملوكا آخرين ينسبون

وكذا H.Kees, Ancient Egypten, London, 1961, p. 240

وكذا A.H.Gardiner, op.cit, p. 335.

D.M.Dixon, The Origin of The Kingdom of Kush (Napata - Meroe), JEA, 50, 1964, p. 121 - 132.

وكذا W.B.Emery, Nubian Treasure, 1948, p. 24.

J.Leclant, Sur La Nuhle Ancienne, Quelques Publications Recentes exter Revue Hisotrique, 489, 1949, p. 163 - 178.

(١٠) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨، جان لكلان: المرجع السابق ص ٢٨٨، وكذا G.A.Wainwright, The Date of The Meroe, JEA, 38, 1952, p. 65 - 77.

(11) W.G.Waddell, Menetho, With an English Translation, London, 1940, p. 167 - 169.

(12) J.Leclant et J.Yoyotte, Notes d'histoire de Civilisation Ethiopiennes, BIFAO, 51, 1952, p. 9.

إلى هذه الأسرة هم : ألارا - كاشتا - بعنخي - تانوت أماني، وزاد بعض آخر: أتلانرسا - سنك أماني سكن - أنل أماني - إسبلتا (JEA, 35, 1949, p. 149).

وأيا ما كان الأمر، فلقد قامت في نباتا - أثناء غياب السيادة المصرية هناك - أسرة يرتب جمهرة المؤرخين ملوكها كالتالي: (١) ألارا (٢) كاشتا (٣) بعنخي (٧٥٠ - ٧٣٠ق.م) (٤) شبكو (٧٠٠ - ٦٩٥ ق.م) (٥) شبتكو (٦٩٥ - ٦٩٠ ق.م) (٦) طهرقا (٦٨٩ - ٦٦٤ ق.م) (٧) تانوت أماني (٦٦٤ - ٦٥٦ ق.م).

(٢) مروى:

تقع مدينة «مروى» - وتدعى حاليا البحراوية - شمالي شندي، وعلى مبعدة ٢١٣ كيلا شمالي الخرطوم، وعلى مبعدة ١٠٨٣ كيلا جنوبي وادي حلفا (بطريق النهر)، ٨٦٦ كيلا (بطريق حلفا - أبو حمد) - في المنطقة التي تطابق تقريبا سهل «البطانة» الحالي، والذي يقع بين نهر العطبرة والنيل الأزرق، وهو عبارة عن لسان هضبي عريض منبسط ممتد من الهضبة الحبشية في اتجاه الشمال الشرقي، ويقع فوق كنتوز ٥٠٠م، ويحتوي على عدة نقاط مرتفعة، يصل أعلاها إلى ٨٦٠م، بالقرب من قلعة النحل، جنوب غربي القضاريف[١٣].

هذا وقد انتقلت العاصمة من «نباتا» إلى «مروى» في عام ٥٩١ ق.م، وأما سبب انتقال العاصمة من «نباتا» إلى «مروى»، فلقد ذهب البعض إلى أنها على أيام «بسماتيك الثاني» (٥٩٥ - ٥٨٩ ق.م) من الأسرة السادسة والعشرين، ربما فكرت أسرة ملوك نباتا في استعادة نفوذها في مصر، ذلك النفوذ الذي كان قد ضاع عقب فرار «تانوت أماني» من طيبة، ومن ثم فقد اضطر «بسماتيك الثاني» تلافيا للخطر، أن يرسل حملة إلى الجنوب، وصلت إلى «دنقلة» على الأقل، ونجحت إلى أبعد الحدود في سحق الجيوش النوبية في أرضها، وقد سجلت نتائج هذه الحملة على لوحتين عثر عليهما في الكرنك وتانيس، ولاريب في أن هذه الحملة إنما كانت سببا في نقل العاصمة من نباتا إلى مروى في عام ٥٩١ ق.م،

---

(١٣) جودة حسنين جودة: العالم العربي - دراسة في الجغرافية الاقليمية - الاسكندرية ١٩٨٦ ص ٦٣١، محمد رياض، وكوثر عبد الرسول: أفريقيا - بيروت ١٩٧٣ ص ٣٩٧.

على أيام الملك «إسبلتا» ٥٩٣ - ٥٦٨ ق.م»[١٤].

على أن هناك سببا آخر لنقل العاصمة إلى مروى، يستند إلى عوامل مناخية واقتصادية، فالسهوب حول مدينة مروى أفسح منها حول مدينة نباتا، التي تحاصرها الصحراء، ومن ثم فقد قامت حول مروى الزراعة وتربية الماشية، حيث يسقط المطر صيفاً، وقد حفرت أحواض ضخمة للرى حول المواقع الرئيسية، ومن المؤكد أن التجارة كانت نشطة، ذلك لأن مروى إنما كانت تتمتع بموقع ممتاز على الطريق بين البحر الأحمر وأعالى النيل وتشاد، هذا فضلاً عن توفر الأشجار التي يمكن الإفادة منها في صهر الحديد الموجود في الصخور الرملية الموجودة في المنطقة، وتشير أكوام نفايات الحديد حول مروى إلى ضخامة انتاجه، وإن كانت الاتجاهات الحديثة - كما أشرنا من قبل - لا تقر وصف مروى بأنها «برمنجهام أفريقيا» لأنه وصف ينطوى على كثير من المبالغة[١٥].

وأما من الناحية الدينية فليست هناك في «وثائق التتويج» مايشير إلى أن مروى بها معبداً للاله أمون، ولكنها - في نهاية القرن الأول قبل الميلاد - حظيت بأحد

---

(١٤) محمد بيومى مهران: مصر ٦٥٤/٣، جان للكلان: المرجع السابق ص ٢٨٨، محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ١٧٣ - ١٧٤.

وكذا W.B.Emery, Egypt in Nubia, 1965.

S.Sauneron et J. Yoyotte, La Campagne Nubienne de psammetique, II et sa Signification Historique, BIFAO, 50, 1952, p. 10

وكذا H.S.K.Bakry, Psammetichus, II, and His Newly- found Stela at Shellae, Oriens Antiques, 6, 1967, p. 225 224.

وكذا A.H.Gardiner, op.cit, p. 359

وكذا Herodotus, II, 161.

(١٥) أنظر G.A.Wainwringy, SNR, 26, 1945, p. 5 - 36.

وكذا A.H.Sayce, LAAA, 4, 1911, p. 55.

وكذا A.J.Arkellf CA, 7, 1966, p. 45 F.

وكذا B.G.Trigger, IJAHS, II, 1969, p. 23 - 50.

وكذا H.Amborns, op.cit, p. 71 - 95.

وكذا R.F.Tylecote, op.cit, p. 67 - 72.

هذه المعابـد، وأقيمت لوحة أمامه عليها نقش طويل بالخـط المـروى، تشيـر إلى أن أقــدم الأسـمــاء التي وردت بهـذا المعبـد، انمـا ترجـع إلى عـهـد الملـك «إمنى خبلـى» (Amanithabale) (٦٥ - ٤١ ق.م)، والملكة «إمنى - شختى» (Amanishathate) (٤١ - ١٢ ق.م)، وربما أصبح هذا المعبد فى الفترة الأخيرة المعبد الرئيسى بالمملكة.

ولعل مما تجدر الاشارة إليه أنه ابتداء من هذه الفترة بنيت معابد متشابهة لآمون رع، وإن كانت صغيرة الحجم، وذلك فى «مروى» وغيرها، وقد قام معبد آمون في مروى، بدور معبد آمون فى نباتا، (فى جبل البرقل) ومن المؤكد أن معبد مروى إنما كان منافسا خطيرا، لنظيره في نباتا، ينازعه الصدارة فى ميدانه، بل إنه فى النهاية بز معابد أمون جميعا، واحتل مكانها.

هذا وقد عاصرت دولة مروى حكم الفرس والبطالمة والرومان فى مصر، وفى عام ٥٢٥/٥٢٤ ق.م، ظهر الخطر الفارسى فى مروى، ونحن نعرف جواب الملك المروى على رسل الملك الفارسى «قمبيز» (٥٢٥ - ٥٢٢ ق.م) فلقد تناول قوسا كبيرا، وأغرق فى نزعه، وناوله إياهم، قائلا «إذا استطعتم أن تنزعوا فى أقواس كهذه، فاقدموا على قتالنا» وعادت البعثة، وقيل أن «قمبيز» عجز عن علاج تلك لقوس، ومع ذلك، فلقد أسرع قمبيز إلى نباتا، على رأس جيش ضخم، عبر كثبان الصحراء، ومنطقة «بطن الحجر» (وتمتد من وادِى حلفا جنوبا على مدى ١٤٤ كيلا)، فقتكت العواصف بجيشه، وفشلت الحملة فشلا ذريعا، ومع ذلك، فقد اعتبر الفرس أهل كوش فى عداد الشعوب الخاضعة لهم - كما أشارت إلى ذلك لوحة من سوسة - ومن المؤكد أن جزءا صغيرا من المملكة قد خضع للفرس، وأن قصائل كوشية قد انخرطت فى جيوش «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) و«أكزركسيس الأول» (٤٨٦ - ٤٦٥ ق.م)[١٦].

(١٦) محمد بيومى مهران: مصر ٦٦٧/٣ - ٦٦٨، جان لكان: المرجع السابق ص ٢٨٨، أحمد محمد على الحاكم وآخرون: حضارة نباتا ومروى - تاريخ أفريقيا العام - الجزء الثانى ص ٣٢٥.
وكذا A.Rowe, ASAE, 38, 1938, p. 172 - 193
وكذا Herodotus, III, 17 - 21, 114.
وكذا P.Montet,Kemi, 8, 1946, p. 39 - 40.

(٣) الخرطوم:

الخرطوم: عاصمة السودان الحالية، وقد أنشأها المصريون فى عام ١٨٢٢م، على أيام «محمد على باشا» (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند التقائه بالنيل الأبيض، وقد خربت عام ١٨٨٥م على أيام الثورة المهدية (٨٨١- ١٨٩٩م) بقيادة زعيمها «محمد أحمد المهدى» (١٨٤٤ - ١٨٨٥م) ثم أعيد تعميرها بعد الثورة، هذا وتتكون العاصمة من الخرطوم، وخرطوم بحرى، وأم درمان، ومن ثم فقد عرفت باسم «العاصمة المثلثة» ويربطها جسران، الواحد على النيل الأبيض، والآخر على النيل الأزرق، ولكل من المدن الثلاث وظائف مميزة، ففى الخرطوم مركز الحكم والتجارة الحديثة، وفى أم درمان التجارة التقليدية والحرف اليدوية، وفى خرطوم بحرى الورش والصناعة. هذا وقد قام «أركل» فى الفترة (١٩٤٤ - ١٩٥٠م) بحفائر فى الخرطوم وفى منطقة شهيناب، على مبعدة ٤٨ كيلا شمالى أم درمان، حيث عثر على آثار تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث، وفى القرن السادس الميلادى قامت فى منطقة الخرطوم مملكة «علوة» المسيحية، وعاصمتها «سوبا» وامتدت فى كبوشية إلى جنوب الخرطوم(١٧).

(٤) البحراوية :

البحراوية - أو «البقراوية» - وتقع على ضفة النيل الشرقية على مبعدة ٢٣٠ كيلا شمالى الخرطوم، وبها أكبر مجموعة من آثار مروى، وهى مجموعتان، شمالية وعدد أهراماتها ٤٣ هرما، وجنوبية وعدد أهراماتها ٥٠ هرما، وهناك مجموعة ثالثة تقع غرب المجموعتين السابقتين وترجع إلى عصر متأخر عنهما، ربما إلى القرن الثانى أو الثالث الميلادى وإن كانت فى حالة سيئة جدا، وهناك فى البحراوية

= وكذا G.A.Wainwright, The Date of The Rise of Meroe, JEA, 38, 1952, p. 75 - 77.

وكذا J.Perrot, Une Statue de Darius Decouverte a Suse, J.A, 1972 p. 235 - 266.

(١٧) أنظر: A.J.Arkell, Shaheinab, Oxford, 1953, p. 105 وكذا L.P.Kirwan, in SNR, XX, Part, 2, 1937, p. 290.

معبد للإله «أمون رع» يرجع إلى حوالى عام ٣٠٠ ق.م، ومازال صرحه قائماً، وبعض نقوشه محفوظة، ولعل أهم مافيه العرش الحجرى الذى كان يجلس عليه الكاهن الذى كان يتلقى وحـــى آمـــون، فيجيب على أسئلة السائلين، فضلاً عن قصر لأحد الملوك، وعلى مقربة منهما بركة ماء، كانت درجاتها مزينة بالتماثيل

(٥) إيكن:

هى المحطة التجارية فى الدولة القديمة والوسطى، وتقع جنوبى بوهن، وعلى مبعدة ٤٠ كيلا شمالى حصن سمنة، ٢٠ كيلا شمالى «أورونارتى»، وبها حصن طوله ٩٠٠ متراً، ويحيط بمدينة على الضفة الغربية أمام جزيرة «مايانرتى» عند قمة الجندل الثانى، ومن المعروف أن «إيكن» هى حصن «مرجيسة» (مرقيسة)(١٨) .

وعلى أية حال، فإن حصن «مرجيسية» (مرجيسيا) إنما يشبه كثيراً حصن بوهن فى الشكل والحجم، لأنه - فيما يرى إمرى - من نفس عمل المهندس العسكرى، وهو، على أية حال، حصن مستطيل الشكل، وله جدار واحد من ناحية النهر، أما الناحيتان الشمالية الغربية والجنوبية، فيحيميهما جداران، يليهما خندق جاف، كما أن البوابتين موجودتان فى الناحيتين الشمالية والجنوبية من الحصن، وتتصلان ببعضهما بطريق يخترق المدينة ويصل القلعة بالنهر؛ وهناك تحت الجدار الشرقى طريق مغطى ذو باب مائى، وقد كان البناء محمياً بجدران واقية من طرفى الحصن.

وهناك فى السور الثانى، وفى زاويته الشمالية الغربية، بقايا معبد صغير، بناه «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق.م) وربما أضاف إليه «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م)، هذا وتمثل الخرائب القائمة بقايا حجرة متوسطة على جوانب ثلاثة، منها أربع حجرات أخرى توحى بأنها هيكل وحجرات إضافية، وقد

---

(١٨) انظر

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, 1964, Jush, XII, p. 62)

بطن الهيكل بالحجر، أما بقايا المعبد فقد بنى باللبن[١٩].

(٦) الكـرو:

تقع الكرو – جبانة ملوك نباتا– عى الجانب الغربى للنيل، جنوبى كريمة، وعلى مبعدة ١٦ كيلا جنوبى جبل البرقل، وقد كشف فيها عن أهرام أربعة من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين (بعنجى – شبكو – شبتكو – تانوت أمانى)، وقد بدأ الدفن فيها منذ عام ٨٦٠ ق. م، حيث دفن فيها ستة عشر سلفاً للملك «بى» (بعنجى)، وكانت أقدم المقابر فيها تتكون من حفرة تعلوها كومة طينية مستديرة وترقد الجثة بانحناء على جانبها الأيمن، والرأس في الشمال، وبعد ذلك غطيت الكوة بالحجر ثم تطورت إلى جزء يعلو سطح الأرض مبنى بالحجر مستطيل الشكل، ينتهى أخيراً إلى شكل الهرم الكوشى، بينما أصبحت المقابر أكثر إتقاناً، وأخذت شكلاً مصرياً، فتغير توجيه الدفنة من شمال جنوبى إلى شرقى غربى، ومع ذلك فقد تخلفت عادة نوبية هى وضع السرير فى المقبرة، يوضع فيه الميت على هيئة النائم، وكانت هذه الطريقة منتشرة فى النوبة العليا والسفلى منذ أقدم العصور، وبقيت حتى العصر المسيحى، غير أن الطبقة الحاكمة منذ عصر «الملك كاشتا» أصبحت مصرية الدفن والفن والعمارة والديانة والثقافة والجنس، إذ نتجت روابط وثيقة بزواج أجيال من المستوطنين المصريين بأهالى المنطقة[٢٠].

ولاريب فى أن مقبرة بعنخى إنما كانت – من الناحية التاريخية – أهم مقابر

---

(١٩) محمد بيومى مهران: مصر ٢، ٤٠٤، والتر امرى: المرجع السابق، ص ١٥٢ – ١٥٤، جيمس بيكى: الآثار المصرية فى وادى النيل ٤/ ١٧٥، وكذا:

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964, p. 57 - 62.

وكذا: T. Save-Soderbergh, op. cit., p. 76.

وكذا: B. G. Trigger, op. cit., p. 72.

وكذا: J. Vercoutter, Mirgissa, Paris, 1970, p. 187.

(٢٠) سليم حسن: مصر القديمة ١٠/ ٤٥٢ – ٤٦٦، والتر امرى: المرجع السابق، ص ٢١٧ – ٢١٨، وكذا:

D. Dunham, El-Kurru, Boston, 1955.

الكرو، غير أن الهيكل وكل مبنى الهرم قد تهدم، وكان مدخل الهرم خلف الهيكل، ويؤدى إلى نفق محفور فى الصخر، فيه تسع عشرة درجة تؤدى إلى باب معقود، جزؤه الأسفل محفور فى الصخر، وجزؤه الأعلى، وكذا العقد، مبنيان بكتل الحجر، وطول حجرة الدفن ٥,٠٥ م، وعرضها ٣,١٥ سم، وكان سقفها من الطراز المكربل المتراجع Corbelled، وفى منتصفها تقريباً «صفة» مرتفعة من صخرة الحجرة نفسها، وقد نحت فى كل ركن منها ثقباً لوضع سرير خشبى - طبقاً لعادة القوم - وأكبر الظن أن هذه «الصفة» إنما كانت أشبه بقاعدة يضعون فوقها التابوت الذى كان يوضع فوق السرير الخشبى - كما نشاهد فى النقوش المصرية والمناظر الملونة - وبعبارة أخرى، فقد كانت هذه القاعدة الحجرية هى التى تتحمل ثقل وزن المومياء وتابوتها.

وقد أثبتت حفائر «رايزنر» عام ١٩١٨م، أن حجرة الدفن قد نهبت، غير أن ما عثر عليه بعد ذلك، إنما يدل على فخامة الأثاث الجنازى الذى كان مع المومياء، حيث عثر على كثير من أوراق الذهب، وعلى قطع من المرمر، وعلى حليات اللازورد والفيانس Faience المتعدد الألوان الذى ظل مستخدماً فى تطعيم بعض أشياء المقبرة، فضلاً عن أوان من المرمر والفخار، وأخرى من البرونز والفضة، كما عثر على تمائم جيدة الصنع، وعلى كثير من تماثيل «الأوشبتى»، على منضدة فخمة من البرونز، وبعض الأوانى التى كانت تستخدم لتقديم الشراب(٢١).

وهناك جبانتان فى الكورو، الواحدة فى الجنوب عند قرية «زوما» على الضفة الشرقية للنيل، والأخرى عند «تنقاسى»، على الضفة الغربية للنيل أمام «زوما»(٢٢).

---

(٢١) أحمد فخرى: الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٤٨ - ٣٥٠، وأنظر:
J. A. Arkell, op. cit., p. 115 - 121.
وكذا: B. G. Trigger, op. cit., p. 141 - 143.
D. Dunham and O. Bates, Royal Cemeteries of Kush, I, El-Kurru, 1950, p. 2 f.

(٢٢) أحمد فخرى: المرجع السابق، ص ٣٥١. وانظر:
L. Kirwan, Kush, V, 1957, p. 37 F.
P. L. Shinnie, Kush, II, 1954, p. 66 F.

هذا وقد عثر فى الكورو أيضاً على مقابر الخيل الملكية، بلغ عددها ٢٤ مقبرة، وتقع إلى جوار مقابر الملكات مباشرة، وكان يخص «بعنخى» منها ٤ خيول، و «شبكو» ٨ خيول، و «شبتكو» ٨ خيول، و «تانوت أمانى» ٤ خيول وقد عثر على عظام الخيل فى معظمها، كما عثر على زينتها وسروجها، وكانت تدفن واقفةبعد أن تحفر الأرض من تحت أقدامها، إلى أن تستقر بطونها على الأرض، كما لم يعثر على رأس أى منها، وربما قد فصلت رؤوسها عن أجسادها قبل الدفن لسبب أو لآخر، وأخيراً فلعل مما تجدر الإشارة إليه أنه قد عثر كذلك فى جبانة الكورو على قبرين صغيرين لكلبين، رأى صاحبهما أن دفنهما بهذا الوضع تعبيراً عن حبه لهما[٢٣].

هذا وقد دفن «شبكو» فى مقبرته (رقم ١٥) بالكرو، وتقع على مبعدة ٢٠ ياردة شمالى مقبرة بعنخى، وقد عثر فيها على مائدة قرابين من الجرانيت الأشهب (بمتحف الخرطوم رقم ١٩٠٤) وعلى قطعة من مائدة قرابين أخرى من القيشانى، وعلى كل منهما نصوص، كما عثر على مرآة من البرونز، ذات مقبض من خليط من الذهب والفضة على هيئة النخيل، محاط بتمايل للآلهة • بمتحف بوسطن برقم ٢١٣١٨) وبقايا أخرى[٢٤].

---

(٢٣) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥١ - ١٥٤، وكذا:

D. Dunham and O. Bates, op. cit., II, Nuri, p. 85.

(٢٤) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، جص ١٤٦ - ١٤٨، محمد بيومى مهران: مصر ٣/ ٦٠٠ - ٦٠٢، وكذا:

J. lecllant, Recherches sur les Monuments The bains de la XXV Dynastie dite Ethiopienne Ede, 36, 1965, p. 160 - 205.

وكذا: K. A. Kitchen, op. cit., p. 280 - 282.

وكذا: A. A. Schulman, JARCE, 5, 1966, p. 40.

وكذا: A. H. Gardiner, op. cit., p. 342.

وكذا: G. Burguet, Temple d'Amon-re d'kank, p. 90, 310.

وكذا: J. Vercoutter, Napatan Kings and Apis Worship, Kush, 8, 1960, p. 66, Note, 27.

وكذا: F. S. A. Addision, Jebel Moya, I, Oxfird, 1949, p. 118.

وكذا PM, II p. 7,101, 165, 192. III, p. 220, 226,V, P. 68, 204, VI. p.

=/=

وأما مقبرة «شبتكو» فقد كانت كأسلافه فى «الكرو»، حيث دفن هو وخيوله فى هرم (رقم ١٨ حسب تقسيم رايزنر)، وقد عثر فيها على تماثل صغير، من ذلك النوع الذى يعرف باسم «الجاوبين» (الأوشبتى) يحمل اسم «شبتكو»، كما عثر فى حجرة الدفن على قطع من الأبنوس المطعم بالعاج، وعليها صورة تقليدية لبعض الأجانب (موجودة بمتحف بوسطن برقم ٢١٣٠٨، ٢٤١٠١٨، وفى متحف الخرطوم برقم ١٥٧٥)، وهناك قطعة من الفيانس (بمتحف الخرطوم برقم ٢٧٤٩) تحمل اسم «شبتكو» عثر عليها فى الغرفة الغربية بمعبد «كاوا» (A)، وهو المعبد الذى بناه الملك توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ق.م) من الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥-١٣٠٨ ق.م)، وأضاف إليه «طهرقا»، مما يشير إلى أن «شبتكو» قد ترك آثاراً فى كاوا - وهى الكوة الحالية، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعدة ٤ كيلا جنوبى دنقلة الحديثة، ٣٢ كيلا جنوبى أرقو(٢٥).

هذا ولم يعثر حتى الآن على مقبرة واحدة من مقابر الخيول لأصحاب المقابر المبكرة فى جبانة الكرو، وأرجح الآراء أن «بعنخى» (بى) (٧٤٧-٧١٦ق.م) إنما كان أول من دفن خيوله فى الجبانة من ملوك الأسرة النبتاوية، وأن دفن الخيول فى الجبانة إنما ظهر فجأة فى الجيل السادس، وربما السابع، من أصحاب هذه الجبانة.

والمعروف أن الآثاريين لم يعثروا حتى الآن على مدافن للخيول فى مصر(٢٦)،

=/= p. 117, VII, 184, 192, 1196, 273, 334 - 335.

وكذا: A. Fakhry, Baharia Oasis, II, Cairo, 1942, p. 73 - 80.

وكذا: A. J. Arkell, A History of The Sudan, from The Earliest Times to 1821, London, 1955, p. 117, 125 - 126

(٢٥) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٥، سليم حسن: مصر القديمة ١٠/ ٤٦٠، وكذا: P. M, 7, p. 197.

وكذا: S. Wenig, Africa in Antiquity, II, p. 51.

وكذا: A. J. Arkell, op. cit., p. 127.

وكذا: M. F. Laming Macadam, The Temples of Kawa, Oxford, 1949, I, p. 12.

(٢٦) عرف الحصان فى وادى النيل، وفى العراق القديم، فيما قبل عصر الهكسوس ويذهب «إمرى» إلى أن ذلك إنما كان منذ الدولة الوسطى حيث عثر عام ١٩٦٢م على هياكل خيول فى منطقة «بوهن»، دفنت فى الدولة الوسطى، وإن ذهب البعض إلى أنها ترجع إلى أيام الدولة الحديثة، كما

حتى يمكن القول أن بعنخى إنما قد نقل هذه العادة إلى النوبة - بعد أن استولى على مصر - بصفته أول ملك تنسب إليه مقابل خيول، وقد عرف عنه حبه للخيول - كما تشير إلى ذلك لوحة نصر، فضلاً عن النص الذى يوجه فيه اللوم للمدعو «نمرات» أمير الأشمونيين، عندما وجد الخيول تكاد تهلك[٢٧] جوعاً، ومن ثم فلا يمكن القول أن حب الخيل ظهر فجأة عند «بعنخى» أو أنه ورثه من أسلافه، وربما كان ذلك صفة شخصية فى الرجل.

(٧) أورو - نارتى:

يقع حصن «أورو - نارتى» على مبعدة ٢٠ كيلا شمالى سمنة وقمة، ٥٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، وقد أقيم هذا الحصن فى جزيرة «أورو - نارتى» (Uronarti) وسمى «القلعة التى تصد الإينو» أو التى تطرد القبائل، ويقع الآن عند قرية الملك الحالية.

وهناك لوحة عثر عليها فى المنطقة عام ١٨٩٩م، تسجل أن «سنوسرت الثالث» هو الذى قام ببناء هذا الحصن، وإن كان بناؤه يشير إلى أنه قد صمم وبدئ فى بنائه فى عهد «سنوسرت الأول»، ويشبه تصميم الحصن بصفة عامة، مثلثاً يميل إلى الطول، ذا ذيل طويل، مكوناً من جدار ضخم يصل إلى الجزء الشمالى من الجزيرة، ويشير وضع الأبراج فى الناحية الغربية إلى أن خطر الهجوم إنما كان من هذه الجهة، وأما السور الخارجى الذى يحيط بالسور المثلث الصغير، ففيه الأبراج المربعة العادية وفى الركن الجنوبى حائط مستطيل تبرز من جوانبه

=/=

عثر «بترى» على دفنات اختلطت فيها هياكل الخيول مع الحمير مع الآدميين فى «تل العجول» بجنوب فلسطين، غير أنه لم يعثر فى مصر على أية دفنة لحصان واحد، أو حتى لعظام من حصان، والأمر كذلك بالنسبة إلى النقوش التى ترجع إلى عصر الهكسوس • محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة، ص ١٤١ - ١٤٢، عبد العزيز صالح، وكذا:

T. T. Save Soderbergh, op. cit., p. 59.

وكذا: W. C. Hayes, op. cit., p.

(27) Urk., III, p. 3.

وكذا: A. H. Grdiner, op. cit., p. 338.

أبراج مربعة، والمدخل الأساسى على شكل بوابة منزل ضخمة توجد فى وسط الجدار الجنوبى.

هذا وتنقسم المدينة الصغيرة إلى قسمين بطريق يؤدى بطريقة غير مباشرة إلى سلم طويل ينزل إلى بوابة مائية خارج الحصن، على الضفة الشرقية للجزيرة(٢٧).

(٨) النقعة:

تقع النقعة - أو النجعة - فى سهل البطانة، جنوبى شندى، وإلى الشمال قليلاً من الجندل السادس، وعلى مبعدة ١١٢ كيلا شمالى الخرطوم، وقد وصلت إليها حدود مصر على أيام «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م) حيث بنى هناك معبداً، كما وجد له تمثال جاث يحمل آنيتين على يديه، وإن كان من المحتمل كثيراً أن النفوذ المصرى قد وصل إلى أبعد من ذلك، هذا وقد عثر أيضاً بالنقعة على بناء فخم باسم الملكة «شاناكدختى» (١٧٠ - ١٦٠ ق.م) وجدت به نقوش مكتوبة بالهيروغليفية المروية، وهى من أقدم ما عرف(٢٨).

(٩) بوهن:

تقع بوهن إلى الجنوب قليلاً من وادى حلفا - عبر النهر - وكانت منذ «الدولة الوسطى» (٢٠٥٢ - ١٧٨٦ ق. م) أحد مراكز السيادة المصرية فى السودان، ومركز نائب الملك فى كوش، وفى عام ١٩٦١ / ١٩٦٢م عثر فيها على مستوطنة ترجع إلى أيام الدولة القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٨٠ ق. م)، ألحقت بها مجموعة من أفران صهر النحاس، كما أن بها أكبر حصون النوبة فى الدولة الوسطى، وكانت المدينة تتكون من المساكن وثكنات الجيش ومصانع وقصر

---

(٢٧) والتر امرى: المرجع السابق، ص ١٤٩ - ١٥٢، وكذا:

D. Dunham, Second Caract Forts, II, Uronarti, Shalfok, Mirgissi, Boston,

وكذا: W. C. Hayes, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 507, 1967.

(٢٨) محمد بيومى مهران: مصر ٣/ ٢٦٢، ج. لكلان: تاريخ أفريقيا، ص ٢٩١، وكذا:

B. G. Haycock, The kingship of Kush in the Sudan, 1954, p. 461 - 480.

الحاكم، وقد أظهرت الحفائر تخطيطاً المدينة مستطيلة، ذات طرق معبدة، ونظام للصرف والمجارى، ومن ناحية النيل وجدت بوابتان كبيرتان فى الجدران، توصلان إلى رصيف حجرى لرسو سفن الجزى والمحاصيل التجارية من النوبة، وبوابة ثالثة محصنة فى الجانب الغربى المواجه للصحراء، وقد احتلها الكوشيون على أيام الهكسوس ودمروا بعضاً منها، ثم أصلحها الملك «أحمس الأول» (١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق. م) بعد طرد الهكسوس، وجعلها المدينة الرئيسية فى النوبة، وقد بنت «حتشبسوت» (١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق. م) فيها معبداً، على أساسات معبد الدولة الوسطى، وقد أعاد «تحوتمس الأول» جدران حصون بوهن وردم السور السفلى والخندق، وغطاهما بطريق معبد من اللبن، يلتف حول البناء كله، ثم حفر خندقاً (٦ × ٢ م) على شكل محيط طوله ميل، ومن ورائه شيدت الجدران التى شملت المدينة الجديدة (ارتفاعها ١٢ م وسمكها ٥ م) وتتخللها أبراج مستطيلة فى الواجهة الخارجية (٢٩).

ويمثل حصن بوهن - أكبر حصون النوبة العليا فى الدولة الوسطى - أفضل تلك الحصون التى قاومت البلى، وصمدت للزمن، فقد كانت تلك القلعة الجبارة تتكون من سلسلة معقدة من تحصينات داخل تحصينات مبنية على شكل مستطيل (١٧٢ × ١٦٠م)، ويتكون نظامها الدفاعى من سور من الآجر (سمكه ٤,٨م، وارتفاعه ١٠م)، وله أبراج على مسافات منتظمة، وفى أسفل هذا السور الرئيسى متراس مرصوص بالآجر، تحميه سلسلة معاقل مستديرة، بها صفوف مزدوجة من فتحات الرمى (المزاغل)، ويحيط بالقلعة كلها خندق جاف محفور فى الأرض الصخرية الصلدة بعمق ٦,٥م، وعرض الخندق ٨,٤م، وقد تمت تعلية حافته البعيدة عن القلعة بسور من الآجر.

---

(٢٩) محمد بيومى مهران : مصر ٢/ ٢٥٧، وكذا:

W. B. Emery, Preliminary Reports on The Excavations at The Egypt Exploration Society at Buhen, Kush, VIII, 1960, 1961, X, 1962.

J. Vercoutter, Kush, 4, 1965, p. 77 - 78.

وكذا: G. Reisner, JEA, 6, 1920, p. 29.

وقد ظلت هذه القلعة تؤدى دورها – كما سنرى – حتى أخريات الأسرة العشرين (١١٨٤ – ١٠٨٧ ق.م)، بل إن الحفريات قد أظهرت بقايا مستعمرة صغيرة من العصر المروى والمسيحى، فوق الجزء الجنوبى لمدينة من الدولة الحديثة[٣٠]. (١٥٧٥ – ١٠٨٧ ق.م)

هذا وقد بدأ «أحمس الأول» (١٥٧٥ – ١٥٥٠ ق.م) – كما أشرنا آنفاً – فى اصلاح قلعة بوهن التى كانت قد تعرضت للتخريب والنهب فى عصر الإنتقال الثانى، وجعل منها المدينة الرئيسية فى مناطق النوبة التى استردها المصريون، هذا ونلتقى هنا فى عهد أحمس الأول بالوالى المقبل، نائب الملك «تورى» قائد بوهن، والذى كان اسمه الحقيقى «أحمس» (عحموزة) وأن كلمة «تورى» ليست سوى «كنية» له، كما نلتقى كذلك حوالى هذه الفترة فى مدينة الكاب – على مبعدة ١٩ كيلا شمالى إدفو، فى مقابل البصيلية عبر النهر – بلقب مبهم، هو «أول ابن للملك فى الكاب»، وإن كان من العسير علينا أن نربط بين هذا اللقب، وبين تعاقب ولاة النوبة فيما بعد، ولعل مما يشجع على هذا الرأى ما نشهده بعد قرنين فيما يتصل بمدينة «نخن» (البصيلية) – مقابل الكاب عبر النهر – من أنها تعرف بنقطة البدء الشمالية لإداراتهم[٣١].

(٣٠) جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ١٧٣ – ١٧٤، والترامرى: المرجع السابق، ص ١٠٤ – ١٠٦، تاريخ أفريقيا العام ٢/ ٢٣٨، ٢٥٢، ٢٥٩ محمد بيومى مهران: مصر ٢/ ٤٠٤، ٣/ ٢٥٧.

وكذا: J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

W. B. Emery, Egypt Exploration Society, Prliminary Report on The Excavations at Buhen, 1962, Kush, II, 1963, p. 116 - 120.

وكذا: W. B. Emery, Kush, 8, 1960, p. 7 - 8.

A. W. Lawrence, Ancient Egyptian Fortifications, JEA, 51, 1965, p. 69 F.

(٣١) جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ٢٩٨ – ٢٩٩، محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٢٠٨، وكذا:

T. Save-Soderbergh, Aegypten und Nubia, Lund, 1941, p. 141 - 142.

هذا وقد عثر فى «فرس» على قطع حجرية لمعبد بناه الفرعون هناك، كما تنسب إليه الترميمات التى تمت فى معبد حصن بوهن من عصر حتشبسوت، إلى جانب لوحة كبيرة ماتزال فى فناء معبد بوهن هذا، سجل عليها الحاكم «نحى» انتصارات الفرعون(٣٢).

هذا وهناك الاكتشافات الحديثة فى عام ١٩٦٢م فى بوهن، والتى تشير - كما أشرنا من قبل - إلى وجود مستعمرة مصرية هناك على أيام الدولة القديمة، كان من أهم صناعاتها هناك تشغيل النحاس، كما تشير إلى ذلك أفران الصهر، وبقايا خام النحاس هناك، الأمر الذى يدل على وجود خام النحاس هناك فى مكان ما من تلك المنطقة، وأنه من نوع متفوق على غيره من الأماكن الأخرى فى مصر والسودان، وتدل الدراسة العلمية لعينات من نحاس بوهن فى المدرسة الملكية للتعدين فى لندن، فضلاً عن معلوماتنا عن علم التعدين، أن رواسب النحاس التى ظهرت فى مصر، وفى النوبة السفلى، إنما ترجح وجود مصدر لخام النحاس فى بوهن، وقد عثر «والتر امرى» على كميات من نحاس غير مصهور على مقربة من ثلاثة أفراد لصهر النحاس فى بوهن، وأنها تقع على الضفة الشرقية للنيل، ومن الناحية الكيمائية، فإن أبرز الملامح المميزة لخام نحاس بوهن أن به نسبة عالية من الذهب(٣٣).

=/=

وكذا: A. H. Gardiner, op. cit., p. 170.

وكذا: T. G. H. James, op. cit., p. 298 - 299.

وكذا: W. B. Emery, Kush, 7, 1959, p. 7 - 14, 8, 1960, p. 7 - 10.

وكذا: ASAE, 10, p. 193 F.

وكذا: J. H. Breasted, op. cit., II, p. 8 - 9.

وكذا: J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.

(٣٢) والتر امرى: المرجع السابق، ص ١٩٥، جيمس بيكى: المرجع السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣، تاريخ أفريقيا، ص ٢٧٠، وكذا:

B. G. Trigger, op. cit., p. 110.

(33) W. B. Emery, Kush, II, 1963, p. 116 - 120.
El-Sayed El-Gayar, JEA, 65, 1989, p. 31 - 32.

وقد عثر على دليل أفضل يقدمه لنا «معبد أحمس فى بوهن» حيث يحمل المدخل الباقي منه اسم «أحمس»، وإسم أمه «إيعح حوتب»، فضلاً عن نص نذرى أضافه «تورى» (Tjuroy) حاكم بوهن، وإن لم يبق لنا شيئاً من آثار في منطقة القلعة التى ترجع إلى أيامه على وجه اليقين، وأكبر الظن أن الفرعون لم يعد، أو لم يكن بقادر على أن يمد فتوحاته إلى أبعد بعيداً عن بوهن، بأكثر من ١٩٠ كيلا، حيث وجدت آثار تحمل اسمه وإسم زوجته(٣٤).

(١٠) بمصة: (Basa)

تقع فى وادى الهود، ولها مبنى كبير محاط بتماثيل أسود حجرية، وتتميز بأن تخطيطها كان دقيقاً، يتفق وتضاريس الأرض التى كانت مغطاة وقت ذاك بالأعشاب والأشجار (٣٥).

(١١) بناجه = بناقا = وادى بناقا:

يقع على مبعدة ٤٠ كيلا جنوبى شندى، وهناك ما يشير إلى أنه كان مركزاً هاماً للقوافل، حيث عثر على خزانات للمياه، كما عثر على إطلال معبدين، كما أظهرت الحفائر أخيراً مبنى ضخماً، ربما كان قصراً، وآخر فى شكل خلية النحل، ربما كان صومعة كبيرة للغلال، كما يشير موقع المدينة إلى أنها ربما كانت مقراً لسكنى «الكندكات» (الملكات الحاكمات)، كما كان ميناء نهرياً.

(١٢) جبل البرقل:

جبل البرقل أو البركل: يقع على الشاطئ الشرقى للنيل، على مدى بضعة أميال من كريمة، ويقابله على الضفة الغربية للنيل مدينة «نباتا» (نبتة) ويسمى

---

(34) G. A. Reisner, JEA, 6, 1920, p. 29.
وكذا: J. Vercoutter, Kush, 4, 1956, p. 77 - 78.
وكذا: T. G. H. Jamer, op. cit., p. 289.
وكذا: A. H. Gardiner, op. cit., p. 170.
وكذا: B. G. Trigger, op. cit.,p. 107 - 108.
J. Vercoutter, Excavations at Sai, 1955 - 1957, in Kush, 6, 1958, p. 114 - 169.

(٣٥) أحمد محمد الحاكم: تاريخ أفريقيا، ص ٣١٩).

جبل البرقل فى المصرية القديمة «الجبل المقدس» (جو - وعب = دو - واعب) فقد اعتبرته نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً لآمون رع، وقد أقيم فيه معبد آمون الكبير، حيث وضعت نواته الأولى على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)، ثم قام «بعنخى» بإعادة بنائه وتوسيع قاعاته، ليكون على غرار معابد آمون الكبرى فى شمال الوادى ثم أقيمت على جانبى المدخل ستة تماثيل جرانيتية المكباش - رمز آمون المقدس - وهى تحتضن تماثيل صغيرة للملك «آمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) نقلها «بعنخى» من صولب إلى نبته، وتتكرر البوابات الضخمة التى تصل بين قاعات المعبد المتعددة، قبل الوصول إلى قدس الأقداس، حيث كان يقوم تمثال المعبود آمون، الذى لم يبق منه سوى قاعدته الحجرية التى كانت تحمل التمثال.

ونظراً لأن القوم قد اعتادوا إقامة النصب الحجرية التى تدون عليها الأحداث الهامة فى المعابد، بغية تخليد أصحابها، ومن ثم فقد عثر فى معبد آمون على عدة ألواح، منها لوح بعنخى (لوح النصر) ولوح «تانوت أمانى» (لوح الحلم)، ولوح الملك «حور سيوتف»، ولوح الملكة «سخمخ»[٣٦].

هذا وقد شيد «تحوتمس الثالث» لوحة فى برقل تسجل أن حدوده الجنوبية وصلت إلى «قرون الأرض» the Horn of the Earth ، وهى منطقة جنوبى الجندل الرابع، مازلنا نجهل مكانها[٣٧].

---

(36) PM, VII, p. 215 F G. A. Reisner, ZAS, 66, 1931, p. 89 - 100 Urk, III, p. 1 J. H. Breasted, ARE, IV, Parag. 796 - 883 , E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, p. 537.

(٣٧) محمد بيومى مهران ٧٣/٣، سليم حسن. مصر القديمة ٤/ ٤٧٠ - ٤٩٨ وكذا :
A. J. Arckell, op.cit, p. 88- 89.
وكذا R.A.Camions, Kush, 12, 1964, p. 85.
وكذا B.G.Trigger, op.cit, p. 72.
وكذا G.A.Reisener, SNR, 12, 1929, p. 143 - 161.
وكذا E.A.W.Budge, op.cit, p. 59, 135.
وكذا W.M.F.Petrie, A History of Egypt, II, p. 99, 126-128, 137, 140.
J.H.Breasted, ARE, II, P. 249-257.
=

وهناك فى «كلابشة» فى النوبة السفلى، كان يشاهد تمثال للفرعون على مقربة من المرسى المودى إلى معبد أغسطس، موحيا بأن الفرعون قد شيد جزءا من المعبد القديم، وربما شيد كذلك معبدا فى «قورته»، وعلى أية حال، فهناك - حتى منتصف القرن الماضى - كانت توجد فى قورته بوابة نقش عليها اسمه، كما أنه نحت فى الصخر معبدا فى «الليسية» - على مبعدة كيلومتر من أبريم ، خصصه لعبادة «حور» و «ددو» و «سنوسرت الثالث» وهو معبد صغير جداً، مكون من حجرة واحدة، بها كوة صغيرة، وقد زينت واجهته بعدة نقوش، فضلاً عن لوح يؤرخ بناء العبد بالعام الثالث والأربعين، من حكم الفرعون، وقد منحته مصر لإيطاليا، وهو الآن مقام فى المتحف المصرى فى تورين، وهناك فى «ميعام» - وهى عنيبة على مبعدة ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان - لوحة من العام الخمسين من الحكم، يظهر الفرعون فيها أمام «حور ميعام» والالهة «ساتيس»، وهناك فى قصر أبريم أربع مقصورات منحوتة فى الصخر، ثنتان منها ترجع إلى عصر تحوتمس الثالث، وإن كانتا فى الأصل من عهد آخر، أحدهما للحاكم «نحى»، والثانية ترجع إلى عصر «حتشبسوت».

هذا وقد عثر فى «فرس» على قطع حجرية لمعبد بناه الفرعون هناك، كما تنسب إليه الترميمات التى تمت فى معبد حصن بوهن هذا يسجل عليها الحاكم «نحى» انتصارات الفرعون[٣٨].

= وكذا L.D.III. Pls. 7, 26-28, 37-38, 45, 65

(٣٨) محمد بيومى مهران ٧٣/٣، سليم حسن: مصر القديمة ٤٧٠/٤-٤٩٨، وكذا

وكذا A. J. Arckell, op.cit, p. 88- 89.

وكذا R.A.Camions, Kush, 12, 1964, p. 85.

وكذا B.G.Trigger, op.cit, p. 72.

وكذا G.A.Reisener, SNR, 12, 1929, p. 143 - 161.

وكذا E.A.W.Budge, op.cit, p. 59, 135.

وكذا W.M.F.Petrie, A History of Egypt, II, p. 99, 126-128, 137, 140.

وكذا J.H.Breasted, ARE, II, P. 249-257.

وكذا L.D.III. Pls. 7, 26-28, 37-38, 45, 6

هذا وربما كان «سيتى الأول» هو الذى أسس معبد أمون فى جبل البرقل - ويسمى فى المصرية «الجبل المقدس» (جو - وعب = دو - واعب)، حيث اعتبرته نصوص الدولة الحديثة جبلاً طاهراً، وعرشاً لآمون طيبة - ويقع هذا الجبل على الضفة الشرقية للنيل، على مدى بضعة أميال من «كريمة»، ويقابله على الضفة الغربية للنيل مدينة «نباتا»(٣٩).

وهناك فى معبد آمون الكبير (ب ٥٠٠) فى جبل البركل، قاعدة من الجرانيت، الأشهب، ما تزال قائمة فى مكانها، كانت مخصصة لحمل تمثال الإله أمون، داخل مقصورته الذهبية، وتحمل القاعدة إسم الملك طهراقا ولقبه بحجم كبير (طهراقا، نفرتم، خورع) وسط نقش يمثل وادى النيل عبارة عن صورتين لإلة النيل، الواحدة : تمثل نيل الشمال، والأخرى: تمثل نيل الجنوب، يقومان بشد حمل، لعقد رمز الوحدة، وهو يمثل الرئتين والقصبة الهوائية، وكانت النوبة على أيام الرعامسة تتكون من قسمين، الواحد: النوبة السفلى أو «واوات»، وتمتد من جنوب «آبو» (يب - اليفانتين - جزيرة أسوان)، وحتى سمنة، عند الجندل الثانى، وعاصمتها «عنيبة» (ميعام) - على مبعدة ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان - والآخر: النوبة العليا أو «كوش» (كاش)، وعاصمتها «عمارة غرب» - على مبعدة ١٨٠ كيلا جنوبى وادى حلفا - كما كانت مصر قد نجحت فى توطيد سلطانها تماما فى النوبة منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة(٤٠).

---

(٣٩) محمد بيومى مهران: مصر ٣٧٠/٣، ٣٨٣/٣ نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٢، وكذا:

A.J.Arkel, op-cit, p. 112.
B.G.Trigger, op.cit, p. 111, 126, 129.
J.Vercoutter, op.cit,p. 77 - 79.
W.B.Emery, op.cit, p. 95.
H.W.Fariman, JEA, 24, 1938, p. 151 - 156, 25, 1939, p. 139-144, 34, 1948, p. 1-11.

(٤٠) محمد بيومى مهران: مصر ٣٦٩/٣ - ٣٧٠.
وكذا A.J.Arkell, op.cit.
وكذا B.G.Trigger, op.cit, p. 111

هذا وقد عثر في جبل البرقل على لوحة بعنخي (بي = Py = Peya)
الأولى، والتي تسمى «لوحة النصر»، ومحفوظة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة
(برقم ٤٨٨٦٢)، وقد غطيت اللوحة بالنقوش الهيروغليفية من جوانبها الأربعة،
وهى من الجرانيت الرمادى، وجزؤها الأعلى مستدير، وارتفاعها ١٨٠ سم
وعرضها ١٨٤ سم، وسمكها ٤٣ سم، وقد كشف عنها - مع أربع لوحات
أخرى - ضابط مصرى غير معروف في عام ١٨٦٢م، كان يعمل فى الجيش
المصرى في السودان على أيام الوالى «سعيد باشا» (١٨٥٤ - ١٨٦٣م).

ويرجع تاريخ لوحة البرقل إلى العام الحادى والعشرين من حكم الملك
«بعنخي» (٧٤٧ - ٧١٦ ق.م)، وقد مثل على قمتها قرص الشمس غير المجنح،
يخرج منه صلان، وأسفله المعبود «آمون» قاعدا، وتقف خلفه «موت» ربة «أشرو»،
وأمامها يقف «بعنخي» وقد وضع في منطقته خنجرا، ويرتدى قميصا يصل إلى
ركبتيه، وتتقدم امرأة إلى الملك «بعنخي» رافعة يدها اليمنى، وأكبر الظن أنها زوج
«نمرات» الذى مثل واضعا الصل على جبينه، ويقود بيده اليسرى جوادا، وتقبض
يده اليسرى على صناجه، وقد مثل على قمة اللوحة ثلاثة ملوك آخرون يقبلون
الأرض أمام بعنخي.

هذا وقد قام مكتشف اللوحة - الضابط المصرى غير المعروف - بنقل
نقوشها، ثم أرسل منها نسخة إلى «أوجست فرديناند فرانسوا مارييت» (١٨٢١ -
١٨٨١م) مدير مصلحة الآثار المصرية (١٨٥٨ - ١٨٨١م) فى القاهرة، والذى
سرعان ما أدرك أهمية اللوحة، ومن ثم فقد أمر بإرسالها إلى القاهرة فورا، لتكون
فى ملكية الحكومة المصرية، وهكذا أقلعت سفينة من مدينة «مروى» إلى القاهرة،
حاملة اللوحة، فوصلتها فى عام ١٨٦٢م ثم عكف «مارييت» على ترجمة
النسخة التى أرسلت إليه فى عام ١٨٦٣م، ثم أعلن عن هذا الكشف إلى
الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب[41].

(41) Letter de M.Auguste Mariette am. Le Vicomte de Rouge sur une Stele Trouvee a Gebel Barkal in Comptes Tendus, Tom., VII, p. 119, F.

هذا وقد أرسل «ماريت» نسخة من النقش إلى «دى روجيه» مع رسالة لخص فيها النتيجة التاريخية التى اعتقد أنه يمكن استخلاصها من فحص سريع، ثم طلب منه أن يقوم بترجمة كاملة لهذا النقش(٤٢)، وقد حاول «دى روجيه» ترجمة النص - طبقا لنسخة الضابط المصرى - وإن عاقته بعض الصعوبات التى استلزمت ضرورة اطلاعه على النص الأصلى، الذى كان على درجة كبيرة من الصعوبة، ثم نشر الترجمة فى مقال عام ١٨٦٣م(٤٣).

ومنذ ذلك الحين، بدأ علماء المصريات فى إعادة ترجمة اللوحة وتحليلها قام بذلك «كـوك» فى عـام ١٨٧٣م(٤٤)، «جريفث»(٤٥)، ثم «برستـد» عـام ١٩٠٧م(٤٦)، وكذلك «بدج» فى نفس العام(٤٧).

وفى عام ١٩٣٥م قام «سير ألن هندرسون جاردنر» (١٨٧٩ - ١٩٦٣م) بترجمة وتنقيح بعض فقرات نصوص هذه اللوحة(٤٨)، وفى عـام ١٩٥٦م قـام العالـم المصرى الدكتـور «سليـم حسن» (١٨٩١ - ١٩٦١) بترجمة اللوحة الى اللغة العربية(٤٩)، وفى عام ١٩٧٩ م قدم «أنثنون سبلنجر» تحليلاً عسكـريا للوحة(٥٠) كمـا عنى بنفـس الجوانـب العسكريـة «ديتركلسر» فنشر عنها دراسة

(42) RA, Part, I,1863, p. 413.

(43) De Rouge, L'Inscription Historique de Roi Piankhi-Meriamoun, in RA, Part, 2, 1863, p. 94F, With a Plate.

(44) S.Cook, The Inscription of Piankhi-Meriamon, King of Egypt in The Eighth Century B.C. London, 1873, p. 79 - 104.

(45) F.L. Griffith, Egyptian Literature (in Specimen Pages of a Library of The World's best Literature) p. 5274-5295.

(46) J.H.Breasted, ARE, IV, Chicago, 1907, Parag. 796 - 883, p. 406 - 444.

(47) E.A.W. Budge, The Egyptian Sudan , Its History and Monuments, II, London, 1907, p. 11- 26.

(48) A.H.Gardiner, in JEA, 21, 1935, p. 219-223.

(٤٩) سليم حسن: مصر القديمة ١١/١٠ - ٣٤

(50) A.Spalinger, The Military Background of The Campaign of Piye (Piankly), SAK, Band, 7, 1979, p. 273 - 301.

عام ١٩٨١م(٥١).

هذا وقد أكمل «نيكولاس جريمال» جهود السابقين بأن ضمن ترجمته بعض القطع الناقصة من اللوحة، والتى عثر عليها «لوكيانوف» عام ١٩٢٦م، ثم قدم لنا بعد ذلك دراسة وافية عن اللوحة، مع ترجمة كاملة للنص الهيروغليفى(٥٢).

وعلى أية حال، فلاريب فى أن لوحة جبل البرقل هذه إنما هى مصدر تاريخى وجغرافى لهذه الفترة، فهى تحمل واحدا من أطول النصوص، وأكثرها تفصيلا، فهو يحتوى على ١٥٩ سطرا من الخط الهيروغليفى يصف احتفالات الملك بعنخى، واستعداداته ومراحل حروبه مع الليبين المتمصرين الذين يسيطرون على وسط وشمال مصر.

هذا وقد تحدثت اللوحة عن أغلب مدن مصر - سواء أكانت فى الصعيد أو الدلتا - فهى مثلا تقدم لنا ١٩ مدينة محصنة على امتداد ٢٦٦ كيلا، على طول نهر النيل، من مصر الوسطى وحتى الدلتا - أى بمعدل مدينة لكل ١٤ كيلا(٥٣).

وهناك لوحة بعنخى الثانية، وهى محفوظة الآن بمتحف الخرطوم (رقم ١٨٥١)، وقد عثر عليها «جورج أندرو رايزنر» (١٨٦٧-١٩٤٢م) عام١٩٢٠م فى جبل البرقل أيضا، وذلك فى قاعة العمد (B 501) (عرضها ١٢٣ سم، وطولها ١٣٠ سم)، وإن كان هناك مايشير إلى أنها كانت أعلى من ذلك، لأن الجزء الأسفل منها قد كسر، ولم يعثر عليه للآن، وأكبر الظن أنها قد نصبت أولا أمام البوابة الثانية، قبل بناء القاعة (B 501).

(51) Dieter Kessler, Zu den Feldzogen des Tefnachte, Namlot und Piye in Mittelagypten, SAK, Band, 9, 1981, p. 227 - 250.

(52) G.N.C. Grimal, La Stele Triomphale de Pi, au Meusee du Caire (JE 48862 et 47086-47089), Etudes sur La Propagande Oyale-gyptienne, David O'connor, New Kinkdom and Third Intermediate Period, 1552-664 B.C., in AESH, p. 232.

(53) BIFAO, 105, 1981.

هذا ويتوج قمة اللوحة قرص الشمس المجنح الذى يكتنفه صلان، وقد مثل الإله أمون برأس كبش قاعدا على العرش، وقد مد يده اليسرى إلى الملك مقدما له تاج مصر السفلى، وفى يده اليمنى لباس رأس مزود بصل، وتقف خلفه المعبودة «موت»، وخلفها ولدهما «خونسو» وفى مواجهة أمون تقف شخصية صغيرة تمثل نباتا، على رأسه تاج كوش، ويقدم قلادتان منهما واحدة صدرية إلى أمون، وقد اشتملت اللوحة على ٣٠ سطرا.

ويذهب «رايزنر»[٥٤] – الذى نشر اللوحة – إلى أن اسم الملك الذى وجد مطموسا، داخل الخرطوش الوحيد فى اللوحة، يمكن قراءته – على وجه اليقين – «بعنخى»، وأما تاريخ اللوحة فيرجع إلى فترة ماقبل استيلائه على مصر، ومن ثم فهى تتحدث عن أهداف بعنخى من استيلائه على مصر، فضلا عن أنه اعتبر نفسه مصدر السلطات، وصاحب الحق فى تعيين الملوك.

هذا وتصف هذه اللوحة النظام الفيدرالى لإمبراطورية كوش، مع إعلان سيادة آمون، ويقول بعنخى: «لقد منحنى أمون نباتا السيادة على كل الناس، فمن أقول له : أنت ملك، يصبح ملكا، ومن أقول له: أنت لست بملك، لايصبح ملكا، لقد منحنى أمون طيبة السيادة على مصر، فمن أقول له: تتوج ملكا، يتوج ملكا، ومن أقول له: لاتتوج ملكا، لايتوج ملكا، إن الآلهة تتوج الملوك، كما أن الناس يتوجون الملوك، أما أنا فقد توجنى أمون[٥٥].

هذا وقد عثر فى جبل برقل – مع لوحى بعنخى – على لوح ضخم محفوظ الآن بالمتحف المصرى برقم ٤٨٨٦٣) يحمل اسم وصورة الملك «تانوت أمان»، عرف عند الآثاريين باسم «لوح الحلم»[٥٦]، وقد سجلت عليه نفس الأحداث

(54) G.A.Resner, Inscribed Monuments from Gebel Barkal, The Sandstone Stela of Piankhy, No. 26, in ZAS, 66, 1931, p. 89 - 100, and Plate BV.

(٥٥) ج. لكان: تاريخ أفريقيا ص ٢٨٢، سليم حسن: مصر القديمة ٦٨/١١ – ٧١، عادل سيد مصطفى. دراسة تاريخية وحضارية للأسرة الرابعة والعشرين فى مصر الفرعونية – الاسكندرية ١٩٩٠ ص ١٧–١٨.

(56) J.H. Breasted, ARE, IV, p. 469 - 473.

=

التى سجلتها الرقم الإسطوانية المسمارية[٥٧]، ولكننا نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نلتقى بتناقض أشد مما نلتقى به عند عرض الإثنتين، فكلتاهما عن قصة النصر، ولكن المنتصر فى الواحدة «أشوربانيبال» وفى الأخرى «تانوت أمون»، والذى يروى أن «تانوت أمون» رأى فى السنة الأولى من حكمه حلما جاء فيه،ن أن ثعبانين كان أحدهما على يمينه، والآخر عن يساره، وقد فسر له الحكم على الوجه التالى:

«مصر العليا تخصك فخد لنفسك مصر السفلى، ربتا الصل والعقاب ظهرتا على رأسك، أعطيت لك الأرض طولا وعرضا، وسوف لايشترك معك أحد فيها».

«وعندئذ اعتلى تانوت أمون عرش حور فى هذه السنة، وخرج من «خميس» (مكان فى وسط مستنقعات الدلتا حيث أمضى حور طفولته) وتقدم إلى نبته دون أن يعترضه أحد، وأقام هناك عيدا كبيرا لآمون رع، ثم قدم ولاءاً مماثلا لخنوم فى إليفانتين، ولآمون رع فى طيبة، وقوبل بالترحاب فى كل مكان فى طريقه إلى منف بفرح كبير، وكذا عند وصوله إلى العاصمة الشمالية[٥٨].

(١٣) دنقله العجوز:

تقع دنقله العجوز (دنقلة القديمة) على الضفة الغربية للنيل، قريبا من كريمة فى مقابل «مروعا» عبر النهر (وهى غير دنقلة الحديثة أو دنقلة العرضى)، وقد قامت بها مملكة فى القرن السادس الميلادى، امتدت رقعتها من الجندل الثانى وحتى «مروى» القديمة (البحراوية الحالية)– على مبعدة ٢١٣ كيلا شمالى الخرطوم – وكانت دنقلة هى العاصمة، وسميت هذه المملكة فى عصر لاحق «مكوريا» (Makuria) وهى «المقُرة» فى العربية، وقد كشفت بعثة الآثار البولندية منذ عام ١٩٦٤م عن أربع كنائس وعن القصر الملكى في دنقلة العجوز، كما

= H.Schafer, Urk, III, p. 57 - 77. وكذا
PM, 7,p.218 - 218. وكذا
A.J.Arkell, op.cit, p. 134 F. وكذا

(57) A.L.Oppenheim, ANET, 1966, p. 293
(58) A.H.Gardiner, op.cit, p. 348.

عثر على أقدم كنيسة بنيت بالطوب اللبن، وقد وجد بها - غير الكاتدرائية - خمسة صحون، وهى ترتكز على ٦٠ عمودا من الجرانيت.

وفى القرن السادس الميلادى أصبح فى النوبة ثلاثة ممالك (مملكة النوبة الشمالية، وعاصمتها فرس، ومملكة النوبة الوسطى وعاصمتها المقرة، والنوبة الجنوبية وعاصمتها سوبا). وفى عهد الملك «مرقوريوس» الذى تولى الحكم عام ٦٩٧ م توحدت الممالك الثلاثة، واتخذت من دنقلة عاصمة لها [٥٩].

(١٤) ساى = صاى:

ساى = صاى: هى «شعات القديمة» وتقع على مبعدة ١٩٠ كيلا جنوبى بوهن، وقد عثر فيها على آثار شيلية وأشولية، وعلى تمثال للملك «أحمس الأول» (١٥٧٥-١٥٥٠ق.م) مما يشير إلى وصوله إليها عندما استرجع النوبة بعد طرد الهكسوس، كما عثر على لوحة بها الألقاب الملكية الكاملة للملك «أمنحتب الأول» (١٥٥٠ - ١٥٢٨ق.م) وكذا تمثالين ولوحين صغيرين عليهما اسمه، كما بنى بها «تحوتمس الأول» (١٥٢٨ - ١٥١٠ق.م) حصنا، وبنى «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) معبدا [٦٠].

هذا وقد عثر على تمثال، رأسه محفوظ الآن بمتحف الخرطوم برقم (٣٨٢٨) يحمل إسم «أحمس»، فضلا عن كتلة حجرية تحمل إسم زوجه «أحمس نفرتارى»، هذا ويفترض أن أحمس الأول بنى أول معابد الدولة الحديثة فى «ساى» (صاى - شعات القديمة)، ومع ذلك فربما كانت هذه القطع الأثرية من معبد يرجع إلى تاريخ متأخر، بناه أحد خلفاء أحمس.

---

(٥٩) ميخالوفيسكى: تاريخ أفريقيا ص ٣٣٢، وكذا: M.Martens, CAMAP, VII, 1973, p. 263 - 271, K.Michalowski, Polish Excavations at Old Dongola, Kush, XIV, p. 189 - 299.

(٦٠) محمد بيومى مهران: مصر J.Vercoutter, Excavations at Sai, Kush, Vi, p. 144 - 169, T.Save-Soderbrgh, Aegypten und Nubia, 1941, p. 145- 146.

(١٥) سدنجا:

سدنجا (صادنقة): تقع على مبعدة ٢٠ كيلا شمالي صولب، ١٠٩ كيلا شمالي الجندل الثالث ، ٢٤٥ كيلا جنوبي وادي حلفا، وقد شيد فيها «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ -١٣٦٧ ق.م) لزوجه الملكة «تي» أجمل معابد السودان، ومازال بقاياه - رغم تهدمها - تثير الإنتباه، ولابد أنه كان عند بنائه يضارع معابد الأقصر العظيمة، وكان الطريق الموصل من النيل إلى المعبد تحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدين يعتبران من الكنوز الفنية في المتحف البريطاني، وقد عثر عليها في «برقل» حيث نقلها ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

(١٦) سرس:

تقع سرس (Saras) شمالي سمنة وقمة، وبها حصن كان يسمى «قامع البلاد» ويعرف الآن باسم «شالفاك» (Shelfak) ويشبه حصن «أورو - نارتي» في الشكل، وإن كان أصغر منه حجما، هذا ويحيط بالمدينة سور يتكون من جدارين، تعلوهما أبراج، وجدار طويل يمتد إلى مسافة بعيدة نحو الشمال الشرقي، وقد كانت واجهة هذا الجدار الطويل المواجهة للصحراء هي الأكثر تحصينا - كما هو الحال في حصن «أورو - نارتي» - ويمتد من الشمال والجنوب جداران آخران صغيران،أما البوابة العظمى فتقع في الواجهة الغربية[1].

(١٧) سرة:

وتقع «سرة» - أوسيرا - (تح نخت القديمة) - على مبعدة ١٥ كيلا شمالي وادي حلفا-.

وكان «جحوتي - حتب»- ويحمل لقب «با أتيس» حاكم «تحنوت - سيرة» على أيام الملكة «حتشبسوت» (١٤٩٠ - ١٤٦٨ق.م)، وكان والده أيضا حاكما للمنطقة، مما يدل على أن هذا المنصب كان وراثيا، هذا فضلا عن أن كلا من الأب والابن إنما يحمل إسما محليا، بينما حملت الزوجة وأخو الأمير إسمين

---

(١) والتر امري: المرجع السابق ص ١٥٢، محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٤٠٤

مصريين، الأمر الذى يحمل إشارة ضمنية إلى سرعة الأخذ بأسباب الحضارة المصرية المتقدمة، والتى أصبحت طابع العصر وقت ذاك.

هذا وقد عثر على مقبرة «جحوتى - حتب»، على مبعدة كيلو ونصف شرقى النيل فى قرية «دبيرة» - على مبعدة ٢٠ كيلا شمالى وادى حلفا - منحوتة فى تل من الحجر الجيرى، وقد تم تخطيطها وزخرفتها بطريقة مصرية تماما[١]، وتصور مناظرها الأمير «جحوتى - حتب»، وهو يتفقد العمل فى مزرعته، أو يتلقى فروض الطاعة من أقنانه على الطريقة المصرية أو يمارس القنص بالقوس والسهم فى مركبة يجرها حصان، أو هو يستمتع بمأدبة بين ضيوفه، ولم لم يكن قد نقش إسمه النوبى «باأتيس»، بالإضافة إلى اسمه المصرى «جحوتى - حتب»، لاستحال تمييزه عن أى أمير مصرى من نبلاء الدولة الحديثة- كما أشرنا من قبل - هذا وتوجد على باب المقبرة نقوش تمثل الإله «حور» وربما المعبودة «حاتحور» سيدة فرس و«أنوبيس» إله مدينة الموتى، ذو رأس «ابن آوى»[٢].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مشاركة الأمراء النوبيين فى إدارة بلادهم على أيام الدولة الحديثة، إنما قد ساعد على استمرار ازدهار بيوتات الإمارة فى كثير من مناطق شمالى السودان، تلك الإمارة التى وصلت فعلا إلى درجة من التقدم الحضارى منذ نهاية الدولة الوسطى، وأخذت تنقل عن الحضارة المصرية طوال أيام الدولة الحديثة، لتعد نفسها لدور قيادى فى حياة هذا الوادى، تنقذ فيه الوادى كله من خطر الإنهيار الحضارى، فضلا عن خطر الغزو الذى قدم من الغرب ثم من ا لشرق.

---

(1) T.Save-Soderbergh, The Paintings in The Tomb of Djehutyhetep at Debeira, Kush, 8, 1960, p. 25 - 44.

(٢) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٨٤، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٧ - ٢٧٩، وكذا

H.Wild, in Kush, 7,1959 p. 76F.

T.Save - Soderbergy, op,cit, p. 30.

H.T.Thabit, Tomb of Duehuty- Hetep (Tehuti - Hetep) Prince of Semna, Kush, 5, 1957, p.81 - 86.

JEA, 39, 1953, p. 42.

هذا وتشير أسماء حكام النوبة (نواب الملك فى كوش) إلى أنها مصرية الجرس، ومن ثم فهم مصريون، غير أن هذا لايمنع من القول بأن منهم من كانوا من أبناء النوبة، من أولئك الذين استطاعوا - بمهارتهم وصدق ولائهم - أن يتبوأوا هذا المنصب الخطير[٣].

بقيت الإشارة إلى أن تحوتمس الثالث قد عبد فى سرة، بصفته «معبود سرة» (ع نخت).

وهناك فى «سرة» معبد لرعمسيس الثانى أقيم لصورته الحية فى بلاد النوبة، وأطلق عليه «وسر ماعت رع، سام فى قوته»، مما يشير إلى أن الفرعون نفسه كان معبودا فى هذا المعبد.

(١٨) سمنة:

سمنة: وتقع على مبعدة ٧٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، ٢٠ كيلا جنوب حصن «أورو - نارتى»، وفيها حصن يدعى «خع كاو رع - المبجل - قوى» على الضفة الغربية للنيل، والحصن يقف مهيمنا على النيل، مع الحصن التوأم «قمة» (كمة) على الشاطىء الشرقى، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى جبل من الصخر القوى فى أضيق منطقة للجندل الثانى، والحصن بدىء فى بنائه فى عهد الملك «سنوسرت الأول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ق.م) وأتمه «سنوسرت الثالث»، كما ينسب إلى «أمنمحات الأول» بناء حصن فى سمنة أيضا، كما بنى «سنوسرت الثالث» معبدا من الطين فى سمنة، وهو الذى أعاد تشييده «تحوتمس الثالث» بالحجر للإله النوبى «ديدون» و«خنوم» والملك المؤله «سنوسرت الثالث»، وهو أكثر المعابد القائمة وحدها صموداً أمام البلى منذ ماقبل البطالمة فى وادى النيل بأسره.

وهناك نقش فى سمنة من العام الثامن من حكم «سنوسرت الثالث» يتحدث عن الإجراءات المشددة التى اتخذت لمنع تسرب النوبيين نحو الشمال، وقد جاء فيه «الحد الجنوبى» الذى أقيم فى العام الثامن من حكم ملك مصر العليا والسفلى، «خع كاو رع»، سنوسرت (الثالث)، الذى يعطى الحياة أبدا، لمنع أى

(١) محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق ص ٨٧.

«نوبى» من المرور شمالا - برا أو بقارب - وكذا قطعان ماشية النوبيين، ماعدا أولئك الذين يأتون للتجارة فى «ايكن» - على مبعدة ٤٠ كيلا شمالى حصن سمنة - أو لعمل مشروع يتفق عليه فسوف يقدم لهم كل شيء طيب، على ألا يسمح لأية سفينة بأن تعبر «سمنة» (حح) نحو الشمال».

ولعل من الجدير بالإشارة الى انتشار عبادة الملوك فى النوبة (السودان) - كما وجدت فى مصر على استيحاء، ربما لأسباب سياسية، على أية حال، فلقد بدأت منذ أيام «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م) حيث عبد «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨-١٨٤٣ق.م) بصفته الإله الحامى للنوبة، وربما لم يكن تحوتمس الثالث مبتدعا، فى تأليهه «سنوسرت الثالث» ،وإنما كان متبعا، فلقد عثر على طوابع أختام فى «أورو- نارتى) - على مبعدة ٢٠ كيلا شمالى سمنة، ٥٠ كيلا جنوبى وادى حلفا - باسم الملك «سنوسرت الثالث»، ترجع إلى مابعد الأسرة الثانية عشرة، ومن ثم فقد ذهب «جورج رايزنر» إلى أن «تحوتمس الثالث» لم يعمل أكثر من إحياء الماضى القديم، الأمر الذى قد يشير إلى أن «سمنة» و «أورو- نارتى» إنما كانتا من أماكن عبادة الملك المؤله «سنوسرت الثالث»[1].

وعلى أية حال، فلقد عبد سنوسرت الثالث فى عمدا والليسية وجبل الشمس وبوهن وجبل دوشا - أى من عمدا وحتى دوشا (Dosha).

هذا وقد عبد «تحوتمس الثالث» بصفة معبود «سرة» (خ نخت)، هذا وقد خطى «أمنحتب الثالث) (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م) خطوة أخرى ، فهو لم يبن معابد ضخمة فى «سدنجا» (صدنقا) وصولب فحسب، ولكن «الصورة الحية» له ،إنما كانت تؤدى لها العبادة فى صولب، كما كانت تؤدى لزوجه «تى» فى «سدنجا» ، وقد وصف فى صولب بأنه «سيد أرض القوس» فى قلعة «خع أم

(1) T.Save - Soderbergh, Agypten und Nubia, Lund, 1941, p. 203
وكذا A.J.Arkell, A History of The Sudan, London, 1955, p. 105.

ماعت»، الأمر الذى يشير إلى أنه لم ينظر إليه كمجرد إله محلى، ولكنه الإله الحامى لكل النوبة»، كما عبد «توت عنخ أمون» فى «فرس».

وكان «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) المعبود الرئيسى فى «عكشة» - فيما بين فرس ووادى حلفا - وهناك فى «سرة» معبد لرعمسيس الثانى أقيم لصورته الحية فى بلاد النوبة، وأطلق عليه «وسر ماعت رع، سام فى قوته»، مما يشير إلى أن الفرعون نفسه كان معبودا فى هذا المعبد.

هذا وقد عبد رعمسيس الثانى كذلك فى معبد جرف حسين، كواحد من آلهة المعبد (بتاح وسخمت ونفرتم - ثالوث منف)، كما عبد فى معبد وادى السبوع - مع أمون وحر أختى - وفى معبد أبو سمبل الكبير، أقام الفرعون تماثيل أربعة - لأمون وبتاح ورعمسيس الثانى المؤله ولرع حر أختى - وقصد من ذلك أن يكون على قدم المساواة مع آلهة مصر العظام، وأن يؤدى له مايؤدى لها من شعائر، هذا فضلا عن أنه إنما أراد فى معبد أبو سمبل - وكذا فى معبدى السبوع وجرف حسين - أن يأخذ مكان «خونسو» بن «أمون» فى ثالوث (أمون وموت وخونسو)(٢).

هذا ويسمى حصن سمنه «خع - كاو - رع - المبجل قوى» على الضفة الغربية للنيل، وتقف قلعة سمنة آمرة على النيل، مع الحصن التوأم (قمة - Kumma) على الشاطئ الشرقى، فالنيل فى هذه المنطقة يشق طريقه فى جبل من الصخر القوى، فى أضيق منطقة للجندل الثانى.

---

(٢) محمد بيومى مهران: مصر ٣/٢٧٩ - ٢٨٢، وكذا
T.Save- Soderbergh, op.cit, p. 196 - 205
وكذا W B.Emery, Egypt in Nubia, London, 1965, p 194 - 202
وكذا H.T.Thabit, Kush, 5, 1975, p. 81 - 86.
وكذا A J.Arkell, op.cit, p 106.

هذا ويدل اسم الحصن على أن بناءه إنما تم فى عصر الملك «خع كاو رع» (سنوسرت الثالث)، غير أن التنقيبات إنما دلت على أن النصف الشرقى للبناء قد شيد فى عصر سابق، ربما فى عصر «سنوسرت الأول». (١٩٧١ – ١٩٢٨ ق.م)

هذا وقد بنى حصن سمنة على قمة صخرية على شكل حرف L الافرنجية، على حافة النهر، ومن ثم فتخطيطه غير مستقيم، وقد بنى السور الخارجى الكبير من اللبن، وأساسه من الحجر، ويحيط به من الجوانب الشمالية والغربية خندق واسع جاف، وأما الجدران فسمكها فيما بين ٦، ٨ مترا، ويتخللها بين مسافة وأخرى أبراج عالية ضخمة، ويمكن الوصول إلى المدينة المزدحمة داخل الأسوار عن طريق بوابتين محصنتين من الشمال والجنوب، وتتصل هاتان البوابتان ببعضهما عن طريق يشق المدينة[١].

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه كان فى كل قلعة معبد، ربما كان بنى فى الغالب من الطوب اللبن Mud- Brick، كان يستبدل فى الدولة الحديثة بمعبد صغير يبنى بالحجر الرملى[٢]، وإذا أخذنا مثالا على ذلك من «سمنة» لرأينا «سنوسرت الثالث» يبنى بها معبدا من الطوب اللبن، وهو المعبد الذى أعاد تشييده «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ – ١٤٣٦ق.م) وبناه بالحجر، وكرسه للإله النوبى «ديدون – خنوم» وللملك المؤله «سنوسرت الثالث»[٣].

(١٨) سيسبى:

تقع سيسبى جنوب صولب (على مبعدة ٢٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا)، وقد أنشأها أمنحتب الرابع (إخناتون ١٣٦٧ – ١٣٠ ق.م) – فى مقابل بلدة

(١) والتر امرى: المرجع السابق ص ١٤٧ – ١٤٩، محمد بيومى مهران: مصر ٤٠٤/٢، وكذا
D.Dunham, Semna - Kumma, Boston, 1960
G.A.Reisner, SNR, 12, 1929, p. 143F.
G.Reisner, The Eyptian Forts form Helfa to Semna, Kush, 8, 1960.
(2) A.J.Arkell, op.cit, p. 64.
A.J.Arkell, op.cit, p. 88.

(٣) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٠ وكذا
R.A.Caminos, Surveying Semna Gharbi, Kush, 12, 1964, p. 85.

دلقو (دلجو) - في خلال سنواته الأولى، وقبل أن يغير اسمه إلى إخناتون، شيد مجموعة معابد، تتكون من ثلاثة، وتقوم على أساس مشترك، كونت نواة مدينة صغيرة مسورة، تحتوى على مزار ديني للإله الجديد «أتون».

وهناك مايشير إلى أن كهان أمون - بعد فشل دعوة إخناتون - قد عاد إليهم سلطانهم القديم فى مصر، ومن ثم فقد قاموا بتحطيم كل معابد آتون ولم يبق منها إلا «معبد سيسبى» فى السودان، فقد اكتفوا بتشويه نقوشه.

وعلى أية حال، فلقد كشف عن آثار «سيسبى» كل من «بلاكمان» و«فرمان» فى عام ١٩٣٧م، وقد تبين أنها مدينة أنشأها إخناتون لتكون منطلقا للتبشير بعقيدة التوحيد التى تزعمها[١].

(٢٠) صنم:

تقع «صنم» على الشاطىء الغربى للنيل، على مبعدة ١٢ كيلا من طرفى «زوما» و «بلال» هذا وقد أقام «طهراقا» (٦٨٩ - ٦٦٤) فى «صنم» معبداً ضخما للمعبود «أمون - رع» (ثورتاستى)، كشف عنه «جريفث» (١٨٦٢ - ١٩٣٤م) فى حفائره هناك لحساب «متحف الأشموليين بأكسفورد»، وهو المعبد الوحيد للملوك نباتا فى صنم[٢].

(٢١) صولب:

تقع صولب على الضفة الغربية للنيل، وعلى مبعدة ٢٢٠ كيلا جنوب وادى

---

(١) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٧٦، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٧٠، وكذا:

W.B.Emery, Egypt in Nubia, London, 1965, p. 95

H.W.Fairman, Preliminary Report on The Excavations at Sesebi and Amarah West, Anglo - Egyptian Sudan, 1937 - 1938, JEA, 24, 1938, p. 151 - 156

B.G.Trigger, op.cit, p. 126 - 127.

A.J.Arkell, op.cit, p. 92 - 93.

(٢) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ١٦٣ - ١٦٤، وكذا

F.L.Griffith, LAAA, IX, p. 74 - 76, PM, 7, p. 198F.

حلفـا، ٢٠ كـيـلا جنوبى سـدنجـا، وقـد بنى «أمنحـتب الثـالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ق.م) معبدا فى صولب، يعد أفخم معابد النوبة، وقد كرسه لنفسه ولصورته الحية، ليعبد هناك بجانب الإله أمون رع، وذلك حوالى عام ١٤٠٠ق.م، من الحجر الرملى، وكان عند بنائه يضارع معابد الأقصر العظيمة، وكان الطريق إلى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتية لكباش وأسدين، يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى فى لندن، وقد نقلت هذه التماثيل إلى جبل البرقل - ربما على أيام الملك بعنخى من الأسرة الخامسة والعشرين.

وفى الواقع فإن إقليم النوبة إنما يشهد - فى حقيقة الأمر - بقوة ووضوح على عظمه الفرعون «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ - ١٣٦٧ق.م)، فهو لم يبن هناك معابد ضخمة فى «سدنجا» - على مبعدة ١٠٩ كيلا شمالى الجندل الثالث، ٢٠٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، و«صولب» - على مبعدة ٢٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، ٢٠ كيلا جنوبى سدنجا (صادنقة) - فحسب، ولكن «الصورة الحية» للفرعون إنما كانت تؤدى لها العبادة فى «صولب»، كما كانت تؤدى لزوجه «تى» فى سدنجا، التى جعل منها الإلهة الراعية للنوبة.

وعلى أية حال، فلقد شيد «أمنحتب الثالث» فى «صولب» على الضفة الغربية للنيل، أجمل معبد فى السودان وقد بناه بالحجر الرملى، على أساسات غير متقنة. ومع ذلك فمازالت بقاياه مثيرة للإنتباه، رغم حالته المتهدمة، ولابد أنه كان عند بنائه يضارع معابد الأقصر ا لعظيمة، ولاعجب فالتصميم لنفس المهندس، وقد كان الطريق الموصل إلى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتيه لكباش وأسدان يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى، وقد عثر على هذه التماثيل فى برقل (بركل) حيث نقلت على أيام الأسرة الخامسة والعشرين (٧٥٠ - ٦٥٦ق.م).

هذا وقد كرس «أمنحتب الثالث» معبده فى «صولب» - أفخم معابد النوبة قاطبة -- كرسه لنفسه ولصورته الحية، ليعبد هناك، بجانب الإله «أمون رع»، بل

إن الرجل إنما رفع زوجه الملكة «تى» إلى مرتبة التقديس حيث شيد لها معبد «سدنجا» كذلك، غير أن الفرعون لم يعبد هناك فيما يرى البعض، كما كان يأمل، وأن تعبد بعض الموظفين لتمثاله على أيام حياته.

وعلى أية حال، فلقد شيد «أمنحتب الثالث» معبده فى «صولب» (حوالى عام ١٤٠٠ ق.م) من الحجر الرملى، وكان يتقدمه طريق تحف به تماثيل الكباش، يؤدى من الميناء إلى ردحة أمام صرح من خلفه فناء، تحيط به الصفات، ويفضى الصرح إلى بهو أساطين، يشتمل على ثمانية وأربعين أسطوانا فى ستة صفوف، وكان من وراء ذلك بهو ثان، ثم بقية أجزاء المعبد، غير أنها تهدمت[1].

(٢٢) عكاشة:

عكاشة: عثر على آثار خاصة بالمجموعة الثالثة، وكانت الحرفة الرئيسية لأصحابها رعى البقر وغيرها من الحيوان، كما تميزت بنوع خاص من الصناعات اليدوية أهمها الفخار، وخاصة القدور السوداء ذات الخطوط البيضاء المتقاطعة، فضلا عن تلك الدمى الصغيرة من الطين والتى تمثل الحيوان والإنسان، والتى

---

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٢٦٣/٣، والتر امرى: المرجع السابق ص ١٩٦ – ١٩٨، محمد أنور شكرى: العمارة فى مصر القديمة ص ٢٠٤، جيمس بيكى: المرجع السابق ص ١٨١ – ١٨٢، وكذا

A.H. Gardiener, Egypt of The Pharaohs, p. 205.
PM, 7. p. 166-169, 169 - 172.
J.Vandier, Manuel d'archeologie Egyptienne, Paris, II, p. 968.
A.J.Arkell, op.cit, p. 91 - 92.
B.G.Trigger, op.cit, p. 118.
I.E.S. Edwards, The Prudhoe Lions, AAA, 25, 1939, Pls, I.II.
M Schiff Giorgin, Report on The Excavations at Soleb, Kush, 6, 1958, 7, 1959, 8, 1960, 9, 1961, 10; 1962
M.S. Giorgin, Premiere Campagne de Fouilles Sedeings, 1963-1964, in Kush, 13, 1965, p. 116 - 123.

لانجد لها مثيلا فى حضارة كرما، هذا إلى إن القوم إنما كانوا يتحلون بأقراط مصنوعة من الصدف، كما صنعوا نوعا من الزينة على شكل محابس، إلى جانب استعمالهم لخرز الزينة، وقد اتخذت مقابرهم شكلا مستديرا جعلها متشابهة فى المنظر، كما عثر على مقابر خاصة لبعض الحيوانات كالكلاب أو الكباش، مدفونة بعناية خاصة، أو مع أصحابها فى مقابرهم، مما يشير إلى نوع من التقديس لهذه الحيوانات.

(٢٣) عكشة:

تقع عكشة فيما بين وادى حلفا جنوبا، وفرس شمالا، وقد عثر على معبد يرجع إلى أيام «سيتى الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق.م) ورعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)[1].

(٢٤) عمارة غرب:

تشير «لوحة كوبان» - وكذا الحفريات - أن «سيتى الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ق.م) هو الذى شيد مدينة «عمارة غرب»، وأن ولده «رعمسيس الثانى» هو الذى بنى معبدها[2].

هذا وكانت النوبة على أيام الرعامسة (الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين) تنقسم إلى قسمين، الواحد: النوبة السفلى، وتسمى «واوات»، وتمتد من جنوب أسوان وحتى «سمنة» - على مبعدة ٧٠ كيلا جنوبى وادى حلفا - وكانت عاصمته «ميعام» - وهى عنيبة، على مبعدة ٢٢٤ كيلا جنوبى سد أسوان -.

وأما الثانية ، فهى النوبة العليا، وتسمى «كاش»، وقد حرفت فيما بعد إلى «كوش»، وتمتد من الجندل الثانى، عند سمنة، وحتى نهاية النوبة جنوبا،

(1) B.G.Trigger, op.cit, p. 125.
A.J.Arkell, op.cit, p. 96.

(2) H.W.Fairman, Preliminary Report on The Excavations at Amara West, Anglo - Egyptian Sudan, 1938-1939, JEA, 25, 1939, p. 139- 144 and 1947-1948, JEA, 34, 1948.p. 1-11.

وعاصمتها «عمارة غرب» – على مبعدة ١٨٠ كيلا جنوبي وادى حلفا–[١].

وهناك ما يشير – على أن «سيتى الأول» (١٣٠٩– ١٢٩١ق.م) هو الذى شيد مدينة عمارة غرب وأن ولده «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ – ١٢٢٤ق.م) هو الذى بنى معبدها وكانت النوبة على أيام الرعامسة قد انقسمت إداريا إلى قسمين، النوبة السفلى، وعاصمتها «عينية» والعليا وعاصمتها «عمارة غرب»، وكانت تشرف على الطريق الصحراوى من نهرى النيل إلى واحة سليمة، وقد أجريت فيها حفائر فيما بين عامى ١٩٣٩، ١٩٤٧م.

ولعل من الجدير بالإشارة أن الأمر فى «عمارة غرب» لم يحتلف عنه فى «سيسبى» إذ لم يبق الكثير فى المدينة، نتيجة للعوامل الطبيعية وخاصة الرياح، ومع ذلك فقد قدمت حفائر «فرمان» عام ١٩٣٩م فى الموقع كثيرا من النتائج[١].

ولعل من الجدير بالإشارة أن «دونبار» – أحد موظفى الحكومة السودانية وقت ذاك، أى أثناء المسح الأثرى الثانى – إستغل وظيفته فأمضى وقتا فى النقل باليد وتصوير النصوص التى لاحصر لها والمناظر التى وجدها على الصخور على شاطىء النيل بإسهاب، ثم سجل ما اكتشفه، وهو جهد قيم، فى سجلات مصلحة الآثار المصرية، مما ظل بعد ذلك أساسا للعمل فى هذا الأمر، بل عملا ممتازا باعتباره إطار لأى أبحاث جديدة فى هذا الفرع من آثار النوبة[٢]

(٢٥) عنيبة:

كشف فى عنيبة (ميعام القديمة) – وتقع على مبعدة ٢٢٤ كيلا، جنوبى

---

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٢٥٩/٣، وكذا

E.Zyhary, The Countries of The Ethiopion Empire of Kash (Kush) and Egyptian Old Ethiopaian in The New Kingdom, in Kush, 6, 1958, p. 11.

R.O.Faulkner, A, Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1972, p. 53, 264.

(٢) وولتر امرى: المرجع السابق ص ٩٥ – ٩٦

الجندل الأول – عن البقايا العارية التى لاتتعدى أساسات الحصون الكبيرة، ونواة القوة المحصنة التى بناها «سنوسرت الأول»، وتشبه فى شكلها وحجمها حصن «بوهن»، فهو مستطيل الشكل، وله جدران ذات أبراج، وحاجز قصير له شرفات نصف دائرية، وخندق جاف، كما فى قلعة بوهن، مما يشير إلى أن العمل لنفس المهندس فى القلعتين[1].

هذا وقد كشف عن لوحة ترجع إلى العام الخمسين من حكم «تحوتمس الثالث»، يظهر فيها الفرعون أمام «حور ميعام» والإلهة «ساتيس».

وفى عصر الرعامسة نرى «بننوت» أمير ميعام (عنيبة) – عاصمة النوبة السفلى وقت ذاك – قد شيد مقبرته المنقورة فى الصخر، والتى تميزت بأنها مقبرة أحد كبار الموظفين، وكان من النادر جدا أن يدفن موظف مصرى كبير فى النوبة، فالمقابر الصخرية البسيطة غير المنقوشة – كما فى بوهن – إنما كانت لموظفين مصريين صغار، أو لنوبيين أغنياء، ذلك لأن فكرة الدفن خارج مصر كانت غير مقبولة للذين كان فى وسعهم أن يدفنوا بمصر.

(٢٦) فرس:

فرس: تقع «فرس» (باخوراس Pakhoras القديمة) على مبعدة ٢١ كيلا شمالى وادى حلفا، ٤٠ كيلا جنوبى الجندل الثانى، وقد عثر فيها على آثار مصرية فى مقابر المجموعة الأولى، وترجع إلى عهدى الملكين «جر» و«جت» من الأسرة الأولى، كما كشف عن جعارين تحمل اسم «كاموزا» وقد شيدت الملكة «حتشبسوت» معبدا فى فرس كرسته للمعبودة «حاتحور»، كما بنى «تحوتمس الثالث» أيضا معبدا فى فرس، أقيم على أطلال معبد من الدولة الوسطى، كما تدل النقوش التى عثر عليها فى «تحنوت – سرة» على أن هذه المنطقة كانت مقرا لأسرة محلية حاكمة، كما بنى «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ – ١٣٣٩ ق.م) معبدا ومستوطنة فى فرس، وكانت فرس عاصمة لمقاطعة اسمها «أكين» Akin

(١) والتر امرى: المرجع السابق ص ١٥٥ –١٥٧.

وكذا: G.Steindorff, Aniba, Cairo, 1937, p. 2F

وكذا A.J.Arkell, op.cit, p. 62.

وتقابل النوبة السفلى حاليا، وقد أظهرت الحفريات بعض المبانى الرسمية، كالقصر الغربى، ويرجع إلى القرن الأول الميلادى، هذا فضلا عن حصن شيد على ضفة النهر.

وقامت فى فرس مملكة «النوباديين» (Nobadae) التى أسسها الملك «سلكو» (حوالى عام ٣٥٠م)، وتمتد من أسوان إلى قرب الجندل الثالث، وعاصمتها فرس، وقد كشفت البعثة البولندية (١٩٦٢/٦١) عن عدة مبان مسيحية.

(٢٧) قمة:

تقع فى مقابل سمنه – عبر النهر – على مبعدة ٧٠ كيلا جنوب وادى حلفا – ويعرف حصنها باسم «باعد الأقواس»، وتصميمه العام مربع، وهو أصغر من حصن سمنة، الذى يكّون وحدة دفاعية واحدة، ورغم أن تصميمه أبسط، إلا أنه من نفس العصر، وكان له مدخل واحد من الجانب الشمالى الشرقى، غير أن اختفاء هذا الجزء من الحصن، جعل شكل المدخل غير معروف لنا، على أن هناك فى الركن الشمالى الغربى بوابة نهرية تتصل بالنهر عن طريق ممر مغطى(١).

(٢٨) كاوا:

كاوا: هى الكوة الحالية، على الضفة الشرقية للنيل، وعلى مبعدة ٤ كيلا جنوبى دنقلة الحديثة (دنقلة العرضى)، ٣٢ كيلا جنوبى «أرقو»، وهى مدينة كبيرة قديمة، بها معابد كثيرة تشير إلى تاريخ طويل.

---

(١) والتر امرى: المرجع السابق ص ١٤٩، وكذا:
D.Dunham and J M A. Janssen, Secand Cataract For I, Sem- ١٩٦٠, Boston, na,

وهناك فى «كـاوا» أسس «إخناتون» (١٣٦٧- ١٣٥٠ق.م) مـدينة «جم أتون» (وجود أتون)، والتى كانت بمثابة المركز الثالث لدعوة التوحيد - بجانب المركز الرئيسى فى مصر فى العمارنة (أخيتاتون)، ومركز ثان فى غربى آسيا - ربما فى بيت المقدس أو بيت شمس - وربما كان إسم «جم أتون» نسبة إلى معبد أتون فى طيبة (الأقصر الحالية)، كما أقام «توت عنخ آمون» (١٣٤٧ - ١٣٣٩ق.م) معبدا صغيرا فى «كاوا»، وقد عثر «حريفث» فى «كاوا» على مجموعة من النصوص تلقى مزيدا من الضوء على سياسة «طهرقا» فى إقامة المعابد وتزويدها بالموظفين والسدنة، وتقديم القرابين النفيسة، ومنح أثمن الهدايا تقربا للآلهة.

وعلى أية حال، فمن الموكد أن داعية التوحيد إنما أسس المركز الثانى لدعوته فى هذه المدينة فى النوبة، وليس بعيدا أن يكون الفرعون قد أنشأ تلك المستعمرة فى وقت متأخر من حكمه، إذ لم يعثر على أى بناء قبل عصر «توت عنخ آمون» الذى بنى معبدا هناك، على أن هناك من يرى أن «أمنحتب الثالث» هو الذى أسس مدينة «كاوا»، وأن ولده إخناتون سماها «جم آتون»[١].

هذا وقد شيد «توت عنخ آمون» معبدا صغيرا فى «كاوا» إغتصبه فيما بعد «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ق.م)[٢]، كما بنى «حوى» نائب الملك فى النوبة على أيام «توت عنخ آمون» معبدا ومستوطنة مسورة فى «فرس»[٣].

---

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٢٦٤/٣.
وكذا B.G.Trigger, op cit, p. ١٢٨ - ١٢٩ وكذا A J.Arkell, op.cit, p ٩٣
وكذا M F.L.Macadam, The Temples of Kawa, I, Oxford, 1949, p p XII

(2) M F L. Macadam, op cit, p ١٢
وكذا A.J.Arkell, op cit, p. ٩٣
وكذا B G Trigger, op cit, p. ١٢٨ - ١٢٩

(3) F.L. Griffith, Oxford Exavations in Nubia, LAAA, 8, 1921. p. 83.
C.D.Noblecourt, op.cit, p. 191

(٢٩) كوش:

لعل من الجدير بالإشارة أنه قد ظهر في النصوص المصرية - ولأول مرة - الإسم الجغرافي «كاش» - والذى حرف فيما بعد إلى كوش - ويعنى فى الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ق.م) إقليما إداريا متيمزا عن «واوات» يمتد إلى الجنوب فيما وراء الجندل الثانى، بينما يقصد به فى التوارة «أثيوبيا» عامة، وذلك فى مقابل تسمية النوبة السفلى «واوات»، وتمتد فيما بين الجندل الأول والثانى[١].

هذا وقد قامت مملكة كوش المستقلة على أيام الهكسوس (١٧٣٠ - ١٥٧٥ق.م)، ولعل استقلال كوش فى تلك الفترة إنما يفسر لنا سبب انتشار العناصر المميزة لحضارة كرما فى منطقة المجموعة الثالثة فى أخريات مراحلها، مما يدل على سقوط الحواجز السياسية بين أصحاب المجموعة الثالثة فى منطقة النوبة السفلى، وبين أصحاب حضارة كرما من حول الجندل الثالث، والتى امتدت إلى مناطق أخرى، شمالا وجنوبا، وذلك بعد أن انضمت الحضارتان تحت لواء أصحاب حضارة كوش[٢].

وأما وثائق تاريخ دولة كوش، فكلها وثائق مصرية، ومن عجب أن السودان لم يمدنا بمعلومات تاريخية ذات قيمة عن تلك الفترة (١٧٣٠ - ١٥٧٥ ق.م)، ومن ثم فإن عمادنا الأساسى إنما هو المصادر المصرية.

وأهمها:

١- لوح كارنارفون ٢- لوح الكرنك، ثم هناك فى المرتبة الثانية:

١- لوح إياح وسر ٢- لوح سويد حور[٣].

وأما عاصمة كوش: فلقد كان الرأى التقليدى أن مدينة «بوهن» إنما كانت عاصمة إمارة كوش المحلية، غير أن هناك اتجاها جديدا يذهب إلى أن العاصمة إنما

---

(١) محمد بيومى مهران: مصر ٣٩٨/٢.

(٢) محمد ابراهيم بكر: المرجع السابق ص ٥٩.

(٣) محمد بيومى مهران: تاريخ السودان القديم ص ٤٣ - ٢٤٩.

كانت «كرما»، إعتمادا على أن الاسم الجغرافي «كوش» (كاش) إنما يرتبط بكرما، فضلا عن أن الرموس التي في كرما، إنما تظهر بوضوح أنها مدافن حكام وطنيين أقوياء كانت لهم علاقات تجارية ودبلوماسية مع ملوك الهكسوس في مصر، ومن ثم فإنه يبدو مرجحا أن «كرما» إنما كانت عاصمة مملكة كوش[1].

وأما حدود مملكة كوش، فقد امتدت شمالا حتى إليفانتين، وجنوبا حتى منطقة الجندل الثاني، غير أن المعلومات التي يمكن استنتاجها من لوحة (Ha'ankhef) – والذى كان في خدمة أمير كوش – أن سلطانة ربما امتد جنوبا حتى «كرما»[2].

وأما عن علاقة مصر ومملكة كوش، فمن المعروف أن كوش قد انتهزت فرصة تراخي قبضة الحكام المصريين على أيام الإنتقال الثاني لزيادة حجم التجارة التي كانت تعود عليها بالنفع بين وادى النيل الأعلى والأدنى، وهكذا وجدت آثار لاتحصى من طين الأختام المستخدم في ختم الرسائل، وعدد من مختلف الأدوات الأخرى المستوردة من الشمال، قد عثر عليها في كرما، وفي الحصون التي لم تهجر أثناء عصر الإنتقال الثاني على عكس ماكان شائعا من قبل، أو أنها هجرت في فترة متأخرة نسبيا، ولفترة لم تطل كثيرا، هذا فضلا عن أن الحاميات في عصر الدولة الوسطى كانت تستبدل على فترات منتظمة، أصبح الذين يحتلونها في عصر الإنتقال الثاني قاطنين مستديمين في النوبة، تستقر معهم أسرهم، بل ويدفنون هناك، وربما اتجهو بالتدريج إلى الإعتراف بسيادة ملك كوش، ولما كان هؤلاء من أصل مصرى، فلابد أنهم قاموا بجهد كبير لنشر الثقافة المصرية في مجتمعهم

---

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق ص ٢٦٤.

وكذا A.J.ARKELL, OP.CIT, P. 72

وكـــذا G.POSENER, Pour une Localisation du Pays Koush au Moyen Empire Kush, 6, 1958,p. 39.

(2) B.Gunn, A Middle Kingdom Stela form Edfu, ASAF, 29, 1929, P. 8 - 10.

T.Save - Soderbergy, JEA, 35, 1949, p. 57 - 58

وانظر: G.Posner, Kush, 6, 1958, p. 56.

الجديد هذا[١].

وهناك مايشير إلى أن الصلات بين كوش والهكسوس كانت على أوثقها - كما فى رسالة ملك الهكسوس (أبوفيس) إلى أمير كوش [٢]- وقد وجد على طول الممر النوبى جعارين وأختام تحمل أسماء الملوك الأسيويين الذين كانوا يحكمون مصر وقت ذاك، وهى فى «كرما» نفسها من الكثرة حتى ظن البعض لفترة ما، أن النوبة قد اجتاحها الهكسوس، بعد أن أخضعوا مصر العليا، غير أننا نعرف الآن أنه كان لأفارقة النيل الأوسط صلات وثيقة جدا مع أسيويى الدلتا، لدرجة أن ملوك الأسرة السابعة عشر الطيبية عندما بدأوا حرب التحرير، واسترداد مصر الوسطى والسفلى، إتجه ملك الهكسوس بصورة طبيعية بطلب العون من حليفه الأفريقى - أمير كوش - والقيام بعمل عسكرى مشترك ضد عدوهما المشترك - ملك مصر-.

على أن علاقة الكوشيين بحكام طيبة الوطنيين إنما كان يشوبها العداء، ويميزها التكامل فى نفس الوقت، فالطيبيون الذين كانوا فى خدمة ملك كوش إنما حملوا معهم خدماتهم الفنية إلى النوبة الوسطى، كما أن وجود الكثير من المصريين المرابطين فى قلاع النوبة السفلى، قد كفل بقاء كوش على اتصال بحكام الهكسوس فى الشمال، هذا فضلا عن أن أواخر ملوك الأسرة السابعة عشرة الطيبية قد استخدموا المرتزقة المجاى (المدجايو) فى جيوشهم سواء فى كفاحهم لتوحيد مصر العليا، أو فى حروبهم ضد الهكسوس، وكان هؤلاء المرتزقة الذين جاءوا من الصحراء النوبية ينتمون، عرقيا وثقافيا، إلى النحسيو المستقرين على ضفاف النهر.

---

(١) شحاته آدم، جان فركوتير: المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٢) أنظر: محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٩٢ - ١٩٣

وكذا: A.H.Gardiner, op.cit, p. 167 - 168

وكذا: L Habachi, ASAE. 53, 1955, p. 201 - 202.

وهكذا يبدو واضحا أن النوبيين قد وجدوا فى مصر، كما وجد المصريون فى النوبة، طوال عصر الإنتقال الثانى، الأمر الذى ساعد على نشاط العلاقات التجارية والثقافية، وبالتدريج تحول الممر النوبى إلى بوتقة امتزجت فيها العناصر الأفريقية وعناصر البحر المتوسط، وانتجت ثقافة مختلطة، غير أن هذه الصلات القوية إنما قد أسفرت عن نتائج خطيرة بالنسبة لتطور مملكة كوش الأولى فى كرما، ذلك أن ملوك التحامسة فى الأسرة الثامنة عشرة المصرية، إنما قد أدركوا بعد طرد الهكسوس أن وجود مملكة قوية على حدود مصر الجنوبية أمر يمكن أن يمثل خطرا على مصر نفسها، وقد رأوا من قبل أن تحالفا عسكريا من الهكسوس والكوشيين، كان من الممكن أن يقضى على آمال طيبة فى طرد الهكسوس من مصر، خاصة وأن ذلك التحالف إنما كان إبان حرب التحرير نفسها، هذا فضلا عن أن الخطر الآسيوى كان مايزال محتملا، حتى بعد تقهقر الهكسوس إلى فلسطين، ومن ثم فقد لجأت مصر إلى سياسة التدخل العسكرى المنظم فى الشرق الأدنى القديم[1].

هذا وتسجل نقوش القائد الكابى «أحمس بن إبانا» بمقبرته فى الكاب ثلاث حملات على النوبة فى عهد «أحمس الأول»، استطاع الفرعون بعدها إستعادة سيادة مصر هناك.

وهكذا رأينا أحمس يمد نفوذه إلى الجنوب عن بوهن بأكثر من ١٦٠ كيلا، حيث وجدت آثار تحمل إسمه وإسم زوجته[2].

(٣٠) كوبان:

تقع كوبان وحصنها على الضفة الشرقية للنيل، على مبعدة ١٠٨ كيلا، جنوبى أسوان، ويعرف حصن كوبان باسم «حصن باكى»، وقد كشف عنه

---

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السبق ص ٢٤٤.

(٢) محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٢٠٤ - ٢٠٨.

وكذا T.G.H.James, CAH, II, Canlridge, 1965, p. 11- 13.

J.A.Arkell, JEA, 36, 1950. p. 27 - 30.

T.Save- Soderliergh, JEA, 35, 1949, p. 50 - 58.

«إمرى» فى عام ١٩٣٠، وهو يشبه حصن بوهن إلى حد بعيد، وقد غرق تحت مياه خزان أسوان.

هذا وقد عثر على حصن من نفس الطراز على الضفة الغربية للنيل عند «إكور» (IKKur) على مبعدة بضعة أميال إلى الشمال من كوبان، وهو يكّون مع حصن كوبان وحدة واحدة، ومن ثم فقد حمل نفس الاسم «باكى» على أن الحصنين لم يكونا معسكرين، وإنما كانا محطة تجارية، ومقراً للبعثات إلى مناجم الذهب فى وادى العلاقى، إلى جانب صد أى هجوم لأية قوة تأخذ طريق وادى العلاقى، عبر الصحراء، من «أبو حمد» بغية أن تتحاشى حصون الحدود الجنوبية عبر النهر.

هذا ويذهب «إمرى» إلى أن «سنوسرت الأول» (١٩٧١ – ١٩٢٨ ق.م) هو الذى بنى حصون «أكور» و«كوبان» و«بوهن» و«سمنة» لحماية الطرق التجارية[١].

(٣١) كرجوس:

تقع «كرجوس» على مبعدة ٨٠ كيلا جنوبى مدينة «أبو حمد» الحالية – عند نهاية الطريق الصحراوى الذى يبدأ عند «كورسكو» أو «كوبان» – على مبعدة ١٠٨ جنوبى أسوان – فى النوبة السفلى، ويختصر المسافة بتجنب المرور فى منطقة الجنادل – من الثانى وحتى الرابع – وقد صور الفرعون تحوتمس الأول فى نقش كرجوس هذا، على هيئة أسد أمام الإله «أمون راع»، ومن ثم فأكبر الظن أن قلعة كرجوس إنما قد بنيت فى عهده، كما أقام حولها أسوارا طولها ٧٠٠ مترا[٢].

---

(١) أنظر: A.J.Arkell, op.cit,p. 62.

وكذا: W.B. Emery, Nubian Treasure, p. 20.

C.M.Firth, The Archaeological Survey of Nubia Report for 1908 - 1909, Cairo, 1912, p. 22 F.

وكذا: T.Save - Sodenbergh, op.cit, p. 1-3.

(٢) محمد ابراهيم بكر المرجع السابق ص ٦٦، محمد بيومى مهران: المرجع السابق ص ٢٦٠، وكذا:

A.J.Arkell, op cit, p. 36 - 39

=

(٣٢) كرما:

لعل من الجدير بالإشارة أنه رغم أن هناك من يذهب إلى أن المركز التجارى فى «كرما» إنما قد أنشئ فى عهد الدولة القديمة، فمن المرجح أنه أنشئ فى عهد «أمنمحات الأول» (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) حتى أطلقت النصوص على أسواره «أسوار أمنمحاب المبجل»، وهى حصن كبير مبنى بالطوب على هيئة حوش كبير، ذى جدران ضخمة عالية، تستطيع صد أية غارة من الصحراء وتجعل جاليتها التجارية تعيش فى أمن وأمان، وقد كان لهذا المركز من الأهمية مما جعل فرعون يولى عليه أحد كبار موظفيه، ومن أشهرهم «حعبى زفاى»، وهو أحد أمراء أسيوط.

وأما «حضارة كرما» - جنوبى الجندل الثالث بمسافة قصيرة، وعلى مبعدة ٢٤٠ كيلا - فى خط مستقيم - إلى الجنوب من «سمنة»، حيث عثر على مخلفاتها - فهى تشبه حضارة المجموعات - الأولى والثانية والثالثة - فى أنها لم تترك آثاراً مكتوبة، كعدم معرفة أهلها بالكتابة، ومن ثم فقد انصبت كل مجهودات العلماء على الحفائر، وما تكشفه من مخلفات.

هذا وقد انتشرت حضارة كرما فى منطقة دنقلة العرضى (دنقلة الحديثة) بل من الجندل الثانى فى الشمال، حيث لم تكتشف مواقع تحتوى على نماذج من حضارة كرما فى النوبة إلا فى أماكن ينتهى امتدادها شمالاً عند مرجيسة (أو مرقيسة)، مما يشير إلى أن منطقة الجندل الثانى كانت هى الحد الفاصل بين حضارة كرما وحضارة المجموعة الثالثة، وأما فى الجنوب فقد وصلت إلى جزيرة «أرقو» على مبعدة ٣٢ كيلا شمالى كاوا[١].

B.G.Trigger, op.cit,p. 108.

A.J.Arkell, A History of The Sudan from Earliest Times to 1821, 1955, p. 84 - 85.

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٤، نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٤، وكذا:

J. Vercoutter, Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964, p. 59.

هذا وقد بدأت أولى مراحل حضارة كرما بنهاية الدولة القديمة، وانتهت آخر مراحلها بقيام الدولة الحديثة، وبداية تمصير النوبة، أى فى الفترة (حوالى ٢٢٨٠ - ١٥٧٥ ق. م)، وكانت سماتها المميزة أوعية فخارية رقيقة على درجة رفيعة من الصقل، لونها أحمر، وحوافها العليا سوداء، وقد شكلت على عجلة صانع الفخار، هذا فضلاً عن أوان من فخار على هيئة حيوانات، وأخرى محلاة بزخارف حيوانية، وخناجر نحاسية خاصة ومصنوعات خشبية مطعمة بالعاج والميكا فى أشكال زخرفية، وحلى مخيطة على قلانس جلدية[١].

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه رغم أن كثيراً من الأوانى الفخارية المكتشفة فى كرما، إنما تشير، دونما ريب، إلى تراث محلى، غير أن تأثير التقنيات الصناعية، والتصميمات المصرية، إنما هو جد واضح[٢]، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن كثير من هذه المخلفات إنما هو من إنتاج صناع مصريين، وإن كنا نستطيع القول بأنها ربما صنعت استجابة للذوق المحلى بأيدى صناع محليين تدربوا على التقنيات المصرية[٣].

وعلى أية حال، فلقد وجدت أيضاً فى مخلفات القوم صناعات خشبية مطعمة بالميكا (المايكا) أو العاج، فى هيئة صور لحيوانات وطيور، هذا فضلاً عن مساند للرأس، تتميز عن مثيلاتها المصرية بأن قاعدتها طويلة نسبياً، على عكس المساند المصرية ذات القاعدة القصيرة، وذلك لأنها إنما كانت تستعمل داخل توابيت الدفن، التى لايسمح اتساع عرضها بقواعد طويلة لمساند الرأس[٤].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن السمة المميزة لثقافة كرما هى شعائر الدفن حيث تتسم المقابرة برمس ترابى مقبب تحيط به حلقة من الحجارة السوداء، منثور عليها حصى أبيض، هذا ويتكون أحد الرموس الكبيرة فى مقبرة كرما (ك٣)

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(2) B. G. Trigger, History and Settement in Lower Nubia, New Haven, 1965, p. 103.

(3) A. J. Arkell, op. cit., p. 74.

(٤) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٧

من جدران دائرية من الآجر، قطرها ٩٠ متراً، ولم يتعد ارتفاعها ٣ متراً، وهناك جداران متوازيان يمتدان عبر القبة من الشرق إلى الغرب، مكونان ممراً وسطاً يشطر القبر شطرين، بينما تمتد إلى الخارج جدران أخرى متوازية، ومتعامدة على جانبي هذا الممر، متجهة إلى محيط الدائرة شمالاً وجنوباً، وفي منتصف الجدار الجنوبي للممر، باب يفضي إلى بهو يؤدي إلى غرفة الدفن الرئيسية في الجانب الشرقي منه، وكان جثمان صاحب الرمس يسجى على سرير على الجانب الأيمن، توضع فوقه وسادة رأس خشبية، ومروحة من ريش النعام ونعلان، كما يوضع عدد كبير من الأواني الفخارية بجانب السرير، وحول جدران الغرفة، وقد عثر في منطقة الدفن في كرما على مقاصير مبنية من الطوب، وتحمل صوراً مرسومة، وكانت بمثابة أماكن لإقامة الطقوس الخاصة بجميع مقابر الجبانة(١).

هذا وتمثل المقابر الصغيرة في حضارة كرمة، تلك المقبرة التي عثر فيها على «خنجر» (بمتحف الخرطوم رقم ١٢٢٨)(٢)، وقد دفن صاحبها على سرير (عنقريب) على جانبه الأيمن، والرأس إلى الشرق، واليد اليمنى أسفل الرأس، وأما الخنجر فقد وجد ملقى بين الساقين مما يشير إلى أنه كان في الأصل متصلاً بحزام الوسط، كما عثر في المقبرة على بعض القدور الفخارية، ومروحة من ريش النعام، وبعض حبات الخرز، فضلاً عن زوجين من القرون كل منهما من قرني الحيوان المتصلين بعظام الجبهة وعادة ما كانت تلون بالجير، ويرسم فوقها بعض الزخارف البسيطة، والتي ربما أعدت لغرض دنيوي، هذا وقد دفن مع الميت شخصان ضحي بهما، ومعهما كبشان، وأما الخنجر فقد صنع من البرونز (النحاس والقصدير) بطريقة الضرب على المعدن الساخن، وله مقبض من العاج يثبت

(١) نجم الدين محمد شريف: المرجع السابق، ص ٢٦٦، محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٧، وكذا:

J. Vercoutter, Excavations at Sai, 1955 - 1957, Kush, VI, 1958, p. 144 - 169.

(2) J. Vercoutter, A Daggar from Kerma, Kush, VIII, 1960, p. 265, (X- Group)

بالسلاح بأربعة مسامير، تدخل في ثقوب السلاح والمقبض معاً[1].

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن طريقة الدفن في حضارة كرما، وما عثر عليه من صناعات يدوية متقنة، إنما تشير إلى أن حضارة كرما، إنما قد امتازت عن حضارة المجموعة الثالثة في الشمال، بنظام مركزى قوى، ونظام داخلى متقدم، فقد كان يتزعم أهلها أمير، تحت إمرته جهاز إدارى، غير أن عدم وجود وثائق مكتوبة، - بسبب عدم معرفة القوم للكتابة - إنما كان سبباً فى عدم تحديد أسماء وأنساب أولئك الحكام أصحاب تلك المقابر الضخمة فى كرما، فضلاً عن معرفة الكثير عن طريقة تفكيرهم ومستوى حضارة قومهم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أصحاب حضارة كرما، إنما قد مارسوا عادة «التضحية البشرية»، وإن اختلف عدد المضحى بهم من الخدم والأتباع والحيوانات الأليفة من شخص لآخر، ففى المقابر الكبيرة بلغ عدد من دفنوا مع سيدهم عنوة، ما بين ٢٠٠، ٣٠٠ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال، وأما المقابر الأصغر شأناً، فقد تفاوت عدد الضحايا فيما بين ١، ١٢ شخصاً، وعلى أية حال، فلقد كان الضحايا يتركون فى أرضية غرفة الدفن الرئيسية، وفى الدهليز الكبير داخل المقبرة، فى غير نظام، وربما كانوا يعطون مخدراً قوياً، ثم يزج بهم عنوة، ويغلق عليهم القبر[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أصحاب حضارة كرما، إنما هم الأصل فى قيام الحضارات المستقلة فى شمال السودان فى الفترة فيما بين سقوط الدولة الوسطى وقيام الدولة الحديثة فى مصر، أى أنه ليس بمستبعد أن أهل سهل كرما والمنطقة المحيطة به، هم أصحاب «دولة كوش» التى عاصرت حكم الهكسوس فى شمال مصر[3]، والتى حاول «أبو فيس» ملك الهكسوس أن يعقد معهم حلفاً ضد أمراء طيبة[4].

---

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) انظر عن الهكسوس (محمد بيومي مهران. حركات التحرير فى مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٠ - ٢٢٣)

(٤) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣، وكذا.
L. Habachi, ASAE, 53, 1955, p. 201 - 202.

وعلى أية حال، فهناك مبنيان من الطين فى الدفوفة، ينتميان إلى حضارة كرما، أحدهما يمثل قصر أمير كرما، وهو مبنى ضخم من اللبن، وتشير نتائج الحفريات إلى أن المدينة فى اقليم كرما، كانت أشبه ما تكون بالمدينة المصرية، فقد كانت هناك مثلاً صناعة محلية لأدوات مصرية، كانت تجد سوقاً رائجة فى الجنوب، وقد أثرت الثقافة المصرية فى هذا الإقليم، كما تأثر الوافدون من الشمال بثقافة وعادات الأهلين، وأن هذا التأثير امتد إلى المعتقدات الدينية ومراسيم الدفن، كما حدث فى دفن «حعبى زفاى»[1].

وأما أصل أصحاب حضارة كرما، فهو موضع خلاف بين الباحثين، فلقد ذهب «رايزنر» إلى أنهم مجموعة بشرية استوطنت البلاد منذ أيام الدولة القديمة، وربما قبل ذلك، وأنهم – مثل أصحاب المجموعة الثالثة – لم يطرأ عليهم إلا مسحة قليلة من العنصر الزنجى[2]، ويذهب «جورج شتايندورف» (١٨٦١ – ١٩٥١م) إلى أن أصحاب حضارة كرما من طائفة شعوب شمال افريقيا، شأنهم فى ذلك شأن الليبيين، وأما أصحاب المجموعة الثالثة فهم وافدون من منطقة منابع النيل الأزرق وعطبرة، أو من منطقة كردفان[3]، وأما «هرمان يونكر» فالرأى عنده أن كليهما – أصحاب حضارة كرما والمجموعة الثالثة – من العنصر الحامى، اختلط بهما الزنوج إلى حد ما، ثم يؤكد أنهما قبيلتان لشعب واحد[4]، ويذهب «أركل» إلى أن أصحاب المجموعة الثالثة ليبيون جنوبيون[5].

=/=

وكذا:

A H. Gardiner, op. cit., p. 167 - 168.

T. Save-Soderbergh, The Nuobian Kingdom of The Socond Interm diate Period, Kush, 4, 1956, 54 - 61.

(١) أنظر: G. Reisner, Excavatiopns at Kerma, I, 1926, p. 30.

(2) Ibid., V, p. 555 F.

(3) G. Steindorff, Anilia, I, 1935, p. 13.

(4) H. Junker, Kubanieh Nord, p. IV, V.

(5) A. J. Arkell, op. cit., p. 46 F.

والرأى عند الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر، أن الدراسة المستفيضة لمخلفات الحضارتين إنما توضح الصلة الحضارية بينهما، وخاصة فى طريقة الدفن على سرير، وعادة التضحية بدفن الحيوان مع صاحبه، وربما فى شكل القبر المستدير، فضلاً عن بعض الصناعات المتشابهة، وأما مايظهر من اختلاف كبير فى حجم المقابر ربما يعزى إلى النظام المركزى الذى تمتعت به حضارة كرما، على عكس حضارة المجموعة الثالثة، وليس بغريب أن أقصى الحدود التى بلغها المصريون على أيام الدولة الوسطى إنما تنتهى عند الحدود التى تفصل جغرافيا بين هاتين الحضارتين، أى عند الجندل الثانى(١).

(٣٣) مرجيسية (مرقيسة):

وتقع على الضفة الغربية للنيل، عند الجندل الثانى، وعلى مبعدة ٢٠ كيلا جنوبى وادى حلفا، ٣ كيلا جنوب «مايانارتى»، وفيها قلعة من الدولة الوسطى تدعى «التى تكبح الصحراوات» وتشبه قلعة «بوهن» فى الشكل والحجم، وهى مستطيلة ولها جدار من ناحية النهر، ويحميها من الناحيتين الشمالية الغربية والجنوبية جداران يليهما خندق جاف، وقد عثر فيها على بقايا معبد من عهد «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ – ١٨٤٣ ق. م)، أضاف إليه «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ – ١٣٦٧ ق. م).

(٣٤) نـــــورى :

تقع على مبعدة ٣٥ كيلا جنوبى الشلال الثالث، ٨ كيلا جنوبى جبل البرقل، على الشاطئ الأيسر للنيل، وقد أقام بها «طهرقا» مقبرته، وهى أعظم بناء جنائزى فى جبانة نورى الملكية، التى أقيمت بعد ازدحام الجبانة القديمة فى «الكرو» – على مبعدة ١٢ كيلا من كريمة – وقد سار على نهج «طهرقا» عدد كبير من ملوك نباتا، فبنوا مقابرهم فى نورى – على مبعدة ٢,٥ كيلا من النيل – هذا وقد بقيت الصبغة المصرية غالبة على الملوك الأوائل الذين دفنوا فى جبانة

---

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ٥٠ – ٥١، وكذا:
M. Bakr, The Relationship between The C-Group, Kerma, Napatan and Meroitic Cultures, Kush, XIII, 1965, p. 261 - 264.

نورى، حيث دفنوا فى مقابر تعلوها أهرامات ذات طراز مصرى، كتلك التى عرفها كبار الشخصيات فى أخريات الدولة الحديثة، وليس كالأهرامات الملكية للأسرة الرابعة، هذا وقد تميزت أهرام نورى بأنها من طراز واحد، وتميزها خواص ثلاثة هى: أولاً: الهرم الذى تتبعه مقصورة خارجية بنيت فى جهة منه، ثانياً: لكل هرم سور يحيط به وبالمقصورة، ثالثاً: كان لحجرة الدفن سلم مفتوح ينحدر من الغرب، ويؤدى إلى سلسلة حجرات، تتكون من حجرتين أو ثلاث حجرات للدفن.

هذا وكان الزخرف فى حجرات الدفن والتوابيت المنحوتة من الجرانيت يتمشى مع الأسلوب المصرى فى كل التفاصيل، فالنقوش الدينية التى تغطى جوانبها تتبع تقليداً ترجع إلى اهرامات مصر، كما أن بعض أدوات الأثاث الجنازى التى نجت من نابشى القبور، كجرار سكب القرابين وتماثيل الأوشابتى والتماثيل الصغيرة، تماثل تماماً تلك التى وجدت فى مصر.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى «مرسوم نورى» الذى أصدره الفرعون «سيتى الأول» (١٣٠٨ - ١٢٩١ ق. م) فى عام حكمه الرابع، وذلك لمخصصات معبد أوزير فى أبيدوس (مركز البلينا - سوهاج)، ووجهه إلى جميع المسئولين طالباً الحفاظ على ممتلكات المعبد فى النوبة، وعدم التدخل فى شئونه.

هذا وهناك فى «نورى» أقام «طهراقا» مقبرته، وهى أول وأعظم بناء جنائزى فى جبانة نورى الملكية، التى أقيمت بعد ازدحام الجبانة القديمة فى «الكرو» - على مبعدة ١٢ كيلا من كريمة - وقد سار على نهج «طهرقا» عدد كبير من ملوك نباتا، فبنوا مقابرهم فى «نورى»، على مبعدة ٢,٥ كيلا من النيل، خاصة وقد أصبح حكم مملكة نباتا - بعد تانوت أمانى - مقصوراً على السودان، دون مصر، وهناك أكثر من ٢٢ هرماً للملوك فى نورى(١).

ولاريب فى أن هرم «طهرقا» فى نورى، من أعظم ما أبقت عليه الأيام من أهرام السودان، ويمكن الوصول إلى حجرة الدفن فيه عن طريق سلم ذى درجات تؤدى إلى دهليز، وبعد حجرة الدفن الواسعة التى يحمل سقفها ستة أعمدة مربعة منحوتة فى صخرة الجبل نفسه، وهى تقسم الحجرة إلى ثلاثة أقسام، فى الوسط

---

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٦٠ - ١٦٢.

منها صفة حجرية ليستقر عليها السرير الخشبي المعد لوضع التابوت فوقه، وفي آخر حجرة الدفن يوجد باب وراءه بضع درجات تؤدى إلى دهليز يسير حول هذه الحجرة[1].

هذا وقد عثر داخل الهرم وحوله على أكثر من ستمائة تمثال مجيب (أوشابتي) كتب عليها «أوزير، الملك طهرقا»، وكانت هذه التماثيل ترتدى لباس الرأس الملكي، ومنحوتة في الحجر، وتشبه التماثيل المجيبة المصرية، كما وجدت آنيتان من أواني الأحشاء باسم طهرقا، وقد نقشت عليها الصيغة التي سادت في عصر الأسرة الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين، وهي: «حماية الملك طهرقا المبرأ، إن حابي يحمي أوزير طهرقا المبرأ»[2].

على أن هناك أمراً مثيراً بالنسبة لمدفن الملك طهرقا، فالرجل قد أقام لنفسه مقبرة وهرما في نوري، ذلك أن الهرم الذى لم يعثر بداخله - كما ذكر مكتشفه رايزنر - على أية آثار للدفن، بل إن هناك من يذهب إلى أنه قد تخلى عن المقبرة التقليدية في «الكرو»، وبنى ما يبدو وكأنه مقبرة تقليدية وهمية في نوري شبيهة بمقبرة أوزير في أبيدوس، كذلك هناك مقبرة في «سدنجا» (صدنقا) - على مبعدة ١٠٩ كيلا شمالي الجندل الثالث، ٢٤٥ كيلا جنوب وادى حلفا - تحوى بعض ألقاب طهرقا، وهي بعيدة نسبياً عن مراكز الثقل السياسي في كل من مصر ونباتا، ومع ذلك فإن «جيورجيني» إنما يرجح أن طهرقا قد دفن فيها فعلاً، بدليل العظام الآدمية التي عثر عليها داخل هذا المدفن[3].

والرأى عند الأستاذ الدكتور بكر، أن «جيورجيني» مصيب في رأيه وأن هناك أمثلة في التاريخ المصرى لاتختلف عن ذلك، فلقد أقام بعض ملوك الأسرة الأولى والثانية مقابر رمزية لأنفسهم في أبيدوس، بينما كانت مقابرهم الحقيقية في

(١) أحمد فخرى: الأهرامات المصرية، ص ٣٥٦.

(٢) سليم حسن: مصر القديمة، ١١/ ٢٦٦.

(٣) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٧، جان لكلان: المرجع السابق، اص ٢٨٣، وكذا:
M. S. Giorgini, Kush, XIII, 1965, p. 116 - 123.

وكذا: =/=

سقارة، كما أقام «زوسر» في الأسرة الثالثة، مقبرة في سقارة أيضا، وهكذا فعل «طهرقا» فالخلفية الدينية عند ملوك نباتا، لاتختلف عن ذلك، فلقد أقام بعض ملوك الأسرة الأولى الثانية مقابر رمزية لأنفسهم في أبيدوس، بينما كانت مقابرهم الحقيقية في سقارة. فقد أقام زوسر مقبرة لنفسه في «بيت خلاف»، وفي نفس الوقت أقام هرمه المدرج في سقارة ليدفن فيه، وهذا الذي في كريما لايختلف كثيراً عما كان سائداً في مصر[1].

=/=

D. Dunham and O. Bates, op. cit., II, 1955, p. 6 - 16.

(١) محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص ١٥٧، وانظر عن المقابر الحقيقية والرمزية (محمد بيومى مهران: مصر ٣/ ٣٣ - ٤٤، ١١٣ - ١١٨، محمد أنور شكرى: العمارة فى مصر القديمة، ص ٢٧٦ - ٢٧٧، وكذا:

W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 65 - 68, 74 - 80, 84 - 90.

W. M. F. Petrie, The Royal Tombs of The First Dynasty, I, London, 1900, p. 19 - 20.

الفصل الثانى

المغـــرب القديـــم

(١) المدن الفينيقية والمراكز الأثرية

تقديـم:

لاريب فى أن الفينيقين قد تأثروا إلى أبعد الحدود بالبيئة التى عاشوا فيها، واستجابوا لها استجابة كاملة، فشكلت تجارتهم وحياتهم الإقتصادية والإجتماعية والسياسية، على أن أبرز النواحى التى ظهرت فيها آثار البيئة فى الحياة الفينيقية هى النشاط البحرى، فقد كانت جبال لبنان التى تقع خلف الوطن الفينيقى تعرقل صلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية، وتجبر السكان على أن يلتمسوا لانفسهم مخرجاً آخر، وذلك بأن يتجهوا إلى البحر، هذا فضلاً عن أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على إعالة عدد من السكان يتزايد عددهم عاماً بعد عام، ولم تكد الزراعة بقادرة على إطعام آلاف الأفواه التى تعيش فى المدن الساحلية.

وانطلاقاً من كل هذا، فقد كان على الفينقيين أن يلتمسوا لهم سبلا أخرى، أو أن ينطلقوا إلى ميدان التجارة، وأن يتصلوا بالأمم الكبرى من وراء البحر، هذا فضلا عن أن سفوح جبال لبنان إنما تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء السفن، وهكذا فإذا اقترنت الرغبة فى المخاطرة، والبحث عن لقمة العيش، بتوفر المواد الصالحة، والمواد الخام اللازمة، لم يكن شيئا غريبا أن يستجيب هؤلاء الساميون القادمون من شبه الجزيرة العربية لنداء البيئة، ويتركون حياة البداوة التى ألفوها، ويقبلون على البحر فيركبون متنه.

هذا وقد بدأ القوم برحلات بحرية قصيرة لصيد الأسماك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال، ثم بيع هذه الأشياء وغيرها من المنتجات المحلية الأخرى، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد، حينما ضغط الأراميون عليهم فى وسط سورية، وأحاط بهم الإسرائيليون والفلسطينيون من

الجنوب، ومن ثم فلم يجدوا مفرا من أن يتجهوا إلى البحر بكليتهم، فقد كان هو المخرج الوحيد(١).

وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى إنشاء محطات ومراكز مستقرة فى المناطق التى تتجه إليها سفنهم لتكون محطات استقرار، أو على الأقل، محطات يستريحون فيها أياما معدودات، فى أول الأمر، على الأقل، وقد أدى ذلك إلى تتابع هجراتهم بالتدريج، وعلى مرات معدودات، تحقيق هذا النشاط التجارى فى هذه الأسواق والمناطق الجديدة فى غربى البحر المتوسط(٢).

وليس هناك من ريب فى أن الدوافع الأساسية وراء إرسال التجار الفينقيين إلى غربى البحر المتوسط، وهو البحث عن موارد معدنية - وخاصة الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وقد قادهم هذا البحث - فى تاريخ مبكر - إلى أسبانيا التى ظلت أحد المصادر الرئيسية فى عالم البحر المتوسط، حتى فى العصر الرومانى(٣).

وتقدم لنا التوراة - فى سفر حزقيال - وصفا مفصلا لتجارة الفينقيين البرية والبحرية فى مظاهرها المختلفة، وهو يذكر من بين وارداتهم، الفضة والحديد والقصدير والرصاص من أسبانيا، والرقيق وأوانى النحاس الأصفر من إيوانيا، والكتان من مصر، والخراف والماعز من شبه الجزيرة العربية، ويشير «هيرودوت» إلى أن توابل بلاد العرب كانت تنقل عن طريق التجار الفينيقيين(٤)، ونقرأ فى التوراة أيضاً عن أسطول «حيرام» ملك صور، الذى أبحر مع أسطول سليمان إلى «أوفير»(٥)، وأتى من هناك بالذهب والأخشاب النادرة والأحجار النفسية، وكل ماهو نادر وغريب(٦).

---

(١) حسن محمود: المرجع السابق، ص ٣٩٢.

(٢) محمد بيومى مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٨٤

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٥٤

(٤) حزقيال ٢٧/ ١ - ٣٦، نجيب ميخائيل. المرجع السابق، ص ١١٦، فيليب حتى المرجع السابق، ص ١٠٧ - ١٠٨، وكذا Strabo, XVI, 3 - 4.

(٥) أنظر عن «أوفير» والآراء التى دارت حول موقعها (محمد بيومى مهران: اسرائيل، التاريخ، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص ٧٨٢ - ٧٩٢).

(٦) ملوك أول ١٠/١١ - ١٢، محمد بيومى مهران المرجع السابق، ص ٧٨١.

ويقــول «ديودور الصـــقلى» (٨٠ - ٣٠ ق.م) أن الوطنيين (أى فى أسبانيا) إنما كانوا يجهلون استخدام الفضة حتى حصل عليها الفينيقيون فى رحلاتهم التجارية فى مقابل كمية قليلة من السلع، وحملوها إلى بلاد الإغريق وآسيا والبلاد الأخرى، وحصلوا على ثروات كبيرة، كما زادت قوتهم عن طريق هذه التجارة التى مارسوها لوقت طويل، وكانوا قادرين على إرسال أعداد من المهاجرين إلى صقلية والجزر المجاورة وأفريقيا وسردينيا، وإلى أسبانيا ذاتها(٧).

وعلى أية حال فلم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة والعودة من حيث أتوا، وانما كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون منها فينيقيا جديدة، أما اذا كانت البلاد التى ينزلها الفينيقيون ذات حكومات قوية وقادرة على حماية نفسها، فإن ملاحى فينيقيا لا يؤسسون مستعمرة حقيقية، وإنما يكتفون بوكالات تجارية وبشراء حق حرية التجارة، كما فعلوا فى مصر، حيث استقروا عند مصبى الدلتا، وطبقا لرواية هيرودوت، فلقد اتخذوا لأنفسهم فى «منف» - العاصمة المصرية القديمة - حيا خاصا بهم سمى «معسكر الصوريين»، كمات أقاموا معبدا هناك كانوا يتعبدون فيه للمعبودة «إفروديت الأجنبية»، وهى عشتار على الأرجح(٨).

٢- المستعمرات الفينيقية فى الشمال الأفريقى:

لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا - وقبل أن نتحدث عن المستعمرات الفينيقية فى الشمال الأفريقى - إلى عدة نقاط، لعل من أهمها (أولا) أن تأسيس المراكز الفينيقية فى المغرب، إنما قد تم فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، ومن ثم فإن العصر الفينيقى إنما قد أستمر فيما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، حيث بدأت الدولة القرطاجية فى الوقوف على قدميها، كقوة ذاتية مستقلة سياسيا عن المشرق.

ومنها (ثانيا) أن العصر الفينيقى فى المغرب إنما كان عصر استكشاف

---

(٧) ب. هـ. ورامنجتون: المرجع السابق، ص ٤٥٤.

(٨) ج. كونتنو: المرجع السابق، ص ٩٥، محمد بيومى مهران: تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم، ص ١٨٤، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١١٦.

إقتصادى، أكثر منه عصرا سياسيا، ذلك لأن المدن الفينيقية فى الشمال الأفريقى إنما كانت تابعة سياسيا لمدينة «صور» فى فينيقيا، بل يمكننا القول أن الإرتباط السياسى - فضلا عن الإلتزام الضريبى، وربما الحضارى - إنما ظل قائماً حتى بعد استقلال المدن الفينيقية الإفريقية عن أصولها الأولى فى فينيقيا.

ومنها (ثالثا) أن الإنتقال من المرحلة الفينيقية إلى المرحلة القرطاجية، إنما قد تم فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، حيث أسس «ماقون» أو «ماجو» Mago أسرة حاكمة فى «قرطاج» (الأسرة الماجونية)(٩).

وأما أهم المدن أو المستعمرات الفينيقية فى الشمال الأفريقى (المغرب) فهى:

١- قرطاج:

لا ريب فى أن أعظم المدن الفينيقية عبر البحر قاطبة إنما هى مدينة «قرطاج»(١٠)، وتقع على مقربة من مدينة «تونس» الحالية، فيما بين «بورسعيد» و «لاجويت»، ويرجع تأسيسها إلى عام ٨١٤ ق.م، حتى وإن زعم البعض أنه يرجع إلى ماقبل ذلك - إلى القرن الثامن قبل الميلاد - حيث ثبت حتى الآن عدم وجود أية آثار فينيقية الأصل فى تلك المناطق قبل منتصف القرن الثامن (أى حوالى عام ٧٥٠ ق.م)(١١)، وهو لايبعد كثيرا عن التاريخ المتعارف عليه، أى عام ٨١٤ ق.م، وعلى أية حال، فلا يمكن أن نستنتج شيئا ذا قيمة تاريخية من أسطورة تأسيس قرطاج التى وصلت الينا فى مختلف كتابات المؤلفين الإغريق والرومان(١٢).

هذا ويذهب البعض إلى أن اسم «قرطاج» (قرطاجة (Carthago) وفى

---

(٩) رشيد الناضورى، المرجع السابق، ص ١٦٧ - ١٧٣، هـ. ب. وارمنجتون، المرجع السابق، ص ٤٥٦.

(١٠) قرطاج: جرت عادة بعض المؤرخين أن يكتبوها «قرطاجة»، وهو خطأ شائع، والصحيح كتابتها «قرطاجة» أو «قرطاج»، كما يسميها أهل تونس أنفسهم، أما «قرطاجنة» فهى مدينة فى أسبانيا (معالم تاريخ الإنسانية ٢/ ٥٠٥)

(11) B. H. Warmington, Carthjage, London, 1960, p. 22.
D. Harden, The Phoenicians, London, 1963, p. 54.

(١٢) ب. هـ. وارمنجتون، المرجع السابق، ص ٤٥٥

اللاتينية Carthage) إنما هو صورة محرفة من الإسم الفينيقى «قرت حدشت» بمعنى «المدينة الجديدة»، ويدل هذا ضمنا على أن المكان قدر له منذ البداية أن يكون المستوطنة الرئيسية للفينيقيين فى الغرب، وطبقا لقصة إنشائها، أو بعبارة أصح أسطورة إنشائها(١٣)، فقد أسستها الأميرة «إليا» (Eliasa) ابنة «متان» ملك صور، عندما هربت من ظلم أخيها «بيجماليون» (Pygmalion) – الذى خلف أباه فى حكم صور، وكانت إليا ترغب فى الزواج من خالها «أشرباس» (Echerbas) – أحد كهنة المعبود ملقارت – وقد أغضب ذلك أخوها «بيجماليون» فأمر بقتل هذا الكاهن، مما دفع إليا إلى الهجرة إلى جزيرة قبرص – مع عدد من المعارضين لأخيها – وهناك أنضم إليها أحد كهنة المعبودة «عشتارت» Asterte الذى اشترط أن تكون له ولعائلته أولوية فى كهنوت المراكز الفينيقية الجديدة، وأن يكون ذلك وراثيا فى أسرته، وسرعان ما انضمت إليها ثمانون عذراء كانوا أصلا للبغاء المقدس، ثم اتجهوا جميعا إلى منطقة الساحل الأفريقى المغربى، غير أن «إليا» سرعان ما انتحرت عندما أراد رئيس البربر أن

(١٣) لعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك الكثير من الأساطير التى ترتبط بالشخصيات الهامة – وربما الأسطورية – بتأسيس المدن الهامة، فضلاً عن الأحداث الرئيسية، وذلك لأن الكتاب القدامى أرادوا لفت الأنظار إلى أهميتها – المدن والأحداث – فقاموا بتسجيلها بصورة شعبية وبإسهاب وتفص، قد يغرى فى كثير من الأحيان عواطف العامة وخيالهم، أكثر مما يرضى عقول العلماء، فقدموا لنا أحداثاً أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ الحقيقى.

وهناك فى تاريخ العرب القديم – على سبيل المثال – مدينة «ياثل» – وهى مركز دينى هام فى دولة معين – وتسمى «براقش» (وكانت قديماً تسمى يطيل)، وهى نفسها مدينة Athluba (= Athrula) – آخر موضع وصلته حملة «إليوس جالليوس» الرومانى على اليمن فى عام ٢٤ ق.م – وعلى أية حال فإن «براقش» عند الإخباريين مدينة قديمة جداً، كان يسكنها عند ظهور الإسلام «بنو الأوبر من بلحارث بن كعب ومراد»، وقد اختلفوا فى سبب تسميتها «براقش»، فرواية تذهب إلى أنها إنما سميت كذلك نسبة إلى كلبة عرفت باسم براقش، ورواية أخرى تنسبها إلى امرأة تدعى «براقش» عهد إليها أبوها بتصريف شئون الدولة أثناء غيابه فى واحدة من غزواته، فما كان من براقش إلا أن اهتبلت الفرصة، فبنت مدينتى براقش ومعين تخليداً لذكراها، غير أن ذلك قد أغضب والدها الملك، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة، على أن رواية ثالثة تنسبها إلى مراقش امرأة لقمان بن عاد (أنظر: البكرى ١/ ٢٣٨، الميدانى ٢/ ١٤ – ١٥، البيان والتبين للجاحظ ١/ ٢٢٢، القاموس المحيط ٢/ ٢٧٢، وكذا محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ص ٣٣٢).

يتخذها زوجة له، هذا ويسمى الرواة الأميرة «إليا» هذه، باسم «ديدون» بمعنى «الهاربة»، وهو إسم غير فينيقي، وليست لدينا أية وثائق تسوغ لنا قبول هذه الرواية أو حتى رفضها[١٤].

غير أن هناك مصدرا آخر يتحدث عن تأسيس «إليا» (ديدون) لمدينة «قرطاج» حيث يحدثنا المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» (يوسفيوس فيلافيوس = ٣٧ – ٩٨ أو ١٠٠م) [١٥]– نقلا عن آخرين – أنه في السنة السابعة من حكم «بيجماليون» أسست إليا مدينة قرطاج، ومن ثم فهناك عنصر تاريخي سليم – إذا ما صدقت رواية يوسف اليهودي – يتعلق بارتباط هذه الأميرة الصورية بتأسيس مدينة قرطاج[١٦].

وعلى أية حال،فإن المستوطنات الفينيقية جميعا، بما فيها قرطاج نفسها – على عكس المستوطنات التي أقامها الإغريق في صقلية وإيطاليا وغيرهما في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد – إنما ظلت (أي المستوطنات الفينيقية) محدودة المساحة، وربما لم يسكنها، لمدى بضعة أجيال، غير مئات قليلة من المستوطنين على الأكثر[١٧].

ولاريب في أن المؤرخ الروماني «إبيان» (القرن الثاني الميلادي) إنما كان موفقاً إلى حد كبير في وصفه لمدينة قرطاج عندما وصفها بأنها أشبه ما تكون بالسفينة الراسية، فهي بنيت في شبه الجزيرة المحاطة بالبحر من ناحية، وبالبحيرتين من ناحية أخرى، الأمر الذي جعل وجهتها بحرية، أكثر منها برية أفريقية، وعلى أية حال فمدينة قرطاج إنما تعتبر نموذجا للمدينة القرطاجية التي تعبر عن التفكير والحياة القرطاجية، فضلا عن النشاط السياسي والاقتصادي في العصر القرطاجي[١٨]

---

(١٤) ج. كونتنو: المرجع السابق، ص ٩٨؛ ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٥٥، رشيد الناصوري: المرجع السابق، ص ١٦٢ – ١٦٣.

(١٥) أنظر عن يوسف بن متى (محمد بيومي مهران. تاريخ العرب القديم، ص ٣١ – ٣٢)

(١٦) رشيد الناصوري. المرجع السابق، ص ١٦٣

(١٧) ب. هـ. وارمنجتون المرجع السابق، ص ٤٥٥ - ٤٥٦

(١٨) رشيد الناصوري: المرجع السابق، ص ١٧٧ - ١٧٨ وكذا
Gilbert and Colette Charles - Picard, Daily Life in Carthage, London. 1961, 26

هذا وقد كان لقرطاج ميناء صناعى أعد إعدادا جيدا، فأما الميناء الخارجى فكان لاستخدام السفن التجارية، وإن كنا لا نعرف عدد السفن التى كان يمكنها استخدامه فى وقت واحد، وأما الداخلى فكانت به أرصفة وأحواض تتسع لمائتين وعشرين سفينة حربية، هذا فضلا عن مبنى للمراقبة يصل ارتفاعه إلى درجة تكفى للرؤية - رغم المبانى المعترضة - إلى مسافة بعيدة فى البحر.

وكانت أسوار المدينة - والتى ترجع إلى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد - هائلة الحجم، الأمر الذى مكنها من الصمود لكل هجوم - بما فى ذلك الهجوم الرومانى الأخير فى عام ١٤٦ ق.م - وكان طول الأسوار - بمافى ذلك المسافة المطلة على البحر - حوالى ٣٥ كيلا، وكان ارتفاع القطاع الحاسم - لمسافة ٤ كيلا عبر برزخ قرطاجة - أربعين قدماً، وسمكه ثلاثين قدماً، ولم تقتصر مهمة تلك الأسوار، وإنما كانت جدران الأسوار الضخمة تستخدم بعد تجهيزها بالاحتياجات الأساسية - كثكنات واسطبلات ذات أسوار سفلية وعلوية، وكان الدور السفلى يسع ٣٠٠ فيلا، ويسع العلوى ٤٠٠٠٠ حصانا، وقد جهزت الأرضيات المنحدرة بحيث تساعد على نزول وصعود هذه الحيوانات، وتتسع الثكنات لحوالى عشرين ألف جندى من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، هذا فضلاً عن حفر خندق كبير يبلغ عرضه عشرين متراً لزيادة تحصين المدينة، الأمر الذى جعل وسائل الدفاع عن قرطاج فى غاية القوة.

ولم تقتصر وسائل التحصين على ذلك، وإنما أقيمت أيضاً قلعة داخلية، مكانها الآن كنيسة لويس التاسع، ويحيط بها سور كبير طوله حوالى ٣ كيلا، وهو بلاشك أقدم جزء فى المدينة.

وهناك أيضاً آثار المبانى ذات الصبغة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كالساحات - أو كما تسمى عند المواطنين العرب فى تونس بالرحبة أو البطحاء - وتشبه الساحة اليونانية(Agora) واللاتينية (Forum)(١٩)، وتقع فى مكان

---

(١٩) الاجوراء (Agora) عند اليونان، و «الفوروم» (Forum) عند الرومان، هو سوق المدينة، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء، وهو ملتقى الاجتماعات العامة، ولما اتسعت روما زاد عدد الأسواق بها، وكانت تقوم به المنشآت والأبنية العامة.

متوسط بين الميناء والقلعة، وهكذا وجد بين الميناء وتل بيرصة ساحة عامة مكشوفة، تشبه «الأجوراء» الأغريقية، و «الفوروم» الروماني، وإن كان يبدو أن ساحة قرطاج إنما قد خططت تخطيطاً منتظماً، أو اتخذت مظهر الفخامة الذى تميزت به ميادين المدن الأغريقية، هذا فضلاً عن مبان أخرى لها وظيفتها السياسية مثل مبنى مجلس الشيوخ وقاعات القضاء[٢٠].

وعلى أية حال، فإن مدينة قرطاج - فى أكبر الظن - قد نمت دون تخطيط، فكانت شوارعها ضيقة ملتوية، وإن كانت مرتفعة بالنسبة لعصرها، حتى وصل ارتفاع بعضها الى ستة طوابق، شأنها فى ذلك شأن تلك المبانى التى وجدت فى صور - المدينة الفينيقية الأم - وفى موتيا فى صقلية، وقد استمر القرطاجيون فى تلك المبانى ذات الأدوار المتعددة، بصورة تقليدية لما كان فى مدينة صور، رغم عدم الحاجة اليها فى المغرب، وعلى أية حال، فلقد وضحت فى تلك الدور القرطاجية بعض التأثيرات المعمارية اليونانية، وخاصة الأعمدة الإيونية[٢١].

وأيا ما كان الأمر، فلقد استكملت قرطاج جوانبها الدينية ببناء المعابد، غير أن معابد قرطاج - رغم ما قيل عن كثرتها، - فليس هناك ما يشير الى أنها كانت ضخمة، حتى المراحل الأخيرة من التاريخ القرطاجي، حين وضح التأثير الثقافى الإغريقى، وذلك لأن الادلة إنما تشير إلى أن القرطاجيين إنما كانوا قوماً محافظين فى المسائل العقدية، ومن ثم فقد ظلوا طويلاً مخلصين بساطة الأماكن المقدسة الخالية من أية أبنية أو أنصاب فخمة[٢٢].

بقيت الاشارة إلى أن ما يقدمه لنا المؤرخون عن عدد السكان فى قرطاج، انما هو مجرد افتراضات، لا تقوم على إحصائيات رسمية، وعلى أية حال، فلقد قدر «سترابو» عدد السكان بسبعمائة ألف، وهذا يعنى ببساطة كثافة سكانية مستحيلة، فضلا عن أن مدن العالم القديم لم تكن تعرف هذه الأرقام فى عدد

---

(٢٠) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٦٣، أحمد صقر: مدينة المغرب العربى فى التاريخ، تونس ١٩٥٩، ص ٩٧، ١٠٢، رشيد الناصورى: المرجع السابق، ص ١٧٩ - ١٨٠

(٢١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٦٢، رشيد الناصورى، المرجع السابق، ص ١٨٠

(٢٢) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٦٣

السكان، وإن كان هناك من يذهب إلى أن «سترابو» كان يعني بهذا العدد الذي ذكره (سبعمائة ألف) كل سكان قرطاج وكل منطقة أذار، وربما كان التقدير الأكثر قبولا هي أربعمائة ألف، بما في ذلك العبيد، وهو، على أية حال، رقم يجعل عدد سكان قرطاج مساويا لعدد سكان أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد[٢٣].

وأيا ما كان الأمر، فإن التاريخ الحقيقي لقرطاج لم يبدأ إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، عندما بدأت صور تضمحل ويقل شأنها تحت ضربات الإمبراطور الكلداني «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م)، كما أشرنا من قبل، ثم خضوعها له وضمها إلى الإمبراطورية البابلية الكلدانية، غير أن العامل الأهم - فيما يرى وارمنجتون - إنما كان ازدياد ضغط المستوطنات الإغريقية في صقيلة، مثل «سرقوسة» التي نمت ثروتها وسكانها بسرعة كبيرة، والتي تأسست أصلا - هي وغيرها من المستوطنات هناك - نتيجة للضغط السكاني في بلاد اليونان ذاتها.

وسرعان ما ازدهرت قرطاج حتى غدت زعيمة المدن الفينيقية في أواسط البحر المتوسط، ثم صارت قرطاج على نفس سياسة صور وصيدا، فأظلت المدن الفينيقية بحمايتها، وأسست مستعمرات جديدة، من ذلك تلك المستعمرات التجارية في جزيرة «إليا» - بين سردينا وأسبانيا - حوالي عام ٦٥٠ ق.م، فضلا عن مستعمرات أخرى على شواطئ «مينوركا» في جزر البليارد، وغيرها من المستعمرات على شواطئ البحر المتوسط الأوربية والافريقية[٢٤] - كما سنرى -.

هذا وكان المظهر الوحيد في قرطاج (قرطاجة) الذي حظي بإطراء ومديح أباطرة الإغريق والرومان هو دستورها السياسي الذي يبدو أنه كان يكفل لها الإستقرار، وهو مطلب عزيز كانت تنشده المدن في العصور القديمة، إن كانت التفاصيل عن هذا الدستور غامضة، كما أنه ليس من المؤكد أن هؤلاء الكتاب

---

(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٢٤) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٨٥ - ١٨٦، وكذا:
D. Harden, the Phoenicians, London, 1963, p. 54.

القدامى قد أدركوا الحقائق، كما ينبغى أن تدرك(٢٥)، وعلى أية حال، فان التنظيم السياسى فى قرطاج قد مر بمراحل رئيسية ثلاثة:

١- المرحلة الأولى: مرحلة الملكية، والتى استمرت حتى العصر الهلينستى، وذلك النظام استمرارا لما كان موجودا فى حكومات المدن الفينيقية فى المشرق - كما تشير إلى ذلك النظام الفينيقى الوثائق المصرية والآشورية - فقد كانت الملكية الفينيقية وراثية فى الغالب، مع انقطاع أحيانا فى التسلسل الملكى - ومع ذلك، ففى الإمكان عمل قوائم بأسرات ملكية حكمت فى عدة مدن، وإن كانت غير كاملة، فهناك مثلا أسرة حيرام فى صور، وكذا «لولى» (ايلو ايلى) فى صور أيضا، وقد ظهر الأول كأهم شخصية فى منطقة الساحل فى عهد داود وسليمان عليهما السلام، وظهر الثانى كأهم شخصية فى نفس المنطقة على أيام سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م)، بل إنه إنما قد فرض شخصيته على قسم كبير من فينيقيا، حتى أنه حاول إخضاع قبرص(٢٦).

غير أن الملكية القرطاجية - رغم ذلك - إنما كانت إلى حد ما فريدة فى نوعها، فهى ليست كالملكية المصرية القديمة ذات الطابع الالهى(٢٧). أو الملكية السومرية(٢٨)، ذلك لأن الملكية القرطاجية إنما كانت فى بداية أمرها تتم عن طريق الانتخاب - وليس الوراثة - فكان الملك القرطاجى يختار من الطبقة

(٢٥) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٦٤.

(٢٦) أنظر: (محمد بيومى مهران: اسرائيل، الكتاب الثانى ص ٧٨ - ٧٨٢، ص ٨٤٣ - ٨٤٧، ٩٠٤، ٩١٠ - ٩١٢، ٩٦٣).

(٢٧) أنظر: سورة الشعراء: آية ٢٩، القصص: اية ٣٨، النازعات اية، ٢٢ : ٢٤، محمد بيومى مهران: الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثانى، الطبعة الرابعة، الإسكندرية ١٩٨٩ ص ١١٩ - ١٥١.

(٢٨) هناك ما يشير إلى مبادئ ديمقراطية بدأت فى العراق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، تشير إلى تواجد التفكير الديمقراطى فى بداية العصر التاريخى، وانتخاب الحاكم الذى يرأس حكومة المدينة، بناء على قرارات الجمعية العمومية، والتى تتكون من جميع المواطنين، ربما بما فيهم النساء (أنظر: رشيد الناصورى: جنوبى غرب آسيا وشمال أفريقيا، محمد عبد اللطيف. تاريخ العراق القديم، ص ١٧٨ - ١٨٠،

T. Jacobson, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia, in JNES, II, 1843, p. 165, No. 35.

الإرستقراطية، ذات المال والجاه المورثين، ومن ثم فإن النظام السياسى القرطاجى يتفق مع الهدف الفينيقى الأول، وهو الإستحواذ على الثورة الإقتصادية، حتى أن العمليات السياسية والحربية القرطاجية إنما كانت تهدف إلى تدعيم الجانب الإقتصادى، كما أن عمليات الإستكشاف البرى والبحرى القرطاجى، فضلا عن التدخل فى أسبانيا وغيرها، إنما كانت لتثبيت هذا الهدف الإقتصادى الذى احتل مكان الصدارة فى التاريخ الفينيقى والقرطاجى، ومن ثم فقد كان أصحاب الثروة فى المكانة الأولى فى السلطات السياسية.

وعلى أية حال، فلقد تولى منصب الملك فى قرطاج خلال القرنين، السادس والخامس قبل الميلاد، أفراد من «الأسرة الماجونية»، والتى ظهر من أفرادها المبرزين «هملكار» (حملقرت = Hamilcar) الذى قاد حملة فى عام ٤٨٠ ق.م، والمستكشف «حنون» (هنو = Hanno) والذى ربما كان ابنا للملك «هملكار»، وذلك لأن النصوص تشير اليهما بوصفهما ملكين، وقد شغل ملوك أسرة «ماجون» (ماجون) خلال هذين القرنين (السادس والخامس قبل الميلاد) منصب القادة العسكرين للدولة كذلك، عندما تطلبت ذلك تلك القيادة، ومن المحتمل أن الكتاب القدامى فى تلقيبهم لهؤلاء بالملوك قد أخذوا فى الإعتبار سلطتهم الدينية والقضائية، فضلا عن سلطاتهم السياسية.

٢- وفى أثناء القرن الخامس قبل الميلاد حدث تطور أدى فى النهاية إلى تناقض قوة الملوك نتيجة لتغير النظم الإقتصادية، فلقد نشأت طبقة جديدة فى المجتمع القرطاجى، وهى طبقة ملاك الأراضى الزراعية، وبذلك بدأت عوامل التنافس الإقتصادى على الثروة، والتنافس السياسى على الحكم، وقد نجحت طبقة ملاك الأراضى فى النهاية من الإستحواذ على تلك السلطة، وانتزاعها من الأسرة الماجوية، وذلك فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ومن ثم فقد بدأت مرحلة جديدة هى أقرب إلى النظام الجمهورى، منها إلى النظام الملكى، رغم الإستمرار فى استخدام تعبير «الملك» الحاكم للبلاد، وقد استمرت هذه المرحلة الثانية من التنظيم السياسى فى قرطاج من حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، إلى حوالى بداية القرن الثالث قبل الميلاد.

هذا وقد صاحب هذا التطور الجديد نشأة «الشفطان» (Sufetes)، وهو الإصطلاح السياسي القرطاجي الوحيد الذى نقله لنا الكتاب الرومان، وكلمة «الشفطان» أو السبطان، تعادل الرقباء (السناسرة) عند الرومان، كما كان لقبها باللغة السامية يعادل لقب «القضاة»(٢٩) عند بنى اسرائيل، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منها اثنان – وربما أكثر – سنويا، وقد ظل اصطلاح «الشفيط» (Selinus) مستخدما فى شمال أفريقيا فى مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الأقل بعد الغزو الرومانى، ليشار به إلى الحكام الرئيسيين للمدينة، وكان تقلص سلطة الملك شبيها بالتطورات فى المدن الإغريقية وروما، وفى نفس الوقت إزدادت قوة الإرستقراطية الثرية، حتى أصبح لهم – إلى جانب عضويتهم الجماعية فى مجلس للدولة يشبه السناتو الرومانى (مجلس الشيوخ) – مجلسان آخران منتخبان – مجلس المائة والأربعة ومجلس الثلاثين – وهما يكونان فى الحقيقة «أوليجركية» ضيقة وثيقة البنيان، مكونة من أغنى الرجال، وأوسعهم نفوذا، ويتحكمون فى كل ادارات الحكومة.

هذا ورغم أن جماعة المواطنين كان لها بعض الرأى فى انتخابات الملوك والشفطان وغيرهم من المواطنين فانه من المؤكد أن السياسات القرطاجية كانت تحكمها الثروة دائما، ويعتبر الفيلسوف اليونانى «أرسطو» (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) أن الدور الذى لعبته الثروة فى قرطاجة كان مظهرا سيئا، فلقد كان شرف المولد وتوفر الثروة شرطين أساسيين للإنتخاب، فكل الأمور يقررها الملوك أو الشفطان والمجلس بالتشاور معا، وفى حالة اختلافهم فقط تتم استشارة الجمعيات الشعبية (الوطنية).

٣– وكانت المرحلة الثالثة على أيام القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد، وتركزت فيها السيادة السياسية لأسرة برقة (برقا) وإن اختلفت عن المرحلة الأولى، بينما جمعت هذه المرحلة الثالثة بين سلطة برقة وسلطات مجلس الشيوخ والمجالس الأخرى الخاصة بالشئون المالية والدينية كالمجلس الثلاثينى ومجلس العشرة.

---

(٢٩) أنظر عن القضاة عند بنى إسرائيل (محمد بيومى مهران: إسرائيل، الجزء الثانى، ص ٦٢٣ – ٦٥٧).

ولعل مما تجدر الاشارة اليه هنا أن قرطاج لم تخضع لانقلاب عسكرى يقوده قائد طموح أو مغامر، مثلما تكرر هذا المصير فى المدن الإغريقية، وخاصة فى صقلية، وربما كان السبب أن أجهزة الرقابة والسيطرة كانت فعالة(٣٠).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن «قرطاج» إنما قد اتجهت إلى تدعيم كيانها العسكرى بإنشاء قوة حربية برية وبحرية للدفاع عن الدولة القرطاجية، وفى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فصلت قيادة القوات المسلحة فصلا تاما عن الوظائف الأخرى، وكان القواد يعينون فقط فى حالة الضرورة، ولحملات محددة الجهة والهدف، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائدا دائما، وقد انتهجت العديد من الأسر نهجا عسكريا، مثل «آل ماقون» (ماجون) فى أوائل التاريخ القرطاجى، و«أسرة برقا» (Barcids) فيما بعد ذلك.

وكان عبء قيادة الفينيقيين فى الغرب – فيما يبدو – ثقيلا على القوة البشرية المتاحة لقرطاجة، وقد ظلت قرطاج حتى القرن السادس قبل الميلاد، تعتمد على مواطنيها – شأنها فى ذلك شأن المدن الحرة الإغريقية – غير أنها منذ منتصف هذا القرن السادس، وتحت قيادة «ماقون» (ماجو = (Mago) – الذى أسس أسرة حاكمة فى قرطاج – إنما اتبعت سياسة «إستخدام القوات المرتزقة» على نطاق واسع، وهى نفس السياسة التى تبعت حتى نهاية التاريخ القرطاجى.

هذا وكانت العبادة فى قرطاجة تشبه تلك التى فى فينيقيا، وأهم المعبودات
١– بعل حمون ٢– تانيت ٣– عشتارت ٤– أشمون ٥– ملقارت

هذا وقد اعتمدت قرطاج على التجارة، أكثر من أية مدينة أخرى، وأن الرجل القرطاجى الأصيل،إنما كان فى أذهان الناس وقت ذلك – وخاصة عند اليونان والرومان – تاجراً بطبعه، كما كانت قرطاج تمثل أغنى مدينة فى عالم البحر المتوسط، ومع ذلك فإن الثروة التجارية لم تترك آثارا تتفق، وما اشتهرت به قرطاج من غنى وجاه، فضلا عن أنها – (أى الاثار) – أقل بكثير من آثار المدن الكبرى

(٣٠) ب عـ وارمنحتون المرجع السابق، ص ٤٦٤، رشيد الناضورى. المرجع السابق، ص ١٨٠ – ١٨٤، هـ ج. ويلر: معالم تاريخ الإسبانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦٩، ص ٥٣١

- الإغريقية والإترورية - التي ترجع إلى نفس الفترة، وليس هناك من ريب في أن أحد الأسباب الرئيسية في حالة قرطاج، أن أغلب تجارتها إنما كانت في سلع لا تترك أثرا، فأغلبها معادن غير مصنعة - وهي الهدف الرئيسي من حركة الإستكشاف، الفينيقية - ثم المنسوجات والرقيق والمواد الغذائية التي تزايدت نتيجة لاستغلال أراضيها الخصبة، وكانت تجني الأرباح من التجارة مع القبائل الداخلية التي جلبت منها الذهب والفضة والقصدير، وربما الحديد أيضاً، ذلك لأن قرطاج - كما هو معروف - إنما كانت تصنع أسلحتها بنفسها - .

وليس من شك في أن قرطاج إنما قد حصلت على تلك المعادن في مقابل مصنوعات رخيصة، ومن ثم فقد جنت أرباحا طائلة، وليس أدل على وفرة الأرباح من تلك الجيوش الضخمة التي استطاعت قرطاج تجنيدها من المرتزقة في القرنين - الرابع والثالث قبل الميلاد - هذا فضلا عن سك العملة من الذهب، على نحو ما فعلته المدن المتقدمة الأخرى وقت ذاك[٣١].

هذا وقد مارست قرطاج احتكار التجارة داخل إمبراطوريتها - سواء بإغراق أية سفينة تخرق هذا الاحتكار، أو بعقد معاهدات تجارية مع المنافسين المحتملين مثل المدن الأترورية وروما - وكان طبيعيا أن لا يسمح للتجار بالتجارة في غربي قرطاج، وهذا يعني ببساطة أن السلع التي كانوا يحضرونها إلى هذه المدينة كانت تنقل إلى السفن التجارية القرطاجية، ومن ثم فقد كانت المنتجات الواردة من أتروريا وكامبانيا ومصر ومختلف المدن الإغريقية إنما تصل إلى عدد كبير من الأماكن في شمال أفريقيا.

وبدهي أن ذلك كله إنما كان مصدر قوة اقتصادية لقرطاج، خاصة بعد التغييرات الإقتصادية والسياسية الضخمة التي حدثت في غربي البحر المتوسط بسبب فتوحات الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م)، فلقد أوجدت هذه الفتوحات أسواقا كبرى عالمية للمصنوعات الرخيصة التي كان القرطاجيون في موقع متميز يمكنهم من ترويجها، فضلا عن الأرباح منها[٣٢].

---

(٣١) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٣٢) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق، ص ٤٦١ - ٤٦٢

هذا وكان القرطاجيون يقومون برحلات تجارية برية، عبر الصحراء إلى منطقة نهر النيجر والسنغال، وربما كانت عن طريق «لبدة» و «صبراته»، وهما المدينتان الواقعتان فى منطقة تكاد تخلو من عوائق التضاريس الوعرة، وعلى أية حال، فان اهتمام قرطاج بإبعاد الإغريق عن المنطقة دليل على وجود تجارة هامة مع الداخل، حيث أن الأرض الزراعية المناسبة للإستيطان نادرة، وفى القرن الخامس قبل الميلاد يحدثنا هيرودوت عن مجموعتين قبليتين هما: الجرمانتيون والناسامونيون فى أقاليم جنوب سرت، وأن المسافة بين الساحل ومنطقة الجرمانتيين - المركز السكانى لجرمة - تستغرق ثلاثين يوما، وأن الرومان قد حصلوا - عن طريق الجرمانتيين - على مزيد من المعلومات عن المراكز الداخلية فى القرون التالية.

ورغم أن اليونان قد استخدموا العملة فى القرن السابع قبل الميلاد - وربما منذ أيام ملك ليديا «كرويسوس» (٦٥٠ - ٥٤٦ ق.م)، واستخدم الفرس العملة على أيام «دار الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) عند نهاية القرن السادس، ورغم أن فينيقيا كانت وقت ذاك خاضعة للفرس، غير أن دارا لم يحاول أن يضرب العملة باسمهم، وأما أقدم عملة شرقية فينيقية فقد ضربت فى صور عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تبعتها صيدا وأرواد، وجبيل فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد[٣٣].

وأما «قرطاج» فقد بدأت فى اصدار عملتها فى القرن الرابع قبل الميلاد، حيث تزايدت تجارتها مع الدول المتقدمة، وحيث أصبح من الضرورى - نتيجة للتغيير فى الوضع الاقتصادى - أن تدفع للمرتزقة أجورهم نقداً[٣٤].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الصراع القرطاجى الرومانى، والذى عرف باسم «الحرب البونية[٣٥] المشهورة فى التاريخ الرومانى القرطاجى بأدوارها الثلاثة، كانت الحرب الأول فى الفترة (٢٦٤ - ٢٤١)، وكانت الثانية فى

(٣٣) عبد الحميد: الشرق الخالدة، ص ٣٣٠ - ٣٣١؛ سبتينو موسكاتى: المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٣٤) ب. هـ. وارمنجتون، المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(٣٥) كلمة «البونية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيونيكوس» (punicus) أى القرطاجية -- أعنى الفينيقية - ومن هنا سميت الحرب بين روما وقرطاج بالحرب البونية أو الحرب الفينيقية.

الفترة (٢١٨ - ٢٠١ ق.م)، وكانت الثالثة فى الفترة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) وذلك من أجل السيادة على غربى حوض البحر المتوسط.

وقد انتهت الثانية منها بانتصار الرومان على «قرطاج»، وكانت الشروط قاسية، بيد أنها تركت لها المجال فى أن تأمل فى مستقبل كريم، فأجبرت عن التخلى عن أسبانيا لروما، وأن تتنازل عن أسطولها الحربى، إلا عشر سفائن، وأن تدفع عشرة آلاف تالنتوم، وأن تتخلى عن سلاح الفيلة، وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطبة، وبه توافق قرطاج على أن لا تخوض غمار حرب، دون إذن من روما، ثم أضيف آخر الأمر شرط يقضى بتسليم هانيبال - عدو روما اللدود - بيد أن البطل القرطاجى كفى مواطنيه هذا الإذلال، بأن فر إلى آسيا، وعندما أبرمت روما الصلح مع «أنطيوخس الثالث» (٢٤١ - ١٨٧ ق.م) بعد هزيمته فى «مجنيزيا» (مجنيسيا Magnesia) فى عام ١٩٠ ق.م، كان تسليم هانيبال أحد شروط هذا الصلح، وسرعان ما قبض عليه فى «بيثينيا» فى مخبأ له، فاعتقله ملكها لكى يرسله إلى الروم، بيد أن هانيبال إنما كان يحمل منذ أمد طويل فى خاتمه السم اللازم له، وبه قضى على نفسه فى عام ١٨٣ قبل الميلاد، وأما «سكيبيو» فقد عاد إلى روما، وأقيمت له مواكب النصر، ومنح لقب الإفريقى»، وأصبح يعرف باسم «سكيبيو الإفريقى» (Scipie Africanus)، تخليدا لانتصاره على هانيبال[٣٦].

وانتهت الحرب البونية الثالثة بتدمير العاصمة «قرطاج»، ومن ثم فقد توقفت هذه القوة السياسية الهامة فى المغرب، وحوض البحر المتوسط، وانفردت القوة الرومانية بالسيادة الكاملة على هذه المنطقة، فضلا عن مناطق حوض البحر المتوسط الشرقية والغربية جميعها[٣٧].

---

(٣٦) هـ. ج. ويلز: المرجع السابق، ص ٥٤٩ - ٥٥٠، أحمد صقر: المرجع السابق، ص ٢٣١، رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ٢٧٢ - ٢٧٥، عبد اللطيف أحمد على: المرجع السابق، ص ١٢٧ - ١٢٩، مصطفى العبادى: المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٥، وكذا:

H. G. Wells, op. cit., p. 117.

B. H. Warmington, op. cit., p. 190 - 191.

(٣٧) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) أوتيكا:

كانت أوتيكا (Utica) - أو عتيقة - بمعنى القديمة، تمييزا لها عن «قرطاج» بمعنى الجديدة أو الحديثة، وقد سماها «ابن خلدون» (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) «وطاقة»، وتقع إلى الغرب من قرطاج، وتلى قرطاج فى الأهمية، وتعتبر أقدم مستعمرة فينيقية فى شمال أفريقيا، على الأرجح، وقد أسستها صور حوالى عام ١١٠٠ ق.م، أو ١١٠١ ق.م، وقد عثر على آثار ترجع إلى حوالى هذا التاريخ.

وتقع أوتيكا على مرتفع من الأرض عند مصب نهر «بجراداس»، أهم أنهار تونس، الذى يجرى فى أخصب بقاعها، ومن ثم فهى - كقرطاج - ميناء، رغم أنها تقع الآن على مبعدة ١١ كيلا فى الداخل، ذلك لأن معالم الموقع تغيرت اليوم عنها فى العصور القديمة، فغطى الغرين المجرى الأدنى للنهر، ويمكن التعرف على القلعة القديمة عند تل كان يوما ما فى داخل البحر، مع جزيرة إلى شرقه، يفصلها عنه ممر مائى ضيق.

هذا وما تزال هناك - كما هى الحال فى قرطاج - خرائب رومانية كثيرة، وإن كان من العسير التعرف على آثار بونية[٣٨]، وقد ترجع أقدم المقابر هنا إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ومكانها على جانبى الممر المائى، أما المقابر من العصر المتأخر، فبعيدة إلى الغرب والشمال.

هذا وقد ظلت «أوتيكا» مستقلة - على الأقل إسميا - عن قرطاج، حتى مرحلة متأخرة، ووراءها على الساحل حتى مضيق جبل طارق عدة مواقع لمراس، ولكن قلة منها هى التى تصورت إلى نفس الدرجة التى وصلت اليها مراكز الساحل التونسى، وليس هناك من ريب فى أن هذا إنما يرجع أساسا إلى الصعوبة الكبرى فى الوصول إلى الداخل[٣٩].

---

(٣٨) كلمة «بونية» (Punic) مشتقة من الكلمة اللاتينية «بيونيكوس» (Punicus) - أى قرطاجية، أعنى فينيقية (معالم تاريخ الإنسانية، ٢/ ٥١٤).

(٣٩) ج. كونتنو: المرجع السابق، ص ٩٧، محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ١٨٥، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٣) هيبو:

هيبو – أو «هيبو أكرا» (Hippo Acra) هى «بنزرت» الحالية، وكان لها مرفأ عظيم فى بحيرة بنزرت، وكانت مقرا ملكيا، ومن ثم فقد أعطيت «هيبو» لقب (Regius)، وأما كلمة «هيبو» فهي كلمة ليبية، وتذهب الأساطير أن «ليبيا» – وهو الأسم اليونانى لشمال أفريقيا – كان فى الأصل إسم زوجة المعبود «بوسيدون» إله البحر، ووالدة «أجينور» ملك فينيقيا.

(٤) ليتس:

وهى المدينة الوحيدة التى أختيرت فى موقع غير مناسب، فى مجاورات خليج «سرته»، ولم يكن لها مرفأ، غير مصب نهر.

(٥) موجادو:

كانت أبعد مكان فينيقى أمكن الكشف عنه على الساحل الإفريقى غرب إنما يقع إلى الجنوب من مدينة «موجادو» مباشرة، على الشاطئ المغربى، فيما بين الدار البيضاء وأجاديو، حيث يصب نهر «كسوب» فى خليج صغير تذود عنه أمواه المحيط، جزيرة صغيرة، طولها ٣ كيلا، وعرضها نصف كيلو مترا، وتبعد عن الشاطئ بمسافة تتراوح فيما بين كيلو ونصف، وثلاثة كيلو مترات، وقدعثر هناك على ما يؤكد قيام مستعمرة فينيقية بها[٤٠].

---

(٤٠) فيلب حتى: المرجع السابق، ص ١١٠، ج. كونتنو: المرجع السابق، ص ٩٧، نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ١٦٢ – ١٦٣.

(٣) المدن المغربية والمراكز الأثرية

(١) أشكار:

يقع موقع أشكار في أقصى شمال غرب «طنجة» على سواحل المحيط الأطلسي، ويمثل هذا الموقع العصر الحجري الحديث الخالص من كل تقليد، فلا وجود للأدوات الميكروليثية به، إلى جانب المجرفة والمعول، مما يشير إلى اكتشاف الزراعة، خاصة وقد عرفت هذه المنطقة الإستقرار والنظام الاجتماعي، وقد كشف «رولمان» في «وادى باث» على مقربة من طنجة، عن ثلاث مجمعات سكنية، لا يبعد الواحد منها عن الآخر، بأكثر من خمس كيلو مترات[١].

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن «فوفرى» إنما يذهب إلى أن مصر انما كانت وراء التغيرات التى مر بها العصر الحجرى الحديث فى المغرب القديم، من القفصية فى مرحلتها العليا الحديثة إلى العصر الحجرى الحديث ذى التقليد القفصى، والذى امتد من حوالى ٥٢٠٠ ق.م إلى ٣٥٠٠ ق.م، ويبدو أن العصر النيوليتى فى المغرب إنما قد تأخر عنه فى مصر، فلقد أرخ «كربون ١٤» لموقع جاعتشة بحوالى ٣٠٥٠ ق.م + ١٥٠ سنة ق.م، وهو تاريخ قد يوافق الأسرة الثانية فى مصر[٢].

(٢) المقطع:

ويقع فى مجاورات مدينة قفصة، ويتكون من ثلاث مرتفعات، الأول شمال غرب قفصة، والثانى على مبعدة كيلو متر شمال شرق قفصة، والثالث على الضفة الغربية لوادى بياش، على مبعدة كيلو مترين جنوب شرق قفصة.

(٣) أكاكاس:

وهى جبال تقع فى أقصى الجنوب الغربى للجماهيرية الليبية، قرب حدود الجزائر وفيها استؤنثت الماشية.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك – فيما يرى فيرون – مايشير

(1) A. Rhubman, op. cit., p. 105 - 106.
(2) L. Balout, op. cit., p. 481.

إلى أن الصحراء وشمال أفريقيا، إنما كانت في العصر الحجري الحديث مسكونة بقوم من الرعاة قدموا من الشرق، مع قطعان لهم[1]، من الخراف والماعز[2] والثيران ذات القرون، والبقر[3] والكباش، فضلا عن الحصان المستأنس (حوالي ١٥٠٠ ق.م) والجمل المستأنس (ربما قبل القرن الثالث أو الرابع قبل

---

(١) يذهب بعض العلماء إلى أن استئناس الحيوان واستخدام الزراعة، إنما كان موطنهما الأصلي في مكان ما في الشرق الأدنى القديم، وطبقاً لرأى «ماك برني» فإنه في غربي آسيا، على أن هناك فريقاً آخر يميل إلى أنهما قد ظهرا في أماكن مختلفة، ومستقلة عن أي تأثير أو اتصال، على أن «ريموند موري» إنما يقترح طريقين لوصول الحيزانات المستأنسة من الشرق الأدنى القديم إلى الشمال الأفريقي، عن طريق مصر، أولهما: على طول سواحل البحر المتوسط، وحتى المغرب القديم، ومنه اجتاز الأطلس الصحراوي بحثاً عن الماء، حتى وصل التاسيلي والهوفار، بينما يمتد الطريق الثاني مباشرة من مصر العليا (الصعيد) إلى الصحراء على طول خط عرض ٢٠ (عشرين درجة).

ولكن يقف دون ذلك أمران: الواحد: عدم وجود آثار استئناس الحيوان في مصر، أقدم من وجوده في الصحراء الوسطى (الصحراء الجزائرية)، كما أن «العير» أو «الحمادة» (وتقع جنوب جبال الهوفار في الجزائر، وتمثل مناطق عظيمة الاتساع تغطيها صخور شديدة الصلابة، عارية من الرواسب والخصوبة، بسبب فعل الرياح) إنما تعتبر طريق مرور من مصر العليا إلى الصحراء الوسطى، ومع ذلك، فلا أثر لماشية مستأنسة هناك (أنظر: أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٧٥ – ٧٦،

C. B. M. Mc Burney, op. cit., p. 248.

A. R. Wilcox, Rock Art of Africa, New York, 1948, p. 35).

(٢) ليس هناك ما يميز الهياكل العظمية للماعز عن تلك التي للإغنام، وإن استؤنست الماعز أولاً، وهناك من يرجع أصل الماعز إلى النوبة، غير أن حفريات «أركل» في «شهينات» (٤٨ كيلا شمال أم درمان) أثبتت أن الماعز لم يستأنس محلياً، وإنما وفدت من الخارج، وعلى أية حال، فلقد وجدت آثارها في كهف «دوارف» في الصحراء الجزائرية وفي جنوب السودان، وهناك احتمال دخول الماعز من كهف دوارف إلى شهيناب، كما وصلت وادي النيل عن طريق التسستي، ومن ثم فهناك من يذهب إلى أن الإنسان في شمال أفريقيا قد استأنس الحيوانات محلياً، وفي وقت مبكر، وكان هذا اتجاهاً فرضته الظروف الطبيعية عليه، أما الزراعة فقد وصلتهم عن طريق أقوام شرقيين (أنظر:

A. J. Arkell, Shaheinab, p. 15 - 16.

وكذا:

R. Vaufrey, L'Art Rupestre Nord Africain, 1939, p. 65.

(٣) هناك نوعان من البقر في المغرب القديم، الأول كبير الحجم، وهو سليل الأبقار البرية، والثاني صغير الحجم، يذهب العلماء إلى أنه من إيبريا.

هذا العصر موضوع الحديث)، وكذا الفيل والخرتيت والجاموس الضخم[٤]، ومن المؤكد أن الثور قد تم استئناسه حوالى عام ٤٠٠ ق.م، على الأقل.

(٤) برقة:

من المعروف أن شعوب البحر - بعد أن أخضعوا كريت - فكروا فى الإتجاه جنوبا، وكان الشاطئ الأفريقى عند برقة Cyrenaica أقرب اليهم من أية نقطة أخرى (٢٨٨ كيلا)، ذلك لأن أقرب ميناء مصرى كان ضعف تلك المسافة تقريبا، ومن هنا نشأت علاقات ودية بين شعوب البحر وبين ريبو برقة، وفضلا عن ذلك فإنه من المحتمل أن التجارة المصرية البحرية قد حملت فى تلك الفترة، ومن هنا ربما كان النضال بين شعوب البحو ومصر من أجل تجارة البحر الأبيض المتوسط وربما كان ذالك هو نفس السبب الذى جعلهم ينضمون إلى الليبيين ضد مصر فى هذه الحرب[٥].

هذا وقد عقد الفرعون «أحمس الثانى» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) حلفا فى الغرب مع «برقة» وتزوج من سيدة - وربما أميرة - من هناك تدعى «لاديكه»، كما عمل على تحصين حدوده الغربية، فأنشأ حاميات كثيرة على الشاطىء، وفى الواحات، وشجع اقامة الناس فيها، وبنى المعابد فى سيوه والبحرية والخارجة، ليجعل من الواحات الحصون الأمامية، إذا جد خطر، وحدث هجوم على مصر من يونانى ليبيا[٦].

(٥) بئر العاتر (الحضارة العاترية):

موقع حضارى فى وادى جبانة قريبا من قسطنطينة فى الجزائر، على الحدود بينها وبين تونس - وكان «فردريك مورو» أول من أشار إلى الصناعة العاترية فى عام ١٨٨٨م، وذلك عندما التقط «أدوات مذنبة» فى وادى سليحة (جنوب غرب

(4) H. Alimen, op. cit., p. 422.
R. Furon, Manuel de Prehistoire generale, Paris, 1958, p. 311.

(5) W. Resch, Das Rind in den Felsbilddarstellungen Nordafrr ikas, P. 5, 2. P. Beck et P. Huard, Tihesti, Carrefour de la Prehistoire Saharienne, Paris, 1969.

(٦) انظر: محمد بيومى مهران، مصر ٣/٦٥٧ - ٦٥٨.

قفصة)، وإن كان «كربز» قد سبقه إلى ذلك، عندما نشر عام ١٨٨٦م عن مواقع ماقبل التاريخ في «زخران» ووصفها بأنها «موستيرية» وإن كانت الحضارة العاترية – رغم تشابهها مع الحضارة الموستيرية فى كثير من الوجوه – إنما تختص بالأدوات المذنبة[٦].

وفى عام ١٩١٩ نشر «ريجاس»[٧] دراسة عن التقنيات الحجرية القديمة فى شمال أفريقيا، كما أشار إلى اكتشاف الموقع الموستيرى النموذجى (الأوبيرة) ثم اكتشف موقع «بئر العاتر» وعثر فيه على الصناعة العاترية تحت عمق ثلاثة أمتار فى نفس الطبقة، مع الصناعة الموستيرية، ومنذ ذلك التاريخ دأب «ريجاس» على استخدام مصطلح العاترية، بدلا من الابيرة، ثم أقر «مؤتمر مونبيلييه» عام ١٩٢٩م هذا المصطلح، ويعنى التقنيات الموستيرية ذات الأدوات المذنبة[٨].

وعلى أية حال، فلقد وجدت العاترية بمظهرها الصميم فى كثير من المواقع والطبقات الأثرية فى جميع أنحاء المغرب، فوجدت فى الرسومات السطحية لوادى جبانة ووادى جوف الجمل وكاف الاحمر ووادى سرديس، وفى رمال جبل عواش، وفى عقلة شعاشع، وفى كل رسوبات مقاطعة قسطنطينة، وفى رواسب الرمل الأحمر على طول الساحل الجزائرى فى كاروبه وضواحى بتزوت وغيرها، وفى كهوف المملكة المغربية، فى الخنزيرة، وفى الرواسب السطحية لوادى جوربا وكهوف دار السلطان وتافورال، وبيت مليل والعنك[٩].

هذا ويبدو أن الانسان فى هذا العصر، قد استعمل – بجانب الحجر – الأخشاب والجلود والعظام وبيض النعام أو قشوره، كما بدأ يدرك حقيقة وجود قوى خفية تتحكم فى الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية والطبيعية، وأراد تجسيم

(6) A.Balout, Prehistoire de L'Afrique du Nord, Atrs, et Metiers Graphiques, Paris, 1955, p. 269.

(٧) أنظر:

M.Reggasse, Etudes de Palethnologie Maghrebine (Nouvelle Serie), L'Anthropologie, 25, 1919-1920.

(٨) أم الخير العقون، العلاقات الحضارية والسياسية بين مصر وشمال أفريقيا منذ أقدم العصور حتى نهاية الألف الثانى قبل الميلاد -- الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٧

(9) R.Vaufrey, op.cit , p. 106

هذه القوى فى أماكن معينة لكى يحاول استرضاءها ضمانا لحياته ومصيره[١٠].

هذا وقد اختلف الباحثون حول المناخ الذى ساد الشمال الأفريقى إبان عصر الحضارة العاترية، فمن يرى أن المناخ كان رطبا حارا (أى آخر فترة مطيرة)، ومن يرى أنه كان جافا، ومن يحاول التوفيق بين الإتجاهين، فيذهب إلى أن المناخ إنما كان وقت ذاك يتميز بالرطوبة الشديدة، مع انخفاض قليل فى درجة الحرارة[١١].

وعلى أية حال، فالرأى عند «كاتون طمسون» أن موقع الخنزيرة (طبقة أ) فى المغرب الاقصى، إنما يمثل أقدم مرحلة للعاترية فى الشمال الأفريقى[١٢]، ثم انتشرت جنوب الأطلسى الصحراوى فى العصر العاترى الوسيط، ثم إلى الشرق حيث وجدت بعض المواقع العاترية فى ليبيا، كما فى وادى ما صودا، ووادى درنة، اللذين اكتشفهما «ماك برنى» عام ١٩٤٩م، ووصفهما باللفلوازيه الموستيرية، ومن ثم فقد أصبحت منطقة الجبل الأخضر فى ليبيا بمثابة جسر انتقال الحضارة العاتريه من الشرق إلى الغرب أو العكس، وتذهب «كاتون طمسون» إلى أن العاترية سرعان ما انتقلت إلى الواحات المصرية - سيوه والداخلة والخارجة - حوالى العصر الحجرى القديم الأعلى المبكر، بدليل وجودها فى واحة الخارجة فوق طبقة اللفلوازية مباشرة[١٣].

ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى - طيب الله ثراه -إلى أن «ستون كان» (H.W.Seton Ken) و «كومنجتون» (C.W.Cummington) إنما قد عثرا فى واحة سيوه على بعض الأدوات التى نسباها إلى تأثيرات غربية (شمال أفريقيا)، ووصلت مصر أثناء العصر الحجرى القديم الأعلى[١٤].

---

(١٠) رشيد الناضورى، المرجع السابق ص ١٠٥.

(11) H.Alime, Prehistoire de L'Afrique, Ed.N.Boubee, VI, Paris, 1955, p. 63 - 64.

(12) Caton - Thompson, The Aterian Industry, Its Plce and Signitiance in The Paleolithic World, in JRAI, V. 1946, p. 115.

(13) G.Caton - Thompson and E.W. Gardiner, Kharga Oasis in Prehistory, London, 1952, p. 31.

(14) A.Fakhry, Siwa Oasis, Cairo, 1944, p. 71.

وعلى أية حال، فهناك من يذهب إلى أن الصناعة العاترية (العاطرية) قد وصلت إلى مصر في العصر الحجري القديم الأوسط، ولعل أهم مواقعها إنما كانت تلك التي كشف عنها «ساندفورد» على مقربة من تفادة، وفيما بين دندرة والمراشدة، فضلا عن تلك التي على مقربة من نجع حمادى (بمحافظة قنا) وأسيوط، إلى جانب ماكشف عنه «سليجمان» في ضواحي طيبة «الأقصر»، وفي العرابة المدفونة «مركز البلينا - بمحافظة سوهاج»، وأخيرا فلقد كشفت «كاتون - طمسون» عن وفرة من الصناعة العاطرية في واحة الخارجة[١٥]، بل إن هناك ما يشير إلى وصول النماذج العاطرية التي وجدت في مصر إلى المملكة العربية السعودية[١٦].

هذا وقد اختلف الباحثون حول أصل هذه الحضارة العاطرية، فهناك من ينسبها إلى الشمال الأفريقي، ويرى أنها ظهرت في غرب الجزائر، وفي المغرب الأقصى، ثم بعد ذلك في شرق الجزائر وتونس[١٧]، على أن هناك وجها آخر للنظر تذهب صاحبته - كاتون طمسون[١٨] - إلى احتمال أصل أسيوى لصناعة النصال العاترية انتقل إلى شمال أفريقيا باعتبار الحضارة السبيلية مرحلة انتقال[١٩].

---

(15) C.Seligman, The Older Paleolithic Age in Egypt, JRAI, 1921, Fig, 31-35, p. 13-35, p. 128 - 129.

K.S.Sandford and W.J.Arkell, Paleolithis Man and The Nile Fayum Divid Chicago, 1933, p. 116 - 118, Fig, 47-52.

G.Caton - Thompson and E.W. Gardiner, in GL, LXXX, 1932, p. 404.

(16) R.M. Gramly, Neolithic Flin Implement Assemblages from Suadia Arabia, in JNES, 30, 1971, p. 177 - 185.

G.Caton - Thompson, in JRAI, LXXVI, 1946, p. 89.

(17) L.Balout, op.cit., p. 334.

(18) G.Caton- Thompson, The Aterian Industry, its Place and Signetiance in The Palealitic World, in JRAI, V, 1946, p. 119.

(١٩) أنظر عن الحضارة السبيلية (محمد بيومى مهران - مصر- الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٠١ - ٢٠٦).

ويذهب أستاذنا الدكتور الناصوري إلى أن الصناعة العاترية تشبه صناعة الحضارة اللفلوازية الموستيرية الفلسطينية – طيب الله ثراه – في الإنتاج الصناعي وفي انتماء كل منهما لفترة زمنية واحدة، وقد طبقت طريقة كربون ١٤ المشع على بعض البقايا المتفحمة التي عثر عليها في مواقد في طبقات كهف هوافتيح في منطقة وادي درنة، فأدى إلى تقدير عمر هذه البقايا بحوالي ٤٠٠٠٠ سنة، كما أن هناك شبها بين البقايا العظمية الإنسانية من هذه المرحلة وبين الإنسان النيدرتالي الفلسطيني، وقد أدى ذلك كله إلى وجود صلات حضارية بشرية بين غربي أسيا – وخاصة فلسطين – وبين المغرب – وخاصة برقة (شمال شرقي ليبيا)، الأمر الذي يدل على وجود جانب شرقي – فضلا عن العناصر المحلية – في حضارة العصر الحجري القديم الأوسط في المغرب[٢٠].

(٦) تونس:

وتقع على مبعدة ١٦ كيلا من قرطاج، وهي الآن عاصمة جمهورية تونس العربية.

(٧) دار السلطان:

هي مغارة تقع على مبعدة ٦ كيلا جنوب غرب الرباط، ويتكون من بقايا مواقد نيوليتية ذات تقليد قفصي ثم مجموعة من النصال والمحكات، وأما فخاره فهو – فيما يرى رولمان – أكثر تطورا من موقع فخار رديف، كما أن زخرفته جد متشوقة، وهي التي تسمى تقنية مسحة المشط التي تغطى مساحة الإناء بأكمله؛ وقد يكون له في بعض الاحايين نتوءات (مثل أذنين)، ربما لرفع الإناء[٢١].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه قد عثر على عدد من البقايا العظمية الإنسانية في الكهوف والمغارات الساحلية المواجهة للمحيط الأطلسي، والتي تمتد على طول الساحل المغربي مثل كهوف: مغارة العالية وأشقر في

---

(٢٠) رشيد الناصوري: المرجع السابق ص ٩٦ – ٩٨ وأيضا

C.B.M.Mc Burney, The Stone Age of The Northern Africa, Lodon, 1960, p. 168.

(21) A.Rhubman. op.cit., p. 68.

[illegible] جنوب غربي الرباط [illegible] والتعرية الناجمة عن مياه الحيط والصخور [illegible] مأوى للإنسان في تلك المناطق [illegible] ما قبل التاريخ(٢٢).

(أ) سرتة:

كانت سرته عاصمة مملكة نوميديا الشرقية – في شرقي الجزائر، وسرته هي قسنطينة الحالية في الجزائر، وأما النوميديون فهم سكان المغرب القديم، أثناء حكم القرطاجيين في شمالي أفريقيا.

هذا ويفترض [illegible] أن المرحلة [illegible] من العصر الحجري القديم الأعلى إنما كانت فيما بين ٩٠٠٠، ٥٠٠٠ ق.م، وفيها تأخذ الحضارة القفصية في الأزدهار والإنتشار لتشمل كل الشمال الأفريقي، وتحل محل الوهرانية، [illegible] كانت القفصية تتطور في «سرته» إلى نوع من الصناعات القزمية المتميزة Microlithes يمكن تسميتها «الميكروليثية السرتية»(٢٣).

هذا ومن المعروف أن [illegible] كانت مركزا هاماً لشحن الحبوب إلى روما، [illegible] أدلة، ثم أعاد بناءها «قسطنطين الأول [illegible] الفرنسيون عام ١٨٣٧م.

[illegible]

كانت [illegible] موريتانيا [illegible] أصبح [illegible] من أربع [illegible] موريتانيا القيصرية وموريتانيا [illegible] مدينة طرابلس، وفي [illegible] نوميديا في شرقي الجزائر، [illegible] غربي الجزائر والمغرب

[illegible]

[illegible] التاريخ – [illegible] – ليبيا (بنغازي – طرابلس) ١٩٨٦، ص ٢٤١ – ٢٤٢.

Mc Burney, (C.B.M.), The Stone Age of North [illegible] Africa, Londono 1960 [illegible]

الأقصى، ويفصل بينهما نهر «ملوية» (مولوكا Mulucha) وكانت مدينة «شرشال» عاصمة لموريتانيا القيصرية، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا الطنجية(٢٤).

(١٠) قفصة:

هي المدينة الرومانية القديمة (Capsa) في جنوب تونس وهي «قفصة» الحالية في إقليم «قسطيلة» شمالي شط الجريد.

هذا وقد نسب إلى مدينة «قفصة» «الحضارة القفصية»، ويذهب العلماء إلى أن الموقع النموذجي لهذه الحضارة، هو «حقل الجلزون» أو «الرماديات».

وكان «دي مورجان» أول من حدد سمتها الصناعية(٢٥)، معتمداً على المادة الأثرية من موقع «المقطع» (على مبعدة ١٤ كيلا شمال غرب قفصة)، وقد قام كل من «فوفري» و «جوبير» بحفائر في هذا الموقع.

هذا وقد ظهر أصحاب هذه الحضارة حوالي سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، وهم قوم ذو قوام طويل رشيق، من جنس البحر المتوسط، وإن لم يخلو من الصفات شبه الزنجية، وقد ازدهروا في منطقة غير محددة تماماً، وإن كانت على وجه التحديد في الجزء الداخلي، دون الإمتداد - على ما يظهر - إلى أقصى الحدود الغربية لشمال أفريقيا، أو إلى الصحراء الجنوبية، وقد انتهت هذه الحضارة القفصية حوالي عام ٤٥٠٠ ق.م(٢٦)

هذا وقد أطلق العلماء الفرنسيون على مواقع الحضارة القفصية «الحلزونيات أو الرماديات Escargotieres»، وهي ركام من الرماد أو الحجارة التي استعملت كأواني الطعام لنوع من القواقع، وتبلغ أبعادها أحيانا ٢٠٠ مترا طولا، ٥٠ مترا عرضا، ٣ أمتار ارتفاعا، هذا فضلا عن الأدوات الحجرية التي كان يستخدمها الإنسان.

---

(٢٤) رشيد الناضوري: المرجع السابق ص ٣٢٥، ٣٣٢.

(25) J.De Morgan, Les Premieres Civilizations, Paris, [illegible]

(٢٦) جيهان ديزانج: تاريخ أفريقيا العام ص ٤٣٢.
G.Camps, op.cit.,p. 159, 262, [illegible]

ويدل الهياكل العظمية التى عثر عليها فى الرماديات على أن الانسان القفصى – والذى استمر وجوده حتى العصر الحجرى الحديث – مختلف عن انسان «مشتا العربى» (حامل الحضارة الإيبرو مغربية)، وأنه من جنس البحر المتوسط، وإن كان يحمل ملامح زنجية، وقد مارس هذا الإنسان عادة صقل الحجارة فى صنع الكرات المثقوبة – والتى ربما كان يستخدمها لدق وطحن الحبوب البرية، وإن لم يثبت عدم معرفته للزراعة –، كما استخدم الفخار، ومارس عادة قلع الأسنان، بطرق تختلف عند الرجل عنها عند المرأة، فبعضهم تقلع أسنانه العلوية، وبعضهم تقلع أسنانه السفلية، وإن لم يعرف الهدف من هذه العادة حتى الآن(٢٧).

وهنالك مايشير إلى بداية التعبير الفكرى عند إنسان الحضارة القفصية، الأمر الذى سوف تتحدد ملامحه بصورة واضحة فى العصر الحجرى الحديث، هذا فضلا عن ممارسة النقش على قشور بيض النعام ثم صياغتها فى حبات لنظم عقود الزينة، ومن المعروف أن استعمال قشور بيض النعام إنما كانت من مظاهر الصناعات الأصلية فى الشمال الأفريقى فى المرحلة التى أعقبت العاترية(٢٨).

هذا وقد انتشرت الحضارة القفصية حول موارد المياه والأماكن الصعبة المنال فى تونس وشرق الجزائر، وخاصة فى منطقة «تبسة»، حيث وجدت بها ما يزيد عن تسعين «رمادية»، ولعل من أهم مواقعها: عين مترشام وبئر أم على وعين دوكارة وبئر حميرة وعين غيلان وواد مدفون وكف ركنية وخنقة موحاد وفم السلجة وفج إبراهيم والمقطع ورديف، وتشير مواقع سكنى القفصيين هذه – فيما يرى بالوه – إلى أن القوم إنما كانوا غزاة، لا يحسون بأمان فردى أو جماعى، ومن هنا كانت سكناهم فى مواقع صعبة المنال، فضلا عن سيطرتهم على موارد المياه(٢٩).

---

(27) R.Fauvrey, La Préhistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb, Paris, 1955, p. 127, 257.

L.Balout, op cit., p. [illegible]

(28) H.Alimen, op.cit., p. 78.

(29) L.Balout, op.cit., p. 399.

على أن القفصية الصميمة لم تمتدإلا فى الجزء القارى من جنوب تونس، وتتفق حدودها مع قاطعة قسطنطينة الجزائرية، ولا تصل إلى الساحل الشرقى، كما أنه فى الغرب لا تتعدى الكتل الجبلية لجبال أطلس، ولا تتجاوز شمالها، ثم هى بعد ذلك لا وجود لها فى الصحراء أو مقاطعات الجزائر ووهران، فضلا عن المغرب الأقصى، ومن ثم فقد اعتبر البعض مرحلة القفصية الصميمة مرحلة حضارية قصيرة الأجل(٣٠).

وأما القفصية العليا، فقد شملت كل منطقة القفصية الصميمة، فضلا عن أنها زحفت إلى الشمال، ولكن دون الاتجاه نحو الشرق، ووصلت إلى الحد الشمالى للهضاب العليا، ولكن دون بلوغ البحر، أما من جهة الغرب فهى لم تتجاوز خط التنصيف لمدينة الجزائر، الذى يرى فيه «فوفرى» الحد الغربى بقفصية العليا، وعلى أية حال، فلقد أرتبط انتشار الحضارة القفصية بأماكن وفرة الظران(٣١).

هذا وقد قسم «بالوه» الصناعة القفصية إلى مرحلتين، مرحلة القفصية النموذجية، وتشمل أدوات كبيرة من نصال وأزاميل، ثم تطورت إلى القفصية الحديثة التى تتميز باتجاه صناعتها إلى الأدوات القزمية واتخاذ الاشكال الهندسية، وقد أرخ «كربون ١٤» للمرحلة النموذجية فى موقع «المقطع» (٣٢)بفترة تتراوح فيما بين ٦٦٥٠ + ٤٠٠ سنة قبل الميلاد، وللفترة الحديثة فى موقع «الماء الأبيض» فى تبسة بالجزائر، بحوالى ٥٠٥٠ + ٢٠٠ سنة قبل الميلاد(٣٣).

هذا وقد ظهرت القفصية فى «كهف هوافتيح» فى الطبقة (E)والتى امتدت زمنيا فيما بين عامى ٩٠٠٠، ٧٠٠٠ ق.م، وفى هذا الكهف تبدأ الحضارة

---

(30) R.Vaufrey, op.cit., p. 195.

(31) Ibid., p. 241.

(٣٢) المقطع: الموقع الأثرى النموذجى للحضارة القفصية، ويقع فى مجاورات مدينة قفصة، ويتكون من ثلاث مرتفعات، الأول شمال غرب قفصة، والثانى على مبعدة كيلو متر شمال شرق قفصة، والثالث على الضفة الغربية لوادى بياش، على مبعدة كيلو مترين جنوب شرق قفصة.

(33) H.Alimen, op.cit. p. 82.

القفصية في الانخفاض في عدد الأزاميل والمحكات في الطبقة «الإبيرو مغربية» ثم ظهور اللون الأحمر على النصال الكبيرة، ووجود قشور بيض النعام مزخرفة بأشكال هندسية، ورصف عقود من هذه القشور(٣٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن عددا من الباحثين إنما ينسبون آثار بعض المواقع الأثرية المصرية إلى الصناعة القفصية (نسبة إلى قفصة في اقليم قسطيلة، شمالي شط الجريد في تونس) - بما في ذلك المستوى الثالث لقرية السبيل (في مجاورات مدينة كوم امبو بمحافظة أسوان)، وصناعة حلوان القزمية، وكل مانسبه «ساندفورد» و«أركل» إلى الصناعة السبيلية الحديثة - معتمدين في ذلك على أن الصناعة القفصية إنما قد وجدت في الشمال الأفريقي وفي سورية وفلسطين - أي في غرب مصر وشرقها - ومن ثم فمن الصعوبة بمكان، أن لاتوجد هذه الصناعة في مصر، ثم يعللون قلة المواقع القفصية في مصر، بأن القوم في أرض الكنانة إنما كانوا يقتربون في السكنى من شواطىء النيل، وأن الطمى الحديث للنيل، ربما قد طمر بقايا الصناعة القفصية في تلك المواقع(٣٥).

ولعل أهم المواقع التي نسبها بعض الباحثين إلى الحضارة القفصية، إنما هي ستة مواقع اكتشفها الأمير كمال الدين حسين في منخفض عين دالة وشمال الفرافرة في الصحراء الغربية، وتبعد هذه المواقع الستة عن ينابيع المياه بما لايزيد عن أربع كيلو مترات، ومن أدواتها شظايا، بعض منها طويل، وآخر قزمي، وكذا مكاشط ومحكات مقعرة، ونصال مثلمة، ومواقد صغيرة، مع كسرات من قشور بيض النعام(٣٦).

هذا وقد عثر «جيرودى كوتفيل» على مواقع للصناعة القفصية في منطقتين، الواحدة: حول طيبة (الأقصر)، وتنتشر حول وادى المدامود، بين الأقصر وخزام

---

(34) G.B.M.Mc Burney, op.cit., p. 333.

(35) R.P.Bovier - Lapierre, L'Egypte Prehistorique, Percis de L'Histoire de L'Egypte, Le Caire, 1932, p. 34.

(36) Kamel El Din Hussein et R.P. Bovier - Lapierre, Recentes Explorations dans Le Desert Libyque-BIE, 1929 - 1930, XII, Le Caire, P. 123- 126

(على مبعدة ١٥ كيلا شمال الأقصر)، فضلا عن مواقع أخرى في مصر العليا (الصعيد)، على مقربة من الصحراء الشرقية، وأما المنطقة الثانية فكانت في الفيوم، عند قناة هوارة (على مقربة من مدينة غراب) وفي عزبة جورج، وجنوب جبال الروسي، وقد وجدت أدوات هذه المواقع على السطح، ويذهب الأثرى «جيرودى كوتفيل» إلى أن هذه الصناعة القفصية الوافدة متقنة الصنع ومتفرقة على سابقتها (السبيلية)، ومن ثم فهو يستبعد احتمال أن تكون الحضارة القفصية قد تطورت من الصناعة السبيلية، وإلى هذا القول يذهب «أدموند فينيارد»(٣٧) أيضا أضف إلى ذلك أن بعضا من الباحثين إنما قد نسبوا آثاراً لهذه الحضارة «المستيرو - قفصية» في شمال مدينة حلوان، بين خط السكة الحديد وعزبة الوالدة(٣٨)، ويعتقد «جيرودى كوتفيل» أن مصر قد شاركت في تطور صناعة قفصية في مصر، مشابهة للإبيرو مغربية، وذلك بوجود الآلات الميكروليثية في موقع حلوان عندفتحة وادى حوف، وفي كوم امبو بمحافظة أسوان(٣٩).

وعلى أية حال، فرغم إمكانية وصول مؤثرات قفصية إلى مصر في هذه الفترة من خواتيم العصر الحجرى القديم الأعلى، فلعل من الأفضل التحفظ بشأن هذه الآراء - وخاصة تلك التي ترى في كل صناعة وجدت في مصر تعقب الموستيرية، إنما هي صناعة قفصية أو قفصية متطورة (٤٠)- إذ أن كل ما عثر عليه إنما هو لقية سطحية لبعض القطع والآلات الحجرية، زعم مكتشفوها أنها قفصية - كما في نواحي أسوان والمدامود وحلوان في الوادى، وعين دالة في الصحراء الغربية، ومنخفض الخارجة(٤١).

(37) G.Cotteville, L'Egypte avant L'Histore, BI FAO, 33, 1933, p. 28 - 34.

(38) A.J.Arell and K.S. Sandford, Paleolithic Man and The Valley in Upper and Middle Egypt, p. 116 - 118.

(39) Giraude Cotteville, op.cit., p. 40.

(40) Ibid., p. 28.

(41) G.Caton - Thompson, Man, 32, 1932, p. 131 - 133.
K.Hussein et R.P. Bovier - Lapierre, op.cit., p. 126.
E.Massoulard, Prehistoire et Protohistoire de E'gypte, Paris, 1949, p. 23.
C. Seligman, The Older Paleolithis Age in Egypt, JRAI, 1921, p. 129 - 130.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة وإلى موقع نفاية قصب السكر، على مقربة من مصنع السكر فى نجع حمادى (بمحافظة قنا)، وعلى مقربة من المدينة الرومانية «ديوسبوليس بارفا»[٤٢]، حيث كشف «أدموند فينيار» عن مجموعة من الآلات الحجرية، تتميز بوجود مجموعة كبيرة من الازاميل - فضلا عن بعض المحكات، وقطع أخرى مشذبة ذات نمط خاص - ونظرا لأن الأزميل هو آلة الصناعة «الأورنياسية» المميزة - إلى جانب اعتبارات تقنية أخرى - فقد نسب «أدموند فينيار» هذا الموقع إلى «الأورنياسية الأوربية»، وأن سكان هذا الموقع إنما جاءوا إلى مصر من سورية أو من تونس[٤٣].

وقد أثار رأى «فينيار» هذا جدلا بين العلماء، فذهب «هرمان يونكر» إلى أن هناك شبها بين موقع نجع حمادى هذا، وبين المستوى الثانى للسبيلية، وأنهما ربما كانا متعاصرين، ويصلان إلى بداية «القضية»، بينما المستوى الثالث - والأكثر تطورا - ما هو إلا «القفصية» ذاتها[٤٤]، وأما «دى مورجان» فقد عثر فى مواقع سطحية تنتمى إلى هذه المرحلة على فؤوس صنعت بنفس التقنية التى

---

(٤٢) ديوسبوليس بارفا: مكانها الآن قرية «هو»، وتقع على مبعدة ٥ كيلا جنوب غرب مدينة نجع حمادى، وربما كانت (هو) هذه تصحيفا للاسم المصرى القديم «حو» أو «حات» (والتى كان اسمها الكامل «حوت سخم نوت») عاصمة الاقليم السابع من أقاليم الصعيد، ويسمى «حوت سخم» بمعنى «قصر الصاجات»، هذا وقد سميت «هو» كذلك «إكنمت» بمعنى الكروم، وهو اسم واحة الخارجة المعروفة بخمرها، وكانت تتبع الاقليم السابع هذا من الناحية الادارية (محمد بيومى مهران - الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٦٠ - ١٦١ وكذا.

P.Lacau et H.Chevrier, Une Chapelle de Sesostris Ier a Karnk, Cairo, 1956, p. 225,

H.Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, IV, p. 45, 129, 130.

(43) E.Vignard, une Station Aurignacienne A Nag - Hammadi, (Haute Egypte), Station du Champ de Bagasse, BIFAO, XVIII, 1921, p. 1- 20.

(44) H.Junker, Bericht uber die Bon der Akademie de Wissenschaften in Wien Nach dem Westdelta Entsendete Expedition, Wien, 1928, p. 14.

صنعت بها فؤوس نجع حمادى(٤٥).

ويذهب الدكتور سليمان حزين إلى أن الأزاميل لا تعتبر دليلا مميزا للعصر الباليوليتي الأعلى،فقد وجدت في فلسطين في زمن الآشولية العليا، كما عثر في «أرمنت»(٤٦) على أزاميل، بعضها يشبه تلك التي عثر عليها الأثرى الفرنسي «أدموند فينيار» في نجع حمادى، ثم يخلص – بعد عدة مقارنات بين بعض الآلات الحجرية في الموقعين – إلى أن الواحد منهما إنما كان يعاصر الآخر، وأنهما ينتميان إلى عصر الحجر والنحاس(٤٧).

على أن هناك افتراضا عكسيا يذهب أصحابه إلى أن السبيلية في مصر العليا هي المهد الذي ولدت فيه الحضارة القفصية، وكل صناعة ميكروليثية أخرى، غير أن «بالو» إنما ذهب إلى أن تقويم السبيلية لا يعتمد على تسلسل الطبقات، وأن انقطاع الصلة بين إنسان «نياند رتال» (حامل الصناعة الموستيرية) وإنسان الصناعة القفصية، لا يتفق مع وجود صلة تطور، ومن ثم فإن البعض إنما يرى أن السبيليه والقفصية حضارتان ميكروليتان متشابهتان إلى حد كبير، من حيث التقنية والشكل، وخاصة في المرحلة الأخيرة من تطورهما(٤٨)، غير أن هذا الاتجاه لم

(45) J.De Morgan, La Prehistiore Orientale, II. L'Egypte et L'Afrique de Nord, Paris, 1926, fig. 86, 88, p. 31, 82.

(٤٦) أرمنت: كانت واحدة من المدن الأربعة التي تكون الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد (طيبة والمدامود وطود)، قبل أن ينتقل مركز الثقل إلى طيبة (الاقصر) لتصبح العاصمة، وتقع أرمنت على مبعدة ١٥ كيلا جنوبي الاقصر ٧٤٧ كيلا جنوبي القاهرة)، وكان معبودها «مونتو»، وقد سميت في العهد الاغريقي «هرمونتس»، وأصبحت منذ الاسرة الخامسة والعشرين تحوى جبانة العجل المقدس «بوخيس» (الموسوعة المصرية ١/ ٩٠، وكذا، محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية ص ١٣٥ – ١٣٦، وكذا:

A.H Gardiner, Egypt of The Pharaohs, P. 116.

(47) S.A. Huzayyin, The Place of Eypt in Prehistory, A Correlated Study of Climates and Cultures of The Old World, MIE, 43, 1941, p. 292.

R.Mond, O H.Mayers, Cemeteries of Armant, London, 1937, p. 198-199.

(٤٨) أم الصير العتوب المرجع السابق ص ٥٢، وكذا L.Balout, op.cit., p. 416.

يعد أن يكون مجرد فرض، وليس نظرية علمية، فضلا عن أن تكون حقيقة تاريخية.

هذا وقد استمر الإنسان في تشكيل بعض القطع على هيئة معينة كما في كهف Marhsal و «كهف أشكار»، هذا إلى جانب المجموعة التى اكتشفها Bu-chet والتي رأى فيها Kochler رموزا قفصية مرتبطة بالمعبودات النسائية التي سادت رموزها حوض البحر المتوسط، وقد عرفت بمعبودات أشكار(٤٩).

وهناك أيضاً إمكانية وجود غاية سحرية في هذه الرسوم، على أساس تصور الإنسان وإظهار تحكمه فيها، ليحمل في طياته معنى تجسيم هذه الفكرة في الواقع، ذلك لأن الإنسان - رغم تقدمه الحضارى بالمقارنة بالمراحل السابقة الطويلة أثناء العصر الحجرى القديم - فهو لايزال يبحث عن الأمان والطمأنينة، فضلا عن الإنتصار على القوى الشريرة الضارة بحياته ومستقبله.

هذا وتؤرخ هذه الرسوم بالفترة التى تمتد من حوالى منتصف الألف الثالث وحتى منتصف الأول قبل الميلاد، وهى فترة تقابل فترات هامة من صميم العصر التاريخي في مصر الفرعونية، الأمر الذى يؤكد أن هذه الرسوم إنما تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة، مما يعد استمراراً للصلات المصرية ببلاد المغرب، وإن كان هناك اتجاه إلى أن هذه الرسوم إنما قد جاءت من غربى أوربا وأسبانيا، أو هى تطور من الحضارة القفصية، وإن كان هذا الاتجاه يصعب الإعتماد، إذا ما قورن بالأدلة الأثرية الأنفة الذكر(٥٠)

وعلى أية حال، فلقد كشف في المستويات السفلى من «تل سوس» على مجموعة من التماثيل الصغيرة - الحيوانية والإنسانية - والمصنوعة من الحجر أو الطين أو العاج(٥١)، وقد كشف فى مصر عن تماثيل من الصلصال فى مقابر

(49) H.Camps - Febrer, op.cit., p. 401.
H.Kochler, La grotte d'Achakar au Cap Spertel, Bull, de Inst, d'Et des Reliy. de Eveleche de Rabat, 1931.
R.Vaufrey, op.cit., p. 365.

(٥٠) رشيد الناضورى: الرجع السابق ص ١٣٩ - ١٤٤

البدارى ونقادة – وكذا فى العالم الإيجى – تمثل إلى حد ما تلك التى وجدت «أشكار»(٥٢)، مما يشير إلى انتشار هذا النوع فى إقليم البحر المتوسط، وعلى أية حال، فرغم اختلاف التفسيرات من حول هذه الأشكال، فأكبر الظن أنها ترتبط بمعبودات البحر المتوسط، كرمز أنثوى لشعائر الخصوبة.

(١١) قورين: (قورينة)

أنشأ الدوريون فى عام ٦١٣ ق.م، مستعمرة «قورينة» على الشاطئ الشمالى البعيد فى أفريقيا، أخذت تهدد استقلال القبائل الليبية، فضلا عن اغتصاب مساحات واسعة من أملاك الأهالى، إلى جانب الإضرار بامصالح المصرية، بل وربما بتجارة اليونانيين فى أفريقيا عموما.

وهكذا نشأ نزاع مرير بين القبائل الليبية الممتدة حتى تونس الحالية، وبين هذه الجماعات الدورية الإغريقية التى استعمرت «برقة» وما حولها، استعمارا تجاريا تحول إلى استعمار سياسى، أصبحوا به سادة البلد، واتخذوا من مدينة «قرينة» (Cyrene) عاصمة، وشيئا فشيئا ازدادت أعداد المهاجرين، وفى نفس الوقت ازداد ضيق الليبيين بمنافستهم لهم فى أرزاقهم وأرضهم، فضلا عن تعاليهم عليهم، ومن ثم فقد لجأ «إديكرات» – أحد رؤساء الليبيين إلى الفرعون «إبريس» يلتمس حمايته.

وهكذا وجه الفرعون «واح إيب رع» (إبريس ٥٩٥ – ٥٨٩ ق.م) جيشا إلى هذه الناحية، غير أن هذا الجيش المصرى إنما لقى هزيمة منكرة، حين وقع فى كمين بسبب خيانة بعض ضباطه من اليونانيين، وكاد أن يبيده يونانيو ليبيا، ولم يعد منه غير القليل، الأمر الذى أدى إلى ثورة المواطنين فى مصر ضد الفرعون وأعلن من نجوا العصيان، واتهم الجميع – المواطنون والجنود المصريون – الفرعون بأنه دبر هذه الحملة ليتخلص من المصريين فى الجيش، حتى يزداد تسلطا، وأنه قد أسرف فى احتضان الإغريق على حساب المواطنين المصريين، وكان لكل من الإتهامين نصيب من الصحة.

(51) H.Camps- Febrer , op.cit., p. 402.

(52) A. Jodin, Les grottes de Khril a Achakar, (Province de Tanger), Bull d'Archeol. Neroac, III, 1959, p. 249 - 331.

وانتهت الأمور بقتل الفرعون إبريس عند «مومفيس» (كوم الحصن – مركز كوم حمادة – بمحافظة البحيرة)، أو على مقربة من «الطرانة» على الفرع الكانوبى للنيل، أو كما كانت تسمى قديما «سخت مافكا»[٥٣].

(١٢) كهف حجفة الطرة: (حكفت الطير):

ويقع على مبعدة ٢٤ كيلا من بنى غازى، عند تقابل الصحراء مع الوادى الساحلى، حيث عثر على آثار مرحلة الإنتقال فى أرضية الكهف، فضلا عن الصناعات النصلية، وخاصة الأسلحة الميكروليثية والأزاميل الدقيقة.

(١٣) كقه جحفة الضبع: (حكفت الضبعة):

وهو فى «برقة» حيث عثر على أسلحة كثيرة مختلفة الأحجام، مما يؤكد اعتبارها منطقة إنتقال حضارى، ذلك لأن التوصل إلى صناعة حجرية جديدة لا يعنى أبدا الإنقطاع الفجائى عن التقاليد الحضارية السابقة، وإنما المفروض منطقيا أن يسير التقليدان جنبا إلى جنب، حتى يحل القديم محل الجديد.

(١٤) كهف هوافتيح:

وثالثهما «كهف هوافتيح»[٥٤]، والذى تعتبر طبقاته الأثرية بمثابة سجل حى

---

(٥٣) محمد بيومى مهران: مصر، الجزء الثالث، ص ٦٥٦– ٦٥٨، عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٢٨٠ –٢٨٢، وكذا:

A. A. H. Gardiner, op. cit., p. 361 - 362.
S. A. Cook, CAH, III, 1965, p. 401.
W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 281 - 284.
Herodotus, II, 169.W. J. Wiseman, op. cit., p. 94 - 95.

(٥٤) كهف هوافتيح (Haua Fteah): كشفت عنه بعثة كمبردج فيما بين عامى ١٩٥١، ١٩٥٥م، على مقربة من سوسة فى ليبيا (إلى الشرق قليلاً من مرمى سوسة، وهى أبو لونا القديمة، بمنطقة الجبل الأخضر) وأرخ له «كربون ١٤» ما بين ٩٠٠٠، ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ويعد هذا الكهف من أكبر وأوسع كهوف عصور ما قبل التاريخ، ربما فى كل حوض البحر المتوسط، وشكله نصف دائرى بقطر ٨٠ متراً، ويبعد عن ساحل البحر ببضعة مئات من الأمتار، وتوجد فى سطح الكهف آثار من عهد الإستيطان الإغريقى (القرن ٧ ق. م)، ثم آثار الليبيين القدامى، ثم أدوات من العصر الحجرى الحديث، ومع أن عمق الحفريات وصل إلى ١٣,٥ متراً، غير أن عمق الترسبيات غير معروف (أنظر عن كهف هوافتيح:

C. B. M. Mc Burney, the Hawa Fteath (Cyrenatca) and the Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1967).

لتاريخ الانسان فى هذه المرحلة، وما تلاها حتى العصر التاريخى، حيث عثر على كميات كبيرة من الأسلحة الحجرية المشابهة لصناعة حجفة الطيرة، ولنتحدث الان عن الحضارتين الوهرانية والقفصية.

هذا فضلاً عن آثار العصر الحجرى الحديث فى موقع «هوافتيح» بمنطقة الجبل الأخضر فى برقة، وعلى رأسها الفخار، إنما تثبت توصل الانسان هناك إلى الإستقرار والزراعة، وقد طبقت طريقة «كربون ١٤» المشع على أثار الطبقة الأخيرة فى موقع هوافتيح، وأرخت نتيجة لذلك بحوالى النصف الثانى من الألف الخامس قبل الميلاد(٥٥).

وعلى أية حال، فهناك ما يشير إلى موثرات مصرية واضحة فى هذه الآثار الليبية، فهناك وجه شبه كبير بين فخار الفيوم وبين موقع هوافتيح، والأمر كذلك فى الصناعات الحجرية، كرؤوس السهام، والتى لم يعثر على جذور لها فى المواقع الليبية، الأمر الذى يؤكد وجود التأثيرات المصرية، خاصة وأن حضارة الفيوم، فيما يرى كثير من الباحثين – ومنهم سليمان حزين، وكاتون طمسون، وبورتر، وجاك فاندبيه، ووليم هيز – إنما كانت أسبق من حضارة مرمدة(٥٦)، ذلك لأن مجتمع الفيوم، رغم أنه كان مجتمعا مستقرا، ولكن دون أن يقيم أكواخا، أو يتخذ له مأوى ثابتا – كما فعل أهل مرمدة وحلوان العمرى – هذا فضلا عن أن أدوات أهل الفيوم إنما كانت أقل تطورا، وفخارهم أكثر خشونة، وربما يرجع إلى منتصف الألف السادس قبل الميلاد(٥٧).

---

(55) L. Balout, op. cit., p. 481.

وانظر عن الآراء المختلفة حول التواريخ المقترحة لعصر التأسيس (الأسرتين الأولى والثانية فى مصر الفرعونية): محمد بيومى مهران: مصر، الجزء الثانى، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ٩ – ١٢.

(56) W. C. Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago, 1962, p. 70.
G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, The Fayum, I, 1943, p. 295 - 296.
S. A. Huzayyin, op. cit., p. 295 - 296.

(٥٧) اختلف العلماء حول بداية العصر الحجرى الحديث فى مصر ونهايته، فهناك من يقترح البداية فى الألف العاشر أو الثامن من قبل الميلاد، ومن يقترح حوالى عام ٦٥٠٠ ق. م، كبداية بالنسبة للفيوم (أ)، وحوالى ٥٠٠٠ ق.م بالنسبة للزراعة، وأنه استمر حوالى ٨٠٠ عام، على أن فريقاً =/=

وعلى أية حال، فهناك صلات حضارية بين حضارة الفيوم أ، وبين مواقع سيوه والخارجة وغيرها من مواقع الصحراء الغربية المصرية، مما يؤكد وجود سير خط حضارى بين منطقة شرقى ليبيا وبين وادى النيل الأدنى وخاصة منطقة الفيوم، فى ذلك الوقت المبكر من مرحلة استقرار الإنسان.

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب إلى أن الجذور الأولى لحضارة العصر الحجرى الحديث فى شمال أفريقيا، بوجه عام، إنما ترجع فى الحقيقة إلى جهود الإنسان وقت ذاك فى منطقة الصحراء الكبرى – وهى منطقة فسيحة تمتد من البحر الأحمر وحتى المحيط الأطلسى – وكانت مسرحا ضخما لتجول الإنسان وتنقله بين الأودية والعيون والواحات والآبار، خلال المراحل الجوية المناسبة التى تخللت تاريخ هذه المنطقة الصحراوية، وقد عثر الآثاريون على عدد كبير من المواقع الأثرية فى أجزاء من هذه المنطقة، وقد أكدت أبحاث «كاتون طمسون» وجود صلات حضارية فى التقاليد الصناعية بين هذه المواقع الاثرية.

وقرب نهاية العصر الحجرى القديم الأعلى، وبداية الإنتقال للعصر الحجرى الحديث، أى بعد ظهور مراحل الجفاف الأخيرة، اضطر الإنسان فى هذه المنطقة الصحراوية إلى الرحيل نحو الأودية والمناطق التى يجد فيها مأكله ومشربه، ومن ثم فقد اتجهت مجموعات من هذا الإنسان نحو الشمال – نحو برقة وتونس – واتجه بعضها نحو الشرق – نحو الواحات المصرية وبحيرة قارون ووادى النيل الأدنى – وقد تمكن هؤلاء الذين انتقلوا إلى المنطقة الأخيرة من أسبقية التوصل إلى الإستقرار، وإنشاء القرى، وعلى ذلك يمكن تفسير وجود هذه الصلات الحضارية

=/=

رابعاً يرى أن العصر الحجرى الحديث يبدأ فى الربع الأول من الألف الخامسة، أو حوالى منتصفها فى الوجه البحرى، وأخيراً فهناك من يراه فيما بين منتصف الألف الخامسة وبداية الألف الرابعة قبل الميلاد (أنظر: محمد بيومى مهران: مصر، الجزء الأول، ص ٢١٥ – ٢١٦، وكذا:

W. C. Hayes, op. cit., p. 113 - 116.

E. Massoulard, op. cit., p. 48.

G. Caton-Thompson and E. W. Gardiner, op. cit., p. 93.

K. W. Butzer, BSRGE, 32, 1959, p. 43.

G. Clark, op. cit., p. 227.

J. Vandier, op. cit., p. 188.

الآنفة الذكر، بين حضارة الفيوم أ، وبين حضارة منطقة شرقي ليبيا، على أساس إمكانية انتماء كلتا الحضارتين أصلاً، إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة في . منطقة الصحراء الكبرى(٥٨).

هذا ويذهب الدكتور يسرى الجوهرى إلى أن تفسير بعض التشابه بين مواقع سيوه والخارجة والفيوم وكهف هوافتيح، إنما وجد عن طريق افتراض إمكانية إنتماء حضارة الفيوم وشرق ليبيا، إلى جذور وتقاليد حضارية واحدة في الصحراء(٥٩).

بقيت الإشارة إلى أنه قد عثر - من مرحلة العصر الحجرى القديم الأوسط - على فك إنسانى في «كهف هوافتيح» - إلى الشرق قليلاً من مرسى سوسة (أبولونا القديمة) في غرب درنة بمنطقة الجبل الأخضر في ليبيا - وطبقاً لتأريخ «كربون ١٤»، فلقد أرخ الفحم الخشبى الذى عثر عليه في الموقع بحوالى ٤٣,٠٠٠ سنة قبل الميلاد(٦٠)، وقد أكدت الدراسات الدقيقة لإنسان «هوافتيح» أنه قريب الشبه بإنسان «الطابون» و «الكرمل»* في فلسطين(٦١)، فضلاً عن التشابه في الصناعة الحجرية، مما يؤكد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، مما دفع البعض إلى القول بأن هذا الإنسان قد دخل هذه المنطقة من الجنوب أثر هجرة جنوبية - شمالية، ظهرت آثارها كذلك في وادى النيل، ثم تطور بعد استقراره في هذه المنطقة(٦٢).

بقيت الإشارة إلى وجود صلات حضارية بين شرقى البحر المتوسط - وخاصة فلسطين، وعلى الأخص مدينة أريحا (٦٣)- وبين المواقع الليبية (حكفت

---

(٥٨) رشيد الناضورى: المغرب الكبير ١/ ١٢٦ - ١٢٧.

(٥٩) يسرى الجوهرى: جغرافية المغرب العربى، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٨١، ص ٥٤.

(60) C. B. M. Mc Burney, The Haua-Fteah (Cyrenaica) and The Stone Age of The South-East Mediterranean, Cambridge, 1961, p. 168.

(61) Ibid., p. 349.

(٦٢) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ٦١ - ٦٢.

(٦٣) أريحا (جريكو = Jericbo): ومعناها مدينة القمر، أو مكان الروائح العطرية، وهى مدينة هامة

=/=

الطيرة، وحكفت الضبعة، وكهف هوافتيح) أثناء العصرى الحجرى القديم الأعلى، وأن هذه التأثيرات أو الصلات نمت عن طريق دلتا النيل، غير أنه لم يعثر على آثار هذه الحضارة في المنطقة ما بين دلتا النيل وخليج سرت في ليبيا، بينما وجدت في هذه المنطقة أدوات الحضارة العاترية، واستمرت حتى العصر الحجرى الحديث بدون انقطاع، ومن ثم فقد بدأ العلماء في البحث عن طريق آخر لمرور هذه الحضارة من غربى آسيا إلى ليبيا.

هذا وقد أصدر «فيلب جيمس»(٦٤) عام ١٩٨٣م دراسة عن ٢٧ موقعاً أثرياً، تقع في المنطقة ما بين أسوان والأقصر، وتنتمى جميعها إلى العصر الحجرى القديم الأعلى، وكان من بينها موقعان يقعان على مبعدة ٨ كيلا شمال غرب إسنا (ربما غرب مدينة «حسفنت القديمة، وهى المطاعنة الحالية»)، وقد عثر فيها

=/=

تقع على مبعدة ٨ كيلا غربى نهر الأردن، ٢٧ كيلا شمال شرق القدس، أما «أريحا» التى جاء ذكرها في التوراة فمكانها «تل السلطان»، على مبعدة ميل واحد من مدينة «أريحا» الحديثة، وقد أثبتت الحفريات التى أجريت في «تل السلطان»، على أن أريحا واحدة من أقدم مدن العالم، وقد اكتشف فيها فخار من أقدم فخار العالم، كما عثر في أريحا على آثار الحضارة النطوفية بصورة متصلة حضارياً، تؤكد الانتقال الفعلى نحو مرحلة الاستقرار وإنتاج الطعام (أى مرحلة ما قبل النيوليثية، كما عثر على آثار مرحلة العصر الحجرى الحديث الصميم ابتداء من الطبقة التاسعة، وكان أول من قام بالحفر في أريحا «أرنست سيللين» و «كارل فتزنجر» في الفترة (١٩٠٧ - ١٩٠٩م)، ثم «جون جارستانغ» في الفترة (١٩٣٠ - ١٩٣٦) ثم «مس كاثلين كنيون» منذ عام ١٩٥٢م (أنظر: رشيد الناضورى: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ١/ ١١٧ - ١١٩، ٢٤٠، محمد بيومى مهران: اسرائيل ٢/ ٦٠٥، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٥٩، وكذا:

E. Sellin and C. Watzinger Jericho, 1913.

J. and J. B. E. Garstang, The Story of Jericho, 1940.

K. M. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, London, 1970, p. 13 - 43.

K. M. Kenyon, in PEQ, 1952, p. 62 - 82, 1953, p. 18 -95, 1954, p. 45 - 63, 1955, p. 108 - 117, 1956, p. 67 - 82 and in Scientifis American, 90, 1954, p. 76 - 82.

(64) Phillips James The Nile Valley Final Paleolithic and Externai Relations. University Microfilms International, Aim Albor, Michigan, U.S.A., 1983.

على كميات ضخمة من النصال، بلغت في الموقع الأول ١٠١٩٤، وفي الثاني ٢١٥٠٢ نصلاً، وأن أحد الموقعين يشبه تشذيب أدوات«أوشتاتا» في تونس، كما اتبع في صنع أدواته نفس التقنيات التي اتبعها إنسان موقع «أوشتاتا» Ouchtata، وأن الموقع الثاني (وقد انتقل إليه أصحابه من الموقع الأول) يشبه كثيراً من حيث التقنية والشكل موقع «الهامل»، والذي يبعد عن الساحل الجزائري بحوالي ٠٥٢ كيلا، كما أشرنا من قبل، وقد خضع الموقعان لعملية التأريخ بواسطة «كربون ١٤»(٦٥) المشع، فأرخ لهما بفترة لاتقل عن ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وبالتالي فهما سابقان لموقعي شمال أفريقيا(٦٦).

وانطلاقاً من هذا، فإن «فيلب جيمس» - وكذا «بالو» - يتفقان على أن التأثير الذي وقع على شمال أفريقيا إنما قدم من الشرق - من السواحل الليبية أو وادي النيل - وليس من الصحراء، وأنه لم يكن مقصوراً على الأداة فقط، وإنما امتد كذلك إلى الملامح الجسمانية، خاصة وأن إنسان النوبة وقت ذاك إنما كان يشبه رجل «مشتا العربي(٦٧)»، وبالتالي فإن أصل الحضارة الإيبرو مغربية (الوهرانية) من وادي حلفا (السودان) وليس من مصر، خاصة وقد كشف «فاربردج» فيما بين عام ١٩٦١، ١٩٦٢م عن ستة مواقع ذات أدوات ميكروليثية ميزتها أنصال ذات القاعدة في منطقة شمال وادي حلفا (٣٤٠ كيلا جنوب أسوان)، وأطلق عليها «حضارة حلفا»، وتظهر أهمية هذا الكشف الأثري في أمرين، الواحد: أنه يكشف لنا عن أول صناعة ميكروليثية في أفريقيا، والآخر: أنه

---

(٦٥) أنظر عن التقويم بكربون ١٤ (محمد بيومي مهران: مصر، الجزء الأول، الإسكندرية ١٩٨٨، ص ٢٧٠ - ٢٧٤، وكذا:

W. F. Libly, Radiocarbon Dating, Chicago, 1952.

R. M. Derricourt, Radio Carbon Chronology for Egypt and North Africa, in JNES, 1971.

H. S. Smith, Egypt and C 14 Dating, Anliguity, 1964.

C. Flight, A Surjey of Recent Results in The Radiocarbon Charonology Northern and Western Africa, JAH, 14, 1937.

(66) Phillps James, op. cit., p. 35, 130, 202.

(67) Fred Wendorf, The prehistory of Nubia, I, Dallas-Texas, U.S.A., 1968, p. 32.

تم فى هذه المواقع الستة تطور الصناعة من التشظية إلى النصال (وهى تقنية جديدة).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الصناعة ميكروليثية تماماً، ومبكرة جداً فى أفريقيا، ولا علاقة لها بالحضارة السبيلية (نسبة إلى قرية السبيل، فى مجاورات مدينة كوم، بمحافظة أسوان)، وتمثل صناعة نصال قزمية فى وادى النيل، ومبكرة عن باقى مناطق أفريقيا، ولقد أرخ لها «كربون ١٤» بحوالى ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتمثل النصال فيها نسبة ٩٢,٧٪ من مجموع أدواتها(٦٨).

هذا وقد نزحت هذه الحضارة شمالاً إلى «إسنا» (بمحافظة قنا)، وسكن أصحابها فى غربى «حسفنت» (المطاعنة الحالية - مركز إسنا)، كما وجدت فى «بلانة» (٣٠ كيلا شمالى وادى حلفا) بالنوبة المصرية القديمة (النوبة السفلى)، ويؤرخ لموقع بلانة هذا بحوالى ١٤,٠٠٠ سنة ق. م (طبقاً لكربون ١٤)، ويؤكد «وندروف» أن الحضارة الإيبرو مغربية ظهرت فى شمال أفريقيا حوالى ١٢,٥٠٠ سنة ق. م، وقد نزحت من مصر - وليس من أوربا - وأن أصحابها إنما كانوا يعيشون على طول نهر النيل، قبل أن تنتقل إلى شمال أفريقيا، وبالتالى فإن موقعى «وادى حلفا» و «بلانة» إنما هما سابقان زمنياً، ومن ثم فهما يمثلان السلف المباشر للحضارة «الإيبرو مغربية»(٦٩).

(١٥) محجر سيدى عبد الرحمن:

هو أحد المحاجر الكثيرة المنتشرة فى نواحى مدينة «الدار البيضاء» بالمملكة المغربية، نتيجة تجمع الرسوبات البحرية والحجر الرملى والجص طوال العصور الجيولوجية، وقد تخللت طبقات هذه المحاجر بقايا عظمية لحيوانات فقرية - كفرس النهر ووحيد القرن - وحيوانات لافقرية، فضلاً عن البقايا الأثرية - التى خلفها الإنسان من تلك المرحلة، وتنحدر هذه المواقع من ارتفاع يزيد عن مائة متر، وإلى مسافة ٥ كيلا، تجاه المحيط الأطلسى، كما تمتد

---

(٦٨) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٣٨ - ٤١، وكذا:
F. Wendorf, op. cit., p. 457.

(69) Fred Wndorf, The Prehistory of Nubia. II, 1968, p. 1050, 1057.

نحو الجنوب الغربى، حيث عثر على «كهف الدببة» (Grotte des Ours)، و «كهف ليتورين» (Grotte des Littorines) وقد كشف فى الكهف الأخير (ليتورين) فى عام ١٩٥٥م عن فك سفلى إنسانى من قطعتين، وفى حالة جيدة، ينتمى إلى مجموعة إنسان «باليكاو»، أى «مجموعة أتلانثروبوس»، التى ترتبط بمجموعة الشرق الأقصى (إنسان جاوه، وإنسان بكين)، وإن كان حجم الأسنان فى كهف «ليتورين» (Littorines) يقل عن نظيره فى «باليكاو».

وفى شهر فبراير عام ١٩٣٣م، عثر فى نواحى «الرباط» على بقايا إنسان، عرف باسم «إنسان الرباط»، وأغلب الظن أنه ينتمى إلى مجموعة إنسان باليكاو، وسيدى عبد الرحمن (مجموعة أتلانثروبوس). كما يؤكد التشابه الجيولوجى بين طبقات محجرى سيدى عبد الرحمن والرباط، تشابه البيئة المحيطة بحياة الإنسان الأول فى كلا الموقعين[٧٠].

(١٦) أهم المواقع الصحراوية فى العصر الحجرى الحديث:

(١) **موقع عبد العظيم**: يقع فى أقصى الجنوب الغربى، على حافة وادى الساورة.

(٢) **موقع زميلة بركة**: ويعد من أغنى المواقع، ويقع على مبعدة ٢ كيلا، جنوب غرب واحة أوغرطة، وعلى مبعدة ١٥٠ كيلا شمال موقع عبد العظيم.

(٣) **موقع زفان**: ويقع على مبعدة ٢٥ كيلا، جنوب شرق مدينة زفان.

(٤) **موقع تبلبلة**: ويقع غرب الساورة، ويتميز برؤوس سهام وفؤوس ومدى ذات تأثير مصرى.

(٥) **موقع أمكين**: ويقع فى أقصى الجنوب الشرقى للصحراء الجزائرية، وعلى مبعدة ٤٠ كيلا شمال غرب «تمتراست»، وهو تل مرتفع يشرف على السهل، حيث يجرى عند السفح مجرى مائى كبير يمد السكان بالماء والأسماك، كما

---

(٧٠) رشيد الناضورى: المغرب الكبير، ص ٥٤ - ٦١، وانظر:

H. V. Vallois, L'homme de Rabat, BAM, III, 1958 - 1959, p. 89

C. B. M. Mc Burney, The Stone Age of Northern Africa, London, 1960, p. 118.

وجدت آثار لمساكن متناثرة بين الكتل الصخرية، وقد وجدت بجانبها أحواض الطحين محفورة فى الصخر، وتعتمد الصناعة فى هذه المواقع على الكوارتز، ومن أدواتها نصيلات مسننة ورؤوس سهام.

هذا ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن المواقع الأثرية الصحراوية إنما وجدت فى الهضاب أيضاً - كما وجدت فى الجبال - وقد عثر على أدوات على السطح، وقد كشف «فورو لامى» فى عام ١٩٠٥م فى العرق الشرقى الكبير عن أكثر من ٢٣٢ موقعاً، فى مساحة لايتعدى طولها ٤٨٥ كيلا، وعرضها ٣٢٠ كيلا، وقد عثر فيها على نصال عادية، وأخرى متنوعة قزمية، وفؤوس وسهام موستيرية، وأخرى عاترية، كما عثر على ما يدل على استخدام القوم هناك فى العرق الشرقى لقشور بيض النعام والفخار[٧١].

(١٧) مخبأ رديف:

هناك ما يشير إلى وجود أدوات العصر الحجرى الحديث، ذات التقليد القفصى فى عدة مواقع تمتد من تونس شرقاً، وحتى المغرب الأقصى غرباً، ومن أهمها مواقع: الصفصاف والكف الأحمر والكيفان وجاعتشة، ثم مخبأ رديف، وهو أهمها جميعاً، (ويقع على سفح جبل رديف غربى قفصة بحوالى ٥٥ كيلا، وعلى مبعدة كيلو متر واحد من بلدة رديف على الشاطئ الشمالى لخور ينزل من جبل رديف)، ويذهب «جوبار» إلى أن موقع «مخبأ رديف» هذا، إنما يمثل حداً مشتركاً بين العصر الحجرى الحديث فى المغرب القديم والصحراء، أو هو - فيما يرى فوفرى - نقطة عبور من السمة الصحراوية إلى سمة العصر الحجرى الحديث ذى التقليد القفصى[٧٢].

---

(٧١) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٧١ - ٧٤، طاهر العدوانى: دراسة للحضارة فى عصور ما قبل التاريخ بالصحراء الجزائرية، وخاصة أثناء العصر الحجرى الحديث، الإسكندرية ١٩٧٥، ص ١٦٠ - ٩٦١، وكذا:

Foureau Lamy, Documents Scientifiques De La Mission Saharnenne, II, Publications De La Societe Geographyique De Paris, 1905, p. 1100 - 1125.

(72) R. Vaufery, op. cit., p. 291 - 306.

(١٨) موقع برزينة.

ويقع جنوب «وهران» فى الجزائر، ويمثل مرحلة انتقال من العصر الحجرى الحديث (١) (موقع رديف) إلى العصر الحجرى الحديث (٢) (دار السلطان)، فيما يرى «بالوه»[٧٣]، وإن ذهب «فوفرى» إلى أن الموقع متأخر زمنياً عن مواقع أخرى وجدت فى وهران، وذلك لقلة الأدوات القفصية، وزيادة الأدوات النيوليتية الخالصة فى الموقع، وأما الفخار فلم يعثر منه على آنية كاملة، وإنما عثر على كسور ذات زخرفة بمسحة المشط أو بالأصابع، فضلاً عن كسور ذات لون واحد، أحمر وأسود، بدون زخرفة، على أن هناك نوعاً أحمراً ذا قمة سوداء يشبه فخار عصر ما قبل الأسرات فى مصر، وآخر بلون أحمر يشبه فخار المعادى، والفخار جميعه أما ذو قاع مخروطى أو دائرى[٧٤].

(١٩) مشتا العربى:

كان مشتا العربى سكناً لأقوام طوال القامة (١٧٢ سم فى المتوسط) ومستطيلى الرؤوس، لهم جبهة ضيقة، وشفاه طويلة، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطناً فى المغرب، وكانوا يمارسون عادة خلع الأسنان القاطعة، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس، ونحافة الجسم فى أماكن معينة أظهرها «كتولومناتا» (Columnata) فى غرب الجزائر، وذلك حوالى عام ٦٠٠٠ ق.م[٧٥]

---

(73) A. Rhulman, La Grotte Prehistoirique De Dar-Essoltan, Paris, 1951, p. 88.

(74) R. Vaufrey, op. cit., p. 360.

(٧٥) جيهان ديزانج: تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو ١٩٨٥، ص ٤٣١ - ٤٣٢،

وكذا: L. Balout, op. cit., p. 346, 349 - 351.

وكذا: G. Camps, op. cit., p. 81 - 88.

M. C. Chamla, Les Hommes epipaleolitheques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C R. A. P. E, XV. 1970, p. 113 - 114).

ولعل من الجدير بالإشارة إلى أن هناك من يذهب إلى أن إنسان «مشتا العربى» من أصل غربى لوجود شبه بينه وبين إنسان كرومانيون، وكذا إنسان جزر كناريا، والتى كانت بمثابة ملجأ بشرى تصل إليه العناصر البشرية من المغرب، غير أن هناك فريقاً من العلماء إنما يرى أن ذلك أمراً بعيد الاحتمال، ذلك لأن «الجوانشيين» (Guanches) رغم أنهم مشابهون أنثروبولوجيا لرجال «مشتا العربى»، فإنهم لايماثلونهم فى الحرف والصناعات والعادات، كما أن الحضارة الوهرانية لم تأت من أوربا، ذلك لأنها إنما ظهرت قبل بداية الملاحة عبر المضايق (حوالى الألف الرابع قبل الميلاد)، ومن وإلى صقلية، وهناك ما يحمل على الظن بأن أصولها شرقية، ومن المحتمل أيضاً أنها أتت من شمال سودان وادى النيل - فيما يرى تكسيير - ومن ثم فما داموا قد أتوا تحت ضغط من الشعوب المهاجرة، فلا شك أن «الإيبيريين - الموريتانيين» قد اتخذوا ملاجئ فى التلال، ويمكن أن يعتبروا أحد العناصر الإنثروبولوجية لسكان الجبال[٧٥].

(٢٠) وهران:

ميناء جزائرى على البحر المتوسط، وكانت أهم القواعد البحرية الفرنسية بشمال أفريقيا، هذا وينسب تأسيسها إلى تجار من عرب الأندلس فى القرن العاشر الميلادى، وقد تداولها الأسبان والأتراك (القرن ١٦ - ١٨م) واحتلها الفرنسيون فى الفترة (١٨٣١ - ١٩٦٤م)[٧٦].

هذا وينسب العلماء إلى «وهران» «الحضارة الوهرانية» وقد كشف عنها «بول بالارى» (Paul Pallary) فى عام ١٨٩٩م فى وادى مويلح، على مقربة من مدينة مغنية فى غرب الجزائر، وأطلق عليها اسم «إيبرو - مغربية»، اعتقاداً منه

---

(٧٥) جيهان ديزاغ. المرجع السابق، ص ٤٣١ - ٤٣٢، وكذا:
M. C. Chamle, Les home epipaleolithiques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem. C.R.A.P.E, XV, 1970, p. 113 - 114.

(٧٦) جيهان ديزاغ: المرجع السابق، ص ٤٣٢.

أن هناك صلة تربطها بحضارة العصر الحجرى القديم الأعلى فى شرق أسبانيا، وإن أثبتت المقارنة بين المواقع المختلفة عدم وجود هذه العلاقة، ومن ثم فقد أطلق عليها «فوفرى» اسم «الحضارة الوهرانية»(٧٧)، غير أن موقع مويلح إنما كان متوسط الأهمية، وأقل شأناً من موقع «أفلوبوريمال» بين جيجل وبجاية فى شرق الجزائر، هذا فضلاً عن انتشار مصطلح «إيبرو - مغربية» فى الأبحاث الأثرية، الأمر الذى أدى إلى الإبقاء على هذا المصطلح، رغم عدم دقته.

وعلى أية حال، فالحضارة الوهرانية حضارة ساحلية، وصناعتها غير دقيقة، ومن مادة رديئة، بل ويعدها الباحثون من أفقر صناعات عصور ما قبل التاريخ، ويقسمها الباحثون إلى ثلاث مراحل: الأولى سابقة للحضارة القفصية، وتوجد فى موقع واحد قرب مدينة قفصة فى تونس حيث الأدوات الكبيرة وعدم وجود أدوات ميكروليثية، ثم تتجه شمالاً إلى موقع سيدى منصور فى تونس أيضاً، حيث وجدت الأزاميل القزمية. والثانية والثالثة معاصرة لها، وإن تميزت المرحلة الثانية بالأدوات الميكروليثية، فضلاً عن تلك التى صنعت من عظم، وقد وجدت فى مواقع عميقة فى المغرب الأقصى ككهف الخنزيرة ودار السلطان ومغارة تافورالت، وأما المرحلة الثالثة فقد وجدت فى مغارة «كلومناتا» فى الجزائر، وقد تميزت بأدواتها الميكروليثية، وأنها تمثل أوج «الحضارة الايرومغربية»(٧٨).

هذا وقد اختلف الباحثون فى تحديد مكان هذه الحضارة الوهرانية فى سلم التطور الحضارى فى هذا العصر، فهناك من يراها متأخرة زمنيا، أى أنها معاصرة للمرحلة الأخيرة من الحضاره القفصية، ومن يرى لها أسبقية فى الصناعة النصلية على أساس أن بعض المواقع الأثرية فى نواحى الدار البيضاء إنما تحوى خليطا من

---

(٧٧) قارن: رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

(٧٨) أم الخير العقون: المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣١، وكذا:

R. Vaufrey, Prehistoire de L'Afrique, I, Le Maghreb Ed-Masson, Paris, 1955, p. 88 - 89.

وكذا: L. Balout, op. cit., [. 304.

الآثار الوهرانية، وبالتالى فإن للحضارة الوهرانية أولوية فى النصلية فى المغرب، على أن هناك وجهـا ثالثـا للنظر يذهب إلى وجـود صـلات حـضـارية بين حـضـارة «هوافتيح» فى برقة، والحضارة الوهرانية، وأخيرا فهناك اتجاه رابع يذهب أصحابه إلى الاعتقـاد فى وجود صلات حضارية بين المواقع الساحلية الأسبانية والمواقع الوهرانية والمغربية، وإن اختلفت الآراء فى أيهـما المصدر الأصلى لهذه الحضارة، هل هو الجانب الأوربى أم المغربى(٧٩).

وعلى أية حال، فلقد انتشرت الحضارة الوهرانية فى تونس والجزائر والمغرب، وإن اختلفت مواقعـها من السـاحل قربا أو بعـدا، ففى تونس: وجدت مـواقع: أكاريت، وأدواته مطابقة لأدوات كحفت الطيرة فى ليبيا، و«أوشتاتا»، وقد كشف عنه عام ١٩٥٢م، ويعتبره البعض من أقدم مواقع الحضارة الوهرانية فى الشمالا الأفريقى، وفى «قلعة الصنم» على الحدود بين تونس والجزائر(٨٠).

وأما مواقع الحضارة الوهرانية فى الجزائر، فهى مواقع ساحلية تمتد من عنابة وحتى أقصى الغرب الجزائرى، وقد وجدت فى عنابة وسوق وهران وبجاية، وأما فى الوسط الجزائرى، فتبعد المواقع عن الساحل، ويتمثل ذلك فى اختراق إنسان «مشتا العربى»(٨١) (حامل الإيبرو مغربية» للهضاب العليا، كما فى موقع «الهامل» على مبعدة ٢٥٠ كيلا من الساحل، وتشير القواقع البحرية فى هذه المواقع على اتصال بالمواقع الساحلية.

(٧٩) رشيد الناضورى: المرجع السابق، ص ١١٥ - ١١٧.

(80) L. Balout, op. cit., p. 375 - 377.

(٨١) كان مشتا العربى سكنا لأقوام طوال القامة (١٧٢ سم فى المتوسط) ومستطيلى الرؤوس، لهم جبهة ضيقة، وشفاه طويلة، وربما كانوا أول سلالة تتخذ لها موطنا فى المغرب، وكانوا يمارسون عادة خلع الأسنان القاطعة، ثم بدأ يظهر تحول نحو قصر الرأس، ونحافة الجسم فى أماكن معينة أظهرها «كولومناتا» (Columnata) فى غرب الجزائر، وذلك حوالى عام ٦٠٠٠ ق.م (أنظر: جيهان ديزاغ: تاريخ أفريقيا العم - اليونسكو ١٩٨٥ ص ٤٣١ - ٤٣٢، وكذا:
L.Balout, op.cit., p 346, 349-351.
وكذا G.Camps, op.cit., p. 71- 88
M.C. Chamla, Les Hommes Epipaleolitheques de Columnata (Algerie Occidentale) Mem . C.R.A.P. E, XV, 1970, p. 113 - 114).

هذا ويعد موقع «أفلوبوريمال» (Aflou bou Rhummel)، على مقربة من بجاية فى الجزائر من أكثر المواقع أهمية لهذه الحضارة، فلقد عثر «أمبورج» فى حفائر عام ١٩٢٨م على حوالى ٦٠ هكيلا عظيما، إلى جانب مجموعة من الالآت الحجرية وغيرها، وهناك موقع «كولومناتا» - على مبعدة ٢٠ كيلا شمال تياريه، ١٢٠ كيلا من الساحل - وقد قدم لنا تتابعا طبقيا لثلاث مستويات حضارية من أسفل إلى أعلى (وهرانية ثم قفصية عليا ثم عصر حجرى حديث)، كما أن صناعته ذات سمة وسطى للتحول نحو القفصية، وقد أطلق عليها «الكلومناتيه».

(٢١) نوميديا:

كان سكان المغرب القديم - أثناء حكم القرطاجيين - من البربر، وقد كوّنوا ممالك نوميدية، وفى أثناء الصراع بين روما وقرطاج - الذى انتهى بانتصار روما نهائيا فى موقعة «زاما» (Zama) فى عام ٢٠٢ ق.م.

وتقع «زاما» أو «جامة» : السبع بيار، على مقربة من قرطاج نفسها - (وهى ساقية سيدى يوسف على مقربة من تاراجرا (Naraggara) فيما يرى وارمنجتون وهى قرب الضريح القائم بقصر طوال الزمامل، وفى أعلى نقطة من المعبر المفتوح بين جبل ماحبوح شمالا، والجبال الملاصقة لصرد مكثر من جهته الشمالية جنوبا، والذى يصل فيما بين سهل سليانة وسهل السرس، فيما يرى أحمد صقر) وقد ساهم فى معركة «زاما» هذه «ماسينيسا» بأربعة آلاف فارس، فأكسب ذلك الروم ولأول مرة تفوقا عظيما على هانيبال فى الفرسان، فتزحزح جناحا هانيبال من الفرسان عن مراكزهما، على حين استطاع مشاة «سكيبيو الأفريقى» بما لهم من نظام أصلب وأسلم، أن يفسحوا بين صفوفهم دروبا تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاجية، دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة.

هذا وقد استغل «ماسينيا» - حليف روما - ذلك الشرط الجائز الذى يقضى بتقيد حرية قرطاج العسكرية، وألا تشن حربا - داخل أو خارج أفريقيا - إلا باذن من روما، فى توسيع رقعة بلاده، على حساب جارته المهزومة قرطاج، وكثيرا ماهاجم الأراضى القرطاجية بهذه الدعوى، وفى كل مرة كانت قرطاج

لاتستطيع رد العدوان، وكل ما كان فى إمكانها أن تتقدم بشكوى إلى مجلس السيناتو فى روما، الذى كان يجد عادة مايبرر به اعتداءات ماسينيسا.

على أن هذا لايمنع من القول بأن «ماسينيسا» (Masinissa)– فيما يرى البعض – إنما كان شخصية قوية البنيان، جمة النشاط، متعددة المواهب، وقد تلقى تعليمه فى قرطاج، وقدر – تقديرا سليما – أهمية الإفادة بما يمكنه من الحضارة القرطاجية فى اقليمه الخاص (مملكة نوميديا)، وفى الواقع، فلقد كانت شخصيته فى مستقبل الأيام، أكبر من كونه رجلا خرج على قومه، ليعمل فى صفوف أعدائهم الرومان، وهكذا بدأ منذ عام ٢٠٦ ق.م، يعقد أواصر صداقة متينة مع عدد من أبرز السياسيين الرومان، وقد كوفىء بعد معركة «زاما» فى عام ٢٠٢ ق.م بالأجزاء الشرقية، والتى تمثل أخصب أراضى «سيفاكس» وهكذا امتد حكمه من «قسنطينة» (قرطه Cirta) فى منطقة تمتد إلى الغرب من هذه المدينة، وحتى الحدود القرطاجية الجديدة – فى نفس الوقت الذى تركت فيه المنطقة الأقل تقدما بين مملكة ماسينيسا وحتى وادى ملوية، لابن سيفاكس –.

هذا ويذهب بعض الكتاب القدامى إلى أن «ماسينيسا» إنما قد زاد الانتاج الزراعى فى نوميديا زيادة كبيرة، حتى أن «سترابو» إنما يحاول أن يوهمنا أنه قد حول الرعاة إلى مزارعين، ورغم ما فى هذا القول من مبالغة، فالذى لاشك فيه أن هناك زيادة فعلية فى المنطقة المزروعة بالحبوب، حتى أصبح هناك فائض للتصدير، وإن ظلت الماشية سائدة دونما ريب، كما أن هذا يبشر، دونما ريب أيضا، بمزيد من التطور الزراعى فى العصر الرومانى، ورغم أن التجارة كانت محدودة، فلقد سكت العملة من البرونز والنحاس.

هذا وقد أصبحت «قرطة» (قسنطينة) عاصمة «ماسينيسا» مدينة حقيقية، وإن كان تقدير عدد السكان بمائتى ألف نسمة فى عهد ابن ماسينيسا، مبالغ فيه كثيرا، ورغم أننا لانعرف عن آثارها الكثير، فإن شكلها العمرانى إنما كان قرطاجيا صميما، وقد عثر فيها على لوحات حجرية بونية، أكثر مما عثر فى أى موقع أفريقى آخر – عدا قرطاج نفسها – كما أن لغة قرطاج انما قد استخدمت بكشل متزايد فى نوميديا وموريتانيا.

وعلى أية حال، فلقد ظل «ماسينيسا»، وعلى مدى نصف قرن من الزمان، يمارس ضغطا متزايدا لانتزاع أراضى قرطاج، وربما ساوره أمل فى أن تكون قرطاج نفسها فى النهاية من نصيبه بموافقة الرومان، وعلى أية حال، فلقد ظلت مكاسب «ماسينيسا» حتى عام ١٧٠ ق.م، صغيرة فى الأرض، غير أن روما إنما بدأت منذ عام ١٦٧ق.م، تنتهج سياسة تتسم بالخشونة والقسوة، سواء أكان ذلك فى أفريقيا، أو فى خارجها، مع استمرار تعاطفها مع ماسينيسا الذى يغذى شكوكها نحو قرطاج[٨٢]، وفى كل هذا لم تكن قرطاج تملك غير الشكوى لمجلس السيناتو فى روما، وكانت روما - كالعادة - ترد بإرسال وفد من مجلس السيناتو Senato للتحقيق فى الامر.

على أن روما إنما قد أرسلت فى إحدى المرات «ماركوس بوركيوس كاتو» (٢٣٤ - ١٣٩ق.م) لتسوية الخلاف بين نوميديا وقرطاج، وكان «ماركوس بوركيوس كاتو» هذا، محاربا قديما، وسياسيا ضيق النظر، وقد شاهد برأس عينيه أن قرطاج إنما قد بدأت تستعيد شيئا من تجارتها ورخائها، فهاله ذلك، بل أرعبه ما فى قرطاج من بعض دلالات الرخاء، بل وإمارات السعادة، ومنذ تلك الزيارة أصبح «كاتو» هذا، يختتم كل خطاب يلقيه فى مجلس السيناتو، بأن ينعق قائلا: «يجب أن تدمر قرطاج» Delenda est Carthago[٨٣].

هذا وقد أدى موت «ماسينيسا» فى عام ١٤٨ ق.م- أثناء الحرب البونية الثالثة ١٤٩ - ١٤٦ق.م- إلى عودة البربر إلى «الفرقة السياسية - مرة أخرى، بعد أن نجح «ماسينيسا» إلى حد كبير فى جمع شملهم، فضلا عن الخلافات الأسرية بين أبناء «ماسينيسا» الثلاثة (ميبسا ومستعنجل وغولوسة)، فيمن يخلف الأب على عرش نوميديا، ولعل فى تدخل القائد الرومانى «سكيبيو» فى هذه الشئون الداخلية، بل فى شئون الأسرة البربرية، مايدل على وثاقه العلاقات بين الروم والقرطاجيين، وعلى أية حال، فلقد انفرد «ميبسا» (Micipsa) الأخ

---

(٨٢) ب.هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٨٣) هـ. ج. ويلز: المرجع السابق ص ٥٤٢، وكذا B.H.Warmington, op.cit., p. 202.

الأكبر، بعرش نوميديا فى الفترة (١٤٨ - ١١٨ ق.م) كما صحب الأخ الثالث (غولوسة) القائدة الرومانى فى حملته على قرطاج.

وهكذا انتهت مشكلة «نوميديا» بانضمامها نهائيا مع الروم ضد قرطاج، غير أن قبائل البربر الموريتانية إنما قد انضمت إلى قرطاج ضدر روما وبربر نوميديا، الأمر الذى يؤكد أنه - على الرغم من نجاح الرومان فى توطيد صلاتهم بالبربر، وتقوية روح الكراهية بينهم ضد القرطاجيين، على الأقل فى المجال الحربى - فإن هناك فريقا من البربر مايزال فى جانب القرطاجيين، هذا فضلا عن تقبل البربر للتراث القرطاجى - الأدبى والدين - والذى يتمثل فى استمرار اللغة البونية الجديدة، بعد اندحار القرطاجيين فى أعقاب الحرب البونية الثالثة - إلى جانب التأثير الكبير بالعقيدة القرطاجية[٨٤].

هذا ويتميز عهد «ميبسا» (Micipsa) (١٤٨ - ١١٨ق.م) بن ماسينيسيا: بازدياد حجم التبادل بين روما وإيطاليا، وبين النوميديين، ومن ثم فقد أصبحنا نسمع كثيرا عن العديد من التجار فى العاصمة «قرطة»، وعندما توفى انتقل حكم نوميديا إلى اثنين من أخوته، فضلا عن ابن أخ لهما يدعى «يوجورتا» (يوغرطه - Jugurtha)، حفيد «ماسينيسا»، والذى كان يحظى تأييد رجل الدولة الرومانى «سكيبيو ايميليانوس» (Scipio Ameellanus) - كما كان جده «ماسينسا» يحظى بتأييد سكيبيو الأفريقى[٨٥].

وانتهت الأمور فى عام ١٦ قبل الميلاد، بأن قسمت روما «مملكة نوميديا» إلى مملكتين، الواحدة: شرقية يحكمها «أدهربال»، وتمتد من حدود الدولة القرطاجية القديمة - والتى أصبحت الولاية الأفريقية الرومانية - وحتى حدود «قرته»، والأخرى: غربية، وتمتد حتى الحدود الشرقية للمغرب الأقصى أى وادى ملوية، ويحكمها «يوجورتا».

غير أن «يوجورتا» سرعان ماثار على هذا الوضع، واستولى على «قرطة»، وأعاد الوحدة السياسية مرة أخرى لنوميدية - المملكة البربرية - تحت رياسته، وهو

---

(٨٤) رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٨٥) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢.

أمر، لاشك فى أنه يتعارض تماما مع السياسية الرومية، وقد يؤدى - فى نفس الوقت - إلى تكوين قوة بربرية جديدة لها شأنها فى المغرب، يمكن أن تحل محل القوة القرطاجية القديمة، ومن ثم فقد انتهز الروم قتل «يوجورتا» لأفراد الجالية الإيطالية هناك، فأعلنوا عليه الحرب، وهكذا بدأ صراع عنيف بين يوجورتا والروم فى الفترة (١١١- ١٠٥ق.م)، حقق فيها الرجل عدة انتصارات على الروم، بعد أن ألحق بجيوشهم هزائم منكرة، غير أن روما سرعان ما لجأت إلى الخداع والمؤامرات حتى أمكنها الإيقاع به، وأخيرا غرر به حموه «بوخوس» (Bocchu) - ملك موريتانيا، وسلمه للرومان، بناء على اتفاق بين بوخوس والقائد الرومانى «سلا» (Sulla)، وهكذا تحقق للرومان مايريدون من تقوية نفوذهم فى المغرب، وقتل «يوجورتا» فى عام ١٠٤ ق.م، ونال «بوخوس» ثمن غدره بصهره إقليما كبيرا شرقى ملوية.

وسرعان مانصبت روما عضوا آخر من أسرة «ماسينيسا» ملكا يدعى «غودة» أو «جودة» (Gauda)، ثم خلفه ولده «هيمبسال» (Heimpsal) الذى خلعه أحد منافسيه قرابة أعوام خمسة (٨٨ - ٨٣ ق.م)، غير أنه أعيد مرة أخرى إلى الحكم لمدة تقرب من ثلاثة وعشرين عاما (٨٣ - ٦٠ق.م)، ومن المعروف عنه أنه ألف كتابا عن أفريقيا باللغة البونية، وفى أكبر الظن أنه استمر فى الخط الحضارى الذى بدأته أسرته.

هذا وقد تورطت نوميديا - فى أخريات أيامها كدولة مستقلة - فى الحرب الأهلية التى دمرت الجمهورية الرومانية، وذلك بسبب إهانة تلقاها «يوبا» (Juba) بن «هيمسال» (٦٠ - ٤٦ ق.م) على يد «يوليوس قيصر» باعتباره فتى صغيرا، الأمر الذى دفع «يوبا» إلى الانضمام إلى معسكر «بومبى» فى عام ٤٩ قبل الميلاد، وقدم له قدرا كبيرا من المساعدة فى أفريقيا، حتى قيل أن «يوبا» قد وعد بأن يتولى إمارة الاقليم الرومانى فى أفريقيا، إذ ماقدر لأنصار «بومبى» (١٠٦ - ٤٨ ق.م) أن يكسبو الحرب، غير أن النصر إنما كان منتصيب «يوليوس قيصر» (١٢٠ - ٤٤ ق.م) فى معركة «ثابسوس» (رأس الديماس على الساحل التونسى)، فى عام ٤٦ ق.م، الأمر الذى أدى إلى انتحار «يوبا»، وفرض الحكم

الرومانى المباشر على نوميديا، فضلا عن تكوين ولاية جديدة - إلى جانب ولاية أفريقيا التى حلت محل الدولة القرطاجية - وقد دعيت الولاية الجديدة، ولاية «أفريقيا الجديدة»، وهكذا بدأ الرومان يثبتون أقدامهم فى المغرب،مما مهد فى السنوات التالية إلى احتلال كامل للمنطقة، واعتبارها جزءا من الإمبراطورية الرومانية(٨٦).

(٢٢) موريتانيا:

يذهب المؤرخون إلى أن تقدم المملكة الموريتانية - بصفة عامة - أكثر بطئا من نوميديا، وربما كان هذا التصور بسبب نقص المعلومات، غير أنه من الواضح أن الجزء الرئيسى لجبال أطلس إنما ظل حصنا للحضارة الفينيقية - مثلما كان فيما بعد حصنا للحضارة الرومانية - ومع ذلك، فلاريب فى أن هناك بعض التقدم فى حياة الاستقرار فى المناطق الخصبة مثل «وادى ملوية»، وعلى طول ساحل الاطلنطى، وفى المناطق الجبلية احتفظت القبائل المستقلة بشخصيتها خلال العصر الرومانى،وحتى بعد ذلك.

ومرت البلاد بفترة نزاع داخلى، حتى أصبحت فى عام ٣٣ قبل الميلاد، ومقتل «بوجود» فى عام ٣١ ق.م، خلواً من أى حاكم وطنى، وكان فى إمكان روما ضمها إليها مباشرة، غير أن القيصر «جايوس أوكتافيوس» - ابن أخ يوليوس قيصر، والذى صار إمبراطواراً يحمل لقب «أغسطس» (٢٧ق.م - ١٤ م) - إنما رأى أن الوقت لم يعد بعد مناسبا، لكى تتولى روما الحكم المباشر، ربما خوفا من المشاكل العسكرية الكبيرة من جانب القبائل الجبلية.

وأيا ماكان الامر، ففى عام ٢٥ قبل الميلاد، نصب «يوبا» الثانى - ابن الملك النوميى الأخير - ملكا، وهو الذى قضى طفولته منذ الرابعة من عمره فى ايطاليا، والذى أعاد تنظيم المملكة النوميديه مؤقتا فى الفترة (٣٠ - ٢٥ ق.م)، وقد استمر هذا الملك «يوبا الثانى» فى الحكم أكثر من أربعين سنة (٢٥ق.م - ١٥م)، كان خلال دونما ريب عميلا مخلصا للروم، وقد قام فى موريتانيا -

---

(٨٦) ب.هـ وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧١ - ٤٧٢، رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٣١١ - ٣١٢.

وإلى حد ما – بنفس الدور الذى قام به «ماسينسيا» فى نوميديا، وان كان الأمر الذى لاشك فيه أن عاصمته «إيول» Iol أمكن آخر الامر من اخضاعها فى عام ٢١٢ ق.م قد صارت متحضرة فى عصره، كما صارت كذلك العاصمة البديلة «وليلى» (فولوبيليس – Volubillis) متحضرة أيضا[٨٧].

وعلى أية حال، فهناك من يذهب إلى أن «يوبا الثانى» هذا، إنما كان يعد مواطنا رومانيا، وأنه قد ارتبط بالزواج بالأميرة «كليوبترا» ابنة الملكة الشهيرة «كليوبترا» آخر ملوك البطالمة وأن عصره إنما يعد – من الناحية الحضارية – أقرب إلى الصفة الدولية، فقد كان يعتمد على كافة الثقافات الرومانية والقرطاجية واليونانية والمصرية، وقد دعم هذا الإتجاه بتكوين مكتبة شاملة لمختلفة هذه الثقافات فى ذلك العصر، وأنه هو شخصيا على جانب من العلم والأدب، حتى نسب إليه تأليف عدد من الكتب بالإغريقية، وإن لم يوجد منها شيء الآن.

على أن تأثره بالثقافة الرومانية كان أكثر وضوحا من غيره، ربما بسبب نشأته الرومانية، ومن ثم فقد اتجه إلى النظام السياسى الرومانى، فضلا عن العقيدة نفسها، ومن هنا فإنه – على الرغم من أن البربر إنما كانوا يتمسكون بالمعبودات البربية الأصل، والتى أمن بها الفينيقيون والقرطاجيون سواء بسواء – غير أن «يوبا الثانى»، إنما اعتنق عبادة الإمبراطور الرومانى «أوغسطس»، بل وشيد فى عاصمته «شرشال» معبدا للإمبراطور أوغسطس (٢٧ق.م – ١٤م)[٨٨].

وكانت الأسباب الرئيسية للثورة، مقاومة السكان الأصليين للإستيطان الرومانى، فلقد حمل الثائر النومدى (تكفاريناس) السلاح لإرغام أقوى إمبراطور وقت ذاك، على الإعتراف بحق شعبه فى أرضه، ذلك لأن الغز الرومانى إنما قد أدى إلى مصادر كل الارضين الخصبة فى الحال، وخربت حقول النوميديين المستقرين، كما تقلصت، وأحيانا حددت المناطق التى تعارف النوميديون على

---

(٨٧) ب. هـ. وارمنجتون: المرجع السابق ص ٤٧٣.

(٨٨) رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٣٢١ – ٣٢٣.

التجوال فيها، ووطأ المحاربون القدماء وغيرهم من الايطاليين والرومان بأقدامهم فى كل مكان، بادئين بأغنى أجزاء البلاد، واقتطعت شركات التزام جباية الضرائب، وأعضاء الإرستقراطية الرومانية، وأعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ممتلكات ضخمة لأنفسهم، وبينما كانت بلادهم تستغل بهذه الطريقة، فإن الرعاة الأصليين، وكل السكان المقيمين الذين لم يسكنوا المدن القليلة الباقية بعد الحروب المتتابعة، أو إجراءات المصادرة للملكية الشخصية، فهم إما تحولوا إلى فقر مدقع، أو طردوا إلى السهوب غير المشجرة، وإلى الصحراء، وصار أملهم الوحيد فى المقاومة المسلحة، وكان هدفهم الرئيسى من الحرب، هو استعادة أراضيهم(٨٩).

وعلى أية حال، فلقد تبادل «تكفاريناس» مع الروم، النصر والهزيمة، طوال سنوات الثورة الثمانى، حتى تمكن الروم آخر الأمر من استخدام طريقة الكمائن المفاجئة ضد قوات «تكفاريناس»، وضاعفوا من مهاجمتهم لقواته، حتى تمكنوا آخر الأمر من التحكم فى الموقف، وقتل «تكفاريناس» عام ٢٤ م.

وجاء بعد «يوبا الثانى» ولده «بطليموس»، والذى ظل يحكم موريتانيا فى الفترة (٢٣ - ٤٠م) ثم استدعاه الإمبراطور «جايوس كاليجولا» (٣٧ - ٤١م) وأعدمه لسبب غير معروف، على وجه اليقين، على رأى، ولأنه اجتذب انتباه الحاضرين بزيه الأرجوانى اللون فى حفل رسمى فى عام ٤٠ بعد الميلاد، على رأى ثان، غير أن السبب الحقيقى إنما يرجع، دونما ريب - إلى أن الرومان إنما كانوا يرغبون فى الإستيلاء على المناطق شبه المستقلة فى الغرب، ثم ضمها إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية، وقد تحقق لهم هذا الأمر، ومن ثم فقد أنشئت ولايتى موريتانيا القيصرية والطنجية، داخل نطاق المغرب الرومانى.

وهكذا أصبح المغرب يتكون من أربع ولايات رئيسية هى: أفريقيا ونوميديا وموريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية، وقد امتدت الولاية الإفريقية فى جانبها

---

(٨٩) عمار محجوبى: العصر الرومانى ومابعده فى شمال أفريقيا - كتاب تاريخ افريقيا العام - تورينو ١٩٨٥ ص ٤٧٦.

الشرقى حتى مدينة طرابلس، وفى جانبها الغربى حتى مدينة عنابة، بينما تركزت ولاية نوميديا فى شرقى الجزائر، وأما ولايتا موريتانيا - القيصرية والطنجية - فتحتل مناطق غربى الجزائر والمغرب الأقصى، ويفصل بينهما نهر «ملوية» (مولوكا - Mulucha) وكانت مدينة «شرشال» عاصمة لموريتانيا القيصرية، ومدينة «طنجة» عاصمة لموريتانيا الطنجية[٩٠].

(٩٠) رشيد الناضورى: المرجع السابق ص ٣٢٥ ، ٣٣٢.

الباب الخامس
إيران وآسيا الصغرى

الفصل الأول
إيــران
(١) فيما قبل العصر الإخمينى

تقديــم:

لعل من الجدير بالإشارة أن الباحثين إنما يستخدمون تعـــبيرين للإشـــارة إلى منطقة جغرافية واحدة، وإن كانا ليسا مترادفين تمامـــا، وأعنى بهمـا: إيران وفارس :

١ـ إيران:وهى التمسية الأقدم، وقد جاءت فى الأوستاك «إيريانافيجا»، بمعنى «موطن الآريين» و«الإيرانيين»، ثم تطورت إلى «بلاد إيران»، هذا وقد استخـدم الجغرافى مصطلح «بلاد إيران» (إيرانا)[١].

والآرى: بمعنى «نبيل أوسيد» وهى تسمية عامة لهؤلاء القوم الذين قدموا إلى هذه المنطقة – فيما بين نهرى الجاغ والفرات، عند نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد[٢].

٢– فـارس: وأول من أطلق هذا الاسم هم الأغـارقـة، ولعله اشتق من أقليم «بارسا» (Parsa)، ثم حرف إلى «برسيس» (Persis)، ثم أسماه العرب «فارس»، وربما استمد «إقليم بارسا» شهرته من أنه مسقط رأس الملوك الهخشامنين «الذين أسسوا البيت الفارسى الحاكم، ثم أطلق الأغارقة هذا الإسم على الإمبراطورية الإيرانية، ومن ثم فقد عرفت باسم « الإمبراطورية الفارسية»[٣].

وعلى أية حال ففى عام ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥م، طلبت الحكومية الإيرانية من الدول الأجنبية أن تطلق على بلادها رسميا إسم «إيران»[٤].

(١) أحمد أمين سليم: إيران ص ٧–٨ (وسترجع إليه بعد ذلك عدة مرات)، عبد النعيم حسنين: الإيرانيون القدماء – القاهرة ١٩٧٤ ص ١١ ، طه باقر:مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ٣٧٣/٢ (بغداد ١٩٥٦).

وكذا E.Herzfeld, Iran in The Ancient East, Oxford, 1941, p. 192.

وكذا R.N.Frye, The Heritage of Persia, London, 1963, p. 2.

(٢) طه باقر: المرجع السابق ص ٣٧٣.

(٣) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٨.

وكذا: B.Dicks, The Ancient Persian.. London, 1979, p. 14

(٤) دوبالدولبر: إيران ماضيها وحاضرها ص ١ (مترجم – القاهرة ١٩٥٨).

وأما أهم المدن والمواقع الأثرية فى إيران فهى:

(١) **بهستون**: قرية بين همدان وحلوان، وعلى مبعدة ٤٨ كيلا شرق «كرمنشاه» وقامت بالحفر فى الموقع بعثة انجليزية فى الفترة (١٨٣٦ - ١٨٤١م) برياسة «سيرهنرى رولنسون» وقد تمكنت من الكشف عن نقش للملك الفارسى «داريوش» (دارا الأول ٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م). وقد نحت فى صخرة عالية هناك.

ثم قامت بالحفر هناك بعثة أمريكية فى الفترة (١٩٤٨ - ١٩٤٩م)، وقد عثر «كارلتون كورن» فى «كهف بهستون» هذا فى عام ١٩٤٩م، على بقايا عظام إنسانية مثل «عظمة الزند» وأحد الأسنان، فضلا عن بعض الأدوات الموستيرية، إلي جانب كمية كبيرة من السكاكين ذات التقنية التى تفوق مثيلاتها فى المناطق الأخرى[٥].

(٢) تبة جيان:

تقع جنوب غرب مدينة «نهاوند»، شرق «كرمنشاة» بمطنقة «لورستان» وعلى ارتفاع حوالى ١٨٠٠ م فوق سطح البحر، فى آخر الأودية التى تتاخم شمال جبال لورستان، وكانت تقع على الطريق الذى يصل مابين «حارسين» و«دلفان» و«على أشتار».

وهناك على مبعدة ٤٠ كيلا إلى الشمال الغربى منها، ا لطريق الذى يصل مابين «حمدان» و«طهران» ،حيث يسهل الوصول إلى «بلاد النهرين» (العراق) عن طريق «قصرى شيرين» ، فضلا عن الوصول إلى «سوسة» عن طريق أودية لورستان، الأمر الذى أدى إلى اتصال «حضارة جيان» بـ «حضارات عصور ماقبل التاريخ» فى العراق القديم من ناحية، و«وسوسيانا» من ناحية أخرى، وقد ظهر أثر ذلك فى إنتاج حضارة جيان فى عصور ماقبل التاريخ.

هذا ويقع الموقع الأثرى شمال «قرية جيان» مباشرة، ويصل ارتفاعه إلى حوالى ١٩م، وطوله يزيد عن ٣٥٠ م، وتشغل الجبانة معظم التل الأثرى.

---

(٥) أنظر عن «بهستون» (أحمد سليم: المرجع السابق ص ٣٨، ٨٨، أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ٢١٩، جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ١٧/١ (بيروت ١٩٦٨).

هذا وقد قامت بعثة فرنسية - برياسة جورج كونتنيو، و«رومان جرشمان» - بعمل حفائر فى موقع «تبة جيان» فى عام ١٩٣٢/١٩٣١؛ باشراف متحف اللوفر بباريس.

وقد عثر على نوعين من الفخار فى الطبقة الخامسة - من العصر الحجر الحديث - أولهما: صنع من عجينة خشنة ومسامية، وجدرانه سميكة، وحوافه غليظة، والثانى: صنع من عجينة جيدة وخالية من الشوائب.

وأما التحديد الزمنى لعصر حضارة جيان الخامسة (أ) فيذهب «ديسو» إلى تحديدها بالفترة فيما بين عامى ٤٨٠٠، ٤٥٠٠ ق.م(٦).

(٣) تبه حسار:

وتقع بالقرب من «دمغان» - والتى على مبعدة ٣٦١ كيلا شرق طهران - وقامت بعثة أميريكية مشتركة من «متحف بنسلفانيا للفن»، والمعهد الامريكى للفنون والآثار الفارسية - تحت اشراف إريش ف. شمدت (Erich. F.Schmidt) - فى عام ١٩٣١/ ١٩٣٢م.

هذا وقد تميز موقع تبه حسار» - على مبعدة ٣ كيلا من مدينة دمغان - بأهميته طوال العصور التاريخية لموقعه على الطريق التجارى الذى يمر بشمال إيران.

ولعل من الجدير بالإشارة أن «عادة وأد البنيات» ربما وجدت فى «تبه حسار»، إعتماداً على ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال، وأن ذلك بسبب «وأد البنات» فى سن الطفولة - كنوع من التضحية البشرية(٧).

هذا فضلا عن انتشار عادة الزواج بين الأخ وأخته، وقد كانت منتشرة فى

---

(٦) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٤٠، ٤١ - ١٥٨ - ١٦١.
وكذا G.Contenau et E. Ghirshman, Fouilles du Tepe- Giyon Pres de Nehavend (1931- 1932), Paris, 1935, p. 1 - 3, 62-63.

(٧) أنظر عن التضحية البشرية فى مجتمعات الشرق الأدنى القديم (محمد بيومى مهران: بنو اسرائيل ١٥٢/١ - ١٦٣ (ط ١٩٩٩)، مصر ٤٠١/٢ - ٤٠٢، المدن الفينيقية ص ٣٤٥ - ٣٥٣، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٧٧/١ - ١٨٠ (ط الرياض ١٩٨٠، ط بيروت ١٩٩٠، ط الإسكندرية ١٩٩٥).

غربى أسيا، ثم ظلت بين الفرس، فضلا عن عادة زواج المرأة بأكثر من زوج، ورغم عدم وجود أدلة مقنعة على ذلك، غير أن هذا الزواج قد وجد له شبيه فى بعض مناطق الشرق الأدنى القديم(٨).

(٤) تبه جانجى داره:

وتقع على مبعدة ١٤ كيلا جنوب بهستون، وعلى ارتفاع يصل فيما بين ١٣٠٠، ١٤٠٠م ويصل عمق المخلفات الأثرية إلى ٧م، ويمكن تأريخها بأواسط الألف التاسعة قبل الميلاد.

هذا وقد كشف فيها عن بقايا معمارية صلبة يصل سمكها إلى ٢٠ قدماء، وكانت مساكنها بهدف الإستقرار الدائم، وإن لم يعثر على أية مخلفات فخارية فى هذا الموقع لم يتوصلوا، بينما عثر على كميات كبيرة من العظام الحيوانية.

وكان حجر الصوان هو المادة الرئيسية التى صنعت منها الأدوات الحجرية، ولم يعثر على أية أدوات مصنوعة من حجر الأوبسيدان، كما أن سكان هذا الموقع إلى مرحلة «إنتاج الطعام».

هذا ويرجح بعض الباحثين إلى أن هذا الموقع (تبه جانجى داره) يرجع إلى فترة ماقبل العصر الحجرى الحديث، والذى كان فى هذه المنطقة فى الفترة (١٠٠٠٠ - ٨٠٠٠ ق.م)(٩).

(٥) تبة جوران:

وتقع على نهر الكرخة، على مبعدة ٦٧ كيلا جنوبا كرمنشاه، ويصل ارتفاعها إلى حوالى ٩٥٠ قدما فوق مستوى سطح البحر، وتغطى بقايا الموقع الأثرى مساحة (١١٠ × ٨٠ م) وسمات الطبقات الأثرية حوالى ٨ م.

هذا وتمتد زمنيا من حوالى منتصف الألف السابعة، وحتى منتصف الألف

---

(٨) أحمد سليم: المرجع السابق ص ٤١، ٢٣٤، ٢٥٢.

وأنظر: E.F.Schmidt, Excavations at Tep - Hissar Damghhan, Philadephlia, 1937, p. 25 - 29.

(٩) أحمد سليم: إيران ص ١٠٤ - ١٠٥.

T.C.Young and P.E.L. Smith, Research in The Prehistory of Central Western Iran, in Science, Vol, 153, No 3731, 1966, p. 387 - 388.

السادسة قبل الميلاد، وتعاصر حضارة جرموا فى العراق القديم[١٠]، وهى من أولى المواقع الإيرانية التى تدل بقاياها الأثرية على بداية الاستقرار البشرى فى الهضبة الإيرانية.

وتشير الحفائر إلى أن المساكن التى شيدت فى الطبقة الأولى إنما كانت أكواخا بسيطة من الخشب، وكان سكانها من الرعاة، كما اشتغلوا بصيد بعض الحيوانات الضخمة، كالماشية البرية.

وقد كشف فى الطبقات الأثرية الوسطى من «تبة جوران» - فى بداية الألف السادسة قبل الميلاد - عن بعض أدوات الإنتاج الزراعى - كالرحى والمناجل - كما عثر على بعض حبوب الشعير المتكربنة، وقد عرف الإنسان إستئناس الحيوان - كالماعز - هذا وقد جمع الإنسان هنا بين الرعى والصيد، وبداية الزراعة المستقرة، وبالتالى فقد بدأت الأكواخ الخشبية تختفى، وأخذت المنازل تبنى بقوالب اللبن، فوق أساس من الحجر، ثم غطيت أرضية الحجرات بملاحق من الجص الأبيض والأحمر، واستخدم القوم أفران مقببة - كالتى فى حضارة جرمو فى العراق-.

هذا وقد بدأ الفخار يظهر فى الموقع بعد الطبقات الثلاث الأولى، وهو عبارة عن أوان ذات لون رمادى داكن، غير مزينة، وبشكل خشن، وجدران الأوانى سميكة، وجوانبها أفقية أو مقوسة، ثم أصبح الفخار مصقولا، ثم الفخار الملون، ثم المزين باللون الأحمر، وفوق أرضية صفراء أو برتقالية، ثم الفخار الأحمر المصقول، وعليه طبقة لامعة، ويشبه فخار «سيالك الأولى»، وهو يعاصر «حضارة حسونة[١١] - سامراء» فى شمال العراق.

هذا وقد عرف إنسان هذا الموقع الصناعات الحجرية والعظيمة، كما صنع من العظام بعض الخارز والدبابيس، وكان حجر الصوان، هو الحجر الرئيسى، كما عرف حجر الأوبسيدان، واستخدم الأصداف والطين المجفف فى عمل أدوات الزينة، فضلا عن تماثيل النساء والحيوانات، وقد يشير إلى أهمية المرأة كأم.

وأما عن دفن الموتى، فقد عثر على دفنة واحدة فى الطبقات الأولى، فى قبر

---

(١٠) أنظر عن حضارة جرمو (محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ١١- ١٤.

(١١) أنظر عن حضارة حسونة (محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم ص ١٤ - ٢٠.

بيضاوى، وقد وضعت الجثة فى هيئة مقرفصة[١٢].

(٦) تل باكون:

يقع تل باكون على مبعدة ٢ كيلا جنوب «برسيبوليس» فى إقليم فارس، شرق إقليم خوزستان، فى سهل «ميرف داشت»، ويتكون من تلين أ، ب، وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الاستقرار البشرى إنما بدأ فى «تل باكون ب» منذ العصر الحجرى الحديث.

ويتميز الموقع بأنه منطقة مراعى، وقد اعتمد الإستقرار البشرى فيه، فضلا عن الزراعة، على مياه الأمطار، هذا وتعتبر مرحلة «باكون ب» من أقدم مواقع العصر الحجرى الحديث فى منطقة فارس، ويؤرخ – عن طريق كربون ١٤ – بحوالى الفترة ٤٢٢٠ ± ٨٣ ق.م – وكان الفخار فيه غير ملون، وخالٍ من الزينة، وإن ظهر الفخار الملون فى الطبقات العليا (مرحلة باكون ب ٢)، وأما «باكون أ ١» فهى المرحلة التالية من عصور ماقبل التاريخ فى إيران[١٣].

(٧) تبة سيالك:

تقع تبة سيالك على مبعدة ٣ كيلا، جنوب غرب كاشان، فى واد مرتفع يصل إلى حوالى ١٠٠٠م فوق سطح الأرض، على الحافة الغربية للصحراء الإيرانية الكبرى، على مقربة من سلسلة الجبال التى تمد المنطقة بالمياه من الأمطار التى تسقط عليها.

وموقع «تبة سيالك» مهيئ جغرافيا لأن يكون محطة هامة على الطريق التجارى، الذى تتشعب منه الصحراء، ويتصل بالمركز المزدهر فى «جبال البرز» وغيره من مراكز غربى وجنوب غربى إيران، وكشفت الطبقات الأثرية فى الموقع عن اتجاه السكان للتبادل التجارى مع المناطق الواقعة إلى الغرب منها، فى المراحلة الأولى والثانية من سيالك، ومع المناطق الواقعة إلى الشرق منها فى المرحلة الثالثة،

---

(١٢) أحمد سليم: إيران ص ١١٥ – ١١٩.

(١٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٦ – ١٧٩.

وكذا M.Mallowan, The Development of Cities from Al- Uleaid to The End of Urjk, 5, in CAH, I. Part, I, Camleridge, 1976, p. 441 - 442.

ثم إلى المناطق الواقعة إلى الغرب منها فى المرحلة الرابعة(١٤).

ويتكون الموقع من تلين، يفصل بينهما ٦٠٠م، أقدمها التل الشمالى، إذ كشف عن إتباع المرحلة الأولى والثانية، ثم التل الجنوبى حيث كشف عن المرحلتين الثالثة والرابعة، ويبلغ ارتفاع المخلفات الإنسانية فيهما حوالى ١٤ م.

وتنتمى حضارة «سيالك أ» إلى نهاية العصر الحجرى القديم، لم يعرف فيها القوم بناء المنازل، وإنما كانت «دورة» من المواد الخفيفة، ثم تطورت إلى جدران من الطين، ورغم استمرار الفرد فيها صياداً، فقد استأنس بعض الحيوانات - كالماشية والأغنام - كما بدأ مرحلة الزراعة، وصنع الفخار (أسود أو أحمر)، وزخرف أوانيه التى كانت محاكاة للسلال، وكانت الآلة من الحجر، وقد عثر على سكاكين وفؤوس.

واستعمل أدوات الزينة - كالدلايات والأساور والخواتم - كما استعمل «الوشم»، كما بدأ الحفر والنقش فى العظام، وقد عثر على مقابض بعض الأدوات مزينة بما يمثل غزال أو أرنب، فضلا عن مقبض سكين فى هيئة إنسان يلبس قلنسوة، ويغطى عورته إزار، مثبت بحزام، وهى تعد من أقدم تماثيل الشرق الأدنى القديم.

وكان القوم يدفنون موتاهم تحت أرضية المنازل فى وضع «مقرفص»، وربما اعتقدوا فى البعث لوجود بعض الأثاث الجنازى، والتقدمات مع الموتى.

ويرجح بعض الآثاريين توصل القوم إلى معرفة النحاس واستخدامه فى بعض الأغراض كعمل الدبابيس، ومن ثم تصبح إيران - إن صح ذلك - أول من استخدم النحاس فى العالم القديم، وبالتالى لاتصبح «سيالك أ» من العصر الحجرى الحديث.

وأما «سيالك ٢» فتعاصر حضارة البدارى فى مصر(١٥)، وحضارة العمق

---

(١٤) أحمد سليم : المرجع السابق ص ١٤٣ - ١٤٥.

وكذا: V.G.Child, New Light on The Most Ancient East, London, 1964, p. 191.

R.Ghirshman, Fouilles de Sialk, Pres de Kashan, 1933, 1934, 1937, Vol, I, Paris, 1938, p. 5, 9, 34.

(١٥) أنظر عن حضارة البدارى (محمد بيومى مهران: مصر ٢٤٧/١ - ٢٥٧ (الإسكندرية ١٩٨٨).

(جـ) في سورية، وفيهما بدأ القوم يستخدمون اللبن، بدلاً من الكتل الطينية التي كان يستعملها في بناء المنازل، والتي كان شكلها بيضاويا، وكانت متسعة، ومطلية باللون الأحمر، وتزود بالأبواب أو بمنافذ تغطيها ستائر، وكان الموتى يدفنون فيها، كالحضارة السابقة.

وتقدمت صناعة الفخار، وزينت بمناظر حيوانات وطيور رسمت بلون أسود على أرضية حمراء، وكثر استخدام النحاس، وأزدوات الزينة، واستخدم فيها مواد جديدة كالعقيق، وغيره من الأحجار البراقة،واستأنس القوم كلاب الصيد، والخيل الصغيرة الحجم، فضلا عن الماشية والأغنام التي أستأنسها القوم من الحضارة السابقة.

وفي حضارة سيالك ٣: ظهر تطور معماري، وأصبح شكل اللبن منتظماً، بعد أن صار يصب في قوالب، وأصبحت القرى تخترقها ممرات طويلة ضيقة ومتعرجة، وزودت المنازل بأبواب ونوافذ صغيرة ضيقة، وساعد على زيادة إضاءتها أنها كانت ذات مداخل ومخارج أو فجوات، على أبعاد منتظمة، وكانت تزينها من الخارج قطع من الأواني الفخارية الكبيرة، يرجح أنها ثبتت في الجدران لحمايتها من الرطوبة، كما كانت تطلى باللون الأحمر أو الأبيض، وظل الموتى يدفنون تحت أرضية المنازل، وفي الوضع المقرفص، وزادت كمية الأثاث الجنزي، وكثرة التقدمات.

هذا وينسب لهذا العصر «عجلة الفخار» التي ساعدت على إنتاج أشكال مختلفة من الأواني، كما أدخلت أنواع عديدة من الزخارف، مرت بمراحل ثلاثة، وترجع هذه المرحلة إلى العصر الذي ظهرت فيه الكتابة في العراق، كما أنتجت هذه الفترة تماثيل صغيرة، تمثل إلهة الأمومة، فضلا عن أنواع مختلفة من الحيوانات ولعب الأطفال.

وأصبح النحاس في هذه الحضارة يصهر ويصب في قوالب لعمل أدوات مختلفة، وإن ظلت الآلات الحجرية مستعملة كذلك، وتعددت أدوات الزينة، وزاد استعمال الأحجار شبه الكريمة، هذا وكان اتساع التجارة سببا في أن يميز الصناع صناعتهم، بعلامات مميزة، فاستخدموا ختما من الحجر، على شكل مخروط، كان في بداية الأمر ينقش بزخارف هندسية الشكل، ثم وضعت بعد ذلك رموز أخرى من الكائنات الحية، والنباتات التي كانت تستوحى من رسوم الفخار.

هذا وقد انتظمت الجماعات المختلفة فى مدن كبيرة فى مناطق السهول - وخاصة فى «سوسة» فقد ظهر أول حكومة مدينة فى عيلام، غير أن قلة السكان وتفرقهم فى المناطق الأخرى من الهضبة، وفى أماكن متباعدة، إنما كان سببا فى تأخر نمو هذه الجماعات، وانتظامها فى مدينة كبيرة.

ثم أخذت صناعة الفخار والمعادن تخطو فى تقدمها خطوات موحدة تقريبا، وإن وجدت مميزات خاصة بكل منطقة، الأمر الذى أدى إلى تطور الحضارة فى منطقة عيلام، قبل دخولها فى العصر التاريخى.

ولعل من الجدير بالإشارة أنه وجد فى «سيالك» آثار حريق وتدمير بعض المساكن التى تنتمى إلى «سيالك ٣» وإقامة مساكن أخرى فى مكانها، اختفى الفخار الملون منها وحل مكانه فخار أحمر أو رمادى، يشبه فخار سوسة، هذا وقد أصبح الختم الإسطوانى يستعمل بدلا من الختم المخروطى، مما يدل على إدخال الكتابة على الألواح الطينية، ثم ظهرت «الكتابة قبل العيلامية» فى ألواح وأثار، وجدت مع هذه الأختام.

هذا وقد دخلت هذه العناصر - التى أتت بالكتابة «قبل العلامية» إلى سوسة - إلى منطقة «سيالك» فى غزوة وحشية، ومن المرجح أنها كانت أقوى وأغنى من سكان المنطقة الأصليين، ذلك لأن وجود مظاهر حضارية - من تلك التى أحدثوها فى سوسة - بمنطقة سيالك، مع ماصاحبها من آثار تدمير وحريق، إنما يشير إلى أن هذه الحضارة قد فرضت بالقوة، خلافا لما حدث فى المنطقة الشمالية، حيث تسللت إلى هذه الأخيرة العناصر المسالمة التى يحتمل مجيئها من التركستان أو من السهول البعيدة فى وسط آسيا، وقد أتت معها بالفخار الأسود والرمادى، واندمجت مع السكان الأصليين.

وتتميز منازل هذا العصر بأنها بنيت بعناية، وقد زوّدت عند مدخلها بموقد، قسم إلى قسمين: أحدهما للطعام، والآخر للخبز، وإلى جانبه إناء للماء، وقد عثر فيها على أثاث خشن الصنع.

وكان الموتى يدفنون تحت أرضية الحجرات، وتوضع معهم مهمات جنزيه، وتقدمات مختلفة، كأدوات الزينة،ن والمرايا النحاسية، وأوانى من المرمر وغيرها، وقد زين الموتى أنفسهم بحلى كثيره، كالدلايات المطعمة بالذهب أو الفضة، وأقراط مزينة بقطع من الذهب، وأساور من فضة، وعقود طويلة خرزها من أحجار بيضاء،

ومن الذهب والفضة، ويوحى تعدد المواد، ورقى الصناعة، بأن هذه الحلى قد صنعت فى «سوسة» أو بلاد العراق، حيث عثر على شبيهة لها فى مقابر أور الملكية.

هذا وقد ظهرت الكتابة فى حضارة سوسة، والتى توغلت إلى وسط هضبة إيران، وهى كتابة متقدمة عن الكتابة التصويرية البحتة، وقد وجدت وثائق مكتوبة - قبل عصر الإخمينيين - فى داخل الهضبة، والتى تأثر بحضارة عيلام، وربما كان هذا التأثير أتى عن طريق توسع سياسى عيلامى، ربما لخدمة أغراض تجارية، على أن هذه التأثيرات الحضارية التى أتت إلى إيران لم تأت من منطقة واحدة، أو فى وقت واحد، أو بدرجة واحدة، ومع ذلك فقد امتصتها، بل ونشرت ثقافتها فى جيرانها، ومثالنا ذلك النوع من الفخار المزخرف الذى انتقل إلى العراق، وكان شائعا فى إيران - فى سيالك وحسار -(١٦).

(٢) العواصم الإيرانية (الفارسية)

كانت العاصمة الإيرانية - أو الفارسية - شأنها شأن غيرها فى كثير من الدول - قد تغيرت أكثر من مرة، بل ربما كانت توجد أحيانا أكثر من عاصمة فى وقت واحد.

وعلى أية حال، فلقد كان مقر الحكومة المركزية فى «إقليم فارس»، حيث كان يوجد الملك - كرئيس للجهاز الإدارى - وكان يوجهه فى سرعة ودقة إلى الهدف المقصود، وهو السيطرة على الولايات، حتى لاتخرج عن طاعته، وكان يستعين فى ذلك بقوته وشجاعته، وسلطانه، وأما عواصم الإمبراطورية الفارسية فهى:

١- سوسة:

إختار «كيروش» مدينة «سوسة» (سوسا) عاصمة عيلام، لتكون مركز إدارته، عندما كان حاكماً لإقليم «أنشأن» - وربما كانت مدينة «مسجيدى سليمان» الحالية- والتى أصبح يحكم منها حتى أسس عاصمته «بازار جاده» (Pasargadiae).

---

(١٦) محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم - الإسكندرية ١٩٦٨ ص ٣٩٩ - ٤٠٧.

وانظر: R.Ghirshman, Iran, p. 48 F.

ومدينة «سوسة» هذه، إنما هي واحدة من المدن القديمة، وقد جاء اسمها في سجلات الملك الأشوري «أشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م)، وذلك عندما استولى عليهما في عام ٦٥٠ قبل الميلاد.

ثم صارت للبابليين، بعد اقتسام المملكة الآشورية بين البابليين والميديين، حيث استولى الميديون على قسمها الشرقي، وأخذ البابليون جنوبها، واضطرت الحكومة الآشورية - بقيادة الملك «أشور - أو بلط الثاني» ٦١١٠ - ٦٠٩ ق.م) - أن تجعل من «حران» - وتقع على نهر بلخ، على مبعدة ٩٦ كيلا من اتصاله بالفرات - عاصمة لها، بعد سقوط «نينوى - على مبعدة ٤٠ كيلا، من التقاء الدجلة بالزاب الأعلى، قبالة الموصل - في أغسطس من عام ٦١١ ق.م، ثم أعقبتها «حران»، في عام ٦٠٩ قبل الميلاد[١٧].

هذا وقد ذكرت «سوسة» في التوارة باسم «شوشن القصر»[١٨]، و«شوشان القصر»[١٩].

وتشغل «سوسة» هذه الأيام موضع قرية «شوش أو سوس» بين نهرى الخرجة وأولاى، وتشغل خرائبها مسافة محيطها حوالى ٥ كيلا، وتتكون من أربعة أكوام.

هذا وقد كشفت الحفريات عن «قصر دارا العظيم»، هذا فضلا عن النص الحالى لقانون «حمورابى»، إنما كشف عنه في هذه العاصمة العيلامية (سوسة) في شتاء عام ١٩٠١/١٩٠٢م، بعثة فرنسية برياسة «جاك دى مورجان»، ثم نقل إلى متحف اللوفر في باريس، وكان قد نقله الملك العيلامى «شترك نخنته»، ربما حوالى عام ١١٥٠ قبل الميلاد[٢٠].

(١٧) محمد بيومى مهران: العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٤٩، تاريخ العراق القديم - الاسكندرية ١٩٩٠ ص ٤٣١، وكذا A.H.Gardiner, op.cit, p. 258

A.L.Oppenheim, ANET, p. 303-305 وكذا G.Roux, op.cit, p. 346- 347 وكذا

وكذا C.J.Gadd, The Fall of Nineveh, London, 1923.

(١٨) نحميا ١/١، أستيرا ١/٢.

(١٩) دانيال ٢/٨، وكذا A.Poebel, The Name of Elam in Sumerian Akkadian and Hebrew, AJSL, 48, p. 20F

(20) H.Schmokel, Geschiechte des Alten Vorderasien, Leiden, 1957, P.III.

وكذا J.Meek, ANET, p. 163-164.

ولعل من الجدير بالإشارة أن «كيروش» - بعد أن أسس عاصمته الجديدة «بازارجادة»، وبنى فيها قصراً له، إنما كان يقضى معظم وقته فى «سوسه».

(٢) أكبتانا:

إتخذ «كيروش» مدينة أكبتانا» (أكباتانا - Ecbatana) ومكانها الآن مدينة همدان الحالية - عاصمة لمملكته، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة صيفية.

(٣) بازار جادة:

أسس «كيروش» الثانى (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) عاصمته «بازار جاده (Pasargadiae) والتى أصبحت - ولأول مرة - عاصمة بلاد فارس الموحدة[٢١]، بعد أن أصبح لها حاكم واحد، هو «كيروش» - أوقورش-.

وتقع «بازار جادة» أو «باسار جادى» (Pasargadiae) إلى الشمال من مدينة «يرسوبوليس» (Persopolis) بحوالى ٨٠ كيلا، ومعنى اسمها فى الفارسية «مخيم الفرس»، ومكانها - على وجه التحديد - الخرائب المعروفة فى الوقت الحاضر باسم «مشهدى مرغاب».

وهناك رواية تذهب إلى أن «قورش» قد اختار مكانها، لأنها فى مكان الموقعة الحاسمة التى انتصر فيها على «إستياجز» - آخر ملوك الميديين-.

وظلت سوسة - كما أشرنا من قبل - على أهميتها، بعد تأسيس العاصمة الجديدة (بازار جاده) وبنى فيها قصراً، كما عمر أيضا فى بابل، فى قصر «نبوخذ نصر» (٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م) فى الجزاء الشمالى من المدينة.

(٤) برسوبوليس:

لم يقتنع «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) بهذه العواصم القديمة، وقد بلغ نفوذ الفرس غايته فى عهده، فامتدت دولته من البحر الأبيض إلى نهر السند، وأواسط آسيا، وشملت مصر وسورية وفينيقيا وليديا وأرمينيا والقوقاز، وأشور وبابل، وميديا وفارس، وأفغانستان وبلوخستان، وجزءاً من الهند.

(٢١) سميت إيران باسم «فارس»، نسبة إلى الإقليم الذى كانت فيه عواصم الدولتين الإخمينية، (الهخامنشية عند الفرس، والإكمينية عند اليونان) والساسانية، وأطلق الجزء على الكل، كما سميت اللغة التى يتحدث بها الإيرانيون باسم «اللغة الفارسية» نسبة إلى هذا الإقليم أيضا، وتحتل الدولتان - الإكمينية والساسانية - مكانه كبيرة فى نفوس الفرس أو الإيرانيين، لأنهما الدولتان اللتان تحقق فيهما الاستقلال الفارسى، وبلغ مجد إيران فيهما ذروته (عبد المنعم حسنين: المرجع السابق ص ٤١٨ هامش ١).

وعلى أية حال، فلقد استقر رأى «دارا» على إنشاء عاصمة جديدة فى موطن قومه - أى فى فارس - و«برسوبوليس» هى نفسها البلد المعروف باسم «إصطخرا» (Stakhra) - أى الحصن - والتى عرفت فى أيام العرب باسم «إصطخر».

ومن عجب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن ملك «سليمان» عليه السلام، إنما وصل إلى اليمن، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر، إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيداً - فى «إيران»، حيث اتخذ من «إصطخر» التى ينسبون إليه - أو إلى جنه - أمر بنانها، مقراً لحكمة، وعاصمة لبلاده[٢٢].

وليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد، يعرفون أن المدينة الفارسية (بروسيبولس= اصطخر Stakhra) إنما قد بدئ فى بنائها حوالى عام ٥٢٠ قبل الميلاد، على أيام الملك الفارسى «دارا الأول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م)، ولكن البناءلم يتم إلا فى عهد الملك «أرتاكزركسيس الأول» (أرتخشثا الأول ٤٦٤ - ٤٢٤ ق.م) حوال عام ٤٦٠ قبل الميلاد.

وإذا تذكرنا أن سليمان عليه السلام، إنما كان يحكم فى الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ق.م)[٢٣]، لتبين لنا أن المدينة إنما قد بدئ فى بنائها، بعد وفاة النبى الكريم، بحوالى أربعة قرون[٢٤]، بقيت الإشارة إلى أن مدينة «برسيبوليس» إنما تعرف فى الفارسية باسم «تخت جمشيد»، كما تعرف «بازار جادة» - فى الفارسية أيضا - بإسم «تخت مادرسليمان».

هذا فضلا عن أن الملك الفارسى، إنما كان يدير شئون ولايات إمبراطوريتة من آية واحدة من عواصمه - الآنفة الذكر[٢٥].

بقيت الإشارة إلى أن ماعثر عليه من خرائب مدينة «بزرجادة» إنما يثبت أنها مدينة فارسية أصيلية، لم تدخل عليه عناصر غريبة، ذات أهمية.

(٢٢) على إمام عطية: الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ص ٧١، ٧٢، وانظر: معجم ياقوت الحموى ٢١١/١ (بيروت ١٩٥٥)، محمد بيومى مهران: إسرائيل ٨٠٣/٢.

(٢٣) أنظر عن فترة حكم سليمان عليه السلام (محمد بيومى مهران: إسرائيل ١٤٥/٢، تاريخ العرب القديم ٥٢٠/٢).

(٢٤) محمد بيومى مهران: إسرائيل ٨٠٣/٢-٨٠٤ (الإسكندرية ١٩٧٨).

(٢٥) عبد النعيم وآخرون: حضارة مصر والشرق القديم ص ٤٣٥.

وأما مدينة «برسوبوليس» =برسيبوليس) ففيها عناصر مختلفة من العمارة والزخرفة، وفيما عثر عليه من تماثيل ولوحات وحلى وغيرها، نرى فيها آثاراً من فنون أواسط آسيا، وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى وسورية، ومصر، على الأخص.

هذا ورغم ماتعرضت له بقايا القصور والدور الحكومية والمعابد فى «برسيبوليس» فإن هذه البقايا إنما تشهد بعظمة وفخامة تلك المبانى.

على أن الذى يحز فى النفس، ويسجله بالعار على الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ق.م) أنه أقام وليمة كبيرة، أفرط فيها الجميع فى الشراب، ثم قام الإسكندر بحرق المدينة، إرضاء لإحدى محظياته، التى كانت تكره الفرس[٢٦].

(٢٦) أحمد فخرى المرجع السابق ص ٢٢٩،
وانظر: E.Herzfeld, Archaeological History of Iran, 1935.

الفصل الثانى
أسيـــا الصغـــرى

تقديـم:

آسيا الصغرى: شبه جزير بأقصى غرب آسيا، تدعى «الأناضول»، يحدها البحر الأسود شمالا، والبحر المتوسط جنوبا، وبحر إيجة غربا، ويصل البحر الأسود ببحر إيجة، بحر مرمرة، ومضيقا البوسفور والدردنيل.

هذا وبقرب الحد الجنوبى لآسيا الصغرى تمتد جبال طوروس، بينما يتكون باقى شبه الجزيرة من هضبة تعلوها الجبال، وتكثر بها البحيرات.

وكانت آسيا الصغرى ملتقى الحضارتين الشرقية والغربية فى العصور القديمة، إذ يربطها نهرا دجلة والفرات بالعراق، وتربطها سواحلها باليونان، وبعد تدهور «الدولة الحيثية» ظهرت المستعمرات اليونانية على السواحل، وبذا اتصل اليونانيون بليديا وفيريجيا وطروادة، وأدى غزو الفرس لآسيا الصغرى للحروب الفارسية، وأدمج الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ق.م) الإقليم فى إمبراطوريته، وبعد وفاته قسمت إلى ولايات صغيرة، ثم وحدها الرومان من جديد ولكنها كانت موضع مستمر من الغزاة فى ظل الإمبراطورية البيزنطية، وسقطت بيد العرب والأتراك السلاجقة، واستعادها الغرب مؤقتا على أيدى الصليبين، واستولى عليها الأتراك العثمانيون فيما بين القرنين ١٣، ١٥م، ودخلت بعد ذلك ضمن الإمبراطورية العثمانية، وكانت عاصمتها «القسطنطينية» وفى عام ١٩٢٣م، أصبحت «أنقرة» عاصمة لتركيا.

وأما أهم المدن والمواقع الأثرية فى آسيا الصغرى فهى كالتالى:

١- أرثو (أرزاوا):

أرثو: هى «أرزاوا» بالبابلية، وهى معروفة من رسائل العمارنة، وسجلات «بوغازكوى» وهى ليست مدينة، وإنما هى بلد - أو عدة بلاد - وهناك شبه اتفاق بين العلماء على أن «أرزاوا» إنما تقع على ساحل البحر المتوسط، فى الجهة الغربية من الجنوب الغربى من بلاد «خاتى»، وتشغل المنطقة التى احتلتها أخيرا «بامفيليا» (Pamphylia).

وأما لغة أرزوا، فقد عرفت - للمرة الأولى - من خطابين من العمارنة، وتنتمى إلى «اللغة الهندو - أوربية» ، وتنسب إلى اللغة الحيثية، وتعرف الآن باسم «اللغة اللوية» (Luwian).

هذا وتظهر «أرزاوا»، وكأنها تحتل مركزا بارزا بين حلفاء الحيثيين فى معركة قادش (حوالى عام ١٢٨٥ق.م) بين رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ق.م) والحيثيين[١].

وفى قائمة رعمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١ق.م) - بمدينة هابو فى طيبة الغربية - فإن «أرزاوا» هى «أرثو»، وعلى أية حال، فهى قد ذكرت مرة - على الأقل، فى عهد رعمسيس الثالث - فى حملة السنة الثامنة[٢] - إذ يرى رعمسيس الثالث، وهو يهاجم مدينتين حيثيين، أحدهما «أرزاوا»[٣].

٢- إيسوس:

مدينة فى قلقيا بآسيا الصغرى، تقع فى عمق الخليج الذى يحمل اسمها، وفيها وقعت معركة إيسوس فى عام ٣٣٣ق.م، بين الإسكندر الأكبر، والملك الفارسى، «دارا الثالث» (٣٣٥ - ٣٣٢ق.م)، وانتهت بانتصار الإسكندر، وفرار الملك الفارسى، تاركا والدته وزوجته فى الأسر[٤].

٣- بوغاركوى:

تقع «بوغازكوى» (Boghazkoy) على مبعدة ١٤٤ كيلا، شرق العاصمة التركية الحالية «أنقرة» ، على الهضبة المرتفعة التى فى أواسط آسيا الصغرى، شرق نهر «هاليس» (Halyes)[٥].

---

(١) أنظر عن معركة قادش (محمد بيومى مهران: مصر ٣/٣٥٢ - ٣٥٦.

(٢) أنظر عن «حملة السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث (محمد بيومى مهران: مصر ٣/٣٧٤ - ٣٨٠).

(3) A.H.Gardiner, Onom..., I, p. 129 - 132.
W.Edgerton and J.Wilson, Histoical Records of Ramassess, III, Chicago, 1936, p. 53.

(٤) أنظر (محمد بيومى مهران: مصر ٣/٦٩٤، و.و.تارن: الإسكندرى الأكبر - ترجمة زكى على - القاهرة ١٩٦٣ ص ٥٥- ٦١.

(٥) محمد بيومى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ١٩١ - ٩٢ الإسكندرية ١٩٦٩. وكذا A.H.Gardiner, Onom.,I,p. 126.

هذا وقد قام «هوجوفنكلر» (Hugo Winckler) بعمل حفائر لحساب «جمعية الشرق الالمانية (The German Orient Society)»، وبدأت الحفائر - تحت إشرافه - عام ١٩٠٦م، وقد حققت النتائج كل الآمال، بل وأكثر، فقد كشف عن حوالي عشرة آلف لوح مسماري، ووضح للمنقبين أنهم قد عثروا على سجلات ملكية، هذا فضلا عن أن معظم هذه الألواح مكتوبة بلغة ارزوا، ولايمكن فهمها، وإن كتب بعضها بلغة بابل الأكدية المعروفة.

وقد كشفت الدراسة الأولية لهذه الخطابات أن هذه المدينة (الخرائب) إنما هى فى الواقع «عاصمة بلاد حاتى» (خاتى)[٦]، وأن «لغة أرزوارا «إنما كانت

(٦) «خت» أو «خاتى» - بلاد الحثيين - ورد ذكرها فى النصوص المصرية من عهد الفاتح العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م) لأول مرة - حيث الهدايا - وليست الجزية - أرسلت من أميرخاتى إلى فرعون، وتشير «لوحة منف» التى أقامها «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦-١٤١٣ق.م) إلى أمراء نهرين وخاتى وسنجار - أى أعظم ثلاثة ملوك شماليين وقت ذاك - جاءوا إلى مصر، لوضع أسس الصداقة مع الفرعون، إثر سماعهم بانتصاراته فى سورية.
وفى عهد رعمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ق.م) ظلت بلاد «خاتى» تسمى «خت» لأن معظم التغيير إلى «خاتى» إنما حدث فى عهد الفرعون «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ق.م).
هذا وتقع بلاد خاتى (الحيثيين) فى آسيا الصغرى، وأما العاصمة فهى «بوغاز كوى»، ويقع على الهضبة المرتفعة بوسط آسيا الصغرى، شرقى نهر هاليس Halyes.
وكانت علاقة «خاتى» بمصر - فى معظمها - عدائية حتى عقدت معاهدة السلام بين البلدين، فى السنة الحادية والعشرين من عهد رعمسيس الثانى (حوالى عام ١٢٦٩ق.م) ثم توجت بزواج رعمسيس من ابنة ملك الحيثيين «خاتوسيل» حوالى عام ١٢٥٦ ق.م.
غير أن القوة الحيثيين إنما بدأت فى الانهيار السريع تحت ضربات الآشوريين، ثم بدأت الاضطرابات وعمت الفوضى، وكثرت المجاعات، مما اضطرا الفرعون «مرنبتاح» (١٢٢٤-١٢١٤ق.م) أن يرسل إلى «خاتى» القمح، حوالى عام ١٢٢٠ق.م بل وأن يرسل إمتدادات عسكرية إلى غربى آسيا، غير أن ذلك لم يغن شيئا، إذ سرعان ما انهارت دولة الحثيثيين، تحت ضربات «شعوب البحر» التى كان القضاء عليها من نصيب فرعون مصر العظيم «رعمسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م).
بقيت الإشارة إلى أن الملك «خاتوشيليش الأول» (١٤٢٠ - ١٤٠٠ق.م) إنما تولى الحكم فى العاصمة «كيشار» ثم نقل العاصمة إلى «خاتوشاش»، وقد نسب إلى هذا الملك عقد معاهدة سلام مع مصر، حوالى عام ١٢٧٠ ق.م(محمد بيومى مهران، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث، رسالة دكتوراه، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ١٩٢؛ أحمد سليم، تاريخ العراق،
=

اللغة الرسمية لمملكة حاتى، وكما حدث فى الماضى، إذ زصبحت كلمة «حاتى» (Hattite) وصفا للخط الهيروغليفى فى «حماة»، فهكذا حل هذا الإسم محل «أرزاورى» للدلالة على النصوص المسمارية (The Cuneiform Texts) وما كلمة «حتى» (Hittite) إلا النطق الإنجليزى للأصل «حاتى» (Hatti).

وأما عن تاريخ الألواح، فلقد عثرعلى وثيقة تبين أنها النسخة الحيثية للمعاهدة التى عقدت بين الفرعون رعمسيس الثانى (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق.م) وملك حاتى فى السنة الحادية والعشرين من حكم فرعون (١٢٦٩ ق.م)(٧).

وهكذا تبين لنا أنه هنا – فى حاتى – وليس فى سورية – كانت عاصمة «خيتا العظمى» (Great Kheta) التى دفعت إتاوة للفرعون «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق.م)، والتى حاربت «رعمسيس الثانى» ثم هادنته.

وفى عام ١٩٠٧م قدم «هوجوفنكلر» قائمة من اللوحات بأسماء ملوك حاتى – من «شوبيلوليو ماش» (١٣٧٥ – ١٣٨٥ق.م) فى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، إلى «أرنوواندا ش» فى آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد – ثم تنقطع السجلات فجأة.

وقد دل ذلك على أن المملكة الحثيثة فى كابا دوكيا (The Cappado-cian Hittite Kingdom) سائته مدة هذه المائتين من السنين جميع ممالك الاتحاد الحثى الأخرى، مثل قرقميش ومليد وحماة، والتى ذكرت السلجات الأشورية أن الغزاة الموشكيين (Mushki)، الذين وحدهم الأشوريون يحتلون هذا الجزء من البلاد فى القرن الثامن، قد تغلبوا عليها حوالى عام ١٢٠٠ ق.م، وأن الممالك الحيثية الأخرى قد استقلت عندئذ من جديد تحت زعامة «قرقميش»

=إيران، آسيا الصغرى، الإسكندرية ١٩٩٨، ص ٤٨٧ ، ٥١١ – ٥١٢ وكذا:

O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 5F; A.H.Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, p. 127.

(٧) أنظر عن المعاهدة (محمد بيومى مهران: مصر ٣/٣٥٦ – ٣٦٠، وكذا

K.A.Kitchen, JEA, 50, 1964, p. 68 - 69.
G.G.aballa, JEA, 55, 1969, p. 82 - 88.
J.Kuentz, BIFAO, 55, 1928, p. 14.
L.D. III, 156.

(Carchemish)[8].

وعلى أية حال، فإن الممالك الحثية - فيما عدا قرقميش - سوف تكوّن في الألف الأولى قبل الميلاد، دولا جديدة، بعد سقوط مملكة كبادوكيا (The Cap-padocian kingdom Fall)

هذا وقد ظل «الخط الهيروغليفي» مستعملاً في الصخر المنقوش في «نشان تاش» (Nishan Tash) في وسط منطقة بوغازكوى، فضلا عن العلامات الهيروغليفية في طابع خاتم على لوح من الألواح المسمارية[9].

(٤) طرسوس:

مدينة في آسيا الصغرى تقع على نهر طرسوس (قره صو) - وهى كدنوس القديمة، التى كانت ثغرا لبلاد كيليكيا (قيليقيا) - في جنوب تركيا، كانت حوالى ١٢٠٠ ق.م تحت حكم الحيثيين، ثم تعرضت لغزوات شعوب البحر، واستولى الآشوريون عليها في الفترة فيما بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، ثم جاء من بعدهم الفرس، فالإسكندر الأكبر (عام ٣٣٣ق.م) فالسلوقيون.

هذا وقد تحزبت المدينة لقيصر ضد «بومبى»، وأطلقت على نفسها إسم «يوليس بوليس»، وقد نهبها «كاسيوس»، غير أنها سرعان ما استعادت امتيازاتها على أيام أنطونيوس.

وقد حاولت «طرطوس» في ظل الإمبراطورية الرومانية أن تنافس الإسكندرية وأثينا على صعيد مدارس الفلسفة وعلم البيان، ولكن يبدو أنها لم تنجح، وأن تفوقت في الميدان التجارى.

وكانت تقيم في طرسوس جالية -يهودية كبيرة، اشتهر من أفرادها القديس بولس الرسول، وقد ولد فيها، وقد توفى ودفن فيها الخليفة العباسى المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ/ ٨١٣ - ٨٢٣م) في آخر غزواته في بلاد الدولة البيزنطية[10].

---

(٨) أ.ر.جرنى: الحثيون- ترجمة ، حمد عبد القادر محمد - القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٦، ٢٧، وانظر الأصل

O.R.Gurney, The Hittites, 1969, p. 5- 7.

(٩) أ.ر. جرنى: الحثيون ص ٢٦ ، ٢٧، وانظر الأصل.

O.R.Gurney, The Hittites, p. 7.

(١٠) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام ٧٤/٢، قاموس الكتاب المقدس ١٩٦/١ - ١٩٩ ، هنرى =

٥- طروادة:

وتقع على مبعدة ٦ كيلا، شرقي مدخل الدردنيل - من ناحية بحر إيجه - ويعرف موقعها اليوم باسم «حصار ليناب»، هذا وقد تكونت أول محلة في طروادة في «عصر البرونز القديم» والذى استغرق الجزء الأكبر من الألف الثالثة قبل الميلاد، وإن لم يستخدم النحاس في داخل الهضبة إلا في وقت متأخر عن ذلك.

هذا وقد قام «شليمان» (Shliemann) بحفائر في الفترة (١٨٧١ - ١٨٨٢م) كشف فيها عن بقايا تسع مدن، أقيمت كل منها فوق أطلال الأخرى - منذ أوائل عصر البرونز، وحتى العصر الروماني.

هذا وقد أثبت حفائر جامعة سنسيناني أن المدينة السابعة كانت مدينة «بريام» لأنحريقا خرب هذه المدينة وقع حوالي التاريخ التقليدى لحرب طروادة، وتدل مخلفات طروادة على أنها كانت من أهم مراكز الحضارة الإيجية.

هذا وتشير مخلفات الحضارات التالية من عصر النحاس في طروادة، والتى تتمثل في طبقاتها الأثرية - ابتداء من الطبقة الثانية، وحتى الطبقة الخامسة - والتى تعد نموذجها لكل المنطقة المحيطة ببحر إيجة، إلى اقتصاد زراعي متواضع، غير أن بعض الآثار انما تدل على غنى عظيم، يوحى بوجود مستوى أعلى للحياة بين الطبقات العليا، والتى تتمثل في وجود بعض حلى من الذهب والفضة، عثر عليها «شليمان» في الطبقة الثانية من حفائره في طرواده، غير أن شواهد أخرى من هذه الطبقة الثانية انما تدل على تغييرات واضحة فيما بعد، حيث توجد آثار حريق كبير في هذه الطبقة الثانية يرجع تاريخه إلى نهاية القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد[١١].

٦- قدى:

منطقة تقع بين قرقميش والبحر المتوسط، وكانت في عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م) تغطى منطقة واسعة، وفي عهد رعمسيس الثانى

=عبودى:عجم الحضارات السامية ص ٥٦٣ (بيروت ١٩٨٨) ، الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٧.

(١١) محمد أبو المحاسن عصفور. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٣٠١ - ٣٠٣، الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٥٨.

(١٢٩١ – ١٢٢٤ق.م) كانت بين حلفاء حاتى ضد مصر، وفى نقوش رعمسيس الثالث (١١٨٢ – ١١٥١ق.م) بمدينة هابو، قائمة بالشعوب التى اجتاحتها شعوب البحر – ومن بينها «قدى» – مما يشير إلى أنها قد تظر إليها وقت ذاك، على أنها قوة عظيمة، ولكنها أثبتت عدم القدرة على مقاومة شعوب البحر الذى هزمهم رعمسيس الثالث.

وفى أكبر الظن أن «قدى» إنما كانت تمتد حتى البحر، وقد وصفت فى نصوص مصرية متأخرة أنا خشب أمور[١٢]، مما يشير إلى أن قدى وأمور كانتا مختلفتين، وأن «قدى» يجب أن تكون إلى الشمال الأقصى، وإن كانت – دونماريب– لاتصل إلى الخليج إيسوس (إسوس)، ولكنها تمتد إلى مسافة بعيدة إلى الشرق من «كزواتانا»، كما عين موقعها – فيما يذكر جاردنر – كل من «سيدنى سمث» و«جوتز».[١٣]

٧– قرة تبه:

موقع أثرى فى «قليقيا» (تركيا)، شمال شرق «كادرلى»، عثر فيه عام ١٩٤٦م على «حصن حثى» يحيط به سور، ذو أحجار ضخمة، يتخلله بابا مزخرفاتان على الطريقة الفينيقية، برسوم مآدب وصيد وحرب، ترجع إلى القرنين – التاسع والثامن قبل الميلاد، كما عثر كذلك على تمثال نصفى ملكى، من البازلت، عليه كتابة فينيقية، كما عثر على كتابات أخرى، ساعدت على قراءة الكتابة الهيروغليفية الحثية.

هذا وقد استولى «إسرحدون» الأشورى (٦٨١–٦٦٩ ق.م) على المدينة، ودمرها عام ٦٨٠ ق.م[١٤].

٨– قليقيا:

قليقيا: بلاد فى آسيا الصغرى، تقع على شاطىء البحر المتوسط فى القسم الجنوبى من الأناضولى، وكانت قليقيا (كليكيا) منذ العصور الحثية ممراً للجيوش المتجه لغزو سورية.

(١٢) أنظر عن «أمور» (محمد بيومى مهرا: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ١٩٥، ١٩٦، مصر ٢٧٣/٣ – ٣٧٤).

(١٣) محمد بيومى مهران: مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ١٩٢، ١٩٣ وكذا- A.H.Gardiner, Onom.., I, p. 136

(١٤) هنرى عبودى: المرجع السابق ص ٦٨٣.

وفى القرن التاسع قبل الميلاد، دخلت قليقيا (كليكيا) فى الفلك الآشورى، فقد اجتاحها «شلمنصر الثالث» (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) وكانت تابعة للملك «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م) تدفع له الجزية، هذا وقد قام «سرجون الثانى» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) بضم «قليقيا» إلى الإمبراطورية الأشورية، وعين عليها حاكما[١٥]، ثم هجر إليها إسرائيلى السامرة - عاصمة دويلة إسرائيل وهى مبسطية الحالية على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب شكيم[١٦] - بعد أن استولى عليها عام ٧٢٢ ق.م[١٧].

هذا وقد استعمل الجيش الآشورى قليقيا قاعدة لغزو جبال طوروس، غير أن غزواته قد أخفقت، مما أدى إلى حروب كثيرة، كان من نتائجها تهجير جديد، فلقد أرسل كثيرا من الحيثيين والإسرائيليين إلى بابل.

ثم وقعت قليقيا تحت الإحتلال الفارسى، ثم استعملها الإغريق ممراً للجيوش، ومن ثم فقد أصبحت مسرحاً للمعارك بين البيزنطيين والفرس، ثم بين البيزنطيين والعرب[١٨].

٩- قبادوقيا:

قبادوقيا - أوكبادوكيا Cappadocia - منطقة فى آسيا الصغرى على نهر هاليس الأعلى، شمال قيليقيا، كانت عاصمتها «مازاقا»، وقد دعيت «قيصرية»[١٩]، وهى «قيصرى» الحالية، وتقع المنطقة كلها غربى الفرات الأعلى.

---

(١٥) أنظر: محمد بيومى مهران: العراق القديم ص ٣٧٣، ٣٩٤، ٣٩٧، عبودى: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(١٦) انظر عن السامرة (محمد بيومى مهرانك اسرائيل ٢/٩٠٠ - ٩٠٢ وانظر طبعة ١٩٩٩ م).

(١٧) محمد بيومى مهران: اسرائيل ٢/٩٤٠ - ٩٥٠.

(١٨) عبودى: المرجع السابق ص ٦٩٨.

(١٩) قيصرية: هناك أكثر من مدينة تحمل هذا الاسم، فهناك: ١- قيصرية فلسطين: وقد بناها الملك «هيرودوس» (٣٧ - ٤ ق.م)- والتى قدر لها أن تكون عاصمة فلسطين الرومانية، وتقع على مبعدة ٧٢ كيلا جنوبى عكا، ٧٥ كيلا شمالى غرب القدس، وذلك فى عام ١٠ ق.م، وسماها «قيصرية» تكريما للإمبراطور «أوغسطس قيصر» (٢٧ ق.م- ١٤م)، ٢- قيصرية بانياس: بلدة فى سورية على جبل حرمون، على مقربة من الحدود اللبنانية الفلسطينية الحالية، وفى عام ٣،٢م قام فيلبس بن هيرودوس بتوسيعها وتجميلها، ثم أطلق عليها إسم «قيصرية بانياس»، وسميت أيضا «قيصرية فيلبس»، ٣- قيصريه لبنان: وهو اسم أطلقه الرومان على مدينة «عرقة» اللبنانية، ٤-

وكان يعيش فيها قبل الألف الثالثة قبل الميلاد، قوم من الساميين، هذا وقد عثر فى كل تبة - شمالى شرق قيصرية - على ألواح مسمارية تمثل أقدم أشكال اللغة الآشورية - القريبة من البابلية القديمة - وتتعلق هذه الألواح بأمور اقتصادية.

هذا وتشير الوثائق إلى أن التجارة البرية - عن طريق القوافل - إنما كانت مزدهرة فى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد - قبل اجتياح الهكسوس والكاشيين[20].

وقد تبعت قباودوقيا (كبادوكيا) الإسكندر المقدونى، ومن بعده السلوقيين فالرومان[21].

١٠- كانش:

أشارت النصوص المسمارية المكتشفة فى «كانش» - وهى كول تبة الحالية، على الضفة اليسرى لنهر هاليس، شمالى قيصرية - بمنطقة قبادوقيا إلى وجود جماعات من التجار الاشوريين كانت تقطن فى شرقى بلاد الاناضول فى مراكز تجارية ذات تنظيمات إدارية وقانونية خاصة بها.

ورغم أننا لانعرف على وجه اليقين متى بدأ اتصال الاشوريين التجارى بآسيا الصغرى؟ وكيف حدث هذا الاتصال؟ وهل تم سلما أم عنوة؟ غير أن أكبر الظن إنما قد تم منذ ظهور الكيان السياسى للآشوريين، وأنه كان فى بدايته - على الأقل - إتصالا سلميا، وأنه كان نشاطا تجاريا واسعا، وآية ذلك إقامة هذه المراكز التجارية الأشورية المتعددة بمنطقة وسط الاناضول، والتى يمكن تحديدها

=قيصرية الجزائر، وهو اسم أطلق فى العصر الرومانى على مدينة «بول» القرطاجية (محمد بيومى مهران: إسرائيل ١٤٤/٢، فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٣١٢/١، قاموس الكتاب، المقدس ٧٥٥/٢، ١٠٠٩، وكذا M.F.Unger, Unger's Bible Dictonary, p. 470.

وكذا Josepus, Antiquities, XV, 9, 6 وكذا Strabo, XVI, 2, 27

وكذا Pliny, V,14 ، وانظرى هنرى عبودى: المرجع السابق ص ٦٩٧ - ٦٩٨.

(٢٠) أنظر عن الهكسوس والكاشيين (محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٠٣، ٢٢٣، تاريخ العراق القديم ص ٢٩٨ - ٣١٥.

(٢١) هنرى عبودى: المرجع السابق ص ٧٠٩، ٧١٠.

بحوض نهر هاليس وتخومه المباشرة، وما وراء هذا الحوض جنوبا حتى سهل قونيا وأقاليم قليقيا، وشرقا حتى مشارف أعالى الفرات، وأنه كان لاستغلال ثروات هذه البلاد، وممارسة نشاط تجارى كبير بها، دون أن يتكبدوا فى ذلك جهدا حربيا يذكر، حيث خلت نصوصهم من الإشارة إلى توجيه حملات حربية إلى هذه البلاد.

على أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن هذه المراكز التجارية إنما قد مارست نشاطها من خلال كونها مستعمرات أقامها الأشوريون للسيادة وفرض النفوذ على آسيا الصغرى، وكانت «كانش» بمثابة مركز للإدارة الأشورية الحاكمة، وقد اعتمد أصحاب هذا الإتجاه على أنه من الصعب أن يحقق الأشوريون هناك استغلالاً اقتصاديا كاملا، دون سيطرة سياسية، فضلا عن عبادة الإله أشور فى هذه المراكز التجارية بآسيا الصغرى، وتشابه بعض التنظيمات الإدارية بهذه المراكز التجارية مع مثيلات لها فى أشور(٢٢).

وأكبر الظن أن هذه المراكز التجارية انما كان خاضعة سياسيا لأمراء الدويلات المحلية، مع تمتعها بنوع من الاستقلال الذاتى والحماية العسكرية، مقابل ضرائب معينة كانت تدفع للأفراد المحليين، وأما علاقة هذه المراكز بالدولة الآشورية، فربما كانت من نوع علاقة الفرع بالاصل،واية ذلك أنها كانت تدين بالديانة الآشورية، وتعيش الحياة الآشورية، مع بعض التأثيرات المحلية، ومن ثم فقد تشابهت العقود التجارية والقوانين الأشورية التى كشف عنها فى «كانش» بتلك التى كانت فى بلاد أشور نفسها.

وعلى أية حال، فلقد كانت هذه المراكز التجارية الآشورية فى آسيا الصغرى (وتسمى كاروم)(٢٣) تقوم بدور الوسيط بين الدولة الآشورية الأم، وبين الدويلات

---

(٢٢) محمد عبد اللطيف: المراكز التجارية الآشورية فى وسط آسيا الصغرى فى العصر الآشورى القديم، الإسكندرية ١٩٨٤، ص ٣، ٤، ١٨،

CAH, I, Part, 2, Maps, 9 - 10, p. 373,

J. Lewy, on Some Institutions of The old Assyrian Empire, in HUCA, 27, 1956, p. 13 - 21.

(٢٣) أطلق الآشوريون على كل مركز من مراكزهم التجارية اسم «كاروم» (Karum)، وتعنى فى الأكدية رصيف أو حائط ميناء يقع على نهر أو قناة، تجمع عنده ضرائب الدخل على الوارد، ثم

=/=

المحلية فى بلاد الاناضول، وهكذا كانت القوافل التجارية الاشورية تذهب محملة بالمنسوجات والملابس الآشورية والبابلية وخامات القصدير - وهى مستوردة أصلا - وتعود إلى بلاد أشور بالذهب والفضة والنحاس - وربما الرصاص - والاحجار الكريمة(٢٤).

وأيا ما كان الامر، فلقد زاد هذا النشاط التجارى على أيام «ايلو شوما»، وهناك نص من عهد ولده «اريشوم الاول» (١٩٠٦ - ١٨٦٧ ق.م) يشير إلى أنه أقام حرية الحركة للفضة والذهب والنحاس والرصاص، فضلا عن القمح والصوف، إلى جانب سلعتين أوثلاثة من السلع الرخيصة - وكان أرخصها التبن - وأن هذا الامتياز قد منح للتجار الآشوريين، الامر الذى يشير إلى دعم النشاط التجارى مع آسيا الصغرى التى أقيم فيها عدد كبير من المراكز التجارية الآشورية التى نالت اهتمام هذا الملك، كما نالت اهتمام خليفته «ايكونوم» (١٨٦٦ -

---

=/=

اتسع مفهومه ليعنى السوق على جانب الرصيف، ثم مجموعة تجار المدينة، ولم يقصد الآشوريون بتعبير «كاروم» فى نصوص الألواح القبادوشية ميناء نهرياً غالباً، إذ لم يقع كاروم كانش أو «خاتوش» (بوغازكوى) أو غيرهما، على نهر، وإنما يعنى غالباً مجموعة الرجال الذين تولوا إدارة المركز التجارى، وهم من التجار وأصحاب رؤوس الأموال الآشوريين، وقد شيدت «الكارو» غالباً فى الأماكن الملائمة على طرق القوافل، كمركز تجارى للسلع المتبادلة بين آشور وآسيا الصغرى، فضلاً عن جباية المكوس التى كانت تحصل من القوافل التجارية، مثل ضريبة الطريق وضريبة العشر وضريبة الخمسة فى المائة التى كان الكاروم يقوم بتحصيلها، ربما لحساب الدولة الآشورية، وقد استخدم القوة فى تحصيلها أحياناً، كما كان للكاروم سلطة قضائية، وجهاز إدارى على رأسه «حاكم الكاروم» الذى انتحل لقب (Rubaum)، والذى كان يمثل السلطة التنفيذية للكاروم ويرأسها، وغير خاضع غالباً لحكام آشور، كما كان للكاروم مقر مركزى يسمى «بيت الكاروم» (بيت كاريم - Bit-Karim) وكان بمثابة غرفة تجارية وبيت تخليص للتجارة، ووكيلاً للقصر (أنظر: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٧٢ - ٨٨، وكذا:

J. Bottero and Others, op. cit., p. 196.

J. Lewy, CAH, I, Part, 2, p. 37, 47, 709, 722, 760 F.

(٢٤) عامر سليمان: المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٦، وكذا:

J. Lewy, op. cit., p. 24 - 28.

١٨٥٥ ق.م) و«سرجون الأول الآشورى» (١٨٥٥ - ١٨٤٠ ق.م)[٢٥]

ولعل من الأهمية بمكان أن الوثائق الآشورية انما تشير إلى أن العنصر الأمورى إنما قد شارك فى مجتمعات المراكز التجارية الآشورية القديمة فى آسيا الصغرى، وأن الاختلاط بين الأسماء الآشورية والأمورية فى هذه المجتمعات، مايشهد بامتزاج هذه العناصر كسكان يتعايشون معا فى نطاق المركز التجارى الواحد.

وكان الأموريون أقرب العناصر للآشوريين، وأكثرهم ارتباطا بهم اجتماعيا ودينيا، وقد اعتمدوا عليهم بدرجة كبيرة فى مزاولة نشاطهم التجارى، أما السكان الوطنيون وخاصة العناصر (الهندو - أوربية) فقد نظر إليهم الآشوريون بازدراء، وأطلقوا عليهم صفة «برابرة»[٢٦].

وليس هنا من ريب فى أن الوجود الأمورى فى هذه المجتمعات إنما كان سبباً فى التقارب بين الأموريين والآشوريين فى آسيا الصغرى، وطبقاً لدراسة عقود الزواج والطلاق، فإن معظم زيجات الآشوريين بالأناضول إنما كانت من هؤلاء الأموريين، كما كان رجال الأعمال الآشوريين كثيراً ما يستعينون بهؤلاء الأموريين، وكثيراً ما كانوا يعهدون إليهم بتولى أمر قوافلهم التجارية[٢٧].

(١١) واشوكانى:

واشوكانى عاصمة دولة ميتانى، التى عاصرت الامبراطورية المصرية (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م)، والكاشيين (١٥٩٥ - ١١٥٧ ق.م) فى جنوب العراق، وقد أثرت هذه القوة الجديدة (الحوريين) فى بلاد أشور.

والحوريون قوم من منطقة القوقاز، إنتشروا فى بلاد الأناضول وسوريا وأعالى

---

(25) CAH, I, Part, 2, p. 1001.

وكذا: J. Lewy, in JAOS, 78, 1958, p. 99 - 101.

وكذا: J. Lewy, in HUCA, 27, 1956, p. 40, 65, 66.

وكذا: A. Goetze, in JLSA, 30, 1954, p. 350.

(26) H. Lewy, Anatolia in The Old Assyrian Period, in CAH, 2, 1971.

(٢٧) محمد بيومى مهران: بلاد الشام، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ٦٨ - ٧٠، وكذا:
J. Lewy, Amurritica, in HUCA, 32, 1961, p. 65.

ما بين النهرين وشرقى بلاد أشور، وأقاموا دولة قوية هى «دولة الميتان»، واتخذوا من مدينة «واشوكانى» (Washukkanni) عاصمة لهم، وهى «تل الفخارية» (Tell - Fekheriya) الحالية، وقد استغلت الدولة الميتانية ضعف الإمبراطورية الحيثية وانقساماتها الداخلية، فمدت نفوذها على المناطق الواقعة فيما بين بحيرة «وان» (Lake Van) وأواسط الفرات، ومن جبال زاجروس وحتى الساحل السورى، وكانت بلاد أشور من المناطق التى وقعت تحت نفوذها وسيطرتها المباشرة، ومع ذلك فلقد ذكرت قوائم الملوك الآشوريين أسماء عدد من الملوك الذين حكموا فى بلاد أشور فى فترة السيطرة الميتانية، وربما كانوا ملوكاً محليين تابعين للملوك الميتانيين المحتلين.

غير أن قوة الدولة سرعان ما انتابها الضعف، وانقسمت إلى دويلتين، الواحدة تسيطر على منطقة بحيرة وان، والأخرى تسيطر على بلاد أشور وأجزاء من سورية، وقد استغلت أشور هذا الضعف واستقلت عن الميتانيين، ثم تمكنوا بعد فترة من القضاء على الدولة الميتانية وضم أراضيها إلى الدولة الاشورية، وقد تم ذلك على يد الملك «أشور أوبلط» (١٣٦٥ – ١٣٣٠ق.م) الذى انتصر على الملك «أرتاتاما الثانى» (١٣٦٦ – ١٣٥٩ ق.م)، كما أعاد بناء الدولة الاشورية[٢٧].

هذا وكان الميتانيون على علاقة مصاهرة بفراعنة مصر، فلقد تزوج «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ – ١٣٦٧ق.م) من «جيلوخيبا» أخت «توشراتا» ملك ميتانى، فضلا عن ابنته «تادوخيبا»، وكان أبوه «تحوتمس الرابع (٤١٣ – ١٤٠٥ ق.م) قد تزوج من ابنه ملك الميتان، التى أعطيت الإسم المصرى «موت إم ويا».

ولعل سبب هذه المصاهرات أن دولة الميتان إنما كانت تجاوز حدود الإمبراطورية المصرية فى غربى آسيا، وربما لأن الفرعون قد أخطأ التقدير فى معرفة قوة الحيثيين – أعداء الميتان.

---

(٢٧) عامر سليمان، المرجع السابق ص ١٢٩ – ١٣١، عبد العزيز صالح: المرجع السابق ص ٤٩٠، ٤٩٩، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٢٤٣ – ٢٤٥، طه باقر، المرجع السابق ص ١٧٣ – ١٧٥، ل. دويلات: المرجع السابق ص ٢٩٦ – ٢٩٧، محمد عبد القادر: المرجع السابق ص ٢١٣، وكذا - G.Roux, op.cit.,p. 229, 233, J.Laessoe, op.cit., p. 82 - 92, Delaporte, Les Hittites, p. 93F.

وأيا ماكان السبب، فلقد كان من نتائج هذه الصداقة - أو المصاهرة -المصرية الميتانية، أن امتنع الفرعون عن التفكير فى مدّ نفوذ مصر إلى الشرق من الفرات، وإلى أن ينشأ نوع من العداء، لدولة «حاتى» التى مدت يد الصداقة لمصر، فأغفلها الفرعون(٢٨).

---

(٢٨) محمد بيومى مهران: مصر ٣/٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٨، نجيب ميخائيل: مصر الشرق الأدنى القديم ٢/٥، ٢٤٤، وكذا

S.A.B.Mercer, The Tell - Amarana Tablets , I,p. 162.

H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypt, II, 1908, p. 301.

المراجع المختارة

أولاً: المراجع العربية

١- القرآن الكريم

٢- الحديث الشريف

أ- صحيح البخارى (٩ أجزاء) — القاهرة ١٣٨٦ هـ

ب- صحيح مسلم (١٨ جزءاً) — بيروت ٨١ -١٩٨٣

جـ- سنن أبى داود — القاهرة ١٩٥٢

د- فتح البارى - بشرح صحيح البخارى — القاهرة ١٩٥٩

هـ- مسند الإمام أحمد بن حنبل — بيروت ١٩٦٩

٣- كتب التفسير

٤- التوراة

٥- ابن بلهيد: صحيح الأخبار عما فى بلاد العرب من الآثار (٥ أجزاء) — القاهرة ٥١-١٩٥٣

٦- ابن ظهيرة: الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها، وبناء البيت الشريف — بيروت ١٩٧٩

٧- ابن عساكر: تاريخ دمشق - تحقيق صلاح المنجد — دمشق ٥١-١٩٥٣

٨- ابن عنبة: عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب — بيروت -

٩- ابن عبد ربه: العقد الفريد (٩ أجزاء) — بيروت ١٩٨٣

١٠- ابن فهد القرشى: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام — مكة المكرمة ١٩٨٦

١١- الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول — القاهرة ١٩٦٥

١٢- الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: دولة الرسول فى المدينة — الكويت ١٩٧٢

١٣- أحمد السباعى: تاريخ مكة — مكة المكرمة ١٣٨٧هـ

١٤- الدكتور أحمد أمين سليم: سوريا وبلاد العرب — الإسكندرية ١٩٩١

١٥- الدكتور أحمد أمين سليم: إيران — بيروت ١٩٨٨

١٦- الدكتور أحمد أمين سليم: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم بيروت ١٩٨٩
١٧- أحمد حسين شرف الدين: مسالك القوافل التجارية فى شمال الجزيرة العربية وجنوبها الرياض ١٩٨٤
١٨- الدكتور أحمد سوسة: تاريخ حضارة وادى الرافدين (جزءان) بغداد ١٩٨٦
١٩- الدكتور أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ دمشق ١٩٨٢
٢٠- الدكتور أحمد فخرى: اليمن ماضيها وحاضرها القاهرة ١٩٥٧
٢١- الدكتور أحمد فخرى: دراسات فى تاريخ الشرق القديم القاهرة ١٩٦٣
٢٢- الدكتور أحمد فخرى: معبد المساجد ببلاد مراء القاهرة ١٩٦١
٢٣- الدكتور أحمد ضياء - محمد بيومى مهران: العلاقات بين مصر وبنى اسرائيل أثناء الألف الأول قبل الميلاد الإسكندرية ١٩٨٨
٢٤- الدكتور إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود فى بلاد العرب القاهرة ١٩٢٧
٢٥- البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٤ أجزاء) القاهرة ٤٥-١٩٥١
٢٦- البلاذرى: أنساب الأسراف القاهرة ١٩٥٩
٢٧- البلاذرى: فتوح البلدان (٣ أجزاء) القاهرة ١٩٥٧
٢٨- الحربى: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة الرياض ١٩٦٩
٢٩- الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد (ط السعادة) القاهرة ١٣٤٩ هـ
٣٠- السمهودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (٤ أجزاء فى مجلدين) بيروت ١٩٧١
٣١- السهيلى: الروض الأنف (٧ أجزاء) القاهرة ١٩٧١
٣٢- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - الجزء الأول الإسكندرية ١٩٦٧
٣٣- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - تاريخ الدولة العربية الإسكندرية ١٩٨٢
٣٤- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب - العصر العباسى الأول الإسكندرية ١٣٩٨هـ

٣٥- الدكتور السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى — بيروت ١٩٧٠
٣٦- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى) — القاهرة ٥٧/ ١٩٦٩
٣٧- العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار — القاهرة ١٩٢٤
٣٨- الفاسى: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين — بيروت ١٩٨٦
٣٩- الفاسى: المقنع من أخبار الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء — بيروت ١٩٨٦
٤٠- القلقشندى: نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب — القاهرة ١٩٥٩
٤١- المقريزى: النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم — القاهرة ١٩٨٨
٤٢- الدكتورة أمل محمد بيومى مهران: دراسة تاريخية للعلاقات بين الجزيرة العربية، وبلاد الشرق الأدنى القديم، خلال الألف الأول قبل الميلاد — الإسكندرية ١٩٩٦
٤٣- النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى (٣ أجزاء) — مكة المكرمة ١٩٨٣
٤٤- الهمدانى: صفة جزيرة العرب — الرياض ١٩٧٤
٤٥- الدكتور تقى الدين الدباغ: العراق فى عصور ما قبل التاريخ - العراق فى التاريخ — بغداد ١٩٨٣
٤٦- الدكتور جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (١٠ أجزاء) — بيروت ١٩٧١/٦٨
٤٧- حامد إبراهيم أبو درك: مقدمة فى آثار تيماء — الرياض ١٩٨٦
٤٨- الدكتور حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام — القاهرة ٦٤/ ١٩٦٧
٤٩- حسن عبد الله باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة — القاهرة ١٩٦٤
٥٠- الدكتور رشاد بغدادى: العلاقات بين الجزيرة العربية وفلسطين — مكة المكرمة ١٩٨٧
٥١- الدكتور رشيد الناضورى: حول أرض مدين: موقعها ودورها التاريخى المبكر — الرياض ١٩٨٤
٥٢- الدكتور رشيد الناضورى: جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا (جزءان) — بيروت ١٩٦٩
٥٣- الدكتور رشيد الناضورى: المغرب الكبير - الجزء الأول - العصور القديمة — الإسكندرية ١٩٦٦

٥٤- الدكتور رشيد بورية: مسجد المدينة فى حدائق الكتب القديمة الرياض ١٩٧٩
٥٥- الدكتور رضا الهاشمى: تجارة القوافل فى التاريخ العربى القديم بغداد ١٩٨٤
٥٦- الدكتور سامى سعيد الأحمدى: نظرة فى جغرافية شبه جزيرة العرب الرياض ١٩٦٩
٥٧- الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: فى تاريخ العرب قبل الإسلام بيروت ١٩٧٥
٥٨- سعيد الأفغانى: أسواق العرب بيروت ١٣٧٩هـ
٥٩- الدكتور صالح أحمد العلى: محاضرات فى تاريخ العرب - الجزء الأول بغداد ١٩٥٩
٦٠- الدكتور صبحى أنور رشيد: العلاقات بين وادى الرافدين وتيماء الرياض ١٩٨٤
٦١- صلاح البكرى: تاريخ حضرموت السياسى - الجزء الأول القاهرة ١٣٥٤ هـ
٦٢- الدكتور صلاح الشامى: الموانى السودانية القاهرة ١٩٦١
٦٣- الدكتور طه باقر: مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - (جزءان) بغداد ١٩٥٥
٦٤- الدكتور عامر سليمان: العصر الأشورى - العراق فى التاريخ القديم بغداد ١٩٨٣
٦٥- الدكتور عبد الرحمن الأنصارى: لمحات من القبائل البائدة فى الجزيرة العربية - مجلة كلية الآداب الرياض ١٩٧٥
٦٦- الدكتور عبد الرحمن الأنصارى: لمحات من بعض المدن القديمة فى شمال غربى الجزيرة - مجلة الدارة الرياض ١٩٧٥
٦٧- الدكتور عبد الرحمن الأنصارى: أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو الرياض ١٩٧٩
٦٨- الدكتور عبد الرحمن الأنصارى: الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية الرياض ١٩٨٩
٦٩- الدكتور عبد الرحمن الأنصارى: الموسم الرابع لحفريات قرية الفاو الرياض ١٩٨٤
٧٠- الدكتور عبد العزيز الدورى: كتب الأنساب وتاريخ الجزيرة العربية الرياض ١٩٧٩

٧١- الدكتور عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول القاهرة ١٩٧٣

٧٢- الدكتور عبد العزيز صالح: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة القاهرة -

٧٣- عبد القدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة المدينة المنورة ١٩٧٣

٧٤- عبد القدوس الأنصاري: الكمبة الرياض ١٩٨٤

٧٥- الدكتور عبد الله مصري: آثار الجزيرة العربية، ودورها في نشأة حضارة سومر الرياض ١٩٧٦

٧٦- الدكتور عبد الله مصري: ما قبل التاريخ في شرق المملكة العربية السعودية وشمالها الرياض ١٩٨٤

٧٧- الدكتور عبد الله الوهيبي: تحديد الشعراء العرب للمواقع الجغرافية الرياض ١٩٧٩

٧٨- الدكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد: البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة الإسكندرية ١٩٩٣

٧٩- الدكتور عبد النعيم محمد حسنين: الإيرانيون القدماء القاهرة ١٩٧٤

٨٠- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة (٥ أجزاء) بيروت ١٩٨٥

٨١- الدكتور عويد المطرفي: داود وسليمان عليهما السلام في القرآن والسنة مكة المكرمة ١٩٧٩

٨٢- غالي محمد الأمين الشنقيطي: كتاب الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ الدوحة ١٩٨٨

٨٣- الدكتور فؤاد سفر: الحضر - مجلة سومر - العدد ٨ بغداد ١٩٥٢

٨٤- الدكتور فؤاد سفر، ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس بغداد ١٩٧٢

٨٥- الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة بيروت ١٩٧٨

٨٦- الدكتور محمد إبراهيم بكر: تاريخ السودان القديم القاهرة ١٩٨٣

٨٧- الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم الإسكندرية ١٩٦٨

٨٨- الدكتور محمد العبد الخطراوى: المدينة فى العصر الجاهلى دمشق ١٩٨٤

٨٩- الدكتور محمد بيومى مهران: حركات التحرير فى مصر القديمة القاهرة ١٩٧٦

٩٠- الدكتور محمد بيومى مهران: بنو اسرائيل (٥ أجزاء - طبعة ثالثة) الإسكندرية ١٩٩٩

٩١- الدكتور محمد بيومى مهران: بلاد الشام الإسكندرية ١٩٩٠

٩٢- الدكتور محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم (جزءان) الإسكندرية ١٩٩٥

٩٣- الدكتور محمد بيومى مهران: الحضارة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٨٨

٩٤- الدكتور محمد بيومى مهران: تاريخ العراق القديم الإسكندرية ١٩٩٠

٩٥- الدكتور محمد بيومى مهران: المغرب القديم الإسكندرية ١٩٩٠

٩٦- الدكتور محمد بيومى مهران: المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم) بيروت ١٩٩٤

٩٧- الدكتور محمد بيومى مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (٤ أجزاء) (طبعة رابعة) الإسكندرية ١٩٩٥

٩٨- الدكتور محمد بيومى مهران: تاريخ السودان القديم الإسكندرية ١٩٩٤

٩٩- الدكتور محمد بيومى مهران: المدن الكبرى فى مصر والشرق القديم - الجزء الأول - مصر - الإسكندرية ١٩٩٩

١٠٠- الدكتور محمد بيومى مهران: حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٩٩

١٠١- الدكتور محمد بيومى مهران: قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة الرياض ١٩٧٥

١٠٢- الدكتور محمد عوض: السودان الشمالى القاهرة ١٩٥١

١٠٣- محمد عبد القادر فقيه: تاريخ اليمن القديم بيروت ١٩٧٣

١٠٤- محمد لبيب البتانونى: الرحلة الحجازية القاهرة ١٣٢٩ هـ

١٠٥- الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين: مقدمة فى الآثار اليمنية صنعاء ١٩٨٤

١٠٦- الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين: مواقع ومتاحف الآثار المصرية — القاهرة ١٩٩٨
١٠٧- الدكتور محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه الجزيرة العربية (٤ أجزاء) — القاهرة٦٥ / ١٩٧٢
١٠٨- الدكتور محمود عمر: التأثير المصرى فى آثار تيماء — القاهرة ١٩٩٣
١٠٩- مير خورى: صيدا عقب حقب التاريخ — بيروت ١٩٦٦
١١٠- هنرى عبودى. معجم الحضارات السامية — بيروت ١٩٨٨
١١١- الدكتور نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم (٦ أجزاء) — الإسكندرية ١٩٦٣ - ١٩٦٦
١١٢- ياقوت الحموى: معجم البلدان (٥ أجزاء) — بيروت ٥٥/ ١٩٥٧
١١٣- يوسف رزق الله غنيمة: الحيرة: المدينة والمملكة — بغداد ١٩٣٦
١١٤- يوسف محمد عبد الله: أوراق فى تاريخ اليمن وآثاره — بيروت ١٩٨٥
١١٥- الدكتور يوسف مزهر: تاريخ لبنان القديم - الجزء الأول — بيروت -
١١٦- قاموس الكتاب المقدس (جزءان) — بيروت ٦٤/ ١٩٦٧

ثانياً: المراجع المترجمة إلى اللغة العربية

١١٧- الدكتور أحمد فخرى رحلة أثرية إلى اليمن - ترجمة الدكتور هنرى رياض، الدكتور يوسف محمد، ومراجعة الدكتور محمد عبد الحليم نور الدين — صنعاء ١٩٨٨
١١٨- أحمد محمد على الحاكم وأ. هربك و ج فركوتير: حضارة نباتا ومروى (تاريخ أفريقيا العام - الجزء الثانى) — اليونسكو ١٩٨٥
١١٩- إلويس موسل: شمال الحجاز، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسينى — الإسكندرية ١٩٥٢
١٢٠- أندريه بارو: بلاد آشور - ترجمة عيسى سلمان وسليم التكريتى — بغداد ١٩٨٠

١٢١- أرثر كريستنسن: إيران فى عهد الساسانيين - ترجمة الدكتور يحيى الخشاب القاهرة ١٩٥٧

١٢٢- أرنولد ويلسون: الخليج العربى - ترجمة الدكتور عبد القادر يوسف الكويت -

١٢٣- اليزابيث مونرو: الجزيرة العربية بين البخور والبترول - ترجمة محمود محمود الرياض ١٩٧٦

١٢٤- أ. ر. جرنى: الحثيون - ترجمة الدكتور محمد عبد القادر والدكتور فيصل الوائلى القاهرة ١٩٦٣

١٢٥- ب. هـ. وارمنجتون: العصر القرطاجى - تاريخ أفريقيا العام تورينو ١٩٨٥

١٢٦- برنارد لويس: العرب فى التاريخ - ترجمة نبيه فارس ومحمود يوسف بيروت ١٩٥٤

١٢٧- تيودر نولدكه: أمراء غسان من آل جفنة - ترجمة قسطنطين رزيق وبندلى خورى بيروت ١٩٣٣

١٢٨- جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب - ترجمة قدرى قلعجى بيروت ١٩٦٣

١٢٩- جورج فضلو حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى - ترجمة وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر القاهرة ١٩٥٨

١٣٠- جورج كونتنيو: الحياة اليومية فى بلاد بابل وآشور - ترجمة طه التكريتى، وبرهان عبد التكريتى بغداد ١٩٨٦

١٣١- ج. كونتينو: الحضارة الفينيقية - ترجمة الدكتور محمد عبدالهادى شعيره، ومراجعة الدكتور طه حسين القاهرة ١٩٦٥

١٣٢- جيهان ديزانج: البربر الأصليون - تاريخ أفريقيا العام تورينو ١٩٨٥

١٣٣- حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم - ترجمة محمد نور الدين عبد النعيم، والسباعى محمد السباعى - مراجعة وتقديم الدكتور يحيى الخشاب القاهرة ١٩٧٩

١٣٤- دونالد دولبر: إيران: ماضيها وحاضرها - ترجمة عبد النعيم محمد حسنين - مراجعة وتقديم إبراهيم الشواربى القاهرة ١٩٥٨

١٣٥- ديتلف نلسن وآخرون التاريخ العربى القديم - ترجمة وزاد القاهرة ١٩٥٨
عليه الدكتور فؤاد حسنين
١٣٦- رينيه ديسو: العرب فى سورية قبل الإسلام - ترجمة القاهرة ١٩٥٩
عبدالحميد الدواخلى
١٣٧- سبتينو موسكاتى: الحضارات السامية القديمة - ترجمة وزاد القاهرة ١٩٦٨
عليه الدكتور السيد يعقوب بكر
١٣٨-فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - (جزءان) - بيروت ١٩٥٨
ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق
١٣٩- فيلب حتى: تاريخ العرب - الجزء الأول - (مطول) - بيروت ١٩٦٥
ترجمة إدوارد جرجس؛ وجبرائيل جبور
١٤٠- فبريو مورى: حول تأريخ الرسوم الصخرية فى الصحارى ليبيا ١٩٧٩
الكبرى - ترجمة مكائيل محرز - كتاب الصحراء الكبرى -
١٤١- لويس أميل سديو: تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٤٨
١٤٢- لانكستر هاردنغ: آثار الأردن ترجمة سليمان موسى عمان ١٩٦٥
١٤٣- مانفرد فيبر: المصريون القدماء والصحراء الكبرى - ترجمة ليبيا ١٩٧٩
عماد الدين غانم - كتاب الصحراء الكبرى
١٤٤- هربرت جورج ويلز: معالم تاريخ الإنسانية (جزءان) - ترجمة القاهرة ١٩٦٩
عبد العزيز توفيق جاويد
١٤٥- ول ديورانت: قصة الحضارة - الجزء الثانى - ترجمة محمد القاهرة ١٩٦١
بدران
١٤٦- وندل فيلبس: كنوز مدينة بلقيس - قصة اكتشاف مدينة سبأ القاهرة ١٩٦١
الأثرية فى اليمن - ترجمة عمر الديرادى
١٤٧- و. و. تارن: الإسكندرية الأكبر - ترجمة زكى على ومراجعة القاهرة ١٩٦٣
محمد سليم سالم
١٤٨- وليم أولبرايت: آثار فلسطين - ترجمة زكى اسكندر، ومحمد القاهرة ١٩٧١
عبد القادر

١٤٩- يوسيبوس القيصرى: تاريخ الكنيسة - ترجمة مرقص داود القاهرة ١٩٦٠
١٥٠- يوسفيوس. تاريخ يوسفيوس- دار صادر، بيروت
١٥١- دائرة المعارف الإسلامية - دار الشعب - القاهرة ١٩٦٩

ثالثاً: المراجع الأجنبية

152- Abbot, (n.), The Rise of the North Araba, Chicago, 1939.
153- Abbot, (n.), Pre - Islamic Arab Queens, AJSL, 1944.
154- Al-Adami, (K.A.), Excavations at Tell-Es-Sawwan, in Sumer, 24, 1968.
155- Arkell, (J. A.), Early Kharton, Oxford, 1949.
156- Arkell, (J. A.), A History of the Sudan from the Earliest Time to 1821, London, 1961.
157- Amer, (M.), The Ancient Trans - Peninsular Routes of Arabia, Cairo, 1926.
158- Bates (H.), The Eastern Lilyans, London, 1914.
159- Baker, (M.), The Relationship Between The C-Group, Kerma, Napatan and Meroitic Cultures, in Kush, XIII, 1965.
160- Beeston (A. F.L.), The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Havan, 1924.
161- Beeston, (A. F. L.), Sculptures and Inscriptions from Shabwa, in JRAS, 1954.
162- Belgrave, (J. H. D.), Welcome to Bahrain, London, 1965.
163- Bent (T.) and Mrs. Bent, Southern Arabia, Sudan and Socotra, London, 1900.

214- Save - Soderlergh, (T.), Aegypten und Nubia, Luna, 1941.

215- Shata, (A.), The Lower Nubit Area, Egypt, in BSGE, 35, 1962.

216- Smith (W.), Adictionary of The Bille, 3 Vols, London.

217- Shahid (I.), Pre-Islamic Arabia, in CAH, I, Cambridge, 1970.

218- Stark, (R. F.), An Exploration in The Hadhramut and Journey to Coast, in GJ, XCIII, 1939.

219- Shanidar Cave, Northern Iraq, Smithsonian Report Publication (1959 - 1960).

220- Woolley (L.), Excavations at Ur, London, 1963.

221- Woolley (L.), Ur of The Chaldees, London, 1965.

222- Woolley (L.), The Beginnings of Civilzation, N. Y., 1965.

223- Steindroff, (G.), Inibia, I, 1935.

224- Smith, (H. S.), The Nulian B-Group, Kush, 14, 1966.

225- Trigger, (B. G.), Nubia under th Pharaohs, London, 1976.

226- Vercoutter (J.), Excavations at Mirgissa, I, Kush, XII, 1964.

227- Vercoutter, (J.), Excavations at Sai, 1955 - 1957, Kush, 1968.

228- Vercoutter (J.), ADaggar from Kerma, Kush, VIII, 1960.

229- Vercoutter (J.), Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom, Nubia, Kush, V, 1967.

230- Vercoutter (J.), Mirgissa, I, Paris, 1970

231- Young (T C.), Smith, (P. E. L.), Research in Prehistory of Central Western Iran, in Science, 153, 1966

232- Enceyclopaedia Billica.

233- Enceyclopaedia Britannica.

234- Encyclopaedia of Islam

235- Encyclopaedia of Religion and Ethics.

236- The Jewish Encyclopaedia, N Y , 1903

المؤلف فى سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



١- ولد فى البصيلية - مركز إدفو - محافظة أسوان.

٢- حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمعهد المعلمين بقنا، حيث تخرج فيه عام ١٩٤٩م

٣- عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩ - ١٩٦٠م).

٤- حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.

٥- عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم، بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١م.

٦- حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف فى التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.

٧- عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩م.

٨- عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤م.

٩- عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩م.

١٠- أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض فى الفترة ١٩٧٣ - ١٩٧٧م.

١١- عين عضواً فى مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية فى عام ١٩٨٢م.

١٢- عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عام ١٩٨٢م.

١٣- أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة فى الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.

١٤- عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية (١٩٨٧ - ١٩٨٨م).

١٥- أختير مقرراً للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعوبية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨ - ١٩٨٩م).

١٦- عين أستاذاً متفرغاً فى كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٨٨م.

١٧- عضو لجنة التراث الحضارى والأثرى بالمجالس القومية المتخصصة.

١٨- عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية فى هيئة الآثار.

١٩- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢٠- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة فى الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.

٢١- عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين فى التاريخ.

٢٢- أشرف وشارك فى مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماجستير فى تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم فى الجامعات المصرية والعربية.

٢٣- أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢م.

٢٤- شارك فى حفائر كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى الوقف - مركز دشنا - محافظة قنا، (فى عام ١٩٨٠/ ١٩٨١م)، وفى «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ (فى عام ٨٢/ ١٩٨٣م).

٢٥- عضو اتحاد المؤرخين العرب.

٢٦- عضو مجلس إدارة إتحاد الآثاريين العرب.

٢٧- عضو نقابة السادة الأشراف بجمهورية مصر العربية

مؤلفات

الأستاذ الدكتور: محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

أولاً: فى التاريخ المصرى القديم

١- الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونيةمصر	رسالة ماجستير	الإسكندرية ١٩٦٦
٢- والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث	رسالة دكتوراه	الإسكندرية ١٩٦٩
٣- حركات التحرير فى مصر القديمة		
٤- إخناتون – عصره ودعوته		

ثانياً: فى تاريخ اليهود القديم

٥- التوراه (١)	مجلة الأسطول – العدد ٦٣	الإسكندرية ١٩٧٠
٦- التوراه (٢)	مجلة الأسطول – العدد ٦٤	الإسكندرية ١٩٧٠
٧- التوراه (٣)	مجلة الأسطول – العدد ٦٥	الإسكندرية ١٩٧٠
٨- قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة	مجلة الأسطول – العدد ٦٦	الإسكندرية ١٩٧١
٩- النقاوة الجنسية عند اليهود	مجلة الأسطول – العدد ٦٧	الإسكندرية ١٩٧١
١٠- النقاوة الجسية عند اليهود	مجلة الأسطول – العدد ٦٨	الإسكندرية ١٩٧١
١١- أخلاقيات الحرب عند اليهود	مجلة الأسطول – العدد ٦٩	الإسكندرية ١٩٧١
١٢- التلمود	مجلة الأسطول – العدد ٧٠	الإسكندرية ١٩٧٢
١٣- بنو إسرائيل – الجزء الأول –	طبعة ثالثة، منقحة مزيدة	الإسكندرية ١٩٩٩
١٤- بنو إسرائيل – الجزء الثانى –	طبعة ثالثة، منقحة مزيدة	الإسكندرية ١٩٩٩
١٥- بنو إسرائيل – الجزء الثالث –	طبعة ثالثة، منقحة مزيدة	الإسكندرية ١٩٩٩
١٦- بنو إسرائيل – الجزء الرابع –	طبعة ثالثة، منقحة مزيدة	الإسكندرية ١٩٩٩

١٧- بنو إسرائيل - الجزء الخامس -	طبعة ثالثة، منقحة مزيدة	الإسكندرية ١٩٩٩
١٨- أرض الميعاد	طبعة ثالثة، منقحة مزيدة	الإسكندرية ١٩٩٩

ثالثاً: فى تاريخ العرب القديم

١٩- الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصلى	الرياض ١٩٧٤
٢٠- مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة	الرياض ١٩٧٧
٢١- العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة	الرياض ١٩٧٦
٢٢- الديانة العربية القديمة	الإسكندرية ١٩٧٨
٢٣- العرب والفرس فى العصور القديمة	الإسكندرية ١٩٧٩
٢٤- الفكر الجاهلى	القاهرة ١٩٨٢

رابعاً: فى تاريخ العراق القديم

٢٥- قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة	الرياض ١٩٧٦
٢٦- قانون حمورابى، وأثره فى التوراه	الإسكندرية ١٩٧٩

خامساً: سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم

٢٧- الجزء الأول - فى بلاد العرب	طبعة ثالثة	الإسكندرية ١٩٩٥
٢٨- الجزء الثانى - فى مصر	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٥
٢٩- الجزء الثالث - فى بلاد الشام	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٥
٣٠- الجزء الرابع - فى العراق	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٥

ملحوظة: الطبعة الأولى فى الرياض ١٩٧٧ والثانية فى بيروت ١٩٨٨

سادساً: سلسلة: تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم

٣١- مصر - الجزء الأول	طبعة سادسة	الإسكندرية ١٩٩٥
٣٢- مصر - الجزء الثانى	طبعة سادسة	الإسكندرية ١٩٩٥
٣٣- مصر - الجزء الثالث	طبعة سادسة	الإسكندرية ١٩٩٥

٣٤- الحضارة المصرية القديمة - الجزء الأول	طبعة رابعة	الإسكندرية ١٩٩٠
٣٥- الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثانى	طبعة رابعة	الإسكندرية ١٩٩٠
٣٦- تاريخ العرب القديم - الجزء الأول	طبعة سادسة عشرة	الإسكندرية ١٩٩٤
٣٧- تاريخ العرب القديم - الجزء الثانى	طبعة سادسة عشرة	الإسكندرية ١٩٩٤
٣٨- بلاد الشام	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٠
٣٩- المغرب القديم	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٠
٤٠- العراق القديم	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٠
٤١- التاريخ والتاريخ	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٤
٤٢- السودان القديم	طبعة ثانية	الإسكندرية ١٩٩٤
٤٣- المدن الفينيقية (تاريخ لبنان القديم)	طبعة أولى	بيروت ١٩٩٤
٤٤- الحضارة العربية القديمة	طبعة ثالثة	الإسكندرية ١٩٩٦
٤٥- الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية	طبعة ثانية منقحة مزيدة	الإسكندرية ١٩٩٩
٤٦- حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الأول	طبعة أولى	الإسكندرية ١٩٩٩
٤٧- حضارة الشرق الأدنى القديم - الجزء الثانى	طبعة أولى	تحت الطبع

سابعاً: المدن الكبرى فى مصر والشرق الأدنى القديم

٤٨- الجزء الأول - مصر	طبعة أولى	الإسكندرية ١٩٩٩
٤٩- الجزء الثانى - الشرق الأدنى القديم	طبعة أولى	تحت الطبع

ثامناً: سلسلة فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين

٥٠- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول	بيروت ١٩٩٠
٥١- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثانى	بيروت ١٩٩٠
٥٢- السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث	بيروت ١٩٩٠
٥٣- السيدة فاطمة الزهراء	بيروت ١٩٩٠
٥٤- الإمام على بن أبى طالب - الجزء الأول	بيروت ١٩٩٠

٥٥- الإمام على بن [illegible] — بيروت ١٩٩٠

٥٦- الإمام الحسن بن على — بيروت ١٩٩٠

٥٧- الإمام الحسين بن على — بيروت ١٩٩٠

٥٨- الإمام على زين العابدين — بيروت ١٩٩٠

٥٩- الإمام جعفر الصادق — تحت الطبع

تاسعاً: سلسلة الإمامة وأهل البيت

٦٠- الإمامـة — بيروت ١٩٩٣

٦١- الإمامة والإمام على — بيروت ١٩٩٣

٦٢- الإمامة وخلفاء الإمام على — بيروت ١٩٩٣

عاشراً: مقالات فى مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٦٣- دراسة حول التأريخ للأنبياء — العدد ٣٩ — الإسكندرية ١٩٩٢

الإعجاز فى القرآن - دراسة فى الإعجاز التاريخ

النقاوة الجنسية عند اليهود - دراسة جديدة — العدد ٤٠ — الإسكندرية ١٩٩٣

منقحة مزيدة — العدد ٤٦ — الإسكندرية ١٩٩٧

محتويات الكتاب

الباب الأول

الباب الثانى